









**إهداء 2005**

**الأستاذ الدكتور / أحمد حمدي محسود  
القاهرة**

كتاب الشعب

# إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الثالث عشر

دار الشعب

٩٥ شارع محمد علي - القاهرة ١١٨١



## الشر الثاني

من الكتاب في الخوف

وقيه بيان حقيقة الخوف ، وبيان درجاته ، وبيان أقسام المخاوف ، وبيان فضيلة الخوف  
وبيان الأفضل من الخوف والرجاء ، وبيان دواء الخوف ، وبيان معنى سوء الخاتمة ، وبيان أحوال  
الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم ، والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق

## بيان

حقيقة الخوف

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحترافه ، بسبب توقع مكروه في الاستقبال .  
وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ، ومن أنس بالله ، وملك الحق قلبه ، وصار ابن وقته ،  
مشاهدا لجمال الحق على الدوام ، لم يبق له التفات إلى المستقبل ، فلم يكن له خوف ولا رجاء ،  
بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء ، فإنهما زمانان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتهما  
وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال : الخوف حجاب بين الله وبين العبد . وقال أيضا : إذا ظهر  
الحق على السرائر ، لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف . وبالجملة فالمحب إذا شغل قلبه  
في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق ، كان ذلك نقصا في الشهود . وإنما دوام الشهود غاية  
المقامات : ولكنا الآت إنما نتكلم في أوائل المقامات فنقول :

حال الخوف ينتظم أيضا من علم ، وحال ، وعمل . أما العلم ، فهو العلم بالسبب المفضي  
إلى المكروه . وذلك كمن جنى على ملك ، ثم وقع في يده ، فيخاف القتل مثلا ، ويجوز العفو  
والإفلات . ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله ،  
وهو تفاحش جنايته . وكون الملك في نفسه حقودا ، غضوبا ، منتقما . وكونه محفوبا بمن  
يحميه على الانتقام ، خاليا عن يتشفع إليه في حقه . وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة  
وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك . فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف ، وشدة  
تألم القلب . وبحسب ضعف هذه الأسباب ينعف الخوف . وقد يكون الخوف لاعتنا سبب

جناية قارنها الخائف ، بل عن سفة المخوف ، كالذى وقع في مغالب سبع ، فإنه يخاف  
السبع لصفة ذات السبع ، وهى حرصه وسطوته على الافتراس غالبا ، وإن كان افتراسه بالاختيار  
وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه ، كخوف من وقع في مجرى سيل ، أو جوار  
حريق ، فإن الماء يخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلا والإغراق ، وكذا النار على الإحراق  
قالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه . وذلك الإحراق  
هو الخوف . فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته  
وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع ، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة  
المعاصي ، وتارة يكون بهما جميعا . وبحسب معرفته بعبود نفسه ، ومعرفته بجلال الله تعالى  
واستغناؤه ، وأنه لا يستل عما يفعل وهم يستلون ، تكون قوة خوفه . فأخوف الناس لربه  
أعرفهم بنفسه وربه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «أَنَا أَخَوْفُكُمْ لِلَّهِ» وكذلك قال  
الله تعالى ( إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ <sup>(٢)</sup> ) . ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال  
الخوف واحترق القلب ، ثم يفيض أثر الحرقه من القلب على البدن ، وعلى الجوارح ، وعلى الصفات  
أما في البدن فبالجول ، والصفار ، والفشية ، والزعة ، والبكاء ، وقد تنشق به المראה  
فيفيض إلى الموت ، أو يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل ، أو يقوى فيورث الفئوس واليأس  
وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي ، وتقبيدها بالطاعات ، تلافيا لما فرط ، واستعدادا  
للمستقبل . ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب  
عليه . وقال أبو القاسم الحسكيم : من خاف شيئا هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه . وقيل  
لدى النون : متى يكون العبد خائفا ؟ قال إذا نزل نفسه ، نزلة السقيم الذى يحتج مخافة طول السقام  
وأما في الصفات ، فبأن يقمع الشهوات ، ويكدر اللذات ، فتصير المعاصي المحبوبة عنده  
مكروهة ، كما يصير العسل مكروها عند من يشتميه إذا عرف أن فيه سما . فتحترق الشهوات  
بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويحصل في القلب الذبول ، والخشوع ، والدلة ، والاستكانة ،

( ١ ) حديث أنا أخوفكم : البخارى من حديث أنس والله انى لا خناكم لله وانفام له ولا يشيخين من حديث عائشة والله انى لا علمهم بالله وأشد هم له خشية



ويفارقه الكبر ، والحقه : والحسد ، بل بصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لذميره ، ولا يكون له شغل إلا المراقبة ، والمحاسبة ، والمجاهدة ، والضنة بالأنفاس والالحظات ، ومؤاخذه النفس بالخطرات والخطوات والسكومات ، ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار ، لا يدري أنه يغفل عنه فيفلت ، أو يهجم عليه فيهلك . فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه ، لا متسع فيه لغيره . هذا حال من غلبه الخوف ، واستولى عليه . وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين . وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحترافه . وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله ، وبعبوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال . وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال ، أن يمنع عن المحظورات . ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا . فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم ، فكيف أيضا عما لا يتيقن تحريمه . ويسمى ذلك تقوى . إذ التقوى أن يترك ما يريه إلى ما لا يريه . وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به ، مخافة ما به بأس . وهو الصدق في التقوى ، فإذا انضم إليه التجرد للخدمة ، فصار لا يبني ما لا يسكنه ، ولا يجمع ما لا يأكله ، ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ، ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه ، فهو الصدق . وصاحبه جدير بأن يسمى صديقا . ويدخل في الصدق التقوى ، ويدخل في التقوى الورع ، ويدخل في الورع العفة ، فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة . فإذا الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ، ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة ، وهو كف عن مقتضى الشهوة . وأعلى منه الورع ، فإنه أعم ، لأنه كف عن كل محظور . وأعلى منه التقوى ، فإنه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعا . ووراء اسم الصديق والمقرب ، وتجري الرتبة الآخرة مما قبلها تجري الأخص من الأعم ، فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل ، كما أنك تقول الإنسان إما عربي وإما عجمي ، والعربي إما قرشي أو غيره ، والقرشي إما هاشمي أو غيره ، والهاشمي إما علوي أو غيره ، والعلوي إما حسني أو حسيني . فإذا ذكرت أنه حسني مثلا ، فقد وصفته بالجميع . وإن وصفته بأنه علوي ، وصفته بما هو فوقه مما هو أعم منه . فكذلك إذا قلت صديق ، فقد قلت إنه تقى ، ورع ، وعفيف فلا ينبغي أن تنظن أن كثرة هذه الأسماء تدل على معان كثيرة متباينة ، فيختلط عليك كما اختلط

على من طأب المعانى من الألفاظ ، ولم يتبع الألفاظ المعانى  
فهذه إشارة إلى مجامع معانى الخوف ، وما يكتنفه من جانب العلو ، كالمعرفة الموجبة له ،  
ومن جانب السفلى . كالأعمال الصادرة منه كفا وإفداما

## بيان

درجات الخوف واختلافه فى القوة والضعف

اعلم أن الخوف محمود ، ورنما يظن أن كل ما هو خوف محمود ، فكل ما كان أقوى وأكثر  
كان أحمد . وهو غلط : بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل ،  
لينا الوابها رتبة القرب من الله تعالى . والأصلح للبهيمة أن لا تخلص عن سوط ، وكذا الصبي .  
ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة فى الضرب . محمود . وكذلك الخوف له قصور ، وله إفراط ،  
وله اعتدال . والحمود هو الاعتدال والوسط . فأما القاصر منه فهو الذى يجرى مجرى  
رقة النساء ، يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن ، فيورث البكاء ، وتفيض الدموع . وكذلك  
عند مشاهدة سبب هائل . فإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة . فهذا  
خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع . وهو كالتضيب الضعيف الذى تضرب به دابة قوية ،  
لا يؤاها الما برحا ، فلا يسوقها إلى المقصد ، ولا يصلح لرياضتها . وهكذا خوف الناس كلهم  
إلا العارفين والعلماء . ولست أعنى بالعلماء المترسمين برسوم العلماء ، والمتسمين بأسمائهم ،  
فإنهم أبعد الناس عن الخوف . بل أعنى العلماء بالله وبأيامه وأفعاله ، وذلك مما قد عز وجوده  
الآن . ولذلك قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت ، فإنك إن قلت : لا ، كفرت ،  
وإن قلت : نعم ، كذبت . وأشار به إلى أن الخوف هو الذى يكف الجوارح عن المعاصى ، ويقيدها  
بالطاعات . وما لم يؤثر فى الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر ، لا يستحق أن يسمى خوفا  
وأما المفرط . فإنه الذى يقوى ويتجاوز حد الاعتدال ، حتى يخرج إلى اليأس والقنوط .  
وهو مذموم أيضا ، لأنه يمنع من العمل . وقد يخرج الخوف أيضا إلى المرض والضعف ،  
وإلى الولة والدهشة وزوال العقل . فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط ، وهو الحمل على  
العمل ولولا ما كان الخوف كمالا لأنه بالحقيقة نقصان ، لأن منشأ الجهل والعجز . أما الجهل ،

فإنه ليس بدرى عاقبة أمره ، ولو عرف لم يكن خائفاً ، لأن الخوف هو الذى يتردد فيه ، وأما العجز ، فهو أنه متعرض لمخذور لا يقدر على دفعه فإذا هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدى . وإنما المحمود فى نفسه وذاته هو العلم والقدرة ، وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به . وما لا يجوز وصف الله به فليس بكمال فى ذاته ، وإنما يصير محموداً بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه ، كما يكون احتمال ألم الدواء محموداً لأنه أهون من ألم المرض والموت . فما يخرج إلى القنوط فهو مدموم وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف ، وإلى الهول والدهشة وزوال العقل . وقد يخرج إلى الموت . وكل ذلك مدموم ، وهو كالضرب الذى يقتل الصبي ، والسوط الذى يهلك الدابة أو يعرضها ، أو يكسر عضواً من أعضائها . وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها ، ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضى إلى القنوط أو أحد هذه الأمور . فكل ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضى إلى المراد المقصود منه . وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مدموم . وفائدة الخوف الحذر ، والورع ، والتقوى ، والمجاهدة والعبادة ، والفكر ، والذكر ، وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى . وكل ذلك يستدعى الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل . فكل ما يقدح فى هذه الأسباب فهو مدموم

فإن قلت : من خاف فمات من خوفه فهو شهيد ، فكيف يكون حاله مدموماً ؟ فاعلم أن معنى كونه شهيداً أن له رتبة بسبب موته من الخوف ، كان لا يتأهلها لو مات فى ذلك الوقت لا بسبب الخوف . فهو بالإضافة إليه فضيلة . . فأما بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره فى طاعة الله وسلوك سبيله ، فليس بفضيلة . بل للسالك إلى الله تعالى بطريق الفكر ، والمجاهدة ، والترقى فى درجات المعارف ، فى كل لحظة رتبة شهيد وشهداء . ولو لا هذا لكانت رتبة صبي يقتل ، أو مجنون يفترسه سبع ، أعلى من رتبة نبي أوولى يموت حتف أنفه وهو محال . فلا ينبغي أن يظن هذا . بل أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى فمكل ما بطل العمر ، أو العقل ، أو الصحة التى تعطل العمر بتعطيلها ، فهو خسران ونقصان بالإضافة إلى أمور ، وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أمور أخرى ، كما كانت الشهادة فضيلة بالإضافة إلى مادونها ، لا بالإضافة إلى درجة التنين والصديقين

فإذا : الخوف إن لم يؤثر فى العمل فوجوده كعدمه ، مثل السوط الذى لا يفيذ فى حركة

الدابة . وإن أثر فله درجات بحسب ظهور أثره . فإن لم يحمل إلا على العفة ، وهى الكف من مقتضى الشهوات ، فله درجة . فإذا أثر الورع ، فهو أعلى . وأقصى درجاته أن يشر درجات الصديقين ، وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى ، حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع . فهذا أقصى ما يحمده منه . وذلك مع بقاء الصحة والعقل . فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة ، فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه . ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول . ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجوع أياما كثيرة : احفظوا عقولكم ، فإنه لم يكن لله تعالى ولي نافع العقل

## بيان

أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه . والمكروه إما أن يكون مكروها فى ذاته كالنار ، وإما أن يكون مكروها لأنه يفضى إلى المكروه ، كما تركة المعاصى لأدائها إلى مكروه فى الآخرة ، كما يكره المريض الفواكه المضرّة لأدائها إلى الموت . فلا بد لكل خائف من أن يتمثل فى نفسه مكروها من أحد القسمين ، ويقوى انتظاره فى قلبه ، حتى يحرق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه . ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة فالذين يغلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره ، كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة ، أو خوف نقص التوبة ونكث العهد ، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى ، أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة ، أو خوف الميل عن الاستقامة أو خوف استيلاء العادة فى اتباع الشهوات المأووفة ، أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التى اتكل عليها وتعزّز بها فى عباد الله ، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله ، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم ، أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحسب ، أو خوف تبعات الناس عنده فى الغيبة والخيانة ، والغش وإضرار السوء ، أو خوف ما لا يرى أنه يحدث فى بقية نهره ، أو خوف تبعات العقوبة فى الدنيا والاقتضا قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا

أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلة عنه ، أو خوف الختم له عند الموت بنقاعة السوء ، أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل ، فهذه كلها مخاوف المارقين ولكل واحد خصوص فائدة ، وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى إلى المخوف .

فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيو اطلب على الفطام عن العادة . والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوسواس . وهكذا إلى بقية الأقسام وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة ، فإن الأمر فيه مخطر . وأعلى الأقسام وأدناها على كمال المعرفة خوف السابقة ، لأن الخاتمة تتبع السابقة ، وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة . فالخاتمة تظهر ماسبق به القضاء في أم الكتاب ، والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة ، كرجلين وقع الملك في حقهما بتوقيع ، يحتمل أن يكون فيه حزن الرقبة ، ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه . ولم يصل التوقيع إليهما بعد . فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره ، وأنه عماذا يظهر ، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته ، وأنه ما الذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب . وهذا الالتفات إلى السبب ، فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع . فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلي الذي جرى بتوقيعه القلم ، أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد . وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر ، فقبض كفه اليمنى ثم قال <sup>(١)</sup> « هَذَا كِتَابُ اللَّهِ كَتَبَ فِيهِ أَهْلُ الْجَنَّةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ لَا يُرَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ » ثم قبض كفه اليسرى وقال « هَذَا كِتَابُ اللَّهِ كَتَبَ فِيهِ أَهْلُ النَّارِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ لَا يُرَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ وَلَيَعْمَلَنَّ أَهْلُ السَّعَادَةِ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ حَتَّى يُقَالَ كَأَنَّهُمْ مِنْهُمْ بَلْ هُمْ هُمْ ثُمَّ يَسْتَنْقِذُهُمُ اللَّهُ قَبْلَ الْمَوْتِ وَلَوْ بِفَوَاقِ نَاقَةِ الْيَعْمَلَنَّ أَهْلُ الشَّقَاوَةِ بِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ حَتَّى يُقَالَ كَأَنَّهُمْ مِنْهُمْ بَلْ هُمْ هُمْ ثُمَّ يَسْتَخْرِجُهُمُ اللَّهُ قَبْلَ الْمَوْتِ وَلَوْ بِفَوَاقِ نَاقَةِ السَّعِيدِ مِنْ سَعِيدِ بَقِضَاءِ اللَّهِ وَالشَّقِيِّ مِنْ شَقِي بَقِضَاءِ اللَّهِ وَالْأَعْمَالُ بِالْأَحْوَالِ » . وهذا كإقسام الخائفين إلى من يخاف مصيرته وجنائنه وإلى من يخاف

( ١ ) حديث هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم - الحديث : الترمذي من حديث

عبد الله ابن عمرو بن العاص وقال حسين صحيح غريب

• الفواق : هو ما بين الحلبتين من الراحة ، وتضم فاؤه وتفتح

الله تعالى نفسه اصفته وجلاله، وأوصافه التي تقتضى الهيبة لا محالة، فهذا على رتبة، ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصديقين وأما الآخر فهو في عرصة النور. والآمن إن واطب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين، والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين، وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى. وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جنابة. بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية، ويسر له سبيلها، ومهد له أسبابها، فإن تيسير أسباب المعصية إبعاد، ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجري عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من يسر له الطاعات، ومهد له سبيل القربات فالعاصي قد قضى عليه بالمعصية شام أم أبى، وكذا المطيع. فالذى يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أعلى، عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده، ويضع أبا جهل في أسفل سافلين من غير جنابة سبقت منه قبل وجوده، جدير بأن يخاف منه لصفة جلاله. فإن من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة، وآتاه القدرة. وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة، يصير الفعل ضروريا. والذي عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة، وآتاه الأسباب والقدرة، فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضروريا. فليت شعري ما الذى أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه، وما الذى أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه؟ وكيف يخال ذلك على العبد؟ وإذا كانت الحوائج ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جنابة ولا وسيلة، فالخوف ممن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل. ووراء هذا المعنى سر القدر الذى لا يجوز إفشاؤه

ولا يمكن تفهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بمثال، لولا إذن الشرع لم يستجريء على ذكره ذو بصيرة. فقد جاء في الخبر<sup>(١)</sup> أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود، خفى كما تخاف السبع الضارى فهذا المثل يفهمك حاصل المعنى، وإن كان لا يقف بك على سببه. فإن الوقوف على سببه وقوف على سر القدر، ولا يكشف ذلك إلا لأهله

(١) حديث أن الله تعالى أوحى إلى داود يداود خفى كما يخاف السبع الضارى: لم أجد له أصلا ولعل المصنف قصد ما يراه أنه من الأسرئليات فإنه عبر عنه بقوله جاء في الخبر وكثيرا ما يعبر بذلك عن الأسرئليات التي هي غير مرفوعة



والحاصل أن السميع يُخاف لاجنابة سبقت إليه ملك بالامسفة، وببؤسه، وسطوته، وكبره، وهيبته، ولأنه يفعل مايفعل ولا يبالي. فإن قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك، وإن خللك لم يخالك شفقة عليك وإبقاء على روحك، بل أنت عنده أخس من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا. بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك غلة عنده على وتيرة واحدة، إذ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته، وما هو موصوف به من قدرته وسطوته. ولله المثل الأعلى. ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة الظاهرة، أنه صادق في قوله هو لاء إلى الجنة ولأبلى، وهو لاء إلى النار ولأبلى. ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة الطبقة الثانية من الخائفين: أن يمثل في أنفسهم ما هو المكروه، وذلك مثل سكرات الموت وشده، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر، أو هول المطلع، أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى؛ والحياء من كشف الستر، والسؤال عن النقيير والقطمير، أو الخوف من العسراط وحدته وكيفية العبور عليه، أو الخوف من النار وأغلاها وأهوالها، أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم، وعن نقصان الدرجات، أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها، فهي لاعالة مخوفة. وتختلف أحوال الخائفين فيها وأغلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى، وهو خوف العارفين. وما قبل ذلك خوف العاملين، والصالحين، والزاهدين، وكافة العالمين. ومن لم تكمل معرفته، ولم تنفتح بصيرته، لم يشعر بلذة الوصال، ولا بألم البعد والفراق. وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار، وإنما يخاف الحجاب، وجد ذلك في باطنه منكرا وتعجب منه في نفسه، وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم؛ لولا منع الشرع إياه من إنكاره، فيكون اعترافه به باللسان عن ضرورة التقليد، وإلا فباطنه لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين، بالنظر إلى الألوان والوجوه الحسان، وبالجملة كل لذة تشارك فيها البهائم. فأمالذة العارفين فلا يدركها غيرهم، وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلاله ومن كان أهلاله استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره

فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين، نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه

# بيان

لفضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار ، وتارة بالآيات والأخبار  
أما الاعتبار فسيبيله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى  
في الآخرة . إذ لا مقصود سوى السعادة ، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه .  
فكل ما أعان عليه فله فضيلة ، وفضيلته بقدر غايته . وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله  
في الآخرة إلا بتحصيل محبته ، والأنس به في الدنيا . ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة . ولا تحصل  
المعرفة إلا بدوام الفكر . ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر . ولا تيسر المواظبة على  
الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها .  
ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات . ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف .  
فالخوف هو النار المحرقة للشهوات ، فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات ، وبقدر ما يكف  
عن المعاصي ويحث على الطاعات ، ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق . وكيف  
لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة ، والورع ، والتقوى ، والمجاهدة ، وهي الأعمال  
الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زاني . وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار ،  
فاورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر ، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين  
الهدى ، والرحمة ، والعلم ، والرضوان ، وهي مجامع مقامات أهل الجنان . قال الله تعالى  
( هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ  
الْعُلَمَاءُ <sup>(٢)</sup> ) وصفهم بالعلم لخشيته . وقال عز وجل ( رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ  
لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ <sup>(٣)</sup> ) . وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف ، لأن الخوف  
نمرة العلم . ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأما الخائفون فإن لهم  
الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه . فانظر كيف أفردهم برفيقة الرفيق الأعلى ، وذلك لأنهم العلماء والعلماء  
لهم رتبة مرافقة الأنبياء ، لأنهم ورثة الأنبياء ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يالحق بهم

(١) الأعراف : ١٥٤ (٢) فاطر : ٢٨ (٣) البينة : ٨

ولذلك <sup>(١)</sup> لما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله تعالى ، كان يقول « أَسْأَلُكَ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى » ، فإذا إن نظر إلى منوره فهو العلم ، وإن نظر إلى عمرته فالورع والتقوى ، ولا يخفى ماورد في فضائلها ، حتى أن العاقبة صارت موسومة بالتقوى ، مخصوصة بها ، كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى ، والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يقال الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين ، وقد خصص الله تعالى التقوى بالإضافة إلى نفسه ، فقال تعالى ( لَنْ يَنَالَ اللَّهُ خُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ) <sup>(٢)</sup> وإنما التقوى عبارة عن كفى بقتضى الخوف كما سبق . ولذلك قال تعالى ( إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقًا كُمْ ) <sup>(٣)</sup> ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى ، فقال تعالى ( وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ) <sup>(٤)</sup> وقال عز وجل ( وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ) <sup>(٥)</sup> فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان . فذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة التقوى <sup>(٦)</sup> « إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ فَإِذَا هُمْ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ أَفْصَاهُمْ كَمَا يُسْمِعُ أَذْنَاهُمْ فَيَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ أَنْصَتُ لَكُمْ مِنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا فَاَنْصِتُوا إِلَيَّ الْيَوْمَ إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ جَعَلْتُ نَسَبًا وَجَعَلْتُكُمْ نَسَبًا فَوَضَعْتُكُمْ نَسَبِي وَرَفَعْتُكُمْ نَسَبَكُمْ قُلْتُ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقًا كُمْ وَأَيُّكُمْ إِلَّا أَنْزَ تَقُولُوا فَلَنْ يُنْزَلَ »

( ١ ) حديث لماخير في مرض موته كان يقول أسألك الرفيق الأعلى : متفق عليه من حديث عائشة قالت كان

النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح أنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخبر فلما نزل

به ورأسه في حجرى غشى عليه ثم أفاق فأشخص ببصره الى سقف البيت ثم قال اللهم الرفيق

الأعلى فمات انه لا يختارنا وعرفت انه الحديث الذى كان يحدثنا وهو صحيح - الحديث :

( ٢ ) حديث اذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه أقصاهم كما يسمعه أذناهم

فيقول يا أيها الناس انى قد انصت اليكم منذ خلقنكم الى يومكم هذا فانصتوا الى اليوم انما

اعمالكم ترد عليكم أيها الناس انى جعلت نسبا - الحديث : الطبراني فى الأوسط والحاكم فى المستدرک

بسند ضعيف والعلامة فى التفسير مقتصر على آخره انى جعلت نسبا - الحديث : من حديث ابى هريرة

(١) الحج : ٣٧ (٢) الحجرات : ١٣ (٣) النساء : ١٣١ (٤) آل عمران : ١٧٥

ذَلِكَ وَابْنُ أَبِي بَرْزَةَ قَالَ: مَا كَانَ يَصُحُّ لَكُمْ وَأَرْفَعُ نَسَبِي أَيْ الْمَشْعُونُ؟ فَيَرْفَعُ لِلْقَوْمِ  
رُؤُوسَهُمْ فَيَبْغِ الْقَوْمَ لِقَاءَهُمْ إِلَى مَسَارِلِهِمْ فَيَذْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ»  
وقال عليه الصلاة والسلام<sup>(١)</sup> «رَأْسُ الْحِكْمَةِ خَافَةُ اللَّهِ» وقال عليه الصلاة والسلام  
لابن مسعود<sup>(٢)</sup> «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَلْقَانِي فَأَكْثِرْ مِنَ الْخَوْفِ بَعْدِي»  
وقال الفضيل: مَنْ خَافَ اللَّهَ دَلَّ الْخَوْفَ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ وقال الشبلي رحمه الله: مَا خَفْتُ  
اللَّهَ يَوْمًا إِلَّا رَأَيْتُ لَهُ بَابًا مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعِبْرَةِ مَارِئَةً قَطْ. وقال يحيى بن معاذ: مَا مِنْ مُؤْمِنٍ  
يَعْمَلُ سَيِّئَةً إِلَّا وَيَلْحَقُهَا حَسَنَتَانِ: خَوْفُ الْعِقَابِ، وَرَجَاءُ الْعَفْوِ، كَثَلَبَ بَيْنَ أَسَدِينَ  
وَفِي خَيْرٍ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: وَأَمَّا الْوَرَعُونَ فَإِنَّ أَحَدًا إِلَّا نَاقَشْتَهُ الْحِسَابَ  
وَقَشَشْتَ عِمَاقَ يَدَيْهِ، إِلَّا الْوَرَعِينَ، فَإِنِّي اسْتَحْيَى مِنْهُمْ، وَأَجْلَهُمْ أَنْ أَوْقِفَهُمُ لِلْحِسَابِ. وَالْوَرَعُ  
وَالْتَقْوَى أَسَامُ اسْتَقْتَمَتْ مِنْ مَعَانٍ شَرَطَهَا الْخَوْفُ فَإِنْ خَلَّتْ عَنِ الْخَوْفِ لَمْ تَسْمَعْ هَذِهِ الْأَسَامِ  
وَكَذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي فَضَائِلِ الذِّكْرِ لَا يَخْفَى، وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى مُخْصِصًا بِالْخَائِفِينَ. فَقَالَ  
(سَيِّدُكُمْ مَنْ يَخْشَى<sup>(١)</sup>) وَقَالَ تَعَالَى (وَلْيَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ<sup>(٢)</sup>)  
وقال صلى الله عليه وسلم «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعِزَّتِي<sup>(٣)</sup> لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ  
وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ فَإِنْ أَمِنْتَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنْ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> «مَنْ خَافَ اللَّهَ تَعَالَى خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَمَنْ خَافَ  
غَيْرَ اللَّهِ خَوَّفَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup> «أَتَمَّكُمْ عَقْلًا أَشَدُّكُمْ  
خَوْفًا لِلَّهِ تَعَالَى وَأَحْسَنُكُمْ فِيمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظَرًا»

(١) حديث رأس الحكمة خافة الله: أبو بكر بن لال الفقيه في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب وضعفه

من حديث ابن مسعود ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصح أيضا

(٢) حديث إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى قاله لابن مسعود: لم أقف له على أصل

(٣) حديث لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين: ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث

أبي هريرة ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلًا

(٤) حديث من خاف الله خافه كل شيء - الحديث: أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي أمامة

بإسناد ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين بإسناد ضعيف معضل وقد تقدم

(٥) حديث أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا - الحديث: لم أقف له على أصل ولم يصح في فضل العقل شيء

(١) الأعلى: ١٠ (٢) الرحمن: ٤٦

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله عليه : مسكين ابن آدم ، لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة . وقال ذوالنون رحمه الله تعالى : من خاف الله تعالى ذاب قلبه ، واشتد لله حبه ، وصح له به . وقال ذوالنون أيضا : ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء ، فإذا غلب الرجاء تشوش القلب . وكان أبو الحسين الضرير يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة ، لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده ، فإن انقطع زمامه هلك مع الهالكين وقيل ليحيى بن معاذ : من آمن الخلق غدا ؟ فقال : أشدهم خوفا اليوم . وقال سهل رحمه الله : لا تجدد الخوف حتى تأكل الحلال . وقيل للحسن : يا أبا سعيد ، كيف نصنع ؟ نجالس أئواما يخوفوننا حتى تسكاد قلوبنا تطير . فقال : والله إنك إن تخالط أئواما يخوفونك حتى يدركك أمن ، خير لك من أن تصحب أئواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : ما فارق الخوف قلبا إلا خرب

وقالت <sup>(١)</sup> عائشة رضي الله عنها . قلت يا رسول الله ( الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ <sup>(٢)</sup> ) هو الرجل يسرق ويذني ؟ قال « لَا بَلِ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنْهُ » . والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف ، لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه ، وضد الخوف الأمن ، كما أن ضد الرجاء اليأس . وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء ، فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له . بل نقول كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف ، لأنهما متلازمان ، فإن كل من رجح محبوبا فلا بد وأن يخاف فوته ، فإن كان لا يخاف فوته فهو إذا لا يحببه فلا يكوب بانتظاره راجيا

فالخوف والرجاء متلازمان ، يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر . نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لفعلته عنه ، وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه ، إذ المعلوم لا يرجح ولا يخاف

( ١ ) حديث عائشة قلت يا رسول الله - الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة - هو الرجل يسرق ويذني قال

لا - الحديث : الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد \* قلت بل منقطع بين عائشة وبين

عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذي وروى عن عبد الرحمن بن سعد عن أبي حازم عن أبي هريرة

(١) المؤمنون ٦٠

فإذا المحبوب الذي يوز وجوده بخور عدمه لاهالة . فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء ، وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف . والتقديزان يتقابلان لاهالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكا فيه . نعم أحد طرفي الشك قد يرجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ، وبسمى ذلك ظنا ، فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر . فإذا غلب على الظن وجود المحبوب ، قوى الرجاء وخفى الخوف بالإضافة إليه ، وكذا بالعكس ، وعلى كل حال فهما متلازمان . ولذلك قال تعالى ( وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا <sup>(١)</sup> ) وقال عز وجل ( يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا <sup>(٢)</sup> ) ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء . فقال تعالى ( مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا <sup>(٣)</sup> ) أى لا تخافون . وكثيرا ماورد في القرآن الرجاء بمعنى الخوف ، وذلك لتلازمهما ، إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلزمه

بل أقول كل ماورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية ، فإن البكاء ثمرة الخشية . فقد قال تعالى ( فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا <sup>(٤)</sup> ) وقال تعالى ( يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا <sup>(٥)</sup> ) وقال عز وجل ( أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ <sup>(٦)</sup> )

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ تَخْرُجُ مِنْ عَيْنَيْهِ دَمْعَةٌ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ رَأْسِ الذَّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ تُصِيبُ شَيْئًا مِنْ حَرٍّ وَجْهِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِذَا أَقْشَرَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَحَاتَّتْ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ مِنَ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « لَا يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَعُودَ الْآبِنُ فِي الضَّرْعِ »

(١) حديث مامن مؤمن يخرج من عينه دمعة وإن كانت مثل رأس الذباب - الحديث : الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

(٢) حديث إذا أقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه - الحديث : الطبراني والبيهقي فيه من حديث العباس بسند ضعيف

(٣) حديث لا يلبج النار عبد بكى من خشية الله - الحديث : الترمذى وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة

(١) الأنبياء : ٩٠ (٢) السجدة : ١٦ (٣) نوح : ١٣ (٤) التوبة : ٨٣ (٥) الأسراء : ١٠٩ (٦) النجم : ٥٩ - ١١



١٧ « وقال عقبه بن عامر. ما النجاة يا رسول الله ؟ قال « أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَأَلِمْ مَلَأَةً  
بَيْنَكَ وَابْنِكَ عَلَى خَطِيئَتِكَ » وقالت (٢) عائشة رضي الله عنها . قلت يا رسول الله ، أيدخل  
أحد من أمتك الجنة بغير حساب ؟ قال « نَعَمْ مَنْ ذَكَرَ ذُنُوبَهُ قَبْلِي »  
وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَا مِنْ قَطْرَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَطْرَةٍ دَفِعَ مِنْ  
خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ قَطْرَةٍ دَمِ أَهْرِيْقَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى »  
وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي عَيْنَيْنِ هَطَّالَتَيْنِ تُشْفِيَانِ بِذُرُوفِ الدَّمْعِ  
قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ الدُّمُوعُ دَمًا وَالْأَضْرَاسُ فُجْرًا » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « سَبْعَةٌ  
يُظِلُّهُمْ اللَّهُ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ » وذكر منهم رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه  
وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : من استطاع أن يبكي فليبك ، ومن لم يستطع  
فليتباك . وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول :  
بلغني أن النار لا تأكل موضعا مسته الدموع .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : ابكوا فإن لم تبكوا ، فبكاكوا ،  
فو الذي نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلته

( ١ ) حديث قال عقبه بن عامر ما النجاة يا رسول الله قال أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ - الحديث : تقدم  
( ٢ ) حديث عائشة قلت يدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكي : لم أقص له على أصله  
( ٣ ) حديث ما من قطرة أحب إلى الله من قطرة دمعة من خشية الله - الحديث : الترمذى من حديث أبي أمامة  
وقال حسن غريب وقد تقدم

( ٤ ) حديث اللهم ارزقني عَيْنَيْنِ هَطَّالَتَيْنِ تُشْفِيَانِ بِذُرُوفِ الدَّمْعِ - الحديث : الطبرانى في الكبير وفي الدعاء  
وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر باسناد حسن ورواه الحسين المروزي في زيادة على الزهد  
والرفائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مراسلا دون ذكر الله وذكر الدارقطني في العلل  
أن من قال فيه عن أبيه وهم وانما هو عن سالم بن عبد الله مراسلا قال وسالم هذا يشبه أن يكون  
سالم بن عبد الله المخاربي وليس بابن عمراتهي وما ذكره من أنه سالم المخاربي هو الذي يدل  
عليه كلام البخاري في التاريخ ومسلم في الكنى وابن أبي حاتم عن أبيه وأبي أحمد الحاكم فإن  
الراوى له عن سالم عبد الله أبو سلمة وانما ذكره والرواية عن سالم المخاربي والله أعلم نعم حكى  
ابن عساکر في تاريخه الخلاف في أن الذي يروى عن سالم المخاربي أو سالم بن عبد الله بن عمر  
( ٥ ) حديث سبعة يظلهم الله في ظله - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : ماتفرغرت عين بمائها إلالم يرهق وجه صاحبا  
قتر ولا ذلة يوم القيامة ، فإن سالت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها محاربا من النيران .  
ولوان رجلا بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة .

وقال أبو سليمان : البكاء من الخوف ، والرجاء والطرب من الشوق وقال كعب الأحمار  
رضي الله عنه : والذي نفسى بيده لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على  
وجنتى ، أحب إلى من أن أتصدق ببجل من ذهب . وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما  
لأن أدمع دمة من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار

وروي<sup>(١)</sup> عن حنظلة قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوعظنا موعظة  
رفت لها القلوب ، وذرفت منها العيون ، وعرفنا أنفسنا ، فرجعت إلى أهلى ، فدنت منى  
المرأة ، وجرى بيننا من حديث الدنيا ، فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وأخذنا فى الدنيا . ثم تذكرت ما كنا فيه ، فقلت فى نفسى قد نافقت حيث تحول عنى  
ما كنت فيه من الخوف والركة . فخرجت وجلت أنادى نافق حنظلة . فاستقبلنى أبو بكر  
الصديق رضي الله عنه فقال : كلا لم ينافق حنظلة . فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وأنا أقول نافق حنظلة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كَلَّا لَمْ يُنَافِقْ حَنْظَلَةُ »  
فقلت يا رسول الله ، كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون  
وعرفنا أنفسنا . فرجعت إلى أهلى ، فأخذنا فى حديث الدنيا ، ونسيت ما كنا عندك عليه  
فقال صلى الله عليه وسلم « يَا حَنْظَلَةُ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ أَبَدًا عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ لَصَافَحْتُمْ  
الْمَلَائِكَةَ فِي الطَّرِيقِ وَعَلَى فِرَاشِكُمْ . وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةٌ وَسَاعَةٌ »

فإذا : كل ماورد فى فضل الرجاء والبكاء ، وفضل التقوى والورع ، وفضل العلم ومذمة  
الأمّن ، فهو دلالة على فضل الخوف ، لأن جملة ذلك متعلقة به ، إما تعلق السبب ، أو تعلق المسبب

(١) حديث حنظلة كناعند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا - الحديث : وفيه نافق حنظلة - الحديث :  
وبه ولكن باحنظلة ساعة وساعة مسلم مختصرا

## بيان

أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما

اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت . وربما ينظر الناظر إليهما ، فيمتريه شك في أن الأفضل أيهما . وقول القائل الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد ، يضاهي قول القائل الخبز أفضل أم الماء . وجوابه أن يقال الخبز أفضل للجائع ، والماء أفضل للمطشان ، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب ، فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل ، وإن استويا فهما متساويان : وهذا لأن كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه . والخوف والرجاء دوا آن يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود . فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاعتذار به ، فالخوف أفضل . وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله ، فالرجاء أفضل . وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية ، فالخوف أفضل ويجوز أن يقال مطلقا الخوف أفضل ، على التأويل الذي يقال فيه الخبز أفضل من السكنجين ، إذ يعالج بالخبز مرض الجوع ، وبالسكنجين مرض الصفراء . ومرض الجوع أغلب وأكثر ، فالحاجة إلى الخبز أكثر ، فهو أفضل . فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل ، لأن المعاصي والاعتذار على الخلق أغلب

وإن نظر إلى مطلع الخوف والرجاء ، فالرجاء أفضل ، لأنه مستقى من بحر الرحمة ، ومستقى الخوف من بحر الغضب . ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضي اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب ، وليس وراء المحبة مقام ، وأما الخوف فستنده الالتفات إلى الصفات التي تقتضي العنف ، فلا تمازجه المحبة مما زجتها للرجاء

وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل . فنقول أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء ، وذلك لأجل غلبة المعاصي . فأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه ، وخفيه وجليه ، فالأصح أن يعتدل خوفه ورجاؤه . ولذلك قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا . وروي أن عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده:

يا بني ، خف الله خوفا ترى أنك لو أتيت به بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك ، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيت به بسيئات أهل الأرض غفرها لك . ولذلك قال عمر رضي الله عنه لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلا واحدا ، رجوت أن أكون أنا ذلك الرجل . ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا واحدا ، لحشيت أن أكون أنا ذلك الرجل . وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء ، واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ، ولكن على سبيل التقاوم والتساوى . فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوي خوفه ورجاؤه . فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثنى من الذين أمروا بدخول النار ، كان ذلك دليلا على اغتراره . فإن قلت : مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه ، بل ينبغي أن يغلب رجاءه كما سبق في أول كتاب الرجاء ، وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر ، ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض نقية ، وواظب على تمهدها ، وجاء بشروط الزراعة جميعها ، غلب على قلبه رجاء الإدراك ، ولم يكن خوفه مساويا لرجائه . فهكذا ينبغي أن تكون أحوال المتقين

فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله . وذلك وإن أوردناه مثالا ، فليس يضاهي ما نحن فيه من كل وجه ، لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة إذ علم بالتجربة صحة الأرض ونقاءها ، وصحة البذر ، وصحة الهواء ، وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها . وإنما مثال مسألنا بذر لم يجرب جنسه ، وقد بث في أرض غريبة لم يمهدها الزارع ولم يختبرها ، وهي في بلاد ليس يدري أتكثر الصواعق فيها أم لا . فمثل هذا الزارع وإن أدى كنهه مجهوده ، وجاء بكل مقدوره ، فلا يغلب رجاءه على خوفه . والبذر في مسألنا هو الإيمان ، وشروط صحته دقيقة ، والأرض القلب ، وخفايا خبثه وصفاته من الشرك الخفي ، والنفاق ، والرياء ، وخفايا الأخلاق فيه غامضة ، والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا ، والتفات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال ، وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة ، إذ قد يعرض من الأسباب ما لا يطاق مخالفته ، ولم يجرب مثله ، والصواعق هي أهوال سكرات الموت ، واضطراب الاعتقاد عنده ، وذلك مما لا يجرب مثله . ثم الحصاد والإدراك عند المنصرف من القيامة إلى الجنة ، وذلك لم يجرب

فمن عرف حقائق هذه الأمور ، فإن كان ضعیف القلب ، جباناً في نفسه ، غلب خوفه على رجائه لا محالة ، كما سيحكي في أحوال المنافقين من الصحابة والتابعين . وإن كان قوي القلب ، ثابت الجأش ، تام المعرفة ، استوى خوفه ورجاؤه ، فأما أن يغلب رجاءه فلا ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه ، حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئاً ، إذ كان قد خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> بعلم المنافقين . فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي ؟ وإن اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه ، وإخفاء عيبه عنه وإن وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة ؟

وقد قال صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « إِنْ الرَّجُلَ لَيَعْمَلْ عَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَمْسِينَ سَنَةً حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا شِبْرٌ » وفي رواية « إِنْ لَقِدْرٌ فُوقَ نَاقَةٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَنْخُتُمْ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، وَقَدَرُ فُوقَ النَّاقَةِ لَا يَحْتَمِلُ عَمَلًا بِالْجَوَارِحِ ، إِنَّمَا هُوَ عَقْدَارٌ خَاطِرٌ يَخْتَلِجُ فِي الْقَلْبِ عِنْدَ الْمَوْتِ ، فَيَقْتَضِي خَاتِمَةَ السُّوءِ . فَكَيْفَ يُؤْمِنُ ذَلِكَ ؟

فإذا أقصى غايات المؤمن أن يمتدل خوفه ورجاؤه . وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة . ولذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى ( يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا<sup>(١)</sup> ) وقال عز وجل ( وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا<sup>(٢)</sup> ) وأين مثل عمر رضي الله عنه ؟

فالخلق الموجودون في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط أن لا يخرجهم

( ١ ) حديث أن حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين : مسلم من حديث حذيفة في أمهاني

اثنا عشر مناقباً عامه لا يدخلون الجنة حتى يبلغ الجمل في سم الحياط - الحديث :

( ٢ ) حديث أن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا شبر وفي رواية

الاقدر فواق ناقة - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة أن الرجل يعمل الزمن الطويل

يعمل أهل الجنة ثم يختم له بعمل أهل النار والبرار والطبراني في الأوسط سبعين سنة واسناده

حسن وللشيخين في اثنا عشر حديث لابن مسعود أن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون

بينه وبينها إلا ذراع - الحديث : ليس فيه تقدير زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر شبر ولا فواق ناقة

وقد قيل في خوف الله ، وقبح الظلم من المنفرة ، فيكون ذلك سبباً للتكامل عن العمل ، وداعياً إلى الانتهاب في المعاصي ، فإن ذلك قنوط وليس بخوف . إنما الخوف هو الذي يبحث على العمل ، ويكدر جميع الشهوات ، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ، ويدعوه إلى التحافي عن دار الغرور ، فهو الخوف المحمود . دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ، ودون اليأس الموجب للقنوط

وقد قال يحيى بن معاذ : من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار ، ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محبة الادكار . وقال مكحول الدمشقي . من عبد الله بالخوف فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء فهو مرجيء ، ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد فإذا لابد من الجمع بين هذه الأمور ، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت . أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن ، لأن الخوف جار مجري السوط الباعث على العمل ، وقد انقضى وقت العمل . فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطبق أسباب الخوف ، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ، ويعين على تعجيل موته . وأما روح الرجاء فإنه يقوى قلبه ، ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاءه

ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا بحب الله تعالى ، ليكون محباً للقاء الله تعالى . فإن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . والرجاء تقارنه المحبة . فمن ارتجى كرمه فهو محبوب والمقصود من العاوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى ، حتى تثمر المعرفة المحبة ، فإن المصير إليه ، والقُدوم بالموت عليه . ومن قدم على محبوه عظم سروره بقدر محبته ، ومن فارق محبوه اشتدت محنته وعذابه

فهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل ، والولد ، والمال ، والمسكن والعقار ، والرفقاء . والأصحاب ، فهذا رجل محابه كلها في الدنيا ، فالدنيا جنته إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب . فموته خروج من الجنة ، وحيلولة بينه وبين ما يشتهي . ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهي

فإذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى ، وسوى ذكره ، ومعرفته ، والفكر فيه ، والدنيا



وعلائقها شاغة له عن المحبوب ، فالدنيا إذا سجنه ، لأن السجن عبارة عن البقرة المسائمة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه ، فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن . ولا يخفى حال من أفلت من السجن ، وخلي بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب ، فضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين ، مما لم تره عين ، ولم تسمع أذن ، ولا خطر على قلب بشر ، وفضلاً عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، ورضوا بها ، واطمأنوا إليها ، من الأنسكال ، والسلاسل . والأغلال ، وضروب الخزي والنكال ، فנסأل الله تعالى أن ينوفانا مسلمين ، ويلحقنا بالصالحين

ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا باكتساب حب الله تعالى ، ولا سبيل إليه إلا بإخراج حب غيره من القلب ، وقطع الملائق عن كل ماسوى الله تعالى من جاه ، ومال ، ووطن فالأولى أن ندعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ وَحُبَّ مَا يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ وَاجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَلْمَاءِ الْبَارِدِ » والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح ، لأنه أجلب للمحبة . وغلبة الخوف قبل الموت أصلح ، لأنه أحرق لنار الشهوات ، وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ » وقال تعالى : أنا عند ظن عبدي بي . فليظن بي ما شاء . ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة ، قال لابنه : يا بني ، حدثني بالرخص ، واذكر لي الرجاء ، حتى ألقى الله على حسن الظن به . وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة ، واشتد جزعه ، جمع العلماء حوله يرجونه . وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه لابنه عند الموت : اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن

والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام ، أن حبيبي إلى عبادي . فقال بماذا ؟ قال بأن تذكر لهم آلائي ونعمائي فإذا غاية السعادة أن يموت محباً لله تعالى ، وإنما تحصل المحبة بالمعرفة ، وبإخراج حب الدنيا

( ١ ) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك - الحديث - الترمذي من حديث معاذ وتقدم في الأذكار والدعوات

( ٢ ) حديث لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه : مسلم من حديث جابر وقد تقدم

من القلب ، حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب . ولذلك رأى بعض الصالحين  
أبا سليمان الداراني في المنام وهو يطير ، فسأله ، فقال الآن أفلت . فلما أصبح سأل عن حاله ،  
فقال له إنه مات البارحة

## بيان

الدواء الذي به يستجلب حال الخوف

اعلم أن ما ذكرناه في دواء الصبر ، وشرحناه في كتاب الصبر والشكر ، هو كاف في هذا  
الغرض . لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء . لأن أول مقامات الدين اليقين  
الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى ، وباليوم الآخر ، والجنة ، والنار . وهذا اليقين  
بالضرورة يهيج الخوف من النار ، والرجاء للجنة . والرجاء والخوف يقويان على الصبر .  
فإن الجنة قد حفت بالمكاره ، فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء ، والنار قد حفت بالشهوات  
فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف . ولذلك قال علي كرم الله وجهه . من اشتاق إلى الجنة  
سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات . ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد  
من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة ، والتجرد لذكر الله تعالى ، والفكر فيه على الدوام .  
ويؤدي دوام الذكر إلى الأنس ، ودوام الفكر إلى كمال المعرفة . ويؤدي كمال المعرفة والأنس  
إلى المحبة ، ويتبعها مقام الرضا ، والتوكل ، وسائر المقامات . فهذا هو الترتيب في سلوك  
منازل الدين . وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ، ولا بعدهما مقام سوى  
الصبر ، وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهراً وباطناً . ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق  
إلا الهداية والمعرفة ، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والأنس ، ومن ضرورة المحبة الرضا  
بفعل المحبوب ، والثقة بعنايته ، وهو التوكل . فإذا فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية ، ولكننا  
نفرد الخوف بكلام جملي فنقول :

الخوف يحصل بطريقتين مختلفتين . أحدهما أعلى من الآخر . ومثاله أن الصبي إذا كان  
في بيت ، فدخل عليه سبع أوحية ، ربما كان لا يخاف ، وربما مد اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها

ولكن إذا كان معه أبوه وهو عاقل ، خاف من الحية وهرب منها . فإذا نظر الصبي إلى أبيه وهو ترتد فرائصه ، ويحتال في الهرب منها ، قام معه ، وغلب عليه الخوف ، وواقفه في الهرب . فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية ، وسمها ، وخاصيتها ، وسطوة السبع ، وبطشه ، وقلة مبالاته . وأما خوف الابن في إيمان بمجرد التقليد ، لأنه يحسن الظن بأبيه ، ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب يخوف في نفسه . فيعلم أن السبع مخوف ، ولا يعرف وجهه وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين . أحدهما الخوف من عذابه ، والثاني الخوف منه . فأما الخوف منه ، فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضى الهيبة ، والخوف ، والحذر ، المطاعين على سر قوله تعالى ( وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ <sup>(١)</sup> ) وقوله عز وجل ( اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ <sup>(٢)</sup> )

وأما الأول فهو خوف عموم الخلق ، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار ، وكونهما جزأين على الطاعة والمعصية ، وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان ، وإنما تزول الغفلة بالتذكير ، والوعظ ، وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة ، وأصناف المذاب في الآخرة وتزول أيضا بالنظر إلى الخائفين ، ومجالستهم ، ومشاهدة أحوالهم . فإن فانت المشاهدة فالسمع لا يخلو عن تأثير .

وأما الثاني وهو الأعلى ، فإن يكون الله هو المخوف ، أعنى أن يخاف البعد والحجاب عنه ، ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى ، خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لحي . وهذه خشية العلماء حيث قال الله تعالى ( إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ <sup>(٣)</sup> ) ولموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ، ولكن هو بمجرد التقليد ، يضاهي خوف الصبي من الحية تقليدا لأبيه ، وذلك لا يستند إلى بصيرة ، فلا جرم يضعف ويحول على قرب . حتى أن الصبي ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية ، فينظر إليه ويفتر به ، فيتجراً على أخذها تقليدا له ، كما احترز من أخذها تقليدا لأبيه . والمقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام ، وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار

(١) آل عمران ٢٨ (٢) آل عمران ١٠٢ (٣) فاطر : ٢٨

فلذا من ارتقى إلى ذروة المعرفة ، وعرف الله تعالى ، خافه بالضرورة ، فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف ، كما أن من عرف السبع ، ورأى نفسه واقفا في مخالبه ، لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه ، بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام . خفى كما تخاف السبع الضارى . ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضارى إلا معرفة السبع ، ومعرفة الوقوع في مخالبه ، فلا يحتاج إلى حيلة سواء . فمن عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالي ، وبحكم ما يريد ولا يخاف ، قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة ، وأبعد إبليس من غير جريمة سائلة . بل صفته ما ترجمه قوله تعالى . هو لاء في الجنة ولا أبالي ، وهو لاء في النار ولا أبالي . وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على معصية ولا يثيب إلا على طاعة ، فتأمل أنه لم يعد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يعد العاصي بدواعي المعصية حتى يعصى شاء أم أبى ، فإنه مهما خلق الغفلة ، والشهوة ، والقدرة على قضاء الشهوة ، كان الفعل واقعا بالضرورة فإن كان أبده لأنه عصاه ، فلم حمله على المعصية . هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية ، أو يقف لا محالة على أول لاعة له من جهة العبد ، بل قضى عليه في الأزل وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال <sup>(١)</sup> « اِخْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ رَبِّهِمَا فَخَجَّ آدَمُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ مُوسَى أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَفَتَحَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ فَقَالَ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَابَ فِيهَا تَبَيَّنَ كُلُّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجْمِيًّا فَبِكُمْ وَجَدْتَ اللَّهُ كَتَبَ التَّوْرَةَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ قَالَ مُوسَى يَا رَبِّعِينَ عَامًا قَالَ آدَمُ فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَعَوَى قَالَ نَعَمْ قَالَ أَقْتُلُونِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أَعْمَلَهُ وَقَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي يَا رَبِّعِينَ سَنَةً » قال صلى الله عليه وسلم « فَخَجَّ آدَمُ مُوسَى »

فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية ، فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر . ومن سمع هذا فأمن به وصدق بمجرد السماع ، فهو من عموم

(١) حديث احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بالفاظ أخر

المؤمنين . ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف ، فإن كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة ، وقوع الصبي الضعيف في مغالب السبع . والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه ، وقد يهجم عليه فيفتريسه ، وذلك بحسب مايتفق . ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ، ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سمي اتفاقا ، وإن أضيف إلى علم الله لم يجوز أن يسمى اتفاقا . والواقع في مغالب السبع لوكلت معرفته لسكان لا يخاف السبع ، لأن السبع مستغرب إن سلط عليه الجوع افترس ، وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك . فإنما يخاف خالق السبع وخالق صفاته . فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع ، بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى ، لأن المهلك بواسطة السبع هو الله فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا ، وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب ، وخلق لكل واحد أهلا ، يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الأزلي إلى ما خلق له فخلق الجنة وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شاء أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شاء أم أبوا . فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة . فهذه مخاوف العارفين بسر القدر . فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار ، فسبيله أن يمالج نفسه بسماع الأخبار والآثار ، فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم ، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المفرورين ، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء . وأما الآمنون فهم الفراغة ، والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> فهو سيد الأولين والآخرين ، <sup>(٢)</sup> وكان أشد الناس خوفا ، حتى روي <sup>(٣)</sup> أنه كان يصلى على طفل ، فتى رواية أنه سمع في دعائه يقول « اللَّهُمَّ قِهِ عَذَابَ الْقَبْرِ وَعَذَابَ النَّارِ » وفي رواية ثانية <sup>(٤)</sup> أنه سمع قائلا يقول : هنيئلك

( ١ ) حديث كان سيد الأولين والآخرين : مسلم من حديث أبي هريرة أناسيد ولدآدم ولاخر - الحديث :

( ٢ ) حديث كان اشد الناس خوفا : تقدم قبل هذا بخمسة وعشرين حديثا قوله والله انى لأخشاكم لله وقوله والله انى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية

( ٣ ) حديث انه كان يصلى على طفل فسمع في دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار : الطبرانى فى الأوسط من حديث انس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي اوصية وقال لو كان احدنا من ضمة القبر لنجاهذا الصبي واخفاف فى اسناده فرواه فى الكبير من حديث ابى ايوب ان صبيادفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أفات احد من ضمة القبر لأقلت هذا الصبي

( ٤ ) حديث انه سمع قائلا يقول لطفل مات هنيئلك غصص من مصافير الجنة فغضب وقال ما يدريك - الحديث :

عصفور من عصافير الجنة ، فغضب وقال « مَا يُدْرِيكَ أَنَّهُ كَذَلِكَ وَاللَّهِ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَمَا أَدْرِي مَا يُصْنَعُ بِي إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ » وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة (١) عثمان بن مظعون ، وكان من المهاجرين الأولين ، لما قالت أم سلمة هنيئًا لك الجنة . فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لأزكي أحدا بضد عثمان

١ وقال محمد بن خولة الحنفية : والله لأزكي أحدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأبي الذي ولدني . قال فثارت الشيعة عليه ، فأخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه . وروى في حديث آخر ، عن (٢) رجل من أهل الصفة استشهد ، فقالت أمه هنيئًا لك عصفور من عصافير الجنة ، هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقلنت في سبيل الله . فقال صلى الله عليه وسلم « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَنْفَعُهُ وَيَمْنَعُ مَا لَا يَضُرُّهُ » وفي حديث آخر ، أنه (٣) دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل ، فسمع امرأة تقول : هنيئًا لك الجنة . فقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ هَذِهِ الْمُتَنَالِيَةُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ؟ » فقال المريض : هي أمي يا رسول الله . فقال « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ قُلَانَا كَانَتْ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا يَنْفَعُهُ وَيَمْنَعُ مَا لَا يَضُرُّهُ »

وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول (٤) « شَيْئَانِي هُوَذُ »

مسلم من حديث عائشة قالت توفي جبي فقلنت طوبى له عصفور من عصافير الجنة - الحديث : وليس فيه غضب وقد تقدم

( ١ ) حديث لما توفي عثمان بن مظعون قالت أم سلمة هنيئًا لك الجنة - الحديث : البخاري من حديث أم العلاء الانصارية وهي القاتلة لرحمة الله عليك أبا السائب فشهدا حتى عليك لقد أكرمك الله قال وما يدريك الحديث : وورد أن التي قالت ذلك أم خارجة بن زيد . ولم أجد فيه ذكر أم سلمة

( ٢ ) حديث أن رجلا من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئًا لك عصفور من عصافير الجنة - الحديث : أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ أن أمه قالت هنيئًا لك يا بني الجنة ورواه البيهقي في الشعب لأنه قال فقالت أمه هنيئًا لك الشهادة وهو عند الترمذي لأنه قال أن رجلا قال له انشر بالجنة وقد تقدم في ذم المال والبخل مع اختلاف

( ٣ ) حديث دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئًا لك الجنة - الحديث : تقدم أيضا

( ٤ ) حديث شينئى هود وأخواتها - الحديث : الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وهو في النجاشي من حديث أبي حنيفة وقد تقدم في كتاب السماع

وَأَخْوَأْتُمْهُمَا سُورَةُ الْوَاقِعَةِ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ، فقال العلماء لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد ، كقوله تعالى ( أَلَا بُعْدًا لِعَدِ قَوْمِ هُودٍ <sup>(١)</sup> ) ( أَلَا بُعْدًا لِنُحُودٍ <sup>(٢)</sup> ) ( أَلَا بُعْدًا لِلَّذِينَ كَذَبُوا بِعَهْدِ نُحُودٍ <sup>(٣)</sup> ) مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا ، إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها

وفي سورة الواقعة ( لَيْسَ لَوْ فُتِحَ كَذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ <sup>(٤)</sup> ) أى جف القلم بما هو كائن ، وتمت السابقة ، حتى نزلت الواقعة ، إما خافضة قوما كانوا مرفوعين في الدنيا ، وإما رافعة قوما كانوا مخفوضين في الدنيا

وفي سورة التكوين أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة ، وهو قوله تعالى ( وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مِمَّا أُخْضِرَتْ <sup>(٥)</sup> )

وفي عم يتساءلون ( يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ <sup>(٦)</sup> ) الآية ، وقوله تعالى ( لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا <sup>(٧)</sup> )

والقرءان من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر . ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى ( وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى <sup>(٨)</sup> ) لكان كافيا ، إذ على المنفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن أحادها . وأشد منه قوله تعالى ( فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَقَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ <sup>(٩)</sup> ) وقوله تعالى ( لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ <sup>(١٠)</sup> ) وقوله تعالى ( سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ ثَقَلَانٍ <sup>(١١)</sup> ) وقوله عز وجل ( أَقَامِنُوا مَكْرَ اللَّهِ <sup>(١٢)</sup> ) الآية وقوله ( وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ <sup>(١٣)</sup> ) وقوله تعالى ( يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا <sup>(١٤)</sup> ) الآية وقوله تعالى ( وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا <sup>(١٥)</sup> ) الآية وقوله ( اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ <sup>(١٦)</sup> ) الآية وقوله ( مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ <sup>(١٧)</sup> ) الآية وقوله ( قَنْ يَفْعَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ <sup>(١٨)</sup> ) الآية وقوله تعالى ( وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ <sup>(١٩)</sup> )

(١) هود : ٦٠ (٢) هود : ٦٨ (٣) هود : ٩٥ (٤) الواقعة : ٢ ، ٣ (٥) التكوين : ١٢ - ١٤  
(٦) النبأ : ٤٠ (٧) النبأ : ٣٨ (٨) طه : ٨٣ (٩) القصص : ٦٧ (١٠) الأحزاب : ٨ (١١) الرحمن : ٣١  
(١٢) الأعراف : ٩٩ (١٣) هود : ١٠٢ (١٤) صريم : ٨٥ (١٥) صريم : ٧١ (١٦) فصلت : ٤٠  
(١٧) البورى : ٢٠ (١٨) الزلزال : ٧ (١٩) الفرقان : ٢٣

الآية، وكذلك قوله تعالى (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُ خَاسِرٌ<sup>(٢٠)</sup>) إلى آخر السورة، فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران

وإنما كان خوف الأنبياء مع مافاض عليهم من النعم، لأنهم لم يأمّنوا مكر الله تعالى، ولا يأمّن مكر الله إلا القوم الخاسرون، حتى روي<sup>(١)</sup> أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى، فأوحى الله إليهما لم تبكيا وقد أمتكما؛ فقالا: ومن يأمّن مكره! وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب، وأنه لا ووقوف لهما على غاية الأمور لم يأمنا أن يكون قوله قد أمتكما ابتلاء وامتحانا لهما، ومكرا بهما، حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمتا من المكر، وما وفيا بقولهما

كما أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع في المنجنيق، قال حسبي الله. وكانت هذه من الدعوات العظام، فامتحن وعرض بجبريل في الهواء، حتى قال ألك حاجة؟ فقال أما إليك فلا. فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله. فأخبر الله تعالى عنه فقال (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى<sup>(٢١)</sup>) أي بموجب قوله حسبي الله

وبمثل هذا أخبر عن موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال (إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِنَا قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى<sup>(٢٢)</sup>) ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة، إذ لم يأمّن مكر الله، والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل (لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى<sup>(٢٣)</sup>)

ولما ضعفت شوكة المسلمين<sup>(٢٤)</sup> يوم بدر، قال صلى الله عليه وسلم «اللَّهُمَّ إِنَّ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ لَمْ يَبْقَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ يَعْبُدُكَ» فقال أبو بكر رضي الله عنه: دع عنك مناشدتك ربك، فإنه واف لك بما وعدك. فكان مقام الصديق رضي الله عنه مقام الثقة بوعد الله، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله، وهو أتم

(١) حديث أنه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل فأوحى الله إليهما لم تبكيا - الحديث: ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمرو رويناه في مجلس من أمالي أبي سعيد النفاس بسند ضعيف  
(٢) حديث قال يوم بدر اللهم ان تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحدي يدك - البخاري من حديث ابن عباس بلفظ اللهم ان شئت لم تعبد بعد اليوم - الحديث :

(٢٠) العصر : ١ ، ٢ (٢١) النجم : ٣٧ (٢٢) طه : ٤٥ ، ٤٦ (٢٣) طه : ٦٨



، لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ، ومعاني صفاته التي يعبر  
عن بعض ما يصدر عنها بالمسكر . وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى .  
ومن عرف حقيقة المعرفة ، وقصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور ، عظم خوفه  
لأحواله ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم ، لما قيل له ( أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ  
إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ  
قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ <sup>(١)</sup> ) وقال ( إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ  
عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ <sup>(٢)</sup> ) الآية ، فوض الأمر إلى المشيئة ، وأخرج نفسه بالسكينة من  
البين ، لعلمه بأنه ليس له من الأمر شيء ، وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطاً يخرج عن  
حد المعقولات والمألوفات ، فلا يمكن الحكم عليها بقياس ، ولا حدس ؛ ولا حساب ،  
فضلاً عن التحقيق والاستيقان

وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين ، إذ الطامة الكبرى هي ارتباط أمرك بمشيئة من  
لا يبالي بك إن أهلكك ، فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ، ولم يزل في الدنيا يعضدهم بأنواع  
الآلام والأمراض ، ويعرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ، ثم يخلد المقاب عليهم أبد  
الآباد ، ثم يخبر عنه ويقول ( وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَكُنْ هُتًى لَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي  
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ <sup>(٣)</sup> ) وقال تعالى ( وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ  
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ <sup>(٤)</sup> ) الآية

فكيف لا يخاف ما حق من القول في الآزل ، ولا يطمع في تداركه . ولو كان الأمر  
أنفكا لكانت الأطماع تمتد إلى حيلة فيه ، ولكن ليس إلا التسليم فيه ، واستقرار خفي السابقة  
من جلي الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح . فمن يسرت له أسباب الشر ، وحيل يده  
وبين أسباب الخير ، وأحكمت علاقته من الدنيا ، فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة  
التي سبقت له بالشقاوة . إذ كل ميسر لما خلق له . وإن كانت الخيرات كلها ميسرة  
والقلب بالسكينة عن الدنيا منقطعا ، وبظاهره وباطنه على الله مقبلا ، كان هذا يقتضي تحقيق  
الخوف ، لو كان الدوام على ذلك موثوقا به . ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيدان

(١) المائدة : ١١٦ (٢) المائدة : ١١٨ (٣) السجدة : ١٣ (٤) هود : ١١٩

الخوف إسماعلا ، ولا يمكنها من الانطفاء . وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن القلب أشد تقبلا من القدر في غليانها . وقد قال مقلب القلوب عز وجل ( إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ خَيْرٌ مِّمَّا يُؤْمِنُونَ )<sup>(١)</sup>

فأجهل الناس من آمنه وهو ينادى بالتحذير من الأمن . ولولا أن الله لطيف بعباده العارفين ، إذ روح قلوبهم بروح الرجاء ، لا احترقت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء وحة لخواص الله ، وأسباب النفلة رحمة على عوام الخلق من وجهه ، إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس ، وتقطعت القلوب ، من خوف مقلب القلوب . قال بعض العارفين : لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة اسطوانة ، فأت ، لم أقطع له بالتوحيد لأنني لأدري ماظهر له من القلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار ، والموت على الإسلام عند باب الحجرة ؛ لاخترت الموت على الإسلام ، لأنني لأدري مايمرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار .

وكان أبو الدرداء يحلف بالله ماأحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة ، وعند كل حركة . وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال ( وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ )<sup>(٢)</sup>

ولما احتضر سفيان جمل يبكي ويجزع ، فقيل له : ياأبا عبد الله عليك بالرجاء ، فإن عفو الله أعظم من ذنوبك . فقال : أو على ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن أتق الله بأمثال الجبال من الخطايا

وحكي عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه فقال : إذا حضرته الوفاة ، فاقعد عند رأسي ، فإن رأيتني مت على التوحيد ، فخذ جميع ماأملكه ، فاشترى به لوزا وسكرا ، وانثره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس المنقات . وإن مت على غير التوحيد . فأعلم الناس بذلك حتى لايعتروا بشهود جنازتي ، ليحضر جنازتي من أحب علي بصيرة ، لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة . قال وبم أعلم ذلك ؟ فذكر له علامة . فرأى علامة التوحيد عند موته ، فاشترى السكر واللوز وفرقه

وكان سهل يقول : المرید یخاف أن یبتلى بالمعاصى ، والعارف یخاف أن یبتلى بالكفر  
وكان أبو یزید یقول : إذا توجهت إلى المسجد کأن فی وسطی زنارا ، أخاف أن یذهب بى  
إلى البیعة ، وبيت النار ، حتى أدخل المسجد ، فینقطع عنى الزنار ، فهذا لى فى كل یوم خمس مرات  
وروي عن المسيح علیه الصلاة والسلام أنه قال : یامعشر الحواریین ، أتم تخافون المعاصى  
ونحن معاشر الأنبیاء نخاف الکفر . وروي فی أخبار الأنبیاء ، أن نبیا شکا إلى الله تعالى  
الجوع ، والقمل ، والعري سنین . وكان لباسه الصوف . فأوحى الله تعالى إليه : عبدی ، أما  
رضیت أن عصمت قلبك أن تکفر بى ، حتى تسألنى الدنيا ؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه  
وقال : بلى قد رضیت یارب ، فاعصنى من الکفر

فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة إيمانهم من سوء الخاتمة  
فكيف لا یخافه الضعفاء !

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت ، مثل البدعة ، والنفاق ، والكبر ، وجملة من  
الصفات المذمومة ، ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق ، حتى قال الحسن : لو أعلم أنى  
برئ من النفاق كان أحب إلى مما طلعت علیه الشمس . وما عنوا به النفاق الذى هو ضد  
أصل الإیمان ، بل المراد به ما یجتمع مع أصل الإیمان ، فیکون مسلما منافقا ، وله علامات  
كثيرة . قال صلى الله علیه وسلم <sup>(١)</sup> « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ خَالِصٌ وَإِنْ صَلَّى  
وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنْهُنَّ شُعْبَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا  
مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا ائْتَمَنَ خَانَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » وفى لفظ  
آخر « وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ »

وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا یخلو عن شىء منه إلا صديق ، إذ قال  
الحسن : إن من النفاق اختلاف السر والعلاية ، واختلاف اللسان والقلب ، واختلافه  
المدخل والمخرج . ومن الذى یخلو عن هذه المعانى ؟ بل صارت هذه الأمور مألوفا بين

( ١ ) حديث أربع من كن فيه فهو منافق - الحديث : متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر  
مقدّم تقدم فى قواعد العقائد

الناس فعنادة ، وليسى كونها منكرا بالكلمة ، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة ، فكيف الظن بزماننا ؟ حتى قال <sup>(١)</sup> حذيفة رضي الله عنه . إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيصير بها منافقا ، إني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات . وكان <sup>(٢)</sup> أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر ، كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر . وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتي مثله ، وأن تحب على شيء من الجور وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل : من النفاق أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك وقال <sup>(٣)</sup> رجل لابن عمر رحمه الله : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون فإذا خرجنا تسكمتا فيهم . فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروي أنه <sup>(٤)</sup> سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه ، فقال أرايت لو كان الحجاج حاضرا ، أكنت تتكلم بما تسكمت به ؟ قال لا . قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشد من ذلك ما روي <sup>(٥)</sup> أن نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه ، فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه . فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه . فقال تسكّموا فيما كنتم تقولون . فسكتوا . فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق ، وكان يقول إنه يأتي على القلب ساعة يعتلى بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبره ، ويأتي عليه ساعة

( ١ ) حديث حذيفة إن الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقا

الحديث : أحمد من حديث حذيفة وقد تقدم في قواعد العقائد

( ٢ ) حديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر

الحديث : البخاري من حديث أنس وأحمد والبرار من حديث أبي سعيد وأحمد والحاكم

من حديث عبادة بن قرص ومصحح أسناده وتقدم في التوبة

( ٣ ) حديث قال رجل لابن عمر أنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون - الحديث : رواه أحمد

والطبراني وقد تقدم في قواعد العقائد

( ٤ ) حديث سمع ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال أرايت لو كان الحجاج حاضرا - الحديث :

تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج

( ٥ ) حديث أن نفرا قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه فلما خرج سكتوا

الحديث : لم أجد له أصلا

يتملى بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرر إبرة  
 فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الخاتمة ، وأن سببه أمور تتقدمه ، منها  
 البدع ، ومنها المعاصي ، ومنها النفاق . ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك ؟ وإن ظن  
 أنه قد خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل : من أمن النفاق فهو منافق : وقال بعضهم لبعض  
 العارفين . إني أخاف على نفسى النفاق ، فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق . فلا يزال  
 العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة ، خائفا منهما . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم  
 « الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ بَيْنَ خَافَتَيْنِ بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ فِيهِ وَبَيْنَ  
 أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ قَاضٍ فِيهِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَشَبٍ  
 وَلَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إِلَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ » والله المستعان

## بيان

معنى سوء الخاتمة

فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة ، فما معنى الخاتمة  
 فاعلم أن سوء الخاتمة على ربتين ، إحداها أعظم من الأخرى  
 فأما الرتبة العظيمة الهائلة ، فإن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله  
 إما الشك ، وإما الجحود ، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك ، فيكون ما غلب على القلب  
 من عقدة الجحود حجابا بينه وبين الله تعالى أبدا ، وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب الخلد  
 والثانية وهي دونها ، أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا ، وشهوة  
 من شهواتها ، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه ، حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره ، فيتفق  
 قبض روحه في تلك الحال ، فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه إلى الدنيا ، وصار فاق وجهه  
 إليها . ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ، ومهما حصل الحجاب نزل  
 العذاب ، إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه . فأما المؤمن السليم قلبه عن حب

( حديث العبد المؤمن بين خافتين من أجل قدمضى - الحديث : البيهقي في الشعب من رواية الحسن  
 عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم في ذم الدنيا ذكره ابن المبارك في كتاب  
 الزهد بلاغا وذكره صاحب الفردوس ، عن حديث جابر ولم يخرج له ولده في مسند الفردوس )

الدنيا، المصروف همه إلى الله تعالى، فتقول له النار : جُزْ يامؤمن ، فإن نورك قد أطفأ لهبي  
فهما اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا فالأمر خطر ، لأن المرء يموت على ما عاش  
عليه ، ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه . إذ  
لا تصرف في القلوب إلا بأعمال الجوارح ، وقد بطلت الجوارح بالموت ، فبطلت الأعمال  
فلا مطمع في عمل ، ولا مطمع في رجوع إلى الدنيا ليتدارك . وعند ذلك تعظم الحسرة  
إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب مدة طويلة ، وتأكد  
ذلك بالأعمال الصالحة ، فإنه يحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له عند الموت . فإن  
كان إيمانه في القوة إلى حد مثقال ، أخرجه من النار في زمان أقرب وإن كان أقل من ذلك ، طال  
مكثه في النار . ولو لم يكن إلا مثقال حبة ، فلا بد وأن يخرج من النار ولو بعد آلاف سنين  
فإن قلت : فما ذكرته يقتضي أن تسرع النار إليه عقيب موته ، فما باله يؤخر إلى يوم  
القيامة ، ويعمل طول هذه المدة .

فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى ، وعن نور  
القرآن ونور الإيمان . بل الصحيح عند ذوى الأبصار ما صححت به الأخبار ، وهو أن<sup>(١)</sup>  
القبر إما حفرة من حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة .<sup>(٢)</sup> وأنه قد يفتح إلى قبر المعذب  
سبعون باباً من الجحيم كما وردت به الأخبار ، فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان  
قد شقي بسوء الخاتمة . وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات . فيكون<sup>(٣)</sup> سؤال  
منكرو ونكير عند الوضع في القبر ،<sup>(٤)</sup> والتعذيب بعده ، ثم<sup>(٥)</sup> المناقشة في الحساب ،<sup>(٦)</sup> والافتضاح

(١) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة : الترمذي من حديث أبي سعيد وقال  
غريب وتقدم في الأذكار

(٢) حديث أنه يفتح إلى قبر المعذب سبعون باباً من الجحيم : لم أجده له أصلاً

(٣) حديث سؤال منكرو ونكير عند الوضع في القبر : تقدم في قواعد العقائد

(٤) حديث عذاب القبر : تقدم فيه

(٥) حديث المناقشة في الحساب : تقدم فيه

(٦) حديث الافتضاح على ملائكة الشهداء في القيامة : أحمد والطبراني من حديث ابن عمر بإسناد جيد من اتقى

من ولده ليفضحه في الدنيا فضحه الله على رؤس الشهداء وفي الصحيحين من حديث ابن عمر

وأما الكافر والمنافق فينادى بهم على رؤس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم والطبراني

والعقيلي في الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض فضوح الديننا أهون من فضوح

الآخرة وهو حديث طويل منكرو

على ملأ من الأشهاد في القيامة ، ثم بعد ذلك <sup>(١)</sup> خطر الصراط ، <sup>(٢)</sup> وهو أن الزبانية إلى آخر ماوردت به الأخبار . فلا يزال الشقي مترددا في جميع أحواله بين أصناف العذاب ، وهو في جملة الأحوال معذب إلا أن يتغمده الله برحمته ولا تظن أن محل الإيمان يأكله التراب ، بل التراب يأكل جميع الجوارح . ويدهما ، إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، فتجتمع الأجزاء المنفردة ، وتعاد إليها الروح التي هي محل الإيمان وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة ، إما في حواصل طيور . خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة ، وإما على حالة تضاد هذه الحال إن كانت والعياذ بالله شقية فإن قلت : فما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة

فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها . أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين . أحدهما : يتصور مع تمام الورع والزهد ، وتتمام الصلاح في الأعمال ، كالمبتدع الزاهد ، فإن غافبه مخطرة جدا ، وإن كانت أعماله صالحة . ولست أعني مذهبا فأقول إنه بدعة ، فإن يان ذلك بطول القول فيه . بل أعني بالبدعة أن يعتقد الرجل في ذات الله ، وصفاته ، وأفعاله خلاف الحق ، فيعتقد على خلاف ما هو عليه ، إما برأيه ، ومعقوله ، ونظره الذي به يجادل الخصم ، وعليه يعول ، وبه يفتر ، وإما أخذ بالتقليد ممن هذا حاله . فإذا قرب الموت ، وظهرت له ناصية ملك الموت ، واضطرب القلب بما فيه ، ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا ؛ إذ حال الموت حال كشف الغطاء ، ومبادئ سكراته منه ، فقد ينكشف به بعض الأمور . فهما بطل عنده ما كانه اعتقده ؛ وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه ، لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة ، لالتجابه فيه إلى رأيه الفاسد ، وعقله الناقص . بل ظن أن كل ما اعتقده لأصل له ، إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة ، وبين اعتقاده الفاسد ؛ فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته ، أو لشكه فيها .

( ١ ) حديث خطر الصراط : تقدم في قواعد العائد

( ٢ ) حديث هوان الزبانية : الطبراني من حديث أنس الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فيقة حملة الأفران ، منها إلى عبدة الأوثان والنيران قال صاحب الميزان حديث منكرو روى أبو وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم معذلا في خزنة جهنم ما بين منكبي أحدهم كابين للشرق والغرب

فإن اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة ، قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان ، فقد ختم له بالسوء ، وخرجت روحه على الشرك والعباذ بالله منه . فهو لاء هم المرادون بقوله تعالى ( وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ <sup>(١)</sup> ) وبقوله عز وجل ( قُلْ هَلْ تُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا <sup>(٢)</sup> ) . وكما أنه قد ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل ، وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب ، فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور ، إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت ، فيطالع ما في اللوح المحفوظ ، لتكشف له الأمور على ما هي عليه . فيكون مثل هذه الحال سبباً للكشف ، وتكون الكشف سبباً للشك في بقية الاعتقادات

وكل من اعتقد في الله تعالى ، وفي صفاته وأفعاله شيئاً على خلاف ما هو به ، إما تقليداً ، وإما نظراً بالرأى والمعقول ، فهو في هذا الخطر . والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر . بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق . والبطل يعزل عن هذا الخطر ، أعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيماناً مجملاً راسخاً ، كالأعراب ، والسوادية ، وسائر العوام ، الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ، ولم يشعروا في الكلام استقلالاً ، ولا صغوا إلى أصناف المتكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَه » ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام ، والتفتيش عن هذه الأمور وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعاً ، وبكل ما جاء من الظواهر ، مع اعتقاده نفي التشبيه : ومنعهم عن الخوض في التأويل ، لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم ، وعقباته كثيرة ، ومسالكه وعرة ، والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة ، وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا عجيوبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض والقلوب لما ألقى إليها في مبدأ النشأة آفة ، وبه متعلقة ، والتعصبات الشائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المهملين في أول الأمر . ثم الطباع بحب الدنيا شغوفة ، وعلمها

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله : البزار من حديث أنس وقد تقدم

(١) الزمر : ٥٧ (٢) الكهف : ١٠٣



مقبلة ، وشهوات الدنيا بمخنقتها آخذة ، وعن تمام الفكر صارفة فإذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأى والمعقول ، مع تفاوت الناس في قرائنهم ، واختلافهم في طبائعهم ، وحرص كل جاهل منهم على أن يدعى الكمال أو الإحاطة بكنه الحق ، انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم ، وتعلق ذلك بقلوب المصنّعين إليهم ، وتأكد ذلك بطول الألف فيهم ، فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم . فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ، ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حد طاقتهم

ولكن الآن قد استرخى العنان ، وفشا الهذيان . ونزل كل جاهل على ماوافق طبعه بظن وحسبان ، وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان ، وأنه صفو الإيمان ، ويظن أن ماوقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ، ولتعاين نبأه بعد حين . وينبغي أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء :

أحسنْتَ ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر  
وسألتك الليالي فأغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

واعلم يقينا أن كل من فارق الإيمان الساذج بالله ورسوله وكتبه ، وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطر . ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج ، يرميه موج إلى موج ، فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بميد ، والهلاك عليه أغلب وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم ، إمام مع الأدلة التي حرروها في تعصباتهم ، أو دون الأدلة ، فإنه إن كان شاكا فيه فهو فاسد الدين ، وإن كان واثقا به فهو آمن من مكر الله . مغتر بعقله الناقص ، وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين إلا إذا جاوز حدود المعقول ، إلى نور المكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الأحمر ، وأنى يتيسر ! وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام ، أو الذين شغلهم خوف النار بطاعة الله ، فلم يخوضوا في هذا الفضول . فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الخاتمة

وأما السبب الثاني فهو ضعف الإيمان في الأصل ، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب . ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى ، وقوي حب الدنيا ، فيصير بحيث لا يبقى في القلب

موضع حب الله تعالى ، إلا من حيث حديث النفس ، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس ، والعدول عن طريق الشيطان ، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات ، حتى يظلم القلب ويقسو ويسود ، وتتراكم ظلمة النفوس على القلب ، فلا يزال يظلم ، ما فيه من نور الإيمان على ضعفه ، حتى يصير طبعاً وريناً . فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب ، أغنى حب الله ضعفاً ، لما يبدو من استشعار فراق الدنيا ، وهي المحبوب الغالب على القلب ، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ، ويرى ذلك من الله ، فيختلج ضميره بإنكار ما قدر عليه من الموت ، وكراهة ذلك من حيث إنه من الله ، فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب . كما أن الذي يحب ولده حباً ضعيفاً ، إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرفها ، انقلب ذلك الحب الضعيف بغضاً . فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة ، فقد ختم له بالسوء ، وهلك هلاكاً مؤبداً والسبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا ، والركون إليها ، والفرح بأسبابها ، مع ضعف الإيمان ، الموجب للضعف حب الله تعالى . فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا ، وإن كان يحب الدنيا أيضاً ، فهو أبعد عن هذا الخطر

وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، وهو الداء العضال ، وقد عم أصناف الخلق ، وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى . إذ لا يحبه إلا من عرفه . ولهذا قال تعالى ( قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّسُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ <sup>(١)</sup> )

فإذا أكل من فارقته روحه في حالة خطرة الإنكار على الله تعالى بباله ، وظهور بغض فعل الله بقلبه ، في تفرقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه ، فيكون موته قد وما على ما أبغضه وفراقاً لما أحبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهراً ، فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال وأما الذي يتوفى على الحب ، فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه ، الذي تحمل مشاق الأعمال ووعناء الأسفار طمعاً في لقائه ، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح

والسرور بمجرد القدوم ، فضلا عما يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام  
وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى ، وليست مقتضية للخلود في النار ، فلها أيضا  
سببان : أحدهما كثرة المعاصي وإن قوي الإيمان ، والآخر ضعف الإيمان وإن قلت  
المعاصي . وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب ، بكثرة  
الإلف والعادة . وجميع مآلفه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته ، فإن كان  
ميله الأكثر إلى الطاعات ، كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله وإن كان ميله الأكثر إلى  
المعاصي ، غلب ذكرها على قلبه عند الموت ، فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات  
الدنيا ، ومعصية من المعاصي ، فيتقيد بها قلبه ، ويصير محجوبا عن الله تعالى ، فالذي لا يقارف  
الذنب إلا الفئنة بعد الفئنة ، فهو أبعد عن هذا الخطر . والذي لم يقارف ذنبا أصلا ، فهو  
بميد جدا عن هذا الخطر . والذي غلبت عليه المعاصي ، وكانت أكثر من طاعاته ، وقلبه بها  
أفرح منه بالطاعات ، فهذا الخطر عظيم في حقه جدا

ونعرف هذا بمثال . وهو أنه لا يخفى عليك أن الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال  
التي عهدها طول عمره ، حتى أنه لا يرى إلا ما يماثل مشاهداته في اليقظة ، وحتى أن المراقب  
الذي يحتمل لا يرى صورة الواقع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة ، ولو بقي كذلك مدة لما رأى  
عند الاحتلام صورة الواقع . ثم لا يخفى أن الذي قضى عمره في الفقه ، يرى من الأحوال  
المتعلقة بالعلم والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة . والتاجر يرى من  
الأحوال المتعلقة بالتجارة وأسبابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه ، لأنه إنما يظهر في حالة

النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف ، أو بسبب آخر من الأسباب  
والموت شبيه النوم ، ولكنه فوقه ، ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الفئنة  
قريب من النوم ، فيقتضى ذلك تذكر المآلوف ، وعوده إلى القلب وأحد الأسباب المرجحة  
لحصول ذكره في القلب طول الإلف . فطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضا مرجح وكذلك  
تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق . فتكون غلبة الإلف سبب لأن تشمل صورة  
فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه ، فربما تقبض عليها روحه ، فيكون ذلك سبب سوء خاتمته

وإن كان أصل الإيمان باقياً بحيث يرجى له الخلاص منها  
وكما أن ما يخطر في البقطة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى، فكذلك آحاد المنامات  
لها أسباب عند الله تعالى، نعرف بعضها ولا نعرف بعضها. كما أنا نعلم أن الخاطر ينتقل من الشيء  
إلى ما يناسبه إما بالمشابهة، وإما بالمضادة، وإما بالمقارنة، بأن يكون قد ورد على الحس منه  
أما بالمشابهة: فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر جميلاً آخر

وأما بالمضادة: فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحاً ويتأمل في شدة التفاوت بينهما  
وأما بالمقارنة: فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان، فيتذكر ذلك الإنسان  
وقد ينتقل الخاطر من شيء إلى شيء، ولا يدري وجه مناسبته له. وإنما يكون ذلك بواسطة  
واسطتين مثل أن ينتقل من شيء إلى شيء ثان، ومنه إلى شيء ثالث، ثم ينسى الثاني،  
ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة، ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة،  
وبين الثاني والأول مناسبة. فكذلك لانتقالات الخواطر في المنامات أسباب من  
هذا الجنس، وكذلك عند سكرات الموت

فعلى هذا، والعلم عند الله، من كانت الخياطة أكثر أشغاله، فإنك تراه يوصى إلى  
رأسه كأنه يأخذ إبرته ليخيط بها، ويبل أصبعه التي لها عادة بالكسبان، ويأخذ الإزار  
من فوقه، ويقدره ويشبهه وكأنه يتعاطى تفصيله، ثم يمد يده إلى المقرض

ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات، فلا طريق له  
إلا المجاهدة طول العمر في قضاياه نفسه عنها؛ وفي قمع الشهوات عن القلب. فهذا هو القدر  
الذي يدخل تحت الاختيار، ويكون طول المواظبة على الخير، وتخليّة الفكر عن الشر، عدة  
وذخيرة لحالة سكرات الموت، فإنه يموت المرء على ما عاش عليه، ويحشر على مامات عليه  
ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقي عند الموت كلمتي الشهادة فيقول: خمسة، ستة، أربعة

فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت

وقال بعض العارفين من السلف، العرش جوهرة تتلأأ نوراً؛ فلا يكون العبد على  
حال إلا انقطع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها، فإذا كان في سكرات الموت  
كشف له صورته من العرش، فربما يرى نفسه على صورة معصية، وكذلك يكشف له يوم

القيامه، فيرى أحوال نفسه، فيأخذه من الحياء والخوف ما يخل عن الوصف . وما ذكره صحيح  
وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك . فإن النائم يدرك ما يكون في المستقبل من  
مطالعة اللوح المحفوظ ، وهي جزء من أجزاء النبوة

فإذا رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ، ومقلب القلوب هو الله  
والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داحلة تحت الاختيار دخولا كلياً ، وإن كان لطول  
الإلف فيه تأثير . فهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة ، لأنه لو أراد الإنسان أن  
لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين ، وأحوال الطاعات والعبادات ، عسر عليه ذلك ، وإن  
كانت كثرة السلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ، ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالسكينة  
تحت الضغط ، وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة ، حتى سمعت  
الشيخ أبا علي الفارسي رحمه الله عليه ، يصف لي وجوب حسن أدب المرید لشيخه ، وأنه  
لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ، ولا في لسانه مجادلة عليه ، فقال : حكيت لشيخ  
أبي القاسم الكرماني مناماً لي ، وقلت رأيتك قلت لي كذا ، فقلت لم ذاك ؟ قال فهجرتني  
شهرًا ولم يكلمني وقال : لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة ، وإنكار ما أقوله لك ، لما  
جرى ذلك على لسانك في النوم . وهو كما قال . إذ قلما يرى الإنسان في منامه خلاف ما يغلب  
في اليقظة على قلبه . فهذا هو القدر الذي نسمح بدكره في علم المعاملة من أسرار أمر  
الخاتمة ، وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة

وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل  
وترجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية . فإن كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير ،  
فلا بد وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين ، حتى يطول بسببه بكاءك وبياحتك  
ويدوم به حزنتك وقلقك ، كما سنحكى من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ، ليكون  
ذلك أحد الأسباب المهيبة لنار الخوف من قلبك

وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضالة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج  
روح ، وأن سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جدا ، ولذلك كان مطرف بن  
عبد الله يقول ، إني لا أعجب ممن هلك كيف هلك ، ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا .

ولذلك قال حامد اللفاف : إذ اصعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقدمت على الخبير والإسلام  
تعجبت الملائكة منه ، وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا ؟ وكان الثوري يوما  
يبكى ، ف قيل له علام تبكى ؟ فقال بكينا على الذنوب زمانا ، فالآن نبكى على الإسلام  
وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر ، وهجمت عليه الرياح العاصفة ، واضطربت  
الأمواج ، كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك . وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة  
وأمواج الخواطر أعظم التطاما من أمواج البحر . وإنما المخوف عند الموت خاطر سوء  
يخطر فقط ، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> " إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ  
بِعَمَلٍ أَهْلُ الْجَنَّةِ خَمْسِينَ سَنَةً حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا فَوَاقُ نَاقَةٍ فَيُخْتَمُ لَهُ  
بِمَا سَبَقَ بِهِ الْكِتَابُ ، وَلَا يَتَسَعُ فَوَاقُ النَّاقَةِ لِأَعْمَالٍ تَوْجِبُ الشَّقَاوَةَ ، بَلْ هِيَ الْخَوَاطِرُ  
الَّتِي تَضْطَرِبُ وَتُحْطَرُ خُطُورُ الْبَرَقِ الْخَاطِطِ "

وقال سهل : رأيت كأنى أدخلت الجنة ، فرأيت ثلثمائة نبي ، فسألهم ما أخوف ما كنتم  
تخافون في الدنيا ؟ قالوا سوء الخاتمة . ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا  
عليها ، وكانت موت الفجأة مكروها

أما الموت فجأة ، فلائنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب ، والقلب  
لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكرهة ، أو بنور المعرفة

وأما الشهادة فلائنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله  
تعالى ، وخرج حب الدنيا ، والأهل ، والمال ، والولد ، وجميع الشهوات عن القلب ، إذ  
لا يهجم على صف القتال موطننا نفسه على الموت إلا حب الله ، وطلبنا لمرضااته ، وبأننا دنياه  
بآخرته ، وراضيا بالبيع الذي بايعه الله به ، إذ قال تعالى ( إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ  
أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ <sup>(١)</sup> ) والبائع راغب عن المبيع لا محالة ، ونخرج حبه عن  
القلب ، ويجرد حب العوض المطلوب في قلبه . ومثل هذه الحالة قد يلبس على القلب في  
بعض الأحوال ، ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها ، فصفت القتال سبب لزهوق الروح

( ١ ) حديث ابن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة - الحديث . نسهم

على مثل هذه الحالة . هذا <sup>(١)</sup> فيمن ليس يقصد الغلبة، والنعمة، وحسن الصيت بالشجاعة، فإن من هذا حاله وإن قتل في المعركة ، فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الأخبار وإذ يأن لك معنى سوء الخاتمة ، وما هو مخوف فيها ، فاشتغل بالاستعداد لها ، فواظب على ذكر الله تعالى ، وأخرج من قلبك حب الدنيا ، واحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك ، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهديك ، فإن ذلك أيضا يؤثر في قلبك ، ويصرف إليه فكرك وخواطرك

وإياك أن تسوّف وتقول : سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة ، فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيه روحك . فراقب قلبك في كل تطريفة ، وإياك أن تهمل لحظة ، فلعل تلك اللحظة خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك . هذا ما دمت في يقظتك . وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن ، وأن ينقلب النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك . لست أقول على لسانك ، فإن حركة اللسان مجرد هاضمية الأثر واعلم قطعا أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالبا عليه ، وأنه لا يغلب في النوم إلا ما كان غالبا قبل النوم ، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غاب على قلبك في نومك . والموت والبعث شبيه النوم واليقظة . فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ، ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه ، فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ، ولا يحشر إلا على ما مات عليه . وتحقق قطعا وبقينا أن الموت والبعث حالتان من أحوالك ، كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك . وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب ، إن لم تكن أهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة

وراقب أنفاسك ولحظاتك ، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين ، فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم ، فكيف إذا لم تفعل ! والناس كلهم هلكت إلا العالمون ، والعالمون

( ١ ) حديث المقتول في الحرب إذا كان قصده الغلبة والنعمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة

متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري أن رجلا قال يا رسول الله الرجل يقاتل لغيره والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وفي رواية الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء وفي رواية يقاتل غضبا

كلهم هلكتي إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكتي إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم  
واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك ، وضرورتك مطعم ،  
وملبس ، ومسكن ، والباقي كله فضول . والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ، ويسد رمقك  
فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ، ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك  
في قضاء حاجتك ، إذ لافرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه ، فهما ضرورتان في  
الجلبة . وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك ، فلا ينبغي أن يكون تناول  
الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك ، فقيمتك ما يخرج من بطنك  
وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى ، كقصدك من قضاء حاجتك  
فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور من ما كرك : في وقته ، وقدره ، وجنسه

أما الوقت : فاعلم أن يكتفي في اليوم والليلة بمرة واحدة ، فيواظب على الصوم  
وأما قدره فأن لا يزيد على ثلث البطن . . . وأما جنسه فأن لا يطلب لذائد الأطعمة  
بل يقع بما يتفق . . . فإن قدرت على هذه الثلاث ، وسقطت عنك مؤنة الشهوات اللذائذ  
قدرت بعد ذلك على ترك الشهوات ، وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله ، فإن الحلال يعز  
ولا يفي بجميع الشهوات

وأما ملبسك فليكن عرضك منه دفع الحر والبرد ، وستر العورة . فكل ما دفع البعد عن  
رأسك ، ولو قلنسوة بدائق ، فطابك غيره فضول منك ، يضع فيه زمانك ، ويازملك  
الشغل الدائم ، والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة ، والطمع أخرى ، من الحرام والشبهة  
وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك ، فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تكتف به  
في خسارة قدره وجنسه ، لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت ممن لا يعلأ بطنه إلا التراب  
وكذلك المسكن ، إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفا . والأرض مستقرا . فإن  
غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد . فإن طلبت مسكنا خاصا طال عليك ، وانصرف إليه  
أكثر عمرك ، وعمرك هو بضاعتك . ثم إن تيسر لك فقصدت من الحائض سوى كونه حائلا  
نينك وبين الأبصار ، ومن السقف سوى كونه دافعا للأمطار ، فأخذت ترفع الحيطان ،  
وترين السقوف ، فقد تورطت في مهواة يبعد رقيق منها



وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرت عليها تفرغت لله ، وقدرت على التزود  
لآخرتك ، والاستعداد لخاتمتك . وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأمانى تشعبت  
همومك ، ولم يبال الله في أي راد أهلكتك . فاقبل هذه النصيحة بمن هو أحرص إلى النصيحة منك  
واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير . فإذا دفعته يوما بيوم  
في تسويقك أو غفلتك ، اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ، ولم تفارقك حسرتك  
وندامتك . فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك ، إذ لم يكن فيما  
وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك ، فإننا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو  
أن يزيل بعض القساوة عن قلبك ، فإنك تتحقق أن عقل الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء ،  
وعملهم ومكانهم عند الله تعالى ، لم يكن دون عقلك ، وعملك ، ومكانك . فتأمل مع كلال  
بصيرتك ، وعمش عين قلبك في أحوالهم ، لم أشد بهم الخوف ، وطال بهم الحزن والبكاء  
حتى كان بعضهم يصمق ، وبعضهم يدهش ، وبعضهم يسقط مغشيا عليه ، وبعضهم يخرميتا  
إلى الأرض . ولا غرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك ، فإن قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد  
قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ،  
وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون

## بيان

أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف

روت<sup>(١)</sup> عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت  
ريح عاصفة ، يتغير وجهه ، فيقوم ويتردد في الحجرة ، ويدخل ويخرج ، كل ذلك خوفا من  
عذاب الله<sup>(٢)</sup> وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصمق وقال تعالى (وَأَخْرَجْنَا مَوْسَى صَعِقًا<sup>(٣)</sup>)

( ١ ) حديث عائشة كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه - الحديث : متفق عليه من حديث عائشة

( ٢ ) حديث قرأ في سورة الواقعة فصمق المعروف فيما يروى من هذه القصة انه قد قرئ عنده إن الدنيا أنكالاً رجعيها

وطعاما ذاغصة وعذابا ألما فصمق كما رواه ابن عدي والبيهقي في الشعب مرسلًا وهكذا ذكره

المصنف على الصواب في كتاب السماع كما تقدم

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> صورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصق.  
وروي أنه عليه السلام <sup>(٢)</sup> كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل  
وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « مَا جَاءَنِي جِبْرِيلُ قَطُّ إِلَّا وَهُوَ يَرْعُدُ قَرَقَاً مِنَ الْجَبَّارِ »  
وقيل لما ظهر على إبليس ما ظهر ، طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يكيان فأوحى  
الله إليهما مالكما تبكيان كل هذا البكاء ؟ فقالا يارب مانأ من مكرك . فقال الله تعالى :  
هكذا كوننا ، لا تأمنا منكرى . وعن محمد بن النكدر قال : لما خلقت النار طارت  
إفئدة الملائكة من أماكنها فلما خلق بنو آدم عادت  
وعن <sup>(٤)</sup> أنس أنه عليه السلام سأل جبريل « مَا لِي لَا أَرَى مِيكَائِيلَ يَضْحَكُ ؟ »  
فقال جبريل . ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار . ويقال إن الله تعالى ملائكة لم يضحك  
أحد منهم منذ خلقت النار ، مخافة أن يفضب الله عليهم فيعذبهم بها  
وقال <sup>(٥)</sup> ابن عمر رضي الله عنهما : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل  
بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل . فقال « يَا ابْنَ عُمرَ مَا لَكَ لَا تَأْكُلُ ؟ »

- ( ١ ) حديث انه رأى صورة جبريل بالأبطح فصق : البراز من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل أن يراه في صورة فقال ادع ربك فدعا ربه فطلع عليه من قبل للشرق فجعل يرتفع ويسير فلما رآه صعق ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلًا بلفظ ففشى عليه وفي الصحيحين عن عائشة رأى جبريل في صورته مرتين ولهما عن ابن مسعود رأى جبريل له ستائة جناح
- ( ٢ ) حديث كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل : أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي من حديث عبد الله بن الشخير وتقدم في كتاب السماع
- ( ٣ ) حديث ما جاءني جبريل قط إلا وهو ترعد فرائسه من الجبار : لم أجدها إلا في نسخة وروى أبو الشيخ في كتاب العظيمة عن ابن عباس قال ان جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائسه فرقا من عذاب الله - الحديث : وفيه زميل بن سمالك الحنفي يحتاج إلى معرفته
- ( ٤ ) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالي لا أرى ميكائيل يضحك فقال ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس باسناد جيد ورواه ابن شاهين في السنة من حديث ثابت مرسلًا وورد ذلك أيضا في حق اسرافيل ورواه البيهقي في الشعب وفي حق جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين
- ( ٥ ) حديث ابن عمر خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل - الحديث : ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر قال البيهقي هذا اسناد مجهول والجراح بن منهل ضعيف

فقلت يا رسول الله لا أشتيه . فقال : لَكِنِّي أَشْتِيهِ وَهَذَا صَبِيحٌ رَأَيْتَهُ إِنْ أَذَقْتُهِ مَا بَأْسًا وَلَمْ أَجِدْهُ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لَا عَطَايَ مُلْكٍ قِصْرَ وَكَسْرَى فَكَيْفَ بِكَ يَا ابْنَ عُمَرَ إِذَا يَقْبَتَ فِي قَوْمٍ يُحِبُّونَ رِزْقَ سَنَنِهِمْ وَيَضْعِفُ الْيَقِينَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قَالَ فَوَاللَّهِ مَا رَحْنَا وَلَا قَنَا حَتَّى نَزَلَتْ ( وَكَأَيُّنَ مِنْ ذَايَةِ لَا نُحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ )<sup>(١)</sup> قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْكُمْ بِكَنْزِ أَمْوَالٍ وَلَا بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ مَنْ كَنَزَ دَنَانِيرَ يُرِيدُ بِهَا حَيَاةً فَإِنَّهُ فَإِنَّ الْحَيَاةَ يَبِيدُ اللَّهُ إِلَّا وَإِنِّي لَا أَكْنِزُ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَلَا أَخْبَأُ رِزْقًا لِنَفْسٍ ،

وقال أبو الدرداء : كَانَ يَسْمَعُ أَرْزِقُ قَلْبَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ مِنْ مَسِيرَةِ مِيلٍ ، خَوْفًا مِنْ رَبِّهِ

وقال مجاهد : بَكَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا سَاجِدًا لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ ، حَتَّى نَبَتَ الْمَرْحَى مِنْ دَمْعِهِ ، وَحَتَّى غَطَى رَأْسَهُ ، فَتَوَدَّى بِدَاوُدَ أَجَائِعَ أَنْتَ فَتَطْعَمُ ، أَمْ ظَلَمَ أَنْ فَتَسْقَى ، أَمْ عَارَفْتَكُنِّي ؟ فَتَحِبُّ نَجْبَةَ هَاجِ الْمَوَدِّ فَاحْتَرَقَ مِنْ حَرِّ خَوْفِهِ ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ التَّوْبَةَ وَالْمَغْفِرَةَ . فَقَالَ يَا رَبِّ اجْعَلْ خَطِيئَتِي فِي كَفِّي . فَصَارَتْ خَطِيئَتُهُ فِي كَفِّهِ مَكْتُوبَةً . فَكَانَ لَا يَسْطُرُ كَفَّهُ لَطْعَامٍ وَلَا الشَّرَابَ وَلَا لغيره إِلَّا رَأَاهَا فَأَبْكَنَّهُ . قَالَ وَكَانَ يُؤْتَى بِالْقَدَحِ ثَلَاثًا ، فَإِذَا تَنَاوَلَهُ أَبْصَرَ خَطِيئَتَهُ ، فَمَا يَضْمُهُ عَلَى شَفْتِهِ حَتَّى يَفِيضَ الْقَدَحُ مِنْ دَمْعِهِ

وَيُرَوَّى عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ مَارَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَاتَ ، حَيَاءً مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَكَانَ يَقُولُ فِي مَنَاجَاتِهِ : إِلَهِي إِذَا ذَكَرْتَ خَطِيئَتِي ضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِرَجَبِهَا . وَإِذَا ذَكَرْتَ رَحْمَتَكَ ارْتَدَّتْ إِلَيَّ رَوْحِي . سُبْحَانَكَ إِلَهِي أَتَيْتَ أَطْبَاءَ عِبَادِكَ لِيَدَاوُوا خَطِيئَتِي فَكَلِّمْهُمْ عَلَيَّ يَدْلِي . فَبُؤْسًا لِلْقَانِطِينَ مِنْ رَحْمَتِكَ

وقال الفضيل : بَلَغَنِي أَدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَرَ ذَنْبَهُ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَوُثِبَ صَارِخًا وَاضِعًا يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ حَتَّى لَحِقَ بِالْجِبَالِ فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ السَّبَاعُ ، فَقَالَ ارْجِعُوا الْأَرِيدُكُمْ . إِنَّمَا أَرِيدُكُمْ كُلَّ بَكَاءٍ عَلَى خَطِيئَتِهِ ، فَلَا يَسْتَقْبِلُنِي إِلَّا بِالْبَكَاءِ . وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا خَطِيئَةٍ فَمَا يَصْنَعُ بِدَاوُدَ الْخَطَاءِ . وَكَانَ يَمَاتُ بِ

في كثرة البكاء فيقول : دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء ، قبل تخريق العظام واشتعال  
الحشا ، وقبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون  
وقال عبد العزيز بن عمر : لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته . فقال إلهي يح صوتي  
في صفاء أصوات الصديقين . وروي أنه عليه السلام لما طال بكأؤه ولم ينفعه ذلك  
صاق ذرعه ، واشتد غمه ، فقال يارب أما ترحم بكائي ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا داود نسيت  
ذنبك وذكرت بكاءك ! فقال : إلهي وسيدي ، كيف أنسى ذنبي وكنت إذ اتلوت الزبور كف  
الماء الجاري عن جريه ، وسكن هبوب الريح ، وأظلى الطير على رأسى ، وأنست الوحوش  
إلى محرابي ! إلهي وسيدي ، فما هذه الوحشة التي بيني وبينك ! فأوحى الله تعالى إليه يا داود  
ذلك أنس الطاعة ، وهذه وحشة المعصية . يا داود ، آدم خلق من خلقى ، خلقته يدي ،  
ونفخت فيه من روحي ، وأسجدت له ملائكتي ، وأبسته ثوب كرامتي ، وتوجته بتاج  
وقاري . وشكالي الوحدة فزوجته حواء أمتي ، وأسكنته جنتي ، عصاني ، فطردته عن  
جوارى عمر يانا ذليلا . يا داود اسمع مني ، والحق أقول ، أطعنا فأطعناك ، وسألتنا فأعطيناك  
وعصيتنا فأمهلتناك ، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك

وقال يحيى بن أبي كثير . بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك  
مبها لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب ، ولا يقرب النساء . فإذا كان قبل ذلك يوم  
أخرج له المتبر إلى البرية . فأمر سليمان أن ينادي بصوت يستقرى البلاد وما حولها من  
الغياض ، والآكام ، والجبال ، والبراري ، والصوامع ، والبيع ، فينادي فيها . ألا من أراد  
أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت . قال فتأتى الوحوش من البراري والآكام ، وتأتى السباع  
من الغياض ، وتأتى الهوام من الجبال ، وتأتى الطير من الأوكار ، وتأتى المذارى من خدورهن  
وتجتمع الناس لذلك اليوم . ويأتى داود حتى يرق المنبر ، ويحيط به بنو إسرائيل ، وكل صنف  
على حدته يحيطون به ، وسليمان عليه السلام قائم على رأسه . فيأخذ في الثناء على ربه ، فيضجون  
بالسكاء والصراخ ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار ، فتموت الهوام ، وطائفة من الوحوش  
والسباع والناس ، ثم يأخذ في أهوال القيامة ، وفي النياحة على نفسه ، فيموت من كل نوع  
طائفة . فإذا رأى سليمان كثرة الموتى ، قال يا ابتاه . قد مزقت المستمعين كل ممزق ، وماتت

طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام . فيأخذ في الدعاء . فيبينا هو كذلك ،  
إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل : يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك ، قال فيخبر داود  
مفسيا عليه ، فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه ، أتى بسرير فحمله عليه ، ثم أمر مناديا ينادي  
ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليات بسرير فليحمله ، فإن الذين كانوا معه قد قتلهم  
ذكر الجنة والنار . فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول : يا من قتله ذكر النار  
يا من قتله خوف الله . ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ، ودخل بيت عبادته ، وأعلق  
بابه ، ويقول يا إله داود ، أغضبان أنت على داود ؟ ولا يزال يناجي ربه . فيأتي سليمان ويقعد  
على الباب ، ويستأذن ، ثم يدخل ومعه قرص من شعير ، فيقول يا ابتاه تقوّ بهذا على ما تريد  
فيأكل من ذلك القرص ماشاء الله ، ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم

وقال يزيد الرقاشي : خرج داود ذات يوم بالناس بعضهم ويخوفهم . فخرج في أربعين  
ألفا ، فمات منهم ثلاثون ألفا ، وما رجع إلا في عشرة آلاف . قال وكان له جاريتان اتخذهما  
حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب ، فعمدتا على صدره وعلى رجليه ، بخافة أن  
تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : دخل يحيى بن زكريا عليا السلام بيت المقدس وهو ابن  
ثمان حجج ، فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ، ونظر إلى مجتهدهم قد  
خرقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل ، وشدوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس . فهما له  
ذلك ، فرجع إلى أبويه . فر بصبيان يلعبون ، فقالوا له يا يحيى هلم بنا للعب فقال إني لم أخلق  
للعب . قال فأتى أبويه ، فسألهما أن يدرعاه الشعر ، ففعلا . فرجع إلى بيت المقدس ، وكان  
مخدمه نهارا ، ويصبح فيه ليلا ، حتى أتت عليه خمس عشرة سنة ، فخرج ولزم أطواد الأرض  
وغيران الشامب . فخرج أبواه في طلبه ، فأدركاه على بحيرة الأردن ، قد أنقع رجليه في الماء  
حتى كاد العطش يذبحه ، وهو يقول وعزتك وجلالك لأذوق بارد الشراب حتى أعلم أين  
مكاني منك . فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ، ويشرب من ذلك  
الماء ، ففعل وكفر عن يمينه ، فمدح بالبر ، فرده أبواه إلى بيت المقدس ، فكان إذا قام  
يصلّي بكى حتى يبكي معه الشجر والمدر ، ويبكي زكريا عليه السلام لبكائه حتى يمشي عليه .

فلم يزل يبكي حتى خرقت دموعه لحم خديه ، وبدأت أضراسه للناظرين . فقالت له أمه يا بني لو أذنت لي أن آخذ لك شيئاً توارى به أضراسك عن الناظرين ؟ فأذن لها . فعمدت إلى قطعتي لبود فالصقتهما على خديه ، فكات إذا قام يصلى بكى ، فإذا استنقعت دموعه في القطعتين أتت إليه أمه فمصرتهما ، فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمه قال . اللهم هذه دموعي ، وهذه أمي ، وأنا عبدك ، وأنت أرحم الراحمين . فقال له زكريا يوماً : يا بني ، إنما سألت ربّي أن يهبك لي لتقر عيناي بك . فقال يحيى . يا أبت . إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلى كل بكاء . فقال زكريا عليه السلام . يا بني فابك وقال المسيح عليه السلام . معاشر الحواريين ، خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة : ويباعدان من الدنيا بحق أقول لكم ، إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل

وقيل كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلاً في ميل ، فيأتيه جبريل فيقول له . ربك يقرئك السلام ويقول . هل رأيت خليلاً يخاف خليله ؟ فيقول يا جبريل ، إنى إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتي .

فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام ، فدونك والتأمل فيها ، فإنهم أعرف خالق الله بالله وصفاته صلوات الله عليهم أجمعين ، وعلى كل عباد الله المقربين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

## بيان

أحوال الصّحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف .

روى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر . ليتني مثلك يا طائر ولم أخلق بشراً وقال أبو ذر رضي الله عنه . وددت لو أنى شجرة تمضد . وكذلك قال طاححة وقال عثمان رضي الله عنه . وددت أنى إذا مت لم أبعث . وقالت عائشة رضي الله عنها : وددت أنى كنت نسياً منسياً

وروي أن عمر رضي الله عنه كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشياً عليه ، فكان يعاد أياً ما ، وأخذ يوماً تنبئة من الأرض ، فقال . يا ليتنى كنت هذه التنبئة ،

يأيتني لم أله شيئا مذكورا، يأتيني كنت نسبيا مذسبا، يأتيني لم تلدني أمي . وكان في وجهه صمروخي الله عنه خيطان أسودان من الدموع . وقال رضي الله عنه: من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير مأروون ولما قرأ عمر رضي الله عنه ( إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ <sup>(١)</sup> ) وانتهى إلى قوله تعالى ( وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ <sup>(٢)</sup> ) خر مغشيا عليه . ومروما بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة ( وَالطُّور <sup>(٣)</sup> ) فوقف يستمع، فلما بلغ قوله تعالى ( إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَافِعٌ مَّالَهُ مِنْ دَافِعٍ <sup>(٤)</sup> ) نزل عن حماره، واسند إلى حائط ، ومكث زمانا ، ورجع إلى منزله فرض شهرا يعود الناس ، ولا يدرون ما مرضه . وقال علي كرم الله وجهه ، وقد سلم من صلاة الفجر ، وقد علاه كآبة وهو يقلب يده : لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم أر اليوم شيئا يشبههم : لقد كانوا يصبحون شعنا ، صفرا ، غبرا ، بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجدا وقيامًا يتلون كتاب الله ، يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا الله ، تعادوا كما عيد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم . والله فكأنني بالقوم باتوا غافلين . ثم قام فمارؤى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رمادا تنسفي الرياح في يوم عاصف . وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : وددت أني كبش فيذبخي أهلي ، فيأكلون لحمي ، ويحسون مرقى . وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توضأ اصفر لونه . فيقول له أهله . ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء ؟ فيقول . أتديرون بني يدي من أريد أن أقوم ! وقال موسى بن مسعود : كنا إذا جلسنا إلى الثوري كأن النار قد أحاطت بنا ، لما نرى من خوفه وجزعه . وقرأ مضر القاريء يوما ( هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ <sup>(٥)</sup> ) الآية ، فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشي عليه ، فلما أفاق قال : وعزتك لأعصيتك جهدي أبدا ، فأعني بتوفيقك على طاعتك : وكان المسور بن مخرمة لا يقوى أن يسمع شيئا من القرآن لشدة خوفه . ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح صيحة فإمقل أياما ، حتى أتى عليه رجل من خشم ، فقرأ عليه ( يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنُسْوَاقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا <sup>(٦)</sup> )

(١) النكوير : ١ (٢) النكوير : ١٠ (٣) الطور : ١ (٤) الطور : ٧ (٥) الجاثية : ٢٩ (٦) مريم : ٨٥ ، ٨٦

فقال أنا من انجريمين ولست من المتقين أعد عليّ القول أيها القاري . فأعادها عليه ، فشوق  
شبهة فلحق بالآخرة ، وقرئ عند يحيى البكاء ( وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُوقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ <sup>(١)</sup> ) فصاح  
صيحة مكث منها مريضا أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة

وقال مالك بن دينار : بينما أنا أطوف بالبيت ، إذ أنا بجويرية متعبدة ، متعلقة بأستار  
الكعبة ، وهي تقول . يارب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها ! يارب أما كان لك أدب  
وعقوبة إلا النار ! وتبكي . فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر . قال مالك . فلما رأيت ذلك  
وضعت يدي على رأسي صارخا أقول . شككت مالكا أمه

وروي أن الفضيل روي يوم عرفة والناس يدعون ، وهو يبكي بكاء الشكلى المحترقة  
حتى إذا كادت الشمس تغرب ، قبض على لحيته ، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال . واسوأناه  
منك وإن غفرت . ثم انقلب مع الناس . وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين  
فقال . قلوبهم بالخوف قرحة ، وأعينهم باكية ، يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا ،  
والقبر أمامنا ، والقيامة موعدنا ، وعلى جهنم طريقنا ، وبين يدي الله ربنا موقفا

ومر الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحك ، وهو جالس مع قوم في مجلس ، فقال له  
الحسن . يافتي ، هل مررت بالصراط ؟ قال لا . قال فهل تدرى إلى الجنة تصير أم إلى النار ؟  
قال لا . قال : فما هذا الضحك ؟ قال فما روي ذلك الفتي بعدها ضاحكا

وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس مجلس مستوفزا على قدميه ، فيقال له لو اطمأنتت ؟  
فيقول : تلك جلسة الآمن ، وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى

وقال عمر بن عبد العزيز : إنما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة ، كيلا  
يموتوا من خشية الله تعالى . وقال مالك بن دينار : لقد هممت إذا أنا مت أمرهم أن  
يقتيدوني ويغلوني ، ثم ينطلقوا بي إلى ربي كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده

وقال حاتم الأصم : لا تغتر بموضع صالح ، فلا مكان أصلح من الجنة ، وقد اتى آدم عليه  
السلام فيها مألقي . ولا تغتر بكثرة العبادة . فإن ابليس بعد طول تبعده لقي مألقي ولا تغتر  
بكثرة العلم ، فإن بلاءم كان يحسن اسم الله الأعظم ، فانظر ماذا لقي ، ولا تغتر برؤية الصالحين



فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع ببقائه أقاربه وأعداؤه  
وقال السري: إني لأنظر إلى أنبي كل يوم مرات، خافة أن يكون قد اسود وجهي  
وقال أبو حفص: منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إلى نظر السخط،  
وأعمالي تدل على ذلك. وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال: إني اجتأت البارحة  
على الله، سألته الجنة. وقالت أم محمد بن كعب القرظي لابنها: يا بني، إني أعرفك صغيرا  
طيبا، وكبيراً طيباً. وكأنك أحدثت حدثاً موبقاً لما أراك تصنع في ليلك ونهارك. فقال  
يأ أمه، ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطاع عليّ وأنا على بعض ذنوبي فقتني وقال وعزتي  
وجلالى لا غفرت لك؟ وقال الفضيل إني لأعبط نبيا مرسلًا، ولا ملكاً مقرباً، ولا

عبداً صالحاً، أليس هؤلاء يماينون يوم القيامة؟ إنما أعبط من لم يخلق

وروي<sup>(١)</sup> أن فتى من الأنصار دخلته خشية النار، فكان يبكي حتى حبسه ذلك في  
البيت. فجاء النبي صلى الله عليه وسلم، فدخل عليه واعتنقه، فخرميتا. فقال صلى الله عليه وسلم  
« جَهِّزُوا صَاحِبَكُمْ فَإِنَّ الْفَرَقَ مِنَ النَّارِ فَتَتْ كَبِدَهُ »

وروي عن ابن ميسرة، أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول: يا ليت أمي لم تلدني. فقالت  
له أمه يا ميسرة، إن الله تعالى قد أحسن إليك، هداك إلى الإسلام. قال أجل، ولكن الله  
قد بين لنا أننا واردوا النار، ولم يبين لنا أننا صادرنا عنها. وقيل لفرقد السبخي  
أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني إسرائيل. فقال: بلغني أنه دخل بيت المقدس خمسمائة  
عذراء، لباسهن الصوف والمسوح، فتذاكرن ثواب الله وعقابه، فتن جميعاً في يوم واحد  
وكان عطاء السلمي من الخائفين، ولم يكن يسأل الله الجنة أبداً، إنما كان يسأل الله العفو.  
وقيل له في مرضه: ألا تشتهي شيئاً؟ فقال إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعاً للشهوة  
ويقال إنه مازع رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة. وأنه رفع رأسه يوماً ففرغ، فسقط  
فانفتق في بطنه فتق. وكان يمس جسده في بعض الليلة مخافة أن يكون قد مسخ. وكان إذا  
أصابتهم ريح، أو برق، أو غلاء طعام قال هذا من أجلى يصيبهم. لو مات عطاء لاستراح الناس

(١) حديث أن فتى من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه في البيت - الحديث: ابن أبي الدنيا  
في الخائفين من حديث حذيفة والبيهقي في الشعب من حديث سهل بن سعد بإسنادين فيهما نظر

وقال عطاء : خرجنا مع غلبة النلام ، وفيما كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بظهور  
المساء ، قد تورمت أقدامهم من طول القيام ، وغارت أعينهم في رءوسهم ، ولصقت  
جلودهم على عظامهم ، وبقيت العروق كأنها الأوتار ، يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ  
وكانهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين ، وكيف أهان العاصين .  
فبينما هم يمشون ، إذ مر أحدهم بمكان فخر مغشيا عليه : فجلس أصحابه حوله ليكون في  
يوم شديد البرد ، وجينته يرشح عرقا . فجاءوا بماء فمسحوا وجوهه ، فأفاق ، وسأله عن أمره  
فقال . إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان

وقال صالح المري . قرأت على رجل من المتعبدين ( يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ  
يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ <sup>(١)</sup> ) فصعق ثم أفاق فقال . زدني يا صالح ، فإني  
أجد غما . فقرأت ( كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا <sup>(٢)</sup> ) فخر ميتا  
وروي أن زرارة بن أبي أوفى ضل بالناس الغداة ، فلما قرأ ( فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّافُورِ <sup>(٣)</sup> )  
خر مغشيا عليه ، فحضر ميتا

ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز ، فقال عطني يا يزيد . فقال يأمر المؤمنين  
اعلم أنك لست أول خليفة يموت . فبكى ثم قال زدني . قال يأمر المؤمنين ، ليس بينك  
وبين آدم أب إلا ميت . فبكى . ثم قال زدني يا يزيد . فقال يأمر المؤمنين ، ليس بينك  
وبين الجنة والنار منزل . فخر مغشيا عليه

وقال <sup>(١)</sup> ميمون بن مهران . لما نزلت هذه الآية ( وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ <sup>(٢)</sup> )  
صاح سلمان الفارسي ، ووضع يده على رأسه ، وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدر أن عليه  
ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول . يا ابناء ، ليت شعري  
أي خديك بدأ به البدود أولا . فصعق داود وسقط مكانه

وقيل مرض سفيان الثوري ، فعرض دليله على طيب ذمي ، فقال هذارجل قطع الخوف  
كبدته . ثم جاء وجس عروقه . ثم قال . ما علمت أن في الملة الحنيفة مثله

( ١ ) حديث ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وإن جهنم لموعدهم أجمعين صاح سلمان الفارسي : لما أقفله على أصل

( ١ ) الاحزاب : ٦٦ ( ٢ ) الحج : ٢٢ ( ٣ ) المدثر : ٨ ( ٤ ) الحجر : ٤٣

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله عليه : سألت الله عز وجل أن يفتح عليّ باباً من الخوف ففتح ، فخفت على عقلي ، فقلت يارب على قدر ما أطيق . فسكن قلبي

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ابكوا ، فإن لم تبكوا قتبوا ، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبه . وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»

وقال المنبري : اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض ، فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ، ولحيته ترجف . فقال عليكم بالقرءان ، عليكم بالصلاة ، ويحكم ليس هذا زمان حديث ، إنما هذا زمان بكاء ، وتضرع واستكانة ، ودعاء كدعاء الفريق . إنما هذا زمان احفظ لسانك ، وأخف مكانك ، وعالج قلبك ، وخدم ما تعرف ، ودع ما تنكر . ورؤى الفضيل يوماً وهو عشي ، فقيل له إلى أين ؟ قال لا أدري . وكان عشي والها من الخوف . وقال ذرّ بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد ، فإذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب ؟ فقال يابني ، ليست النائحة الشكلى كالنائحة المستأجرة وحكي أن قوما وقفوا بما بد وهو يبكي ، فقالوا ما الذي يبكيك يرحمك الله ؟ قال فرحة يجدها الخائفون في قلوبهم . قالوا وما هي ؟ قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل

وكان الخواص يبكي ويقول في مناجاته ، قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فاعتقني وقال صالح المري : قدم علينا ابن السماك مرة فقال . أرني شيئاً من بعض عجائب عبّادكم . فذهبت به إلى رجل في بعض الأحياء في خص له ، فاستأذنا عليه ، فإذا رجل يعمل خوصاً . فقرأت عليه ( إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ <sup>(١)</sup> ) فشقق الرجل شهقة وخر مغشياً عليه ، فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا إلى آخر ، فدخلنا عليه ، فقرأت هذه الآية ، فشقق شهقة وخر مغشياً عليه . فذهبنا واستأذنا على ثالث ، فقال ادخلوا إن لم تشغلونا عن ربنا . فقرأت ( ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ <sup>(٢)</sup> ) فشقق شهقة ، فبدا الدم من منخرينه ، وجعل يتشحط في دمه حتى يبس . فتركناه على حاله وخرجنا . فأدبرته على ستة أنفس ، كل من خرج من عنده وتركه

(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً : تقدم في قواعد العقائد

(١) غائر : ٧١ (٢) إبراهيم : ١٤

مغشياً عليه. ثم أتيت به إلى السابع، فاستأذنا، فإذا امرأة من داخل الخوص تقول: ادخلوا فدخلنا، فإذا شيخ فأن جالس في مصلاه، فسلمنا عليه، فلم يشعر بسلامنا. فقلت بصوت عال. ألا إن للخلق غدا مقاما. فقال الشيخ. بين يدي من؟ ويحك! ثم نقي مبهوتا فأتجأ فاه، شاخصا بصره، يصيح بصوت له ضعيف، أوه أوه، حتى انقطع ذلك الصوت؛ فقالت أمراؤه. اخرجوا فإنكم لا تنتفعون به الساعة فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم، فإذا ثلاثة قد أفاقوا، وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى، وأما الشيخ فإنه مكث ثلاثة أيام على حاله مبهوتا متحيرا، لا يؤدي فرضا، فلما كان بعد ثلاث عقل وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال، وكان قد حلف أنه لا يضحك أبدا، ولا ينام مضطجعا، ولا يأكل سمننا أبدا. فمارى ضاحكا، ولا مضطجعا، ولا أكل سمننا حتى مات رحمه الله. وقال الحجاج لسعيد بن جبيرة. بلغني أنك لم تضحك قط. فقال كيف أضحك وجههم قد سمرت، والأغلال قد نصبت، والزبانية قد أعدت! . وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد، كيف أصبحت؟ قال بخير. قال كيف حالك؟ فتبسم الحسن وقال: تسألني عن حالي! ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم، فتعلق كل إنسان منهم بحشبة، على أي حال يكون؟ قال الرجل على حال شديدة. قال الحسن حالي أشد من حالهم ودخلت مولد لعمر بن عبد العزيز عليه، فسلمت عليه، ثم قامت إلى مسجد في بيته، فصلت فيه ركعتين، وغلبتها عينها فرفدت، فاستبكت في منامها ثم انتبهت، فقالت يا أمير المؤمنين، إني والله رأيت عجبا. قال وما ذلك؟ قالت رأيت النار وهي ترفر على أهلها، ثم جرىء بالصراط فوضع على منها. فقال هيه. قالت فجئ بعبد الملك بن مروان، فحمل عليه فامضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط، فهوى إلى جهنم. فقال عمر هيه. قالت ثم جرىء بالوليد بن عبد الملك، فحمل عليه. فامضى إلا يسير حتى انكفأ به الصراط، فهوى إلى جهنم. فقال عمر هيه. قالت ثم جرىء بسلیمان بن عبد الملك، فامضى عليه إلا يسير حتى انكفأ به الصراط، فهوى كذلك. فقال عمر هيه. قالت ثم جرىء بك والله يا أمير المؤمنين، فصاح عمر رحمه الله عليه صيحة خر مغشياً عليه، فقامت إليه، فجعلت تنادي في أذنه يا أمير المؤمنين إني رأيتك والله قد نجوت، إني رأيتك والله قد نجوت. قال وهي تنادي وهو يصيح ويفحص برجليه ويحكى أنا وأويسا القرني رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكي من كلامه، فإذا ذكر النار صرخ أويس، ثم يقوم منطلقا، فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه. إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه وكان طاوس يفرش له الفراش، فيضطجع ويتقل

كما تنقل الحب في المقل، ثم يشب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح، ويقول، طير ذكرُ جهنم نوم الخائفين. وقال الحسن البصري رحمه الله: يخرج من النار رجل بعد ألف عام، ياليتني كنت ذلك الرجل وإذا قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة. وروي أنه ما ضحك أربعين سنة. قال وكنت إذا رأيته قاعدا كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه. وإذا تكلم كأنه يماين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها. فإذا سكت كأن النار تسعر بين عيذه. وعوتب في شدة حزنه وخوفه فقال: ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع في علي بعض ما يكره، فمقتني، فقتال اذهب فلا غفرت لك، فأنا أعمل في غير معتمل وعن ابن السكالك قال وعظت يوما في مجلس، فقام شاب من القوم فقال: يا أبا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن لا نسمع غيرها. قلت وما هي رحمك الله؟ قال قولك: لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين، إما في الجنة أو في النار. ثم غاب عني، ففقدته في المجلس الآخر فلم أره، فسألت عنه، فأخبرت أنه مريض بعاد. فأتيته أعوده، فقلت يا أخي ما الذي أرى بك؟ فقال يا أبا العباس، ذلك من قولك. لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو في النار. قال ثم مات رحمه الله، فرأيت في المنام، فقلت يا أخي ما فعل الله بك؟ قال غفر لي ورحمني وأدخلني الجنة. قلت بماذا؟ قال بالكلمة. فهذه مخاوف الأنبياء، والأولياء، والعلماء، والصالحين ونحن أجدر بالخوف منهم. لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب، بل بصفاء القلوب، وبكمال المعرفة وإلا فليس أمننا لقلّة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا، بل قادتنا شهوتنا، وغلبت علينا شهوتنا، وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا. فلا قرب الرحيل ينهنا، ولا كثرة الذنوب تحركنا، ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا، ولا خطر الخاتمة يزعجنا. فنسأل الله تعالى أن يثدرك بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا، إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا ومن العجائب أنا إذا أردنا المال في الدنيا زرعنا، وغرسنا، واتجرنا وركبنا البحار والبراري وخطرنا، وإن أردنا طلب رتبة العلم تفقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا، ونجتهد في طلب أرزاقنا ولا ننق بضمان الله لنا، ولا نجلس في بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا، ثم إذا طمحت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم، قنعنا بأن نقول بالاستغناء اللهم اغفر لنا وارحمنا! والذي إليه رجاؤنا، وبه اعتزازنا، ينادينا ويقول (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى<sup>(١)</sup>)

( وَلَا يَفْرُتُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ <sup>(١)</sup> ) وَ ( يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبَّكَ الْكَرِيمَ <sup>(٢)</sup> )  
ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا . فما هذه إلا محنة هائلة إن لم  
يتفضل الله علينا بتوبة نصوح بتداركنا . فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا ، بل نسأله أن  
يشوق إلى التوبة سرائر قلوبنا ، وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا ، ففسكون ممن  
يقول ولا يعمل ، ويسمع ولا يقبل ، إذا سمعنا الوعظ بكينا ، وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا  
فلا علامة للخذلان أعظم من هذا ، فنسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشد بمنته وفضله  
ولنتصبر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه ، فإن القليل من هذا يصادف  
القلب القابل ، فيكنى ، والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا يغنى

ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني ، وكان من خيار العباد  
أنه رآه على باب بيت المقدس واقفا كهيئة المحزون من شدة الوله ، ما يكاد يرقأ دمه من كثرة  
البكاء ، فقال عيسى . لما رأيته هالتي منظره ، فقلت أيها الراهب أوصني بوصية أحفظها عنك  
فقال يا أخي بماذا أوصيك ؟ إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قداحتوشته السباع والهوام  
فهو خائف حذر ، يخاف أن يغفل فتفرسه السباع ، أو يسهو فتنهشه الهوام ، فهو مذعور  
القلب وجل ، فهو في المخافة ليله وإن أمن المغترون ، وفي الحزن نهاره وإن فرح البطالون  
ثم ولي وتركني . فقلت لو زدني شيئا عسى ينفعني ؟ فقال الظمآن يجزيه من الماء أيسره وقد  
صدق ، فإن القلب الصافي يحركه أدنى مخافة ، والقلب الجامد تنبوعه كل المواعظ

وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام ، فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير ، بل  
هو تحقيق . فإنك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك ، لرأيت مشحونا بأصناف السباع  
 وأنواع الهوام ، مثل الغضب ، والشهوة ، والحقد ، والحسد ، والكبر ، والعجب  
 والرياء وغيرها ، وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة ، إلا أنك  
محجوب العين عن مشاهدتها فإذا انكشف الغطاء ، ووضع في قبرك ، عاينتها وقد تمثلت بك بصورها  
وأشكالها الموافقة لما فيها ، فتري بعينك المقارب والحيات وقد أحدثت بك في قبرك ، وإنما هي  
صفاتك الحاضرة الآن ، قد انكشف لك صورها ، فإن أردت أن تقتلها وتقرها وأنت قادر عليها قبل  
الموت فافعل ، وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها الصميم قلبك ، فضلا عن ظاهرها بشرتك والسلام

# كتاب الفقر والزهد

## كتاب الفقر والزهد

وهو الكتاب الرابع من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تسبّح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتذكك من هيئته الجبال . خلق الإنسان من الطين اللزب والصلصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدو والآصال . ثم كحل بصيرة المخالص في خدمته بنور العبدة حتى لاحظ بفضيائه حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ما استبجح دون مبادئ إشرافه كل حسن وجمال ، واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال ، وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تيس وتمتثل ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوها عجت من طينة الخزي وضربت في قالب النكال ، وهي متلفة يجلبها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت حباثلها في مدارج الرجال ، فهي تقتنصهم بضروب المكر والاعتبال ، ثم لا تجزى . معهم بالخلف في مواعيد الوصال ، بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال . فلما انكشف للعارفين . نها قبائح الأسرار والأفعال زهدا وفيها زهد المبغض لها فتركوا التفاخر والتكائر بالأموال ، وأقبلوا بكنههمهمهم على حضرة الجلال واتقين منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال . والصلاة على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل .

أما بعد : فإن الدنيا عدوة لله عز وجل ، بغرورها ضل من ضل ، وبمكرها زل من زل . فحبها رأس الخطايا والسيئات ، وبغضها أم الطاعات وأسس القربات . وقد استقصينا ما يتعاق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربيع المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فإنه رأس المنجيات . فلا مطعم في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعث منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا ، وإما بانزواء العبد عنها



ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات، وحظ في الإعانة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد، ودرجاتهما، وأقسامهما، وشروطهما، وأحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب، والزهد في شطر آخر منه، ونبدأ بذكر الفقر فنقول

## الشطر الأول

من الكتاب في الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر، وبيان فضيلة الفقر مطلقا، وبيان خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة الفقير على الغني، وبيان أدب الفقير في فقره، وبيان أدبه في قبوله العطاء، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة، وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال، وبيان أحوال السائلين، والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه

## بيان

حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه . أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقرا . وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه ، لم يكن المحتاج فقيرا . وإذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير ، لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثانی الحال ، ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده . فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفادا له من غيره فهو الغني المطلق ، ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحدا ، فليس في الوجود إلا غني واحد ، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه ، ليمدوا جودهم بالدوام . وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى ( وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ) (١) هذا معنى الفقر مطلقا . واكتنا لننا نقصد بيان الفقر المطلق ، بل الفقر من المال على الخصوص وإلا فقير العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر ، لأن حاجاته لا حصر لها ، ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال ، وهو الذي نريد الآن بيانه فقط ، فنقول ؛

كل فاقد للمال فإننا نسميه فقيرا بالإضافة إلى المال الذي فقده ، إذا كانت ذلك المفقود محتاجا إليه في حقه . ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ، ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم ، لتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها

الحالة الأولى : وهي العليا ، أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به ، وهرب من أخذه ، مفضاله ، ومحتززا من شره وشغله ، وهو الزهد ، واسم صاحبه الزاهد الثانية : أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه ، وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا

الثالثة : أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه ، لرغبة له فيه ، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه ، بل إن أتاه صفوا عفوا أخذوه وفرح به ، وإن افتقر إلى تعب في طلبه . لم يشتغل به . وصاحب هذه الحالة نسميه قاننا ، إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب ، مع ما فيه من الرغبة الضعيفة

الرابعة : أن يكون تركه الطلب لعجزه ، وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه ، وأهو مشغول بالطلب . وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص الخامسة : أن يكون ما فقده من المال مضطرا إليه ، كالجائع الفاقد للخبز ، والعاري الفاقد للثوب . ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا ، كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية . ولما تنفك هذه الحالة عن الرغبة

فهذه خمسة أحوال ، أعلاها الزهد . والاضطرار إن انضم إليه الزهد ، وتصور ذلك ، فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه . ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد ، وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده . فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذى . وإن فقده فكذلك . بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها ، إذ أتاه مائة ألف درهم من المطاء ، فأخذتها وفرقتها من يومها ، فقالت خادمتها : ما استطعت فيما فرقت البوم أن تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه ؟ فقالت لو ذكرتيني لفعلت .

فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بخذا في يده وخزائنه لم تضره ، إذ هو يرى الأموال في خزنة الله تعالى لا في يد نفسه ، فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره .

وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى ، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعا  
وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغنى المطلق على الله تعالى ، وعلى من كثر ماله  
من العباد . فإن من كثر ماله من العباد وهو يفرح به ؟ فهو فقير إلى بقاء المال في يده ، وإنما  
هو غني عن دخول المال في يده ، لأن بقاءه . فهو إذاً فقير من وجه . وأما هذا الشخص  
فهو غني عن دخول المال في يده ، وعن بقاءه في يده ، وعن خروجه من يده أيضاً ، فإنه  
ليس يتأذى به لاحتاج إلى إخراجة ، وليس يفرح به لاحتاج إلى بقاءه ، وليس فاقداً له  
ليحتاج إلى الدخول في يده . فغناه إلى العموم أميل . فهو إلى الغنى الذي هو وصف الله تعالى  
أقرب . وإنما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات ، لا بقرب المكان

ولكننا لانسمى صاحب هذه الحالة غنياً ، بل مستغنياً ، لبقى الغنى اسماً لمن له الغنى المطلق  
عن كل شيء . وأما هذا العبد فإن استغنى عن المال وجوداً أو عدماً ، فلم يستغن عن أشياء  
آخر سواه ، ولم يستغن عن مدد توفيق الله له لبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه ، فإن  
القلب المقيد بحب المال رقيق ، والمستغنى عنه حر ، والله تعالى هو الذي أعنته من هذا  
الرق ، فهو محتاج إلى دوام هذا العتق . والقلوب متقلبة بين الرق والحرية في أوقات متقاربة  
لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن . فلذلك لم يكن اسم الغنى مطلقاً عليه مع هذا الكمال إلا مجازاً  
واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار . وصاحب هذه الحالة من المقربين ، فلا جرم  
صار الزهد في حقه نقصاناً ، إذ حسنات الأبرار سيئات المقربين . وهذا لأن الكاره لله نيا  
مشغول بالدنيا ، كما أن الراغب فيها مشغول بها . والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن  
الله تعالى ، إذ لا بعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجاباً ، فإنه أقرب إليك من جبل  
الوريد ، وليس هو في مكان حتى تكون السموات والأرض حجاباً بينك وبينه فلا حجاب بينك وبينه  
إلا شغلك بغيره . وشغلك بنفسك وشهوأتك شغل بغيره ، وأنت لا تزال مشغولاً بنفسك وبشهوأت  
نفسك ، فكذلك لا تزال محجوباً عنه . فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى . والمشغول  
بنفسه أيضاً مشغول عن الله تعالى . بل كل ماسوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر  
في مجلس يجمع العاشق والمعشوق ، فإن التفت قلب العاشق إلى الرقيب ، وإلى بنفسه

واستغفاله ، وكرهه حضوره ، فهو في حال اشتغال قلبه ببنفسه مصروف عن التأذ بمشاهدة معشوقه . ولو استغرقه المشق لفغل عن غير المعشوق ، ولم يلتفت إليه . فكما أن النظر إلى غير المعشوق لجه عند حضور المعشوق شرك في المشق ، ونقص فيه ، فكذا النظر إلى غير المحبوب لبنفسه شرك فيه ونقص ، ولكن أحدهما أخف من الآخر : بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بنفصا وحبا ، فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة ، فلا يجتمع أيضا بنفص وحب في حالة واحدة

فالمشغول ببنفس الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها ، إلا أن المشغول بحبها غافل ، وهو في غفلته سالك في طريق البعد ، والمشغول ببنفسها غافل ، وهو في غفلته سالك في طريق القرب إذ يرجي له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتبدل بالشهود ، فالكمال له صيرتقب ، لأن بنفص الدنيا مطية توصل إلى الله

فالمحب والبنفص كرجلين في طريقي الحج ، مشغولين بركوب الناقة ، وعلفها ، وتسييرها ولكن أحدهما مستقبل الكعبة ، والآخر مستدير لها . فهما سيان بالإضافة إلى الحال ، في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ، ولكن حال المستقبل محمود بالإضافة إلى المستدير ، إذ يرجي له الوصول إليها ، وليس محمودا بالإضافة إلى المعتكف في الكعبة ، الملازم لها ، الذي لا يخرج منها حتى يفتقر إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها فلا ينبغي أن تظن أن بنفص الدنيا مقصود في عينه . بل الدنيا عائق عن الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا بدفع العائق . ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : من زهد في الدنيا واقتصر عليه ، فقد استعجل الراحة . بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة . فبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد ، كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج فإذا قد ظهر أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها ، فهو غاية الكمال ، وإن أريد به الرغبة في عدمها ، فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضى ، والقانع ، والحريص ، وتقصان بالإضافة إلى درجة المستغنى . بل الكمال في حق المال أن يستوي عندك المال والماء . وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطئ البحر . ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة ، مع أن المال محتاج إليه ، كما أن الماء محتاج إليه . فلا يكون قلبك

مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ، ولا يفيض الماء الكثير . بل تقول أشرب منه بقدر الحاجة ، وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ، ولا أبخل به على أحد  
فهكذا ينبغي أن يكون المال ، لأن الخبز والماء واحد في الحاجة ، وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر . وإذا عرفت الله تعالى ، وثقت بتديره الذي دبر به العالم ، علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة مادمت حيا ، كما يأتيك قدر حاجتك من الماء ، على ما سيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى

قال أحمد بن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان الداراني : قال مالك بن دينار للمغيرة اذهب إلى البيت ، نخذ الركوة \* التي أهديتها لي ، فإن العدو يوسوس لي أنت اللص قد أخذها . قال أبو سليمان : هذا من ضعف قلوب الصوفية ، قدزاده في الدنيا ما غلبه من أخذها فبين أن كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والنقصان  
فإن قلت : فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار فأقول : كما هربوا من الماء ، على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم ، ففروا عما وراءه ، ولم يجمعوه في القرب والراوايا يديرونه مع أنفسهم ، بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري للمحتاجين إليه . لأنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بفضه وقد حملت<sup>(١)</sup> خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فأخذوها ووضعوها في مواضعها : وما هربوا منها . إذ كان يستوى عندهم المال ، والماء ، والذهب ، والحجر . وما نقل عنهم من امتناع ، فإما أن ينقل عن خاف أن لو أخذه أن يخدعه المال

( كتاب الفقر والزهد )

( ١ ) حديث ان خزائن الارض حملت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها : هذا معروف وقد تقدم في آداب العيشة من عند البخاري تعليقا بحزومابه من حديث أنس أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين وكان أكثر مال أتى به فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فلما كان يرى أحدا الأَعْطاه ووصله عمر بن محمد البحري في صحيحه من هذا الوجه وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف قدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الانصار بقدمه . الحديث : ولهما من حديث جابر لو جاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا فلم يقدم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أبو بكر مناديا فنأدى من مكان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أودين فليأتنا فقلت ان النبي صلى الله عليه وسلم وعدني خثالي ثلاثا

\* الركوة - الرورق الصغير .

وبقيد قلبه ، فيدعوه إلى الشهوات ، وهذا حال الضعفاء ، فلا جرم البغض للمال والهرب منه في حقهم كمال . وهذا حكم جميع الخلق ، لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء ، وإما أن ينقل هن قوي بلغ الكمال ، ولكن أظهر الفرار والنفار نزولا إلى درجة الضعفاء ، ليقننوا به في الترك ، إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا ، كما يفر الرجل المعزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ، ولكن لعلمه أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها فيهلكون . والسير يسير الضعفاء ضرورة الأنبياء ، والأولياء ، والعلماء

فقد عرفت إذاً أن المراتب ست ، وأعلاها رتبة المستغنى ، ثم الزاهد ، ثم الراضى ، ثم القانع ، ثم الحريص . وأما المضطر فيتصور في حقه أيضا الزهد ، والرضا ، والقناعة ، ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال . واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة . أما تسمية المستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى . بل إن سمي فقيرا فبمعنى آخر ، وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى في جميع أموره عامة ، وفي بقاء استغناؤه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقر بها ، فإنه أحق باسم العبد من الغافلين ، وإن كان اسم العبد عاما للخلق ، فكذلك اسم الفقير عام . ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير . فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين

وإذا عرفت هذا الاشتراك ، فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « دُعُوذُ بَكَ مِنَ الْفَقْرِ » وقوله عليه السلام <sup>(٢)</sup> « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا » لا يناقض قوله <sup>(٣)</sup> « أَعْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا » إذ فقر المضطر هو الذى استعاض منه ، والفقر الذى هو الاعتراف بالمسكنة ، والذلة ، والافتقار إلى الله تعالى ، هو الذى سأل به فى دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء

( ١ ) حديث أعوذ بك من الفقر : تقدم فى الأذكار والدعوات

( ٢ ) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا : تقدم فى ذم الخسد

( ٣ ) حديث اللهم أحيى مسكينا وأميتى مسكينا : الترمذى من حديث أنس وحسنه وابن ماجه والحاكم

وصححه من حديث أبى سعيد وقد تقدم

## بيان

فضيلة الفقر مطلقاً

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُمْنُوَاهُمْ<sup>(١)</sup>) الآية، وقال تعالى (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ<sup>(٢)</sup>) ساق الكلام في معرض المدح، ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر

وأما الأخبار في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى. روى عبد الله<sup>(١)</sup> بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ » فقالوا موسى من المال يعطى حق الله في نفسه وماله. فقال « نِعَمَ الرَّجُلُ هَذَا وَأَيْسَرُ بِهِ » قالوا فن خير الناس يارسول الله؟ قال « فَقَبِيرٌ يُعْطَى جُهْدُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « لَبَّالُ » أَلَيْسَ اللَّهُ فَقِيرًا وَلَا تَلْقَهُ غَنِيًّا » وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا أَلْيَالٍ » وفي الخبر المشهور<sup>(٤)</sup> « يَدْخُلُ فَقْرَاءُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَاءِهَا بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ » وفي حديث آخر<sup>(٥)</sup> « بَارِعِينَ خَرِيفًا » أي أربعين سنة فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على النفي الحريص. والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد

(١) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أي الناس خير فقالوا موسى من المال يعطى حق الله

من نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فن خير الناس قال فقير يعطى جهده: أبو منصور

الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصر على الرفوع مهذون - والله لأصحابه وسؤالهم له

(٢) حديث قال لبلال أليس الله فقيرا ولا تاتقه غنيا: الحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال

ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد بلعظ مت فقيرا ولا تمت غنيا وكلاهما ضعيف

(٣) حديث أن الله يحب الفقير المتعفف أبا أليال: ابن ماجه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم

(٤) حديث يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام: الترمذي من حديث أبي هريرة

وقال حسن صحيح وقد تقدم

(٥) حديث دخولهم قبلهم بأربعين خريفا: مسلم من حديث عبد الله بن عمرو وإلأنه قال فقراء المهاجرين

والترمذي من حديث جابر وأنس

على القتي الرائب . وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتاً بين  
الفقراء في درجاتهم ، وكان الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقر  
الزاهد ، إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة

ولا تظن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجري على لسانه جزافاً وبالتفاق ،  
بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي  
يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين  
جزءاً من النبوة » فإنه تقدير تحقيق لا محالة . ولكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة  
تلك النسبة إلا بتخمين . فأما بالتحقيق فلا . إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق  
غيره ، وهو يختص بأنواع من الخواص

أحدها : أنه يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته ، والملائكة ، والدار الآخرة ،  
لا كما يعلمه غيره ، بل بخلافه بكثرة المعلومات ، وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف  
والثاني : أنه في نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للمعادات ، كما أن لنا صفة بها تتم الحركات  
المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة ، وإن كانت القدرة والمقدور جميعاً من فعل الله تعالى  
والثالث : أنه له صفة بها يبصر الملائكة وبشاهدهم ، كما أن للبصير صفة بها يفارق الأعمى  
حتى يدرك بها المبصرات . والرابع : أنه له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب ، إماني اليقظة  
أوفي المنام ، إذ بها يطالع اللوح المحفوظ ، فيرى ما فيه من الغيب

فهذه كالات وصفات يعلم ثبوتها الأنبياء ، ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام ،  
وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين ، وإلى خمسين ، وإلى ستين ، ويمكننا أيضاً أن نتكلف تقسيمها  
إلى ستة وأربعين ، بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءاً واحداً من جملتها . ولكن تعيين طريق  
واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين ، فلا ندري تحقيقاً أنه الذي أراده  
رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا ، وإنما المعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها ،  
وكذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير

( ١ ) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة : البخاري من حديث أبي سعيد ورواه  
هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبد بن الصامت وأنس بن مالك رضي الله عنهم . الحديث : وقد تقدم



فكذلك ندلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق ، فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلاً على نصف سدس درجة الفقير الزاهد ، حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة ، واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام ، فليس في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ، ولا وثوق به . والغرض التنبيه على من هاج التقدير في أمثال هذه الأمور ، فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق ، وحاشا لمنصب النبوة عن ذلك . ولنرجع إلى نقل الأخبار ، فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضاً <sup>(١)</sup> « خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَقَرَاؤُهَا وَأَسْرَعُهَا تَضَجُّعًا فِي الْجَنَّةِ ضُعْفَاؤُهَا » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنَّ لِي جَرَفَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ قَمْنٍ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَحَبَّنِي وَمَنْ أُبْغَضَهُمَا فَقَدْ أُبْغَضَنِي الْفَقْرَ وَالْجِهَادَ » . وروي <sup>(٣)</sup> أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد ، إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول : أنحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً وتكون معك أينما كنت ؟ فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال « يَا جَبْرِيلُ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَادَارَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لَامَالَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَاعْقَلَ لَهُ » فقال له جبريل : يا محمد ، ثبتك الله بالقول الثابت

وروي أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة ، فأيقظه وقال يا نائم قم فاذاكر الله تعالى . فقال ما تريد مني ؟ إني قد تركت الدنيا لأهلها . فقال له فقم إذا يا حبيبى . ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب ونحمت رأسه لبنة ، ووجهه ولحيته في التراب ، وهو متزرب عباءة : فقال يارب عبدك هذا في الدنيا ضائع فأوحى الله تعالى إليه . يا موسى : أما علمت أني إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها وعن <sup>(٤)</sup> أبي رافع أنه قال : ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف ، فلم يجد عنده

( ١ ) حديث خير الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاءها : لم أجده أصلاً

( ٢ ) حديث انلى حرفتين اثنتين - الحديث : وفيه الفقر والجهاد لم أجده أصلاً

( ٣ ) حديث ان جبريل نزل فقال ان الله يقرأ عليك السلام ويقول أنحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً - الحديث :

وفيه ان الدنيا دار من لا دار له - الحديث : هذا ملفق من حديثين فروى الترمذى من حديث

أبي أمامة عرض على ربه ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً قلت لا يارب ولسكن أشجع يوماً وأجوع يوماً

الحديث : وقال حسن ولأحمد من حديث عائشة الدنيا دار من لا دار له . الحديث : وقد تقدم في ذم الدنيا

( ٤ ) حديث أبي رافع ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلني

ما يصلحه ، فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر ، وقال « قُلْ لَهُ : يَقُولُ لَكَ مُحَمَّدٌ أَسْلَفَنِي أَوْ يُعْنِي دَقِيقًا إِلَى هِلَالِ رَجَبٍ » قال فأتيته ، فقال لا والله إلا برهن . فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال « أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَمِينٌ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ أَمِينٌ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَوْ بَاعَنِي أَوْ أَسْلَفَنِي لَأَذِيتُ إِلَيْهِ أَذْهَبَ بِدِرْعِي هَذَا إِلَيْهِ فَأَرْهَنُهُ » فلما خرجت نزلت هذه الآية ( وَلَا تَمْدُنْ عُيُنُكَ إِلَى مَا تَتَعَنَّى بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا <sup>(١)</sup> ) الآية . وهذه الآية تنزيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « الْفَقْرُ أَرْزِينُ بِالْمُؤْمِنِ مِنَ الْمَذَارِ الْحَسَنِ عَلَى خَدِّ الْفَرَسِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سِرِّهِ عِنْدَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحِذَائِهِ »

وقال كعب الأحبار : قال الله تعالى لموسى عليه السلام ، يا موسى ، إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشمار الصالحين . وقال عطاء الخراساني . من نبي من الأنبياء بساحل ، فإذا هو برجل يصطاد حيتانا ، فقال بسم الله ، وألقى الشبكة . فلم يخرج فيها شيء . ثم مر بآخر ، فقال باسم الشيطان ، وألقى شبكته ، فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم . يارب ، ما هذا ؟ وقد علمت أن كل ذلك بيدك فقال الله تعالى للملائكة . اكشفوا العبدى عن منزلتيهما . فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ، ولذلك من الهوان ، قال رحمت يارب

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « أَطْلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَأَطْلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْأَغْنِيَاءَ وَالنِّسَاءَ » وفي لفظ آخر « فَقُلْتُ أَيْنَ الْأَغْنِيَاءَ فَقِيلَ جَبَسَهُمُ الْجُدُّ » وفي حديث آخر <sup>(٣)</sup> « فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ النِّسَاءَ »

إلى رجل من يهود خيبر - الحديث : في نزول قوله تعالى ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم الطبراني سند ضعيف

(١) حديث الفقر أَرْزِينُ بِالْمُؤْمِنِ مِنَ الْمَذَارِ الْحَسَنِ عَلَى خَدِّ الْفَرَسِ : الطبراني من حديث شداد بن أوس بسند

ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رواه ابن عدى في الكامل هكذا

(٢) حديث من أصبح منكم معافى في جسده - الحديث : الترمذى وقد تقدم

(٣) حديث أطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء - الحديث : تقدم في آداب النكاح مع الزيادة التي في آخره

فَقُلْتُ مَا شَأْنُهُنَّ فَقِيلَ شَغَلْنَهُنَّ الْأَنْحَرَانِ الدَّهَبُ وَالزَّعْفَرَانُ ،  
 وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « تُحْفَةُ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا الْفَقْرُ » وفي الخبر <sup>(٢)</sup> « آخِرُ  
 الْأَنْبِيَاءِ دُخُولُ الْجَنَّةِ سَلَامًا » بَنُ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لِمَكَانٍ مُلْكِهِ وَآخِرُ أَصْحَابِي  
 دُخُولُ الْجَنَّةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ لِأَجْلِ غَنَاهُ » وفي حديث آخر <sup>(٣)</sup> « رَأَيْتُهُ دَخَلَ  
 الْجَنَّةَ زَحْفًا » . وقال المسيح صلى الله عليه وسلم . بشدة يدخل النفي الجنة  
 وفي خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال <sup>(٤)</sup> « إِذَا  
 أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ فَإِذَا أَحَبَّهُ الْحُبُّ الْبَالِغُ اقْتَنَاهُ » قيل وما اقتناه ؟ قال « لَمْ يَتْرُكْ  
 لَهُ أَهْلًا وَلَا مَالًا » . وفي الخبر <sup>(٥)</sup> « إِذَا رَأَيْتَ الْفَقْرَ مُقْبِلًا فَقُلْ مَرْحَبًا بِشِعَارِ  
 الصَّالِحِينَ وَإِذَا رَأَيْتَ الْغِنَى مُقْبِلًا فَقُلْ ذَنْبٌ عَجَلَتْ عُقُوبَتُهُ »  
 وقال موسى عليه السلام . يارب من أحبائك من خلقتك حتى أحبهم لأجلك ؟ فقال كل  
 فقير فقير . فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد ، ويمكن أن يراد به الشديد الضر  
 وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه : إني لأحب المسكنة وأبغض النعماء . وكان  
 أحب الأسامي إليه صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين .  
 ولما <sup>(٦)</sup> قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوم ،

( ١ ) حديث تحفة المؤمن في الدنيا الفقر : رواه محمد بن خفيف الشيرازي في شرف الفقر وأبو منصور الديلمي  
 في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به ورواه أبو منصور أيضا فيه  
 من حديث ابن عمر . بسند ضعيف جدا

( ٢ ) حديث آخر الأنبياء دخول الجنة سلبا - الحديث : تقدم وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد وفيه تكرار

( ٣ ) حديث رأيته يعني عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا : تقدم وهو ضعيف

( ٤ ) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه - الحديث : الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني

( ٥ ) حديث إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته

أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه قال قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام يا موسى فذكره بزيادة

في أوله ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف

( ٦ ) حديث قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما - الحديث :

في نزول قوله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم الآية تقدم من حديث خباب وليس

فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم إذا عرفوا وهذه الزيادة من حديث سلمان

يجبون إليك ولا نجى ونجى إليك ولا يجبون ، يعنون بذلك الفقراء ، مثل بلال ، وسلمان ، وصهيب ، وأبي ذر ، وخباب بن الأرت ، وعمار بن ياسر ، وأبي هريرة ، وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين : أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وذلك لأنهم شكوا إليه التأذى برائحهم ، وكان لباس القوم الصوف في شدة الحر ، فإذا عرفوا فاحت الروائح من ثيابهم ، فاشتد ذلك على الأغنياء ، منهم الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري ، وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم . فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد ، فنزل عليه قوله تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ<sup>(١)</sup>) (يعني الفقراء) (تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا<sup>(٢)</sup>) (يعني الأغنياء) (وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا<sup>(٣)</sup>) (يعني الأغنياء) (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ<sup>(٤)</sup>) (الآية .<sup>(٥)</sup> واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم ، فانزل الله تعالى (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَنْحَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي أَوْ يَدْكُرُ نَفَقَةً اللَّهِ كَرَى<sup>(٦)</sup>) (يعني ابن أم مكتوم) (أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى<sup>(٧)</sup>) (يعني هذا الشريف

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال<sup>(٨)</sup> «يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُعْتَذِرُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ كَمَا يُعْتَذِرُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ وَعِزِّي وَجَلَالِي مَا زَوَيْتُ الدُّنْيَا عَنْكَ لَهْوَانِكَ عَلَيَّ وَلَكِنْ لِمَا أَعْدَدْتُ لَكَ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْمُضِلَّةِ أَخْرُجْ يَا عَبْدِي إِلَى هَذِهِ

(١) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ونزول

قوله تعالى عبس وتولى : الترمذي من حديث عائشة وقال عريب قات ورحاله رجال الصبح

(٢) حديث يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعذر الله إليه كما يعذر الرجل إلى الرجل في الدنيا فيقول وعزني وجلالي ما زويت الدنيا عنك

ما زويت الدنيا عنك لهوامك على - الحديث : أبو الشيخ في كتاب النواب من حديث أنس

بإسناد ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أدبوا مني أحيان فتقول الملائكة ومن أحيانك

فيقول فقراء المسلمين فيدون منه فيقول أما لي لم أرو الدنيا عنكم لهوان كان بكم على ولكن أردت

بذلك أن أصعب لكم كرامتي اليوم وتمموا على ما شئتم اليوم - الحديث : دون آخر الحديث

وأما أول الحديث مرواه أبو يعين في الحلية وسيأتي في الحديث الذي بعده

(١) (٣، ٢، ١) الكهف : ٢٨ (١) الكهف : ٢٩ (٦٠، ٥) عبس : ١ - ٥

الصفوف فمن أطعمك في أو كسأك في يريد بذلك وجهي فخذ بيده فهو لك والناس يومئذ قد أجمعهم ألترق فتدخل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة . وقال عليه السلام <sup>(١)</sup> «أكثرُوا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة» قالوا يا رسول الله وما دولتهم؟ قال «إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة» وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> «دخلت الجنة فسمعت حركات أممي فنظرت فإذا بالال ونظرت في أغلاها فإذا فقراء أمتي وأولادهم ونظرت في أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء قليل فقالت يا رب ما شأنهم قال أما النساء فأضربن الأجران الذهب والحريروا وأما الأغنياء فاستغلوا بطول الحساب وتفقدت أصحابي فلم أر عبد الرحمن ابن عوف ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكي فقالت ما خلفك عني قال يا رسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت المشيبات وظننت أني لأراك فقالت ولم؟ قال كنت أحسب بمالي » فانظر إلى هذا ، وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من العشرة <sup>(٣)</sup> المخصوصين بأنهم من أهل الجنة ، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> «لأمن قال بالمال هكذا وهكذا ، ومع هذا فقد استضر بالنفي إلى هذا الحد

<sup>(٥)</sup> ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير ، فلم ير له شيئا . فقال «لو قسم

( ١ ) حديث أكثرُوا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فان لهم دولة - الحديث : أبو نعيم في الحلية

من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف اتخذوا عند الفقراء أيادي فان لهم دولة يوم القيامة

فإذا كان يوم القيامة نادى مناد سيروا إلى الفقراء فيعترف اليهم كما يعتذر أحدكم إلى أخيه في الدنيا

( ٢ ) حديث دخلت الجنة فسمعت حركة أممي فنظرت فإذا بالال ونظرت في أغلاها فاذا فقراء أمتي وأولادهم

الحديث : الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف نحوه وقصة بالال في الصحيح من طريق آخر

( ٣ ) حديث ان عبد الرحمن بن عوف أحد المشرقة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة : أصحاب السنن الأربعة

من حديث سعيد بن زيد قال الترمذي حسن صحيح

( ٤ ) حديث الأمن قال بالمال هكذا وهكذا : متفق عليه من حديث أبي ذر في أساء - حديث تقدم

( ٥ ) حديث دخل على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم : لم أجده

نورٌ هَذَا عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَوْ سَمِعَهُمْ ، وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمُلُوكِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » قالوا بلى يا رسول الله . قال « كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ أَغْبَرَ أَشْمَثَ ذِي طَمَرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّةُ »

<sup>(٢)</sup> وقال عمران بن حصين : كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه . فقال « يَا عِمْرَانُ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا مَنْزِلَةً وَجَاهًا فَهَلْ لَكَ فِي عِيَادَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قلت نعم بآنى أنت وأمى يا رسول الله . فقام وقت معه ، حتى وقف بباب فاطمة ، ففرع الباب وقال « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ ؟ » فقالت ادخل يا رسول الله . قال « أَنَا وَمَنْ مَعِيَ ؟ » قالت ومن معك يا رسول الله ؟ قال « عِمْرَانُ » فقالت فاطمة والذي بعثك بالحق نبيا ما عليّ إلا عباة . قال « اصْنَعِي بِهَا هَكَذَا وَهَكَذَا » وأشار بيده . فقالت هذا جسدى قد واريته فكيف برأسى ؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة ، فقال « شُدِّى بِهَا عَلَى رَأْسِكَ » ثم أذنت له فدخل ، فقال « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا بِنْتَاهُ كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ » قالت أصبحت والله وجمعة ، وزادنى وجعا على ما بى أنى لست أقدر على طعام آكله ، فقد أضربى الجوع . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لَا تَجْزَعِي يَا بِنْتَاهُ فَوَ اللَّهِ مَا ذُقْتُ طَعَامًا مُنْذُ ثَلَاثٍ وَإِنِّى لَا كَرُمُ عَلَى اللَّهِ مِنْكَ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّى لَأَطْعَمَنِى وَلَكِنِّى آتَرْتُ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا » ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها « أَبْشِرِي فَوَ اللَّهِ إِنَّكَ لَسَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » قالت فأين آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ؟ قال « آسية سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَمَرْيَمُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَأَنْتِ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِكَ إِنَّكَ لَنْ تُبُوتَ مِنْ قَصَبٍ لَا أَدَى فِيهَا وَلَا صَخَبٍ وَلَا نَصَبٍ » ثم قال لها « اقْنَعِي بِابْنِ عَمِّكَ نَوَّالَهُ لَقَدْ زَوَّجْتُكَ سَيِّدًا فِي الدُّنْيَا سَيِّدًا فِي الْآخِرَةِ »

وروى عن علي كرم الله وجهه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال <sup>(٣)</sup> « إِذَا أَبْغَضَ

( ١ ) حديث ألا أخبركم عن ملوك الجنة - الحديث : متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مخضرا ولم يؤولا ملوك وقد تقدم ولا بن ماجه بسند جيد من حديث معاذ ألا أخبركم عن ملوك الجنة الحديث : دون قوله أغبر أشعث .

( ٢ ) حديث عمران بن حصين كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال يا عمران ان لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة - الحديث : تقدم

( ٣ ) حديث إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا الحديث : أبوه نصور الديلمي بإسناد فيه جهالة وهو مكر

النَّاسُ فَقَرَاءَهُمْ وَأَظْهَرُوا عِمَارَةَ الدُّنْيَا وَتَكَالَبُوا عَلَى جَمْعِ الدَّرَاهِمِ رَمَاهُمْ اللَّهُ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ بِالْقَحْطِ مِنَ الزَّيْمَانِ وَالْجَوْرِ مِنَ السُّلْطَانِ وَالْخِيَانَةِ مِنَ وَلَاةِ الْأَخْكَامِ وَالشَّوْكَةِ مِنَ الْأَعْدَاءِ »

وأما الآثار : فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ذو الدرهمين أشد حبسا ، أو قال أشد حسابا من ذى الدرهم . وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار ، - فجاء حزينا كثيرا ، فقالت امرأته : أحدث أمر ؟ قال أشد من ذلك . ثم قال : أربنى درعك الخلق . فشقه وجعله صررا وفرقه ، ثم قام بصلى ويبكى إلى الغداة ، ثم قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (١) « يَدْخُلُ فَقْرَاءُ أُمْتِي الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ حَتَّى أَنْ الرَّجُلَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ يَدْخُلُ فِي غَمَارِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِيَدِهِ فَيُسْتَخْرَجُ »

وقال أبو هريرة : ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب : رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ، ورجل لم ينصب على مستوق قدري ، ورجل دعا بشرابه فلا يقال له أيها تريد وقيل جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله ، فقال له تخط ، لو كنت غنيا لما قربت بك . وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء ، لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء . وقال المؤمل : ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري ، ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله . وقال بعض الحكماء : مسكين ابن آدم ، لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منها جميعا . ولو رغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعا . ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعا .

وقال ابن عباس . ملعون من أكرم بالفنى وأهان بالفقر . وقال لقمان عليه السلام لابنه : لا تحتقرن أحدا خلقتا ثيابه ، فإن ربك وربيه واحد

وقال يحيى بن معاذ : حبك الفقراء من أخلاق المرسلين ، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين ، وفراذك من صحبتهم من علامة المنافقين . وفي الأخبار عن الكتب

( ١ ) حديث سعيد بن عامر يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام - الحديث : وفي أوله قصة أن عمر بعث الى سعيد بألف دينار فجاء كئيبا حزينا وفرقها وقدرى أحمد في الزهد القصة الا ان قال كسعين عاما وفي اسناده يزيد بن أبي زياد تكلم فيه وفي رواية له بأربعين سنة واما دخولهم قباهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه وقد تقدم قبل هذا بورقين

السالفة ، أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام : احذر أن أمقتك فتسقط من عيني ، فأصب الدنيا عليك صبا

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد ، يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما ، وإن درعها لمرقوع ، وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحما تفطرين عليه ؟ وكانت صائفة ، فقالت لو ذكر تبني لفعلت . وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال <sup>(١)</sup> « إِنْ أَرَدْتَ اللُّحُوقَ بِي فَعَلَيْكَ بِمَعِيشِ الْفُقَرَاءِ وَإِيَّاكَ وَجَالَسَةِ الْأَغْنِيَاءِ وَلَا تَنْزَعِي دِرْعَكَ حَتَّى تُرَقِّعِيهِ »

وجاء رجل إلى إبراهيم بن آدم بعشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبلها . فألح عليه الرجل ، فقال له إبراهيم . أريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ؟ لأفعل ذلك أبدا رضي الله عنه .

## بيان

فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَكَانَ عَيْشُهُ كِفَافًا وَفَنَعَ بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « يَامَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ أَعْطُوا اللَّهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَطَفَّرُوا بِثَوَابٍ فَقَرَّكُمْ وَإِلَّا فَلَا » فالأول القانع ، وهذا الراضى . ويكاد يشمر هذا بمفهومه أن الحريص لا ثواب له على فقره . ولكن المومات الواردة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتى تحقيقه . فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه . ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله . فذلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر .

( ١ ) حديث قال لعائشة ان أردت اللحوق بي فعليك بمعيش الفقراء وإياك وجالسة الاغنياء - الحديث :

الترمذى وقال غريب والحاكم وصححه نحوه من حديثها وقد تقدم

( ٢ ) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وفنع به - رواه مسلم وقد تقدم

( ٣ ) حديث يامعشر الفقراء اعطوا الله الرضا من قلوبكم - الحديث : أبو منصور الديلى فى مسند

الفردوس من حديث أبى هريرة وهو ضعيف جدا فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصرى

متهم بالكذب ووضع الحديث :



وروي عن ممر بن الزيات، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: <sup>(١)</sup> «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ مِفْتَاحًا وَمِفْتَاحُ الْجَنَّةِ حُبُّ الْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ لِبَصِيرَةٍ مِنْهُمْ مُجَلَّسَاءُ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ». وروي عن علي كرم الله وجهه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: <sup>(٢)</sup> «أَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْفَقِيرُ الْقَانِعُ بِرِزْقِهِ الرَّاضِي عَنِ اللَّهِ تَعَالَى». وقال صلى الله عليه وسلم: <sup>(٣)</sup> «اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كِفَافًا» وقال: <sup>(٤)</sup> «مَا مِنْ أَحَدٍ غَنِيَ وَلَا فَقِيرٍ إِلَّا وَدَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ أَرْتِي قُوتًا فِي الدُّنْيَا وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى إسماعيل عليه السلام، اطلبني عند المنكسرة قلوبهم. قال ومنهم من قال الفقراء الصادقون. وقال صلى الله عليه وسلم: <sup>(٥)</sup> «لَا أَحَدٌ أَفْضَلُ مِنَ الْفَقِيرِ إِذَا كَانَ رَاضِيًا» وقال صلى الله عليه وسلم: <sup>(٦)</sup> «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ صَفْوَتِي مِنْ خَلْقِي فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ وَمَنْ هُمْ يَا رَبَّنَا فَيَقُولُ فَقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ الْقَانِعُونَ بِعَطَائِي الرَّاضُونَ بِقَدْرِي أَدْخِلُوهُمْ الْجَنَّةَ فَيَدْخُلُونَهَا وَيَأْكُلُونَ وَيَسْرُبُونَ وَالنَّاسُ فِي الْحِسَابِ يَتَرَدَّدُونَ»

فهذا في القانع والراضي، وأما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى. وأما الآثار في الرضا والقناعة فكثيرة. ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع. وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه: إن الطمع فقر، والياس غنى، وإنه من يش عما في أيدي الناس وقع، استغنى عنهم، وقال أبو مسعود رضي الله تعالى عنه: ما من يوم إلا وملك ينادي من تحت العرش: يا ابن آدم، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك. وقال أبو الدرداء

(١) حديث أن لكل شيء مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين - الحديث: الدارقطني في غرائب مالك

وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق وابن عدي في الكامل وابن جبان في الضعفاء من حديث ابن عمر

(٢) حديث أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضي من الله: لم أجده بهذا اللفظ وتقدم عند ابن ماجه

حديث أن الله يحب الفقير المتعفف

(٣) حديث اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا: مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بلفظ قوتنا وقد تقدم

(٤) حديث ما من أحد غنى ولا فقير إلا ودَّ يوم القيامة أن كان أوتي قوتنا في الدنيا: ابن ماجه من حديث انس وقد تقدم

(٥) حديث لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا: لم أجده بهذا اللفظ

(٦) حديث يقول الله يوم القيامة أين صفوتي من خلقي فتقول الملائكة ومن هم ياربنا فيقول فقراء المسلمين

الحديث: أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس

ورضى الله تعالى عنه . ما من أحد إلا وفي عقله نقص ، وذلك أنه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحاً مسروراً ، والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك . ويح ابن آدم ، ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص ؟ وقيل لبعض الحكماء ما الغنى ؟ قال قلة تمنيك ، ورضاك بما يكفيك . وقيل كان ابراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان ، فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر ، وفي يده رغيف يأكله . فلما أكل نام . فقال لبعض غلمانه إذا قام بغثي به . فلما قام جاء به إليه . فقال ابراهيم . أيها الرجل ، أكلت الرغيف وأنت جائع ؟ قال نعم . قال فشبعتم ؟ قال نعم . قال ثم نمت طيباً ؟ قال نعم . فقال ابراهيم في نفسه . فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر ؟ . ومرو رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحاً وبقلاً . فقال له . يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا ؟ فقال ألا أدلك على من رضي بشر من هذا ؟ قال بلى ، قال من رضي بالدنيا عوضاً عن الآخرة

وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزاً يابساً ، فيبله بالماء ، ويأكله بالملح ، ويقول . من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد وقال الحسن رحمه الله . لعن الله أقواماً أنسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه . ثم قرأ ( وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ<sup>(١)</sup> ) الآية . وكان أبو ذر رضي الله تعالى عنه يوماً جالساً في الناس ، فأتته امرأته فقالت له . أتجلس بيت هؤلاء ؟ والله ما في البيت هفة ولا سفة ، فقال ياهذه ، إن بين أيدينا عقبة كؤوداً ، لا ينجو منها إلا كل مخف . فرجعت وهي راضية . وقال ذو النون رحمه الله . أقرب الناس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له . وقيل لبعض الحكماء . ما مالك ؟ فقال التجمل في الظاهر ، والقصد في الباطن والياس مما في أيدي الناس . وروي أن الله عز وجل قال في بعض الكتب السالفة المنزلة . يا ابن آدم ، لو كانت الدنيا كلها لك ، لم يكن لك منها إلا القوت . فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك ، فأنا محسن إليك وقد قيل في القناعة

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس      واقنع يأس فإن العز في اليأس  
واستغن عن كل ذي قربى وذو رحم      إن الغنى من استغنى عن الناس

وقد قيل في هذا المعنى أيضا

يا حامعا مانما والدهر يرمقه	مقدرا أى باب منه يلقه
مفكرا كيف تأتبه منيته	أغاديا أم بها يسرى فطرته
جمعت ما لا قبل لي هل جمعت له	يا جامع المال أياما تفرقه
المال عندك مخزون لو ارثه	ما المال مالك إلا يوم تنفقه
إرفه بيال فتى يفتدو على ثقة	إن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنس	والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها	لم يبق في ظلها هما يؤثره

## بيان

فضيلة الفقر على الغنى

اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا . فذهب الجند ، والخواص ، والأكثرون ، إلى تفضيل الفقر . وقال ابن عطاء : الغني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر . ويقال إن الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه في هذا ، فأصابته محنة ، وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر ووجه التفاوت بين الصبر والشكر ، ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل . فأما الفقر والغنى إذا أخذنا مطلقا ، لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر ، ولا بد فيه من تفصيل فنقول :

إنما يتصور الشك في مقامين . أحدهما : فقير صابر ، ليس بحريص على الطلب ، بل هو قانع أو راض ، بالإضافة إلى غني منفق ماله في الخيرات ، ليس حريصا على إمساك المال والثاني : فقير حريص ، مع غني حريص . إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص المسك ، وأن الغني المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص

أما الأول ، فربما يظن أن الغني أفضل من الفقير ، لأنهما تساويا في ضعف الحرص على المال ، والغني متقرب بالصدقات والخيرات ، والفقير عاجز عنه . وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيما نحسبه . فأما الغني المتمتع بالمال ، وإن كان في مباح ، فلا يتصور . أن يفضل على

الفقير القانع . وقد يشهد له ماروي في الخبر ، الفقراء<sup>(١)</sup> شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات ، والصدقات ، والحج ، والجهاد ، فعلمهم كلمات في التسبيح ، وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ما ناله الأغنياء ، فتعلم الأغنياء ذلك فساكنوا يقولونه ، فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه ! فقال عليه السلام : ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » وقد استشهد به ابن عطاء أيضا لما مثل عن ذلك فقال : الغني أفضل لأنه وصف الحق أما دليله الأول فقيه نظر ؛ لأن الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك ، وهو أن ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب النبي ، وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء ، فقد روى<sup>(٢)</sup> زيد بن أسلم ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : بعث الفقراء رسولا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال إني رسول الفقراء إليك ، فقال « مَرْحَبًا بِكَ وَبِمَنْ جِئْتَ مِنْ عِنْدَهُمْ قَوْمٌ أَحِبُّهُمْ » قال قالوا يا رسول الله ، إن الأغنياء ذهبوا بالخبر ، يحجون ولا تقدر عليه ، ويعتمرون ولا تقدر عليه ، وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بَلِّغْ عَنِّي الْفُقَرَاءَ أَنَّ لِمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ خِصَالٍ لَيْسَتْ لِلْأَغْنِيَاءِ أَمَّا خِصْلَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ كَمَا يَنْظُرُ أَهْلُ الْأَرْضِ إِلَى بُحُورِ السَّمَاءِ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَبِيٌّ قَبِيرٌ أَوْ شَهِيدٌ قَبِيرٌ أَوْ مُؤْمِنٌ قَبِيرٌ وَالثَّانِيَةُ يَدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ يَنْصَفُ يَوْمٌ وَهُمْ خَمْسَانَةٌ عَامٍ وَالثَّالِثَةُ إِذَا قَالَ الْغَنِيُّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَقَالَ الْفَقِيرُ مِثْلَ ذَلِكَ لَمْ يُلْحَقِ الْغَنِيُّ بِالْفَقِيرِ وَلَوْ اتَّفَقَ

( ١ ) حديث شكى الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات - الحديث ؛

وفي آخره قتال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه

( ٢ ) حديث زيد بن أسلم عن أنس بعث الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا إن الأغنياء ذهبوا

بالجنة يحجون ولا تقدر عليه - الحديث : وفيه بلغ عن الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث

خصال ليست للأغنياء - الحديث : لم أجده هكذا بهذا السياق والمعروف في هذا المعنى ما رواه

ابن ماجه من حديث ابن عمر اشكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل

الله به عليهم أغنياءهم فقال يا معشر الفقراء ألا تبغون أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم

ينصف يوم خمسانة عام واسناده ضعيف

فِيهَا عَشْرَةُ آلَافٍ دِرْهَمٍ وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا » فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا : رَضِينَا رَضِينَا .

فهذا يدل على أن قوله ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ « أي من يدنو باب الفقراء على ذكرهم وأما قوله : إن الغني وصف الحق ، فقد أجابه بعض الشيوخ فقال : أترى أن الله تعالى غني بالأسباب والأعراض ؟ فانقطع ولم ينطق وأجاب آخرون فقالوا : إن التكبر من صفات الحق ، فينبغي أن يكون أفضل من التواضع . ثم قالوا : بل هذا يدل على أن الفقر لأفضل لأن صفات العبودية أفضل للعبد ، كالخوف والرجاء ، وصفات الربوبية لا ينبغي أن يتنازع فيها . ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي قَمَنُ نَارِ غَنِيٍّ وَاحِدٌ مِنْهُمْ قَصَصْتُهُ » وقال سهل . حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها ، لأنهما من صفات الرب تعالى

فن هذا الجنس تسكموا في تفضيل الغني والفقر ، وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات ، وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها . إذ كما يناقض قول من فضل الغني بأنه صفة الحق بالتكبر ، فكذلك يناقض قول من ذم الغني لأنه وصف للعبد بالعلم والمعرفة ، فإنه وصف الرب تعالى ، والجهل والغفلة وصف العبد . وليس لأحد أن يفضل الغفلة على العلم . فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر ، وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره ، فينبغي أن يضاف إلى مقصوده ، إذ به يظهر فضله . والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عاتقة عن الوصول إلى الله تعالى . ولا الفقر مطلوباً لعينه ، لكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى ، وعدم الشاغل عنه . وكمن غي لم يشغله الغنى عن الله عز وجل . مثل سليمان عليه السلام ، وعثمان ، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما ، وكمن فقير يشغله الفقر وصرفه عن المقصد . وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والأنس به ، ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته ، وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن ، والفقر قد يكون من الشواغل ، كما أن الغنى قد يكون من الشواغل . وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا ، إذ لا يجتمع معه حب الله في القلب . والمحبة للشيء مشغول به سواء كان

(١) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة ازارى : تقدم في العلم وغيره

في فراقه أوفى وصاله . وربما يكون شغله في الفراغ أكثر، وربما يكون شغله في الوصال أكثر والديناميعة المشوقة الغافلين ، المحروم منها مشغول بطلبها ، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها فإذا إن فرضت فارغين عن حب المال ، بحيث صار المال في حقهما كالماء ، استوى الفاقد والواجد ، إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة . ووجود قدر الحاجة أفضل من فقدته إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة ، وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد ، إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، ومن العصمة أن لا يقدر . ولذلك قال الصحابة رضي الله عنهم . بلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر . وهذه مخلقة لآدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادرا . ولما كان نخطاب الشرع مع الكل ، لامع ذلك النادر ، والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر ، زجر الشرع عن الغنى وذمه ، وفضل الفقر ومدحه ، حتى قال المسيح عليه السلام . لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا ، فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم وقال بعض العلماء : تقلب الأموال بمص حلاوة الإيمان . وفي الخبر « إن <sup>(١)</sup> لِكُلِّ أُمَّةٍ عِجْلٌ وَعِجْلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الدِّينَارُ وَالْدِّرْهُمُ » وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا . واستواء المال والماء ، والذهب والحجر ، إنما يتصور للأنبياء عليهم السلام والأولياء . ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة ، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> يقول للدنيا « إِلَيْكَ حَتَّى » إذ كانت تتمثل له بزينتها . وكان علي كرم الله وجهه يقول . يا صفراء غري غري ويا بيضاء غري غري . وذلك لاستشماره في نفسه ظهور مبادئ الاغترار بها . لولا أن رأى برهان ربه . وذلك هو الغنى المطلق . إذ قال عليه الصلاة والسلام <sup>(٣)</sup> « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ »

وإذا كان ذلك بعيدا ، فإذا الأصلح لكافة الخلق فقد المال وإن تصدقوا به وضرّفوه إلى الخيرات ، لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنسٍ بالدنيا ، وتمتع بالقدرة عليها

( ١ ) حديث لكل أمة مجل ومجل هذه الامة الدينار والدرهم : أبو منصور الديلمي من طريق أبي عبد الرحمن

السلي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة

( ٢ ) حديث كان يقول للدنيا اليك عني - الحديث : الحاكم مع اختلاف وقد تقدم

( ٣ ) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

واستشعار راحة في بذلها ، وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم . وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة . وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه . ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجا في القلب عن الدنيا وزهرتها . والقلب إذا تجا في عما سوى الله تعالى ، وكان مؤمنا بالله ، انصرف لالحالة إلى الله إذ لا يتصور قلب فارغ ، وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره . فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ، ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ، ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر ، وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر . ومثلها مثل المشرق والغرب ، فإنهما جهتان ، فالتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر . بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر . فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى ، فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنسه بها .

فإذا فضل الفقير والغني بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط . فإن تساوا يافيه تساوت ذرجتهما إلا أن هذا مزلة قدم وموضع غرور . فإن الغني ربما يظن أنه منقطع القلب عن المال ، ويكون حبه دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به ، وإنما يشعر به إذا فقد . فليجرب نفسه بتفريقه ، أو إذا سرق منه ، فإن وجد لقلبه إليه التفاتاً ، فليعلم أنه كان مغروراً . فكم من رجل باع سرية لظنه أنه منقطع القلب عنها . فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية ، اشتعلت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه ، فتحقق إذاً أنه كان مغروراً ، وأن المشق كان مستكناً في القواد استكنان النار تحت الرماد . وهذا حال كل الأغنياء ، إلا الأنبياء والأولياء

وإذا كان ذلك محالاً أو بعيداً ، فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل ، لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف . وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته . فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها ، بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور . ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول . ولذلك قال بعض السلف . مثل من تبدد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفى النار بالحلفاء ، ومثل من يغسل يده من الغمر بالسملك . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها ، أفضل من عبادة غني ألف عام . وعن الضحاك قال :

من تدخل السوق فرأى شيئا يشتبه به ففسره واحتسب . فأر خيرا له من ألف دينار ينفعها كلها في سبيل الله تعالى . وقال رجل لبشر بن الحارث رحمه الله : ادع الله لي ، فقد أضربني العيال . فقال . إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز ، فادع الله لي في ذلك الوقت ، فإن دعائك أفضل من دعائي . وكان يقول . مثل النقي المتبدد مثل روضة على مزبلة ، ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحسناء .

وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه اللهم إني أسألك الدل عند النصف من نفسي ، والزهد فيما جاوز الكفاف . وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه في كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها ، فكيف يشك في أن فقد المال أصلح من وجوده ؟ هذا مع أن أحسن أحوال النفي أن يأخذ حلالا ، وينفق طيبا ، ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ، ويطول انتظاره . ومن نوقش الحساب فقه عذب . ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الحجة ، إذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه : ما أحب أن لي حانوتا على باب المسجد ، ولا نخطئ في صلاة وذكر ، وأرمح كل يوم خمسين دينارا ، وأتصدق بها في سبيل الله تعالى . قيل وما تكره ؟ قال سوء الحساب .

ولذلك قال سفيان رحمه الله : اختار الفقراء ثلاثة أشياء ، واختار الأغنياء ثلاثة أشياء . اختار الفقراء راحة النفس ، وفراغ القلب ، وخفة الحساب . واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب ، وشدة الحساب . وما ذكره ابن عطاء من أن النفي وصف الحق ، فهو بذلك أفضل ، فهو صحيح ، ولكن إذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا ، بأن يستوي عنده كلاهما . فأما إذا كان غنيا بوجوده ، ومفتقر إلى بقاءه ، فلا يضاهي غناه غنى الله تعالى لأن الله تعالى غني بذاته ، لا بما يتصور زواله . والمال يتصور زواله بأن يسرق . وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنيا بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غني يريد بقاء المال . وما ذكر من أن صفات الحق لا تليق بالمبد غير صحيح . بل العلم من صفاته ، وهو أفضل شيء للمبد . بل منتهى المبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى . وقد سمعت بعض المشايخ يقول



إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسمون  
أوصافاً له . أى يكون له من كل واحد نصيب

وأما التكبر فلا يليق بالعبد ، فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات  
الله تعالى . وأما التكبر على من يستحقه ، كتكبر المؤمن على الكافر ، وتكبر العالم على الجاهل  
والمطيع على العاصي ، فيليق به . نعم قد يراد بالتكبر الزهو ، والصلف ، والإيذاء ، وليس  
بذلك من وصف الله تعالى . وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء ، وأنه يعلم أنه  
كذلك . والعبد مأمور بأنه يطلب أعلى المراتب إن قدر عليه ، ولكن بالاستحقاق كما  
هو حقه ، لا بالباطل والتليس . فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر ، والمطيع  
أكبر من العاصي ، والعالم أكبر من الجاهل ، والإنسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات  
وأقرب إلى الله تعالى منها . فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤيية محقة لاشك فيها ، وكانت  
صفة التكبر حاصلة له ، ولا ثقة به ، وفضيلة في حقه . إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته ، فإن ذلك  
موقوف على الخاتمة ، وليس يدري الخاتمة كيف تكون ، وكيف تتفق . فلجبهه بذلك وجب  
أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر ، إذ ربما يحتمل للكافر بالإيمان ، وقد يحتمل له بالكفر  
فلم يكن ذلك لا ثقة به لقصور علمه عن معرفه العاقبة .

ولما تصوّر أن يعلم الشيء على ما هو به ، كان العلم كمالاً في حقه ، لأنه في صفات الله تعالى  
ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره ، صار ذلك العلم نقصاً نافي حقه . إذ ليس من أوصاف  
الله تعالى علم يضره ، فمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تتصور في العبد من صفات الله  
تعالى فلا جرم هو منتهى الفضيلة ، وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء

فإذا لو استوى عنده وجود المال وعدمه ، فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه  
الغنى الذي يوصف به الله سبحانه ، فهو فضيلة . أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلاً  
فهذا يبان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغنى الشاكر .

المقام الثاني : في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغنى الحريص

ولنفرض هذا في شخص واحد ، هو طالب للمال ، وساع فيه ، وفاتد له ثم وجده ، فله  
حالة الفقد وحالة الوجود . فأى حالتيه أفضل ؟ فنقول . ننظر ، فإن كان مطلوبه ما لا يبد

منه في الميمنة ، وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ، ويستعين به عليه ، خال الوجود أفضل . لأن الفقر يشغله بالطلب . ومطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر إلا قدرة مدخولة بشغل . والمكفي هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَقُوتِ آلِ إِبْرَاهِيمَ » وقال « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا » أي الفقر مع الاضطراب فيما لا بد منه وإن كان المطلوب فوق الحاجة ، أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين ، فحالة الفقر أفضل وأصلح ، لأنها استويا في الحرص وحب المال ، واستويا في أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين ، واستويا في أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى . ولكن افتدافا أن الواحد يأنس بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ، ويطمئن إلى الدنيا ، والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا ، وتكون الدنيا عنده كالسجن الذي ينبغي الخلاص منه . ومهما استوت الأمور كلها ، وخرج من الدنيا رجلان ، أحدهما أشد ركونا إلى الدنيا فحالها أشد لاحالة ، إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ، ويستوحش من الآخرة ، بقدر تأكده أنسه بالدنيا ، وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أُحِبُّ مَنْ أُحِبَّتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ » وهذا تنبيه على أن فراق المحبوب شديد . فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا . فإنك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى ، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه ، وفراقك لما تحبه . وكل من فارق محبوبا فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقدر أنسه به . وأنس الواحد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لها ، وإن كان حريصا عليها . فإذا قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف ، والأفضل والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين : أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضي الله عنها ، يستوى عنده الوجود والعدم ، فيكون الوجود مزيدا له ، إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع همهم ، والثاني : الفقر عن مقدار الضرورة ، فإن ذلك يكاد أن يكون كفرا ، ولا خير فيه بوجه من الوجوه ، إلا إذا كان وجوده يبقو حياته ، ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والمعاصي ، ولومات جو عال كانت معاصيه أقل ، فالأصلح له أن يموت جوعا ولا يجرد ما يضطر إليه أيضا

(١) حديث الروح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة: تقدم

فهذا تفصيل القول في الفنى والفقر . ويبقى النفل في فقير حريص متكالب على طالب المال ، ليس له ثمّ سواء ، وفي غنىّ دونه في الحرّين على حفظ المال . ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره ، فهذا في محل النظر . والأظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال ، وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقدته ، والعلم عند الله تعالى فيه

## بيان

آداب الفقير في فقره

اعلم أن للفقير اداباً في باطنه وظاهره ، ومخالطته وأفعاله ، ينبغى أن يراعيها . فأما أدب باطنه فإن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر . أعنى أنه لا يكون كارهاً فعل الله تعالى من حيث إنه فعله ، وإن كان كارهاً للفقر . كالحجّوم يكون كارهاً للحجامة لتألمه بها ، ولا يكون كارهاً فعل الحجّام ، ولا كارهاً للحجّام . بل ربما يتقلد منه منّة . فهذا أقل درجاته ، وهو واجب ، ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر وهو معنى قوله عليه السلام « يَأْمَعُشَرُ الْفُقَرَاءَ أُعْطُوا اللَّهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقَرِكُمْ وَإِلَّا فَلَا » وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقر ، بل يكون راضياً به

وأرفع منه أن يكون طالباً له ، وفرحاً به ، لعلمه بنوائل الفنى ، ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى ، واثقاً به في قدر ضرورته أنه يأتيه لا محالة ، ويكون كارهاً للزيادة على الكفاف وقد قال علي كرم الله وجهه : إن لله تعالى عقوبات بالفقر ، ومثوبات بالفقر . فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة ، أن يحسن عليه خلقه ، ويطيع به ربه ، ولا يشكو حاله ، ويشكر الله تعالى على فقره . ومن علاماته إذا كان عقوبة ، أن يسوء عليه خلقه ، ويعصى ربه بترك طاعته ، ويكثر الشكاية ، ويتسخط القضاء

وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود . بل الذى لا يتسخط ويرضى ، أو يفرح بالفقر ويرضى لعلمه بشمرته . إذ قيل ما أعطي عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له خذ به على ثلاثة أثلاث : شغل ، وهم ؟ وطول حساب

وأما أدب ظاهره ، فإن يظهر التمعف والتجمل ، ولا يظهر الشكوى والفقر ، بل يستر فقره ، ويستر أنه يستره . ففي الحديث « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْفَقِيرَ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا أَلِيٍّ » وقال تعالى ( يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّقْوَى ) (١) وقال سفيان : أفضل الأعمال التجمل عند المحنة . وقال بعضهم : ستر الفقر من كنوز البر

وأما في أعماله ، فأدبه أن لا يتواضع لغني لأجل غناه ، بل يتكبر عليه . قال علي كرم الله وجهه . ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله تعالى ، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل . فهذه رتبة وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم ، لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثوري رحمه الله : إذا خالط الفقير الأغنياء فاعلم أنه ثمراء . وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين : إذا خالط الفقير الأغنياء انحلت عروته ، فإذا طمع فيهم انتطعت عصمته ، فإذا سكن إليهم ضل وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء ، وطمعا في العطاء

وأما أدبه في أفعاله فإن لا يفتقر بسبب الفقر عن عبادة ، ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فإن ذلك جهد المقل ، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى . (٢) روى زيد ابن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دِرْهَمٌ مِّنَ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ » قيل وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال « أَخْرَجَ رَجُلٌ مِّنْ عَرَضٍ مَّالِهِ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا وَأَخْرَجَ رَجُلٌ دِرْهَمًا مِّنْ دِرْهَمَيْنِ لَا يَمْلِكُ غَيْرَهُمَا طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ فَصَارَ صَاحِبُ الدِّرْهَمِ أَفْضَلَ مِنْ صَاحِبِ الْمِائَةِ أَلْفٍ »

وينبغي أن لا يدخر مالا ، بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي . وفي الادخار ثلاث درجات إحداها : أن لا يدخر إلا ليومه وليلته ، وهي درجة الصديقين والثانية : أن يدخر لأربعين يوما ، فإن مازاد عليه أدخل في طول الأمل . وقد فهم العلماء

(١) حديث زيد بن أسلم درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف قيل وكيف يا رسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف - الحديث : النسائي من حديث أبي هريرة متصلا وقد تقدم في الزكاة ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسلًا

ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ، منهم<sup>١</sup> منه الرخصة في أمل انبياء اربيعين  
يوما ، وهذه درجة المتقين

والثالثة : أن يدخر لسنته ، وهي أقصى المراتب ، وهي رتبة الصالحين  
ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم ، خارج عن حيز الخصوص بالكلية  
فغنى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته ، وغنى الخصوص في اربعين يوما ،  
وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة . وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل  
هذه الأقسام ، فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل ، وبعضهن قوت اربعين  
يوما ، وبعضهن يوما وليلة ، وهو قسم عائشة وحفصة

## بيان

آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال

ينبغي أن يلاحظ الفقير فما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال ، وغرض المعطى ، وغرضه في الأخذ .  
أما نفس المال . فينبغي أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها . فإن كان فيه شبهة  
فليحتزم من أخذه . وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة ، وما يجب اجتنابها  
وما يستحب . وأما غرض المعطى . فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطييب قلبه ، وطلب  
محبة ، وهو الهدية ، أو الثواب ، وهو الصدقة والزكاة ، أو الذكر والرياء والسمعة ، إما على  
التجرد ، وإما ممزوجا ببقية الأغراض

أما الأول وهو<sup>(١)</sup> الهدية ، فلا بأس بقبولها ؛ فإن قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه  
وسلم . ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة . فإن كان فيها منة فالأولى تركها . فإن علم أن بعضا  
مما تعظم فيه المنّة فليرد البعض دون البعض . فقد<sup>(٢)</sup> أهدى إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم

( ١ ) حديث ان قبول الهدية سنة : تقدم انه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية

( ٢ ) حديث أهدى الى النبي صلى الله عليه وسلم ممن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط ورد السكبش

أحمد في أثناء حديث لعلى بن مرة وأهدت اليه كبشين وشيتا من سمن وأقط فقال النبي صلى الله  
عليه وسلم خذ الأقط والسمن وأحد السكبشين ورد عليها الآخر واسناده جيد وقال وكبش

مرة عن علي بن مرة عن أبيه

سمن ، وأفط ، وكبش ، وقبيل السمن والأقط \* ورد بالكش. <sup>(١)</sup> وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض. وقال <sup>(٢)</sup> « لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَتَيْبَ إِلَّا مِنْ قُرَيْشِي أَوْ تَقِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ أَوْ دُوسِيٍّ » وفعل هذا جماعة من التابعين

وجاءت إلى فتح الموصل صرة فيها خمسون درهما . فقال حدثنا <sup>(٣)</sup> عطاء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « مَنْ أَتَاهُ رِزْقٌ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ فَرَدَّهُ فَإِنَّمَا يَرُدُّهُ عَلَى اللَّهِ » ثم فتح الصرة فأخذ منها درهما ، ورد سائرهما . وكان الحسن يروى هذا الحديث أيضا ولكن حمل إليه رجل كيسا ورزمة من رقيق ثياب خراسان ، فرد ذلك وقال : من جلس مجلسي هذا ، وقبل من الناس مثل هذا ، لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق . وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء . وقد كان الحسن يقبل من أصحابه

وكان إبراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ، ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها . وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول أتركه عندك ، وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول ، فأخبرني حتى آخذه ، وإلا فلا . وأما هذا أن يشق عليه الرد لو رده ، ويفرح بالقبول ويرى المنّة على نفسه في قبول صديقه هديته . فإن علم أنه يمازجه منّة ، فأخذه مباح ، ولكنه مكروه عند الفقهاء الصادقين

وقال بشر : ما سألت أحدا قط شيئا إلا أسرى بالسقطي ، لأنه قد صح عندى زهده في الدنيا ، فهو يفرح بخروج الشيء من يده ، ويتبرم ببقائه عنده فأكون عوناً له على ما يحب . وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله تعالى ، وسأله أن يأكله ، فقال أفرقه على الفقراء . فقال ما أريد هذا قال ومتى أعيش حتى آكل هذا ؟ قال ما أريد أن تنفقه في الحل والبقل ، بل في الحلوات

( ١ ) حديث كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض : أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وأبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وأبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة

بعديوى هذا من أحدهدية إلا أن يكون مهاجريا - الحديث : فيه محمد بن اسحق ورواه بالضعفة

( ٢ ) حديث لقد همت أن لا أتوب إلا من قرشي أو ثقيفي أو أنصاري أو دوسي : الترمذي من حديث أبي هريرة

وقال روى من غير وجه عن أبي هريرة قلت ورجاله ثقات

( ٣ ) حديث عطاء مرسل من أناه رزق من غير وسيلة فردّه فأنا يرد على الله عز وجل : لم أجده مرسل هكذا

ولاحمد وأبو يعلى والطبراني بإسناد جيد من حديث خالد بن عدي الجهني من باقة معروف من أخيه

من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يردّه فأنا هو رزق ساقه الله عز وجل إليه ولا احمد

وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة من أناه الله من هذا المال شيئا من غير أن يسأله فليقبله

وفي الصحيحين من حديث عمر ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سأل أخذه - الحديث :

\* الأقط هو لبن مجفف يابس متحجر بطبعه .

والطيبات . فقبل ذلك منه . فقال اخر اساني : ما أجد في بغداد أمن علي منك . فقال الجنيده :  
ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك

الثاني : أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة ، فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة ؟ فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة . وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة . وإن كانت صدقة ، وكان يعطيه لدينه ، فلينظر إلى باطنه . فإن كان مقارفا لمعصية في السر ، يعلم أن المعطى لو علم ذلك لنفرطبه ، ولما تقرب إلى الله بالتصدق عليه ، فهذا حرام أخذه . كما لو أعطاه لظنه أنه عالم . أو علوي ، ولم يكن ، فإن أخذه حرام محض لاشبهة فيه

الثالث : أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله ، إذ يكون معياله على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ويقول او علمت أنهم لا يذكرون ذلك افتخار به لأخذت . وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة فقال : إنما أرد صلتهم إشفاقا عليهم ، ونصحهم ، لأنهم يذكرون ذلك ، ويحبون أن يعلم به ، فتذهب أموالهم ، وتحبط أجورهم

وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لا بد له منه ، أو هو مستغن عنه . فإن كان محتاجا إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطى ، فالأفضل الأخذ . قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَا الْمُعْطَى مِنْ سَعَةٍ بِأَعْظَمَ أَجْرًا مِنْ لَأْخَذِ إِذَا كَانَ مُحْتَاجًا » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَنْ أَتَاهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا اسْتِشْرَافٍ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَافَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ » وفي لفظ آخر « فَلَا يَرُدُّهُ »

وقال بعض العلماء من أعطي ولم يأخذ سأل ولم يُعط . وقد كان سري السقطي يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئا ، فرده مرة ، فقال له السري ، يا أحمد ، احذر آفة الرد ، فإنها أشد من آفة الأخذ . فقال له أحمد . أعد علي ما قلت . فأعاده ، فقال أحمد . ما رددت

( ١ ) حديث ما للمعطى من سعة بأعظم أجر من الأخذ إذا كان محتاجا : الطبراني من حديث ابن عمر وقد تقدم في الزكاة

( ٢ ) حديث من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فانما هو رزق ساقه الله إليه وفي لفظ

آخر فلا ترده : تقدم ما قبل هذا بحديث

عليك إلا لأن عندى قوت شهر ، فاحبسلى عندك ، فإذا كان بعد شهر فأنفذه إلى وقد قال بعض العلماء : يخاف فى الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع ، أو دخول فى شبهة أو غيره فأمّا إذا كان مائتاه زائدا على حاجته ، فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه ، والتكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم ، لما فى طبعه من الرفق والسخاء . فإن كان مشغولا بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالبا طريق الآخرة ، فإن ذلك محض اتباع الهوى . وكل عمل ليس لله فهو فى سبيل الشيطان ، أو داع إليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ثم له مقامان أحدهما : أن يأخذ فى العلانية ويرد فى السر ، أو يأخذ فى العلانية ويفرق فى السر ، وهذا مقام الصديقين ، وهو شاق على النفس ، لا يطيقه إلا من اطمانت نفسه بالرياضة والثانى . أن يترك ولا يأخذ ، ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه ، أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه ، فيفعل كليهما فى السر ، أو كليهما فى العلانية ، وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه فى كتاب أسرار الزكاة ، مع جملة من أحكام الفقر . فليطلب من موضعه وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سري السقطى رحمه الله ، فإنما كان لاستثنائه عنه ، إذ كان عنده قوت شهر ، ولم يرض لنفسه أن يشتغل بأخذه وصرفه إلى غيره ، فإن فى ذلك آفات وأخطارا . والورع يكون حذرا من مظان الآفات ، إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه وقال بعض المجاورين بمكة . كانت عندى دراهم أعدتها للإنفاق فى سبيل الله ، فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفى . أنا جائع كما ترى عريان كما ترى فما ترى فيما ترى ؟ يا من يرى ولا يرى . فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه ، فقلت فى نفسى ، لأجد لدراهمى موضعا أحسن من هذا . فحملتها إليه : فنظر إليهما ، ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال أربعة ثمن مئزرين ، ودرهم أنفقه ثلاثا ، فلا حاجة بى إلى الباقي ، فردّه . قال فرأيت الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان ، فهجس فى نفسى منه شيء . فالتفت إليّ ، فأخذ ييدى ، فأطافنى معه لأسبوعا ، كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين ، منها ذهب ، وفضة ، وباقوت ، ولؤلؤ ، وجوهر ، ولم يظهر ذلك للناس فقال هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه ، وأخذ من أيدي الخلق ، لأن هذه أثقال وفتنة . وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة

وللقصود من هذا أن الزيادة على قدر الحاجة إنمائاتيك ابتلاء وقتنة ، لينظر الله إليك ماذا



تعمل فيه ، وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك فلا تفعل عن الفرق بين الرفق والابتسار  
قال الله تعالى ( إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ قَعْلًا <sup>(١)</sup> )  
وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « لَا حَقَّ لِابْنِ آدَمَ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ طَعَامٍ يُقِيمُ صُلبَهُ وَتَوْبٍ  
يُوَارِي عَوْرَتَهُ وَبَيْتٍ يُكِنُّهُ فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ »

فإذا أنت في أخذت قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب ، وفيما زاد عليه إن لم تمص الله  
متعرض للحساب ، وإن عصيت الله فأنت متعرض للعقاب  
ومن الاختبار أيضا أن تعزم على ترك لذة من اللذات تقربا إلى الله تعالى ، وكسرا لصفة  
النفس ، فتأتيك عفواً صفواً لمتحن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها ، فإن النفس إذا  
رخص لها في نقض العزم ألقت نقض العهد ، وعادت لماداتها ، ولا يمكن قهرها ، فردد ذلك  
مهم ، وهو الزهد ، فإن أخذته وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد ، ولا يقدر عليه إلا الصديقون  
وأما إذا كانت حالك السخاء ، والبذل ، والتكفل بمحقوق الفقراء ، وتهد جماعة من  
الصلحاء ، فخذ ما زاد على حاجتك ، فإنه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف  
إليهم ، ولا تدخره ، فإن امسأكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار ، فربما يحلوا في  
قلبك فتمسكه ، فيكون فتنة عليك .

وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة . إلى التوسع في المال ، والتنعيم في المطعم  
والمشرب ، ، وذلك هو الهلاك . ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به ، فله أن يستقرض  
على حسن الظن بالله ، لأعلى اعتماد السلاطين الظامة ، فإن رزقه الله من حلال قضاء ، وإن  
مات قبل القضاء قضاء الله تعالى عنه ، وأرضى غرماءه ، وذلك بشرط أن يكون مكشوف  
الحال عند من يقرضه ، فلا يغر المقرض ولا يخذعه بالمواعيد ، بل يكشف حاله عنده ، ليقدم  
على إقراضه على بصيرة . ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ،  
ومن الزكاة . وقد قال تعالى ( وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ <sup>(٣)</sup> ) قبل معناه

( ١ ) حديث لاحق لابن آدم الإي ثلاث طعام يقيم صلبه وتوب يوارى عورته وبیت يكنه فمما زاد فهو حساب  
الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال وجلف الحبز والماء بدل قوله طعام يقيم صلبه وقال صحيح

(١) السكف : ٧ (٢) الطلاق : ٧

يبيع أحد ثوبيه، وقيل معناه فليس تقرب من تباهاه، فذا انت مما أنام الله وقال بعضهم: إن الله تعالى عباده ينفقون على قدر بضائعهم، والله عباده ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى. ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف الأقوياء، والأسخياء، والأغنياء، فقليل من هؤلاء؟ فقال أما الأقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى وأما الأسخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى وأما الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله تعالى. فإذا ما وجدتهما وجدته هذه الشروط فيه، وفي المال، وفي المعطى، فليأخذها وبينفى أن يرى ما يأخذ من الله لا من المعطى، لأن المعطى واسطة قد سخر للعطاء، وهو مضطر إليه بما ساط عليه من الدواعي، والإرادات والإعتقادات

وقد حكى أن بعض الناس دعا شقيقا في خمسين من أصحابه، فوضع الرجل مائدة حسنة فلما قعد قال لأصحابه: إن هذا الرجل يقول من لم يرني صنعت هذا الطعام وقدمته فطعماي عليه حرام. فقاموا كلهم وخرجوا إلا شابا منهم، كان دونهم في الدرجة. فقال صاحب المنزل لشقيق: ما قصدت بهذا؟ قال أردت أن أختبر أوحيد أصحابي كلهم

وقال موسى عليه السلام: يارب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني إسرائيل، يغديني هذا يوما ويمشيني هذا ليلة! فأوحى الله تعالى إليه: هكذا أصنع بأوليائي، أجرى أرزاقهم على أيدي الباطلين من عبادي أيؤجروا فيهم. فلا ينبغي أن يرى المعطى إلا من حيث أنه مسخر مأجور من الله تعالى. نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه

## بيان

تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر إليه .

اعلم أنه قد وردت مناهج كثيرة في السؤال وتشديدات . وورد فيه أيضا ما يدل على الرخصة إذ قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «لِلسَّائِلِ حَقٌّ وَلَوْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ» ، وفي الحديث <sup>(٢)</sup> «رَدُّوا

(١) حديث للسائل حق وإن جاء على فرس: أبو داود من حديث الحسين بن علي ومن حديث علي وفي الأول

يعلى بن أبي يحيى جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان وفي الثاني شيخ لم يسم وسكت عليهما أبو داود ومادكره ابن الصلاح في علوم الحديث أنه باعه عن أحمد بن حنبل قال أربعة أحاديث تدور في الأوقاق ليس لها أصل منها للسائل حق - الحديث: فإنه لا يصح عن أحمد فقد أخرج حديث الحسين بن علي في مسنده

(٢) حديث ردوا السائل ولو بظلف عرق: أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح والنسائي واللفظ له من حديث

أم بجيد وقال ابن عبد البر حديث مضطرب

السَّائِلَ وَلَوْ يَطْلُبُ مُحَرَّقٍ « ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز إعانة المتعمد على هدوانه والإعطاء إعانة . فالكاشف للغطاء فيه أن السؤال حرام في الأصل ، وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة . فإن كان عنها بد فهو حرام . وإنما قلنا إن الأصل فيه التحريم لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة :

الأول : إظهار الشكوى من الله تعالى ، إذ السؤال إظهار للفقر ، وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه ، وهو عين الشكوى . وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشييعا على سيده ، فكذلك سؤال العباد تشييع على الله تعالى ، وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل إلا للضرورة كما نحل الميتة الثاني : أن فيه إذلال السائل نفسه لغير الله تعالى . وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، بل عليه أن يذل نفسه لمولاه ، فإن فيه عزه . فأما سائر الخلق فإنهم عباد أمثاله ، فلا ينبغي أن يذل لهم إلا للضرورة . وفي السؤال ذل للسائل بالإضافة إلى المسؤل

الثالث : أنه لا ينفك عن إيذاء المسؤل غالبا ، لأنه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه ، فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ ، وإن منع ربما استنحيا وتأذى في نفسه بالمنع ، إذ يرى نفسه في صورة البخلاء . ففي البذل نقصان ماله ، وفي المنع نقصان جاهه ، وكلاهما مؤذيان ، والسائل هو السبب في الإيذاء ، والإيذاء حرام إلا بضرورة ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَسْأَلَةُ النَّاسِ مِنْ أَلْفَوَاحِشٍ مَا أُحِلَّ مِنْ أَلْفَوَاحِشٍ غَيْرُهَا » فانظر كيف سماها فاحشة ، ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة ، كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَنْ سَأَلَ عَنْ غِنَى فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَهَنَّمَ »

(١) حديث مسألة الناس من الفواحش وما أحل الله من الفواحش غيرها : لم أجده أصلا

(٢) حديث من سأل عن غنى فأنما يستكثر من جهر جهنم - الحديث : أبو داود وابن حبان من حديث سهل ابن الحنظلية مقتصر على ما ذكر منه وتقدم في الزكاة ولمسلم من حديث أبي هريرة من يسأل الناس أوالهم تكثرا فأنما يسأل جهنم - الحديث : واللباز والطبراني من حديث مسعود بن عمرو لا يزال العبد يسأل وهو غني حتى يخلق وجهه وفي إسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس علي وجهه مزعة لحم وإسناده جيد

« وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا فِيهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجْهَهُ قَبْلَهُمْ وَتَقَعَتْ عَلَيْهِ لَحْمٌ »  
وفي لفظ آخر « كَانَتْ مَسْأَلَتُهُ خُدُوشًا وَكَدُوحًا فِي وَجْهِهِ » وهذه الألفاظ صريحة  
في التحريم والتشديد (٢)

وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الإسلام ، فاشترط عليهم السمع والطاعة  
ثم قال لهم كلمة خفيفة « وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا » وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا  
بالتعفف عن السؤال ، ويقول (٣) « مَنْ سَأَلَنَا أَعْطَيْنَاهُ وَمَنْ اسْتَعْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْنَا  
فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « اسْتَغْنُوا عَنِ النَّاسِ وَمَا قَلَّ مِنَ السُّؤَالِ  
فَهُوَ خَيْرٌ » قالوا ومنك يا رسول الله ؟ قال « وَمِنْهُ »

وسمع عمر رضي الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب ، فقال لواحد من قومه : عش الرجل  
فمشاه . ثم سمعه ثانيا يسأل ، فقال . ألم أقل لك عش الرجل ؟ قال قد عشيته . فنظر عمر  
فإذا تحت يده مخللة مملوءة خبزا . فقال . است سائلا ، ولكنك تاجر . ثم أخذ المخللة  
ونثرها بين يدي إبل الصدقة ، وضربه بالدرة ، وقال لا تعد . وأولا أن سؤاله كان  
حراما لما ضربه ولا أخذ مخللاته

ولعل الفقيه الضعيف المنه ، الضيق الحوصلة ، يستبعد هذا من فعل عمر ويقول أما ضربه  
فهو تأديب ، وقد ورد الشرع بالتعزير . وأما أخذه ماله فهو مصادرة ، والشرع لم يرد  
بالمقوبة بأخذ المال ، فكيف استجازه ؟ وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه . فأين  
يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوصلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وإطلاعه على أسرار دين الله

( ١ ) حديث من سأل وله ما فيه كانت مسأله خدوشا وكدوحا في وجهه : أنجاب الناس من حديث  
ابن مسعود وتقدم في الزكاة

( ٢ ) حديث بايع قوما على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفيفة ولا تسألوا الناس شيئا  
مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي

( ٣ ) حديث من سألنا أعطيناه ومن استعنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا : ابن أبي الدنيا في القناعة والحارث  
ابن أبي أسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري وفيه حصن من هلال لم أر من تكلم فيه وماقيهم نقات

( ٤ ) حديث استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير - الحديث : البزار والطبراني من حديث  
ابن عباس استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك وإسناده صحيح وله في حديث يهدي الخدم

فتعففوا ولو بعزم الخطب وفيه من لم يسم وليس فيه وما قل من السؤال الخ

ومصالح عباده . أقترى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة ؟ أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضبا في معصية الله ؟ وحاشاه . أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله وهيهات فإن ذلك أيضا معصية . بل الفقه الذي لاح له فيه أنه رآه مستغنيا عن السؤال ، وعلم أن من أعطاه شيئا فإنما أعطاه على اعتقاده أنه محتاج ، وقد كان كاذبا ، فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التليس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه . إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم ، فبقى مالا لا مالك له فوجب ضربه إلى المصالح ، وإبل الصدقة وعلفها من المصالح

ويتنزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبا ، كأخذ العلوي بقوله إني علوي وهو كاذب ، فإنه لا يملك ما يأخذه . وكأخذ الصوفي الصالح الذي يعطى لصلاحه ، وهو في الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطى لما أعطاه . وقد ذكرنا في مواضع أن ما أخذه على هذا الوجه لا يملكونه ، وهو حرام عليهم ، ويجب عليهم الرد إلى مالكه . فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء وقد قررناه في مواضع . ولا تستدل بفعلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر

فإذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة ، فاعلم أن الشيء إما أن يكون مضطرا إليه ، أو محتاجا إليه حاجة مهمة ، أو حاجة خفيفة ، أو مستغنى عنه ، فهذه أربعة أحوال

أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا ، وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه ، وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسئول بكونه مباحا ، والمسئول منه بكونه راضيا في الباطن ، وفي السائل بكونه عاجزا عن الكسب فإن القادر على الكسب وهو بطل ليس له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته . وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة . وأما المستغنى فهو الذي يطلب شيئا وعنده مثله وأمثاله . فسؤاله حرام قطعا . وهذان طرفان واضحان

وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يحلو عن خوف . وكمن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء ، وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهي إلى حد الضرورة . وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة . فهذا أيضا ينبغى أن تسترسل عليه الإباحة ، لأنها أيضا حاجة محقة . ولكن الصبر عنه أولى

وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مسكروها ، مهما صدق في السؤال : وقال ليس تحت جبتى قميص ، والبرد يؤذيني أذى أطيقة ، ولكن يشق عليّ . فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى

وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ، ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس ، وكن يسأل لأجل الأدم وهو واجد للخبز . وكن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار . أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحة فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غير هذه فهو حرام . وإن لم يكن وكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة ، من الشكوى ، والدل ، وإيذاء المسؤل فهو حرام ، لأن مثل هذه الحاجة لا تصح لأن تباح بها هذه المحذورات . وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة

فإن قلت : فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات ؟

فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ، ولا يسأل سؤال محتاج ، ولكن يقول : أنا مستغن بما أملكه ، ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي ، وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس . فيخرج به عن حد الشكوى ، وأما الدل فبأن يسأل أباه ، أو قريبه ، أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ، ولا يزدريه بسبب سؤاله ، أو الرجل السخي الذي قد أعد ما له لمثل هذه المكارم ، فيفرح بوجود مثله ، ويتقلد منه منة بقبوله ، فيسقط عنه الدل بذلك . فإن الدل لازم للمنة لا للمنة

وأما الإيذاء فبسبب الخلاص عنه أن لا يعين شخصا بالسؤال بعينه ، بل يلقى الكلام عرضا ، بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة . وإن كان في القوم شخص مرموق ولم يبذل لكان يلام ، فهذا إيذاء ، فإنه ربما يبذل كرها خوفا من الملامة ، ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة . وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغي أن لا يصرح ، بل يمرض تعريضا يبق له سبيلا إلى التغافل إن أراد . فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته ، وأنه غير متأذبه . وينبغي أن يسأل من لا يستحي منه لورده أو تغافل عنه ، فإن الحياء من السائل يؤذي ، كما أن الرياء مع غير السائل يؤذي

فإن قلت : فإذا أخذ مع العلم بأن باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ، ولولاه لما ابتدأه به ، فهل هو حلال أو شبهة ؟ فأقول ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة ، إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب ، أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام . وضرب الباطن أشد نكاية في قلوب العقلاء . ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قد رضي به ، وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّمَا أَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ » ، فإن هذه ضرورة القضاة في فصل الخصومات ، إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال ، فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان ، مع أنه ترجان كثير الكذب ، ولكن الضرورة دعت إليه . وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى ، والحاكم فيه أحكم الحاكمين ، والقلوب عنده كالأسنة عند سائر الحكام ، فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أفتوك وأفتوك ، فإن المفتى معلم للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ، ومفتى القلوب هم علماء الآخرة ، وفتواهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة ، كما أن بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا .

فإذا ما أخذ مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ، ويجب عليه رده إلى صاحبه . فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده ، فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوى قيمته في معرض الهدية والمقابلة ، ليتفصى عن عهده . فإن لم يقبل هديته ، فعليه أن يرد ذلك إلى ورثته . فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى ، وهو عاص بالتصرف فيه ، وبالسؤال الذي حصل به الأذنة

فإن قلت : فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه ، فكيف السبيل إلى الخلاص منه ؟ فربما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو في الباطن راضيا

فأقول : لهذا ترك المتقون السؤال رأسا : فما كانوا يأخذون من أحد شيئا أصلا . فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلا إلا من السرى رحمة الله عليهما . وقال : لأنى علمت أنه يفرح بخروج المال من يده ، فأنا أعينه على ما يحب . وإنما عظم النكير في السؤال وتأكدا الأمر بالتعفف لهذا . لأن الأذى إنما يحل بضرورة ، وهو أن يكون السائل مشرفا على الهلاك ،

( ١ ) حديث إنما تحكم بالظاهر والله يتولى السرائر : لم أجده أصلا وكذا قال الزى لماسئلة عنه .

ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ، ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى ، فيباح له ذلك ، كما يباح له أكل لحم الخنزير ، وأكل لحم الميتة . فكان الامتناع طريق الورعين . ومن أرباب القلوب من كان واثقا ببصيرته في الاطلاع على قرائن الأحوال ، فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض . ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه . ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضا ويرد بعضا ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكبش والسمن والأقط . وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال ، فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة . ولكن قد تكون رغبته طمعا في جاه ، أو طلبا للرياء والسمعة ، فكانوا يحتززون من ذلك

فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأسا إلا في موضعين :

أحدهما : الضرورة ، فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة . سليمان ، وموسى ، والخضر عليهم السلام . ولا شك في أنهم ماسألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم . والثاني : السؤال من الأصدقاء والإخوان ، فقد كانوا يأخذون ما لهم بغير سؤال واستئذان ، لأن أرباب القلوب علموا أن المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان ، وكانوا قد وثقوا بإخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباستطمتهم . فإذا كانوا يسألون الإخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه ، وإلا فكانوا يستغنون عن السؤال

وحد إباحة السؤال أن تعلم أن المسئول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال ، فلا يكون لسؤالك تأثير إلا في تعريف حاجتك . فأما في تحريكه بالحياء ، وإثارة داعيته بالجيل فلا . ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن ، وحالة لا يشك في الكراهة . ويعلم ذلك بقرينة الأحوال . فالأخذ في الحالة الأولى حلال طلق ، وفي الثانية حرام سحت . ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها ، فليستفت قلبه فيها ، وليترك حزاز القلب ، فإنه الإثم . وليدع ما يريه إلى ما لا يريه وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته ، وضعف حرصه وشهوته . فإن قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه ، فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة . وبهذه الدقائق يطالع على سر قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ » وقد أوتي جوامع الكلام

( ١ ) حديث ان أطيب ما أكل الرجل من كسبه : تقدم



لأن من لا كسب له ، ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته ، فيأكل من أيدي الناس وإن أعطى بغير سؤال فإنما يعطى بدينه . ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما . وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالمطاء إذا سئل ؟ وأين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة ؟

فإذا قتشت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أن جميع ما يأكله أو يأكله أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذي اكتسبته بجلالك أنت أو مورثك . فإذا بعيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس ، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره ، وأن يغبينا بحلاله عن حرامه ، وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده ، فإنه على ما يشاء قدير .

## بيان

مقدار الغنى المحرم للسؤال

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ سَأَلَ عَنْ ظَهْرِ غَنًى فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَهْرًا فَلَيْسَتْ قِلَّةٌ مِنْهُ أَوْ لَيْسَتْ كَثْرَةٌ » صريح في التحريم . ولكن حد الغنى مشكل ، وتقديره عسير . وليس إلينا وضع المقادير ، بل يستدرك ذلك بالتوقيف

وقد ورد في الحديث <sup>(١)</sup> « اسْتَغْنُوا بِغَنَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْ غَيْرِهِ » قالوا وما هو ؟ قال « غَدَاءُ يَوْمٍ وَعَشَاءُ لَيْلَةٍ » وفي حديث آخر <sup>(٢)</sup> « مَنْ سَأَلَ وَلَهُ تَخْمُسُونَ دِرْهَمًا أَوْ عِدْلُهَا مِنْ الذَّهَبِ فَقَدْ سَأَلَ إِخْلَافًا » وورد في لفظ آخر أربعون درهما . ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبغي أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة . فإن الحق في نفسه لا يكون إلا واحدا والتقدير ممتنع . وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين فنقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَأَحَقُّ لِابْنِ آدَمَ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ طَعَامٌ يُقِيمُ صُلْبَهُ وَثَوْبٌ يُوَارِي عَوْرَتَهُ وَبَيْتٌ يَكْنُهُ فَمَا زَادَ فَهُوَ حِسَابٌ » فلنجعل هذه الثلاث أصلا في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والمقادير والأوقات

( ١ ) حديث استمعوا بغنى الله قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة : تقدم في الزكاة من حديث سهل بن الحنظلية

قالوا ما يغنيه قال ما يغديه أو بعشه ولاحد من حديث علي بن اسناد حسن قالوا وما يظهر غنى قال

عشاء ليلة ، وأما اللفظ الذي ذكره المصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة

( ٢ ) حديث من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل إخلافا وفي لفظ آخر أربعون درهما : تقدم في الزكاة

فأما الأجناس فهي هذه الثلاث . ويلحق بها مافي معناها . حتى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي ، وكذلك مايجرى مجراه من المهمات . ويلحق بنفسه عياله وولده ، وكل من تحت كفالاته كالدابة أيضا

وأما المقادير فالثوب يراعى فيه مايليق بذوى الدين ، وهو ثوب واحد ، وقيص ، ومنديل وسراويل ، ومداس ؛ وأما الثانى من كل جنس فهو مستغن عنه . وليقس على هذا أثاث البيت جميعا . ولا ينبغي أن يطلب رقة الثياب ، وكون الأواني من النحاس والصفير فيما يكتفى فيه الخرف ، فإن ذلك مستغنى عنه . فيقتصر من العدد على واحد ، ومن النوع على أخس أجناسه ما لم يكن فى غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقدرد فى اليوم مد ، وهو ماقدرد الشرع . ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير ، والأدم على الدوام فضلة ، وقطعه بالكفاية إضرار ، ففى طلبه فى بعض الأحوال رخصة . وأما المسكن فأقله مايجزىء من حيث المقدار ، وذلك من غير زينة . فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى

وأما بالإضافة إلى الأوقات ، فما يحتاج إليه فى الحال من طعام يوم وليلة ، وثوب يلبسه وماوى يكتنه ، فلا شك فيه . فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات

أحداها : ما يحتاج إليه فى غد . والثانية : ما يحتاج إليه فى أربعين يوما أو خمسين يوما والثالثة : ما يحتاج إليه فى السنة . ولتقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله ، إن كان له عيال ، لسنة ، فسؤاله حرام . فإن ذلك غاية الغنى ، وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما فى الحديث . فإن خمسة دنانير تكفى المنفرد فى السنة إذا اقتصد . أما الميل فربما لا يكفيه ذلك . وإن كان يحتاج إليه قبل السنة ، فإن كان قادرا على السؤال ولا تفوته فربسته . فلا يحل له السؤال ، لأنه مستغن فى الحال ، وربما لا يعيش إلى الغد ، فيكون قد سأل ما لا يحتاج ، فيسكفيه غداء يوم وعشاء ليلة ، وعليه ينزل الخبر الذى ورد فى التقدير بهذا القدر .

وإن كان يفوته فرصة السؤال ، ولا يجد من يعطيه لو أخر ، فيباح له السؤال ، لأن أمل البقاء سنة غير بعيد ، فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرا عاجزا عما يعنيه فإن كان خوف العجز عن السؤال فى المستقبل ضعيفا ، وكان مالأجله السؤال خارجا من محل الضرورة ، لم يخل سؤاله عن كراهية ، وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار

وخوف الفوت، وتراخي المدة التي فيها يحتاج إلى السؤال وكل ذلك لا يقبل الضبط، وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستفتي فيه قلبه، ويعمل به إن كان سالكا طريق الآخرة. وكل من كان يقينه أقوى، وثقته بمجىء الرزق في المستقبل أتم، وقناعته بقوت الوقت أظهر، فدرجته عند الله تعالى أعلى. فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان. وقد قال تعالى ( فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ <sup>(١)</sup> ) وقال عز وجل ( الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا <sup>(٢)</sup> )

والسؤال من الفحشاء التي أبيضت بالضرورة. وحال من يسأل حاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة، أشد من حال من ملك مالا موروثا وأودخره حاجة وراء السنة. وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة، ولكنهما صادران عن حب الدنيا، وطول الأمل، وعدم الثقة بفضل الله. وهذه الخصلة من أمهات المهلكات، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

## بيان

أحوال السائلين

كان بشر رحمه الله يقول : الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطي لا يأخذ. فهذا مع الروحانيين في عليين. وفقير لا يسأل وإن أعطي أخذ. فهذا مع المقربين في جنات الفردوس وفقير يسأل عند الحاجة، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين : فإذا قد اتفق كلهم على ذم السؤال، وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة

قال شقيق البلخي لإبراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان : كيف تركت الفقراء من أصحابك ؟ قال تركتهم إن أعطوا شكروا، وإن منعوا صبروا. وظن أنه لما وصفهم

(١) آل عمران : ١٧٥ (٢) البقرة : ٢٦٨

بترك السؤال قد أننى عليهم غاية الثناء . فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا . فقال له إبراهيم : فكيف الفقراء عندك يا أبا اسحق فقال : الفقراء عندنا إن منعوا شكروا ، وإن أعطوا آثروا . فقبل رأسه وقال صدقت يا أستاذ . فإذا درجات أرباب الأحوال فى الرضا والصبر ، والشكر ، والسؤال كثيرة . فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ، ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها ، فإنه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها ، ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين . وقد خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رد إلى أسفل سافلين ، ثم أمر أن يترقى إلى أعلى عليين . ومن لا يميز بين السفلى والعلو لا يقدر على الرقي قطعا . وإنما الشك فيمن عرف ذلك ، فإنه ربما لا يقدر عليه .

وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضى أن يكون السؤال مزبدا لهم فى درجاتهم ، ولكن بالإضافة إلى حالهم . فإن مثل هذه الأعمال بالنيات ، وذلك كما روي أن بعضهم رأى أبا اسحق النورى رحمه الله يعيده ويسأل الناس فى بعض المواضع ، قال فاستعظمت ذلك واستبحت له ، فأتيت الجنيد رحمه الله فأخبرته بذلك فقال . لا يعظم هذا عليك ، فإن النورى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم ، وإنما سألهم ليثيبهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم . وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « يَدُ الْمُعْطَى هِيَ الْعُلْيَا » فقال بعضهم يد المعطى هي يد الآخذ للمال ، لأنه يعطى الثواب والقدر له لما يأخذه . ثم قال الجنيد . هات الميزان . فوزن مائة درهم ، ثم قبض قبضة فألقاها على المائة ، ثم قال اجعلها إليه . فقلت فى نفسى إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره ، فكيف خلط به عجولا وهو رجل حكيم ؟ واستحييت أن أسأله . فذهبت بالصرة إلى النورى ، فقال هات الميزان ، فوزن مائة درهم وقال ردها عليه ، وقل له أنا لأقبل منك أنت شيئا . وأخذ ما زاد على المائة قال فزاد تعجبي ، فسألته فقال . الجنيد رجل حكيم ، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه ، وزن المائة لنفسه طلبا لثواب الآخرة ، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل . فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ، ورددت ما جعله لنفسه . قال فرددتها إلى الجنيد فبكى وقال . أخذ ماله ورد مالنا ، الله المستعان

(١) حديث يد المعطى هي العليا : مسلم من حديث أبي هريرة

فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم ، وكيف خلصت لله أعمالهم ، حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ، ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الأسرار، وذلك نتيجة أكل الحلال، وخلو القلب عن حب الدنيا، والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل ، كمن ينكر مثلاً كون الدواء مسهلاً قبل شربه . ومن أنكره بعد أن طال اجتهاده حتى بذل كنهه بمجوده ولم يصل ، فأنكر ذلك لغيره ، كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر في حقه خاصة لعله في باطنه ، فأخذ ينكر كون الدواء مسهلاً . وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ، ولكنه ليس خالياً عن حظ واف من الجهل بل البصير أحد رجلين . إما رجل سلك الطريق فظهر له مثل ماظهر لهم ، فهو صاحب الذوق والمعرفة ، وقد وصل إلى عين اليقين ، وإما رجل لم يسلك الطريق ، أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به ، فهو صاحب علم اليقين ، وإن لم يكن واصلاً إلى عين اليقين ولم يعلم اليقين أيضاً رتبة ، وإن كان دون عين اليقين . ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ، ويحشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين ، الذين هم قتل القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين ، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين في العلم القائلين آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الأبواب

## الشر الثاني

من الكتاب في الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد ، وبيان فضيلة الزهد ، وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد في المطعم ، والملبس ، والمسكن ، والأثاث ، وضروب المعيشة ، وبيان علامة الزهد

## بيان

حقيقة الزهد

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال ، وعمل ، كسائر المقامات ، لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد ، وقول ، وعمل . وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال ، إذ به يظهر الحال الباطن . وإلا فليس القول

مرادا لعينه . وإن لم يكن صادرا عن حال سمي إسلاما ولم يسم إيمانا . والعلم هو السبب في الحال ، يجري مجرى الثمر ، والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة . فلذا ذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل . أما الحال فنحن بها ما يسمى زهدا . وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه . فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنما عدل عنه لرغبته عنه . وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره ، خاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمى زهدا ، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبة وحبا

فإذا استدعى حال الزهد مرغوبا عنه ، ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه . فمن رغب عما ليس مطلوبا في نفسه لا يسمى زاهدا . إذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهدا . وإنما يسمى زاهدا من ترك الدرام والدنانير ، لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة

وشرط المرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من المرغوب عنه ، حتى تغلب هذه الرغبة . فالبايع لا يقدم على البيع إلا والمشتري عنده خير من المبيع ، فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهدا فيه ، وبالإضافة إلى العوض عنه رغبة فيه وحبا . ولذلك قال الله تعالى ( وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ) (١) معناه باعوه . فقد يطاق الشراء بمعنى البيع . ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه ، إذ طمعوا أن يخلو لهم وجه أبيهم ، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف ، فباعوه ظمعا في العوض . فإذا كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا . وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد واسكن في الآخرة . واسكن المادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا ، كما خصص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصة ، وإن كان هو الميل في وضع اللسان

ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة ، لم يتصور إلا بالمعدل إلى شيء هو أحب منه وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال . والذي يرغب عن كل ما سوى الله تعالى ، حتى الفرائس ، ولا يحب إلا الله تعالى ، فهو الزاهد المطلق . والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ، ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة ، بل طمع في الحور ، والقصور ، والأنهار

والفواكه فهو ايضا زاهد ، ولكنه دون الأول والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض ، كالذي يترك المال دون الجاه ، أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجميل في الزينة ، فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا . ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين . وهو زهد صحيح . كما أن التوبة عن بعض المعاصي صحيحة . فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات ، والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض ، كما لا يبعد ذلك في المحظورات . والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهداً ، وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ، ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات . فإذا الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة ، أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى ، وهي الدرجة العليا . وكما يشترط في المرغوب فيه أن يكون خيرا عنده ، فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه فإن ترك ما لا يقدر عليه محال . وبالتريك يتبين زوال الرغبة . ولذلك قيل لابن المبارك يا زاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز ، إذ جاءت الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا ففما ذا زهدت ؟

وأما العلم الذي هو منمر لهذه الحال ، فهو العلم بكون المتروك حقيرا بالإضافة إلى المأخوذ ، كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه . وبالم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن المبيع . فكذلك من عرف أن ما عند الله باق ، وأن الآخرة خير وأبقى أي لذاتها خير في أنفسها وأبقى ، كما تكون الجواهر خيرا وأبقى من الثلج مثلا ، ولا يمسر على مالك الثلج يبعه بالجواهر والآلى . فهكذا مثال الدنيا والآخرة . فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان إلى الانقراض ، والآخرة كالجواهر الذي لا فناء له فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة ، تقوى الرغبة في البيع والمعاملة حتى أن من قوي يقينه يبيع نفسه وماله ، كما قال الله تعالى ( إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ <sup>(١)</sup> ) ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى ( فَاسْتَبَشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ <sup>(٢)</sup> )

فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر ، وهو أن الآخرة خير وأبقى . وقد

يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا إما لضعف علمه و يقينه ، وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه ، وكونه مقهوراً في يد الشيطان ، وإما لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوماً بعد يوم ، إلى أن يختطفه الموت ، ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد الفوت

وإلى تعريف خساسة الدنيا بالإشارة بقوله تعالى ( قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ <sup>(١)</sup> ) ، وإلى تعريف نفاسة الآخرة بالإشارة بقوله عز وجل ( وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ <sup>(٢)</sup> ) فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغوب عن عوضه

ولما لم يتصور الزهد إلا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب في أحب منه ، <sup>(١)</sup> قال رجل في دعائه اللهم أرني الدنيا كما تراها . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تَقُلْ هَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ أَرِنِي الدُّنْيَا كَمَا أَرَيْتَهَا الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكَ » وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي ، وكل مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقير . والعبد يراها حقيرة في حق نفسه بالإضافة إلى ما هو خير له . ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلاً لأنه مستغنى عن الحشرات أصلاً ، وليس مستغنياً عن الفرس . والله تعالى غني بذاته عن كل ما سواه ، فيرى الكل في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله و يراه متفاوتاً بالإضافة إلى غيره . والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالإضافة إلى نفسه لا إلى غيره

وأما العمل الصادر عن حال الزهد ، فهو ترك واحد ، لأنه بيع : ومعاملة ، واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى . فكأن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع ، وإخراجه من اليد ، وأخذ الموضع ، فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية ، وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ، ومقدماتها ، وعلائقها ، فيخرج من القلب حبها ، ويدخل حب الطاعات ، ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ، ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات . والإكراه كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن . فإذا وفى بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليس تبشيراً ببيعه الذي بايع به ، فإن الذي بايعه بهذا البيع وفى بالعهد . فمن سلم حاضراً في غائب ، وسلم الحاضر

( ١ ) حديث قال رجل اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له لا تقل هكذا ولكن قل أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك : ذكره صاحب الفردوس مختصراً اللهم أرني الدنيا كما تراها صالح عبادك من حديث أبي القيسر ولم يخرج له ولده



وأخذ يسعى في طلب الغائب ، سلم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بصدقه ، وقدرته ، ووفائه بالعهد . ومادام ممسكا للدنيا لا يصح زهده أصلا ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين ، وإن كانوا قد قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أئبنامنا ، وعزموا على إبعاده كما عزموا على يوسف ، حتى تشفع فيه أحدهم فترك . ولا وصفهم أيضا بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجهم ، بل عند التسليم والبيع

فعلامه الرغبة الإمساك ، وعلامه الزهد الإخراج . فإن أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط ، ولست زاهدا مطلقا . وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا ، لم يتصور منك الزهد ، لأن ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه . وربما يستهويك الشيطان بنوره ، ويخيل إليك أن الدنيا وإن لم تأتاك فأنت زاهد فيها . فلا ينبغي أن تبدل بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله . فإنك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها . فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها ، فلما تيسرت له أسبابها من غير منكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها . وإذا كان هذا غرور النفس في المحظورات ، فإياك أن تثق بوعدها في المباحات . والموثق الغليظ الذي تأخذه عليها أن تجربها مرة بعد مرة في حال القدرة . فإذا وفت بما وعدت على الدوام ، مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهرا وباطنا ، فلا بأس أن تثق بها وثوقا تاما . ولكن تكون من تغيرها أيضا على حذر فإنها سريعة النقض للعهد ، قريبة الرجوع إلى مقتضى الطبع .

وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالإضاعة إلى ما ترك فقط ، وذلك عند القدرة قال ابن أبي لبلى لابن شبرمة : ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا نفق في مسألة إلا رد علينا ؛ يعنى أبا حنيفة . فقال ابن شبرمة : لأدرى أهو ابن الحائك أم ماهو ؛ لكن أعلم أن الدنيا غدت إليه فهرب منها ، وهربت منا فطلبناها . وكذلك <sup>(١)</sup> قال جميع المسلمين على عهد هوال الله صلى الله عليه وسلم : إنا نحب ربنا ، ولو علمنا في أي شيء يحبته لفعلناه ، حتى نزل قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ) (١)

(١) حديثه قال المسلمون اتناحب ربنا ولو علمنا في أي شيء يحبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى ولو أننا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم الآية لم أقف له على أصل

قال ابن مسعود رحمه الله : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنْتَ مِنْهُمْ »  
يعنى من القليل . قال <sup>(١)</sup> وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى  
( مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ <sup>(٢)</sup> )

واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة ، وعلى سبيل استمالة  
القلوب ، وعلى سبيل الطمع ، فذلك كله من تحاسن العادات ، ولكن لا مدخل لشيء منه  
في العبادات . وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعامك بحقارتها بالإضافة إلى نقاسة الآخرة . فأما  
كل نوع من الترك فإنه يتصور ممن لا يؤمن بالآخرة . فذلك قد يكون مروءة ، وفتوة ،  
وسخاء ، وحسن خلق . ولكن لا يكون زهدا . إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ  
العاجلة ، وهي الدواهنأ من المال . وكأن ترك المال على سبيل السلم طمعا في العوض ليس  
من الزهد ، فكذلك تركه طمعا في الذكر ، والثناء ، والاشتهار بالفتوة والسخاء ، واستثقاله  
لما في حفظ المال من المشقة ، والعناء ، والحاجة إلى التذلل للسلطين والأغنياء ليس من الزهد  
أصلا . بل هو استعجال حفظ آخر للنفس . بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة ، صفوا عفوا ،  
وهو قادر على التمتع بها ، من غير نقصان جاءه وقبح اسم ، ولا فوات حفظ للنفس ، فتركها خوفا  
من أن يأنس بها فيكون أنسا بغير الله ، ومحبيا لماسوى الله ، ويكون مشركا في حب الله تعالى  
غيره ، أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة ، فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا في أشربة الجنة  
وترك التمتع بالسراى والنسوان طمعا في الحور العين ، وترك التفرج في البساتين طمعا في  
بساتين الجنة وأشجارها ، وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في زينة الجنة ، وترك  
المطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة ، وخوفا من أن يقال له ( أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ  
الدُّنْيَا <sup>(٣)</sup> ) فآثر في جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفوا صفوا ، لعله بأن  
ما في الآخرة خير وأبقى ، وأن ماسوى هذا فعمالات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلا

( ١ ) حديث ابن مسعود ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى . منكم من يريد الدنيا الآخرة : البيهقي  
في دلائل النبوة بإسناد حسن

( ٢ ) آل عمران : ١٥٢ ( ٣ ) الاحقاف : ٣٠

## بيان

فضيلة الزهد

قال الله تعالى (خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ<sup>(١)</sup>) إلى قوله تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن آمَنَ<sup>(٢)</sup>) فنسب الزهد إلى العلماء ، ووصف أهله بالعلم ، وهو غاية البناء . وقال تعالى (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا<sup>(٣)</sup>) وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا . وقال عز وجل (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا<sup>(٤)</sup>) قيل معناه أيهم أزهد فيها . فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال وقال تعالى (مَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدْ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ<sup>(٥)</sup>) وقال تعالى (وَلَا تَعُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْتَنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى<sup>(٦)</sup>) وقال تعالى (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ<sup>(٧)</sup>) فوصف الكفار بذلك . ففهموه أن المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه ، وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا وأما الأخبار . فما ورد منها في ذم الدنيا كثير . وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربح المهلكات ، إذ حب الدنيا من المهلكات . ونحن الآن تقتصر على فضيلة بنض الدنيا فإنه من المنجيات ، وهو المعنى بالزهد . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٨)</sup> « مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا شَتَّتَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ ضَمِيمَتَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ وَمَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الْآخِرَةُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ هَمَّهُ وَحَفِظَ عَلَيْهِ ضَمِيمَتَهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ »

وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٩)</sup> « إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَبْدَ وَقَدْ أُعْطِيَ صَمْتًا وَزُهْدًا فِي الدُّنْيَا

(١) حديث من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره - الحديث : ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه

(٢) حديث إذا رأيتم العبد قد أوتي صمنا وزهدا في الدنيا فاقربوا منه فإنه يلقى الحكمة : ابن ماجه من حديث أبي خلاد بسند فيه ضعف

(١) القصص : ٧٩ (٢) القصص : ٨٠ (٣) القصص : ٤٤ (٤) الكهف : ٧ (٥) الشورى : ٣٠

(٦) طه : ١٣١ (٧) إبراهيم : ٣

فَاتَّقِرُوا مِنهُ فَإِنَّهُ يُبْلِقُ الْحِكْمَةَ ۖ وَقَالَ تَعَالَى ( وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا <sup>(١)</sup> ) ولذلك قيل : من زهد في الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه ، وأنطق بها لسانه . وعن بعض الصحابة أنه قال : <sup>(٢)</sup> « قلنا يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال « كُلُّ مُؤْمِنٍ مَحْمُومٍ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ » قلنا يا رسول الله وما محموم القلب ؟ قال « النَّقِيُّ النَّقِيُّ الَّذِي لَا غِلَّ فِيهِ وَلَا غِشٌّ وَلَا بَغْيٌ وَلَا حَسَدٌ » قلنا يا رسول الله فمن على أثره ؟ قال « الَّذِي يَشْنَأُ الدُّنْيَا وَيُحِبُّ الْآخِرَةَ » ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِنْ أُرِدْتَ أَنْ يُحِبَّكَ اللَّهُ فَارْزُقْهُ فِي الدُّنْيَا » فجعل الزهد سببا للمحبة . فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات ، فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات . ومفهومه أيضا أن محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت <sup>(٤)</sup> « الزُّهْدُ وَالْوَرَعُ يُجُولَانِ فِي الْقُلُوبِ كُلٌّ لَيْلَةٌ فَإِنْ صَادَقَا قَلْبًا فِيهِ الْإِيمَانُ وَالْحَيَاءُ أَقَامَا فِيهِ وَإِلَّا ارْتَحَلَا » <sup>(٥)</sup> ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا مؤمن حقا ؟ قال « وَمَا حَقِيقَةُ إِيْمَانِكَ ؟ » قال عزفت نفسي عن الدنيا ، فاستوى عندي حجرها وذهبها . وكأني بالجنة والنار ، وكأني بعرش ربي بارزا . فقال صلى الله عليه وسلم « عَرَفْتَ قَالَزَمَ عَبْدُ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ » فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الإيمان بزوف النفس عن الدنيا ، وقرنه باليقين ، وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال « عَبْدُ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ » ولما <sup>(٥)</sup> سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح في قوله تعالى ( فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ

( ١ ) حديث قلنا يا رسول الله وما محموم القلب قال النبي - الحديث : ابن ماجه باسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله يا رسول الله فمن على أثره وقد تقدم ورواه بهذه الزيادة بالاسناد المذكور الخرائطي في مكارم الأخلاق

( ٢ ) حديث ان أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا : ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف محوه وقد تقدم

( ٣ ) حديث الزهد والورع يجولان في القلب كل ليلة فان صادقا قلبا فيه الإيمان والحياء أقام فيه والارتحال لم أجده أصلا

( ٤ ) حديث لما قال له حارثة أنا مؤمن حقا فقال وما حقيقة إيمانك - الحديث : البراء من حديث أنس والطبراني

من حديث الحارث بن مالك وكلا الحديثين ضعيف

( ٥ ) حديث سئل عن قوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه - الحديث : الخاتم وقد تقدم

أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ <sup>(١)</sup> ) وقيل له : ما هذا الشرح ؟ قال « إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ فِي الْقَلْبِ انْشَرَحَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْفَسَحَ » قيل يا رسول الله وهل لذلك من علامة ؟ قال « نَعَمْ : التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْفُرُورِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالْإِسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ تَرْوِيلِهِ » فانظر كيف جعل الزهد شرطاً للإسلام ، وهو التجافي عن دار الفرور

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » قالوا إنا لنستحي منه تعالى فقال « لَيْسَ كَذَلِكَ تَبْنُونَ مَالًا تَسْكُنُونَ وَتَجْمَعُونَ مَالًا تَأْكُلُونَ » فيبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى . <sup>(٢)</sup> ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا : إنا مؤمنون . قال « وَمَا عَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ ؟ » فذكروا الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمواقع القضاء ، وترك الشهامة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء . فقال عليه الصلاة والسلام « إِنْ كُنْتُمْ كَذَلِكَ فَلَا تَجْمَعُوا مَالًا تَأْكُلُونَ وَلَا تَبْنُوا مَالًا تَسْكُنُونَ وَلَا تَنَافَسُوا فِيهَا عَنْهُ تَرْحَلُونَ » فجعل الزهد تسكماً لإيمانهم . وقال <sup>(٣)</sup> جابر رضي الله عنه : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « مَنْ جَاءَ بِإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ لَا يَخْلُطُ بِهَا غَيْرَهَا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » فقام إليه علي كرم الله وجهه فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما لا يخلط بها غيرها ؟ صفه لنا ، فسر له لنا . فقال « حُبُّ الدُّنْيَا طَلَبًا لَهَا وَاتِّبَاعًا لَهَا وَقَوْمٌ يَقُولُونَ قَوْلَ الْأَنْبِيَاءِ وَيَعْمَلُونَ عَمَلِ الْجَبَّارَةِ فَمَنْ جَاءَ بِإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » وفي الخبر <sup>(٤)</sup> « السَّخَاةُ مِنَ الْيَقِينِ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مُوقِنٌ وَالْبَخِيلُ مِنَ الشَّكِّ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ شَكَّ » وقال أيضاً <sup>(٥)</sup> « السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْبَخِيلُ

( ١ ) حديث استحيوا من الله حق الحياء - الحديث : الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب بإسناد ضعيف

( ٢ ) حديث لما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وما علامة إيمانكم - الحديث : الخطيب وابن عساكر في تاريخيهما بإسناد ضعيف من حديث جابر

( ٣ ) حديث جابر من جاء بإله إلا الله لا يخلط معها شيئاً وجبت له الجنة : لم أره من حديث جابر وقد رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف نحوه

( ٤ ) حديث السخا من اليقين ولا يدخل النار موقن - الحديث : ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرج له ولده في مسنده

( ٥ ) حديث السخي قريب من الله - الحديث : الترمذي من حديث أبي هريرة وقد تقدم

بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ» والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا، والسخاء ثمرة الزهد، والثناء على الثمرة ثناء على الثمر لاحتالة: وروي عن ابن المسيب، عن <sup>(١)</sup> أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا أَدْخَلَ اللَّهُ الْحِكْمَةَ قَلْبَهُ فَأُطِقَ بِهَا لِسَانُهُ وَعَرَفَهُ ذَا الدُّنْيَا وَدَوَاءُهَا وَأَخْرَجَهُ مِنْهَا سَالِمًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ». وروي أنه صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> مر في أصحابه بعشار من النوق حفل، وهي الحوامل، وكانت من أحب أموالهم إليهم، وأنفسها عندهم، لأنها تجمع الظهر، واللحم، واللبن، والوبر، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى (وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ <sup>(٣)</sup>) قال فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقليل له يارسول الله، هذه أنفس أموالنا، لم لا تنظر إليها؟ فقال «قَدْ نَهَاَنِی اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ» ثم تلا قوله تعالى (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ <sup>(٤)</sup>) الآية وروى <sup>(٥)</sup> مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يارسول الله، ألا تستطعم الله فيطعمك؟ قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع. فقال «يَا عَائِشَةُ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُجْرِيَ مَعِيَ جِبَالُ الدُّنْيَا ذَهَبًا لَأَجْرَاهَا حَيْثُ شِئْتُ مِنَ الْأَرْضِ وَلَكِنِّي اخْتَرْتُ جُوعَ الدُّنْيَا عَلَى شَبَعِهَا وَفَقْرَ الدُّنْيَا عَلَى غِنَاهَا وَحُزْنَ الدُّنْيَا عَلَى فَرَحِهَا يَا عَائِشَةُ إِنَّ الدُّنْيَا لَا تَنْبَغِي لِلْحَمْدِ وَلَا لِلِالْحَمْدِ يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ لِأُولَى الْعَزْمِ

(١) حديث أبي ذر من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه - الحديث: لم أره من حديث أبي ذر ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلًا ولا بن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري من زهد في الدنيا أربعين يومًا وأخلص فيها العبادة أجرى الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال حديث مكر وقال الذهبي باطل ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصرًا من حديث أبي أيوب من أخلص لله وكافها صعيمة

(٢) حديث مر في أصحابه بعشار من النوق حفل - الحديث: وفيه ثم لا قوله تعالى - ولا تمدن عينيكَ - الآية لم أجده أصلًا

(٣) حديث مسروق عن عائشة قلت يارسول الله ألا تستطعم ربك فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع الحديث: وفيه يا عائشة إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر - الحديث: أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد بن عباد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق مختصرًا يا عائشة إن الله لم يرض إلا أن كلفني ما كافهم فقال تعالى فاصبر كاصبر أولوا العزم من الرسل ومجالد يختلف في الاحتجاج به

(١) التكرير: ٤ (٢) طه: ١٣١

مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا الصَّبْرَ عَلَى مَسْكُورِهِ الدُّنْيَا وَالصَّبْرَ عَنْ مَحْبُوبِهَا ثُمَّ لَمْ يَرْضَ لِي إِلَّا أَنَّهُ يُكَلِّفُنِي مَا كَلَّفَهُمْ فَقَالَ ( فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلُوا الْعَزِيمِ مِنَ الرُّسُلِ <sup>(١)</sup> ) وَاللَّهِ مَا لِي بِدِينٍ طَاعَتِهِ وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا صَبْرَنَ كَمَا صَبَرُوا بِجُهْدِي وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ »

وروي <sup>(١)</sup> عن عمر رضي الله عنه ، أنه حين فتح عليه الفتوحات ، قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها . البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، وصر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر . فقال عمر : يا حفصة ، ألسنت تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ، فقالت بلى . قال ناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة ، لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله ، حتى فتح الله عليه خيبر ؟ وناشدتك الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرّبتم إليه يوم ما طعاما على مائدة فيها ارتفاع ، فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ، ثم أمر

( ١ ) حديث ان عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة البس لين الثياب اذا قدمت عليك الوفود . الحديث :

بطوله وفيه ناشدتك الله هل تعلمين كذا يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبكها وبكى الخ : لم أجده هكذا مجموعا في حديث وهو مفرق في عدة أحاديث فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لاقى ربه وفيه عمرو بن عبد الله القدرى متروك - الحديث : وللترمذى من حديث عائشة قالت ما شبع من طعام فأشاء أن أبكى إلا بكيت قلت لم قالت اذكر الحال التي فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم قال حديث حسن وللشيخين من حديث ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليال تباعا حتى قبض وللبخارى من حديث أنس كان لا يأكل على خوان - الحديث : وتقدم في آداب الاكل وللترمذى في الشمائل من حديث حفصة أنها سئلت ما كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم مسح ثنيه ثنتين فينام عليه - الحديث : ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة باثنتين - الحديث : وتقدم في آداب العيشة وللبزار من حديث أبي الدرداء قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد وقال لا نعلم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الاسناد قال يونس بن بكير قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكرى بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على ما فيها قلت فيه سعيد بن ميسرة فقد كذبه يحيى القطان وضعفه البخارى وابن حبان وابن عدى وغيرهم ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى في شملة قد عده عليها زاد القطراني في جزئه المشهور فمقدّمها في عنقه ما عليه غيرها واسناده ضعيف وتقدم في آداب المعيشة

بالمائدة فرفعت، ووضع الطعام على دون ذلك، وأوضع على الأرض؟ وناشدتك الله؟ هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية، فنثيت له ليلة أربع طاقات، فنام عليها، فلما استيقظ قال منعموني قيام الليلة بهذه العباءة، اثنوها باثنتين؟ كما كنتم تثنونها؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل، فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة، فيأجدها ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه، فيخرج بها إلى الصلاة؟ وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بني ظفر كساءين، إزارا ورداء، وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به، ليس عليه غيره، قد عقد طرفيه إلى عنقه، فصلى كذلك؟ فما زال يقول حتى أبكاها، وبكى عمر رضي الله عنه وانتحب، حتى ظننا أن نفسه ستخرج

وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر، وهو أنه قال: كان لي صاحبان سلكا طريقا، فإن ملكت غير طريقهما سلك بي طريق غير طريقهما. وإني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعل أدرك معهما عيشهما الرغيد. وعن<sup>(١)</sup> أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لَقَدْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلِي يُبْتَلَى أَحَدُهُمْ بِالْفَقْرِ فَلَا يَلْبَسُ إِلَّا الْعَبَاءَةَ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لِيُبْتَلَى بِالْقَمَلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ الْقَمَلُ وَكَانَ ذَلِكَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَطَاءِ إِلَيْكُمْ» وعن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَمَّا وَرَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَاءَ مَدْيَنَ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى فِي بَطْنِهِ مِنَ الْهَزَالِ» فهذا ما كان قد اختاراه أنبياء الله ورسله، وهم أعرف خلق الله بالله، وبطريق الفوز في الآخرة

وفي حديث<sup>(٢)</sup> عمر رضي الله عنه أنه قال: لما نزل قوله تعالى ( وَالَّذِينَ يَسْكُرُونَ

(١) حديث أبي سعيد الخدري كان الأنبياء يبتلى أحدهم بالفقر فلا يجد إلا عباءة - الحديث: باسناد صحيح في أثناء

حديث أوله دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوبعك دون قوله وان كان أحدهم ليبتلى بالقمل

(٢) حديث عمر لما نزل قوله تعالى - والذين يكتزون الذهب والفضة - الآية قال تبالدينار والدرهم

الحديث: وفيه فأى شيء - ندخر الترمذي وابن ماجه وتقدم في النكاح دون قوله تبالدينار

والدرهم والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان وانما قال العثف انه حديث

عمر لان عمر هو الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم أى المال يتخذ كفى رواية ابن ماجه وكارواه

البرار من حديث ابن عباس



الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ<sup>(١)</sup> قال صلى الله عليه وسلم « ثَبَا لِلدُّنْيَا نِتْمًا لِلدُّنْيَا بَنَارٌ وَلِدَرْهَمٌ » فقلنا يا رسول الله ، نهانا الله عن كثر الذهب والفضة فأَيُّ شَيْءٍ نُدْخِرُ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم « لِيَتَّخِذَ أَحَدُكُمْ لِسَانًا ذَا كَرَأٍ وَقَلْبًا شَاكِرًا وَزَوْجَةً صَالِحَةً تُعِينُهُ عَلَى أَمْرِ آخِرَتِهِ » وفي حديث<sup>(٢)</sup> حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَثَرَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِثَلَاثِ هَمَمٍ لَا يُفَارِقُ قَلْبَهُ أَبَدًا وَفَقْرًا لَا يَسْتَعْنِي أَبَدًا وَحِرْصًا لَا يَشْبَعُ أَبَدًا » وقال النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « لَا يَسْتَكْمِلُ الْعَبْدُ الْإِيمَانَ حَتَّى يَكُونَ أَنْ لَا يَعْرِفَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ وَحَتَّى يَكُونَ قَلَّةُ الشَّيْءِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثَرَتِهِ » وقال المسيح صلى الله عليه وسلم : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها . وقيل له . يابني الله ، لو أمرتنا أن نبني بيتا نعبد الله فيه ؟ قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء فقالوا كيف يستقيم بديان على الماء ؟ قال وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا ؟ وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَرَضَ عَلَيَّ أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا فَقُلْتُ لَا يَا رَبِّ وَلَكِنْ أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا فَأَمَّا الْيَوْمُ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ فَأَنْضِرْعُ إِلَيْكَ وَأَدْعُوكَ وَأَمَّا الْيَوْمُ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ فَأُحْدِكُ وَأُثْنِي عَلَيْكَ »

وعن<sup>(٤)</sup> ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشي وجبريل معه ، فصعد على الصفا ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « يَا جَبْرِيلُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَمْسَى لَيْلٌ بِجُحَدٍ كَفَّ سَوِيْقٍ وَلَا سَقَّةٌ دَقِيقٍ » فلم يكن كلامه

( ١ ) حديث حذيفة من أثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث - الحديث : لم أجده من حديث حذيفة والطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن من أشرب قلبه حب الدنيا التا ط منها ثلاث شتاء لا ينفد عنه وحرص لا يبلغ غناه وأمل لا يبلغ متناه وفي آخره زيادة

( ٢ ) حديث لا يستكمل عبد الايمان حتى يكون أن لا يعرف أحب اليه من أن يعرف وحتى يكون أقله أحب اليه من كثرته : لم أجده اسنادا وذكره صاحب الفردوس من رواية علي بن طلحة مرسل لا يستكمل عبد الايمان حتى يكون قلة الشيء أحب اليه من كثرته وحتى يكون أن يعرف في ذات الله أحب اليه من أن يعرف في غير ذات الله ولم يخرج له ولده في مسند الفردوس وعلي بن أبي طلحة أخرجه لمسلم وروى عن ابن عباس لكن روايته عنه مرسله فالحديث إذا معضل

( ٣ ) حديث ابن عباس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا الحديث : في نزول اسرافيل وقوله ان أحببت ان أسير معك حيا لتهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة - الحديث : تقديم مختصرا

بأسرع من أن سمع هدة من السماء أظلمته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمر الله أليكم أن تقوم » قال لا ، ولكن هذا إسرائيل عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك . فأتاه إسرائيل فقال : إن الله عز وجل سمع ما ذكرت ، فبعتني بفاتيح الأرض وأمرني أن أعرض عليك ، ، إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمرداً ، وياقوتاً ، وذهباً وفضة ، ففعلت ، وإن شئت نبيا ملكا ، وإن شئت نبيا عبدا . فأوماً إليه جبريل أن تواضع لله . فقال « نبياً عبداً » ثلاثاً . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إذا أراد الله بعبده خيراً زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بميوب نفسه » وقال صلى الله عليه وسلم لرجل <sup>(٢)</sup> « ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس »

وقال صلوات الله عليه <sup>(٣)</sup> « من أراد أن يؤتية الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لها عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا هانت عليه المعصيات » . ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام <sup>(٥)</sup> « أربع لا يذكرن إلا بتعب السموت وهو أول العبادات والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشيء » . وإيراد جميع الأخبار الواردة في مدح بنف الدنيا وذم حبها لا يمكن فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة ، وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق ، وفيما أوردناه كفاية والله المستعان

وأما الآثار : فقد جاء في الآثار لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا ما نقص من دينهم . وفي لفظ آخر : ما لم يؤثروا صفقة دينهم على دينهم ، فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله ، قال الله تعالى - كذبتم لستم بها صادقين . وعن بعض الصحابة

( ١ ) حديث إذا أراد الله بعبده خيراً زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بميوب نفسه : بأبو منصور الديلمي

في مستدرر الفردوس دون قوله ورغبه في الآخرة وزاد فقعه في الدين واستاده ضعيف

( ٢ ) حديث ازهد في الدنيا يحبك الله - الحديث : تقدم

( ٣ ) حديث من أراد أن يؤتية الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا : لم أجده أصلاً

( ٤ ) حديث من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات - الحديث : ابن حبان في الصغرى من حديث علي بن أبي طالب

( ٥ ) حديث أربع لا يذكرن إلا بتعب السموت وهو أول العبادات والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشيء - الحديث : لم أجده أصلاً

رضي الله عنهم أنه قال : تابعنا الأعمال كلها فلم نرفى أمر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا خيرا منكم . قيل ولم ذلك ؟ قال كانوا أزهد في الدنيا منكم . وقال عمر رضي الله عنه : الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد . وقال بلال بن سعد . كفى به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها . وقال رجل لسفيان . أشتى أن أرى عالما زاهدا . فقال ويحك ! تلك ضالة لا توجد . وقال وهب بن منبه . إئت للجنة ثمانية أبواب ، فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون : وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا ، العاشقين للجنة . وقال يوسف بن أسباط رحمه الله . إني لأشتى من الله ثلاث خصال . أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم ، ولا يكون علي دين ، ولا على عظمي لحم . فأعطى ذلك كله

وروي أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بمجوائز فقبلوها ، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها . فقال له بنوه : قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه ؟ فبكى الفضيل وقال : أتدرون مامثلي ومثلكم ؟ كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها ، فلما هربت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها . وكذلك أنتم أردتم ذبحي على كبر سني . موتوا يا أهلي جوعا خير لكم من أن تذبحوا فضيلا . وقال عبيد بن عمير . كان المسيح بن مريم عليه السلام يلبس الشعر ، ويأكل الشجر ، وليس له ولد يموت ، ولا بيت يخرب ، ولا يدخر لغد أينما أدركه المساء نام . وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم . هذا الشتاء قد هجم علينا ، ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب . فقال لها أبو حازم . من هذا كله بد ولكن لا بد لنا من الموت ، ثم البعث ، ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ، ثم الجنة أو النار . وقيل للحسن : لم لا تفعل ثيابك . قال الأمر أعجل من ذلك .

وقال إبراهيم بن أدهم قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب . الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح . فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط ، والساخط معذب ، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب ، والمعجب يحبط العمل .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ركتان من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدًا .

وقال بعض السلف : نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا . وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ يَخْصِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُجِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ » . فإذا فهم هذا علم أن النعمة في النعم المؤدى إلى الصحة أكبر منها في الإعطاء المؤدى إلى السقم .

وكان الثوري يقول : الدنيا دار التسواء لدار استواء ، ودار ترح لدار فرح ، من عرفها لم يفرح برخاء ، ولم يحزن على شقاء .

وقال سهل : لا يخلص العمل للمتعب حتى لا يفرغ من أربعة أشياء : الجوع ، والعري ، والفقر ، والذل . وقال الحسن البصري : أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب : كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة ، لم يطوله ثوب ، ولم ينصب له قدر ، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئاً ، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط . فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم ، يفتشون وجوههم ، تبصر دموعهم على خدودهم ، يناجون ربهم في فكك رقابهم : كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها ، وسألوا الله أن يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتم ، وسألوا الله أن يغفرها لهم . فلم يزالوا على ذلك ، وراثة ماساءوا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة ، رحمة الله عليهم ورضوانه

## بيان

درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه ، وإلى المرغوب عنه ، وإلى المرغوب فيه

اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث

الدرجة الأولى : وهي السفلى منها ، أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتبه ، وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ، ولكنه يجاهدها ويكفها . وهذا يسمى المتزهد . وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد . والمتزهد يذيق أولاً نفسه ، ثم كيسه

( ١ ) حديث أن الله يخصي عبده المؤمن من الدنيا - الحديث : تقدم

والزاهد أولا يذيب كيسه ، ثم يذيب نفسه في الطاعات ، لافي الصبر على مفارقة . والمتزهد على خطر ، فإنه ربما تغلبه نفسه . ونجذبه شهوته ، فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير الدرجة الثانية : الذي يترك الدنيا طوعا لاستحقاقه إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه . كالذي يترك درهما لأجل درهمين ، فإنه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل . ولكن هذا الزاهد يرى لاحالة زهده ، ويلتفت إليه ، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه . فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده ، ويظن في نفسه أنه ترك شيئا له قدر ما هو أعظم قدرامنه ، وهذا أيضا نقصان الدرجة الثالثة : وهي العليا ، أن يزهد طوعا ، ويزهد في زهده ، فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئا ، إذ عرف أن الدنيا لا شيء ، فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ، ولا يرى نفسه تاركا شيئا . والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعيم الآخرة . أخس من خزفة بالإضافة إلى جوهرة . فهذا هو الكمال في الزهد . وسببه كمال المعرفة ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا ، كما أن تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الإقالة في البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبد الرحيم . في أي شيء تتكلم ! قال في الزهد . قال في أي شيء ! قال في الدنيا . فنفض يده وقال : ظننت أنه يتكلم في شيء ، الدنيا لا شيء ، إيش يزهد فيها

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه ، فألقى إليه لقمة من خبز ، فشفله بنفسه ، ودخل الباب ونال القرب عند الملك ، حتى نفذ أمره في جميع مملكته . أفترى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه ، في مقابلة ما قد ناله ؟

فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول ، مع أن الباب مفتوح ، والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز ، إن أكلت فلذتها في حال المضغ ، وتنقضى على القرب بالابتلاع ، ثم يبقى ثقلها في المعدة ، ثم تنتهي إلى التئن والقدر ، ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثفل . فنتركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها !

ونسبة الدنيا كلها ، أعنى ما يسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة ، بالإضافة إلى نعيم الآخرة ، أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا . إذ لا نسبة للمتناهى إلى ما لا نهاية له .

والدنيا متناهية على القرب. ولو كانت تتماهى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان  
لائسبة لها إلى نعيم الأبد. فكيف ومدة العمر قصيرة، ولذات الدنيا مكدر غير صافية !  
فأي نسبة لها إلى نعيم الأبد . فإذا لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى مازهد  
فيه. ولا يلتفت إلى مازهد فيه إلا لأنه يراه شيئاً معتداً به ولا يراه شيئاً معتداً به إلا لقصور  
معرفة. فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة

فهذا تفاوت درجات الزهد. وكل درجة من هذه أيضاً لها درجات، إذ تصبّر المتزهد  
يختلف ويتفاوت أيضاً باختلاف قدر المشقة في الصبر، وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر  
التفاني إلى زهده. وأما تقسام الزهد بالأضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضاً على ثلاث درجات:  
الدرجة السفلى: أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام، كعذاب القبر  
ومناقشة الحساب، وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به  
الأخبار. إذ فيها<sup>(١)</sup> أن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشاً على  
عرقه لصدرت رواء. فهذا هو زهد الخائفين، وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا، فإن الخلاص  
من الألم يحصل بمجرد العدم

الدرجة الثانية: أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه، واللذات الموعودة في جنته: من  
الحور، والقصور، وغيرها. وهذا زهد الراجين. فإن هؤلاء ماتوا الدنيا قناعة بالعدم  
والخلاص من الألم، بل طمعوها في وجود دائم ونعيم سرمدي لا آخر له

الدرجة الثالثة: وهي العليا. أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى  
الآلام ليقصد الخلاص منها، ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها، بل هو مستغرق  
الهم بالله تعالى. وهو الذي أصبح وهو مهتم واحد. وهو الموحّد الحقيقي الذي لا يطلب  
غير الله تعالى. لأن من طلب غير الله فقد عبده: وكل مطلوب معبود وكل طالب عبداً بالإضافة  
إلى مطلبه. وطلب غير الله من الشرك الخفي. وهذا زهد المحبين، وهم العارفون، لأنه لا يخب

(١) حديث أن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشاً على عرقه لصدرت رواء: أحمد  
من حديث ابن عباس التقي مؤمنان علي باب الجنة مؤمن غني ومؤمن فقير - الحديث: وفيه  
أن حبست بعدك عبداً فظليماً كرهها ما وصات اليك حتى سال من العرق ما لو ورده ألم بعير أكلة  
- من أصدرت منه رواء وفيه دويد سير منسوب يتباج إلى معرفة قال أحمد حديثه مثله

الله تعالى خاصة إلا من عرفه. وكان من عرف الدينار والدرهم ، وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما ، لم يحب إلا الدينار ، فكذلك من عرف الله ، وعرف لذة النظر إلى وجهه الكريم ، وعرف أن الجمع بين تلك اللذة ، وبين لذة التنعم بالحوار العيني : والنظر إلى نقش القصور وخضرة الأشجار غير ممكن ، فلا يحب إلا لذة النظر ، ولا يؤثر غيره

ولا نطن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى لذة الحوار والقصور متسع في قلوبهم ، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به . والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالمصفور ، التارك للذة الملك ، وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك ، لأن اللعب بالمصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق . وأما انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل . ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول ، فلا نستغل بنقل الأقاويل ، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل ، حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الإحاطة بالكل ، فنقول : المرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل . وتفصيله مراتب ، بعضها أشرح لآحاد الأقسام ، وبعضها أجل للجمل . أما الإجمال في الدرجة الأولى فهو كل ماسوى الله فينبني أن يزهد فيه ، حتى يزهد في نفسه أيضا . والإجمال في الدرجة الثانية أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة . وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة ، والغضب ، والكبر ، والرياسة ، والمال ، والجاه ، وغيرها

وفي الدرجة الثالثة أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما ، إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس وفي الدرجة الرابعة أن يزهد في العلم ، والقدرة ، والدينار ، والدرهم ، والجاه إذا أموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه . وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة . وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب . إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها ، كما أن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها

فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا ، فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر . وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال (زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ

مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ  
وَالْحَرْثَ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا <sup>(١)</sup> ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل  
(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ  
وَالْأَوْلَادِ <sup>(٢)</sup>) ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ  
وَلَهُمْ <sup>(٣)</sup>) ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال (وَسَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ  
الْجَنَّةَ هِيَ الْآلَاءُ <sup>(٤)</sup>) فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا. فينبغي أن يكون الزهد فيه  
وإذا فهمت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض، وإنما  
يفارقه في الشرح مرة، والإجمال أخرى. فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ  
النفس كلها. ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا، فقصر أمله لا محالة، لأنه  
إنما يريد البقاء ليتمتع، ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء، فإن من أراد شيئاً أراد دوامه. ولا معنى  
لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة. فإذا رغب عنها لم يردها  
ولذلك لما كتب عليهم القتال قالوا (رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ  
أَجَلٍ قَرِيبٍ <sup>(٥)</sup>) فقال تعالى (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ <sup>(٦)</sup>) أي لستم تريدون البقاء  
إلامتاع الدنيا. فظهر عند ذلك الزاهدون، وانكشف حال المنافقين  
أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص، وانتظروا  
إحدى الحسينين، وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة، ويبادرون إليه بمبادرة  
الظمآن إلى الماء البارد، حرصاً على نصرته دين الله، أو نيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم  
على فراشه يتحسر على فوت الشهادة، حتى أن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر  
للموت على فراشه كان يقول. كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعاً في الشهادة  
وأنا الآن أموت موت العجائز. فلما مات عُدَّ على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات  
هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين

وأما المنافقون ففروا من الزحف خوفاً من الموت، فقيل لهم (إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي  
تَقْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَأَ قِيَمَكُمْ <sup>(٧)</sup>) فإيثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي

(١) آل عمران : ١٤ (٣، ٢) الحديد : ٣٠ (٤) النازعات : ٤٠ (٥) النساء : ٧٧ (٦) الجمعة : ٨



عن حيدر بن محمد القمي: اشتروا الضلالة بالمهدي ، فما رجعت نجارتهم وما كانوا مهتدين .  
 وأما المخلصون فإن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . فلما رأوا  
 أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلاً ، أو ثلاثين سنة ، بتمتع الأبد ، استبشروا ببيعهم الذي  
 بايعوا به فهذا بيان المزهود فيه . وإذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره المتكلمون في حد الزهد  
 لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه . فذكر كل واحد منهم ما رآه غالباً على نفسه ، أو على من كان يخاطبه .  
 فقال بشر رحمه الله تعالى : الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه  
 خاصة وقال قاسم الجوعى : الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف . فبقدر ماتمك من بطنك  
 كذلك تملك من الزهد . وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة . ولعمري هي أغلب  
 الشهوات على الأكثر ، وهي المهيجة لأكثر الشهوات

وقال الفضيل : الزهد في الدنيا هو القناعة . وهذا إشارة إلى المال خاصة  
 وقال الثوري : الزهد هو قصر الأمل . وهو جامع لجميع الشهوات . فإن من عيّل إلى الشهوات  
 يحدث نفسه بالبقاء ، فيطول أمله . ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها  
 وقال أويس : إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه . وما قصد بهذا حد الزهد ،  
 ولكن جعل التوكل شرطاً في الزهد . وقال أويس أيضاً : الزهد هو ترك الطلب  
 للمضمون . وهو إشارة إلى الرزق . وقال أهل الحديث : الدنيا هو العمل بالرأى والمعقول  
 والزهد إنما هو اتباع العلم ولزوم السنة . وهذا إن أريد به الرأى الفاسد والمعقول الذي  
 يطلب به الجاه في الدنيا ، فهو صحيح . ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة ، أو إلى  
 بعض ما هو من فضول الشهوات . فإن من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة ، وقد طولوها  
 حتى ينقضى عمر الإنسان في الاشتغال بواحد منها . فشرط الزاهد أن يكون الفضول  
 أوّل مرغوب عنه عنده . وقال الحسن . الزاهد الذي إذا رأى أحداً قال هذا أفضل مني  
 فذهب إلى أن الزهد هو التواضع . وهذا إشارة إلى نفي الجاه والمعجب ، وهو بعض أقسام الزهد .  
 وقال بعضهم : الزهد هو طلب الحلال . وأين هذا ممن يقول الزهد هو ترك الطلب ،  
 كما قال أويس ، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال .

وقد كان يوسف بن أسباط يقول . من صبر على الأذى ، وترك الشهوات ، وأكل الخبز من الحلال ، فقد أخذ بأصل الزهد

وفي الزهد أقاويل وراء ما نقلناه ، فلم نر في نقلها فائدة . فإن من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رآها مختلفة ، فلا يستفيد إلا الحيرة ، وأما من انكشف له الحق في نفسه ، وأدركه بمشاهدة من قلبه ، لا يتلقف من سمعه ، فقد وثق بالحق ، واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته ، وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته . وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة ، لكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة ، فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة ، والحاجات تختلف ، فلا جرم الكلمات تختلف

وقد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العبد في نفسه ، والأحوال تختلف . فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف

وأما الحق في نفسه فلا يكون إلا واحداً ، ولا يتصور أن يختلف . وإنما الجامع من هذه الأقاويل ، الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل ، ما قاله أبو سليمان الداراني إذ قال : سمعنا في الزهد كلاماً كثيراً ، والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل . وقد فصل مرة وقال . من تزوج ، أو سافر في طلب الميعة ، أو كتب الحديث ، فقد ركن إلى الدنيا . فجعل جميع ذلك ضداً للزهد . وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى ( إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ <sup>(١)</sup> ) فقال هو القاب الذي ليس فيه غير الله تعالى . وقال . إنما زهدوا في الدنيا لتفرغ قلوبهم من همومها الآخرة . فهذا بيان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف المزهود فيه فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ، ونفل ، وسلامة ، كما قاله إبراهيم بن أدهم ، فالفرض هو الزهد في الحرام . والنفل هو الزهد في الحلال . والسلامة هو الزهد في الشبهات . وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال والحرام ، وذلك من الزهد ، إذ قيل للمالك بن أنس . ما الزهد ؟ قال التقوى . . . وأما بالإضافة إلى خفايا ما يتركه . فلا نهاية للزهد فيه . إذ لا نهاية لما تتمتع به النفس في الخطرات ، واللحظات ، وسائر الحالات ، لا سيما خفايا الرياء فإن ذلك لا يطلع عليه إلا سمسرة العلماء . بل الأموال الظاهرة أي سائر درجات الزهد فيها لا تتناهى

(١) الشعراء : ٨٩

فمن أوصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرا في نومته ، فقال له الشيطان ، أما كنت تركت الدنيا ، فما الذي بدا لك ؟ قال وما الذي تجدد ؟ قال توسدك الحجر . أي تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم ، فرمى الحجر وقال . خذه مع ما تركته لك وروي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام ، أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس ، واستراحة حس المس . فسأله أمه أن يلبس مكان المسوح جبة من صوف ، ففعل . فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى ، آثرت علي الدنيا . فبكى ونزع الصوف ، وعاد إلى ما كان عليه وقال أحمد رحمه الله تعالى : الزهد زهد أويس ، بلغ من العري أن جلس في قوصرة . وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان ، فأقامه صاحب الحائط ، فقال ما أقتنى أنت إنما أقامني الذي لم يرض لي أن أتنعم بظل الحائط

فإذا درجات الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها . وأقل درجاته الزهد في كل شبهة ومحذور وقال قوم : الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحذور . فليس ذلك من درجاته في شيء . ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا ، فلا يتصور الزهد الآن فإن قلت . مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ما سوى الله ، فكيف يتصور ذلك مع الأكل ، والشرب ، واللبس ، ومخالطة الناس ، ومكالمتهم ، وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الإقبال بكل القلب عليه ذكرًا وفكرًا . ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء . ولا بقاء إلا بضروريات النفس . فهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن ، وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشغلا بغير الله ، فإن ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه ، فالمشتغل بملف الناقة وبسقيها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج . ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج ، ولا غرض لك في تنعم ناقتك بالذات ، بل غرضك مقصود على دفع المهلكات عنها ، حتى تسير بك إلى مقصدك . فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب ، وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن فتقتصر على قدر الضرورة ، ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى ، فذلك لا يناقض الزهد ، بل هو شرط الزهد

وإن قلت: فلا بد وأن أتلذذ بالأكل عند الجوع ، فاعلم أن ذلك لا يضر . إذا لم يكن قصدك التلذذ . فإن شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ، ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ومن يقضى حاجته قد يستريح بذلك ، ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا إليه . فالإنسان قد يستريح في قيام الليل بتنسيم الأسحار وصوت الأطيّار ، ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره . ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه فيه نسيم الأسحار ، خيفة من الاستراحة به ، وأنس القلب معه ، فيكون فيه أنس بالدنيا ، ونقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله . ولذلك كان داود الطائي له حب مكشوف فيه مأوه ، فكان لا يرفعه من الشمس ، ويشرب الماء الحار ويقول : من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا فهذه مخاوف المحتاطين . والحزم في جميع ذلك الاحتياط ، فإنه وإن كان شاقا فدلته قريبة والاحتما مدة يسيرة للتنعم على التأييد لا يثقل على أهل المعرفة ، القاهرين لأنفسهم بسياسة الشرع المعتصنين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين

## بيان

تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة

اعلم أن ما للناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم : فالفضول كالحيل المسومة مثلا ، إذ غالب الناس إنما يقتنيها للترفيه بركوبها ، وهو قادر على المشي . والمهم كالأكل والشرب . ولنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول ، فإن ذلك لا ينحصر . وإنما ينحصر المهم الضروري . والمهم أيضا يتطرق إليه فضول في مقداره ، وجنسه ، وأوقاته . فلا بد من بيان وجه الزهد فيه . والمهمات ستة أمور . المطعم ، والملبس ، والمسكن وأثاثه ، والمنكح ، والمال ، والجاء يطلب لأغراض . وهذه الستة من جملتها ، وقد ذكرنا معنى الجاء وسبب حب الخلق له ، وكيفية الاحتراز منه ، في كتاب الرياء من ربيع المهلكات . ونحن الآن تقتصر على بيان هذه المهمات الستة

الأول المطعم : ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم صلبه . ولكن له طول وعرض فلا بد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد . فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر ، فإن

من يملك طعام يومه فلا يقنع به . وأما عرضه في مقدار الطعام ، وجنسه ، ووقت تناوله  
أما طوله فلا يقصر إلا بقصر الأمل . وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع  
الجوع ، عند شدة الجوع وخوف المرض . ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله  
لم يدخر من غدائه لمشائه ، وهذه هي الدرجة العليا

الدرجة الثانية : أن يدخر لشهر ، أو أربعين يوما

الدرجة الثالثة : أن يدخر لسنة فقط . وهذه رتبة ضعف الزهاد . ومن ادخر لأكثر  
من ذلك فتسميته زاهدا محال ، لأن من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا ، فلا  
يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب . ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس ، كداود  
الطائي ، فإنه ورث عشرين دينارا ، فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة . فهذا لا يضاد أصل  
الزهد إلا عند من جعل التوكل شرط الزهد

وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار . وأقل درجاته في اليوم واليلة نصف رطل ، أو سطره  
رطل ، وأعله مد واحد وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من  
اتساع البطن والاشتغال به . ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب  
وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت ولو الخبز من النخالة ، وأوسطه خبز الشعير  
والذرة ، وأعله خبز البر غير منخول . فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التنعم  
وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله

وأما الأدم فأقله الملح ، أو البقل والخل ، وأوسطه الزيت أو سير من الأدهان أي دهن  
كان . وأعله اللحم أي لحم كان ، وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين . فإن صار دائما ، أو  
أكثر من مرتين في الأسبوع ، خرج عن آخر أبواب الزهد ، فلم يكن صاحبه زاهدا  
في البطن أصلا . وأما بالإضافة إلى الوقت ، فأقله في اليوم واليلة مرة ، وهو أن  
يكون صائما . وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ، ويأكل ليلة ولا يشرب . وأعله  
أن ينتهي إلى أن يطوي ثلاثة أيام ، أو أسبوعا وما زاد عليه . وقد ذكرنا طريق تقليد الطعام

وكسر شرهه في ربع المهلكات

ولينظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية

زهدهم في المطاع ، وتركهم الأدم . قالت <sup>(١)</sup> عائشة رضي الله تعالى عنها : كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار . قيل لها فيم كنتم تعيشون ؟ قالت بالأسودين . التمر والماء . وهذا ترك اللحم ، والمرقة والأدم وقال <sup>(٢)</sup> الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ، ويلبس الصوف ويتعمل المخصوف ، ويلتقي أصابعه ، ويأكل على الأرض ، ويقول « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا تَأْكُلُ الْعَبِيدُ وَأَجْلِسُ كَمَا تَجْلِسُ الْعَبِيدُ »

وقال المسيح عليه السلام : بحق أقول لكم ، إنه من طلب الفردوس فخير الشعير له والنوم على المزابل مع السكالب كثير

وقال الفضيل <sup>(٣)</sup> . ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول . يا بني إسرائيل ، عليكم بالماء القراح ، والبقل البري وخبز الشعير وإياكم وخبز البر ، فإنكم لن تقوموا بشكره

وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في المظم والمشر في ربيع المهلكات فلا نعيده <sup>(٤)</sup> ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء ، أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل ، فوضع القدح من يده وقال « أَمَا إِنِّي لَسْتُ أُحَرِّمُهُ وَلَكِنْ أَتُرْكِيهِ تَوَاضَعًا لِلَّهِ تَعَالَى »

وأنى عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف ، فقال اعزلوا عني حسابها وقد قال يحيى بن معاذ الرازي : الزاهد الضادق قوته ما وجد ، وإبائسه ما ستر ، ومسكنه حيث أدرك . الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلاوة مجاسه ، والاعتبار فكرته ، والقراءان حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه . والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياء شعاره

( ١ ) حديث عائشة كانت تأتي أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار الحديث : ابن ماجه من حديث عائشة كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوت دخان الحديث وفي رواية ما يوقد فيه بنار ولأحمد كان يمر بالهلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوت نار وفي رواية له ثلاثة أهواء

( ٢ ) حديث الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار - الحديث : تقدم دون قوله إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فإنه ليس من حديث الحسن إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم

( ٣ ) حديث ما شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر : تقدم

( ٤ ) حديث لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده - الحديث : تقدم

والجوع إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والعصمت غنيمة .  
والصبر معتمده ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ، والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى  
المهم الثاني : الملابس . وأقل درجاته ما يدفع الحر ، والبرد ، وبستر العورة . وهو كساء يغطي به  
وأوسطه قميص ، وقلنسوة ، ونعلان . وأعلاه أن يكون معه منديل وسراويل : وما جاوز هذا  
من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد . وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه  
بل يلزمه القعود في البيت . فإذا صار صاحب قميصين ، وسراويلين ، ومنديلين ، فقد خرج من  
جميع أبواب الزهد من حيث المقدار

أما الجنس فأقله المسوح الخشن ، وأوسطه الصوف الخشن ، وأعلاه القطن الغليظ  
وأما من حيث الوقت فأقصاه ما يستر سنة ، وأقله ما يبقى يوما . حتى رقع بعضهم ثوبه  
بورق الشجر ، وإن كان يتسارع الجفاف إليه . وأوسطه ما يماسك عليه شهرا وما يقاربه  
فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل ، وهو مضاد للزهد ، إلا إذا كان  
المطلوب خشونته ، ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه . فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن  
يتصدق به . فإن أمسكه لم يكن زاهدا . بل كان محبا للدنيا

ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس . قال أبو بردة <sup>(١)</sup> : أخرجت  
لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبدا ، وإزارا غليظا ، فقالت . قبض رسول الله صلى الله عليه  
وسلم في هذين . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْمُتَبَدِّلَ الَّذِي  
لَا يَبَالِي مَا لَبَسَ » . وقال عمرو بن الأسود العنسي . لا ألبس مشهورا أبدا ، ولا أناما بليلا  
على دثار أبدا ، ولا أركب على ماثور أبدا ، ولا أملأ جوفي من طعام أبدا . فقال <sup>(٣)</sup> عمر :  
من سره أن ينظر إلى هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود

( ١ ) حديث أخرجت عائشة كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين :

الشيخان وقد تقدم في آداب المعيشة

( ٢ ) حديث أن الله يحب المتبدل الذي لا يبالى باللبس : لم أجده أصلا

( ٣ ) حديث عمر من سره أن ينظر إلى هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو

ابن الأسود رواه أحمد بإسناد جي

وَأَنَّ كَانَتْ عِنْدَهُ حَبِيبًا ۝  
 (١) وَاشْتَرَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَوْبًا بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمٍ. (٢) وَكَانَتْ قِيَمَةُ ثَوْبِيهِ عَشْرَةَ. (٣)

وَكَانَ إِزَارُهُ أَرْبَعَةَ أَذْرُعٍ وَنِصْفًا (٤) وَاشْتَرَى سِرَاطِيلَ بِثَلَاثَةِ دَرَاهِمٍ. (٥) وَكَانَ يَلْبَسُ ثَمَلَتَيْنِ يَمِضَاوَيْنِ مِنْ صُوفٍ. وَكَانَتْ تَسْمَى حَلَّةً لِأَنَّهَا ثَوْبَانِ مِنْ جَنْسٍ وَاحِدٍ. وَرَبَّمَا كَانَ يَلْبَسُ بَرْدَيْنِ يَمَانِيَيْنِ أَوْ سَحُولِيَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْغَلَاظِ. وَفِي الْخَبَرِ (٦) كَانَ قِيَصُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّهُ قِيَصُ زَيَاتٍ (٧) وَلَبَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا وَاحِدًا ثَوْبًا سِيرَاءً مِنْ سُنْدُسٍ، قِيَمَتُهُ مِائَتًا.

( ١ ) - حديث مامن عبد لبس ثوب شهرة - الحديث : ابن ماجه من حديث أبي ذر باسناد جيد دون قوله وان كان عنده حبيا

( ٢ ) - حديث اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم : أبو يعلى من حديث أبي هريرة قال دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبس إلى البرازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم - الحديث : وإسناده ضعيف

( ٣ ) - حديث كان قيمة ثوبه عشرة دراهم : لم أجده

( ٤ ) - حديث كان إزاره أربعة أذرع ونصف : أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير سريلا كان رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع وعرضه ذراعان ونصف - الحديث : وفيه ابن لميعة وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة كان إزاره من نسج عثمان طولاه أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر وفيه محمد بن عمر الواقدي

( ٥ ) - حديث اشترى سراويل بثلاثة دراهم : المعروف انه اشتراه بأربعة دراهم كما تقدم عند أبي يعلى وشراؤه السراويل عند أصحاب السنن من حديث سويد بن قيس الا انه لم يذكر فيه مقدار ثمنه قال الترمذي حسن صحيح

( ٦ ) - حديث كان يلبس ثملتين يعضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لأنهما ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ : تقدم في آداب وأخلاق النبوة إسناده للشملة البرد والخبرة وأماله في الحلة في الصحيحين من حديث البراء رأيت في حلة حمراء ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الحرورية وعليه أحسن ما يكون من حال الجن وقل رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من المال وفي الصحيحين من حديث عائشة انه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدهما إزار غليظ فما يصنع بالجن وتقدم في آداب العيشة ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رزمة وعنه بردان أخضران سكت عليه أبو داود واستفريه والترمذي وللبراز من حديث قدامة الكلابي وعليه حلة حبرة وفيه عريف بن إبراهيم لا يعرف قاله الذهبي ( ٧ ) - حديث كان قيصه كأنه قيص زيات : الترمذي من حديث أنس بسند ضعيف كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته حتى كأن ثوبه ثوب زيات

( ٨ ) - حديث لبس يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته مائتا درهم أهده له لقوقس ثم نزع - الحديث :



درهم . فكان أصحابه يمسونه ويقولون : يا رسول الله ، أنزل عليك هذلمن الجنة ؟ تعجبا . وكان قد أهداه إليه المقوقس ملك الاسكندرية ، فأراد أن يكرمه بلبسه ، ثم نزعه وأرسل به إلى رجل من المشركين وصله به ، ثم حرم لبس الحرير والديباج . وكأنه إنما لبسه أو لا تأ كيدا للتحريم كما <sup>(١)</sup> لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزعه فحرم لبسه على الرجال . <sup>(٢)</sup> وكما قال لعائشة في شأن بريرة « اشترطى لآهلها الولاء » فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فخرمه . وكما <sup>(٣)</sup> أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها ، لتأكيد أمر النكاح

وقد <sup>(٤)</sup> صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خميصة لها علم . فلما سلم قال « شغلني النظر إلى هذه اذهبوا بها إلى أبي جهنم واتنوني بأنبياء نبيته » يعني كساءه . فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم . وكان شركاء نعله قد أخلق ، فأبدل بسير جديد ، فصلى فيه ، فلما سلم قال « أعيذوا الشركاء الخلق وانزعوا هذا الجديد فإني نظرت لآله في الصلاة » <sup>(٥)</sup> ولبس خاتما من ذهب ، ونظر إليه على المنبر نظرة ، فرمى به ، فقال « شغلني هذا عنكم نظرة لآله ونظرة لآلئكم »

وكان صلى الله عليه وسلم قد <sup>(٦)</sup> احتذى مرة نعلين جديدين ، فأعجبه حسنهما . فخر ساجدا وقال « أعجبتني حسنهما فتواضعت لربّي خشية أن يمتنني » ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه وعن <sup>(٧)</sup> سنان بن سعد قال : حيكمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أنمار وجعلت جاشيتها سوداء . فلما لبسها قال « انظروا مأ حسنها مأ لئنها » قال فقام إليه أعرابي فقال : يا رسول الله هبها لي ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم يخل به ، قال

- ( ١ ) حديث لبس يوما خاتما من ذهب ثم نزعه : متفق عليه وقد تقدم
- ( ٢ ) حديث قال لعائشة في شأن بريرة اشترطى لأهلها - الحديث : متفق عليه من حديثها
- ( ٣ ) حديث أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها : مسلم من حديث سلمة بن الأكوع
- ( ٤ ) حديث صلى في خميصة لها علم - الحديث : متفق عليه وقد تقدم في الصلاة
- ( ٥ ) حديث لبس خاتما فنظر إليه على المنبر فرمى به وقال شغلني هذا عنكم - الحديث : تقدم
- ( ٦ ) حديث احتذى نعلين جديدين فأعجبه حسنهما - الحديث : تقدم
- ( ٧ ) حديث سنان بن سعد حيكمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة صوف من صوف أنمار - الحديث : أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد دون قوله وأمر أن يحاك له أخرى فهي عند الطبراني فقط وفيه زمعة بن صالح ضعيف وبقع في كثير من نسخ الاحياء سيار بن سعد وهو غلط

فدفعها إليه ، وأمر أن يحاك له واحدة أخرى ، ثأت صلى الله عليه وسلم وهي في المحاكمة  
وعن (١) جابر قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي  
تطحن بالرحا ، وعليها كساء من وبر الإبل ؛ فلما نظر إليها بكى وقال « يَا فَاطِمَةُ تَجَرِّعِي  
مَرَارَةَ الدُّنْيَا لِنَعِيمِ الْآبِدِ » فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) (٢)  
وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « إِنْ مِنْ خِيَارِ أُمَّتِي فِيمَا أَنْبَأَنِي الْمَلَأُ الْأَعْلَى قَوْمًا  
يَضْحَكُونَ جَهْرًا مِنْ سِعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَيَبْكُونَ سِرًّا مِنْ خَوْفِ عَذَابِهِ مُؤَنِّمُهُمْ عَلَى  
النَّاسِ خَفِيفَةٌ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ ثَقِيلَةٌ يَلْبَسُونَ الْخُلُقَانَ وَيَتَّبِعُونَ الرُّهْبَانَ أَجْسَامُهُمْ فِي  
الْأَرْضِ وَأَفْنِدُهُمْ عِنْدَ الْعَرْشِ »

فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملابس ، وقد أوصى أمته عامة باتباعه  
إذ قال (٣) « مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيَسْتَنْ بِسُنَّتِي » وقال (٤) « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ  
الْبَرِّ السَّادِينَ مِنْ بَعْدِي عَنْهُمْ عَلَيْهِمُ الْبَلَوُاجِدِ » وقال تعالى ( قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ  
فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ) (٥) وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها خاصة  
وقال « إِنْ أَرَدْتَ الْإِحْقَاقَ فِي فَيَاكِ وَمَجَالِسَةِ الْأَغْنِيَاءِ وَلَا تَتَزَيَّعِي ثَوْبًا حَتَّى تُرْقِعِيهِ »

وعند علي قيض عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من آدم  
واشترى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ، وابسه وهو في الخلافة ،  
وقطع كفيه من الرسعين وقال : الحمد لله الذي كساني هذا من ريشه  
وقال الثوري وغيره : البس من الثياب ما لا يشرك عند العلماء ، ولا يحقرك عند الجاهل .

( ١ ) حديث جابر دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحا - الحديث : أبو بكر بن لال في معجم الأئمة بإسناد ضعيف

( ٢ ) حديث أن من خيار أمتي فيما آتاني العلي الأعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويبكون سرا من

خوف عذابه - الحديث : تقدم وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه

( ٣ ) حديث من أحبني فليستن بسنتي : تقدم في السكاح

( ٤ ) حديث عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين - الحديث : أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه

من حديث المرابط بن سارية

( ٥ ) حديث قال عائشة ان أردت الإحقاق في فياك ومجالسة الأغنياء : الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه

من حديث عائشة وقد تقدم

(١) إسناده : هـ (٢) آل عمران : ٣١

وكان يقول : إن الفقير ليربّي وأنا أصلي فأدعه يحوز ، وعمر بنى واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البرقة فأمقته ولا أدعه يحوز .

وقال بعضهم : قوّمت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دنانق . وقال ابن شبرمة : خير ثيابي ماخدمني ، وشرها ماخدمته .

وقال بعض السلف : البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة ، ولا تلبس منها ما يشرك فينظر إليك . وقال أبو سليمان الداراني ، الثياب ثلاثة : ثوب لله وهو ما يستر العورة ، وثوب للنفس وهو ما يطلب لينة ، وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه

وقال بعضهم : من رق ثوبه رق دينه . وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهما . وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قميص ومزركتة وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه

وقال بعض السلف : أول النسك الذي . وفي الخبر . البذاذة من الإيمان . وفي الخبر . من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى ، وابتغاء لوجهه ، كان حقا على الله أن يدخر له من عبقرى الجنة في نخات الياقوت

وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه . قل لأوليائي لا يلبسوا ملابس أعدائي ، ولا يدخلوا مداخل أعدائي ، فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي . ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ ، فقال . انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق ، وكان عليه ثياب رفاق . وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر في برزته ، فجعل يتكلم في الزهد ، فوضع أبو ذر راحته على فيه ، وجعل يضطرط به . فغضب ابن عامر ، فشكاه إلى عمر . فقال أنت صنعت بنفسك . تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البرقة !

وقال علي كرم الله وجهه . إن الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ، ليقبض بهم الغني ، ولا يزرى بالفقير فقره . ولما عوتب في خشونة لباسه قال : هو أقرب إلى التواضع ، وأجدر أن يقتدى به المسلم .

(١) ونهى صلى الله عليه وسلم عن التمتع وقال « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عِبَادًا لَيْسُوا بِالْمُتَعَمِّينَ »

( ١ ) حديث نهى عن التمتع وقال ان عباد الله ليسوا بالمتعممين: أحمد من حديث معاذ وقد تقدم

وروي<sup>(١)</sup> فضالة بن عبيد وهو والى مصر ، أشعث حافيا ، فقبل له أنت الأمير وتفضل هذا ! فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإفراه ، وأمرنا أن نحتفي أحيانا .

وقال علي لعمر رضي الله عنهما : إن أردت أن تلحق بصاحبك فأرقع القميص ، ونكس الإزار ، واخصف النعل ، وكل دون الشبع

وقال عمر : اخشوشنوا ، وإياكم وزي المعجم كسرى وقيصر

وقال علي كرم الله وجهه : من تزيأ بزي قوم فهو منهم

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « إِنَّ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غُضُّوا بِالنَّعِيمِ يُطْلَبُونَ أَلْوَانِ الطَّعَامِ وَأَلْوَانِ الثِّيَابِ وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلَامِ »

وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ وَمَا أَسْفَلَ مِنْ ذَلِكَ فِي النَّارِ وَلَا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزْرَهُ بَطَرًا » . وقال<sup>(٤)</sup> أبو سليمان الداراني . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا يَلْبَسُ الشَّعْرَ مِنْ أُمَّتِي إِلَّا مُرَاءٍ أَوْ أُحْمَقُ »

وقال الأوزاعي : لباس الصوف في السفر سنة ، وفي الحضرة بدعة

ودخل محمد بن واسع على قتبية بن مسلم ، وعليه جبة صوف ، فقال له قتبية . مادعاك إلى مدرعة الصوف ؟ فسكت . فقال أكلك ولا تجيبنى . فقال أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي ، أوقفرا فاشكوربي هـ وقال أبو سليمان : لما اتخذ الله إبراهيم خليلا أوحى إليه أن وار عورتك من الأرض . وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدا سوى السراويل ، فإنه كان يتخذ سراويلين ، فإذا غسل أحدهما لبس الآخر ، حتى لا يأتي عليه حال إلا وعورته مستورة

وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه . مالك لا تلبس الجيّد من الثياب ! فقال وما للعبد والثوب

( ١ ) حديث فضالة بن عبيد أنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإفراه وأمرنا أن نحتفي أحيانا : أبو داود باسناد جيد

( ٢ ) حديث ابن عمر عن أمي النبي صلى الله عليه وسلم عن الإفراه : الحديث : الطبراني من حديث أبي أمامة باسناد ضعيف

سيكون رجال من أمتي يأكلون ألوان الطعام - الحديث : وآخره أولئك شرار أمتي وقد تقدم

( ٣ ) حديث أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه - الحديث : مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث

أبي سعيد ورواه أيضا النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلي كلا الحديثين محفوظ

( ٤ ) حديث أبي سليمان لا يلبس الشعر من أمتي إلا مرءاء أو أحمق : لم أجده له اسنادا

الحسن ، فإذا عتق فقه والله ثواب لا يتلى أبدا . و يروى عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كان له جبة شعر وكساء شعر ، يلبسهما من الليل إذا قام يصلى

وقال الحسن لفرقد السبخى : تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك ؟ بلغنى أن أكثر أصحاب النار أصحاب الأكسية نقاقا . وقال يحيى بن معين . رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ، وينسلها ويلفّقها ويلبسها . فقلت إنك تكسى خيرا من هذا . فقال : ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا ، جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة . فجعل يحيى بن معين يحدث بها ويبيكى الممهم الثالث المسكن : وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات :

أعلاها : أن لا يطلب موصفا خاصا لنفسه ، فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة وأوسطها : أن يطلب موصفا خاصا لنفسه ، مثل كوخ مبنى من سعف أو خص أو ما يشبهه وأدناها : أن يطلب حجرة مبنية . إما بشراء أو إجارة . فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ، ولم يكن فيه زينة ، لم يخرج هذا القدر عن آخر درجات الزهد . فإن طلب التشييد ، والتجصيص ، والسعة ، وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع ، فقد جاوز بالكلية حد الزهد في المسكن

فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص ، أو القصب ، أو الطين ، أو بالآجر ، واختلاف قدره بالسعة والضيق . واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات ، بأن يكون مملوكا ، أو مستأجرا ، أو مستمارا . وللزهد مدخل في جميع ذلك

وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الضرورة . وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته . وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين . والغرض من المسكن دفع المطر والبرد ، ودفع الأعين والأذى . وأقل الدرجات فيه معلوم ، وما زاد عليه فهو الفضول . والفضول كله من الدنيا . وطالب الفضول والساعى له بعيد من الزهد جدا

وقد قيل أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدرّج والتشييد ، يعنى بالتدرّج كف دروز الثياب ، فإنها <sup>(١)</sup> كانت تشل شلا . والتشييد هو البناء

( ١ ) حديث كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسعف والجريد أما شل الثياب من غير كف فروى الطبراني والحاكم أن عمر قطع ما فضل عن الأصابع من غير كف وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما البناء ففي الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة فصفوا النخل

بالجص والآجر ، وإنما كانوا يبنون بالسمن والجريد . وقد جاء في الخبر . يأتى على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم عليه كان قد علا بها<sup>(١)</sup> وصار عليه السلام بجنبذة معلاة . فقال « لَسْنُ هَذِهِ ؟ » قالوا لفلان ، فلما جاءه الرجل أعرض عنه ، فلم يكن يقبل عليه كما كان . فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم . فأخبر ، فذهب فهدمها . فر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها ، فأخبر بأنه هدمها ، فدعاه بخير

وقال الحسن<sup>(٢)</sup> . مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع ابنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ شَرًّا أَهْلَكَ مَا لَهٗ فِي الْمَاءِ وَالطَّيْنِ » . وقال عبد الله بن عمر . مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا فقال « مَا هَذَا ؟ » قلنا خص لنا قدوهي . فقال « أَرَى الْأَمْرَ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ » واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب ، فقيل له . لو بنيت ؟ فقال هذا كثير لمن يموت وقال الحسن . دخلنا على صفوان بن يحيى وهو في بيت من قصب قد مال عليه ، فقيل له لو أصلحته ؟ فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله وقال النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> « مَنْ بَنَى فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ كُفَّ أَنْ يَحْمِلَهُ يَوْمَ »

قبة السجد وجعلوا عضادته الججارة - الحديث : ولهما من حديث أبي سعيد كان المسجد على عريش فوق كف المسجد

( ١ ) حديث أمر العباس أن يهدم عليه له كان قد علاها : الطبراني من رواية أبي العالية أن العباس بنى غرفة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أهدمها - الحديث : وهو متقطع

( ٢ ) حديث مريم بنيدة معلاة فقال لبن هذه فقالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه - الحديث : أبو داود من حديث أنس ينادي جدد بلقظ فرأى قبة مشرفة - الحديث : والجنبذة القبة

( ٣ ) حديث الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع ابنة على لبنة - الحديث : ابن جابر في الثقات وأبو تميم في الحلية هكذا مرسل الطبراني في الأوسط من حديث عائشة من سأل عنى أوسره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة - الحديث : وإسناده ضعيف

( ٤ ) حديث إذا أراه الله بعبه شرا أهلك ماله في الماء والطين : أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد خضر له في الطين واللبن حتى يني

( ٥ ) حديث عبد الله بن عمر مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا قدوهي - الحديث : أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه

( ٦ ) حديث من بنى فوق ما يكفيه كلف يوم القيامة أن يحمل : الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد فيه لين وانقطاع

الْقِيَامَةِ « وفي الخبر <sup>(١)</sup> » كُلُّ نَفَقَةٍ لِلْعَبْدِ يُؤْجَرُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا نَفَقَهُ فِي الْمَاءِ وَالطَّيْنِ ،  
وفي قوله تعالى ( تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ  
وَلَا فَسَادًا <sup>(٢)</sup> ) أنه الرياسة والتطاؤل في البنيان

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « كُلُّ بِنَاءٍ وَبَالَ عَلَى صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَا كُنَّ  
مِنْ حَرٍّ وَبَرٍّ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> للرجل الذي شكى إليه ضيق منزله « أَتَسِعَ فِي  
السَّمَاءِ » أى في الجنة . ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بنى بجص  
وآجر، فكبر وقال . ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون  
يعنى قول فرعون ( فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ <sup>(٥)</sup> ) يعنى به الآجر  
ويقال إن فرعون هو أول من بني له بالجص والآجر ، وأول من عمله هامان، ثم تبعهما  
الجبارة . وهذا هو الزخرف

ورأى بعض السلف جامعا في بعض الأمصار فقال : أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد  
والسعف ، ثم رأيت مبنيا من رهص ، ثم رأيت الآن مبنيا باللبن ، فكان أصحاب السعف  
خير من أصحاب الرهص ، وكان أصحاب الرهص خيرا من أصحاب اللبن  
وكان في السلف من يبني داره مزارا في مدة عمره لضعف بنيائه ، وقصر أمله ،  
وزدهه في إحكام البنيان . . وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه  
فإذا رجع أعاده . وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود ، وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن  
وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة . قال الحسن كنت إذا دخلت بيوت رسول الله

( ١ ) حديث كل نفقة العبد يؤجر عليها إلا ما نفقه في الماء والطين : ابن ماجه من حديث خباب بن الارت بإسناد

جيد بلفظ الا في التراب أو قال في البناء

( ٢ ) حديث كل بناء وبال على صاحبه إلا ما كن من حر أو برد : أبو داود من حديث أنس بإسناد جيد

بلفظ إلا ما لا يعنى إلا بالدم

( ٣ ) حديث قال الرجل الذي شكى إليه ضيق منزله أتسع في السماء : قال المصنف أى في الجنة أبو داود في المراسيل

من رواية اليسع بن المغيرة قال شكى خالد بن الوليد فذكره وفدوصه الطبراني فقال عن اليسع

ابن المغيرة عن أبيه عن خالد بن الوليد إلا أنه قال أرفع إلى السماء وأسأل الله السعة وفي إسناده لين

( ١ ) القصص : ٨٣ <sup>(٢)</sup> القصص : ٣٨

صلى الله عليه وسلم ضربت يدي إلى السقف وقال عمرو بن دينار . إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك . إلى أين يأفسق الفاسقين ؟

وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيد وقال . لولا نظر الناس لما شيدوا ، فالنظر إليه معين عليه وقال الفضيل : إني لا أعجب ممن بنى وترك ، ولكني أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : يأتي قوم يرفعون الطين ، ويضعون الدين ، ويستعمون البرازين ، يصلون إلى قبلتكم ، ويعوتون على غير دينكم

المهم الرابع : أثاث البيت . ولاز هدفه أيضاً درجات : أعلاها : حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه ، وعلى كل عبد مصطفى ، إذ كان لا يصحبه إلا مشط وكوز ، فرأى إنساناً يمشط لحيته بأصابه ؛ فرمى بالمشط . ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه ، فرمى بالكوز . وهذا حكم كل أثاث ، فإنه إنما يراد لمقصود . فإذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات ، وهو الخزف في كل ما يكفي فيه الخزف ولا يبالي بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به

وأوسطها : أن يكون له أثاث بقدر الحاجة ، صحيح في نفسه ، ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد ، كالذى معه قصعة يأكل فيها ، ويشرب فيها ، ويحفظ المتاع فيها . وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف

وأعلاها : أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الحسيس . فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس ، خرج عن جميع أبواب الزهد ، وركن إلى طلب الفضول ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فقد قالت <sup>(١)</sup> عائشة رضي الله عنها . كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم ، حشوها ليف .

وقال الفضيل <sup>(٢)</sup> : ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عباءة مثنية ، وسادة من آدم ، حشوها ليف

( ١ ) حديث عائشة كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم حشوها ليف . أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه

( ٢ ) حديث ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الاعباء مثنية وسادة من آدم حشوها ليف



وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه <sup>(١)</sup> دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط ، فجلس ، فرأى أثر الشريط في جنبه عاينه السلام . فدمعت عيناه . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « مَا الَّذِي أَبْكَاكُ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ » قال ذكرت كسرى وقيصرو وما هما فيه من الملك ، وذكرت أنك وأنت حبيب الله ؛ وصفيه ، ورسوله ، نائم على سرير مرمول بالشريط . فقال صلى الله عليه وسلم « أَمَا تَرْضَى يَا عُمَرُ أَنْ تَكُونَ لَهُمَا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ؟ » قال بلى يا رسول الله . قال « فَذَلِكَ كَذَلِكَ »

ودخل رجل على أبي ذر ، فجعل يقلب بصره في بيته ، فقال يا أبا ذر ، ما أرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث ! فقال : إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا . فقال إنه لا بد من متاع مادمت ههنا . فقال إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه

ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له : مامعك من الدنيا ؟ فقال معي عصا أتوكأ عليها ، وأقتل بها حية إن أقيمتها . ومعني جرابي أحمل فيه طعامي . ومعني قصعتي آكل فيها ، وأغسل فيها رأسي وثوبي . ومعني مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهوري للصلاة . فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي . فقال عمر . صدقت رحمك الله

<sup>(٢)</sup> وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، فدخل على فاطمة رضي الله عنها ، فرأى على باب منزلها سترا : وفي يديها قلبين من فضة . فرجع . فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي . فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسأله أبو رافع . فقال « مِنْ أَجْلِ

الترمذي في الشمائل من حديث حفصة بقصة العباءة وقد تقدم ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم بله بعض طرفه

( ١ ) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط النخل فجلس

فرأى أثر الشريط في جنبه - الحديث : متفق عليه من حديثه وقد تقدم

( ٢ ) حديث قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سترا وفي يديها قلبين من فضة فرجع - الحديث :

لم أره مجموعا ولأبي داود وابن ماجه من حديث سفينة باسناد جيد أنه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على عضادتي الباب فرأى القرام قد ضرب في ناحية البيت فرجع فقالت فاطمة ألمي أنتظر فأرجعه - الحديث : والنسائي من حديث ثوبان باسناد جيد قال جاءت ابنة هيرة الى النبي صلى الله عليه وسلم وفي يدها فنيخ من ذهب - الحديث : وفيه انه وجد في يد فاطمة سلسلة من ذهب وفيه يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلسلة من نار وانه خرج ولم يقعد فأمرت بالسلسلة فبيعت فأشترت بشئها عبدا فأعتقه فلما سمع قال الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار

السَّخَرُ وَالسَّوَارِيزُ » فَأَوَسَّاهُمَا بِاللَّيْلِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَتْ : قَدْ  
تَصَدَّقَتْ بِهِمَا ، فَضَعُمَا حَيْثُ تَرَى . فَقَالَ : « أَذْهَبُ فَبَيْنَهُ وَادْفَعُهُ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ » فَبَاعَ  
الْقَلْبَيْنِ بِدَرَاهِمَيْنِ وَنَصَفَ ، وَتَصَدَّقَ بِهِمَا عَلَيْهِمَا . فَدَخَلَ عَلَيْهَا صَليُّ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : « يَا بِنْتَ  
أَنْتِ قَدْ أَحْسَنْتِ » . <sup>(١)</sup> وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَابِ عَائِشَةَ سَتْرًا  
فَهَتَكَ وَقَالَ : « كُلَّمَا رَأَيْتُهُ ذَكَرْتُ الذَّنْيَا أُرْسِلِي بِهِ إِلَى آلِ فَلَانٍ »

<sup>(٢)</sup> وَفَرَشَتْ لَهُ عَائِشَةُ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَرَاشًا جَدِيدًا ، وَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنَامُ عَلَى عِبَادَةِ  
مِثْلِيَّةٍ . فَمَا زَالَ يَتَقَلَّبُ لَيْلَتَهُ . فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ لَهَا : « أُعْيِدِي الْقَبَاءَةَ الْخُلُقَةَ وَنَحْنِي هَذَا  
الْفِرَاشَ عَنِّي قَدْ أَسْهَرَنِي اللَّيْلَةَ »

وَكَذَلِكَ <sup>(٣)</sup> أَمَّتُهُ دَنَائِيرُ خَمْسَةِ أَوْ سِتَّةِ أَيْلٍ ، فَبَيْتَهَا ، فَسَهَرَ لَيْلَتَهُ حَتَّى أَخْرَجَهَا مِنْ آخِرِ  
الَّيْلِ . قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : فَنَامَ حِينَئِذٍ حَتَّى سَمِعَتْ غَطِيظَهُ ، ثُمَّ قَالَ : « مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ  
بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ وَهَدَّاهُ عِنْدَهُ »

وَقَالَ الْحَسَنُ : أَدْرَكْتُ سَبْعِينَ مِنَ الْأَخْيَارِ مَا لِأَحَدِهِمْ إِلَّا ثَوْبَةٌ ، وَمَا وَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ  
بِوَيْتِ الْأَرْضِ ثَوْبًا قَطْ ، كَانَ إِذَا أَرَادَ النَّوْمَ بِأَرْضٍ يَجْسِمُهُ وَجَعَلَ ثَوْبَهُ فَوْقَهُ  
لِلْمُهْمِ الْخَامِسَ : الْمُنْكَحُ . وَقَدْ قَالَ قَائِلُونَ . لَامَعْنَى الزَّهْدِ فِي أَصْلِ النِّسْكَاحِ وَلَا فِي كَثْرَتِهِ  
وَالِيهِ ذَهَبَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَقَالَ : قَدْ حَبَّبَ إِلَى سَيِّدِ الزَّاهِدِينَ النِّسَاءَ ، فَكَيْفَ تَزْهَدُ فِيهِنَّ !

(١) حَدِيثُ رَأَى عَلَى بَابِ عَائِشَةَ سَتْرًا فَهَتَكَ - الْحَدِيثُ : التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنُهُ وَالنَّسَائِيُّ فِي الْكِبَرِيِّ مِنْ حَدِيثِهَا

(٢) حَدِيثُ فَرَشَتْ لَهُ عَائِشَةُ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَرَاشًا جَدِيدًا وَفِيهِ كَانَ يَنَامُ عَلَى عِبَادَةِ مِثْلِيَّةٍ - الْحَدِيثُ : ابْنُ حِبَّانَ

فِي كِتَابِ أَخْلَاقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَدِيثِهَا قَالَتْ دَخَلَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَرَأَتْ

فِرَاشَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِبَادَةَ مِثْلِيَّةٍ فَانْطَلَقَتْ فَبَعَثَتْ إِلَيَّ بِفِرَاشٍ حَشْوِهِ صُوفٌ

فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا عِنْدَا - الْحَدِيثُ : وَفِيهِ نَدَامُهَا بِرَدِّهِ ثَلَاثَ

مَرَّاتٍ فَرَدَّتْهُ وَفِيهِ عِبَادَةُ بِنِ سَمِيدٍ مَخَافَ فِيهِ وَالْمَعْرُوفُ حَدِيثُ حَفْصَةَ الْمُتَقَدِّمِ ذَكَرَهُ مِنَ النَّبَائِلِ

(٣) حَدِيثُ أَمَّتُهُ دَنَائِيرُ خَمْسَةِ أَوْ سِتَّةِ أَيْلٍ فَهَتَكَ - الْحَدِيثُ : وَفِيهِ مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ

وَهَذِهِ عِنْدَهُ : أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ أَنَّهُ قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ يَا عَائِشَةُ مَا بَعَثَتْ

بِالنَّهَبِ فَبَجَاءَ مَا بَيْنَ الْخَمْسَةِ إِلَى الثَّمَانِيَةِ إِلَى التَّمِيزَةِ فَجَعَلَ يَلْبِثُهَا بِيَدِهِ وَيَقُولُ مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ - الْحَدِيثُ :

وَزَادَ أَنْفَقَهَا وَفِي رِوَايَةِ سَبْعَةِ أَوْ ثَمَانَةِ دَنَائِيرٍ وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ شَاهِدٌ الْوُجْهَ قَالَتْ لَطَبْتُ ذَلِكَ مِنْ وَجْعٍ فَقَالَتْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا لَكَ شَيْئًا لَوْ جِئْتَهُ

فَقَالَ مِنْ أَجْلِ الدَّنَائِيرِ السَّبْعَةِ الَّتِي أَتَانَا أَمْسَ أَمْسِينَا وَهِيَ فِي خِصَمِ الْفِرَاشِ وَفِي رِوَايَةِ أُمِّ سَلَمَةَ لَمْ تَنْفَقَهَا

ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال : كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكان له أربع نسوة ، وبضع عشر سرية والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال : كل ما شغلك عن الله من أهل ، ومال ، وولد ، فهو عليك مشغوم ، والمرأة قد تكون شاغلا عن الله

وكشف الحق فيه أنه قد تكون النزوبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح ، فيكون ترك النكاح من الزهد . وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب ، فكيف يكون تركه من الزهد ! وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعله ، ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب إليهن ، والأنس بهن ، بحيث يشتغل عن ذكر الله ، فترك ذلك من الزهد . فإن عليم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ، ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظر ، والمضاجعة ، والمواقعة ، فليس هذا من الزهد أصلا ، فإن الولد مقصود لبقاء نسله ، وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القربات . واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره ، إذ لم تكن هي المقصد والمطلب وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الأكل والشرب ، وليس ذلك من الزهد في شيء ، لأن في ترك ذلك فوات بدنه ، فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله

فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذته ، من غير خوف آفة أخرى وهذا ما عناه سهل لا محالة . ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم

وإذا ثبت هذا فن حال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> ، في أنه لا يشغله كثرة النسوة ، ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن ، فلا معنى لزهده فيهن حذرا من مجرد لذة الوقاع والنظر . ولكن أنى يتصور ذلك لغير الأنبياء والأولياء ! فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان . فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله . وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن ، أوجال المرأة ، فليترك واحدة غير جميلة ، وليبراع قلبه في ذلك . قال أبو سليمان . الزهد في النساء أن يختار المرأة الدون أو اليتيمة ، على المرأة الجميلة والشريفة .

( ١ ) حديث كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب بإصلاحهن والإنفاق عليهن : تقدم في النكاح

وقال الجليلي رحمه الله: أحب للأسرى، المبتدئي أن لا يشغل قلبه بثلاث: ولا تفكير خاله، التمسك، وطلب الحديث، والتزوج. وقال: أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع لهم. فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الأكل، فاشغل عن الله فهو محذور فيهما جميعاً.

المهم السادس: ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة، وهو المال والجاه. أما الجاه فعناء ملك القلوب بطلب محل فيها، ليتوصل به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال. وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته، وافتر إلى من يخدمه، افتقر إلى جاه لا محالة في قلب خادمه، لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يتم بخدمته. وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه، وهذا له أول قريب، ولكن يتبادى به إلى هاوية لا عمق لها. ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه. وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب نفع، أو لدفع ضرر، أو لخلاص من ظلم.

فأما النفع فيغني عنه المال. فإن من يخدم بأجرة يخدم، وإن لم يكن عنده المستأجر قدر. وإنما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة.

وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل، أو يكون بين جيران يظلمونه، ولا يقدر على دفع شرهم إلا بمحل له في قلوبهم، أو محل له عند السلطان. وقدر الحاجة فيه لا ينضب، لاسيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب. والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك. بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلاً. فإن اشتغاله بالدين والعبادة يهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار، فكيف بين المسلمين؟ فأما التوهّمات والتقدير التي تموج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب، فهي أوهام كاذبة. إذ من طلب الجاه أيضاً لم يخل عن أذى في بعض الأحوال. فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه. فإذا طلب المحل في القلوب لارخصة فيه أصلاً. واليسير منه داع إلى الكثير، وضراره أشد من ضراوة الحر، فليحترز من قليله وكثيره.

وأما المال فهو ضروري في المعيشة. أعني القليل منه. فإن كان كسوباً، فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب. كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سقطة وقام،

هذا شرط الزهد . فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعا . وإن كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين في التوكل ، فأمسك منها مقدار ما يكفي ريمه لسنة واحدة ، فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد ، بشرط أن تصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته ، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد . فإن شرط التوكل في الزهد كما شرطه أويس القرني رحمه الله ، فلا يكون هذا من الزهاد . وقولنا إنه خرج من حد الزهاد نعتي به أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله . وإلا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة .

وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل ، وقد قال أبو سليمان : لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد ، بل يدعوهم إليه ، فإن أجابوا ، وإلّا تركهم وفعل بنفسه ما شاء ، معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ، ولا يلزمه كل ذلك في عياله . نعم لا ينبغي أن يجيهم أيضا فيما يخرج عن حد الاعتدال ، وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين ، لأن ذلك من الزينة لا من الحاجة

فإذا ما يضطر الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور . بل الزائد على الحاجة سم قاتل والمقتصر على الضرورة دواء نافع . وما بينهما درجات متشابهة : فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سما قاتلا فهو مضر . وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر . والسم محذور شر به ، والدواء فرض تناوله ، وما بينهما مشتبه أمره . فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه ، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه . ومن استبرأ لدينه ، وترك ما يربيه إلى ما لا يربيه ، ورد نفسه إلى مضيق الضرورة ، فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرقة الناجية لا محالة والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا : بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين ، لأنه شرط الدين ، والشرط من جملة المشروط . وبدل عليه ما روي أن ابراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة : فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا ، فلم يقرضه فرجع مهموما . فأوحى الله تعالى إليه . لو سألت خليلك لأعطاك . فقال يارب ، عرفت مقتك للدنيا ، فخفت أن أسألك منها شيئا . فأوحى الله تعالى إليه . ليس الحاجة من الدنيا فإذا قدر الحاجة من الدين . وما وراء ذلك وبال في الآخرة ، وهو في الدنيا أيضا كذلك

يعرفه من يخبر أحوال الأغنياء ، وما عليهم من الخنة في كسب المال وجمعه وحفظه ، واحتمال  
الذل فيه ، وغاية سعادته ، بأن يسلم لورثته فياً كالونه ، وربما يكونون أعداء له ، وقد يستعينون  
به على المعصية ، فيكون هو معينا لهم عليها

ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز ، لا يزال ينسج على نفسه حيا ، ثم يروم  
الخروج فلا يجد مخلصا ، فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه . وكذلك كل من اتبع  
شهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتميه ، حتى تتظاهر عليه السلاسل  
فيقيده للمال ، والجاه ، والأهل ، والوالد ، وشماتة الأعداء ، ومراآة الأصدقاء ، وسائر حظوظ  
الدنيا . فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه ، فقصده الخروج من الدنيا ، لم يقدر عليه ، ورأى قلبه  
مقيدا بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها . ولو ترك محبوبا من محابه باختياره ، كاد أن يكون  
قاتلا لنفسه ، وساعيا في هلاكه ، إلى أن يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة  
فتبقى السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي فاتته وخلفها ، فهي تجاذبه إلى الدنيا ، ومخالب ملك  
الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة . فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون  
كشخص ينشر بالمنشار ، ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين . والذي ينشر  
بالمناشير إنما ينزل المؤلم بيده ، ويألم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره . فما ظنك بأن  
يمكن أو لا من صميم القلب ، مخصوصا به لا بطريق السراية إليه من غيره

فهذا قول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول في أعلى عليين ، وجوار رب العالمين .  
فبالنزع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى . وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم ، إذا النار  
غير مسلطة إلا على محبوب . قال الله تعالى ( كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّخُجُونَ  
فَإِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ <sup>(١)</sup> ) فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب . وألم الحجاب كافٍ من غير  
هلاوة النار . فكيف إذا أضيفت الملاوة إليه ! فنسأل الله تعالى أن يقرر أسماعنا <sup>(٢)</sup> ما نفت  
في روع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قيل له . أحب من أحبيت فإنك مفارقة  
وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر

( ١ ) حديث نفت في روعه أحب من أحبيت فانك مفارقة : تقدم

( ٢ ) التطفيف : ١٥

كدود كدود القز ينسج دائما ويهلك غماوسط ماهو ناسجه  
ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه ،إهلاك  
دود القز نفسه ، رفضوا الدنيا بالكلية . حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدريا كانوا فيما حل  
الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم . وفي لفظ آخر . كانوا بالبلاء أشد فرحاً منكم بالخصب والرخاء ،  
لورأيتهم قلم مجانين . ولورأوا خياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق . ولورأوا شراركم قالوا ما يؤمن  
هؤلاء بيوم الحساب . وكان أحدهم يمرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول أخاف أن يفسد علي قاي  
فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساد . والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر  
الله عنهم إذ قال تعالى ( وَرَحُّوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنُوا بِهِمَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ <sup>(١)</sup> )  
وقال عز وجل ( وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا <sup>(٢)</sup> )  
وقال تعالى ( فَأَعْرِضْ عَنْ تَوَلَّيَ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ  
مِنَ الْعِلْمِ <sup>(٣)</sup> ) فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم . ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام :  
احملني معك في سياحتك . فقال أخرج مالك والحقني . فقال لا أستطيع . فقال عيسى عليه  
السلام : بعجب يدخل الغنى الجنة . أوقال : بشدة

وقال بعضهم : ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ،  
ملكاً بالشرق ، وملكاً بالمغرب ، يقول أحدهم بالشرق . يا باغي الخير هلم ، ويا باغي الشر  
أقصر . ويقول الآخر . اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً . ويقول اللذان بالمغرب  
أحدهما لدوا الموت ، وابنوا للخراب . ويقول الآخر . كلوا وتمتعوا بطول الحساب

## بيان

علامات الزهد

اعلم أنه قد يظن أن تارك المال زاهد . وليس كذلك . فإن ترك المال وإظهار الخشونة  
سهل على من أحب المدح بالزهد . فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر  
يشير من الطعام ، ولازموا ديرا لا باب له ، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ، ونظرهم  
إليه ، ومدحهم له . فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة . لا لا بد من الزهد في المال وإجاء جميعاً ،

(١) يونس : ٧ (٢) الصافات : ٣٨ (٣) النجم : ٢٩ ، ٣٠

حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا . بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة : والثياب الرفيعة ، كما قال الخوَّاص في وصف المدعين إذ قال : وقوم ادعوا الزهد ، ولبسوا الفاخر من اللباس ، يوهون بذلك على الناس ليهدي إليهم مثل لباسهم ، ائلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا ، فيعطوا كما تعطى المساكين ، ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم ، وأنهم على السنة ، وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها ، وإنما يأخذون بعلّة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالحقائق ، وأجّوا إلى المضائق . وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين ، لم يعنوا بتصفية أسرارهم ، ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم ، فظهرت عليهم صفاتهم ، فغلبتهم ، فادعوا حالاً لهم فهم مائلون إلى الدنيا ، متبعون للهوى : فهذا كله كلام الخواص رحمه الله

فإذا معرفة الزهد أمر مشكل . بل حال الزهد على الزهد مشكل . وينبني أن يعمل في باطنه على ثلاث علامات

العلامة الأولى : أن لا يفرح بوجوده ، ولا يحزن على مفقوده . كما قال تعالى ( لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ )<sup>(١)</sup> بل ينبني أن يكون بالضد من ذلك ، وهو أن يحزن بوجود المال ، ويفرح بفقده

العلامة الثانية : أن يستوي عنده ذاته ومادحه . فالأول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه

العلامة الثالثة : أن يكون أنسه بالله تعالى ، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة . إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة . إما محبة الدنيا . وإما محبة الله . وهما في القلب كالماء والهواء في القدر فلما إذا دخل خرج الهواء ، ولا يجتمعان . وكل من أنس بالله اشتغل به ، ولم يشتغل بغيره . ولذلك قيل لبعضهم . إلى ماذا أفضى بهم الزهد ؟ فقال . إلى الأنس بالله فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان . وقد قال أهل المعرفة . إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعاً ، وعمل لهما . وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وبشره ، أبغض الدنيا ، فلم ينظر إليها ، ولم يعمل لها . ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام . اللهم إني أسألك



إيماننا يباشر قلبي . وقال أبو سليمان : من شغل بنفسه شغل عن الناس ، وهذا مقام العاملين . ومن شغل بربه شغل عن نفسه ، وهذا مقام العارفين . والزاهد لا بد وأن يكون في أحد هذين المقامين . ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه ، وعند ذلك يستوى عنده المدح والذم والوجود والعدم . ولا يستدل بإمساكه قليلا من المال على فقد زهده أصلا .

قال ابن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان . أكان داود الطائي زاهدا ؟ قال نعم . قلت قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين ديناراً ، فأنفقها في عشرين سنة ، فكيف كان زاهداً وهو يمسك الدنانير ! فقال أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد ! وأراد بالحقيقة الغاية ، فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها . فكل من ترك من الدنيا شيئاً مع القدرة عليه ، خوفاً على قلبه وعلى دينه ، فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه . وآخره أن يترك كل ماسوى الله ، حتى لا يتوسد حجراً ، كما فعله المسيح عليه السلام .

فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادئه نصيباً وإن قل ، فإن أمثالنا لا يستجري على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه ، وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاطى شيء ، فلا بمدق أن نعظم السؤال اعتماداً على الجود المجاوز لكل كمال ، فإذا علامة الزهد استواء الفقر والغنى ، والمز والذل ، والمدح والذم . وذلك لقلبة الأنس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة ، مثل أن يترك الدنيا ولا يبالي من أخذها وقيل فلامته أن يترك الدنيا كما هي ، فلا يقول أبني رباطاً أو أعمر مسجداً

وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ، السخاء بالموجود

وقال ابن خفيف : علامته ، رجود الراحة في الخروج من الملك

وقال أيضاً : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف

وقال أبو سليمان : الصوف علم من أعلام الزهد ، فلا ينبغي أن يلبس صوفاً بثلاثة دراهم ، وفي

قلبه رغبة خمسة دراهم

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد ، قصر الأمل

وقال سري : لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه

وقال النصر اباذى : الزاهد غريب فى الدنيا، والعارف غريب فى الآخرة  
 وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث . عمل بلا علاقة ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رياسة  
 وقال أيضا : الزاهد لله يسمطك الخلل والخردل ، والعارف يشمك المسك والعنبر  
 وقال له رجل . متى أدخل حانوت التوكل ، وألبس رداء الزهد ، وأقدم مع الزهدين ؟ فقال :  
 إذا صرت من رياضتك لنفسك فى السر إلى حد لوقطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف فى  
 نفسك . فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة ، فخلوسك على بساط الزاهدين جهل . ثم لا آمن عليك أن تفتضح  
 وقال أيضا : الدنيا كالعروس ، ومن يطلبها ماشطتها ، والزاهد فيها يسخم وجهها ، وينتف  
 شعرها ، ويحرق ثوبها . والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت إليها  
 وقال السرى : مارست كل شيء من أمر الزهد ، فنلت منه ما أريد إلا الزهد فى  
 الناس ، فإني لم أبلغه ولم أطلقه  
 وقال الفضيل رحمه الله : جعل الله الشر كله فى بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا .  
 وجعل الخير كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا  
 فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه . وإذا كان الزهد لا يتم إلا  
 بالتوكل ، فلنشرع فى بيانه إن شاء الله تعالى

# كتاب التوحيد والنوكل

## كتاب التوحيد والتوكل

وهو الكتاب الخامس من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مدبر الملك والمكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت ، الرافع للسماء بنير عماد ،  
المقدر فيها أرزاق العباد ، الذي صرف أعين ذوى القلوب والأبواب عن ملاحظة الوسائط  
والأسباب إلى مسبب الأسباب ، ورفع همهم عن الالتفات إلى ماعده ، والاعتماد على مدبر  
صواء ، فلم يعبدوا إلا إياه ، علما بأنه الواحد الفرد الصمد الإله ، وتحقيقا بأن جميع أصناف  
الخلق عباد أمثالهم لا يتننى عندهم الرزق ، وأنه مامن ذوة إلا إلى الله خلقها ، وما من دابة  
إلا على الله رزقها . فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن ، وبه كفيل ، توكلوا عليه فقالوا  
حسبنا الله ونعم الوكيل . والصلاة على محمد قانع الأباطيل ، الهادى إلى سواء السبيل ،  
وعلى آله وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فإن التوكل منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات الموقنين . بل هو من معالى  
درجات المقربين . وهو فى نفسه غامض من حيث العلم ، ثم هو شاق من حيث العمل .  
ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد ،  
والتشاغل عنها بالسكينة طعن فى السنة وقدح فى الشرع . والاعتماد على الأسباب من غير أن  
تورى أسبابا تغيير فى وجه العقل ، وانفاس فى غمرة الجهل . وتحقيق معنى التوكل على وجه  
يتوافق فيه مقتضى التوحيد ، والنقل ، والشرع ، فى غاية الغموض والعسر ، ولا يقوى على  
كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء إلا سمسرة العلماء ، الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى  
بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ، ثم نطقوا بالإعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا  
ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل المقدمة ، ثم نردفه بالتوحيد فى الشطر  
الأول من الكتاب ، ونذكر حال التوكل ومهله فى الشطر الثانى

## بيان

### فضيلة التوكل

أما من الآيات فقد قال تعالى (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ<sup>(١)</sup>) وقال عز وجل (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ<sup>(٢)</sup>) وقال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ<sup>(٣)</sup>) وقال سبحانه وتعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ<sup>(٤)</sup>) وأعظم ب مقام موسوم بحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه . فمن الله تعالى حسبه وكافيه ، ومحبه ومراعيه ، فقد فاز الفوز العظيم . فإن المحبوب لا يعذب ، ولا يبعد ولا يحجب

وقال تعالى (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ<sup>(٥)</sup>) فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل ، وهو المكذب لهذه الآية ، فإنه سؤال في معرض استنطاق بالحق ، كقوله تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا<sup>(٦)</sup>)

وقال عز وجل (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ<sup>(٧)</sup>) أى عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بجنابه ، والتجأ إلى ذمامه وحماه . وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره .. وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَثْنَالُكُمْ<sup>(٨)</sup>)

بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر ، حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّبِعُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ<sup>(٩)</sup>) وقال عز وجل (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ<sup>(١٠)</sup>) وقال عز وجل (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِمَّنْ شَفِيعٌ إِلَّا مَنِ أَعَدَّ إِذْنَهُ<sup>(١١)</sup>)

وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار

وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه<sup>(١)</sup> ابن مسعود « أَرَيْتُ الْأُمَمَ فِي

( كتاب التوحيد والتوكل )

( ١ ) حديث ابن مسعود أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قدموا السهل والجل - الحديث : رواه ابن منيم  
باسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس

(١) اللامدة : ٢٣ (٢) ابراهيم : ١٢ (٣) الطلاق : ٣ (٤) آل عمران : ١٥٩ (٥) الزمن : ٣٩ (٦) الدهر : ١  
(٧) الانفال : ٤٩ (٨) الأعراف : ١٩٤ (٩) المكنوت : ١٧ (١٠) الناقون : ٧ (١١) يونس : ٣

أَلَمْ يُسَمِّ فَرَأَيْتُمْ أَنِّي قَدْ مَلَأْتُ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ فَأَعَجَبْتَنِي كَثْرَتُهُمْ وَهَيَأْتُهُمْ فَقِيلَ لِي أَرْضَيْتَ؟  
قُلْتُ نَعَمْ قِيلَ وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ « قِيلَ مِنْ هُمْ  
يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ « الَّذِينَ لَا يَكْتُمُونَ وَلَا يَتَطَبَّرُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ  
يَتَوَكَّلُونَ » فقام عكاشة وقال . يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ » فقام آخر فقال . يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني  
منهم فقال صلى الله عليه وسلم « سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ  
كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُوا خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَنْ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ مُؤْنَةٍ  
وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ  
أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ »

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه <sup>(٤)</sup> كان إذا أصاب أهله خصاصة قال  
« قُومُوا إِلَى الصَّلَاةِ » ويقول « بِهَذَا أَمَرَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ ( وَأَمْرُ أَهْلِكَ  
بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ) <sup>(١)</sup> الْآيَةُ

( ١ ) حديث لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير - الحديث : الترمذى والحاكم

وصحاح من حديث عمر وقد تقدم

( ٢ ) حديث من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤنة - الحديث : الطبراني في الصغير وابن أبي الدنيا من طريق البيهقي

في الشعب من رواية الحسن عن عمران بن حصين ولا يسمع منه وفيه ابراهيم بن الاشعث تكلم فيه أبو حاتم  
( ٣ ) حديث من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه : الحاكم والبيهقي في الزهد

من حديث ابن عباس باسناد ضعيف

( ٤ ) حديث كان إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا الى الصلاة ويقول بهذا أمرني ربى قال تعالى وأمر أهلك

بالصلاة واصطبر عليها : الطبراني في الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال

كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية ومحمد بن حمزة

ابن يوسف بن عبد الله بن سلام إذا ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَمْ يَتَوَكَّلْ مَنْ اسْتَرْقَى وَاسْتَرْقَى »  
وروي أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام ، وقد رمى إلى النار بالمنجنيق . ألك  
حاجة ؟ قال أما إليك فلا . وفاءً بقوله . حسبي الله ونعم الوكيل ، إذ قال ذلك حين أخذ ليرمي  
فأنزل الله تعالى ( وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى <sup>(١)</sup> )  
وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام . يا داود ما من عبد يمتصم بي دون خلقي فتسكيد  
السموات والأرض ، إلا جعلت له مخرجا  
وأما الآثار : فقد قال سعيد بن جبيرة : لدغنتي عقرب ، فأقسمت عليّ أمي لتسترفين  
فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ  
وقرأ الخواص قوله تعالى ( وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ <sup>(٢)</sup> ) إلى آخرها فقال :  
ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى  
وقيل لبعض العلماء في منامه . من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته  
وقال بعض العلماء : لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل ،  
فتضيع أمر آخرتك ، ولاتنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك  
وقال يحيى بن معاذ : في وجود العبد الرزق من غير طالب دلالة على أن الرزق مأمور  
بطلب العبد . وقال إبراهيم بن آدم . سألت بعض الرهبان من أين تأكل ؟ فقال لي ليس  
هذا العلم عندي ولكن سل ربي من أين يطعمني .  
وقال هرم بن حيان لأويس القرني : أين تأمرني أن أكون ؟ فأوما إلى الشام . قال  
هرم : كيف المعبشة ؟ قال أويس : أف لهذه القلوب ، قد خالطها الشك فما تنفعهم الموعظة  
وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكبلا ، وجدت إلى كل خير سبيلا . نسأل الله تعالى حسن الأدب

( ١ ) حديث لم يتوكل من استرقى واكتوى : الترمذى وحسنه والنسائي في الكبرى والطبراني واللفظه الاتقان  
أو من حديث المغيرة بن شعبه وقال الترمذى من اكتوى أو استرق فقد برى من التوكل وقاله  
النسائي ما توكل من اكتوى أو استرق

(١) النجم : ٣٧ (٢) المرقان : ٥٨

## بيان

حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان . وجميع أبواب الإيمان لا تنظم إلا بعلم ، وحال ، وعمل . والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل ، وعمل هو الثمرة ، وحال هو المراد باسم التوكل فانبداً ببيان العلم الذي هو الأصل ، وهو المسمى إيماناً في أصل اللسان ، إذ الإيمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب فهو علم ، وإذا قوي سمي يقيناً . ولكن أبواب اليقين كثيرة ، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل ، وهو التوحيد ، الذي يترجمه قولك لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، والإيمان بالقدره التي يترجم عنها قولك . له الملك . والإيمان بالوجود والحكمة الذي يدل عليه قولك . وله الحمد ، فمن قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، تم له الإيمان الذي هو أصل التوكل ، أعني أن يضير معنى هذا القول وصفا لازماً لقلبه ، غالباً عليه

فأما التوحيد فهو الأصل . والقول فيه يطول . وهو من علم المكاشفة . ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ، ولا يتم علم المعاملة إلا بها . فإذا لا تعرض إلا للقدر الذي يتعلق بالمعاملة . وإلا فالنوحيد هو البحر الخضم الذي لا ساحل له فنقول : للتوحيد أربع مراتب : وهو ينقسم إلى لب ، وإلى لب اللب ، وإلى قشر ، وإلى قشر القشر . ولنمثل ذلك تقريباً إلى الأفهام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا ، فإن له قشرتين ، وله لب ، وللب دهن هو لب اللب .

فالرتبة الأولى : من التوحيد هي أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله ، وقلبه غافل عنه ، أو منكر له ، كتوحيد المنافقين

والثانية : أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه ، كما صدق به عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام والثالثة : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف ، بواسطة نور الحق ، وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار والرابعة : أن لا يرى في الوجود إلا واحداً ، وهي مشاهدة الصديقين ، وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد ، لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً . وإذا لم ير نفسه



لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانما عن نفسه في توحيد، بمعنى أنه في عن رؤية نفسه والخلق  
 فالأول : موحد بمجرد اللسان ، ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان  
 والثاني : موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه ، وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد  
 عليه قلبه ، وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ، ولكنه يحفظ صاحبه من  
 العذاب في الآخرة إن توفي عليه ، ولم تضعف بالمعاصي عقده . ولهذا العقدة حيل يقصد  
 بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة . وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ، ويقصد  
 بها أيضا إحكام هذه العقدة وشدها على القلب ، وتسمى كلاما ، والعارف به يسمى متكلم .  
 وهو في مقابلة المبتدع ، ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام . وقد  
 يخص المتكلم باسم الموحد ، من حيث إنه يحكى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب  
 العوام ، حتى لا تنحل عقده

والثالث : موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا فاعلا واحدا ، إذا انكشف له الحق كما هو عليه  
 ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا . وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه ، لأنه كلف قلبه  
 أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة ، فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين ، إذ لم يفارق المتكلم العامي  
 في الاعتقاد ، بل في صنعة تليق ، الكلام الذي به يدفع حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة  
 والرابع : موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد ، فلا يرى الكل من حيث  
 إنه كثير ، بل من حيث إنه واحد . وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد  
 فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كالب ،  
 والرابع كالدهن المستخرج من اللب ،

وكأن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها ، بل إن أكل فهو مرة المذاق ، وإن نظر إلى  
 باطنه فهو كريه المنظر ، وإن اتخذ جطبا أطفأ النار وأكثر الدخان ، وإن ترك في البيت  
 ضيق المكان ، فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ، ثم يرى به عنه ، فكذلك  
 التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر ، مذموم الظاهر  
 والباطن . لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت ، والقشرة السفلى هي  
 القلب والبدن . وتوحيد المنافق بصون بدنه عن سيف الغزاة ، فإنهم لم يؤمروا بشق

القلوب ، والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة . وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده . وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا ، فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى اللب ، وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ، ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التي تحصل بالشرح الصدر وانفساحه ، وإشراق نور الحق فيه . إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى ( قَدْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يُشْرَحُ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ <sup>(١)</sup> ) وبقوله عز وجل ( أَفَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ <sup>(٢)</sup> )

وكما أن اللب نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر ، وكله المقصود ، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين ، لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير ، والاتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق

فإن قلت : كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحدا ، وهو يشاهد السماء والأرض ، وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة ، فكيف يكون الكثير واحدا ؟

فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات . وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر . ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة . نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار . وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه ، وجسده ، وأطرافه وعروقه ، وعظامه ، وأحشائه ، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد ، إذ نقول إنه إنسان واحد . فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد . وكل من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه ، وعروقه ، وأطرافه ، وتفصيل روحه ، وجسده ، وأعضائه . والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق ، وكأنه في عين الجمع ، والمتفت إلى الكثرة في تفرقة

فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة . فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد ، وباعتبارات آخر سواء كثير . وبعضها أشد كثرة من بعض . ومثاله الإنسان ، وإن كان لا يطابق الفرض ، ولكنه ينبئ في الجملة على كيفية مصير الكثرة في شئكم المشاهدة واحدا

ويستبين بهذا الكلام ترك الإنكار والجحود لمقام لم تبلغه ، وتؤمن به إيمان تصديق ، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب ، وإن لم يكن ما آمنت به صفتك . كما أنك إذا آمنت بالنبوة ، وإن لم تكن نبيا ، كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم ، وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر . والدوام نادر عزيز . وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج ، حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال : فيما ذا أنت ؟ فقال أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل ، وقد كان من المتوكلين ، فقال الحسين : قد أفنيت عمرك في عمران باطنك ، فأين الغناء في التوحيد ؟ فكان الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد ، فطالبه بالمقام الرابع ، فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال

فإن قلت : فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه فأقول . أما الرابع : فلا يجوز الخوض في بيانه . وإيس التوكل أيضا مبنيا عليه . بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث . وأما الأول : وهو النفاق فواضح .

وأما الثاني : وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين ، وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في علم الكلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه وأما الثالث : فهو الذي يبنى عليه التوكل . إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل ، فلنذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى ، وأن كل موجود من خلق ، ورزق ، وغطاء ، ومنع ، وحياة ، وموت ، وغنى ، وفقير ، إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم ، فالمفرد بإبداعه واختراعه هو الله عز وجل ، لا شريك له فيه . وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره .

بل كان منه خوفك ، وإليه رجائك ، وبه ثقتك ، وعليه انكالك . فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره ، وماسواه مسخرون لاستقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض . وإذا انفتحت لك أبواب المكاشفة انضح لك هذا اتضاحاً أتم من المشاهدة بالبصر وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يتغنى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين : أحدهما : الالتفات إلى اختيار الحيوانات ، والثاني : الالتفات إلى الجمادات

أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتمادك على المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى النسيم في نزول المطر ، وعلى البرد في اجتماع النسيم ، وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها . وهذا كله شرك في التوحيد ، وجهل بحقائق الأمور . ولذلك قال تعالى ( فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَحَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ <sup>(١)</sup> ) قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا

ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه ، علم أن الريح هو الهواء ، والهواء لا يتحرك بنفسه عالم يحركه محرك ، وكذلك محركه ، وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا يحرك له ، ولا هو متحرك في نفسه عز وجل . فالتفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي التفات من أخذ لتحز رقبتة ، فكتب الملك توقيماً بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ يشغل بذكر الخبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول : لولا القلم لما تخلصت ، فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم ، وهو غاية الجهل . ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه ، وإنما هو مسخر في يد الكاتب ، لم يلتفت إليه ، ولم يشكر إلا الكاتب . بل ربما يدهشه فرح النجاة ، وشكر الملك والكاتب ، من أن يخطر بباله القلم ، والخبر ، والدواة . والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والمطر ، والنسيم ، والأرض ، وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة ، كتسخير القلم في يد الكاتب . بل هذا تمثيل في حقك لا اعتقادك أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع ، والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب ، لقوله تعالى ( وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى <sup>(٢)</sup> )

فإذا انكشف لك أن جميع ما في السموات وما في الأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائباً وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك ، فأناك في المهلكة

(١) المكبوت : ٦٥ (٢) الانفال : ١٧

الثانية ، وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ، ويقول : كيف ترى الكل من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره ، فإن شاء أعطاك ، وإن شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذى يحز رقبته بسيفه ، وهو قادر عليك ، إن شاء حز رقبته ، وإن شاء عفا عنك ، فكيف لا تخافه ، وكيف لا ترجوه ، وأمرك بيده ، وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ؟ ويقول له أيضا : نعم إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر ، فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له ؟

وعند هذا زل أقدام الأكرين ، إلا عباد الله المخلصين ، الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا ، كما شاهد جميع الضمفاء كون القلم مسخرا . وعرفوا أن غلط الضمفاء في ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد ، فترى رأس القلم يسود الكاغد ! ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد ، فغلطت وغلطت أن القلم هو المسود للبياض ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدتها فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ، ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل ، فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض . بل أرباب القلوب والمجاهدين قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والأرض ! بقدرته التي بها نطق كل شيء ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى ، وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق ، تتكلم بلا حرف ولا صوت ، لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون . ولست أعني به السمع الظاهر الذى لا يجاوز الأصوات ، فإن الحمار شريك فيه ، ولا قدر لما يشارك فيه البهائم وإنما أريد به سمع يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ، ولا هو عربي ولا عجمي

فإن قلت . فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل ، فصفت لى كيفية نطقها ، وأنها كيف نطقت ، وبماذا نطقت ، وكيف سبحت وقرست ، وكيف شهدت على نفسها بالمعجز ؟ فاعلم أن لكل ذرة في السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر . وذلك مما لا ينحص ولا ينتهى . فإنها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذى لا نهاية له .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ<sup>(١)</sup>) الآية. ثم إنها تتناجى بأسرار الملك والمملكة، وإفشاء السر لؤم، بل صدور الأحرار قبور الأسرار. وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك، قد نوجى بخفاياه، فنادى بسره على ملاء من الخلق، ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» بل كان يذكر ذلك لهم حتى يبيكون ولا يضحكون. ولما<sup>(٣)</sup> نهى عن إفشاء سر القدر ولما قال<sup>(٤)</sup> «إِذَا ذُكِرَ النَّجُومُ فَأَمْسِكُوا وَإِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا» ولما<sup>(٥)</sup> خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار

فإذا عن حكايات مناجاة ذرات الملك والمملكة لقلوب أرباب المشاهدات مانعان

أحسدهما: استحالة إفشاء السر

والثاني: خروج كلماتها عن الحصر والنهاية. ولكننا في المثال الذي كنا فيه، وهي حركة القلم، نحكى من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الإجمال كيفية ابتداء التوكل عليه، ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات، وإن لم تكن هي حروفها وأصواتها، ولكن هي ضرورة التفهيم فتقول: قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد، وقد رآه اسود وجهه بالحبر. ما بال وجهك كان أبيض مشرقا، والآن قد ظهر عليه السواد؟ فلم سودت وجهك؟ وما السبب فيه؟ فقال الكاغد. ما أنصفتني في هذه المقالة، فإني ماسودت وجهي بنفسى، ولكن سل الحبر، فإنه كان مجموعا في المحبرة التي هي مستقره ووطنه، فسافر عن الوطن، ونزل بساحة وجهي ظلما وعدوانا. فقال صدقت

فسأل الحبر عن ذلك فقال. ما أنصفتني، فإني كنت في المحبرة وادعاسا كنا، عازما على أن لا أبرح منها، فاعتدى عليّ القلم بطمعه الفاسد، واختطفني من وطني، وأجلاني عن بلادي

(١) حديث لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا - الحديث: تقدم غير مرة

(٢) حديث النهى عن إفشاء سر القدر: ابن عدى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر القدر سر الله فلا تفتشوا الله عز وجل سره لفظ أبي نعيم وقال ابن عدى لا تكلموا في القدر فانه سر الله - الحديث: وهو ضعيف وقد تقدم

(٣) حديث إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا - الحديث: الطبراني وابن جبان في الضعفاء وتقدم في العلم

(٤) حديث انه خص حذيفة ببعض الأسرار: تقدم

(٥) السكف: ١٩٠

وفرق جمى ، وبددنى كما ترى على ساحة بيضاء ، فالسؤال عليه لاعلى . فقال صدقت  
ثم سأل القلم عن السبب فى ظلمه وعدوانه ، وإخراج الخبر من أوطانه . فقال . سل  
اليد والأصابع ، فإنى كنت قصبا نابتا على شط الأنهار ، متزها بين خضرة الأشجار ،  
لجاءتنى اليد بسكين ، ففحت عني قشرى ، ومزقت عني ثيابى ، واقتلعتنى من أصلى ، وفصلت  
بين أنايى ، ثم برتنى وشقت رأسى ، ثم غمستنى فى سواد الخبر ومرارته ، وهى تستخدمنى  
وتشبنى على قمة رأسى ، ولقد نثرت الملح على جرحى بسؤالك وعتابك ، فتنح عني وسل  
من قهرنى . فقال صدقت

ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له ، فقالت اليد . ما أنا إلا لحم  
وعظم ودم ، وهل رأيت لهما يظلم ، أو جسما يتحرك بنفسه ؟ وإنما أنا مركب مسخر ،  
ركبى فارس يقال له القدرة والعزة ، فهى التى ترددنى وتجول بى فى نواحي الأرض . أما ترى  
المدر ، والحجر ، والشجر ، لا يتعدى شئ منها مكانه . ولا يتحرك بنفسه ، إذ لم يركبه  
مثل هذا الفارس القوي القاهر ؟ أما ترى أيدى الموتى تساوينى فى صورة اللحم والعظم  
والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم ؟ فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة بينى وبين القلم ،  
فسل القدرة عن شأنى ، فإنى مركب أزعجنى من ركبى . فقال صدقت

ثم سأل القدرة عن شأنها فى استعمالها اليد ، وكثرة استخدامها وترديدها ، فقالت دع  
عنك لومى ومعاتبتى ، فكم من لائم ملوم ، وكم من ملوم لا ذنب له . وكيف خفي عليك  
أمرى ، وكيف ظننت أنى ظلمت اليد لما ركبتها ، وقد كنت لها رابكة قبل التحريك ؛  
وما كنت أحركها ولا أستسخرها ، بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بى أنى  
ميتة أو معدومة ، لأنى ما كنت أتحرك ولا أحرك ، حتى جاءنى موكل أزعجنى وأرهقنى  
إلى ما تراه منى فكانت لى قوة على مساعدته ، ولم تكن لى قوة على مخالفته . وهذا الموكل  
يسمى الإرادة ، ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله إذ أزعجنى من غمرة النوم ، وأرهقنى  
إلى ما كان لى مندوحة عنه لو خلانى ورأى . فقال صدقت

ثم سأل الإرادة ما الذى جراك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة ، حتى صرفتها إلى  
التحريك ، وأرهقتها إليه إزهاقا لم يجد عنه مخلصا ولا مناصا ؟ فقالت الإرادة : لا تعجل على

فلعل لنا عذرا وأنت تلوم ، فإنى ما انتهضت بنفسى ولكن أنهضت . وما انبعثت ولكنى بعثت  
 بحكم قاهر وأمر جازم . وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ، ولكن ورد علي من حضرة القلب  
 رسول العلم على لسان العقل ، بالإشخاض للقدرة ، فأشخصتها باضطرار . فإنى مسكينة  
 مسخرة تحت قهر العلم والعقل ، ولا أدري بأي جرم وقفت عليه ، وسخرت له ، وأزمت  
 طاعته . لكنى أدري أنى فى دعة وسكون ما لم يرد علي هذا الوارد القاهر ، وهذا الحاكم  
 العادل أو الظالم ، وقد وقفت عليه وقفا ، وأزمت طاعته إلزاما ، بل لا يبقى لى معه مهما جزم  
 حكمه طاقة على المخالفة . لعمري ما دام هو فى التردد مع نفسه ، والتحير فى حكمه ، فأناسا كنة  
 لكنت مع استشفار وانتظار لحكمه . فإذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته  
 وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه ، فسل العلم عن شأنى ، ودع عنى عتابك فإنى كما قال القائل  
 متى رحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحوون هم

فقال صدقت

وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالباً بهم ، ومعاتباً إياهم على استنهاض الإرادة  
 وتسخيرها لإشخاض القدرة . فقال العقل : أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ولكن أشعلت  
 وقال القلب : أما أنا فالوح ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت . وقال العلم : أما أنا فنقش نقش  
 فى بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل ، وما انخططت بنفسى . فكم كان هذا اللوح قبل  
 خاليا عنى فسل القلم عنى ، لأن الخط لا يكون إلا بالقلم

فعند ذلك تتمتع السائل ولم يقنعه جواب . وقال : قد طال تعبى فى هذا الطريق ،  
 وكثرت منازلى ، ولا يزال يحيلنى من طمعت فى معرفة هذا الأمر منه على غيره ،  
 ولكنى كنت أطيّب نفسا بكثرة التردد لما كنت أسمع كلاما مقبولا فى الفؤاد ؛ وعذرا  
 ظاهرا فى دفع السؤال . فأما قواك إنى خط ونقش ، وإنما خطنى قلم فلسفت أفهمه ، فإنى  
 لا أعلم قلما إلا من القصب ، ولا لوحا إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطا إلا بالحر .  
 ولا سراجا إلا من النار . وإنى لأسمع فى هذا المنزل حديث اللوح ، والسراج ، والخط ، والقلم  
 ولا أشاهد من ذلك شيئا . أسمع جمجمة ولا أرى طحنا . فقال له العلم : إن صدقت فيما قلت  
 قبضاعتك مزجاة ، وزادك قليل ، وصربك ضعيف ، واعلم أن المهالك فى الطريق التى توجهت



إليها كثيرة . فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه ، فما هذا بمشك فادرج عنه ، فكل ميسر لما خلق له

وإن كنت راغبا في استتمام الطريق إلى المقصد ، فألق سمك وأنت شهيد ، واعلم أن العوالم في طريقك هذا ثلاثة : عالم الملك والشهادة أوّلها ، ولقد كان الكاغد ، والجبر ، والقلم واليد من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة

والثاني : عالم الملكوت ، وهو ورأى . فإذا جاوزتني انتهيت إلى منزله ، وفيه المهامه ، والفيح ، والجبال الشاهقة ، والبحار المغرقة ، ولا أدري كيف تسلم فيها

والثالث : وهو عالم الجبروت ، وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت . ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها ، منزل القدرة ، والإرادة ، والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت ، لأن عالم الملك أسهل منه طريقا ، وعالم الملكوت أوعر منه منهجا وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء ، فلا هي في حد اضطراب الماء ، ولا هي في حد سكون الأرض وثباتها . وكل من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشهادة ، فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت . فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تتمتع

فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف ، فقد جاوزت الأرض ، وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي . وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب ، وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء . أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام « كَوَزَادًا يَبْقِيَنَّ . يَمْشِي عَلَى الْهَوَاءِ » لما قيل له إنه كان يمشي على الماء فقال السالك السائل . قد تحيرت في أمرى واستشعر فلي خوفا مما وصفته من خطر

الطريق ، ولست أدري أطيع قطع هذه المهامه التي وصفتها أم لا ، فهل لذلك من علامة ؟ قال نعم . افتح بصرك ، واجمع ضوء عينيك ، وحدقه نحوى ، فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب ، فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز عالم

( ١ ) حديث قيل له ان عيسى على الماء قال لو ازداد بقينا لمشي على الهواء : تقدم

الجبروت ، وقرع بابا من أبواب الملكوت ، كوشف بالقلم . أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره كوشف بالقلم ، إذ أنزل عليه ( إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم <sup>(١)</sup> )

فقال السالك : لقد فتحت بصرى وحدقته ، فوالله ما أرى قصبا ولا خشبا ، ولا أعلم قلما إلا كذلك . فقال العلم . لقد أبعدت النجعة : أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت ؟ أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات ، فكذلك لا تشبه يده الأيدي ولا قلمه الأقلام ، ولا كلامه سائر الكلام ، ولا خطه سائر الخطوط ؟ وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت . فليس الله تعالى في ذاته بجسم ، ولا هو في مكان ، بخلاف غيره . ولا يده لحم وعظم ودم ، بخلاف الأيدي . ولا قلمه من قصب . ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ، ولا خطه رقم ورسم ، ولا حبره زاج وعفص فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فأراك إلا مخنثا بين حولة التنزيه ، وأنوثة التشبيه ، مذبذبا بين هذا وذا ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ، ونزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات ، وأخذت تتوقف في يده ، وقلمه ، ولوحه ، وخطه ؟ فإن كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » الصورة الظاهرة المدركة بالبصر ، فكأن مشبها مطلقا ، كما يقال كن يهوديا صرفا . وإلا فلا تلعب بالتوراة ، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالأبصار ، فكأن منزها صرفا ، ومقدسا خفيا ، واطو الطريق فإنك بالواد المقدس طوى ، واستمع بسر قلبك لما يوحى ، فلعلك تجدد على النار هدى ، لعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودي به موسى ( إِنِّي أَنَا رَبُّكَ <sup>(٢)</sup> )

فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه ، وأنه مخنث بين التشبيه والتنزيه ، فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بين النقص ، ولقد كان زيتته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولولم تسمسه نار ، فلما نفخ فيه العلم بجذته اشتعل زيتته فأصبح نورا على نور . فقال له العلم : اغتشم الآن هذه الفرصة ، وافتح بصرك ، لعلك تجدد على النار هدى . ففتح بصره

(١) العلق : ٣ ، ٤ ، ٥ (٢) طه : ١٢

فانكشف له القلم الإلهي ، فإذا هو كما وصفه العلم في التنزيه ، ماهو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب ، وهو يكتب على الدوام في قلب البشر كلهم أصناف العلوم ، كان له في كل قلب رأسا ولا رأس له . ففضى منه العجب وقال . نعم الرفيق العلم ، فجزاه الله تعالى عني خيرا ، إذ الآن ظهر لي صدق أنبائه عن أوصاف القلم فإني أراه قلما لا كالأقلام

فعند هذا ودع العلم وشكره ، وقال : قد طال مقامي عندك ، ومرادتي لك ، وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم ، وأسأله عن شأنه . فسافر إليه ، وقال له : مابالك أيها القلم تخط على الدوام في التلويح من العلوم ما تبعث به الإرادات إلى أشيخا ص القدر وصر فها إلى المقدورات ؟ فقال أوقد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة ، وسمعت من جواب القلم إذ سألته ، فأحالك على اليد ؟ قال لم أنس ذلك . قال فجوابي مثل جوابه . قال كيف وأنت لا تشبهه ؟ قال القلم أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ قال نعم . قال فسل عن شأني الملقب بيمين الملك ، فإني في قبضته ، وهو الذي يرددني ، وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم الآدي في معنى التسخير ، وإنما الفرق في ظاهر الصورة . فقال فمن يمين الملك ؟ فقال القلم : أما سمعت قوله تعالى ( وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ <sup>(١)</sup> ) قال نعم . قال والأقلام أيضا في قبضة يمينه ، هو الذي يرددها . فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ، ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ، لا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه ، بل لا تحوى مجلدات كثيرة عشر وعشرون وصفه والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان ، ويد لا كالأيدي ، وأصبع لا كالأصابع . فرأى القلم محركا في قبضته . فظهر له عذر القلم . فسأل اليمين عن شأنه وتحريره للقلم فقال : جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة ، وهي الحوالة على القدرة ، إذ اليد لا حكم لها في نفسها ، وإنما محررها القدرة لا محالة .

فسافر السالك إلى عالم القدرة ، ورأى فيه من العجائب ما يستحق عندها ما قبله ، وسألها عن تحريك اليمين فقالت إنما أنا صفة ، فسأل القادر ، إذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات وعند هذا كاد أن يزيع ويطلق بالجرأة لسان السؤال ، فثبت بالقول الثابت وبودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة ( لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ <sup>(٢)</sup> ) فغشيت به هيبة

الحضرة، فخر صمقا يضطرب في غشيبته . فلما أفاق قال سبحانه ما أعظم شأنك، تبت إليك،  
وتوكلت عليك، وآمنت بأنك الملك، الجبار، الواحد. القهار، فلا أخاف غيرك، ولا أرجو سواك،  
ولا أعوذ إلا بعمفوك من عقابك، وبرضاك من سخطك، ومالى إلا أن أسألك وأتضرع إليك،  
وأبتهل بين يديك فأقول . اشرح لى صدرى لأعرفك ، واحلل عقدة من لساني لأثني عليك  
فنودى من وراء الحجاب . إياك أن تطمع فى الثناء ، وتزید على سيد الأنبياء . بل أرجع  
إليه ، فما آتاك نخذه، وما نهلك عنه فاتته عنه، وما قاله لك فقله. فإنه ما زاد فى هذه الحضرة على أن قال  
(١) « سُبْحَانَكَ لَا أُخِصِّي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » .

فقال إلهى إن لم يكن لسان جراءة على الثناء عليك ، فهل للقلب مطمع فى معرفتك ؟  
فنودى : إياك أن تتخطى رقاب الصديقين ، فارجم إلى الصديق الأكبر فاقتد به ، فإن  
أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم ، بأهم اقتديتم اهتديتم . أما سمعته يقول : العجز عن درك  
الإدراك إدراك ؟ فيكفيك نصيبا من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا ، عاجز  
عن ملاحظة جلالنا وجلالنا

ف عند هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته ، وقال لليمين ، والقلم ، والعلم ،  
والإرادة ، والقدرة ، وما بعدها . اقبلوا عذرى ، فإنى كنت غريبا حديث العهد بالدخول  
فى هذه البلاد ، ولكل داخل دهشة ، فما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل ، والآن  
قد صح عندى عذرکم ، وانكشف لى أن المنفرد بالملك والملكوت ، والعزة والجبروت ،  
و الواحد القهار ، فما أنتم إلا مسخرون تحت قهره وقدرته ، مرددون فى قبضته ، وهو  
الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن

فلما ذكر ذلك فى عالم الشهادة استبعد منه ذلك ، وقيل له : كيف يكون هو الأول  
والآخر ، وهما وصفان متناقضان ؟ وكيف يكون هو الظاهر والباطن ؟ فالأول ليس بآخر  
والظاهر ليس بباطن . فقال : هو الأول بالإضافة إلى الموجودات ، إذ صدر منه الكل  
على ترتيبه واحدا بعد واحد . وهو الآخر بالإضافة إلى سير السائرين إليه ، فإنهم لا يزالون  
مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة ، فيكون ذلك آخر السفر

فهو آخر في المشاهدة، أول في الوجود وهو باطن بالإضافة إلى العالمين في عالم الشهادة ، الطالبين لإدراكه بالحواس الخمس ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة ، النافذة في عالم الملكوت . فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل ، أعنى من انكشف له أن الفاعل واحد .

فإن قلت : فقد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يبتنى على الإيمان بعالم الملكوت ، فن لم يفهم ذلك أو يجمعه فما طريقه ؟

فأقول أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له . إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السمنية لعالم الجبروت ، وهم الذين حصروا العلوم في الحواس الخمس ، فأنكروا القدرة والإرادة والعلم ، لأنها لا تدرك بالحواس الخمس ، فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس فإن قال : وأنا منهم ، فإني لأهتدى إلا إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ، ولا أعلم شيئا سواه ، فيقال إنكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كإنكار السوفسطائية للحواس الخمس ، فإنهم قالوا . ما نراه لا نتق به ، فلملنا نراه في المنام

فإن قال : وأنا من جلتهم ، فإني شاك أيضا في المحسوسات ، فيقال هذا شخص فسد مزاجه ، وامتنع علاجه ، فترك أياما قلائل . وما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء . هذا حكم الجاحد . وأما الذى لا يجمد ، ولكن لا يفهم ، فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التى يشاهد بها عالم الملكوت . فإن وجدوها صحيحة فى الأصل ، وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الإزالة والتنقية ، اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالأبصار الظاهرة فإذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها ، كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه فإن كان غير قابل للعلاج ، فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذى ذكرناه فى التوحيد ، ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بشهادة التوحيد ، كبلوه بحرف وصوت ، وردوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه ، فإن فى عالم الشهادة أيضا توحيدا : إذ يعلم كل أحد أن المنزل يفسد بصاحبين ، والبلد يفسد بأمرين . فيقال له على حد عقله : إله العالم واحد ، والمدبر واحد ، إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . فيكون ذلك على ذوق مارآه

في عالم الشهادة ، فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله . وقد كلف الله أن يكلموا الناس على قدر عقولهم . ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عاداتهم في المحاوراة فإن قلت : فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عمادا للنوكل وأصيلا فيه ؟ فأقول نعم . فإن الاعتقاد إذا قوي عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال . إلا أنه في الغالب يضعف ويتسارع إليه الاضطراب والتزلزل غالبا . ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه ، أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقنها من أستاذه ، أو من أبويه ، أو من أهل بيته . وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه ، فلا يخاف عليه شيء من ذلك ، بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا ، وإن كان يزداد وضوحا . كما أن الذي يرى إنسانا في وقت الإسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه إنسان ، ولكن يزداد وضوحا في تفصيل خلقته . وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري ، فإن سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحرة ، أطول مشاهدتهم وتجربتهم ، رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحرة ، وانكشف لهم حقيقة الأمر ، فلم يكثرثوا بقول فرعون ( فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ <sup>(١)</sup> ) بل ( قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَافْهِنِ مَا أَنْتَ قَاسٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا <sup>(٢)</sup> ) فإن البيان والكشف يمنع التغيير

وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان ، فلما نظروا إلى عجل السامري ، وسمعوا خواره ، تغيروا ، وسموا قوله ( هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى <sup>(٣)</sup> ) ونسوا أنه لا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا . فكل من آمن بالنظر إلى ثعبان يكفر لاحالة إذا نظر إلى عجل ، لأن كليهما من عالم الشهادة . والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير . وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى ، فلذلك لا تجد فيه اختلافا وتضادا أصلا فإن قلت : ماذا ذكرته من التوحيد ظاهر مهمات ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر إلا في حركات الإنسان ، فإنه يتحرك إن شاء يسكن إن شاء ، فكيف يكون مسخرا ؟

(١) طه : ٧١ (٢) طه : ٧٢ (٣) طه : ٨٨

فاعلم أنه لو كان مع هذا يشاء إن أراد أن يشاء ، ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء  
 اسكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط . ولكن علم أنه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشأ أم لم  
 يشأ ، فليست المشيئة إليه . إذ لو كانت إليه لافتقرت إلى مشيئة أخرى ، وتسلسل إلى غير  
 نهاية . وإذا لم تكن المشيئة إليه ، فهما وجدت المشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدورها  
 انصرفت القدرة لاحالة ، ولم يكن لها سبيل إلى المخالفة . فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة ،  
 والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة . فالمشيئة تحدث ضرورة في القلب ، فهذه  
 ضرورات ترتب بعضها على بعض ، وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ، ولا انصراف القدرة  
 إلى المقدور بعدها ، ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة ، فهو مضطر في الجميع  
 فإن قلت : فهذا جبر محض ، والجبر يناقض الاختيار ، وأنت لا تنكر الاختيار ، فكيف  
 يكون مجورا مختارا ؟

فأقول لو انكشف الغطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور . فهو إذا مجبور على الاختيار ،  
 فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار ؟ فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحا وجيزا ،  
 يليق بما ذكر متطفلا وتابعا ، فإن هذا الكتاب لم تقصده إلا علم المعاملة ولكني أقول :  
 لفظ الفعل في الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه : إذ يقال الإنسان يكتب بالأصابع ،  
 ويتنفس بالرئة والحنجرة ، ويحرق الماء إذا وقف عليه بجسمه . فينسب إليه الخرق في الماء ،  
 والتنفس ، والكتابة ، وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطراب والجبر واحدة ، ولكنها تختلف وراء  
 ذلك في أمور ، فأعرب لك عنها بثلاث عبارات : فنسمى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه  
 فعلا طبيعيا . ونسمى تنفسه فعلا إراديا ، ونسمى كتابته فعلا اختياريا  
 والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي ، لأنه مهما وقف على وجه الماء ، أو تخطى من السطح  
 للهواء ، انحرق الهواء لاحالة ، فيكون الخرق بعد التخطى ضروريا

والتنفس في معناه ، فإن نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس ، كنسبة انخراق الماء  
 إلى ثقل البدن . فهما كان الثقل موجودا وجد الانخراق بعده . وليس الثقل إليه ، وكذلك  
 الإرادة ليست إليه . ولذلك لو قصد عين الإنسان بإبرة طبق الأجفان اضطرابا ، ولو أراد  
 أن يتركها مفتوحة لم يقدر . مع أن تغميض الأجفان اضطرابا فعمل إرادي ، ولكنه إذا

تمثل صورة الإبرة في مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة، وحدثت الحركة بها. ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه، مع أنه فعل بالقدرة والإرادة، فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضروريا

وأما الثالث: وهو الاختياري فهو مظنة الالتباس، كالكتابة والنطق، وهو الذي يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، وتارة يشاء وتارة لا يشاء، فيظن من هذا أن الأمر إليه، وهذا للجهل بمعنى الاختيار، فلنكشف عنه

وبيانه أن الإرادة تبع للعلم الذي يحكم بأن الشيء موافق لك. والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد، وإلى ما قد يتردد للعقل فيه. فالذي تقطع به من غير تردد، أن يقصد عينك مثلاً بإبرة، أو بدتك بسيف، فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق. فلا جرم تنبعت الإرادة بالعلم والقدرة بالإرادة، وتحصل حركة الأجفان بالدفع، وحركة اليد بدفع السيف، ولكن من غير روية وفكرة. ويكون ذلك بالإرادة

ومن الأشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه، فلا يدري أنه موافق أم لا، فيحتاج إلى روية وفكر حتى يتميز أن الخير في الفعل أو الترك. فإذا حصل بالفكر والرؤية العلم بأن أحدهما خير، التحق ذلك بالذي يقطع به من غير روية وفكر، فانبعثت الإرادة ههنا كما تنبعت لدفع السيف والسنان. فإذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل أنه خير سميت هذه الإرادة اختياراً مشتقاً من الخير، أي هو انبعاث إلى ما ظهر للعقل أنه خير، وهو عين تلك الإرادة ولم ينتظر في انبعاثها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه، إلا أن الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية، بل على البدئية، وهذا افتقر إلى الروية

فالاختيار عبارة عن إرادة خاصة، وهي التي انبعثت بإشارة العقل فيما له في إدراكه توقف وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين، وشر الشرين. ولا يتصور أن تنبعت الإرادة إلا بحكم الحس والتخييل، أو بحكم جزم من العقل، ولذلك لو أراد الإنسان أن يحزّ رقبة نفسه مثلاً لم يمكنه، لالعدم القدرة في اليد، ولالعدم السكين، ولكن لفقد الإرادة الداعية المشخصة للقدرة، وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبعت بحكم العقل أو الحس



بكون الفعل موافقا ، وقتله نفسه ليس موافقا له ، فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عقوبة مؤلمة لا تطاق ، فإن العقل هنا يتوقف في الحكم و يتردد ، لأن تردده بين شر الشرين ، فإن ترجيح له بعد الرواية أن ترك القتل أقل شرا لم يمكنه قتل نفسه . وإن حكم بأن القتل أقل شرا ، وكان حكمه جزما لا ميل فيه ولا صارف منه ، انبعت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه كالذي يُشَبَّعُ بالسيف للقتل ، فإنه يرمى بنفسه من السطح مثلا ، وإن كان مهلكا ، ولا يبالي ، ولا يمكنه أن لا يرمى نفسه . فإن كان يتبع بضرب خفيف ، فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي ، فوفقت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمي نفسه ، ولا تنبعت له داعية ألبته ، لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس ، والقدرة مسخرة للداعية ، والحركة مسخرة للقدرة ، والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدري ، فإنما هو محل ومجرى لهذه الأمور فأما أن يكون منه فكلا ولا فإذا معنى كونه مجبورا أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لامنه ، ومعنى كونه مختارا أنه محل لإرادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضا موافقا . وحدث الحكم أيضا جبرا ، فإذا هو مجبور على الاختيار . ففعل النار في الإحراق مثلا جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض . وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين ، فإنه جبر على الاختيار ، فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة : لأنه لما كان فنا ثالثا ، واثموا فيه بكتاب الله تعالى ، فسموه كسبا وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار ، بل هو جامع بينهما عند من فهمه .

وفعل الله تعالى يسمى اختيارا ، بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحير وتردد ، فإن ذلك في حقه محال . وجميع الألفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز ، وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ، ويطول القول فيه فإن قلت : فهل تقول إن العلم ولد الإرادة . والإرادة ولدت القدرة ، والقدرة ولدت الحركة وإن كل متوخر حدث من المتقدم ؟ فأنت قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله تعالى . وإن أبيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض ؟

فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض ، سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذي يعبر عنه بالقدرة الأزلية . وهو الأصل الذي لم يقف

كافة الخلق عليه إلا الراسخون في العلم ، فأمرهم وقفوا على كنه معناه ، والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيهه بقدرتنا ، وهو بعيد عن الحق ، وبيان ذلك يطول . ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض في الحدوث ترتب المشروط على الشرط ، فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ، ولا علم إلا بعد حياة ، ولا حياة إلا بعد عمل الحياة ، وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة ، فكذلك في سائر درجات الترتيب . ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة ، وبعضها لم يظهر إلا للخواص المكاشفين بنور الحق . وإلا فلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق والالزوم وكذلك جميع أفعال الله تعالى . ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثا يضاهاى فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا . وإلى هذا أشار قوله تعالى ( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ <sup>(١)</sup> ) وقوله تعالى ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بَعْدَ مِائَةِ أَلْفِ عَامٍ <sup>(٢)</sup> )

فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب ، وحق لازم ، لا يتصور أن يكون إلا كما حدث ، وعلى هذا الترتيب انتهى وجد . فما تأخر متأخر إلا لا انتظار شرطه ، والمشروط قبل الشرط محال ، والمحال لا يوصف بكونه مقدورا . فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط الحياة ، ولا تتأخر عنها الإرادة بعد العلم إلا لفقد شرط العلم . وكل ذلك منهاج الواجب ، وترتيب الحق ، ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق ، بل كل ذلك بحكمة وتدبير وتفهم ذلك عسير ، ولكننا نضرب لتوقف المقدور ، مع وجود القدرة ، على وجود الشرط مثلا لا يقرب مبادئ الحق من الأفهام الضميمة . وذلك بأن تقدر إنسانا محدثا قد انغمس في الماء إلى رقبته ؛ فالحادث لا يرتفع عن أعضائه ، وإن كان الماء هو الرافع ، وهو ملاق له . فقدر القدرة الأزلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور ، كما لا يحصل رفع الحادث بالماء انتظارا للشرط ؟ وهو غسل الوجه . فإذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء ، عمل الماء في سائر أعضائه ، وارتفع الحادث . فربما يظن الجاهل أن الحادث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه ، لأنه حدث عقيب

(١) الناريات : ٥٦ (٢) الحجر : ٨٥ ، ٧٦

اذ يقول : كان الماء ملائياً ولم يكن رافعا ، والماء لم يتغير مهما كان ، فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل ! بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه ، فإذا غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين . وهو جهل بضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة ، والإرادة بالعلم . وكل ذلك خطأ . بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقى لها ، لا بغسل الوجه . والماء لم يتغير ، واليد لم تتغير ، ولم يحدث فيهما شيء . ولكن حدث وجود الشرط ، فظهر أثر العلة

فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية ، مع أن القدرة قديمة ، والمقدورات حادثة . وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات ؛ فلتترك جميع ذلك ، فإن مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل ، فإن الفاعل بالحقيقة واحد ، فهو المخوف والمرجوة ، وعليه التوكل والاعتماد . ولم تقدر على أن تذكر من ببحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد . واستيفاء ذلك في صمر نوح محال ، كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه . وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله ، وما أخف مؤثرته على اللسان ، وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب ، وما أعز حقيقته وتبسه عند العلماء الراسخين في العلم ، فكيف عند غيرهم

فإن قلت : فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ، ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد ، فإن كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا ، وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ، ومفعول بين فاعلين غير مفهوم ؟ فأقول : نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد . وإن كان له معنيان ، ويكون الاسم مجملا مرددا بينهما لم يتناقض . كما يقال قتل الأمير فلانا ، ويقال قتله الجلاد ولكن الأمير قاتل بمعنى ، والجلاد قاتل بمعنى آخر . فكذلك العبد فاعل بمعنى ، والله عز وجل فاعل بمعنى آخر . فعنى كون الله تعالى فاعلا أنه المخترع الموجد . ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذي خاق فيه القدرة ؛ بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالإرادة ، والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة ، وارتباط المخترع بالمخترع .

وكل ماله ارتباط بقدرة فإن محل القدر قد يسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط ، كما يسمى الجلا دقاتلا  
والأمير قاتلا . لأن القتل ارتباط بقدرتهما ، ولكن على وجهين مختلفين . فلذلك سمي فعلا  
لهما فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين

ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القراءان مرة إلى الملائكة ،  
ومرة إلى العباد ، ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه . فقال تعالى في الموت ( قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ  
مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ <sup>(١)</sup> ) ثم قال عز وجل ( اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى  
( أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْمِلُونَ <sup>(٣)</sup> ) أضاف إلينا قال تعالى ( أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ  
شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا <sup>(٤)</sup> ) وقال عز وجل ( فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا  
سَوِيًّا <sup>(٥)</sup> ) ثم قال تعالى ( فَنفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا <sup>(٦)</sup> ) وكان النافخ جبريل عليه السلام وكما  
قال تعالى ( فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ <sup>(٧)</sup> ) قيل في التفسير معناه إذ قرأه عليك جبريل .  
وقال تعالى ( فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ <sup>(٨)</sup> ) فأضاف القتل إليهم والتمذيب إلى  
نفسه ، والتمذيب هو عين القتل . بل صرح وقال تعالى ( فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ <sup>(٩)</sup> )  
وقال تعالى ( وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى <sup>(١٠)</sup> ) وهو جمع بين النفي والإثبات  
ظاهرا ، ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذي  
يكون العبد به راميا ، إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى ( الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ  
مَا لَمْ يَعْلَمْ <sup>(١١)</sup> ) ثم قال ( الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ <sup>(١٢)</sup> ) وقال ( عَلَّمَهُ الْبَيَانَ <sup>(١٣)</sup> ) وقال  
( إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتَهُ <sup>(١٤)</sup> ) وقال ( أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ <sup>(١٥)</sup> )  
ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في <sup>(١٦)</sup> وصف ملك الأرحام إنه « يَدْخُلُ الرَّحِمَ

( ١ ) حديث وصف ملك الأرحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسدا - الحديث : الدرر  
وابن عدي من حديث عائشة أن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل  
الرحم فيقول يا رب ماذا - الحديث : وفي آخره فلما منى بالواهي يخلق معه في الرحم وفي سنده  
جهالة وقال ابن عدي أنه منكر وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه

(١) السجدة : ١١ (٢) الزمر : ٤٣ (٣) الواقعة : ٦٣ (٤) عبس : ٢٥ - ٢٨ (٥) مريم : ١٧ (٦) النجم : ١٣  
(٧) القيامة : ١٨ (٨) التوبة : ١٤ (٩) ( ١٠ ، ٩ ) الأنفال : ١٧ (١١) العلق : ٥٤ ( ١٢ ، ١٣ ) الرحمن : ٣ ، ١٠  
(١٤) القيامة : ١٩ (١٥) الواقعة : ٥٨ ، ٥٩

فَيَأْخُذُ النُّطْفَةَ فِي يَدِهِ ثُمَّ يُصَوِّرُهَا جَسَدًا فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَذْكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ أَسَوِيٌّ أَمْ مُعَوِّجٌ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مَا شَاءَ وَيَخْلُقُ الْمَلَكُ ، وفي لفظ آخر « وَيُصَوِّرُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ بِالسَّعَادَةِ أَوْ بِالشَّقَاوَةِ »

وقد قال بعض السلف : إن الملك الذي يقال له الروح ، هو الذي يولج الأرواح في الأجساد وأنه يتنفس بوصفه ، فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ، ولذلك سمي روحا . وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق ، شاهده أرباب القلوب ببصائرهم فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل ، والحكم به دون النقل تخمين مجرد وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات في الأرض والسموات ثم قال ( أَوْ لَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ <sup>(١)</sup> ) وقال ( شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ <sup>(٢)</sup> ) فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا . بل طرق الاستدلال مختلفة ، فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم : عرفت ربى بربى ، ولولا ربى لماعرفت ربى : وهو معنى قوله تعالى ( أَوْ لَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ <sup>(٣)</sup> )

وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيى والمميت ، ثم فوض الموت والحياة إلى ملكين . ففي الخبر <sup>(١)</sup> « أَنَّ مَلَكَى الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ تَنَاضَرَا فَقَالَ مَلَكُ الْمَوْتِ أَنَا أُمِيتُ الْأَحْيَاءَ وَقَالَ مَلَكُ الْحَيَاةِ أَنَا أُحْيِي الْمَوْتِ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِمَا . كُونَا عَلَىٰ عَمَلِكُمَا وَمَا سَخَّرْتُمَا لَهُ مِنَ الصَّنْعِ وَأَنَا الْمُمِيتُ وَالْمُحْيِي لَا يُمِيتُ وَلَا يُحْيِي سِوَايَ » فإذا الفعل يستعمل على وجوه مختلفة ، فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت . ولذلك <sup>(٢)</sup> قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلَّذِي نَاوَلَهُ التَّمْرَةَ « خُذْهَا لَوْ لَمْ تَأْتِهَا لَا تَتَلَّكَ » أضاف الإتيان

( ١ ) حديث ان ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الاحياء وقال ملك الحياة أنا أحي الاموات

فأوحى الله إليهما أن كونا على عملكما - الحديث : لم أجد له أصلا

( ٢ ) حديث قال للذى ناوله التمرة خذها لولم تأتها لاتتلك : ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل

ابن شريحيل ووصله الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح

إليه وإلى الأثرة، ومعلوم أن الأثرة لا تأتي على الوجه الذي يأتي الإنسان إليها. وكذلك لما قال  
الثائب (١) أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد. فقال صلى الله عليه وسلم: «عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ»  
فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة. ومن أضافه  
إلى غيره فهو المتجوز والمستعير في كلامه. وللتجوز وجه، كما أن للحقيقة وجهها. واسم  
الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع، ولكن ظن أن الإنسان مخترع بقدرته فسماه فاعلا بمحركته  
وظن أنه تحقيق، وتوهم أن نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز، مثل نسبة القتل إلى الأمير،  
فإنه مجاز بالإضافة إلى نسبته إلى الجلال. فلما انكشف الحق لأهله، عرفوا أن الأمر بالمعكس،  
وقالوا إن الفاعل قد وضعه أيها اللغوي المخترع، فلا فاعل إلا الله، فالاسم له بالحقيقة،  
ولغيره بالمجاز، أي تتجوز به عما وضعه اللغوي له. ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض  
الأعراب قصدا أو اتفاقا، صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (٢) «أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَهُ  
الشَّاعِرُ قَوْلُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَّا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ»

أي كل ما لا تقوم له بنفسه، وإنما قوامه بغيره، فهو باعتبار نفسه باطل، وإنما حقيقته  
وحقيقته بغيره لا بنفسه

فإذا لاحق بالحقيقة الإلهي القيوم، الذي ليس كمثله شيء، فإنه قائم بذاته، وكل ما سواه قائم  
بقدرته فهو الحق، وما سواه باطل. ولذلك قال سهل: يامسكين، كان ولم تكن، ويكون ولا  
تكون، فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا، كن الآن كما لم تكن، فإنه اليوم كما كان  
فإن قلت: فقد ظهر الآن أن الكل جبر، فما معنى الثواب، والعقاب، والغضب، والرضا، وكيف غضبه على فعل نفسه؟ فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر  
فلا نطول بإعادته. فهذا هو القدر الذي رأينا الرمز إليه من التوحيد الذي يورث  
حال التوكل. ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة، فإن التوحيد يورث النظر إلى مسبب  
الأسباب، والإيمان بالرحمة وسعتها هو الذي يورث الثقة بمسبب الأسباب، ولا يتم حال  
التوكل كما سيأتي إلا بالثقة بالوكيل، وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل

(١) حديث أنه قال للذي قال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد عرف الحق لأهله: تقدم في الزكاة

(٢) حديث أصدق بيت قاله العرب بيت لبيد: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَّا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ: منفق عليه من حديث

أبي هريرة بلفظ قاله الشاعر وفي رواية لمسلم أشعر كلمة تكلمت بها العرب.

وهذا الإيمان أيضا باب عظيم من أبواب الإيمان ، وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول  
فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يستريب فيه ، وهو أن يصدق  
تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب ، أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقابهم  
وعلم أعلمهم ، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم ، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا  
منتهى لوصفها ، ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ، ثم كشف لهم عن عواقب  
الأمور ، وأطلعهم على أسرار الملكوت ، وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات ، حتى  
أطلعوا به على الخير والشر ، والنفع والضرر ، ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا  
من العلوم والحكم ، لما اقتضى تدبير جميعهم ، مع التعاون والتظاهر عليه ، أن يزداد فيما دبر  
الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ، ولا أن ينقص منها جناح بعوضة  
ولا أن يرفع منها ذرة ، ولا أن ينخفض منها ذرة ، ولا أن يدفع مرض ، أو عيب ، أو نقص ،  
أو فقر ، أو ضرر عن بلي به ، ولا أن يزال صحة ، أو كمال ، أو غنى ، أو نفع ، عمن أنعم الله به  
عليه ، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجعوا فيها البصر ، وطولوا  
فيها النظر ، مارأوا فيها من تفاوت ولا فطور . . وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق  
وأجل ، وسرور وحزن ، وعجز وقدرة ، وإيمان وكفر ، وطاعة ومعصية فكله عدل محض  
لا جور فيه ، وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي ، وكما  
ينبغي ، وبالقدر الذي ينبغي : وليس في الإمكان أصلا أحسن منه ، ولا أتم ، ولا أكمل .  
ولو كان ، وإدخره مع القدرة ، ولم يتفضل بفعله . لكان بخلاف يناقض الجود ، وظلما يناقض  
العدل ، ولو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الإلهية . بل كل فقر وضرر في الدنيا ، فهو نقصان  
من الدنيا وزيادة في الآخرة . وكل نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص ، فهو نعيم  
بالإضافة إلى غيره . إذ لو لا الليل لما عرف قدر النهار ، ولو لا المرض لما تنعم الأصحاء  
بالصحة ، ولو لا النار لما عرف أهل الجنة قدر النعمة

وكما أن فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم ، وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم ، بل تقديم  
الكامل على الناقص عين العدل ، فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على  
أهل النيران ، وفداء أهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل . وما لم يخاف الناقص لا يعرف الكامل .

ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس ، فإن الكمال والنقص يظهر بالإضافة  
فقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا

وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل ، لأنه فداء كامل بناقص ، فكذلك  
الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة ، فكل ذلك عدل لا جور  
فيه ، وحق لا لب فيه . وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق ، واسع الأطراف ، مضطرب  
الأمواج ، قريب في السمة من بحر التوحيد ، فيه غرق طوائف من القاصرين ، ولم يعلموا  
أن ذلك غامض لا يعقله إلا العالمون ، ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الكثرون  
ومنع من إفشاء سره المكشفون . والحاصل أن الخير والشر مقضي به ، وقد كان  
ماقضي به واجب الحصول بعد سبق المشيئة ، فلا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه وأمره  
بل كل صغير وكبير مستطر ، وحصوله بقدر معلوم منتظر ، وما أصابك لم يكن ليخطئك  
وما أخطأك لم يكن ليصيبك . ولنتقصر على هذه المرامز من علوم المكاشفة التي هي أصول  
مقام التوكل ، ولنرجع إلى علم الممالة إن شاء الله تعالى ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

## الشر الثاني

من الكتاب في أحوال التوكل وأعماله

وفيه بيان حال التوكل ، وبيان مآقاله الشيوخ في حد التوكل ، وبيان التوكل في الكسب  
المنفرد والمعين ، وبيان التوكل بترك الادخار ، وبيان التوكل في دفع المضار ، وبيان التوكل  
في إزالة الضرر بالتداوى وغيره ، والله الموفق برحمته

## بيان

حال التوكل

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من علم ، وحال ، وعمل . وذكرنا العلم  
فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه ، وإنما العلم أصله ، والعمل ثمرته . وقد أكثر  
الخائضون في بيان حد التوكل ، واختلفت عباراتهم . وتكلم كل واحد عن مقام نفسه ،  
وأخبر عن حده ، كما جرت عادة أهل التصوف به . ولا فائدة في النقل والإكثار ، فلنكشف



الغطاء عنه ونقول : . التوكل مشتق من الوكالة . يقال وكل أمره إلى فلان ، أى فوضه إليه ، واعتمد عليه فيه . ويسمى الموكول إليه وكيلاً ، ويسمى المفوض إليه متوكلاً عليه ، ومتوكلاً عليه ، مهما اطمأنت إليه نفسه ، ووثق به ، ولم يهتم فيه بتقصير ، ولم يعتد فيه بمجازة قصوراً . فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلاً فنقول : من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبس ، فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبس ، لم يكن متوكلاً عليه ، ولا واثقاً به ، ولا مطمئن النفس بتوكيله ، إلا إذا اعتد فيه أربعة أمور :  
منتهى الهداية ، ومنتهى القوة ، ومنتهى الفصاحة ، ومنتهى الشفقة

أما الهداية : فليعرف بها موافق التلبس حتى لا يخنى عليه من غوامض الحيل شيء أصلاً .  
وأما القدرة والقوة : فليستجريء على التصريح بالحق فلا يدهن ، ولا يخاف ، ولا يستحي ، ولا يجبن ، فإنه ربما يطلع على وجه تلبس خصمه فيمنعه الخوف ، أو الجبن ، أو الحياء ، أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به

وأما الفصاحة : فهي أيضاً من القدرة ، إلا أنها فدرية في اللسان على الإفصاح عن كل ما استجراً القلب عليه ، وأشار إليه ، فلا كل عالم بمواقع التلبس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبس .  
وأما منتهى الشفقة ، فيكون باعثاً له على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من الجهود ، فإن قدرته لا تنفى دون العناية به إذا كان لايهمه أمره ، ولا يبالي به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك . فإن كان شاكاً في هذه الأربعة ، أو في واحدة منها ، أو جاوز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكل منه ، لم تطمئن نفسه إلى وكيله ، بل بقي منزعج القلب ، مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله ، وسطوة خصمه .  
ويكون تفاوت درجة أحواله في شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه . والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تفاوت تفاوتاً لا ينحصر ، فلا جرم تفاوت أحوال المتوكلين في قوة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر ، إلى أن ينتهى إلى اليقين الذى لا ضعف فيه ، كما لو كان الوكيل والد الموكل ؛ وهو الذى يسمى لجمع الحلال والحرام لأجله ، فإنه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية ، فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية . وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به ، وذلك بطول الممارسة

والنجربة ، وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً ، وأقواهم بياناً ، وأقدرهم على إدراك خالصة ، بل على تصوير الحق بالباطل ، والباطل بالحق .

فإذا عرفت التوكل في هذا المثال ، ففس عليه التوكل على الله تعالى . فإن ثبتت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم ، أنه لا فاعل إلا الله كما سبق ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام المطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، انكسر لاحالة فليك عليه وحده ، ولم يلتفت ، إلى غيره بوجه ، ولا إلى نفسه وحوله وقوته ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة ، فإن الحول عبارة عن الحركة ، والقوة عبارة عن القدرة

فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسيببه أحد أمرين : إما ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة ، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه ، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه . فإن القلب قد ينزعج تبعاً للوهم ، وطاعة له ، عن غير نقصان في اليقين . فإن من يتناول عسلاً فشبه بين يديه بالمذرة ، ربما نفر طبعه ، وتعذر عليه تناوله . ولو كلف العاقل أنه يبيت مع الميت في قبر ، أو فراش ، أو بيت ، نفر طبعه عن ذلك ، وإن كان متيقناً بكونه ميتاً ، وأنه مجاد في الحال ، وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحشره الآن ولا يحية وإن كان قادراً عليه ، كما أنها مطردة بأن لا يقلب القلم الذي في يده حية ، ولا يقلب السنور أسداً وإن كان قادراً عليه . ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت في فراش ، أو الميت معه في البيت ، ولا ينفر عن سائر الجمادات . وذلك جبن في القلب ، وهو نوع ضعف قلما يخلو الإنسان عن شيء منه وإن قل ، وقد يقوى فيصير مرضاً ، حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه

فاذاً . لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً ، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته . فالسكون في القلب شيء ، واليقين شيء آخر . فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام ( أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لَّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي (١) )

فالنفس أن يكون مشاهدا إحياء الميت بعينه لينبت في خياله ، فإن النفس تتبع الخيال وتطعن به : ولا نطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنة ، وذلك لا يكون في البداية أصلا . وكم من مطمئن لايقين له ، كسائر أرباب الملل والمذاهب فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده ، وكذا النصراني ، ولا يقين لهم أصلا ، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، وهو سبب اليقين ، إلا أنهم معرضون عنه . فإذا الجبن والجراءة غرائز ، ولا ينفع اليقين معها ، فهي أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل ، كما أن ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب . وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى . وقد قيل مكتوب في التوراة : ملءون من ثقته إنسان مثله . وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَنْ اسْتَعَزَّ بِالتَّيْدِ أَذَلَّهُ اللَّهُ تَعَالَى » وإذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمت الحالة التي سميت توكلا ، فأعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات : . الدرجة الأولى : ما ذكرناه ، وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى : والثقة بكفائته وعنايته ، كحاله في الثقة بالوكيل

الثانية : وهي أقوى ، أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه . فإنه لا يعرف غيرها ، ولا يفرع إلى أحد سواها ، ولا يعتمد إلا إياها . فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها . وإن نأب عنه في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه يأمه ، وأول خاطر يخطر على قلبه أمه ، فإنها مفرعه . فإنه قد وثق بكفائتها ، وكفائتها ، وشفقتها ، ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له ، ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طواب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ، ولا على إحضاره مفصلا في ذهنه . ولكن كل ذلك وراء الإدراك . فمن كان باله إلى الله عز وجل ، ونظره إليه ، واعتماده عليه ، كلف به كما يكلف الصبي بأمه ، فيكون متوكلا حقا . فإن الطفل متوكل على أمه . والفرق بين هذا وبين الأول أن هذا متوكل وقد بقي في توكله عن توكله ، إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته

( ١ ) حديث من اعترى بالعبيد أذله الله : العقيلي في الضعفاء وأبو نعيم في الحليين حديث عمر أوردته العقيلي في ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموي وقال لا يتابع على حديثه وقد ذكره ابن حبان في الثقات وقال يخاله في روايته

بل إلى التوكل عليه فقط ، فلا مجال في قلبه لغير التوكل عليه . وأما الأول فيتوكل بالتكليف والكسب ، وليس فانيا عن توكله ، لأن له التفاتا إلى توكله وشعورابه . وذلك شغل صارف عن ملاحظة التوكل عليه وحده . وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ما أدناه ؟ قال : ترك الأمانى ، قيل وأوسطه ؟ قال : ترك الاختيار . وهو إشارة إلى الدرجة الثانية وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال : لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه

الثالثة : وهي أعلاها ، أن يكون بين يدي الله تعالى في حركانه وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل ، لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت وهو الذى قوى يقينه بأنه مجرى للحركة ، والقدرة ، والإرادة ، والعلم ، وسائر الصفات ، وأن كلا يحدث جبرا ، فيكون بائنا عن الانتظار لما يجرى عليه ، ويفارق الصبي ، فإن الصبي يفرع إلى أمه ، ويصيح ، ويتعلق بذيلها ، ويمدو خلفها . بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه ، وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله ، وإن لم يسألها اللبن فالأم تقاحه وتسقيه . وهذا المقام فى التوكل يشر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته ، وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسئل . فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء ، وبغير الاستحقاق ، والمقام الثانى لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال منه ، وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط . فإن قلت : فهذه الأحوال هل يتصور وجودها

فاعلم أن ذلك ليس بحال ، ولكنه عزيز نادر . والمقام الثانى والثالث أعزها . والأول أقرب إلى الإمكان . ثم إذا وجد الثالث والثانى فدوامه أبعد منه ، بل يكاد لا يكون المقام الثالث فى دوامه إلا كصفرة الوجل . فإن انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع ، وانقباضه عارض . كما أن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع ، وانقباضه عارض . والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن ، حتى تمنحى عن ظاهر البشرة الحمرة التى كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة . فإن البشرة ستر رقيق تتراعى من ورائه حمرة الدم ، وانقباضه يوجب الصفرة ، وذلك لا يدوم . وكذا انقباض القلب بالسكينة عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم . وأما المقام الثانى فيشبه صفرة المحموم ، فإنه قد يدوم يوما ويومين . والأول يشبه صفرة مريض

استحكم مرضه ، فلا يبعد أن يدوم ، ولا يبعد أن يزول . فإن قلت : فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال ؟ . ناعلم أن المقام الثالث ينفي التدبير رأساً مادامت الحالة باقية . بل يكون صاحبها كالمبهوت . والمقام الثاني ينفي كل تدبير إلا من حيث الفزع إلى الله بالدعاء والابتهاال ، كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط . والمقام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار ، ولكن ينفي بعض التدبيرات ، كالتوكل على وكيله في الخصومة فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ، ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به ؛ أو التدبير الذي عرفه من عاداته وسنته دون صريح إشارته . فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له . لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل بالحالة بالتدبير للحضور ، ولا يكون هذا مناقضاً توكله عليه ، إذ ليس هو فزعاً منه إلى حول نفسه وقوته في إظهار الحجة ، ولا إلى حول غيره ، بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له ، إذ لو لم يكن متوكلاً عليه ولا معتمداً له في قوله لما حضر بقوله . وأما المعلوم من عاداته وأطراد سنته فهو أن يعلم من عاداته أنه لا يحتاج الخصم إلا من السجل ، فتمام توكله إن كان متوكلاً عليه أن يكون معوِّلاً على سنته وعاداته ووافياً بمقتضاها ، وهو أن يحمل السجل مع نفسه إليه عند مخاطبته

فإذا لا يستغنى عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل . ولو ترك شيئاً من ذلك كان نقصاً في توكله ، فكيف يكون فعله نقصاً فيه ! نعم بعد أن حضر وفاء بإشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعاداته : وقعدناظر إلى حاجته : فقد ينتهي إلى المقام الثاني والثالث في حضوره ، حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لا يفزع إلى حوله وقوته ، إذ لم يبق له حول ولا قوة وقد كان فزعه إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته وقدراته نهايته . فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل ، والانتظار لما يجري . وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل ، وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل ، وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل ، بل هو على الانقسام ، وسيأتي تفصيله في الأعمال . فإذا فزع المتوكل إلى حوله وقوته في الحضور والإحضار لا يناقض التوكل ، لأنه يعلم أنه لو لا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلاً وتعباطاً بلا جدوى . فإذا لا يصير مقيداً من حيث إنه حوله وقوته ، بل من حيث أن الوكيل جعله معتمداً لمخاطبته ، وعرفه ذلك بإشارته

وسنته . فإذا لاحت حول ولا قوة إلا بالوكيل . إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل ؛ لأنه ليس خالقا حوله وقوته ، بل هو جاعل لهما مفيدين في أنفسهما ، ولم يكونا مفيدين لو لافعله . وإنما يصدق ذلك في حق الوكيل الحق ، وهو الله تعالى ، إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد ، وهو الذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطا لما سيخلقهما من بعدهما من الفوائد والمقاصد فإذا لاحت حول ولا قوة إلا بالله حقا وصدقا . فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار <sup>(١)</sup> فيمن يقول لاحت حول ولا قوة إلا بالله . وذلك قد يستبعد فيقال : كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان ، وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها ؟ وهيئات ! فإنما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التي ذكرناها في التوحيد . ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة لا إله إلا الله وثوابها كنسبة معنى إحداها إلى الأخرى . إذ في هذه الكلمة إضافة شيئين إلى الله تعالى فقط ، وهما الحول والقوة . وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه . فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب لا إله إلا الله بالإضافة إلى هذا . وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد فشرين ولبين فكذلك لهذه الكلمة واسائر الكلمات . وأكثر الخلق قيدوا بالقشرين وماتوا بالقرينين إلى اللبث الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ مُخْلِصًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » . وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والإخلاص أراد بالمطلق هذا المقيد ، كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع ، وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع ، والمراد به المقيد بالعمل الصالح فالملك لا ينال بالحديث ، وحركة اللسان حديث ، وعقد القلب أيضا حديث ، ولكنه حديث نفس . وإنما الصدق والإخلاص وراءهما . ولا ينصب سرير الملك إلا للمقربين وهم المخلصون ، نعم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب اليمين أيضا درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهي إلى الملك . أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال ( عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَّقِيَّ بَلِينٍ <sup>(١)</sup> )

( ١ ) أحاديث ثواب قول لاحت حول ولا قوة إلا بالله : تقدمت في الدعوات

( ٢ ) حديث من قال لا إله إلا الله صادقا مخلصا من قلبه وجبت له الجنة : الطبراني من حديث زيد بن أرقم وابو يعلى

من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(١) الواقعة : ١٥ . ١٦

ولما انتهى إلى أصحاب البهائم ما زاد على ذكر الماء، والظل، والقبول، والأشجار، والخور العين وكل ذلك من لذات المنظور، والمشروب، والمأكول، والمنكوح. ويتصور ذلك للبهائم على الدوام. وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين ولو كان لهذه الذات قدر لما وسعت على البهائم، ولما رفعت عليها درجة الملائكة

أفتري أن أحوال البهائم وهي مسيبة في الرياض، متمتعة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات، متمتعة بالنزوان والسفاد، أعلى وألذ وأشرف؛ وأجدر بأن تكون عند ذوى الكمال مغبوبة من أحوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين في أعلى عليين؟ هيئات هيئات، ما أبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون حماراً أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام

وليس يخفى أن شبه كل شيء منجذب إليه، وأن النفس التي نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة، فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالكتاب. وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة، فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لا محالة. وهؤلاء هم الذين يقال فيهم (أولئك كالأنعام بل هم أضل<sup>(١)</sup>) وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس في قوتها طلب درجة الملائكة، فتركها الطلب للمعجز. وأما الإنسان ففي قوته ذلك، والقادر على نيل الكمال أخرى بالنهم وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال

وإذا كان هذا كلاماً معترضاً فلنرجع إلى المقصود، فقد ينسأ معنى قول لا إله إلا الله، ومعنى قول لا حول ولا قوة إلا بالله، وأن من ليس قائلاً بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل. فإن قلت: ليس في قولك لا حول ولا قوة إلا بالله إلا نسبة شيئين إلى

الله؛ فلو قال قائل: السماء والأرض خلق الله، فهل يكون ثوابه مثل ثوابه؟

فأقول: لا، لأن الثواب على قدر درجة المناب عليه، ولا مساواة بين الدرجتين. ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة، إن جاز وصفهما بالصغر تجوزاً فليست الأمور بمظم الأشخاص. بل كل عامي يفهم أن الأرض والسماء ليستا من جهة

الآدميين ، بل هما من خلق الله تعالى . فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة ، وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يدقق النظر في الرأي والمعقول حتى يشق الشعر بمحذة نظره ، فهي مهلكة خطيرة ، ومزلة عظيمة ، هلك فيها الفاسقون إذ أثبتوا لأنفسهم أمرا ، وهو شرك في التوحيد : وإثبات خالق سوى الله تعالى فن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته ، وعظمت درجته . فهو الذي يصدق قول : لا حول ولا قوة إلا بالله . وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد إلا عقبتان : إحداها النظر إلى السماء والأرض ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والنسيم ، والمطر ، وسائر الجمادات ، والثانية النظر إلى اختيار الحيوانات ، وهي أعظم العقبتين وأخطرهما ، وبقطعهما كمال سر التوحيد . فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة ، أعنى ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجمتها

فإذا رجع حال التوكل إلى التبرى من الحول والقوة ، والتوكل على الواحد الحق ، وسيتضح ذلك عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى

## بيان

ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل

ليبين أن شيئا منها لا يخرج عما ذكرنا ، ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال

فقد قال أبو موسى الدبلي : قلت لأبي يزيد ما التوكل ؟ فقال ما تقول أنت ؟ قلت إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك ، ما تحرك لذلك شرك . فقال أبو يزيد . نعم هذا قريب ، ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون ، وأهل النار في النار يعذبون ، ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل . فما ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل ، وهو المقام الثالث . وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذي هو من أصول التوكل ، وهو العلم بالحكمة ، وأن ما فعله الله تعالى فعله بالواجب ، فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة . وهذا أغضض أنواع العلم ، ووراءه سر القدر ، وأبو يزيد قلما يتكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحيات شرطاً في المقام الأول من التوكل فقد احترز<sup>(١)</sup> أبو بكر

( ١ ) حديث ان أبا بكر سدمنا فلله الحيات في الغار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم : تقدم



رضي الله عنه في النصار إذ سد منافذ الحيات ، إلا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره ، أو يقال إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لاني حق نفسه ، وإنما يزول التوكل بتحريك سره وتغييره لأمر يرجع إلى نفسه . وللتنظر في هذا مجال ولكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل ، فإن حركة السر من الحيات هو الخوف ، وحق التوكل أن يخاف مسلط الحيات ، إذ لا حول للحيات ولا قوة لها إلا بالله . فإن احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته في الاحتراز ، بل على خالق الحول والقوة والتدبير . وسئل ذو النون المصري عن التوكل فقال : خلع الأرباب ، وقطع الأسباب . فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد ، وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال ، وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه . فقيل له زدنا . فقال . إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية . وهذا إشارة إلى التبري من الحول والقوة فقط . وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال : إن كان لك عشرة آلاف درهم ، وعليك دائق دين ، لم تأمن أن تموت ويبقى دينك في عنقك . ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء ، لا تأمن من الله تعالى أن يقضيها عنك . وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسعة القدرة ، وأن في المقدورات أسبابا خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال : التعلق بالله تعالى في كل حال . فقال السائل زدني . فقال . ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك فالأول عام للمقامات الثلاث ، والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة ، وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وسلم إذ قال له جبريل عليه السلام : ألك حاجة ؟ فقال أما إليك فلا . إذ كان سؤاله سببا يفضي إلى سبب ، وهو حفظ جبريل له . فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك ، فيكون هو المتولى لذلك . وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم ير معه غيره . وهو حال عزيز في نفسه ، ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز وقال أبو سعيد الخراز : التوكل اضطراب بلاسكون ، وسكون بلا اضطراب . ولعله يشير إلى المقام الثاني . فسكونه بلا اضطراب إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وثقته به ، واضطرابه بلاسكون إشارة إلى فزعه إليه . وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب

الطامل بيديه إلى أمه ، وسكون قلبه إلى عام شفقتها . وقال أبو علي الدقاق : التوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض . فالتوكل يسكن إلى وعده ، والمسلم يكتفي بعامه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه ، فإن العلم هو الأصل ، والوعد يتبعه ، والحكم يتبع الوعد . ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك . وللشيوخ في التوكل أقاويل سوى ما ذكرناه ، فلا نطول بها ، فإن الكشف أنفع من الرواية والنقل . فهذا ما يتعلق بحال التوكل ، والله الموفق برحمته ولطفه

## بيان

### أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم يورث الحال ، والحال يشمر الأعمال . وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة ، وكالحم على الوضم ، وهذا ظن الجهال . فإن ذلك حرام في الشرع ، والشرع قد أثنى على المتوكلين ، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ! بل نكشف الغطاء عنه ونقول :  
إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده ، وسعي العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضار لم يزل به كدفع الصائل والسارق والسباع ، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض . فمقصود حركات العبد لاتمدو هذه الفنون الأربعة ، وهو جلب النافع ، أو حفظه ، أو دفع الضار أو قطعه . فأنذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع . الفن الأول : في جاب النافع فنقول فيه :  
الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات : مقطوع به ، ومظنون ظنا يوثق به ، وهو وهم وهما لا تثق النفس به ثقة تامة ، ولا تطمئن إليه . الدرجة الأولى : المقطوع به . وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيته ارتباطا مطردا لا يختلف . كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك ، وأنت جائع محتاج ، ولكنك لست تمد إليه اليد وتقول أنا متوكل ، وشروط التوكل ترك السعي ، ومد اليد إليه سعي وحركة ،

وكذلك مضغه بالأسنان، وابتلاعه بإطباق أنالي الحلق، على أمثاله، فهذا جنون مضني، وليس من التوكل في شيء. فإنك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شيئا دون الخبز، أو يخلق في الخبز حركة إليك، أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك، فقد جهلت سنة الله تعالى. وكذلك لو لم تزرع الأرض، وطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر، أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام، فكل ذلك جنون. وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه. فليس التوكل في هذا المقام بالعمل، بل بالحال، والعلم أما العلم: فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام، واليد، والأسنان، وقوة الحركة، وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك. وأما الحال: فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى، لا على اليد والطعام. وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف في الحال وتقلج وكيف تعمل على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك، ويبطل قوة حركتك وكيف تعمل على حضور الطعام وربما يسلط الله تعالى من يغلبك عليه، أو يبعث حية ترهبك عن مكانك، وتفرق بينك وبين طعامك! وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى، فبذلك فلتفرح، وعليه فلتعمل. فإذا كان هذا حاله وعامه فليمد اليد فإنه متوكل الدرجة الثانية: الأسباب التي ليست متيقنة، ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها، وكان احتمال حصولها دونها بعيدا. كالذي يفارق الأمطار والتوافل ويسافر في البوادي التي لا يطر فيها الناس إلا نادرا، ويكون سفره من غير استصحاب زاد، فهذا ليس شرطا في التوكل. بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق. ولكن فعل ذلك جائز، وهو من أعلى مقامات التوكل، ولذلك كان يفعله الخواص. فإن قلت: فهذا سعي في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين: أحدهما: أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدتها، وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه، بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر، وتعذر في ذكر الله تعالى. والثاني: أن يكون بحيث يقوى على التقوى الحشيش وما يتفق من الأشياء الخسيسة. فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمن

في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي، أو ينتهي إلى حلة، أو قرية، أو إلى حشيش يجتري به،  
فيحيابه مجاهدا نفسه. والمجاهدة عماد التوكل. وعلى هذا كان يعمل الخوَّاص ونظراؤه من المتوكلين  
والدليل عليه أن الخوَّاص كان لا تفارقه الإبرة، والمقراض، والحبل، والركوة ويقول:  
هذا لا يقدح في التوكل. وسببه أنه علم أن البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الأرض.  
وما جرت سنة الله تعالى بصمود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو  
في البوادي كما يغلب وجود الحشيش. والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات، ولعطشه  
في كل يوم أو يومين مرّة، فإن المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام.  
وكذلك يكون له ثوب واحد وزبما يتخرق فتتكشف عورته ولا يوجد المقراض والإبرة  
في البوادي غالباً عند كل صلاة، ولا يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي.  
فكل ما في معنى هذه الأربعة أيضا يلحق بالدرجة الثانية، لأنه مظهر ظنا ليس مقطوعا به،  
لأنه يحتمل أن لا يتخرق الثوب، أو يعطيه إنسان ثوبا، أو يجد على رأس البئر من يسقيه.  
ولا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوغا إلى فيه. فبين الدرجتين فرقان، ولكن الثاني في معنى الأول  
ولهذا نقول لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش، ولا يطرقة  
طارق فيه، وجلس متوكلا، فهو آثم به، ساع في هلاك نفسه. كما روي أن زاهدا من الزهاد فارق  
الأمصار وأقام في سفح جبل سبعا وقال: لا أسأل أحدا شيئا حتى يأتيني ربي برزقي. فقعده سبعا،  
فكاد يموت ولم يأت به رزق. فقال: يارب إن أحيتني فأتني برزقي الذي قسمت لي، وإلا فاقبضني  
إليك. فأوحى الله جل ذكره إليه: وعزتي لا رزقتك حتى تدخل الأمصار وتقعدين الناس.  
فدخل المصر وقعد، فجاءه هذا بطعام، وهذا شراب، فأكل وشرب، وأوجس في نفسه من  
ذلك، فأوحى الله تعالى إليه: أردت أن تذهب حكمتي بزهك في الدنيا. أما علمت أني أن أرزق  
عبدى بأيدي عبادي أحب إلي من أن أرزقه بيد قدرتي. فإذا التباءد عن الأسباب كلها مراغمة  
للحكمة، وجهل بسنة الله تعالى، والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل  
دون الأسباب لا يناقض التوكل، كما ضربناه مثالا في الوكيل بالخصومة من قبل. ولكن الأسباب  
تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية فمعنى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية عن الأسباب الظاهرة مع  
سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب. فإن قلت فما قولك في القعود في البلدة

بغير كسب، أهو حرام أو مباح أو مندوب؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام، لأن صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما. بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب، ولكن قد تأخر عنه، والصبر ممكن إلى أن يتفق، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام. وإن فتح باب البيت وهو بطلال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له، ولكن ليس فعله حراما إلا أن يشرف على الموت، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب. وإن كان مشغول القلب بالله، غير مستشرف إلى الناس، ولا متطلع إلى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه، بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله، فهو أفضل. وهو من مقامات التوكل. وهو أن يشغل بالله تعالى، ولا يهتم برزقه، فإن الرزق يأتيه لا محالة. وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء، وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه، كما لو هرب من الموت لأدركه. وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب له وكان عاصيا، ولقال له يا جاهل كيف أخلقك ولا أرزقك! . ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل، فإنهم أجمعوا على أن لا رازق ولا مميت إلا الله تعالى .

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرَزُقُ الطَّيْرَ تَعْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا وَلَزَالَتْ بِدْعَانِكُمُ الْجِبَالُ»

وقال عيسى عليه السلام: انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر، والله تعالى يرزقها يوما بيوم. فإن قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا إلى الأنعام كيف قبض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق وقال أبو يعقوب السوسى. المتوكلون تجرى أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون. وقال بعضهم. البيد كلهم في رزق الله تعالى، لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال، وبعضهم يتعب وانتظار كالتجار، وبعضهم بامتهان كالصناع وبعضهم بمنزلة كالصوفية، يشهدون الميزن، فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الوسطة

(١) حديث لوتوكلتم على الله حق توكله - الحديث : وزاد في آخره ولزالت بدعائكم الجبال وقد تقدم

قريبا دون هذه الزيادة فرواها الامام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ ابن جبل باسناد فيه لين لو عرقم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال ورواه البيهقي في الزهد من رواية وهيب السكي مرسل دون قوله لمشيتم على البحور وقال حاتم منفع

الدرجة الثالثة : ملازمة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذي يستقصى في التديرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه . وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها ، وهو الذي فيه الناس كلهم . أعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة لاكتسابا مباحا لئلا مباح . فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب . فلا يخفى أن ذلك يطل التوكل . وهذا مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والسكي بالإضافة إلى إزالة الضرر ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ، ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ، ولا يأخذون من أحد شيئا ، بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب . وأمثال هذه الأسباب التي يوثق بها في المسببات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها وقال سهل في التوكل : إنه ترك التدبير . وقال إن الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه وإنما حجبهم بتدبيرهم . ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر ، فهي التي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجلية . فإذا قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل ، وإلى ما لا يخرج . وأن الذي يخرج ينقسم إلى مقطوع به ، وإلى مظنون . وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه ، وهو الاتكال على مسبب الأسباب ، فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل . وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا . والمتوكلون في ملازمة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات

الأول : مقام الخواص ونظرائه ، وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعا وما فوقه ، أو تيسير حشيش له أو قوت ، أو تنبيته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك . فإن الذي يحمل الزاد قد يفقد زاده ، أو يضل بعيره ، ويموت جوعا ، فذلك ممكن مع الزاد ، كما أنه يمكن مع فقد

المقام الثاني : أن يقعد في بيته أو في مسجد . ولكنه في القرى والأمصار ، وهذا أضعف من الأول ولكنه أيضا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة ، معول على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ، ولكنه بالقعود في الأمصار متعرض لأسباب الرزق ، فإن ذلك من الأسباب الجالبة ، إلا أن ذلك لا يبطل توكله إذا كان نظره

إلى الذى يسخر له سكان البلد لا يصل رزقه إليه لا إلى سكان البلد ، إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لو لا فضل الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم

المقام الثالث : أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذى ذكرناه فى الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب وهذا السعي لا يخرج أيضا عن مقامات التوكل إذا لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته ، وجاهه وبضاعته ، فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه فى لحظة . بل يكون نظره إلى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له ، بل يربى كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم فى يد الملك الموقع فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرك ، وإلى ماذا يعمل ، وبم يحكم ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله ، أو ليفرق على المساكين فهو بيدنه مكتسب ، وبقلبه عنه منقطع . فال هذا أشرف من حال القاعد فى بيته

والدليل على أن الكسب لا ينافى حال التوكل إذ أروعت فيه الشروط ، وانضاف إليه الحال والمعرفة كما سبق ، أن الصديق رضى الله عنه لما بيع بالخلافة أصبح أخذ الأبواب تحت حضنه والذراع بيده ، ودخل السوق ينادى حتى كرهه المسلمون وقالوا : كيف تفعل ذلك وقد أقت خلافة النبوة ! فقال لا تشغلوني عن عيالي ، فإنى إن أضعتهم كنت لمأسواهم أضيع . حتى قرضوا له قوت أهل بيته من المسلمين . فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم ، وتطبيب قلوبهم ، واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى . ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق فى مقام التوكل . فن أولى بهذا المقام منه ! فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعي ، بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته ، والعلم بأن الله هو ميسر الأكتساب ومدبر الأسباب ، وبشروط كان يراعيها فى طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار ، وتفاخر ، وادخار ، ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره . فن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها . ولا يصح التوكل إلا مع الزهد فى الدنيا . نعم يصح الزهد دون التوكل فإن مقام وراء الزهد

وقال أبو جعفر الحداد : وهو شيخ الجنيد رحمة الله عليهما ، وكان من المتوكلين . أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق . كنت أكتسب فى كل يوم دينارا ولأيت منه

دائفاً، ولا أستريح منه إلى قبراط أدخل به الحمام، بل أخرجه كله قبل الليل. وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرة، وكان يقول أستحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي. واعلم أن الجالوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل، فإن لم يكن معلوم ووقف، وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف، ولكن بقوى الحال والعلم كتوكل المكتسب. وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل إليهم فهذا أقوى في توكلهم. لكنه بعد اشتها القوم بذلك، فقد صار لهم سوقاً، فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلاً إلا بشروط كثيرة كما سبق فإن قلت: فما الأفضل أن يقعد في بيته أو يخرج ويكتسب؟ فأعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر، وذكر، وإخلاص، واستغراق وقت بالعبادة، وكان الكسب يشوش عليه ذلك، وهو مع هذا لا يستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئاً، بل يكون قوى القلب في الصبر والاتكال على الله تعالى، فالقعود له أولى: وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى، لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب، وتركه أهم من ترك الكسب. وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم، كان أحمد بن حنبل قد أصر أب بكر المروزي أن يعطى بعض الفقراء شيئاً فضلاً عما كان استأجره عليه، فردّه فلما ولى قال له أحمد: الحق وأعطه فإنه يقبل. فلحقه وأعطاه فأخذه. فسأل أحمد عن ذلك فقال: كان قد استشرفت نفسه فرد، فلما خرج اتقطع طعمه وأيس فأخذ وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئاً. وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره: رأيت الخضر ورضي بصحبتي، ولكنني فارقته خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصاً في توكلتي. فإذا المكتسب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصده الاستكثار، ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلاً. فإن قلت فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية؟ فأقول: علامته أنه إن سرقت بضاعته، أو خسرت تجارتها أو تعوق أمر من أموره كان راضياً به، ولم تبطل طمأنينته، ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحداً. فإن من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقده. ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه. وكان بشر بمل المنازل قترتها، وذلك لأن البعادي كاتبه قال: بلغني أنك



استعنت على رزقك بالمنازل ، أرايت إن أخذ الله سمكك وبصرك ، الرزق على من ؟ فوق ذلك في قلبه ، فأخرج آلة المنازل من بده وتركها . وقيل تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها . وقيل فعل ذلك لمآمات عياله ، كما كان لسفيان خمسون دينارا يتجرف فيها ، فلمآمات عياله فرقها فإن قلت : فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها ، وهو يعلم أن الكسب بغير بضاعة لا يمكن ؟ فأقول بأن يعلم أن الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة ، وأن الدين كثرت بضاعتهم فسرفت وهلكت فيهم كثرة ، وأن يوطن نفسه على أن الله لا يفعل به إلا ما فيه صلاحه ، فإن أهلك بضاعته فهو خير له ، فلمله لو تركه كان سببا لفساد دينه ، وقد لطف الله تعالى به ، وغايته أن يموت جوعا ، فينبغي أن يعتقد أن الموت جوعا خير له في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك ، من غير تقصير من جهته فإذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها . ففي الخبر (١) « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَهْمُ مِنَ اللَّيْلِ بِأَمْرِ مِنْ أُمُورِ التَّجَارَةِ يَمَّا لَوْ فَعَلَهُ لَكَانَ فِيهِ هَلَاكُهُ فَيَنْظُرُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ فَيَصْرِفُهُ عَنْهُ فَيُصْبِحُ كَثِيبًا حَزِينًا يَتَطَيَّرُ بِبَجَارِهِ وَابْنِ عَمِّهِ مَنْ سَبَقَنِي مِنْ دَهَانِي وَمَا هِيَ إِلَّا رَحْمَةٌ رَحِمَهُ اللَّهُ بِهَا » . ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا ، فإني لا أدري أيهما خير لي . ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل . ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الخوارى : لي من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل المبارك ، فإني ماشمت منه رائحة . هذا كلامه مع علو قدره ، ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ، ولكنه قال ما أدركته . ولعله أراد إدراك أقصاه وما لم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله . ولا رازق سواه ، وأن كل ما بقدره على العبد من فقر ، وغنى ، وموت ، وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد ، لم يكمل حال التوكل فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور كما سبق . وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبنى على أصولها من الإيمان . وبالجمله : التوكل مقام مفهوم ، ولكن يستدعى قوة القلب وقوة اليقين . ولذلك قال سهل : من طعن على التكسب فقد طعن على السنة . ومن طعن على

( ١ ) حديث ابن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله اليه من فوق

عرشه فيصرفه عنه - الحديث : أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس باسناد ضعيف جدا نحوه

الإمام قال ان العبد لبشرى على حاجة من حاجات الدنيا - الحديث بنحوه

ترك التكسب فقد طمن على التوحيد . فإن قلت فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة ، وحسن الظن بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية ؟ فأقول نعم هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان ، وحسن الظن تلقين الله تعالى قال الله تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا<sup>(١)</sup>) فإن الإنسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان ولذلك قيل: الشفيق بسوء الظن مولع . وإذا انضم إليه الجبن ، وضعف القلب ، ومشاهدة المتسكين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها ، غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية . بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضا تبطل التوكل فقد حكي عن عابد أنه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم ، فقال له الإمام لو اكتسبت لكان أفضل لك . فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا ، فقال في الرابعة يهودي في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين . فقال : إن كان صادقا في ضمانه فمكوفك في المسجد خير لك . فقال : يا هذا لو لم تكن إماما تفق بين يدي الله وبين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيرا لك ، إذ فضلت وعد يهودي على ضمان الله تعالى بالرزق وقال إمام المسجد لبعض المصلين : من أين تأكل ؟ فقال يا شيخ أصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها بخلفك ثم أجيبك . وينفع في حسن الظن بمجيء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق إلى صاحبه ، وفيه عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعا كما روي عن حذيفة المرعشي ، وقد كان خدما إبراهيم بن أدهم ، فقيل له . ما أعجب ما رأيت منه ؟ فقال . بقينا في طريق مكة أياما لم نجد طعاما . ثم دخلنا الكوفة . فأوينا إلى مسجد خراب ، فنظر إلى إبراهيم وقال . يا حذيفة ، أرى بك الجوع . فقلت هو ما رأى الشيخ فقال علي بدواة وقرطاس ، فجئت به إليه فكتب . بسم الله الرحمن الرحيم . أنت المقصود إليه بكل حال ؛ والمشار إليه بكل معنى . وكتب شعرا

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عارى  
هي ستة وأنا الضمين لنصفها فكن الضمين لنصفها يا باري

مدحى لغيرك لهب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إليّ الرقعة ، فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى ، وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك . فخرجت ، فأول من لقيني كان رجلا على بغلة ، فناولته الرقعة فأخذها ، فلما وقف عليها بكى وقال : ما فعل صاحب هذه الرقعة ؟ فقلت هو في المسجد الفلاني . فدفع إليّ صرة فيها ستمائة دينار . ثم لقيت رجلا آخر ، فسألته عن راكب البغلة ، فقال هذا نصراني . فجيئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة ، فقال لاتمسها فإنه يحيى الساعة . فلما كان بعد ساعة دخل النصراني ، وأكب على رأس إبراهيم يقبله ، وأسلم

وقال أبو يعقوب الأقطع البصري . جمعت مرة بالحرم عشرة أيام ، فوجدت ضعفا ، فحدثتني نفسي بالخروج . فخرجت إلى الوادي لعل أجد شيئا يسكن ضعفى . فرأيت سلجمة مطروحة ، فأخذتها ، فوجدت في قلبى منها وحشة ، وكأن قائلا يقول لى جمعت عشرة أيام ، وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت . فإذا أنا برجل أعجمي قد أقبل حتى جلس بين يدي ووضعت قطرة ، وقال هذه لك . فقلت كيف خصصتني بها ؟ قال اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام ، وأشرفت السفينة على الفرق ، فنذرت إن خلصنى الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصرى من المجاورين . وأنت أول من لقيته . فقلت . افتحها . ففتحتها فإذا فيها سميد مصري ، ولوز مقشور ، وسكر كماب ، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقي إلى أصحابك هدية منى إليكم وقد قبلتها ، ثم قلت فى نفسى رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي

وقال ممشاد الدينورى . كان علي دين ، فاشتغل قاني بسببه . فرأيت فى النوم كأن قائلا يقول : يا بخيل ، أخذت علينا هذا المقدار من الدين ، خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء ، فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا قصابا ولا غيرهما

وحكى عن بنان الجمال قال : كنت فى طريق مكة أجيء من مصر ومعى زاد ، فجاءتنى امرأة وقالت لى يا بنان ، أنت حمال تحمل على ظهرك الزاد وتوهم أنه لا يرزقك ا قال فرميت بزادى . ثم أتى على ثلاث لم آكل ، فوجدت خلخالاً فى الطريق ، فقلت

في نفسى احملة حتى ينجىء صاحبه ، فربما يعطينى شيئا فأرده عليه . فإذا أنا بتلك المرأة فقالت لى : أنت تاجر تقول عسى ينجىء صاحبه فأخذ منه شيئا ! ثم رمت لى شيئا من الدراهم وقالت . أنفقها . فاكثفت بها إلى قريب من مكة

وحكى أن بنانا احتاج إلى جارية تخدمه ، فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له ثمنها ، وقالوا هوذا ينجىء النفير فنشترى ما يوافق . فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة ، وقالوا إنها تصلح له . فقالوا لصاحبها . بكم هذه ؟ فقال إنها ليست للبيع . فألحوا عليه ، فقال إنها للبنان الجمال ، أهدتها إليه امرأة من سمرقند ، فحملت إلى بنان وذكرت له القصة

وقيل كان في الزمان الأول رجل في سفر ومعه قرص . فقال إن أكلته مت . فوكل الله عز وجل به ملكا وقال : إن أكله فارزقه ، وإن لم يأكله فلا تعطه غيره . فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله ، وبقي القرص عنده

وقال أبو سعيد الخراز . دخلت البادية بغير زاد ، فأصابني فاقة ، فرأيت المرحلة من بعيد ، فسررت بأن وصلت . ثم فكرت في نفسى أنى سكنت واتكلت على غيره ؛ وآليت أن لا أدخل المرحلة إلا أن أحمل إليها . فغفرت لنفسي في الرمل حفرة ، وواريت جسدى فيها إلى صدرى . فسمعت صوتا في نصف الليل عاليا . يا أهل المرحلة ، إن الله تعالى ولينا حبس نفسه في هذا الرمل فالحقوه . فجاء جماعة فأخرجوني وحملوني إلى القرية

وروي أن رجلا لازم باب عمر رضي الله عنه ، فإذا هو بقائل يقول . يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى ؟ اذهب فتعلم القراءان فإنه سيغنيك عن باب عمر . فذهب الرجل وغاب حتى اقتدعه عمر ، فإذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة . فجاءه عمر فقال له . إني قد اشتقت إليك ، فما الذى شغلك عني ؟ فقال إني قرأت القراءان فأغنائى عن عمر وآل عمر . فقال عمر : رحمك الله ، فما الذى وجدت فيه ؟ فقال وجدت فيه ( وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ )<sup>(١)</sup> فقلت رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض ، فبكى عمر وقال صدقت فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس إليه

وقال أبو هريرة الخراساني : حججت سنة من السنين ، فبينما أنا أمشي في الطريق إذ وقعت

في بئر . فنازعتني نفسي أن أستغيث ، فقلت لا والله لا أستغيث : فاستتمت هذا الخاطر حتى مرّ برأس البئر رجلان ، فقال أحدهما للآخر . تعالى حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد . فأتوا بقصب وبارية ، وطموا رأس البئر ، فهمت أن أصبح ، فقلت في نفسي . إلى من أصبح ؟ هو أقرب منهما . وسكنت . فبينما أنا بعد ساعة ، إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله ، وكأنه يقول . تعلق بي ، في مهمة له كنت أعرف ذلك فتعلقت به فأخرجني ، فإذا هو سبع ، فروهتف بي هاتف . يا أباحزة ، أليس هذا أحسن ؟ نجيناك من التلف بالتلف . فشيت وأنا أقول

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى	وأغيتني بالفهم منك عن الكشف
تلطفت في أمري فأبدت شاهدي	إلى غائبي واللف يدرك باللف
ترأيت لي بالغيب حتى كأنما	تبشرني بالغيب أنك في الكف
أراك وبني من هيتي لك وحشة	فتؤنسني باللف منك وباللف
وتحبي محبا أنت في الحب حتفه	وذا عجب كون الحياة مع الحف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر . وإذا قوي الإيمان به ، وانضم إليه القدرة على الجوع قدير أسبوع من غير ضيق صدر ، وقوي الإيمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه في أسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ، ولذلك حبسه عنه ، ثم التوكل بهذه الأحوال والشياهدات .  
والأفلا يثم أصلا



## فهرست الجزء الثالث عشر

صفحة	صفحة
بيان احوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف ٢٣٨٠	٢٣٣١ الشطر الثاني من الكتاب في 'الخوف بيان حقيقة الخوف
٢٣٨٦ تقوى عمر رضى الله عنه خوف عمر بن عبد العزيز	٢٣٣٣ بواعث الخوف تأثير الخوف في الجوارح بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف ٢٣٣٤
٢٣٩٠ كتاب الفقر والزهد	٢٣٣٥ الخوف المدموم
٢٣٩١ الشطر الأول من الكتاب في الفقر بيان حقيقة الفقر واختلاف احوال الفقر وأسبابه	٢٣٣٦ بيان أقسام الخوف بالاضافة الى ما يخاف منه
٢٣٩٢ معنى الفقر مراتب الانسان عند عدم المال قبول الصحابة للمال وصرفه في مواضعه ٢٣٩٥	٢٣٤٠ بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه
٢٣٩٦ بيان فضيلة الفقر مطلقا	٢٣٤٧ بيان الأنفصل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما
٢٤٠٥ الآثار في فضيلة الفقر	٢٣٤٨ خوف عمر رضى الله عنه
٢٤٠٦ بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين	٢٣٥٢ بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف
٢٤٠٩ بيان فضيلة الفقر على الفنى	٢٣٥٣ مقامات الخوف من الله تعالى
٢٤١٠ وجهة ارجحية تفضيل الفقير الصابر	٢٣٥٤ محاجة آدم وموسى عليهما السلام
٢٤١٦ اختيار الفقراء والأغنياء	٢٣٥٧ تدبر القرآن يخوف العبد من ربه
٢٤١٧ بيان آداب الفقير في فقره	٢٣٦١ أسباب سوء الخاتمة
٢٤١٨ آداب الفقير الباطنية آدابه الظاهرية	٢٣٦٣ بيان معنى سوء الخاتمة
درجات الادخار	٢٣٦٤ منكر عذاب القبر مبتدع
٢٤١٩ بيان آداب الفقير في قبول العطاء اذا جاءه بغير سؤال	٢٣٦٥ الابتداء المقضى الى سوء الخاتمة
أحكام الهدية	٢٣٦٦ تحفظ السلف من الخوض في الكلام
٢٤٢١ الزكاة والصدقة	٢٣٦٧ ضعف الايمان طريق الخسران
العطاء بقصد الرياء	٣٦٩ يموت المرء على ما عاش عليه
غرض الآخذ	٢٣٧٣ سبيل النجاة من سوء الخاتمة
٢٤٢٢ قبول الصدقة رحمة للمعطي	٢٣٧٥ بيان احوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف
٢٤٢٣ خدمة الفقراء للتوسع هلاك	خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الله تعالى
٢٤٢٥ بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه	٢٣٧٧ خوف داود عليه السلام
	٢٣٧٩ خوف يحيى عليه السلام

صفحة		صفحة	
٢٤٧٦	جامع الدنيا ومتبع الشهوات كدود القز	٢٤٢٥	الأصل في السؤال الحرمة
٢٤٧٧	بيان علامات الزهد	٢٤٢٦	السؤال فاحشة أبيض للضرورة
٢٤٧٨	صفة مدعى الزهد	٢٤٣٠	تحريم مال السائل المستغنى عليه
	علامات الزاهد حقا		حد اباحة السؤال
٢٤٨٢	<b>كتاب التوحيد والتوكل</b>	٢٤٣١	بيان مقدار الفنى المحرم للسؤال
٢٤٨٣	بيان فضيلة التوكل	٢٤٣٢	درجات السؤال للمستقبل
٢٤٨٥	الآثار في فضيلة التوكل	٢٤٣٣	بيان أحوال السائلين
	بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل	٢٤٣٥	الشرط الثانى من الكتاب في الزهد
٢٤٨٦	مراتب التوحيد		بيان حقيقة الزهد
٢٤٨٩	شرح مقامات التوحيد	٢٤٣٦	معنى الزهد
٢٤٩٥	طريق توحيد السالكين	٢٤٤٠	ترك الدنيا لحقارنها زهد
٢٤٩٨	وجهة وصف الله بالتناقضين	٢٤٤١	بيان فضيلة الزهد
٢٤٩٩	علاج جاحد طريق السالكين	٢٤٤٢	الزاهد في الدنيا محبوب الله تعالى
٢٥٠٠	مثال الكاشفين والمعتقدين	٢٤٤٣	علامة شرح الصدر للإسلام
٢٥٠١	شرح الاختيار في الأفعال		السخاء يقرب العبد من ربه
	مثال توقف المقدور مع القدرة على وجود الشرط	٢٤٤٥	متابعة عمر رضى الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم
٢٥٠٤	كيفية الجمع بين التوحيد والشرع	٢٤٤٧	العبادة مع حب الدنيا كالبناء على الماء
٢٥٠٥	الشرط الثانى من الكتاب في أحوال التوكل وأعماله	٢٤٤٨	الآثار في فضيلة الزهد
٢٥١٠	معنى التوكل وما ينبغى توفيره في معنى التوكل وما ينبغى توفيره في التوكل		بيان درجات الزهد وأقسامه
٢٥١١	درجات التوكل	٢٤٥٠	بالإضافة الى نفسه والى المرغوب عنه والى المرغوب فيه
٢٥١٣	بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل		درجات الزهد
٢٥١٨	بيان أعمال المتوكلين	٢٤٥١	مثال تارك الدنيا للآخرة
٢٥٢٠	الأسباب القاطعة لجلب المصالح		أقسام الزهد بالإضافة الى المرغوب فيه
٢٥٢١	الأسباب المظنونة لجلب المنافع	٢٤٥٢	أقسام الزهد بالإضافة الى المرغوب منه
٢٥٢٣	حكم القعود في البلد من غير كسب	٢٤٥٣	أقارب السلف في حقيقة الزهد
	الأسباب الموهمة الأفضاء الى المسببات	٢٤٥٥	بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة
٢٥٢٤	درجات المتوكلين الآخذين في الأسباب		تفصيل الزهد في الطعام
٢٥٢٥	الاكتساب لا ينافى التوكل	٢٤٦١	تفصيل الزهد في اللباس
٢٥٢٦	علامة المكتسب غير المتوكل	٢٤٦٧	تفصيل الزهد في المسكن
		٢٤٧٠	تفصيل الزهد في اثاث البيت
		٢٤٧٤	تفصيل الكلام في المال والنجاة







كتاب الشعب

# إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الرابع عشر

دار الشعب  
٩٨ شارع مصر، القاهرة ١١٨١٠



## بيان

توكل المعيل

اعلم أن من له عيال لحكمه يفارق المنفرد . لأن المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين .  
أحدهما : قدرته على الجوع أسبوعاً من غير استشراف وضيق نفس  
والآخر : أبواب من الإيمان ذكرناها ، من جعلتها أن يطيب نفساً بالموت إن لم يأت  
رزقه ؛ علماً بأن رزقه الموت والجوع ، وهو وإن كان نقصاً في الدنيا فهو زيادة في الآخرة  
فيري أنه سبق إليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة ، وأن هذا هو المرض الذي به يموت  
ويكون راضياً بذلك ، وأنه كذا قضى وقدر له ، فهذا يتم التوكل المنفرد  
ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ، ولا يمكن أن يقرر عندهم الإيمان بالتوحيد  
وأن الموت على الجوع رزق مغبوط عليه في نفسه إن اتفق ذلك نادراً . وكذا سائر أبواب  
الإيمان . فإذا لا يمكنه في حقهم إلا توكل المكسب ، وهو المقام الثالث ، كتوكل أبي بكر  
الصديق رضي الله عنه إذ خرج للكسب  
فأما دخول البوادي وترك العيال توكلًا في حقهم ، أو القعود عن الاهتمام بامرهم توكلًا  
في حقهم ، فهذا حرام ، وقد يفضى إلى هلاكهم ، ويكون هو مؤاخذا بهم . بل التحقيق  
أنه لا فرق بينه وبين عياله ، فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة ، وعلى الاعتداد  
بالموت على الجوع رزقاً وغنيمة في الآخرة ، فله أن يتوكل في حقهم . ونفسه أيضاً عيال  
عنده ، ولا يجوز له أن يضيعها إلا أن تساعده على الصبر على الجوع مدة . فإن كان لا يطيقه ،  
ويضطرب عليه قلبه ، وتتشوش عليه عبادته ، لم يحز له التوكل  
ولذلك روي أن أبا تراب النخشي نظر إلى صوفي مدّ يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد  
ثلاثة أيام ، فقال له : لا يصلح لك التصوّف ، الزم السوق . أي لا تصوّف إلا مع التوكل  
ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام وقال أبو علي الروذباري :  
إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فألزمه السوق ، ومرره بالعمل والكسب :  
فإذا بدنه عياله ، وتوكله فيما يضر بدنه كتوكله في عياله . وإنما يفارقهم في شيء واحد  
وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع ، وليس له ذلك في عياله

وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعاً عن الأسباب ، بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة ، والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادراً ، وملازمة البلاد والأمصار ، أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه ، فهذه كلها أسباب البقاء ، ولكن مع نوع من الأذى ، إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر . والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي . وكل ذلك من الأسباب ، إلا أنت الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها ، فلم يعدوا تلك أسباباً ، وذلك لضعف إيمانهم ، وشدة حرصهم ، وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة ، واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل . ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقاً أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيراً لا يوازي العبد رزقه وإن ترك الاضطراب ، فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوز رزقه . أما ترى الجبن في بطن أمه لما أن كان عاجزاً عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنهى إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرّة ، ولم يكن ذلك بحيلة الجبن . ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتكفل به شاة أم أبت ، اضطراراً من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب . ثم لما لم يكن له سن يعض به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف ، فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند الفصاله على حسب حاجته ، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم ؟ فإذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسناناً قواطع وطواحين لأجل المضغ . فإذا كبر واستقل بسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة ، فجنبه بعد البلوغ جهل محض ، لأنه ما نقصت أسباب مميسته ببلوغه بل زادت ، فإنه إن لم يكن قادراً على الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته . نعم كان المشفق عليه شخصاً واحداً وهي الأم أو الأب ، وكانت شفقتهم مفرطة جداً ، فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرة أو مرتين ، وكان إطعامه بتسايط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه ، فكذلك قد سلط الله الشفقة ، والمودة والرفقة ، والرحمة على قلوب المسلمين ، بل أهل البلد كافة ، حتى أن كل واحد منهم إذا أحس يحتاج تلم قلبه ورقّ عليه ، وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته . فقد كان المشفق عليه واحداً والآن المشفق عليه ألف وزيادة ، وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب

وهو مشفق خاص ، فما رآه محتاجا . ولو رآوه يتيمًا لسلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين ، أو على جماعة ، حتى يأخذونه ويكفلونه . فما رآوه في سبي الخصب يتيم قد مات جوعا ، مع أنه عاجز عن الاضطراب ، وليس له كافل خاص ، والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده . فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا ، وقد كان المشفق واحدا والمشفق الآن ألف ؟ نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ، ولكنها واحدة ، وشفقة آحاد الناس وإن ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد القرض فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين ، وبترك التنعم ، والافتصار على قدر الضرورة . ولقد أحسن الشاعر حيث ، يقول

جرى قلم القضاء بما يكون      فسيان التحرك والسكون  
جنون منك أن تسعى لرزق      ويرزق في غشاوته الجنين

فإن قلت : الناس يكفلون يتيم لأنهم يرونه عاجزا بصباه ، وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ، ويقولون هو مثلنا فليجتهد لنفسه

فأقول . إن كان هذا القادر بطأ لا فقد صدقوا ، فعليه الكسب ، ولا معنى للتوكل في حقه ، فإن التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى . فما للبطل والتوكل ! وإن كان مشتغلا بالله ، ملازما لمسجد أو بيت ، وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ، ولا يكلفونه ذلك ، بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه في قلوب الناس ، حتى يحملون إليه فوق كفايته . وإعما عليه أن لا يفلق الباب ، ولا يهرب إلى جبل من بين الناس . وما رآوه إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار فسات جوعا ، ولا يرى قط . بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقد رزقني الله من قبله فإني من كان لله تعالى كان الله عز وجل له . ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه في قلوب الناس ، وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها . فقد دبر الله تعالى الملك والملوك تديرا كافيا لأهل الملك والملوك فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدير ، واشتغل به ، وآمن ونظر إلى مدبر الأسباب لا إلى الأسباب . نعم ما دبره تديرا يصل إلى المشتغل به الحلو والطيب والسمان ، والياب الرقيقة ، والخيول النفيسة على الدوام لا محالة . وقد يقع ذلك أيضا

في بعض الأحوال : لكن دبره تدبيرا يصل إلى كل مشتغل بعبادة الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لا محالة . والغالب أنه يصل أكثر منه ، بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية . فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التمتع على الدوام وبأس الثياب الناعمة ، وتناول الأوعية اللطيفة ، وليس ذلك من طريق الآخرة . وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب ، وهو في الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب ، وإنما يحصل نادرا . وفي النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب ، فأثر الاضطراب ضعف عند من انفتحت بصيرته لذلك لا يطمئن إلى اضطرابه ، بل إلى مدبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز عبدا من عباده رزقه وإن سكن ، إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله في حق المضطرب

فإذا انكشفت هذه الأمور ، وكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس ، أثمر ما قاله الحسن البصري رحمه الله إذ قال : وددت أن أهل البصرة في عيالي وأن حبة بدينار . وقال وهيب بن الورد : لو كانت السماء نحاسا ، والأرض رصاصا ، واهتممت برزقي ، لظننت أني مشرك فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم في نفسه ، ويمكن الوصول إليه من قهر نفسه . وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل ، فإياك أن تجمع بين الإفلاسين ، الإفلاس عن وجود المقام ذوقا ، والإفلاس عن الإيمان به علما

فإذا عليك بالقناعة بالنذر القليل ، والرضا بالقوت فإنه يأتيك لا محالة وإن فررت منه وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدي من لا تحسب . فإن اشتغلت بالشغوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى ( وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ )<sup>(١)</sup> الآية إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائد الأطعمة فما ضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته . وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأن إلى ضمانه . فإن الذي أحاط به تدبير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق . بل مداخل الرزق لا تحصى ، ومجاريه لا يهتدى إليها ، وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه في السماء . قال الله تعالى ( وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ<sup>(٢)</sup> ) وأسرار السماء لا بطلع عليها . ولهذا دخل جماعة على الجنيد ، فقال ماذا تطلبون ؟ قالوا نطلب الرزق . فقال

(١) الطلاق : ١ ، ٢ (٢) التآريات : ٢٢



إن علمتم أي موضع هو قاطبوه. قالوا نسأل الله. قال إن علمتم أنه ينساكم فذكروه. فقالوا ندخل البيت ونتوكل وننظر ما يكون. فقال التوكل على التجربة شك. قالوا أفما الحيلة؟ قال ترك الحيلة. وقال أحمد بن عيسى الخراز: كنت في البادية فنانني جوع شديد، فغلبتني نفسي أن أسأل الله تعالى طعاما، فقلت ليس هذا من أفعال المتوكلين فطالبتني أن أسأل الله صبرا، فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بي ويقول

ويزعم أنه منا قريب وأنا لانضيق من أتنا  
وبسألنا على الإقتار جهدا كأننا لانراه ولا يرانا

فقد فهمت أن من انكسرت نفسه، وقوي قلبه، ولم يضمف بالجبن باطنه، وقوي إيمانه بتدبير الله تعالى، كان مطمئن النفس أبدا، واثقا بالله عز وجل. فإن أسوأ حاله أن يموت ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من ليس مطمئنا

فإذا تمام التوكل بقناعة من جانب، ووفاء بالمضمون من جانب. والذي ضمن رزق القانمين بهذه الأسباب التي دبرها صادق، فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما يرد عليك من الأرزاق المعجبية التي لم تكن في ظنك وحسابك. ولا تكن في توكلك منتظرا للأسباب، بل لمسبب الأسباب، كما لا تكون منتظرا لقلم الكاتب، بل لقلب الكاتب، فإنه أصل حركة القلم. والمحرك الأول واحد، فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه، وهذا شرط توكل من يخوض البوادي بلا زاد، أو يقعد في الأمصار وهو خامل

وأما الذي له ذكر بالعبادة والعلم، فإذا قنع في اليوم واليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان، وإن لم يكن من اللذائذ، وثوب خشن يليق بأهل الدين، فهذا يأتيه من حيث يحسب ولا يحسب على الدوام. بل يأتيه أضعافه. فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور، فإن اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار في حق الخامل مع الاكتساب. فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين، وهو بالعلماء أقيس، لأن شرطهم القناعة، والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه، إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه، فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل، ولم يكن له سير بالباطن. فإن للكسب بمنع عن السير بالفكر الباطن

فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى ، لأنه تفرغ لله عز وجل . وإعانة للمعطى على نيل الثواب .

ومن نظر إلى تجاري سنة الله تعالى ، علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب . ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكيماً عن الأحق المرزوق ، والعاقل المحروم ، فقال : أراد الصانع أن يدل على نفسه . إذ لو رزق كل عاقل ، وحرم كل أحمق ، لظن أن العقل رزق صاحبه . فلما رأى خلافه علموا أن الرزق غيرهم ، ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم . قال الشاعر

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلكن إذا من جهلن البهائم

## بيان

أحوال المتوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السُّؤال وقفوا في ميدان على باب قصر الملك ، وهم محتاجون إلى الطعام . فأخرج إليهم غلماناً كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز ، وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين رغيفين ، وبعضهم رغيفاً رغيفاً ، ويحتدوا في أن لا ينفلوا عن واحد منهم وأمر منادياً حتى نادى فيهم : أن اسكنوا ولا تعلقوا بغلمانى إذا خرجوا إليكم ، بل ينبغي أن يطمن كل واحد منكم في موضعه ، فإن الغلمان مسنزون وهم مأمورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم . فمن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين ، فإذا فتح باب الميدان وخرج أتبعته بغلام يكون موكلأ به ، إلى أن أتقدم لعقوبته في ميعاد معلوم عندي ولكن أخفيه . ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد آناه من يد الغلام ، وهو ساكن ، فإنى أختصه بخلمة سنية في الميعاد المذكور لعقوبة الآخر . ومن ثبت في مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ، ولا خلمة له . ومن أخطأه غلمانى فساوولوا إليه شيئاً ، فبات الليلة جائعاً غير متسخط للغلمان ، ولا قائلآيته أوصل إلى رغيفاً ، فإنى غداً أستوزره وأفوض ملكى إليه . فانقسم السُّؤال إلى أربعة أقسام ، قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الموعودة ، وقالوا من اليوم إلى غد فرج ، ونحن الآن جائعون ، فبادروا إلى الغلمان فأذوهم وأخذوا الرغيفين ، فسبقت العقوبة إليهم في الميعاد المذكور ، فندموا ولم ينفعهم الندم . وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ، ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع ، فساموا من العقوبة ، وما فازوا بالخلمة

وقسم قالوا إنا نجلس برأى من الغلمان حتى لا يخطئونا، ولسكن تأخذ إذا أعطونا رغيفا واحدا، وتقع به. فلعلنا نفوز بالخلعة، فنأزوا بالخلعة. . . وقسم رابع اختلفوا في زوايا الميدان، وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان، وقالوا إن اتبعونا وأعطونا قنمنا برغيف واحد، وإن أخطونا قاسينا شدة الجوع الليلة، فلعلنا نقوى على ترك النسخة، فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك، فما نفعهم ذلك، إذ اتبعهم الغلمان في كل زاوية، وأعطوا كل واحد رغيفا واحدا وجرى مثل ذلك أياما، حتى اتفق على الدور أن اختفى ثلاثة في زاوية، ولم تقع عليهم أبصار الغلمان، وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش، فباتوا في جوع شديد. فقال اثنان منهم: ليتنا تعرضنا للغلمان وأخذنا طعامنا، فليتنا نطيق الصبر. وسكت الثالث إلى الصباح، فنال درجة القرب والوزارة. . . فهذا مثال الخلق والميدان هو الحياة في الدنيا. وباب الميدان الموت. والميعاد المجهول يوم القيامة. والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للتوكل إذامات جائئا راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة، لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون. والمتعلق بالغلمان هو المعتدى في الأسباب. والغلمان المسخرون هم الأسباب. والجالس في ظاهر الميدان برأى الغلمان هم المقيمون في الأمصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون. والمختفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل، والأسباب تتبعهم، والرزق يأتيهم إلا على سبيل الدور. فإن مات واحد منهم جائئا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة، ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون، وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتغالهم، وساح في البوادي ثلاثة، وتسخط منهم اثنان، وفاز بالقرب واحد. ولعله كان كذلك في الأعصار السالفة. وأما الآن فالتارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف

الفن الثاني في التعرض لأسباب الادخار

فن حصل له مال يارث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب، فله في الادخار ثلاثة أحوال الأولى: أن يأخذ قدر حاجته في الوقت، فيأكل إن كان جائعا، ويلبس إن كان عاريا، ويشترى منسكنا مختصرا إن كان محتاجا، ويفرق الباقي في الحال، ولا يأخذه ولا يدخره

إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه ، فيدخره على هذه النية . فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقا ، وهي الدرجة العليا

الحالة الثانية: المقابلة لهذه ، المخرجة له عن حدود التوكل ، أن يدخر لسنة فافوتها ، فهذا ليس من المتوكلين أصلا . وقد قيل : لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة : الفأرة ، والخنزيرة ، وابن آدم الحالة الثالثة : أن يدخر لأربعين يوما فمادونها . فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين ؟ اختلفوا فيه . فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل وذهب الخواص إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ، ويخرج بما يزيد على الأربعين . وقال أبو طالب المنكي لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار . نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل . فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له . وكل ثواب موعود على رتبة فإنه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية . ويسمى أصحاب النهايات السابقين ، وأصحاب البدايات اليمين . ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات . وكذلك السابقون . وأعلى درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين ، فلامعنى للتقدير في مثل هذا . بل التحقيق أن التوكل بترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل . وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس ، فإن ذلك كالممتنع وجوده . أما الناس فتفاوتون في طول الأمل وقصره . وأقل درجات الأمل يوم وليلة فمادونه من الساعات . وأقصاه ما يتصور أن يكون صمر الإنسان . وبينهما درجات لا حصر لها . فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى المقصود ممن يؤمل سنة . وتقييده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد ، فإن تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار ما رخص الأمل فيه ؟ ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما ، لسرّ تجربته وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور ، كما قال عليه السلام « إِنَّ اللَّهَ <sup>(١)</sup> خَمَّرَ طِينَةَ آدَمَ بِيَدِهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا » لأن استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر

فإذا ما وراء السنة لا يدخر له إلا بحكم ضعف القلب والركون إلى ظاهري الأسباب ، فهو خارج

( ١ ) حديث خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسي بأسناد ضعيف جدا وهو باطل

عن مقام التوكل ، غير واثق بإحاطة التدبير من الوكيل الحق مخفيا الأسباب ، فإن أسبابه الدخل في الارتقاعات والزكوات تتكرر بتكرر السنين غالبا . ومن ادخر لأقل من سنة فله درجة بحسب قصر أمله . ومن كان أمله شهرين لم تسكن درجته كدرجة من أمل شهرا ، ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر ، بل هو بينهما في الرتبة . ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل ، فالأفضل أن لا يدخر أصلا وإن ضعف قلبه ، فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر . وقد روي في (١) الفقير الذي أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه وأسامه أن يغسله ، فغسله وكفناه ببردته ، فلما دفنه قال لأصحابه : « إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَلَوْ لَا خَصْلَةٌ كَانَتْ فِيهِ لَبِيعَتْ وَوَجْهُهُ كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ ، فَلَنَا وَمَاهِي بِرَسُولِ اللَّهِ ؟ قَالَ : كَانَ صَوَامًا قَرَامًا كَثِيرَ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا جَاءَ الشَّتَاءُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الصَّيْفِ لِيَصْفِيهِ وَإِذَا جَاءَ الصَّيْفُ ادَّخَرَ حُلَّةَ الشَّتَاءِ لِيَشْتَايَهُ » ثم قال صلى الله عليه وسلم : « بَلْ أَقْلُ مَا أُوتِيتُمْ أَلْيَقِينَ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ » الحديث . وليس الكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدرام في معنى ذلك فإن ادخاره لا ينقص الدرجة وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف . وهذا في حق من لا يزعج قلبه بترك الادخار ، ولا تستشرف نفسه إلى أيدي الخلق ، بل لا تلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق . فإن كان يستشعر في نفسه اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة ، والذكر ، والفكر ، فالادخار له أولى . بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها واقيا بقدر كفايته ، وكان لا يفرغ قلبه إلا به ، فذلك له أولى ، لأن المقصود إصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ، ورب شخص يشغله وجود المال ، ورب شخص يشغله عدمه . والمحذور ما يشغل من الله عز وجل وإلا فالدنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولا عدمها . ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق ، وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات ، فلم يأمر التاجر بترك تجارته ، ولا المحترف بترك حرفته ، ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما . بل دعا الكل إلى الله تعالى ، وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله .

( ١ ) حديث أنه قال في حق الفقير الذي أمر عليا أو أسامة فغسله وكفنه ببردته أنه يبعث يوم القيامة ووجهه

كالقمر ليلة البدر - الحديث : وفي آخره من أقول ما أتيتم اليقين وعزيمة الصبر لم أجده أصلا

وتقدم آخر الحديث قبل هذا

تعالى . وعمدة الاشتغال بالله تعالى عز وجل القناب فسوابب الضميف ادخار قدر حاجته  
كما أن صواب القوي ترك الادخار . وهذا كله حكم المنفرد

فأما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله ، جبرا لضعفهم ، وتستكيننا  
لقلوبهم . وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل ، لأن الأسباب تتكرر عند تكرار  
السنين . فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه ، وذلك يناقض قوة التوكل . فالتوكل  
عبارة عن موحد قوي القلب ، مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود  
الأسباب الظاهرة . وقد (١) ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة  
(٢) ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئا لغد . (٣) ونهى بلالا عن الادخار في كسرة  
خبز ادخرا ليفطر عليها فقال صلى الله عليه وسلم « أَتَفِقُ بِلَالًا وَلَا تَخْشَى مِنْ ذِي  
الْأَرْشِ إِفْلَاحًا » وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « إِذَا سُلِّتَ فَلَا تَمْنَعْ وَإِذَا أُعْطِيتَ فَلَا تَخْبَأْ »  
اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم (٥)

وقد كان قصر أمله بحيث كان إذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول « مَا يُدْرِي لَعَلِّي لَا أَتْلَفُهُ »  
وقد كان صلى الله عليه وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله ، إذ كان لا يثق بما ادخره  
ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعلما للأقوياء من أمته ، فإن أقوياء أمته ، ضعفاء بالإضافة إلى قوته  
وادخر عليه السلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفي عياله ، ولكن ليسن ذلك للضعفاء من  
أمته . بل أخبر (٦) أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، تطيبها لقلوب

( ١ ) حديث ادخر لعياله قوت سنة : متفق عليه وتقدم في الركاة

( ٢ ) حديث نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئا لغد : تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها

( ٣ ) حديث نهى بلالا عن الادخار وقال أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش إفلالا : البرار من حديث  
ابن مسعود وأبي هريرة وبلال دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صبر من غرة قال ذلك  
وروي أبو يعلى والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة وكأها ضعيفة وأما ما ذكره المصنف  
من أنه ادخر كسرة خبز فلم أراه

( ٤ ) حديث قال بلال إذا سللت فلا تمنع وأذا أعطيت فلا تخبأ : الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد وهو ثقة  
حديث أبي الله فقيرا قد تقدم

( ٥ ) حديث انه صلى الله عليه وسلم بال وتيمم مع قرب الماء ويقول ما يدري لعل لا أتلفه ان الدنيا في قصر  
الامل من حديث ابن عباس بسند ضعيف

( ٦ ) حديث ان الله يحب ان تؤتى رخصه - الحديث : أحمد والطبراني والبيهقي من حديث أم جهم وقد تقدم

الضعفاء ، حتى لا ينتهى بهم الضعف إلى اليأس والقنوط ، فيتركون الميسور من الخير عليهم  
بمعجزهم عن منتهى الدرجات ، فما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رحمة للعالمين كلهم  
على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم

وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر . ويدل عليه ما روى  
أبو (١) أمانة الباهلي : أن بعض أصحاب الصفة توفي فاجده كفن ، فقال صلى الله عليه وسلم  
« فَتَشُّوا ثَوْبَهُ » فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره . فقال صلى الله عليه وسلم « كَيْتَانِ »  
وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالا ولا يقول ذلك في حقه . وهذا يحتمل  
وجهين ، لأن حاله يحتمل حالين : أحدهما أنه أراد كيتين من النار ، كما قال تعالى ( تُكْوَى  
بِهَآ جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ) (١) وذلك إذا كان حاله إظهار الزهد والفقر والتوكل  
مع الإفلاس عنه ، فهو نوع تلبيس . والثاني أن لا يكون ذلك عن تلبيس ، فيكون للمعنى به  
النقصان عن درجة كماله ، كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه . وذلك لا يكون  
عن تلبيس ، فإن كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة ، إذ لا يؤتى أحد من  
الدنيا شيئا إلا نقص بقدره من الآخرة

وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن المدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل  
فيشهد له ما روى عن بشر ، قال الحسين المغازلي من أصحابه : كنت عنده ضحوة من النهار  
فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين ، فقام إليه بشر ، قال ومارأيتك قام لأحد غيره  
قال ودفع إلي كفا من دراهم وقال : اشترى لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب .  
وما قال لي قط مثل ذلك . قال فجئت بالطعام فوضعت فأكل معه ، ومارأيتك أكل مع غيره  
قال فأكلنا حاجتنا . وبقي من الطعام شيء كثير ، فأخذه الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه  
وانصرف . فعجبت من ذلك وكرهته له . فقال لي بشر : لعلك أنكرت فعلا ؟ قلت  
نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن . فقال ذاك أخونا فتح الموصلي ، زارنا اليوم من الموصل .

( ١ ) حديث أبي أمانة توفي بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم

كيتان أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه

فإن أراد أن يعلم أن الذوق إذا صح لم يضر موهبة الخار

الفن الثالث : في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف

اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال ، وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً أما في النفس فكالنوم في الأرض المسبعة ، أو في مجارى السبل من الوادى ، أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر ، فكل ذلك منهى عنه ، وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة . نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ، ومظنونة . وإلى موهومة . فترك الموهوم منها من شرط التوكل ، وهي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكي والرقية ، فإن الكي والرقية قد يقدم به المحذور دفعا لما يتوقع . وقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف المتوكلين إلا بترك الكي والرقية والطيرة ، ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبة ، والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع ، وكذلك كل مافى معناها من الأسباب . نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلاً عند الخروج إلى السفر في الشتاء تهيجاً لقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في الأسباب ، والتعميل عليها . فيكاد يقرب من التكي بخلاف الجبة

ولترك الأسباب الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان ، فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفي . فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال الله تعالى (فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ<sup>(١)</sup>) وقال تعالى (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ<sup>(٢)</sup>) وقال عز وجل (وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ<sup>(٣)</sup>) وقال سبحانه وتعالى (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُ أُولُوا الْأَرْزَامِ مِنَ الرُّسُلِ<sup>(٤)</sup>) وقال تعالى (نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ<sup>(٥)</sup>) وهذا في أذى الناس

وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب ، فترك دفعها ليس من التوكل في شيء . إذ لا فائدة فيه . ولا يراد السعي ولا يترك السعي لعينه بل لإعانتة على الدين . وترتب الأسباب ههنا كترتيبها في الكسب وجلب المنافع ، فلا تطول بالإعادة وكذلك في الأسباب الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند

(١) الزمل : ٩ ، ١٠ (٢) إبراهيم : ١٢ (٣) الأحزاب : ٤٨ (٤) الأحقاف : ٣٥ (٥) العنكبوت : ٥٨ ، ٥٩



الخروج ، ولا بأن يعقل البعير ، لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى إما قطعاً وإما ظناً ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أتاه أهل البعير وقال توكلت على الله <sup>(١)</sup> « اعقلها وتوكل » وقال تعالى ( خُذُوا حِذْرَكُمْ <sup>(٢)</sup> ) وقال في كيفية صلاة الخوف ( وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ <sup>(٣)</sup> ) وقال سبحانه ( وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَقْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ <sup>(٤)</sup> ) وقال تعالى لموسى عليه السلام ( فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا <sup>(٥)</sup> ) والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب <sup>(٦)</sup> واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر . وأخذ السلاح في الصلاة ليس دافعا قطعاً كقتل الحية والمقرب فإنه دافع قطعاً . ولكن أخذ السلاح سبب مظنون ، وقد بينا أن المظنون كالمقطوع ، وإعما الموهوم هو الذي يقتضى التوكل تركه

فإن قلت . فقد حكى عن جماعة أن منهم من وضع الأسد يده على كتفه ولم يتحرك ، فأقول وقد حكى عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه ، فلا ينبغي أن يترك ذلك المقام فإنه وإن كان صحيحاً في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير ، بل ذلك مقام رفيع في الكرامات ، وليس ذلك شرطاً في التوكل ، وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها

فإن قلت : وهل من علامة أعلم بها أنى قد وصلت إليها  
فأقول الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه أن يسخر لك كلب هو معك في إهابك يسمى الغضب ، فلا يزال يعضك ويمض غيرك فإن سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يستشل إلا بإشارتك ، وكان مسخراً لك ، فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذي هو ملك السباع . وكلب دارك أولى بأن يكون مسخراً لك من كلب البوادي ، وكلب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك . فإذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع في استسغار الكلب الظاهر

( ١ ) حديث اعقلها وتوكل : الترمذى من حديث أنس قال يحيى القطان منكر ورواه ابن خزيمة في التوكل والطبرانى من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد قيدها  
( ٢ ) حديث اختفى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعين الأعداء دفعا للضرر تقدم في قصة اختفائه في الغار عند ارادة الهجرة

( ٢٠١ ) النساء : ١٠٢ ( ٣ ) الانفال : ٦٠ ( ١ ) الدخان : ٣٣

فإن قلت فإذا أخذ التوكل سلاحه حذرا من العدو ، وأغلق باب حذرا من اللص ، وعقل بعيره حذرا من أن ينطلق ، فبأي اعتبار يكون متوكلا فأقول يكون متوكلا بالعلم والحال فأما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب ، بل لم يندفع إلا بدفع الله تعالى إياه . فكسكم من باب يغلق ولا يندفع ، وكسكم من بعير يقتل ويحرق أو يفلت ، وكسكم من أخذ سلاحه يقتل أو يغلب . فلا تتسكل على هذه الأسباب أصلا ، بل على مسبب الأسباب كما ضربنا المثل في الوكيل في المصومة ، فإنه إن حضر وأحضر السجل فلا يتسكل على نفسه وسجله ، بل على كفاية الوكيل وقوته

وأما الحال فهو أن يكون راضيا بما يقضى الله تعالى به في دينه ونفسه ، ويقول : اللهم إن سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو في سبيك ، وأنا راض بحكمك ، فإني لأدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها ، أو عارية ووديعه فتستردها ، ولأدري أنه رزقي أو سبقت مشيتك في الأزل بأنه رزقي غيري ، وكيفما قضيت فأنا راض به ، وما أغلقت الباب تحصنا من فضائك وتسخطاله ، بل جريا على مقتضى سننك في ترتيب الأسباب ، فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب . فإذا كان هذا حاله ، وذلك الذي ذكرناه علمه ، لم يخرج عن حدود التوكل بقل البعير ، وأخذ السلاح ، وإغلاق الباب . ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت ، فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى . وإن لم يجده بل وجد مسروقا نظر إلى قلبه ، فإن وجد راضيا أو فرحا بذلك علما أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة ، فقد صح مقامه في التوكل ، وظهر له صدقه . وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر ، فقد بان له أنه ما كان صادقا في دعوى التوكل ، لأن التوكل مقام بعد الزهد ؛ ولا يصح الزهد إلا لمن لا يتأسف على مافات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي ، بل يكون على العكس منه فكيف يصح له التوكل ! نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكواه ، ولم يسكن سعيه في الطلب والتجسس . وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه ، وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب بيدنه ، فقد كانت السرقة مزيداله في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع المقامات ، وكذب في جميع الدعاوى فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاويها ، ولا يتدلى بحبل غرورها ، فإنها خداعة ، أمارة بالسوء ، مدعية للخير

فإن قلت : فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ؟ فأقول المتوكل لا يخلو بيته من متاع  
كقصعة يأكل فيها ، وكوز يشرب منه ، وإناء يتوضأ منه ، وجراب يحفظ به زاده ، وعصا  
يدفع بها عدوه ، وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت . وقد يدخل في يده مال  
وهو يسكه ليجد محتاجا فيصرفه إليه ، فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله وليس  
من شرط التوكل إخراج الكوز الذى يشرب منه ، والجراب الذى فيه زاده ، وإنما  
ذلك فى المأكل ، وفى كل مال زائد على قدر الضرورة . لأن سنة الله جارية بوصول الخير  
إلى الفقراء المتوكلين فى زوايا المساجد ، وما جرت السنة بتفرقة السكينان والأمتعة فى كل يوم  
ولا فى كل أسبوع . والمخرج عن سنة الله عز وجل ليس شرطا فى التوكل . ولذلك كان  
الخواص يأخذ فى السفر الحبل ، والركوة ، والمقراض ، والإبرة دون الزاد ، لكن سنة الله  
تعالى جارية بالفرق بين الأمرين . فإن قلت : فكيف يتصور أن لا يحزن إذا أخذ متاعه  
الذى هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه ، فإن كان لا يشتهي فلم أمسكه ، وأغلق الباب عليه ؟  
وإن كان أمسكه لأنه يشتهي حاجته إليه ، فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حبل بينه  
وبين ما يشتهي؟ . فأقول إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه ، إذ كان يظن أن الخير له  
فى أن يكون له ذلك المتاع . ولولا أن الخير له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه . فاستدل  
على ذلك بتيسير الله عز وجل ، وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب  
دينه ، ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به ، إذ يحتمل أن تكون خيرته فى أن يتلى بفقره ذلك  
حتى ينصب فى تحصيل غرضه ، ويكون ثوابه فى النصب والتمسك أكثر . فلما أخذه الله  
تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه ، لأنه فى جميع الأحوال واثق بالله ، حسن الظن به . فيقول لولا أن  
الله عز وجل علم أن الخير كانت فى وجودها إلى الآن والخير إلى الآن فى عدمها لما أخذها منى .  
فبمثل هذا الظن يتصور أن يندفع عنه الحزن ، إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب  
من حيث إنها أسباب ، بل من حيث إنه يسرها مسبب الأسباب عناية وتلطفا . وهو  
كالمرضى بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله ، فإن قدم إليه الغذاء فرح وقال : لولا  
أنه يعرف أن الغذاء ينفعنى وقد قويت على احتماله لما قر به إلي . وإن أخر عنه الغذاء بعد

ذلك أيضا فرح وقال : لولا أن الغذاء يضرني ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه . وكل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقد المريض في الوالد المشفق الحاذق بعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى ، وعرف أفعاله ، وعرف سنته في إصلاح عباده ، لم يكن فرحه بالأسباب ، فإنه لا يدري أي الأسباب خير له ، كما قال عمر رضي الله عنه : لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا ، فإني لأدري أيهما خير لي . فكذلك ينبغي أن لا يبالي المتوكل يسرق متاعه ، أو لا يسرق ، فإنه لا يدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة ، فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الإنسان ، وكم من غني يتلى بواقعة لأجل غناه يقول ياليتني كنت فقيرا

## بيان

آداب المتوكلين إذا سرق متاعهم

للمتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه الأول : أن يفلق الباب ، ولا يستقصي في أسباب الحفظ . كالتماسه من الجيران الحفظ مع النفاق ، وجمعه أغلاقا كثيرة . فقد كان مالك بن دينار لا يفلق بابه ، ولكن يشده بشريط ويقول . لولا الكلاب ما شدته أيضا

الثاني : أن لا يترك في البيت متاعا يحرض عليه السارق ، فيكون هو سبب معصيتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم . ولذلك لما أهدى المغيرة إلى مالك بن دينار ركة قال خذها لا حاجة لي إليها . قال لم ؟ قال يوسوس إلي العدو أن اللص أخذها . فكانه احتراز من أن يعصى السارق ، ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها . ولذلك قال أبو سليمان : هذا من ضعف قلوب الصوفية . هذا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها !

الثالث : أن ما يضطر إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه ، ويقول . ما يأخذه السارق فهو منه في حل . أو هو في سبيل الله تعالى ، وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة . وإن لم يشترط الفقر فهو أولى . فيكون له نيتان لو أخذه غني أو فقير ، إحداها : أن يكون ماله مانعا له من المعصية ، فإنه ربما يستغنى به فيتوانى عن السرقة بعهده ، وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جملة في حل ،

والثانية: أن لا يظلم مسلماً آخر، فبكونه ماله فداء لمال مسلم آخر . وبها ينوي حراسة مال غيره بمال نفسه ، أو ينوي دفع المعصية عن السارق ، أو تخفيفها عليه ، فقد نصح للمسلمين ، وامتلئ قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « اَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » ونصر الظالم أن نمنه من الظلم ، وعفوه عنه لإعدام للظلم ومنع له . وليتحقق أن هذه النية لا تنصره بوجه من الوجوه . إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويغير القضاء الأزلي ، ولكن يتحقق بالزهد نيته ، فإن أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم، لأنه نواه وقصده، وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضاً؛ كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> فيمن ترك العزل فأقرّ النطفة قرارها أن له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع ، وعاش ، فقتل في سبيل الله تعالى ، وإن لم يولد له لأنه ليس أمر الولد إلا الوفاق . فأما الخلق ، والحياة ، والرزق ، والبقاء فليس إليه . فلو خلق لكان ثوابه على فعله ، وفعله لم ينعدم ، فكذلك أمر السرقة

الرابع : أنه إذا وجد المال مسروقاً فينبغي أن لا يحزن ، بل يفرح إن أمكنه ويقول: لو لا أن الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى . ثم إن لم يكن قد جمعه في سبيل الله عز وجل فلا يلانح في طلبه ، وفي إساءة الظن بالمسلمين . وإن كان قد جمعه في سبيل الله فيترك طلبه ، فإنه قد قدّمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة . فإن أعيد عليه فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جمعه في سبيل الله عز وجل . وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم ، لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية . ولكنه غير محبوب عند المتوكلين . وقد روي أن ابن عمر سرقت نافته فطلبها حتى أعيأ ، ثم قال: في سبيل الله تعالى . فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين ، فجاءه رجل فقتل: يا أبا عبد الرحمن ، إن نافتك في مكان كذا . فلبس نعله وقام ، ثم قال أستغفر الله وجلس . فقيل له ألا تذهب فتأخذها ؟ فقال إني كنت قلت في سبيل الله

وقال بعض الشيوخ : رأيت بعض إخواني في النوم بعد موته ، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال غفر لي وأدخلني الجنة ، وعرض عليّ منازل فيها فرأيتها . قال وهو مع ذلك كئيب حزين ، فقلت قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين ، فتنفس الصعداء ثم قال : نعم إني

( ١ ) حديث انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً: متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم

( ٢ ) حديث من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام - الحديث : لم أجده أصلاً

لا أزال حزينا إلى يوم القيامة . قلت ولم ؛ قال إني لما رأيت منازل في الجنة ، رفعت لى مقامات في عاين ما رأيت مثلها فيما رأيت ، فقرحت بها ، فلما هممت بدخولها نادى مناد من فوقها صر فوه عنها ، فليست هذه له ، إنما هي لمن أمضى السبيل . فقلت وما أمضاء السبيل ؟ فقيل لى كنت تقول للشيء إنه فى سبيل الله ، ثم ترجع فيه . فلو كنت أمضيت السبيل لأمضينا لك وحكي عن بعض العباد بحكمة أنه كان نائما إلى جنب رجل معه هميانه ، فانتبه الرجل ففقد هميانه ، فأتهم به ، فقال له كم كان فى هميانك ؟ فذكر له . فحمله إلى البيت ووزنه من عنده ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهيمان مزحاه معه ، فجاء هو وأصحابه معه ، وردوا الذهب ، فأبى وقال : خذه حلالا طيبا ، فما كنت لأعود فى مال أخرجه فى سبيل الله عز وجل ، فلم يقبل ، فألحوا عليه ، فدعا ابنه له ، وجعل يصره صررا ويبعث بها إلى الفقراء ، حتى لم يبق منه شيء . . . فهكذا كانت أخلاق السلف . وكذلك من أخذ رغبنا ليعطيه فقيرا فغاب عنه ؛ كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجة ، فيعطيه فقيرا آخر . وكذلك يفعل فى الدرام والدنانير وسائر الصدقات .

الخامس : وهو أقل الدرجات ، أن لا يدعو على السارق الذى ظلمه بالآخذ . فإن فعل بطل توكله ، ودل ذلك على كراهته وتأسفه على ما فات ، وبطل زهده . ولو بالغ فيه بطل أجره أيضا فإيا أصيب به . فى الخبر (١) « مَنْ دَعَا عَلَى ظَالِمٍ فَقَدْ أَنْتَصَرَ » . وحكى أن الربيع بن خثيم سرق فرس له ، وكان قيمته عشرين ألفا ، وكان قائما يصلى فلم يقطع صلاته ، ولم ينزعج لطلبه . فجاءه قوم يمزونه فقال . أما إني قد كنت رأيتك وهو يحمله . قيل وما منعك أن ترجره ؟ قال كنت فيما هو أحب إلي من ذلك ، يعنى الصلاة فجعلوا يدعون عليه ، فقال لا تفعلوا وقولوا خيرا ، فإني قد جعلتها صدقة عليه .

وقيل لبعضهم فى شيء قد كان سرق له : ألا ندعو على ظالمك ؟ قال ما أحب أن أكون هونا للشيطان عليه . قيل أرأيت لو رد عليك ؟ قال لا آخذه ولا أنظر إليه ، لأنى كنت قد أحلته له . وقيل لآخر . ادع الله على ظالمك . فقال ما ظلمنى أحد . ثم قال إنما ظلم نفسه . ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيدة شره . . . وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف .

في ظلمه ، فقال لا تفرق في شتمه ، فإن الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه ، كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه . وفي الخبر <sup>(١)</sup> « إِنْ أَلْعَبَ لَيُظْلَمَ الظَّالِمَةُ فَلَا يَزَالُ يَشْتَمُ ظَالِمُهُ وَيَسُبُّهُ حَتَّى يَكُونَ بِمَقْدَارِ مَا ظَلَمَهُ ثُمَّ يَبْقَى لِلظَّالِمِ عَلَيْهِ مُطَالَبَةٌ بِمَا زَادَ عَلَيْهِ يُنْتَقَصُ لَهُ مِنْ الْمَظْلُومِ »

السادس : أن يفهم لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله تعالى ، ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما ، وجعل ذلك تقصا في دنياه لا تقصا في دينه . فقد شكى بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله ، فقال . إن لم يكن لك غم أنه قد صار في المسامين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين . وسرق من علي بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت ، فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن ، فقال . أهلك الدنانير تبكي ؟ فقال لا والله ولكن على المسكين أن يسأل يوم القيامة ولا تكون له حجة . وقيل لبعضهم . ادع على من ظلمك ، فقال . إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه . فهذا أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين

الفن الرابع : في السعي في إزالة الضرر كدواوة المرض وأمثاله

اعلم أن الأسباب المزيل للمرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالماء للزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع ، وإلى مظنون كالفصد ، والحجامة ، وشرب الدواء المسهل ، وسائر أبواب الطب ، أعني معالجة البرودة بالحرارة ، والحرارة بالبرودة ، وهي الأسباب الظاهرة في الطب ، وإلى موهوم كالسكي والرقية .

أما المقطوع فليس من التوكل تركه ، بل تركه حرام عند خوف الموت

وأما الموهوم فشرط التوكل تركه ، إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين وأقواها السكي ، ويليهِ الرقية ، والطيرة آخر درجاتها ، والاعتماد عليها ، والاتكال إليها غاية التعق في ملاحظة الأسباب . وأما الدرجة المتوسطة وهي المظنونة ، كالدواوة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء ، ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم ، وتركه ليس

( ١ ) حديث ان العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة - الحديث : تقدم

محظورا بخلاف المقطوع ، بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الاحوال وفي بعض الأشخاص ، فهي على درجة بين الدرجتين . ويدل على أن التداوي غير منافض للتوكل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله ، وأمره به

أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَا مِنْ دَاءٍ إِلَّا وَلَهُ دَوَاءٌ عَرَفَهُ مَنْ عَرَفَهُ وَجَهَلَهُ مَنْ جَهَلَهُ إِلَّا السَّامُ » يعني الموت ؛ وقال عليه السلام <sup>(٢)</sup> « تَدَاوُوا عِبَادَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الدَّاءَ وَالذَّوَاءَ » <sup>(٣)</sup> وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال « هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ » وفي الخبر المشهور <sup>(٤)</sup> « مَا مَرَزْتُ بِمَلَأٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَرُ أَمْتِكَ بِالْحِجَامَةِ » وفي الحديث أنه أمر بها وقال <sup>(٥)</sup> « احْتَجِمُوا لِسَبْعِ عَشْرَةَ وَتِسْعِ عَشْرَةَ وَإِحْدَى وَعِشْرِينَ لَا يَبْيِغُ بِكُمْ الدَّمُ فَيَقْتُلَكُمْ » فذكر أن تبغ الدم سبب الموت ، وأنه قاتل بإذن الله تعالى ، وبين أن إخراج الدم خلاص منه ، إذ لا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج العقرب من تحت الثياب ، وإخراج الحية من البيت ، وليس من شرط التوكل ترك ذلك ، بل هو كسب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت ، وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلا . وفي خبر مقطوع <sup>(٦)</sup> « مَنْ احْتَجَمَ يَوْمَ

( ١ ) حديث ما من داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام : أحمد والطبراني من حديث

ابن مسعود دون قوله إلا السام وهو عند ابن تاحه مختصرا دون قوله عرفه إلى آخره . وإسناده حسن وللتريدي وصححه من حديث أسامة بن شريك الأحمري والطبراني في الأوسط والبخاري

من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندها ضعيف والبخاري من حديث أبي هريرة ما أنزل الله داء الأنزل له شفاء ولمسلم من حديث جابر لئكل داء دواء

( ٢ ) حديث تداووا عباد الله : الترمذي وصححه وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك

( ٣ ) حديث سئل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله فقال الله تعالى من قدر الله : الترمذي وابن ماجه من حديث

أبي خزيمة وقيل عن أبي خزيمة عن أبيه قال الترمذي وهذا أصح

( ٤ ) حديث ما مررت بملا من الملائكة إلا قالوا من أمك بالحجامة . الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن

غريب ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف

( ٥ ) حديث احتجموا لسبع عشرة وتسعة عشرة وأحدى وعشرين . الحديث : البخاري من حديث ابن عباس

بسند حسن موقوفا ورفع الترمذي بلفظ ان خير ما تحتجمون فيه سبع عشرة - الحديث :

دون ذكر القبيح وقال حسن غريب وقال البخاري ان طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق

ولا يبين حاجه من حديث أنس بسند ضعيف من أراد الحجامة فليتحجر سبعة عشر - الحديث :

( ٦ ) حديث من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء سنة : الطبراني من حديث معقل



الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة «  
وأما (١) أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى وبالجمية (٢)  
وقطع لسعد بن معاذ عرقاً أي فصده (٣) وكوى سعد بن زرارة (٤) وقال لعلي رضي الله  
تعالى عنه وكان رميد العين « لَا تَأْكُلْ مِنْ هَذَا » يعني الرطب « وَكُلْ مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ أَوْفَقُ  
لَكَ » يعني سلقاً قد طبخ بدقيق شعير (٥) وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع  
العين « تَأْكُلْ تَمَرًا وَأَنْتَ أَرْمَدُ » فقال إني آكل من الجانب الآخر فتبسم صلى الله عليه وسلم  
وأما فعله عليه الصلاة والسلام ، فقد روي في حديث (٦) من طريق أهل البيت أنه كان  
يكتحل كل ليلة ، ويحتجم كل شهر ، ويشرب الدواء كل سنة . قيل السنة المكي (٧) وتداوى  
صلى الله عليه وسلم غير مرة من العقرب وغيرها . وروي أنه (٨) كان إذا نزل عليه الوحي

بن يسار وابن جبان في الضعفاء من حديث أنس واسنادها واحد اختلف على روايه في الصحابي  
وكلاهما فيه زيد العلي وهو ضعيف

( ١ ) حديث أمره بالتداوى لغير واحد من الصحابة : الترمذي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك انه قال

للاعراب حين سألوه تداؤوا - الحديث : وسبأني في قصة علي وصهيب في الجمية بعده

( ٢ ) حديث قطع عرق السعد بن معاذ : مسلم من حديث جابر قال روي سعد في أكله لحمة النبي صلى الله  
عليه وسلم بيده بمشقة - الحديث :

( ٣ ) حديث انه كوى أسعد بن زرارة : الطبراني من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ومن حديث أبي أسامة  
ابن سهل بن حنيف دون ذكر سهل

( ٤ ) حديث قال لعلي وكان رمداً لا تأكل من هذا - الحديث : أبو داود والترمذي وقال حسن غريب

وابن ماجه من حديث أم المنذر

( ٥ ) حديث قال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمرًا وأنت رمدم - الحديث : تقدم في آفات اللسان

( ٦ ) حديث من طريق أهل البيت انه كان يكتحل بكل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة : ابن عدي

من حديث عائشة وقال انه منكر وفيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين

( ٧ ) حديث انه تداوى غير مرة من العقرب وغيرها . الطبراني باسناد حسن من حديث جبلة بن الأزرق  
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عقرب فغشى عليه فرأه الناس - الحديث : وله في الأوسط

من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى تغمغ  
كفاً من شونيز ويشرب عليه ماء وعسلاً ولا يبي يعلو والطبراني في الكبير من حديث عبد الله  
ابن جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بعد ماسم وفيه جابر الجعفي ضعه الجمهور

( ٨ ) حديث كان إذا نزل عليه الوحي صدعه رأسه فيغلفه بالخناء : البزار وابن عدي في الكامل من حديث

أبي هريرة وقد اختلف في اسناده على الاحوص بن حكيم كان إذا خرجت به فرحة جعل عليها

حناء الترمذي وابن ماجه من حديث ساسي قال الترمذي غريب

مصدق رأسه ، فكان يذاهه بالرجال . وفي خبر آخر كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء وقد جعل على قرحة خرجت به ترابا

وماروي في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر ، وقد صنف في ذلك كتاب وسمى طلب النبي صلى الله عليه وسلم . وذكر بعض العلماء في الإسرائيليات أن موسى عليه السلام اعتل بعلة ، فدخل عليه بنو إسرائيل ففرقوا عاتيه ، فقالوا له لو تدأويت بكذا لبرئت . فقال لا تدأوى حتى يعافيني هو من غير دواء . فمثالت عاتيه . فقالوا له . إن دواء هذه العلة معروف مجرب ، وإنا نتدأوى به فنبراً . فقال لا تدأوى . وأقامت عاتيه ، فأوحى الله تعالى إليه : وعزني وجلالي لأبرئك حتى تتدأوى بما ذكره لك . فقال لهم : داووني بما ذكرتم فدأوه فبرأ . فأوحى الله تعالى إليه : أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك علي ، من أودع العقاقير منافع الأشياء غيري ؟

وروي في خبر آخر ، أن نبياً من الأنبياء عليهم السلام شكاه علة يجدها فأوحى الله تعالى إليه : كل البيض . وشكاه في آخر الضعف ، فأوحى الله تعالى إليه : كل اللحم باللبن ، فإن فيهما القوة . قيل هو الضعف عن الجماع . وقد روي أن قوماً شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى إليهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل ، فإنه يحسن الولد ، ويفعل ذلك في الشهر الثالث والرابع ، إذ فيه يصور الله تعالى الولد . وقد كانوا يطعمون الحبالى السفرجل ، والنفساء الرطب . فبهذا تبين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهاراً للحكمة . والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كمائر الأسباب . فكما أن الخبز دواء الجوع ، والماء دواء العطش . فالسكنجبين دواء الصفراء ، والسقمونيا دواء الإسهال ، لا يفارقه إلا في أحد أمرين

أحدهما : أن معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جلي واضح ، يدركه كافة الناس ، ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص . فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق في حقه بالأول

( ١ ) حديث جعل على قرحة خرجت بيده ترابا : البخارى ومسلم من حديث عائشة كان إذا اشتكى الإنسان

الذى منه أو كانت قرحة أو جرح قال النبي صلى الله عليه وسلم بيده هكذا ووضع سفيان ابن عيينة الراوى سبأته بالأرض ثم رفعها وقال بسم الله تراب أرضنا وريقة بعضنا شقى سقيمنا

والثاني : أن الدواء يسهل ، والسبب كجيبين يسكن الصفراء بشروط آخر في الباطن .  
 وأسباب في المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها ، وربما يفوت بعض الشروط ،  
 فيتقاعد الدواء عن الإسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعي سوى الماء شروطا كثيرة  
 وقد يتفق من العوارض ما يوجب دوام العطش مع كثرة شرب الماء ، ولما كان نادرا  
 واختلال الأسباب أبدا ينحصر في هذين الشيئين . وإلا فالسبب يتوارى السبب لا محالة  
 مهما تمت شروط السبب . وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره وترتيبه ، بحكم  
 حكمته وكمال قدرته . فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون العلل  
 والدواء ؛ فقد روي عن موسى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يارب ممن الداء والدواء ؟ فقال  
 تعالى مني . قال فما يصنع الأطباء ؟ قال يأكلون أرزاقهم ويمسحون بقرص يبادي حتى يأتي  
 شفائي أو قضائي . فإذا منى التوكل مع التداوي التوكل بالعلم والحال كما سبق في فنون  
 الأعمال الدافعة للضرر ، الجالبة للنفع . فأما ترك التداوي رأسا فليس شرطا فيسببه  
 فإن قلت : فالكي أيضا من الأسباب الظاهرة للنفع . فأقول ليس كذلك .  
 إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد ، والحجامة ، وشرب المسهل ، وسقي المبردات للحرورة  
 وأما الكي فالوكان مثلها في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه . وقاما يعتاد الكي في أكثر  
 البلاد . وإنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب . فهذا من الأسباب الموهومة كالرق ، إلا  
 أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار في الحال مع الاستغناء عنه ، فإنه ما من وجع يعالج  
 بالكي إلا وله دواء يغني عنه ليس فيه إحراق . فالإحراق بالنار جرح غريب للبنية ، محذور  
 السراية مع الاستغناء عنه ، بخلاف الفصد والحجامة فإن سرائتهما بعيدة ، ولا يسد مسدهما غيرهما  
 ولذلك <sup>(١)</sup> نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكي دون الرق ، وكل واحد  
 منهما بعيد عن التوكل . وروي أن عمران بن الحصين اعتل ، فأشاروا عليه بالكي  
 فامتنع . فلم يزالوا به ، وعزم عليه الأمر حتى اكتوى . فكان يقول . كنت أرى نورا ،

(١) حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكي دون الرق : البخاري من حديث ابن عباس وأنه منى عن  
 الكي وفي الصحيحين من حديث عائشة رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرقية من كل ذي حمة

وأسمع صوتنا، وتسلم عليّ الملائكة، فلما اكتويت انقطع ذلك عني. وكان يقول: اكتبونا كيات، فوالله ما أفلحت ولا أنجحت. ثم تاب من ذلك وأتاب إلى الله تعالى، فرد الله تعالى عليه ما كان يجد من أمر الملائكة. وقال لمطرف بن عبد الله. ألم تر إلى الملائكة التي كان أكرمني الله بها قد ردها الله تعالى عليّ بعد أن كان أخبره بفقدها

فإذاً السكي وما يجري مجراه هو الذي لا يليق بالمتوكل، لأنه يحتاج في استنباطه إلى تدبير، ثم هو مذموم ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التعمق فيها، والله أعلم

## بيان

أن ترك التدوي قد يحمّد في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل  
وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن الذين تداؤوا من السلف لا ينحسرون. ولكن قد ترك التدوي أيضا جماعة من الأكابر. فربما يظن أن ذلك نقصان لأنه لو كان كمالا لتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ لا يكون حال غيره في التوكل أكمل من حاله. وقد زوي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قيل له. لو دعونا لك طبيا؟ فقال. الطبيب قد نظر إليّ وقال إني فعال لما أريد وقيل لأبي الدرداء في مرضه. ما تشكي؟ قال ذنوبي. قيل فما تشتهي؟ قال مغفرة ربي قالوا. ألا ندعوك طبيا؟ قال الطبيب أمرضني. وقيل لأبي ذر وقد رمدت عيناه. لو داويتهما؟ قال. إني عنهما مشغول. فقيل له: لو سألت الله تعالى أن يعافيك؟ فقال: أسأله فيما هو أم عليّ منهما. وكان الربيع بن خثيم أصابه فالج، فقيل له. لو تداويت؟ فقال قد هممت ثم ذكرت عادا وعمود وأصحاب الرس، وقرونا بين ذلك كثيرا، وكان فيهم الأطباء فهلك المداوي والمداوي، ولم تن الرق شيئا. وكان أحمد بن حنبل يقول. أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التدوي من شرب الدواء وغيره. وكان به علل فلا يخبر الطبيب بها أيضا إذا سأله. وقيل لسهل. متى يصح للعبد التوكل؟ قال إذا دخل عليه الضر في جسمه، والنقص في ماله، فلم يلتفت إليه شغلا بحاله، وينظر إلى قيام الله تعالى عليه فإذا منهم من ترك التدوي وراءه، ومنهم من كرهه. ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعالهم إلا بحصر الصوارف عن التدوي

فنقول . إن ترك التداوى أسبابا

السبب الأول : أن يكون المريض من المكاشفين ، وقد كوشف بأنه انتهى أجله ، وأن الدواء لا ينفعه . ويكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة ، وتارة بحس و ظن ، وتارة بكشف محقق . ويشبه أن يكون ترك الصديق رضي الله عنه التداوى من هذا السبب ، فإنه كان من المكاشفين ، فإنه قال لمائشة رضي الله عنها في أمر الميراث . إنما هن أختك ، وإنما كان لها أخت واحدة ، ولكن كانت امرأتها حاملا فولدت أُنثى ، فلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأنثى ، فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بانتهاء أجله . وإلا فلا يظن به إنكار التداوى وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به

السبب الثاني : أن يكون المريض مشغولا بحاله ، وبخوف عاقبته ، وإطلاع الله تعالى عليه ، فينسيه ذلك ألم المرض ، فلا يتفرغ قلبه للتداوى مشغولا بحاله . وعليه يدل كلام أبي ذر إذ قال . إني عنهما مشغول ، وكلام أبي الدرداء إذ قال : إنما أشتكى ذنوبي . فكان تألم قلبه خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض . ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته أو كالمخائف الذي يحمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له ألا تأكل وأنت جائع ؟ فيقول أما مشغول عن ألم الجوع . فلا يكون ذلك إنكارا لكون الأكل نافعا من الجوع ، ولا طمنا فيمن أكل . . . . . ويقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له : ما القوت ؟ فقال هو ذكر الحبي القيوم . فقيل إنما سألناك عن القوام . فقال القوام هو العلم . قيل سألناك عن الغذاء . قال الغذاء هو الذكر . قيل سألناك عن طعمة الحسد قال مالك والمجدد ! دع من تولاه أولاً يتولاه آخرا ، إذا دخل عليه علة فردّه إلى صانه . أما رأيت الصنعة إذا عييت ردوها إلى صانعيها حتى يصلحها

السبب الثالث : أن تكون الملة مزمنة ، والدواء الذي يؤمر به بالإضافة إلى علته موهوم النفع ، جار مجرى السكي والرقية ، فيتركه المتوكل . وإليه يشير قول الربيع بن خثيم إذ قال ذكرت عادا ونمود وفيهم الأطباء ، فهلك المداوى والمداوى . أى أن الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك في نفسه ، وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب ، وقلة تجربته له ، فلا يثلب على ظنه كونه نافعا . ولا شك في أن الطبيب المجرب أشد اعتقادا

في الأدوية من غيره ، فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد ، والاعتقاد بحسب التجربة .  
وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد هذا مستندهم ، لأنه يبقى الدواء عنده شيئاً  
موهوماً لأصله ، وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب ، غير صحيح  
في البعض . ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظراً واحداً ، فيرى التداوى تعمقاً  
في الأسباب كالكي والرقي ، فيتركه توكلًا

السبب الرابع : أن يقصد العبد بترك التداوى استبقاء المرض ، لينال ثواب المرض  
بحسن الصبر على بلاء الله تعالى ، أو ليحرب نفسه في القدرة على الصبر . فقد ورد في ثواب  
المرض ما يكثر ذكره ، فقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ  
بَلَاءً ثُمَّ الْأُمَثَلُ فَلَا مَثَلُ يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى قَدَرِ إِيْمَانِهِ فَإِنْ كَانَ صَلَبَ الْإِيْمَانِ شَدَّدَ عَلَيْهِ  
الْبَلَاءُ وَإِنْ كَانَ فِي إِيْمَانِهِ ضَعْفٌ خَفَّفَ عَنْهُ الْبَلَاءُ » وفي الخبر <sup>(٢)</sup> « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُجَرِّبُ  
عَبْدَهُ بِالْبَلَاءِ كَمَا يُجَرِّبُ أَحَدَكُمْ ذَهَبَهُ بِالنَّارِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ كَالذَّهَبِ الْبَرِيزِ لَا يَرْبُدُ  
وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْرُجُ أَسْوَدَ مُحْتَرَقًا »

وفي حديث <sup>(٣)</sup> من طريق أهل البيت « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلَاهُ فَإِنْ  
صَبَرَ اجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « تُحِبُّونَ أَنْ تَكُونُوا كَالْحُمُرِ  
الضَّالَّةِ لَا تَمْرُسُونَ وَلَا تَسْقُمُونَ » وقال ابن مسعود رضي الله عنه : تجد المؤمن أصح شيء  
قلبه وأمرضه جسمًا . وتجد المنافق أصح شيء جسمًا ، وأمرضه قلبًا ، فلما عظم الثناء على المرض

( ١ ) حديث نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل - الحديث : أحمد وأبو يعلى والحاكم  
ومحجه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف وقد تقدم مختصراً ورواه الحاكم أيضاً من حديث سعد  
ابن أبي وقاص وقال صحيح على شرط الشيخين

( ٢ ) حديث أن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه - الحديث : الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف

( ٣ ) حديث من طريق أهل البيت أن الله إذا أحب عبداً ابتلاه - الحديث : ذكره صاحب الفردوس  
من حديث علي ولم يخرج له ولده في مسنده وللطبراني من حديث أبي حنيفة إذا أراد الله بعبده خيراً  
ابتلاه وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له جلاً ولا ولداً وسنده ضعيف

( ٤ ) حديث نحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون : ابن أبي عاصم في الأحاد والثنائين وأبو نعيم  
وابن عبد البر في الصجبة والبيهقي في الشعب من حديث أبي فاطمة وهو صدر حديث أن الرجل  
ليكون له المنزلة عند الله - الحديث : وقد تقدم

والبلاء أحبّ قوم المرض واغتتنوه ، لينالوا ثواب الصبر عليه ، فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ، ويقاسى العلة ، ويرضى بحكم الله تعالى ، ويعلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشغله المرض عنه ، وإنما يمنع المرض جوارحه . وعلموا أن صلاتهم قعوداً مثلاً مع الصبر على قضاء الله تعالى ، أفضل من الصلاة قياماً مع العافية والصحة . ففي الخبر <sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِمَلَائِكَتِهِ اكْتُبُوا لِعَبْدِي صَالِحَ مَا كَانَ يَعْمَلُ فَإِنَّهُ فِي رِثَائِي إِنْ أَطْلَقْتُهُ أَبَدَلْتُهُ خَيْرًا مِنْ خَلِيهِ وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ وَإِنْ تَوَفَّيْتُهُ تَوَفَّيْتُهُ إِلَى رِغْمِي » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا أُكْرِهَتْ عَلَيْهِ النَّفْسُ » فقبل معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب . وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) <sup>(٣)</sup> . وكان سهل يقول : ترك التداوى وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض ، أفضل من التداوى لأجل الطاعات . وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها . وكان يداوى الناس منها . وكان إذا رأى العبد يصلى من قعود ، ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض ، فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات ، يعجب من ذلك ويقول : صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوى للقوة والصلاة قائماً . وسئل عن شرب الدواء فقال : كل من دخل في شيء من الدواء فإنما هو سمة من الله تعالى لأهل الضعف . ومن لم يدخل في شيء منه فهو أفضل ، لأنه إن أخذ شيئاً من الدواء ولو كان هو الماء البارد يستل عنه لم أخذه ، ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه . وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات ، لعلمهم بأن ذرة من أعمال القلوب مثل الصبر ، والرضا ، والتوكل ، أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح . والمرضى لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالباً مدهشاً وقال سهل رحمه الله : علل الأجسام رحمة ، وعلل القلوب عقوبة

(١) حديث أن الله يقول للملائكة اكتبوا لعبدي صالح ما كان يعمل فإنه في رثائي - الحديث : الطبراني

من حديث عبد الله بن عمر وقد تقدم

(٢) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفس : تقدم ولم أجده مرزوقاً

السبب الخامس . أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها . عاجز عن تكبيرها ، فيرى المرض إذا طال تكثيرا ، فيترك التداوي خوفا من أن يسرع زوال المرض . فقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَا تَزَالُ أَلْمِيَّ وَالْمَلِيَّةُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمُتِيَ عَلَى الْأَرْضِ كَالْبُرْدَةِ ، غَالِيَةً ذَنْبٌ وَلَا خَطِيئَةٌ » . وفي الخبر <sup>(٢)</sup> « حَتَّى يَوْمَ كَفَّارَةِ سَنَةٍ » . فقيل لأنها تهد قوة سنة ، وقيل للإنسان ثلثمائة وستون مفصلا فتدخل الحمى في جميعها . ويحمد من كل واحد لما فيكون كل ألم كفارة يوم <sup>(٣)</sup> . ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محموما . فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله . وسأل ذلك طائفة من الأنصار ، فكانت الحمى لا تزالهم ولما قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « مَنْ أَذْهَبَ اللَّهُ كَرِيْمَتَهُ لَمْ يَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ » قال فلقد كان من الأنصار من يتمنى العمى . وقال عيسى عليه السلام . لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله ، لما يرجو في ذلك من كفارة خطايا . وروى ابن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاء فقال . يارب ارحمه فقال تعالى كيف أرحمه فيما به أرحمه ! أي به أكفر ذنونه وأزيد في درجاته

(١) حديث لا تزال الحمى والمليئة بالعبد حتى يمسي على الأرض كالبردة ماعليه خطيئة: أبو يعلى وابن عدى من حديث أبي هريرة والطبراني من حديث أبي الدرداء نحوه . وقال الصداق بدل الحمى وللطبراني في الأوسط من حديث أنس مثل المريض إذا سح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع في صفاتها ولونها وأسنيده ضعيفة

(٢) حديث حمى يوم كفارة سنة: الفضاعي في مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال ليله بدل يوم (٣) حديث لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محموما . الحديث : وسأل ذلك طائفة من الأنصار أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد أن رجلا من المسلمين قال يا رسول الله أرأيت هذه الأمراض تضيقنا مالنا فيها قال كفارات قال أبي وأن قلت قال فإن شوكته فما فوقها قال فدعا أبي أن لا يفارقه الوعك حتى يموت الحديث : وللطبراني في الأوسط من حديث أبي بن كعب أنه قال يا رسول الله اجزاء الحمى قال تجري الحسنة على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق فقال اللهم اني أسألك حمى لا تمنعني خروجي في سبيلك ولا خروجي إلى بيتك ولا لمسجد نبيك . الحديث : والاسناد مجهول قاله على بن المديني

(٤) حديث من أذهب الله كرمته لم يرض له ثوابا دون الجنة : تقدم للرفع منه دون قوله فلقد كان في الأنصار من يتمنى العمى .



السبب السادس: أن يستشعر العبد في نفسه مبادئ البطر والطغيان بطول مدة الصحة فيترك التدأوى خوفاً من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة ، والبطر ، والطغيان أو طول الأمل ، والتسويف في تدارك الفائت وتأخير الخيرات ، فإن الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى ، وتنحرك الشهوات ، وتدعو إلى المعاصي . وأقلها أن تدعو إلى التمتع في المباحات ، وهو تضييع للأوقات ، وإهمال للربح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات وإذا أراد الله بعبد خيراً لم يخله عن التنبيه بالأمراض والمصائب . ولذلك قيل ، لا يخلو المؤمن من علة ، أو قلة ، أو زلة . وقد روي أن الله تعالى يقول . الفقر سجنى ، والمرض قيدي أحبس به من أحب من خلقي ، فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصي فأى خير يزيد عليه ! ولم ينبغ أن يشتغل بملاجه من يخاف ذلك على نفسه ، فالمعافية في ترك المعاصي . فقد قال بعض المارفين للإنسان . كيف كنت بعدى ؟ قال في عافية . قال إن كنت لم تمص الله عز وجل فأنت في عافية ، وإن كنت قد عصيته فأى داء أدوأ من العصية ! ما عوفى من عصي الله . وقال علي كرم الله وجهه ، لما رأى زينة النبط بالعراق في يوم عيد : ما هذا الذى أظهره ؟ قالوا يا أمير المؤمنين هذا يوم عيد لهم فقال كل يوم لا يمصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد . وقال تعالى ( مِنْ بَعْدِ مَا أَرَأَيْتُمْ مَا يُحْيُونَ <sup>(١)</sup> ) قيل العوافى ( إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى <sup>(٢)</sup> ) وكذلك إذا استغنى بالمعافية وقال بعضهم إنما قال فرعون ( أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى <sup>(٣)</sup> ) لطول المعافية ، لأنه لبث أربعين سنة لم يصدع له رأس ، ولم يحم له جسم ، ولم يضرب عليه عرق ، فادعى الربوبية ، لعنه الله ، ولو أخذته الشقيقة يوماً اشغلته عن الفضول فضلاً عن دعوى الربوبية وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ اللَّذَاتِ » وقيل : الحى رائد الموت ، فهو مذكر له ، ودافع للتسويف . وقال تعالى ( أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ <sup>(٢)</sup> ) قبل يفتنون بأمراض يختبرون بها ويقال . إن العبد إذا مرض مرضين ثم لم يتب قال له ملك الموت . يا غافل ، جاءك منى

( ١ ) حديث أكثروا ذكر هازم اللذات : الترمذى وقال حسن غريب والنسائى وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

( ٢ ) آل عمران : ١٥٢ ( ٣ ) البلد : ٢ ( ٤ ) النازعات : ٢٤ : ( ٥ ) التوبة : ١٢٦

رسول بعد رسول فلم يجيب . وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال . وقالوا . لا يخاف المؤمن في كل أربعين يوماً أن يروّع روعة ، أو يصاب ببلية ، حتى روي أن عمار بن ياسر تزوج امرأة ، فلم تكن تمرض ، فطلقها وأن النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> عرض عليه امرأة ، فحكى من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، ففيل ، وإنها مامرضت قط . فقال « لَأَحَاجَةٌ لِي فِيهَا »

<sup>(٢)</sup> . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع ، كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ؟ ما عرفه . فقال صلى الله عليه وسلم « إِيَّاكَ عَنِّي مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا » وهذا لأنه ورد في الخبر<sup>(٣)</sup> « الْحُمَّى حَظُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ النَّارِ » . وفي حديث<sup>(٤)</sup> أنس وعائشة رضي الله عنهما ، قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال « نَعَمْ مَنْ ذَكَرَ الْمَوْتَ كُلَّ يَوْمٍ عَشْرِينَ مَرَّةً » وفي لفظ آخر « الَّذِي يَذْكُرُ ذُنُوبَهُ فَتُحْزَنُ لَهُ » ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أغلب ، فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها ، إذ رأوا لأنفسهم مزيداً فيها ، لا من حيث رأوا النداء في نقصانها . وكيف يكون نقصاناً وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم

## بيان

الرد على من قال ترك التدوي أفضل بكل حال

فلو قال قائل . إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسن لغيره ، وإلا فهو حال الضعفاء ، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء ، فيقال : ينبغي أن يكون من شرط التوكل

( ١ ) حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها فقيل فانها مامرضت قط فقال لا حاجة لي

فيها : أحمد من حديث أنس بنحوه بإسناد جيد

( ٢ ) حديث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره فقال رجل وما الصداع

ما عرفه فقال اليك عنى - الحديث : أبو داود من حديث عامر البراء أخى الحضرمي

هموه وفي لسانه من لم يسم

( ٣ ) حديث الحمى حظ كل مؤمن من النار : الزائر من حديث عائشة وأحمد من حديث أبي أمامة والطبراني

في الأوسط من حديث أنس وأبو مصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود

وحديث الحسن بن علي بن فضال

( ٤ ) حديث أنس وعائشة قبل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم فقال لهم من ذكر الموت

كل يوم عشرين مرة : لم أقف له على إسناد

ترك الحجامه والفصد عند تبغ الدم . فإن قيل : إن ذلك أيضا شرط ، فليكن من شرطه أن تلدغه المقرب أو الحبة فلا ينحيا عن نفسه ، إذا لم يلدغ الباطن ، والمقرب تلدغ الظاهر ، فأى فرق بينهما . فإن قال : وذلك أيضا شرط التوكل ، فيقال ينبغى أن لا يزال لدغ الغش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ، ولدغ البرد بالحبة . وهذا لا قائل به . ولا فرق بين هذه الدرجات فإن جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى ، وأجرى بها سنته .

ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ما روي عن عمر رضي الله عنه ، وعن الصحابة في قصة الطاعون ، فإنهم لما قصدوا الشام ، وانتهوا إلى الجابية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما وباء ذريما فافترق الناس فرقتين . فقال بعضهم لا ندخل على الوباء ، فلتقى بأيدينا إلى التهلكة ، وقالت طائفة أخرى بل ندخل وتوكل ، ولا نهرب من قدر الله تعالى ، ولا نفر من الموت فنكون ، كمن قال الله تعالى فيهم ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ) فرجموا إلى عمر فسألوه عن رأيه ، فقال ترجع ولا ندخل على الوباء ، فقال له المخالفون في رأيه . أنقر من قدر الله تعالى ؟ قال عمر : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله . ثم ضرب لهم مثلا فقال . أرأيتم لو كان لأحدكم غنم ، فهبط واديا له شعبتان إحداها مخصبة ، والأخرى مجدبة ، أليس إن رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى ، وإن رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى ؟ فقالوا نعم . ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا ، فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال عندي فيه يا أمير المؤمنين شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر . الله أكبر : فقال عبد الرحمن (١) سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِذَا سَمِعْتُمْ بِالْوَبَاءِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ فِي أَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ » ففرح عمر رضي الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ، ورجع من الجابية بالناس . فإذا كيف اتفق الصحابة

(١) حديث عبد الرحمن بن عوف إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تنفدوا عليه - الحديث : وفي أوله قصة خروج عمر بالناس إلى الجابية وأنه بلغهم أن بالشام وباء - الحديث : رواه البخاري

كلهم على ترك التوكل ، وهو من أعلى المقامات ، إن كان أمثال هذا من شروط التوكل فإن قلت : فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء ، وسبب الوباء فى الطب الهواء ، وأظهر طرق التداوى الفرار من المضر ، والهواء هو المضر ، فلم لم يرخص فيه ؟ اعلم أنه لا خلاف فى أن الفرار عن المضر غير منهي عنه ، إذ الحجابة والفصد فرار من المضر ، وترك التوكل فى أمثال هذا مباح وهذا لا يدل على المقصود . ولكن الذى ينقدح فيه والعلم عند الله تعالى ، أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقى ظاهر البدن ، بل من حيث دوام الاستنشاق له . فإنه إذا كان فيه عفوة ، ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق ، فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير فى الباطن . فالخروج من البلد لا يخلص غالبا من الأثر الذى استحکم من قبل . ولكن يتوهم الخلاص ، فيصير هذا من جنس الموهومات كالرق والطيرة وغيرها . ولو تجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل ، ولم يكن منهيًا عنه . ولكن صار منهيًا عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر ، وهو أنه لو رخص للأصحاء فى الخروج لما بقى فى البلد إلا المرضى الذين أقدم الطاعون ، فأنكسرت قلوبهم ، وفقدوا المتعدين ، ولم يبق فى البلد من يسيقيهم الماء ويطعمهم الطعام ، وهم يعجزون عن مباشرتهما بأنفسهم ، فيكون ذلك سعيًا فى إهلاكهم تحقيقًا . وخلصهم منتظر ، كما أن خلاص الأصحاء منتظر . فلو أقاموا لم تكن الإقامة قاطبة بالموت ، ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعًا بالخلاص ، وهو قاطع فى إهلاك الباقين . والمسلمون كالبنين يشد بعضهم بعضًا . والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه فهذا هو الذى ينقدح عندنا فى تعليل النهي . وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد ، فإنه لم يؤثر الهواء فى باطنهم ، ولا بأهل البلد حاجة إليهم . نعم لو لم يبق بالبلد إلا مطعونون وافتقروا إلى المتعدين ، وقدم عليهم قوم ، فربما كان ينقدح استحباب الدخول ههنا لأجل الإغاثة ، ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين ، وبهذا<sup>(١)</sup> شبه الفرار من الطاعون فى بعض الأخبار بالفرار من الزحف لأن فيه

(١) حديث تشبيه الفرار من الطاعون بالفرار من الزحف : رواه أحمد من حديث عائشة بإسناد

ومن حديث جابر بإسناد ضعيف وقد تقدم

كسراً لقلوب بنية المسلمين ، وسعياً في إهلاكهم . فهذه أمور دقيقة ، فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ما سمعه . وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير . وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك

فإن قلت : فني ترك التداوى فضل كما ذكرت ، فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل . فنقول : فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفر بها أو خاف على نفسه طغيان المافية وغلبة الشهوات ، أو احتاج إلى ما يذكره الموت لغلبة الغفلة أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والتوكلين ، أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف المنافع حتى صار في حقه موهوماً كالرقى ، أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوى ، وكان التداوى يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع . فإلى هذه المعاني رجعت الصوارف في ترك التداوى . وكل ذلك كمالات بالإضافة إلى بعض الخلق ، وتقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم . بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها ، إذ كان حاله يقتضي أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الأسباب وفقدانها . فإنه لم يكن له نظر في الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ومن كان هذا مقامه لم تضره الأسباب . كما أن الرغبة في المال نقص ، والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كمالات فهي أيضاً نقص بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجز والذهب أكل من الهرب من الذهب دون الحجز . وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر والذهب عنده . وكان لا يمسه لتعليم الخلق مقام الزهد فإنه منتهى قوتهم ، لا خوفه على نفسه من إمساكه ، فإنه كان أعلى رتبة من أن تنزه الدنيا<sup>(١)</sup> وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها . فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة ، وإنما لم يترك استعمال الدواء جرياً على سنة الله تعالى ، وتركها لأمته فيما تمس إليه حاجتهم ، مع أنه لا ضرر فيه . بخلاف إدخال الأموال ، فإن ذلك يعظم ضرره . نعم التداوى لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعاً دون خالق الدواء ، وهذا قد

(١) حديث أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها . تقدم ولفظه عرضت مقتبحة خزائن السماء وكنوز الأرض لبردها

نهي عنه . ومن حيث إنه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصي ، وذلك منهي عنه .  
والمؤمن في غالب الأمر لا يقصد ذلك . وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعاً بنفسه ، بل  
من حيث إنه جعله الله تعالى سبباً للنفع ، كما لا يرى الماء مروياً ، ولا الخبز مشبعاً . فحكم  
التداوى في مقصوده حكم الكسب ، فإنه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية  
كان له حكمها . وإن اكتسب للتنعم المباح فله حكمه . فقد ظهر بالمعاني التي أوردناها  
أن ترك التداوى قد يكون أفضل في بعض الأحوال : وأن التداوى قد يكون أفضل في بعض ،  
وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال ، والأشخاص ، والنيات ، وأن واحداً من الفعل والترك ليس  
شرطاً في التوكل ، إلا ترك الموهومات كالكي والرقى ، فإن ذلك تعمق في التدبيرات لا يليق بالتوكلين

## بيان

أحوال المتوكلين في إظهار المرض وكتابه

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر ، وهو من أعلى المقامات ،  
لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه ماملة بينه وبين الله عز وجل ، فكتمته أسلم عن الآفات  
ومع هذا فالإظهار لا بأس به إذا صحت فيه النية والمقصد . ومقاصد الإظهار ثلاثة

الأول : أن يكون غرضه التداوى . فيحتاج إلى ذكره للطبيب ، فيذكره لافي معرض  
الشكاية بل في معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى . فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن  
المطلب أوجاعه وكان أحمد بن حنبل يخبر بأمراض يجدها ويقول : إنا أصف قدرة الله تعالى في  
الثاني : أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به ، وكان مكيناً في المعرفة  
فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض ، بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى  
أن المرض نعمة فيشكر عليها ، فيتحدث به كما يتحدث بالنعم . قال الحسن البصري : إذا  
حمد المريض الله تعالى وشكره ، ثم ذكر أوجاعه ، لم يكن ذلك شكوى

الثالث : أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره إلى الله تعالى ، وذلك يحسن ممن تليق به القوة  
والشجاعة ويستبعد منه العجز ، كما روي أنه قيل لعلي في مرضه رضي الله عنه . كيف أنت ؟  
قال بشر . فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك ، وظنوا أنه شكاية فقال . أتجئد  
على الله . فأحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوة والضراوة ، وتأدب فيه بأدب النبي

صلى الله عليه وسلم إياه، حيث<sup>(١)</sup> مرض علي كرم الله وجهه، فسمعه عليه السلام وهو يقول اللهم صبرني على البلاء . فقال له صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ تَعَالَى أَلْبَاءَ فَسَلَّ اللَّهُ الْعَاقِبَةَ » فهذه النيات يرخص في ذكر المرض وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية، والشكوى من الله تعالى حرام ، كما ذكرته في تحرير السؤال على الفقراء إلا بضرورة

ويصير الإظهار شكاية بقربة السخط وإظهار الكراهة لفعل الله تعالى . فإن خلا عر قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ، ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه ، لأنه ربما يوم الشكاية ، ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزبد في الوصف على الموجود من العلة . ومن ترك التداوى توكلًا فلا وجه في حقه للإظهار، لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الإفشاء . وقد قال بعضهم . من بث لم يصبر وقيل في معنى قوله ( فَصَبْرٌ جَمِيلٌ )<sup>(٢)</sup> لا شكوى فيه . وقيل ليعقوب عليه السلام . ما الذي أذهب بصرك ؟ قال مر الزمان وطول الأحران . فأوحى الله تعالى إليه . تفرغت لشكواي إلى عبادي . فقال يارب أنوب إليك . وروي عن طاوس ومجاهد أنهما قالا . يكتب على المريض أنينه في مرضه . وكانوا يكرهون أن ين المرض لأنه إظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل ما أصاب إبليس لعنه الله من أيوب عليه السلام إلا أنينه في مرضه . فجعل الأنين خطه منه . وفي الخبر<sup>(٣)</sup> « إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْظِرُوا مَا يَقُولُ لِعُودِهِ فَإِنَّ حَمْدَ اللَّهِ وَاتِّقَى بِخَيْرٍ دَعَا لَهُ وَإِنْ شَكَوْهُ كَرَّ شَرًّا قَالَا كَذَلِكَ تَكُونُ » وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية . وخوف الزيادة في الكلام . فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابه ، فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم . منهم فضيل . ووهيب ، وبشر . وكان فضيل يقول أشهى أن أمرض بلا عواد . وقال . لا أكره العلة إلا لأجل المواد . رضي الله عنه وعنهم أجمعين

كل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب المحبة ، والشوق ، والأنس ، والرضا . والله سبحانه وتعالى الموفق

( ١ ) حديث مرض علي فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول اللهم صبرني على البلاء . فقال لقد سألت

الله البلاء . فسئل الله العاقبة : تقدم مع اختلاف

( ٢ ) حديث إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملائكة أنظروا ما يقول لعوده . الحديث : تقدم

(١) يوسف : ٨٣





# كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

## كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

وهو الكتاب السادس من ربيع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرتهم، وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته، ثم استخلصها للكفوف على بساط عزته، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرفت بأنوار معرفته، ثم كشف لهم عن سُبُحات وجهه حتى احترقت بنار محبته، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بیداء كبريائه وعظمته. فكلما اهتزت للملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما أغرب في وجه العقل وبصيرته، وكلامت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً أيها الآيس عن نيل الحق بجمله وعجلته، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرقى في بحر معرفته ومحرقة بنار محبته. والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكال نبوته، وعلى آله وأصحابه سادة المخلوق وأئمة وقادة الحق وأزمته، وسلم كثيراً أما بعد: فإن المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات فإما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضا وأخواتها، ولا قبل للمحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالسبب، والصبر، والزهد وغيرها وسائر المقامات إن عز وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها. وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها، حتى أنكر بعض العلماء إمكانها، وقال لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى، وأما حقيقة المحبة فحال الإمعان في الجنس والمثال ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس، والشوق، ولذة المناجاة. وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر. ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبة، ثم بيان حقيقتها وأسبابها، ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى، ثم بيان أن أعظم الذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ثم بيان منبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا، ثم بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى، ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب، ثم بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد، ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى،

ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ، ثم بيان معنى الانبساط في الأنس ، ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ، ثم بيان حقيقته ، ثم بيان أن الدعاء وكرامة المعاصي لاتناقضه ، وكذا القرار من المعاصي ، ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة . فهذه جميع بيانات هذا الكتاب

## بيان

شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض . وكيف يفرض ما لا وجود له ، وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب ونمرته ، فلا بد وأن يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك يطيع من أحب . ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل ( يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ <sup>(١)</sup> ) وقوله تعالى ( وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ <sup>(٢)</sup> ) وهو دليل على إثبات الحب ، وإثبات التفاوت فيه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة ، إذ قال <sup>(١)</sup> أبو رزین العقيلي : يارسول الله ، ما الإيمان؟ قال « أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِمَّا سِوَاهُمَا » وفي حديث آخر <sup>(٢)</sup> « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا » وفي حديث آخر <sup>(٣)</sup> « لَا يُؤْمِنُ الْمُتَّبِدُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » وفي رواية « وَمِنْ تَفْسِيهِ » كيف وقد قال تعالى ( قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ <sup>(٤)</sup> ) الآية . وإنما جرى

﴿ كتاب المحبة والنوق والرضا ﴾

( ١ ) حديث أبي رزین العقيلي أنه قال يارسول الله ما الإيمان قال أن يكون الله ورسوله أحب اليك مما سواها أخرجه أحمد بزيادة في أوله

( ٢ ) حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواها : متفق عليه من حديث أنس بلفظ لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب اليه من أهله وماله وذكره بزيادة

( ٣ ) حديث لا يؤمن العبد حتى أكون أحب اليه من أهله وماله والناس أجمعين وفي رواية ومن نفسه

متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم دون قوله ومن نفسه وقال البخاري من والده وولده وله من حديث عبد الله بن هشام قال عمر يارسول الله لأنت أحب الي من كل شيء . الانسى فقال لا والذي نفسى بيده حتى أكون أحب اليك من نفسك فقال عمر فأنت الآن والله أحب الي من نفسى فقال الآن يا عمر

(١) المائدة : ٤٤ (٢) البقرة : ١٦٥ (٣) التوبة : ٢٤

ذلك في معرض التهديد والإنكار . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجة فقال <sup>(١)</sup> « أُحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَفْعِدُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ وَأَجِبُونِي لِحُبِّ اللَّهِ إِنِّي »  
ويروى <sup>(٢)</sup> أن رجلا قال يا رسول الله إني أحبك . فقال صلى الله عليه وسلم « اسْتَعِدَّ لِلْفَقْرِ » فقال إني أحب الله تعالى . فقال « اسْتَعِدَّ لِلْبَلَاءِ » . وعن <sup>(٣)</sup> عمر رضي الله عنه قال : نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « انْظُرُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْهِ يَفْعِدُونَهُ بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالْشَّرَابِ فَدَعَاهُ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى مَا تَرَوْنَ »  
وفي الخبر المشهور <sup>(٤)</sup> أن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خيلا يمت خيله ! فأوحى الله تعالى إليه : هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه . فقال ياملك الموت الآن فاقبض وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله . بكل قلبه ، فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ، ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه  
وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه <sup>(٥)</sup> « اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ أُحِبُّكَ وَحُبَّ مَا يَقْرُبُنِي إِلَى حُبِّكَ وَاجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ » . وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ قال « مَا أَعْدَدْتُ لَهَا » فقال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام . إلا أني أحب الله ورسوله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « اَلْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » قال أنس فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا ، وأوحشه عن جميع البشر

( ١ ) حديث أحبوا الله لما يفعِدُوكُمْ به من نعمه - الحديث : الترمذى من حديث ابن عباس وقال حسن غريب

( ٢ ) حديث أن رجلا قال يا رسول الله إني أحبك - الحديث : الترمذى من حديث عبد الله

ابن مغفل بلفظ فأعد للفقر تخففا دون آخر - الحديث : وقال حسن غريب

( ٣ ) حديث عمر قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به

الحديث : أبو نعيم في الحلية باسناد حسن

( ٤ ) حديث أن إبراهيم قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه هل رأيت خيلا يقبض خيله - الحديث : لم أجده أصلا

( ٥ ) حديث اللهم ارزُقني حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَحُبُّكَ - الحديث : تقدم

( ٦ ) حديث قال أعرابي يا رسول الله متى الساعة قال ما أعددت لها - الحديث : متفق عليه من حديث أنس

ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه

وقال الحسن : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف لدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يابو حتى يغفل  
فإذا تفكر حزن ، وقال أبو سليمان الدراني : إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها  
من الذميم عنه ؛ فكيف يشتغلون عنه بالدنيا

ويروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر وقد نخلت أبدانهم ، وتغيرت ألوانهم ، فقال لهم  
مالذي بلغ بكم ما أرى ! فقالوا الخوف من النار . فقال حق على الله أن يؤمن الخائف . ثم جاوزهم  
إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال . مالذي بلغ بكم ما أرى ! قالوا الشوق إلى  
الجنة . فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون . ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشد  
نحولا وتغيرا ، كأن على وجوههم المرثى من النور ، فقال : مالذي بلغ بكم ما أرى !  
قالوا نحب الله عز وجل . فقال أنتم المقربون ، أنتم المقربون ، أنتم المقربون

وقال عبد الواحد بن زيد : مررت برجل قائم في الثلج ، فقلت أما تجد البرد ؟ فقال من شغله  
حب الله لم يجد البرد . وعن سري السقطي قال : تدعى الأم يوم القيامة بأبنائها عليهم السلام ،  
فيقال يا أمة موسى ، ويا أمة عيسى ، ويا أمة محمد ، غير المحبين لله تعالى ، فإنهم ينادون بأولياء  
الله ، هلموا إلى الله سبحانه ، فكاد قلوبهم تنخلع فرحا . وقال هرم بن حبان : المؤمن إذا عرف  
ربه عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذا وجد حلالة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين  
الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة

وقال يحيى بن معاذ : عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ! ورضوانه يستغرق الآمال  
فكيف حبه ! وحبّه يدهش العقول فكيف وده ! ووده ينسى مادونه فكيف لطفه !  
وفي بعض الكتب : عبدى أنا وحقك لك محب ، فبحق عليك كن لي محبا

وقال يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إليّ من عبادة سبعين سنة بلا حب  
وقال يحيى بن معاذ : إلهى أنى مقيم بفنائك ، مشغول بفنائك صغيرا ، أخذتني إليك ،  
وسر بلتني بمعرفتك ، وأمكنتني من لطفك ، ونقلتني في الأحوال ، وقلبتني في الأعمال سترا  
وتوبة ، وزهدا ، وشوقا ، ورضا ، وحببا ، تسقينى من حياضك ، وتهملنى في رياضك ، ملازما  
لأمرك ، ومشغوبا بقولك ، ولما طر شاربنى ولاح طائرى . فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا ،  
وقد اعتدت هذا منك صغيرا ! فلي ما بقيت حولك دندنة ، وبالضراعة إليك هممة ، لأنى نحب ، وكل

عجب بحبيبه مشغوف، وعن غير حبيبه مصروف . وقد ورد في حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاصر، وذلك أمر ظاهر، وإنا النموض في تحقيق معناه فلنشتغل به

## بيان

حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المطلب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها، ثم معرفة شروطها وأسبابها، ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى فأول ما ينبغي أن يتحقق أنه لا يتصور محبة إلا بمعرفة وإدراك، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه. ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جاد، بل هو من خاصية الحي المدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلائه ويلذه، وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه، وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلاام وإلذاذ. فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك، وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك، وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة ولا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها . فإذا كل لذيد محبوب عند الملتذ به ومعنى كونه محبوبا أن في الطبع ميلا إليه . ومعنى كونه مبغوضا أن في الطبع نفرة عنه . فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء اللذ ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقا، والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب، فإذا قوي سمي مقتا . فهذا أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته

الأصل الثاني : أن الحب لما كان تابعا للإدراك والمعرفة انقسم لاحالة بحسب انقسام المدركات والحواس، فكل حاسة إدراك لنوع من المدركات، ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات . وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها، فكانت محبوبات عند الطبع السليم . فلذة العين في الإبصار، وإدراك المبصرات الجميلة، والصور المليحة الحسنة المستلذة ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة . ولذة الشم في الروائح الطيبة . ولذة الذوق في الطعوم . ولذة اللمس في اللين والنعومة . ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة أي كان للطبع السليم ميل إليها . حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ

( ١ ) حديث حبب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء - الحديث : النسائي من حديث أنس دون قوله ثلاث وقد تقدم

دُنْيَاكُمْ ثَلَاثُ الطَّيِّبِ وَالنَّسَاءِ وَجُعِلَ قُرْهُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » فسمي الطيب محبوباً ،  
ومعلوم أنه لاحظ للعين والسمع فيه ، يل للشم فقط . وسمي النساء محبوبات ، ولاحظ  
فيهن إلا للبصر واللس ، دون الشم ، والذوق ، والسمع . وسمي الصلاة قرة عين ، وجعلها  
أبلغ المحبوبات ، ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس ، بل حس سادس مظنته القلب ،  
لا يدركه إلا من كان له قلب . ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان ، فإن  
كان الحب مقصوراً على مدركات الحواس الخمس ، حتى يقال إن الله تعالى لا يدرك بالحواس  
ولا يتمثل في الخيال فلا يحب ، فإذا قد بطلت خاصية الإنسان وما تميز به من الحس السادس  
الذي يعبر عنه إما بالعقل ، أو بالنور ، أو بالقلب ، أو بما شئت من العبارات ، فلا مشاحة فيه  
وهيات . فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر . والقلب أشد إدراكاً من العين  
وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لآماله لذة  
القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ  
فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى . ولا معنى للحب إلا الميل إلى مافي  
إدراكه لذة ، كما سيأتي تفصيله ، فلا ينكر إذاً حب الله تعالى إلا من قعد به القصور في درجة  
البهائم ، فلم يجاوز إدراك الحواس أصلاً

بالأصل الثالث : أن الإنسان لا يخفى أنه يحب نفسه ، ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل  
نفسه . وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لأجل نفسه ؟ هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى  
يظنون أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته ، ما لم يرجع منه حظ إلى الحب سوى  
إدراك ذاته . والحق أن ذلك متصور وموجود ، فلنبين أسباب المحبة وأقسامها  
وبيانه أن المحبوب الأول عند كل حي نفسه وذاته . ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلاً  
إلى دوام وجوده ، ونفرة عن عدمه وهلاكه ، لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب ، وأي  
شيء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده ، وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه  
وهلاكه ! فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ، ويكره الموت والقتل ، للمجرد ما يخافه  
بعد الموت ، ولا للمجرد الخذر من سكرات الموت ، بل لو اختطف من غير ألم ، وأميت من  
غير نواب ولا عقاب لم يرض به ، وكان كارهاً لذلك . ولا يحب الموت والعدم المحض

إلا لمقاساة ألمنى الحياة . ومهما كان مبتلى ببلاء فحبوبه زوال البلاء ، فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم ، بل لأن فيه زوال البلاء ، فالهلاك والعدم ممقوت ، ودوام الوجود محبوب<sup>١</sup> . وكما أن دوام الوجود محبوب . فكمال الوجود أيضا محبوب . لأن الناقص فاقد للكمال والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود ، وهو هلاك بالنسبة إليه . والهلاك والعدم ممقوت في الصفات وكمال الوجود ، كما أنه ممقوت في أصل الذات . ووجود صفات الكمال محبوب ، كما أن دوام أصل الوجود محبوب . وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى ( وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا <sup>(١)</sup> ) فإذا المحبوب الأول للإنسان ذاته ، ثم سلامة أعضائه ، ثم ماله ، وولده ، وعشيرته ، وأصدقائه . فالأعضاء محبوبة ، وسلامتها مطلوبة ، لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها . والمال محبوب ، لأنه أيضا آلة في دوام الوجود وكماله ، وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يحب هذه الأشياء للأعيانها ، بل لارتباط حفظه في دوام الوجود وكماله بها ، حتى أنه يحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ ، بل يتحمل المشاق لأجله ، لأنه يخلفه في الوجود بعد عدمه ، فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له ، فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه ، لما يعجز عن الطمع في بقاء نفسه أبدا . نعم لو خير بين قله وقتل ولده ، وكان طبعه باقيا على اعتداله ، أثر بقاء نفسه على بقاء ولده . لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه ، وليس هو بقاءه المحقق . وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه ، فإنه يرى نفسه كثيرا بهم ، قويا بسببهم ، متجملا بكمالهم ، فإن العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجنح المكمّل للإنسان ، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة . فإذا المحبوب الأول عند كل حي ذاته وكمال ذاته ، ودوام ذلك كله . والمكروه عنده ضد ذلك . فهذا هو أول الأسباب

السبب الثاني . الإحسان ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عَلَيَّ يَدًا فَيُجِبُّهُ قَلْبِي » إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطرار لا استطاع

( ١ ) حديث اللهم لا تجعل لكافر على يدا فيجبه قلبي : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ ابن جبل بسند ضعيف منقطع وقد تقدم



دفعه ، وهو جبة وفطرة لاسبيل إلى تغييرها . وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبي الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة . وهذا إذا حقق رجوع إلى السبب الأول ، فإن المحسن من أمد بالمال والمعونة ، وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود . وكمال الوجود ، وحصول الحظوظ التي بها يتهاى الوجود ، إلا أن الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده ، وهي عين الكمال المطلوب فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له ، كالطبيب الذي يكون سببا في دوام صحة الأعضاء ، ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة ، إذ الصحة مطلوبة لذاتها ، والطبيب محبوب لذاته بل لأنه سبب للصحة . وكذلك العلم محبوب . والأستاذ محبوب ، ولكن العلم محبوب لذاته ، والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب ، وكذلك الطعام والشراب محبوب ، والدنانير محبوبة ، لكن الطعام محبوب لذاته ، والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام فإذا يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة ، وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الإنسان نفسه . فكل من أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاته تحقيقا ، بل أحب إحسانه ، وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب ، مع بقاء ذاته تحقيقا . ولو نقص نقص الحب ، ولو زاد زاد . ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه

السبب الثالث: أن يحب الشيء لذاته ، لاحظ ينال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه . وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق به دوامه ، وذلك بحب الجمال والحسن فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال ، وذلك لعين الجمال ، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة ، محبوبة لذاتها لا غيرها . ولا تظن أن حب الصور الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة ، فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها ، وإدراك نفس الجمال أيضا لذية ، فيجوز أن يكون محبوبا لذاته . وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب ، لا ليشرب الماء وتوكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية . وقد

( ١ ) حديث كان يعجبه الخضرة والماء الجاري: أبو نعيم في الطب النبوي من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري واستاده ضعيف

بما تمتاز النظر إلى الأنوار ، والأزهار ، والألوان ، الحسنة التي ، المتناسبة الشكل ، حتى أن الإنسان لتفربح عنه الغموم والهموم بالنظر إليها ، لا لطلب سطوره النظر .  
فهذه الأسباب ، مادة وكل لذيذ محبوب ، وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا بالطبع . فإن ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوبا . عند من انكشف له جماله وجلاله ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ' ' إن الله جميلٌ يُحبُّ الجمالَ ' '

### الأصل الرابع في بيان معنى الحسن والجمال

اعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل ، وحسن اللون ، وكون البياض مشربا بالحمرة ، وامتداد القامة ، إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان ، فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار ، وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص ، فيظن أن ما ليس مبصرا ، ولا متخيلا ، ولا منشكلا ، ولا متلونا مقدر ، فلا يتصور حسنه ، وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لذة ، فلم يكن محبوبا . وهذا خطأ ظاهر . فإن الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ، ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة ، فإننا نقول هذا خط حسن ، وهذا صوت حسن ، وهذا فرس حسن . بل نقول هذا ثوب حسن ، وهذا إناء حسن . فأني معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ! ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن ، والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة ، وما من شيء من المدركات ، إلا وهو منقسم إلى حسن ، وقبيح ، فما معنى الحسن الذي تشترك فيه هذه الأشياء ، فلا بد من البحث عنه ، وهذا البحث يطول ولا يائق بعلم المعاملة الإطناب فيه ، فنصرح بالحق ونقول : كل شيء ، وجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له فإذا كان جميع كماله الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر ، فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ، ولون ، وحسن عدو ، وتيسر كرك وفرّ عليه . والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط

من تناسب الحروف ، وتوازيها واسنة امة ترتيبها وحسن افظامها ، وان كمال شيء نزل بليق به  
وقد يلىق بغيره فسنه فحسن كل شيء في كماله الذي بلىق به فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس  
ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت . ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء  
فإن قلت : فهذه الأشياء ، وإن لم تدرك جميعها بحسن البصر مثل الأصوات ، والظنوم  
فإنها لا تنفك عن إدراك الحواس لها ، فهي محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال المحسوسات  
ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها ، وإنما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواس

فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات . إذ يقال هذا خلق حسن ، وهذا  
علم حسن ، وهذه سيرة حسنة ، وهذه أخلاق جميلة ، وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم ،  
والعقل ، والعفة ، والشجاعة ، والتقوى ، والكرم ، والمروءة ، وسائر خلال الخير ، وشيء  
من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس ، بل يدرك بنور البصيرة الباطنة ، وكل هذه  
الخلال الجميلة محبوبة ، والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته ، وآية ذلك وأن  
الأمر كذلك ، أن الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم ، وعلى حب الصحابة  
رضي الله تعالى عنهم ، مع أنهم لم يشاهدوا ، بل على حب أرباب المذاهب ، مثل الشافعي  
وأبي حنيفة ، ومالك ، وغيرهم ، حتى أن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد المشق  
فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه ، والذب عنه ، ويخاطر بروحه في قتال  
من يظن في إمامه ومتبوعه ، فكم من دم أريق في نصرة أرباب المذاهب ، وليت شعري  
من يحب الشافعي مثلاً فلم يحببه ولم يشاهد قط صورته ، ولو شاهد ربما لم يستحسن صورته  
فاستحسنه الذي حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة ، فإن  
صورته الظاهرة قد انقلبت تراباً مع التراب ، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى  
وغزارة العلم والأحاطة بمدارك الدين ، وانتهاضه لإفادة علم الشرع ، ولنشرو هذه الخيرات في العالم  
وهذه أمور جميلة ، لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة ، فأما الحواس فقاصرة عنها ، وكذلك  
من يحب أبا بكر الصديق رضي الله عنه ويفضله على غيره ، أو يحب علياً رضي الله تعالى عنه  
يفضله ويتعصب له ، فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى

والشجاعة والكرم وغيره ، فعلوم أن من يحب الصديق رضي الله تعالى عنه مثلاً ، ليس  
يجب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكاه ، إذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ، ولكن بقي  
ما كان الصديق به صديقا ، وهي الصفات المحموده التي هي مضاد السير الجميلة ، فكان  
الحب باقيا ببقاء تلك الصفات ، مع زوال جميع الصور ، وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم  
والقدرة ، إذ اعلم حقائق الأمور ، وقدر على حمل نفسه عليها ، بقهر شهواته ، فجميع خلال  
الخير يتشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ومعلمها من جملة البدن جزء  
لا يتجزأ ، فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر  
للبصر حتى يكون محبوبا لأجله . فإذا الجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة  
الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا ، فالمحبوب مصدر السير الجميلة ، وهي الأخلاق  
الحميدة ، والفضائل الشريفة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة ، وهو محبوب بالطبع  
وغير مدرك بالحواس ، حتى أن الصبي الخلى وطبعه إذا أردنا أن نحجب إليه غائبا أو حاضرا حيا  
أو ميتا لم يكن لنا سبيل إلا بالإطنا ب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال  
الحميدة ، فهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه ، ولم يقدر أن لا يحبه ، فهل غلب حب الصحابة  
ورضي الله تعالى عنهم ، وبنفس أبي جهل ، وبنفس إبليس لعنه الله ، إلا بالإطنا ب في وصف المحاسن  
والمقابع التي لا تدرك بالحواس ، بل لما وصف الناس حاتمًا بالسخاء ، ووصفوا خالدًا بالشجاعة  
أحببهم القلوب حبا ضروريا ، وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ  
يتأله المحب منهم ، بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض المدل  
والإحسان ، وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين  
لبعد المزار ، ونأي الديار ، فإذا ليس حب الإنسان مقصورا على من أحسن إليه ، بل المحسن  
في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي قط إحسانه إلى المحب ، لأن كل جمال وحسن فهو محبوب  
والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتترك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر  
والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة ، فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها  
ولا يميل إليها ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني  
الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة ، فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال

صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة  
السبب الخامس: المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب إذ ربّ شخصين تتأكّد المحبة  
بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم (١)  
«فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْنَتَانِ تَعَارَفَا وَمَا تَنَافَرَا تَنَافَرَا» وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصلوة عند  
ذكر الحب في الله فليطلب منه، لأنه أيضا من عجائب أسباب الحب، فإذا ترجع أقسام الحب إلى خمسة  
أسباب وهو حب الإنسان وجود نفسه وكمال وبقائه، وحب من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام  
وجوده وبعين على بقاءه ودفع المهلكات عنه، وحب من كان محسنا في نفسه إلى الناس وإن لم يكن  
محسنا إليه، وحب لكل ما هو جميل في ذاته سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنية  
وحب لمن بينه وبينه مناسبة خفيفة في الباطن، فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد  
تضاعف الحب لا محالة، كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة، حسن الخلق، كامل العلم، حسن  
التدبير، محسن إلى الخلق، ومحسن إلى الوالد، كان محبوبا لا محالة غاية الحب، وتكون قوة  
الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها، فإن كانت هذه الصفات  
في أقصى درجات الكمال كان الحب لا محالة في أعلى الدرجات، فلنبين الآن أن هذه الأسباب  
كلها لا يتصور كمالها واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى

## بيان

أن المستحق للمحبة هو الله وحده

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله، فذلك لجهله وقصوره في معرفة  
الله تعالى، وحب الرسول صلى الله عليه وسلم محمود، لأنه عين حب الله تعالى، وكذلك  
حب العلماء والأتقياء، لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب، ومحبة  
المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل، فلا يتجاوز إلى غيره، فلا محبوب  
بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه. وإيضاحه بأن يرجع إلى  
الأسباب الخمسة التي ذكرناها، ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى يحتملها، ولا يوجد في  
غيره إلا آحادها، وأنها حقيقة في حق الله تعالى ووجودها في حق غيره وهم وتخيّل، وهو

(١) حديث فاما تعرف منها اختلف: مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في آداب الصلوة

مجاز محض ، لاحقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ما تخيله ضمفاء  
المقول والقلوب ، من استحالة حب الله تعالى تحقيقا ، وبأن أن التحقيق يقتضى أن  
لا يحب أحدا غير الله تعالى . فأما السبب الأول : وهو حب الإنسان نفسه وبقاؤه  
وكمال ، ودوام وجوده ، وبنضه لهلاكه ، وعدمه ، وتقصاته ، وقواطع كماله ، فهذه جبلة كل  
حي ، ولا يتصور أن ينفك عنها وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى ، فإن من عرف نفسه  
وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته ، وإنما وجود ذاته ، ودوام وجوده ، وكمال  
وجوده من الله ، وإلى الله ، وبالله ، فهو المخترع الموجد له ، وهو المبتقى له ، وهو المكمل  
لوجوده بخلق صفات الكمال ، وخلق الأسباب الموصلة إليه ، وخلق الهداية إلى استعمال  
الأسباب ، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته ، بل هو محو محض ، وعدم  
صرف ، لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد ، وهو هالك عقيب وجوده ، لولا فضل الله  
عليه بالإبقاء . وهو ناقص بعد الوجود ، لولا فضل الله عليه بالتكميل خلقتة

وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام ، إلا القيوم الحي الذي هو قائم بذاته ،  
وكل ماسواه قائم به ، فإن أحب العارف ذاته ، ووجود ذاته مستفاد من غيره ، فبالضرورة  
يحب المفيد لوجوده ، والمديم له إن عرفه خالقا موجدا ، ومخترا مبقيا ، وقيوما بنفسه ،  
ومقوما لغيره ، فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه ، والمحبة ثمرة المعرفة ، فتتعدم بانعدامها  
وتضعف بضعفها ، وتقوى بقوتها ، ولذلك قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : من عرف  
ربه أحببه ومن عرف الدنيا زهد فيها ، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب  
ربه ، الذي به قوام نفسه ، ومعلوم أن المبتلى ببحر الشمس ، لما كان يحب الظل فيحب  
بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل ، وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو  
كالظل بالإضافة إلى الشجر ، والنور بالإضافة إلى الشمس ، فإن الكل من آثار قدرته ،  
ووجود الكل تابع لوجوده ، كما أن وجود النور تابع للشمس ، ووجود الظل تابع للشجر ،  
بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام ، إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس ، وفائض  
منها ، وموجود بها ، وهو خطأ محض ، إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافا أظهر من  
مشاهدة الأبصار ، أن النور حاصل من قدرة الله تعالى ، اختراعا عند وقوع المقابلة بين الشمس

والأجسام الكثيفة ، كما أن نور الشمس وعينها وبشكلها وصورتها أيضا حاصل من قدرة الله تعالى ، ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم ، فلا يطلب فيها الحقائق ، فإذا إن كان حب الإنسان نفسه ضروريا ، فحبه لمن به قوامه أولا ودوامه ثانيا ، في أصله وصفاته ، وظاهره وباطنه ، وجواهره وأعراضه أيضا ضروري أن عرف ذلك كذلك ، ومن خلا عن هذا الحب ، فلا أنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته ، وهو عالم الشهادة الذي يشاركه اليبهائم في التمتع به ، والاتساع فيه دون عالم الملكوت ، الذي لا يبطأ أرضه ، إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة ، فينظر فيه بقدر قربيه في الصفات من الملائكة ، ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم وأما السبب الثاني : وهو حبه من أحسن إليه ، فواساه بماله ولاطفه بكلامه ، وأمدته بموئنته ، وانتدب لنضرته وقمع أعدائه ، وقام بدفع شرّ الأشرار عنه ، واتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأعراضه في نفسه ، وأولاده وأقاربه ، فإنه محبوب لامحالة عنده ، وهذا بعينه يقتضى أن لا يحب إلا الله تعالى ، فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط ، فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فليست أعداها ، إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى ( وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا <sup>(١)</sup> ) وقد أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر ، ولسكنا نقتصر الآن على بيان أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وإنما المحسن هو الله تعالى ، ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه. وممكنك منها لتصرف فيها كيف تشاء ، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه وهو غلط ، فإنه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك ، فن الذي أنعم بخلقك ، وخلق ماله ، وخلق قدرته ، وخلق إرادته وداعيته ؛ ومن الذي حببك إليه وصرف وجهه إليك ، وألقى في نفسه أن صلاح دينه أو دنياه في الإحسان إليك ، ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله . ومهما سلط الله عليه الدواعي ، وقرّر في نفسه أن صلاح دينه أو دنياه في أن يسلم إليك ماله كان مقهورا مضطرا في التسليم لا يستطيع مخالفته ، فالمحسن هو الذي اضطره لك وسخره ، وسلط عليه الدواعي الباعثة المرهقة إلى الفعل . وأما يده

فواسطة يصل بها إحسان الله إليك ، وصاحب اليد مضطر في ذلك اضطرار مجرى الماء في جريان الماء فيه ، فإن اعتقدته محسناً أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن ، لا من حيث هو واسطة كنت جاهلاً بحقيقة الأمر ، فإنه لا يتصور الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه أما الإحسان إلى غيره فحال من المخلوقين ، لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له في البذل ، إما آجل وهو الثواب ، وإما عاجل وهو المنّة والاستسجار ، أو الثناء والصيت ، والاشتهار بالسخاء والكرم ، أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة ، وكما أن الإنسان لا يلقي ماله في البحر ، إذ لا غرض له فيه ، فلا يلقيه في يد إنسان إلا لغرض له فيه ، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده ، وأما أنت فلست مقصوداً ، بل يدك آلة له في القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب ، بسبب قبضك المال ، فقد استسخررك في القبض للتوصل إلى غرض نفسه . فهو إذاً محسن إلى نفسه ، ومعتاض عما بذله من ماله عوضاً هو أرجح عنده من ماله ، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلاً ألبتة فإذا هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين

أحدهما : أنه مضطر بتسليط الله الدواعي عليه ، فلا قدرة له على المخالفة ، فهو جار مجرى خازن الأمير ، فإنه لا يرى محسناً بتسليم خلة الأمير إلى من خلع عليه ، لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة ، والامتثال لما يرسمه ، ولا يقدر على مخالفته . ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك ، فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله ، حتى سلط الله الدواعي عليه وأتت في نفسه أن حظه دينا ودنيا في بذله فبذله لذلك

والثاني : أنه معتاض عما بذله حظاً هو أوفى عنده وأحب مما بذله ، فكما لا يبد البائع محسناً لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله ، فكذلك الواهب ، اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضاً آخر ، وليس من شرط العوض أن يكون عينا متموّلاً ، بل الحظوظ كلها أعواض تستحق الأموال والأعيان بالإضافة إليها ، فالإحسان في الجود ، والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى البازل وذلك محال من غير الله سبحانه ، فهو الذي أنعم على العالمين إحساناً إليهم ، ولأجلهم ، لا لخطو غرض يرجع إليه ، فإنه يتعالى عن الأغراض فلفظ الجود والإحسان في حق غيره كذب أو مجاز ، ومعناه في حق غيره محال وممتنع امتناع



الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد بالجود والإحسان، والطول والامتنان، فإن كان في الطبع حب المحسن فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله تعالى، إذا الإحسان من غيره محال، فهو المستحق لهذه المحبة وحده وأما غيره فيستحق المحبة على الإحسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته وأما السبب الثالث : وهو حبك المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه وهذا أيضا موجود في الطباع، فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك، وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك، فإنك تجد في قلبك تفرقة بينهما، إذ تجد في القلب ميلا إلى الأول، وهو الحب ونفرة عن الثاني، وهو البغض، مع أنك آيس من خير الأول، وآمن من شر الثاني، لا تقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادها فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا إلا من حيث يتعلق منه بسبب، فإن الله هو المحسن إلى الكافة والمتفضل على جميع أصناف المخلوقات أولا بإيجادهم، وثانيا بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم، وثالثا بترفيهم وتنعيمهم بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم وإن لم تكن في مظان الضرورة، ورابعا بتجميلهم بالمزايا والزوائد التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم. ومثال الضروري من الأعضاء الرأس، والقلب، والكبد ومثال المحتاج إليه العين، واليد، والرجل، ومثال الزينة استقواس الحاجبين، وجمرة الشفتين، وتلوذ العينين، إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة، ومثال الضروري من النعم الخارجة عن بدن الإنسان الماء والغذاء، ومثال الحاجة الدواء، واللحم، والفواكه، ومثال المزايا والزوائد خضرة الأشجار، وحسن أشكال الأنوار والأزهار، ولذائد الفواكه والأطعمة التي لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان، بل لكل نبات، بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الفرش . فإذا هو المحسن، فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ! فإنه خالق الحسن، وخالق المحسن، وخالق الإحسان، وخالق أسباب الإحسان . فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض، ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى

وَمَا الرَّبُّ الرَّابِعُ : وهو حب كل جميل لذات الجمال ، لالخط ينال منه وراء إدراك الجمال ، وقد بدأ أن ذلك محمول في الطباع ، وأن الجمال ينقسم إلى حال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس ، وإلى حال الصورة المدركة الباطنة بعين القلب ونور البصيرة والأول يدركه الصبيان والبهائم ، والثاني يختص بدركه أرباب القلوب ، ولا يشاركون فيه من لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا . وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال . فإن كان مدركاً بالقلب فهو محبوب القلب . ومثال هذا في المشاهدة حب الأنبياء ، والعلماء ، وذوى المكارم السنية والأحلاف المرضية ، فإن ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الأعضاء ، وهو المراد بحسن الصورة الباطنة ، والحس لا يدركه . نعم بدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه ، حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه ، فن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو الصديق رضي الله تعالى عنه ، أو الشافعي رحمه الله عليه ، فلا يحبهم إلا لحسن ما ظهر له منهم ، وليس ذلك لحسن صورهم ، ولا لحسن أفعالهم ، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر الأفعال ، إذا أفعال آثار صادرة عنها ، ودالة عليها . فن رأى حسن تصنيف المصنف ، وحسن شعر الشاعر ، بل حسن نقش النقاش ، وبناء البناء ، انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة . ثم كلما كان المعلوم أشرف وأنتم جمالاً وعظمة ، كان العلم أشرف وأجل . وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة ، كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدراً . وأجل المعلومات هو الله تعالى ، فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به

فإذا جال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ترجع إلى ثلاثة أمور

أحدها : علمهم بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، وشرائع أنبيائه

والثاني : قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة

والثالث : نزهتهم عن الرذائل ، والحجائب والشهوات العالبة الصارفة عن سبيل الخير

الجاذبة إلى طريق الشر . وبمثل هذا يحب الأنبياء ، والعلماء ، والخلفاء ، والملوك الذين هم

أهل العدل والكرم ، فانسحب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى

أما العلم فأين علم الأولين والآخريين من علم الله تعالى الذي يحيط بالسَّكُلِ إحاطةً خارجيةً عن النهاية ، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل ( وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا <sup>(١)</sup> ) بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطعموا على عشر عشر ذلك ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، والقدر اليسير الذي علمه الخلائق كلهم فتعليمه علموه ، كما قال تعالى ( خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ أَلْفَبًا <sup>(٢)</sup> ) فإن كان جمال العلم وشرفه أمرًا محبوبًا ، وكان هو في نفسه زينة وكمالًا الموصف به ، فلا ينبغي أن يحجب بهذا السبب إلا الله تعالى . فعلوم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه . بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه ، استحال أن يحجب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعم ، وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم ما ، تتقاضاه مدينته والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم ، لأن الأعم لا يفضل الأجهل إلا بما هو ممدودة متناهية ، يتصور في الأمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية ، إذ معلومانه لانهاية لها ، ومعلومات الخلق متناهية

وأما صفة القدرة فهي أيضا كمال ، والمجزئ نقص ، فكل كمال ، وبهاء ، وعظمة ، ومجد ، واستيلاء ، فإنه محبوب ، وإدراكه لذيق ، حتى أن الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة علي وخالد رضي الله تعالى عنهما ، وغيرهما من الشجعان ، وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران ، فيصاف في قلبه اهتزازا ، وفرحا ، وارتياحا ضروريا بمجرد لذة السماع فضلا عن المشاهدة ، ويورث ذلك حبا في القلب ضروريا للمتصف به ، فإنه نوع كمال . فأنسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى ، فأعظم الأشخاص قوة وأوسمهم ملسكا ، وأقوام بطشا ، وأقهرهم للشهوات ، وأقمعهم لخبائث النفس ، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ، ما منتهى قدرته ؟ وإعنا غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه ، وعلى بعض أشخاص الإنس في بعض الأمور . وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا ، ولا ضرا ، ولا نفعا

(١) الاسراء : ٨٥ (٢) الرحمن : ٣ ، ٤

بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ، ولسانه من الخرس ، وأذنه من الصمم ، وبدنه من المرض . ولا يحتاج إلى عدة ما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته ، فضلا عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات ، وأفلاكها ، وكواكبها ، والأرض وجبالها ، وبحارها ، ورياحها ، وصواعقها ، ومعادنها ، ونباتها ، وحيواناتها ، وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها . وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه ، بل الله خالقه وخالق قدرته ، وخالق أسبابه ، والممكن له من ذلك . ولو سلط بموضا على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه ، فليس للعبد قدرة إلا بتمكن مولاه ، كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال ( إِنَّا مَكْنَالُهُ فِي الْأَرْضِ ) (١) فلم يكن جميع ملكه وسلطته إلا بتمكن الله تعالى إياه في جزء من الأرض ، والأرض كلها مدبرة بالإضافة إلى أجسام العالم ، وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غيرة من تلك المدبرة ، ثم تلك الغيرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه فيستحيل أن يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته ، وسياسته ، وتمكينه ، واستيلائه ، وكمال قوته ، ولا يحب الله تعالى لذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فهو الجبار القاهر ، والعليم القادر ، السموات مطويات يمينه ، والأرض وملكها وما عليها في قبضته ، وناصبة جميع المخلوقات في قبضة قدرته ، إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة ، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعبى بخلقها ، ولا يعبه لغوب ولا فتور في اختراعها ، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أنار قدرته ، فله الجمال والبهاء ، والعظمة والكبرياء ، والقهر والاستيلاء . فإن كان ينصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواء أصلا وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص ، والتقديس عن الرذائل والنجاسات ، فهو أحد موجبات الحب ، ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة . والأنبياء والصدوقون وإن كانوا منزهيين عن العيوب والنجاسات فلا يتصور كمال التقديس والتنزه إلا للواحد الحق الملك القدوس ، ذي الجلال والإكرام . وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا ، مخلوقا ، مسغرا ، مضطرا ، هو عين العيب والنقص ، فالكمال لله وحده

وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله ، وليس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره . فإن منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبداً مسخراً لغيره ، قائماً بغيره ، وذلك محال في حق غيره ، فهو المنفرد بالكمال ، المنزه عن النقص ، المقدس عن البيوب وشرح وجوه التقديس والتنزه في حقه عن النقائص بطول ، وهو من أسرار علوم المكاشفات ، فلا يطول بذكره . فهذا الوصف أيضاً إن كان كمالاً وجمالاً محبوباً ، فلا تتم حقيقته إلا له ، وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقاً ، بل بالإضافة إلى ما هو أشد منه نقصاً ، كما أن للفرس كمالاً بالإضافة إلى الحمارة ، وللإنسان كمالاً بالإضافة إلى الفرس . وأصل النقص شامل للكل ، وإنما يتفاوتون في درجات النقصان . فإذا الجميل محبوب ، والجميل المطلق هو الواحد الذي لا بدله ، الفرد الذي لا ضده ، الصمد الذي لا منازع له ، الغني الذي لا حاجة له ، القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا أراد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض ، القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ، ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلي الذي لا أول لوجوده ، الأبدى الذي لا آخر لبقائه ، الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته ، القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به ، جبار السموات والأرض ، خالق الجبال والحيوان والنبات ، المنفرد بالعمة والجبروت ، المتوحد بالملك والملكوت ، ذو الفضل والجلال ، والبهاء والجمال ، والقدرة والكمال ، الذي تنحير في معرفة جلاله العقول ، وتخرس في وصفه الألسنة ، الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ، ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالتصور عن وصفه ، كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين <sup>(١)</sup> « لَا أَحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » وقال سيد الصديقين رضي الله تعالى عنه : العجز عن درك الإدراك إدراك ، سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . فليت شعري من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقاً وبجمله مجازاً ، أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجلال والحمد ، ونعوت الكمال والمحاسن ، أو ينكر كون الله تعالى موصوفاً بها ؟ أو ينكر كون الكمال والجمال ، والبهاء والعظمة ، محبوباً بالطبع فتدمن أدراكه ؟

( ١ ) حديث لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك : تقدم

فسبحان من احتجب عن بصائر العيان غيره على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى ، الذين هم عن نار الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين في ظلمات المعى يتيهون وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون

فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان ، لأن الإحسان يزيد وينقص . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام . إن أود الأوداء إلي من عبدني بغير نوال ؛ لكن ليعطى البروقية حقها . وفي الزبور : مَنْ أَظْلَمُ مِنْ عَبْدِنِي لُجْنَةُ أَوْ نَارٍ ، لَوْ لَمْ أَخْلُقْ جَنَّةً وَلَا نَارًا لَمْ أَكُنْ أَهْلًا أَنْ أَطَاع ! ومرر عيسى عليه السلام على طائفة من العبّاد قد نحلوا فقالوا نخاف النار ونرجو الجنة ، فقال لهم . مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم . ومرر بقوم آخرين كذلك فقالوا نعبده حبّاله ونعظمه لجلاله ، فقال . أنتم أولياء الله حقّا ، معكم أمرت أن أقيم .

وقال أبو حازم . إنى لأستحي أن أعبد للثواب والعقاب ، فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ، وكالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل . وفي الخبر <sup>(١)</sup> « لَا يَكُونَنَّ أَحَدُكُمْ كَالْأَجِيرِ السَّوِّءِ إِنْ لَمْ يُعْطَ أَجْرًا كَمْ يَفْعَلُ وَلَا كَالْعَبْدِ السَّوِّءِ إِنْ لَمْ يَخَفْ لَمْ يَمْعَل »

وأما السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة ، لأن شبه الشيء منجذب إليه ، والشكل إلى الشكل أميل . ولذلك ترى الصبي يألف الصبي ، والكبير يألف الكبير ، ويألف الطير نوعه ، وينفر من غير نوعه ، وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف ، وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح ، وهذا أمر تشهد به التجربة ، وتشهد له الأخبار والآثار ، كما استقصيناه في باب الأخوة في الله من كتاب آداب الصّحبة فليطلب منه

وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر ، كناسية الصبي الصبي في معنى الصبا . وقد يكون خفيا حتى لا يطلع عليه ، كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال ، أو طمع في مال أو غيره ، كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال « الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَكَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اتَّخَلَفَ وَمَا تَنَاسَكَ كَرِهَتْ مِنْهَا اخْتَلَفَ » فالعارف هو التناصب ، والتناكر هو التباين .

(١) حديث لا يكون أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجرا لم يعمل : لم أجده أصلا

وهذا السبب أيضا يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع إلى المشابهة في الصور والأشكال . بل إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها في الكتب ، وبعضها لا يجوز أن يسطر . بل يترك تحت غطاء النبرة حتى يثمر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك . فالذي يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أمر فيها الاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ، حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله ، وذلك في اكتساب حامد الصفات التي هي من صفات الإلهية ، من العلم ، والبر ، والإحسان ، واللطف ، وإفاضة الخير ، والرحمة على الخلق ، والنصيحة لهم ، وإرشادهم إلى الحق ، ومنعهم من الباطل ، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، لا بمعنى طلب القرب بالمكان ، بل الصفات وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها الأديم ، فهي التي يومئ إليها قوله تعالى ( وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي <sup>(١)</sup> ) إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق . وأوضح من ذلك قوله تعالى ( فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي <sup>(٢)</sup> ) ولذلك أسجد له ملائكته . وبشير إليه قوله تعالى ( إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ <sup>(٣)</sup> ) إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة . وإليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس ، فشبهوا وجسموا وصوروا تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا . وإليه الإشارة <sup>(٢)</sup> بقوله تعالى لموسى عليه السلام : مرضت فلم تعدني فقال يارب وكيف ذلك ؟ قال مرض عبي فلان فلم تعده ولو عدته وجدتنى عنده : وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواطبة على التوافل بمداحكام الفرائض كما قال الله تعالى <sup>(٣)</sup> « لَا يَزَالُ يَقْرَبُ الْعَبْدُ إِلَى التَّوَافُلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أُحِبَّتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ »

وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه ، فقد تمحزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى

( ١ ) حديث ان الله خلق آدم على صورته : تقدم

( ٢ ) حديث قوله تعالى مرضت فلم تعدني فقال وكيف ذلك قال مرض فلان - الحديث : تقدم

( ٣ ) حديث قوله تعالى لا يزال يتقرب العبد إلى التوافل حتى أحبه - الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(١) الاسراء : ٨٥ (٢) الحجر : ٣٠ (٣) ص : ٢٦

التشبيه الظاهر ، وإلى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة إلى الاتحاد ، وقالوا بالحلول ، حتى قال بعضهم أنا الحق . وضل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا هو الإله . وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت . وقال آخرون اتحد به . وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل ، واستحالة الاتحاد والحلول ، واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر ، فهم الأفلون ولعل أبا الحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر إذغلبه الوجد في قول القائل  
لازلت أنزل من وداك منزلا . تحذير الألباب عند نزوله

فلم يزل يعدو في وجده على أجمة قد قطع قصبه ابقى أصوله حتى تشققت قدماه وتورمتا ومات من ذلك ، وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها ، وهو أعزها ، وأبعدا ، وأقل وجودا فهذه هي المعلومة من أسباب الحب . وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقا لإيجازا . وفي أعلى الدرجات لا في أدناها . فكان المعقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط ، كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط . ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته أياه في السبب ، والشركة نقصان في الحب ، وغض من كماله ، ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد ، إلا الله تعالى ، فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والكمال ، ولا شريك له في ذلك وجودا ، ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا ، فلا جرم لا يكون في حبه شركة ، فلا يتطرق النقصان إلى حبه ، كما لا يتطرق الشركة إلى صفاته ، فهو المستحق إذا أصل المحبة وكمال المحبة استحقاقا لا يسام فيه أصلا

## بيان

أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم وأنه لا يتصور أن يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذة ، ولذتها في ثيلها لمقتضى طبعها الذي خلقت له ، فإن هذه الغرائز ماركت في الإنسان عيشا ، بل ركبته كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع . فغريزة الغضب خلقت للنشيق والانتقام ، فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذي هو مقتضى



طبعها . وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام ، فلا جرم لذتها فى نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبيعها . وكذلك لذة السمع ، والبصر ، والشم ، فى الإيبصار ، والاستماع ، والشم . فلا تخلو غريزة من هذه الفرائز ، عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدرجاتها . فكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهي ، لقوله تعالى ( أَقْنِ شَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ <sup>(١)</sup> ) وقد تسمى العقل ، وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الإيمان واليقين ، ولا معنى للاشتغال بالأشياء . فإن الاصطلاحات مختلفة ، والضعيف يظن أن الاختلاف واقع فى المعاني ، لأن الضعيف يطلب المعاني من الألفاظ ، وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن ، بصفة بها يدرك المعاني التى ليست متخيلة ولا محسوسة كإدراكه خلق العالم ، أو افتقاره إلى خالق قديم ؛ مدبر حكيم ، موصوف بصفات إلهية ، ولنسم تلك الغريزة عقلا ؛ بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ، ولهذا ذمه بعض الصوفية وإلا فالصفة التى فارق الإنسان بها البهائم ، وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات ، فلا ينبغي أن ندم وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها ، فمقتضى طبيعها المعرفة ، والعلم وهي لذتها ، كما أن مقتضى سائر الفرائز هو لذتها . وليس يخفى أن فى العلم والمعرفة لذة ، حتى أن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو فى شيء خسيس يشرح به ، والذى ينسب إلى الجهل ولو فى شيء حقير يفتن به . وحتى أن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتمدح به فى الأشياء الحقةرة ، فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطبق السكوت فيه عن التعليم ، وينطلق لسانه بذكر ما يعامسه ، وكل ذلك لفرط لذة العلم ، وما يستشعره من كمال ذاته به ، فإن العلم من أخص صفات الربوبية ، وهي منتهى الكمال

ولذلك يرتاح الطبع إذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم ، لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه ، فيعجب بنفسه ويلتذبه .

ثم ليست لذة العلم بالحرارة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدير أمرا الخلق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ، وملكوت السموات

والارض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، حتى أن الذى يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة ، وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تديره فى رياسته كان ذلك ألد عنده وأطيب من علمه بواطن حال فلاح أو حائك ، فإن اطلع على أسرار الوزير وتديره وما هو عازم عليه فى أمر الوزارة فهو أشهى عنده وألد من علمه بأسرار الرئيس ، فإن كان خبيراً ببواطن أحوال الملك والسلطان الذى هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألد من علمه ببواطن أسرار الوزير ؟ وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد ، وحبّه له أكثر ، لأن لذته فيه أعظم :

فبهذا استبان أن ألد المعارف أشرفها ، وشرفها بحسب شرف المعلوم فإن كان فى المعلومات ما هو الأجل والأكمل ، والأشرف ، والأعظم فالعلم به ألد العلوم لأحالة وأشرفها وأطيبها وليت شعري هل فى الوجود شي أجل ، وأعلى ، وأشرف وأكمل ، وأعظم ، من خالق الأشياء كلها ومكملها ، ومزينها ، ومبدئها ، ومعيدها ، ومدبرها ، ومرتبها ؟ وهل يتصور أن تكون حضرة فى الملك ، والكمال ، والجمال ، والبهاء ، والجلال ، أعظم من الحضرة الربانية التى لا يحيط بمبادئ جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين ؟

فإن كنت لا تشك فى ذلك فلا ينبغي أن تشك فى أن الاطلاع على أسرار الربوبية ، والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات ، هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات ، وألذها ، وأطيبها ، وأشهاها ، وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كلها وجمالها وأجدر ما يعظم به الفرح ، والارتياح ، والاستبشار

وبهذا تبين أن العلم لذيد ، وأن ألد العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ، وتديره فى مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين . فينبغى أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات ، أعنى لذة الشهوة والغضب ، ولذة سائر الحواس الخمس ، فإن اللذات مختلفة بالنوع أولاً ، كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ، ولذة المعرفة للذة الرياسة ، وهى مختلفة بالضعف والقوة ، كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر للشهوة ، ومخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى مادونه فى الجمال . وإنما تعرف أقوى اللذات

بأن تكون مؤثرة على غيرها ، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها ، وبين استنشاق روائح طيبة ، إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألدّ عنده من الروائح الطيبة . وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل ، واستمر اللاعب بالشطرنج على اللب وترك الأكل ، فيعلم به أن لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل . فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللذات ، فنعود ونقول :

اللذات تنقسم إلى ظاهرة كاللذة الحواس الخمس ، وإلى باطنة كاللذة الرياسة ، والغلبة ، والكرامة والعلم ، وغيرها ، إذ ليست هذه اللذة للعين ، ولا للأنف ، ولا للآذن ، ولا للمس ، ولا للذوق . والمعاني الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة . فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج ، وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كان المخير خسيس الهمة ، ميت القلب ، شديد الهمة ، اختار اللحم والحلاوة ، وإن كان عليّ الهمة ، كامل العقل ، اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة فاختياره للرياسة يدل على أنها ألدّ عنده من المطعومات الطيبة . نعم الناقص الذي لم تكمل معانيه الباطنة بمد كالصبي ، أو كالذي ماتت قواه الباطنة كالمعتوه ، لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة . وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته ، فلذة معرفة الله تعالى ، ومطالعة جمال حضرة الربوبية ، والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألدّ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق وغاية العبارة عنه أن يقال فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ، وإنه أعد لهم مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر

وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعا ، فإنه لا محالة يؤثر التبتل ، والتفرد ، والفكر ، والذكر ، وينغمس في بحار المعرفة ، ويترك الرياسة ، ويستحقق الخلق الذين يرأسهم لعلمه بفناء رياسته ، وفناء من عليه رياسته ، وكونه مشوبا بالسكودرات التي لا يتصور الخلو عنها ، وكونه مقطوعا بالموت الذي لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وذن أهلها أنهم قادرون عليها ، فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ، ومطالعة صفاته وأفعاله

ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين ، فإنها خالية عن المزاحات والمكدرات ، متسعة للمتواردين عابها ، لانضيق عنهم بكبرها ، وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض ، وإذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعها في جنة عرضها السموات والأرض ، يرتع في رياضها ، ويقطف من ثمارها ، ويكرع من حباضها ، وهو آمن من انقطاعها ، إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة . ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت ، إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ، ومحله الروح الذي هو أمر رباني سماوي ، وإنما الموت يغير أحوالها ، ويقطع شواغلها وعوائقها ، ويخايبها من حبسها ، فأما أن يعدمها فلا . ( وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرَجِحْ بِنَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ <sup>(١)</sup> ) الآية . ولا تظن أن هذا مخصوص بالمقتول في المعركة ، فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبر <sup>(٢)</sup> أن الشهيد يتمنى في الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة ، وأن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء

فإذاً جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف ، يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه ، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض ، وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً ، إلا أنهم يتفاوتون في سعة منتزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله . ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم

فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة ، أقوى في ذوى الكمال من لذات الحواس كلها ، وأن هذه اللذة لا تكون لبهيمية ، ولا لصبي ، ولا لمعتوه ، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون للذوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرن الرياسة

فأما معنى كون معرفة الله ، وصفاته ، وأفعاله ، وملكوت سمواته ؛ وأسرار ملكه

( ١ ) حديث ان الشهيد يتمنى أن يرد في الآخرة الى الدنيا ليقول مرة أخرى - الحديث : متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم وليس فيه وان الشهداء يتمنون أن يكونوا علماء - الحديث

<sup>(٢)</sup> آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠

أعظم لذة من الرياسة ، فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاتها ، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا تطلب له ، لأن القلب معدن هذه القوة ، كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ، ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنبرين لأنه فقد الصفة التي بها تدرك هذه اللذة . ولكن من سلم من آفة العنة ، وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين ، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف ولعمري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية ، فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوى حرصهم على طلبها فإنها أيضا معارف وعلوم ، وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية . فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه ، وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ، ويتمتع من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره . وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق ، والحكاية فيه قليلة الجدوى فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألد الأشياء ، وأنه لا لذة فوقها ، ولهذا قال أبو سليمان الداراني : إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ! ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له : أخبرني يا أبا محفوظ أي شيء هاجك إلى العبادة والانتقطاع عن الخلق ؟ فسكت . فقال ذكر الموت ؟ فقال وأي شيء الموت ؟ فقال ذكر القبر والبرزخ ؟ فقال وأي شيء القبر ؟ فقال خوف النار ورجاء الجنة ؟ فقال وأي شيء هذا ؟ إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك ، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفأك جميع هذا . وفي أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتى مشغوبا بطلب الرب تعالى ، فقد ألهاه ذلك عما سواه . ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث في النوم فقال : ما فعل أبو نصر التمار ، وعبد الوهاب الوراق ؟ فقال : تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يأكلان ويشربان قلت فأنت ؟ قال علم الله قلة رغبتى في الأكل والشرب ، فأعطاني النظر إليه وعن علي بن الموفق قال : رأيت في النوم كأنني أدخلت الجنة . فرأيت رجلا قاعدا على مائدة ، وملكاً عن يمينه . وشماله يلقيانه من جميع الطيبات وهو يأكل . ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس ، فيدخل بمضا ويرد بعضا . قال : ثم جاوزهما

إلى حظيرة القدس ، فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شخّص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف . فقلت لرضوان : من هذا ؟ فقال معروف الكرخي ، عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبّا له ، فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل . ولذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ، ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثوري لرابعة : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبدته حبّا له وشوقا إليه . وقالت في معنى المحبة نظما :

أحبك حبين حب الهوى      وحبا لأنك أهلا لذا  
فأما الذي هو حب الهوى      فشغلي بذكرك عمّن سوا  
وأما الذي أنت أهل له      فكشفك لي الحجب حتى أراك  
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي      ولكن لك الحمد في ذا وذا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بمحظوظ العاجلة ، ونجبه لها هو أهل له الحب لجلاله وجلاله الذي انكشف لها ، وهو أعلى الحبين وأقوامها . ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها <sup>(١)</sup> رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا عن ربه تعالى « أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَأَعِينَ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ » وقد تمجّل بمض هذه اللذات في الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية . ولذلك قال بعضهم : إني أقول يارب يا الله ، فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال ، لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليسا ينادي جليسه ! وقال : إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة . أي يخرج كلامه عن حد عقولهم ، فيرون ما يقوله جنونا أو كفرا

فتقصّد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط ، فهي قرة العين التي لا تعلم نفس ما أخفى لهم منها ، وإذا حصلت انحسرت الهوم والشهوات كلها ، وصار القلب مستغرقا بنعيمها ، فلو ألقى في النار لم يحس بها لاستغراقه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لسكّال نعيمه ، وبلوغه الغاية

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت - الحديث :

البخاري من حديث أبي هريرة .

التي ليس فوقها غاية. وليت شعري من لم يفهم الاحب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه  
الله تعالى، وماله صورة ولا شكل، وأي معنى لو عد الله تعالى به عباده، وذكره أنه أعظم النعم ! بل  
من عرف الله عرف أن اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوي تحت هذه اللذة كما قال بعضهم

كانت لقلبي أهواء مفرقة      فاستجمعت مذراتك المين أهوائى  
فصار يحسدنى من كنت أحسده      وصرت مولى الورى مذصرت مولائى  
تركت للناس دنياهم ودينهم      شغلا بذكرك يادىنى ودينائى  
ولذلك قال بعضهم

وهجره أعظم من نار      ووصله أطيب من بخر  
وما أرادوا بهذا إلا إشار لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح،  
فإن الجنة معدن تنعم الحواس، فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط  
ومثال أطوار الخلق في لذاتهم ما ذكره، وهو أن الصبي في أول حركته وتميزه يظهر  
فيه غريزة به استلذ اللعب واللهو، حتى يكون ذلك عنده ألد من سائر الأشياء. ثم يظهر  
بعده لذة الزينة وليس الثياب وركوب الدواب، فيستحقر معها هذه اللعب. ثم يظهر بعده  
لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب، فيستحقر معها هذه اللعب. ثم يظهر بعده لذة  
الوقائع وشهوة النساء، فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها. ثم تظهر لذة الرياسة والعلو  
والتكاثر، وهي آخر لذات الدنيا، وأعلاها، وأقواها، كما قال تعالى (اعلموا أنما الحياة  
الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر) (١) الآية، ثم بعد هذا تظهر غريزة  
أخرى يدرك بها معرفة الله تعالى، ومعرفة أفعاله، فيستحقر معها جميع ما قبلها، فكل متأخر  
فهو أقوى، وهذا هو الأخير، إذ يظهر حب اللعب في سن التميز، وحب النساء والزينة  
في سن البلوغ، وحب الرياسة بعد العشرين، وحب العلو بقرب الأربعين، وهي الغاية  
العلية. وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب ويشغل بعلاعبة النساء وطلب الرياسة  
فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشغل بعرفة الله تعالى، والعارفون  
يقولون: إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعانون

## بيان

السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا

اعلم أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال ، كالصور المتخيلة ، والأجسام المتلونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات ، وإلى ما لا يدخل في الخيال ، كذات الله تعالى وكل ما ليس بجسم ، كالعلم ، والقدرة والإرادة وغيرها . ومن رأى إنساناً ثم غض بصره ، وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها . ولكن إذا فتح العين وأبصر وأدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين ، لأن الصورة المرئية تكون موافقة للتخيلة وإنما الاقتراق بمزيد الوضوح والكشف ، فإن صورة المرئي صارت بالرؤية أتم انكشافاً ووضوحاً . وهو ك شخص يرى في وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ، ثم يرى عند تمام الضوء ، فإنه لا تفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف

فإذاً الخيال أول الإدراك ، والرؤية هو الاستكمال لإدراك الخيال ، وهو غاية الكشف وسمى ذلك رؤية لأنه غاية الكشف ، لأنه في العين . بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المكشوف في الجبهة أو الصدر مثلاً استحق أن يسمى رؤية

وإذا فهمت هذا في التخيلات فاعلم أن المعلومات التي لا تتشكل أيضاً في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان : إحداهما أولى ، والثانية استكمال لها . وبين الأولى والثانية من التفاوت في مزيد الكشف والإيضاح ما بين التخيل والمرئي ، فيسمى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأول مشاهدة ، ولقاء ، ورؤية . وهذه التسمية حق ، لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ، ويكون حجاباً بين البصر والمرئي ، ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ، وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرد التخيل ، فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات ، وما غلب عليها من الصفات البشرية ، فإنها لا تنتهي إلى المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال . بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار . والقول في سبب كونها حجاباً يطول ، ولا يليق بهذا



العلم . ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام ( لَنْ تَرَانِي <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ <sup>(٢)</sup> )  
أى فى الدنيا . والصحيح <sup>(١)</sup> أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج  
فإذا ارتفع الحجاب بالموت ، بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا ، غير منفكة عنها  
بالكلية وإن كانت متفاوتة . فمنها ما تراكم عليه الخبث والصدأ ، فصار كالمرآة التى فسد  
بطول تراكم الخبث جوهرها ، فلا تقبل الإصلاح والتصقيل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن  
ربهم أبد الآباد ، نعوذ بالله من ذلك . ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع ، ولم يخرج عن  
قبول التريكة والتصقيل ، فيعرض على النار عرضا يجمع منه الخبث الذى هو متدنس به ،  
ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التريكة ، وأقلها لحظة خفيفة ، <sup>(٣)</sup> وأقصاها فى  
حق المؤمنين كما وردت به الأخبار سبعة آلاف سنة ، ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا  
ويصحبها غيرة وكدورة ما وإن قلت ولذلك قال الله تعالى ( وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ  
عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا <sup>(٤)</sup> ) فكل نفس  
مستيقنة للورود على النار ، وغير مستيقنة للصدور عنها . فإذا أكمل الله تطهيرها وتركبتها ، وبلغ  
الكتاب أجله ، ووقع الفراغ عن جملة ما وعده بالشرع من الحساب والعرض وغيره ، ووافى استحقاق  
الجنة ، وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحد من خلقه ، فإنه واقع بعد القيامة ، ووقت القيامة مجهول  
فمنذ ذلك يشتغل بصفائه ونقاؤه عن الكدورات ، حيث لا يرهق وجهه غيرة ولا قسرة ،  
لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى ، فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليته بالإضافة إلى  
ماعلمه كانكشاف تجلى المرآة بالإضافة إلى ما تحيله . وهذه المشاهدة والتجلى هي التى تسمى رؤية

( ١ ) حديث انه صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج على الصحيح هذا الذى صححه المصنف هو قول  
عائشة فى الصحيحين انها قالت من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب \* ولمسلم من حديث  
أبي ذر سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نورانى أراه وذهب ابن عباس  
وأكثر العلماء إلى اثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم وحديث أبي ذر  
قال فيه أحمد ما زلت له منكرا وقال ابن حزيمة فى القلب من صحة اسناده شيء مع أن فى رواية  
لاحمد فى حديث أبي ذر رأيت نورانى أراه ورجال اسنادها رجال الصحيح

( ٢ ) حديث ان أقصى المكث فى النار فى حق المؤمنين سبعة آلاف سنة : الترمذى الحكيم فى نوادر الاصول  
من حديث أبي هريرة انما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكسائر من أمق - الحديث : وفيه  
وأطولهم مكثا فيها مثل الدنيا من يوم خلقت وذلك سبعة آلاف سنة واسناده ضعيف

(١) الأعراف : ١٤٣ (٢) الأنعام : ١٠٣ (٣) صريم : ٧١ ، ٧٢

فإذا الرؤية حق بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في تخيل متصور ونمط  
بجته ومكان ، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علوا كبيرا ، بل كما عرفته في الدنيا معرفة  
حقيقية تامة من غير تخيل وتصوّر وتقدير شكل وصورة فتراه في الآخرة كذلك . بل  
أقول المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل ، فتبلغ كمال الكشف والوضوح  
وتنقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث  
زيادة الكشف والوضوح ، كما ضربنا من المثال في استكمال الخيال بالرؤية . فإذا لم  
يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهه ، فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها  
وترقيها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضا جهة وصورة ، لأنها هي بعينها لا تتفرق منها إلا  
في زيادة الكشف ، كما أن الصورة المرئية هي المتخيلة بعينها إلا في زيادة الكشف ، وإليه  
الإشارة بقوله تعالى ( يَسْمَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا )<sup>(١)</sup>  
إذ تمام النور لا يؤثر إلا في زيادة الكشف ، ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا  
العارفون في الدنيا ، لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة ، كما تنقلب النواة  
شجرة ، والحب زرعاً . ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل ! ومن لم يزرع الحب فكيف  
يحصد الزرع ! فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة !

ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة ، كان التجلي أيضا على درجات متفاوتة .  
فاختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف  
البذر . إذ تختلف لاحالة بكثرتها ، وقلتها ، وحسنها ، وقوتها ، وضعفها . ولذلك قال النبي  
عليه الصلاة والسلام<sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ يَتَجَلَّى لِلنَّاسِ عَامَّةً وَلِأَبِي بَكْرٍ خَاصَّةً » فلا ينبغي  
أن يظن أن غير أبي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر ، بل  
لا يجد إلا عشر عشيره إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشيره . ولما فضل الناس بسر

( ١ ) حديث أن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة : ابن عدي من حديث جابر وقال باطل بهذا الإسناد  
وفي الميزان للذهبي أن الدارقطني رواه عن الهاملي عن علي بن عبد الله وقال الدارقطني أن علي بن عبد الله  
كان يضع - الحديث : ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن الجوزي في الموضوعات  
من حديث جابر وأبي بردة وعائشة

وقر في صدره ، فضل لا محالة بتجل انفراد به . وكما أنك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح ، وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة ، وعلى المنكوح ، والمطعوم ، والمشروب جميعا ، فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة ، إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح ، وهؤلاء بمنهم هم الذين حالهم في الدنيا ما وصفنا من إشار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح ، والمطعوم ، والمشروب ، وسائر الخلق مشغولون به . ولذلك لما قيل لرابطة : ماتقولين في الجنة ؟ فقالت الجارثم الدار فبينت أنه ليس في قلبها إلتفات إلى الجنة ، بل إلى رب الجنة

وكل من لا يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة . وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة ، إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه ، ولا يموت إلا على ما عاش عليه ، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بينه فقط ، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء ، فتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة الممشوق رؤية صورته ، فإن ذلك منتهى لذته . وإعنا طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي ، فن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره ، بل ربما يتأذى به فإذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته ، فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان

فإن قلت ، فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضعافها ، لأن لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة ، فتضاعفها إلى حد قريب لا ينتهي في القوة إلى أن يستحق سائر لذات الجنة فيها فاعلم أن هذا الاستحقاق للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة . فن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها ، وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بملائق الدنيا فكيف يدرك لذتها ، فللمعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ، ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلا

إلى لذة اللقاء والمشاهدة، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته ، ولا للذة استنشاق روائح الأطعمة الشبيهة إلى ذوقها ، ولا للذة اللمس باليد إلى لذة الوقاع . وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول :

لذة النظر إلى وجه المعشوق في الدنيا تتفاوت بأسباب أحدها : كمال جمال المعشوق ونقصانه ، فإن اللذة في النظر إلى الأجل أكل لا محالة والثاني : كمال قوة الحب ، والشهوة ، والمعشق ، فليس التذاذ من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه

والثالث : كمال الإدراك ، فليس التذاذ برؤية المعشوق في ظلمة ، أو من وراء ستر رقيق ، أو من بعد ، كالتذاذ بإدراكه على قرب من غير ستر ، وعند كمال الضوء ، ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كأدراكها مع التجرد

والرابع : اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب ، فليس التذاذ الصحيح ، الفارغ ، المتجرد للنظر إلى المعشوق ، كالتذاذ الخائف المذعور ، أو المريض المتألم ، أو المشغول قلبه بهم من المهمات . فقدّر عاشقا ضعيف العشق ، ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد ، بحيث يمنع انكشاف كنه صورته ، في حالة اجتماع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه ، فهو في هذه الحالة لا يخلو عن لذة تما من مشاهدة معشوقه فلو طرأت على الفجاء حالة انتهك بها الستر ، وأشرق بها الضوء ، واندفع عنه المؤذيات وبقي سايبا فارغا ، وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات ، فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتد بها

فكذلك فانهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة . فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به ، والعقارب والزناير مثال الشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع ، والعطش ، والغضب ، والنم ، والحزن ، وضعف الشهوة . والحب مثال لقصور النفس في الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملا الأعلى ، والتفاتها إلى أسفل السافلين ، وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياسة ، والنفاته إلى اللعب بالمصفور

والعارف وإن قويت في الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات . ولا يتصور أن

يخلو عنها ألبتة . نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم ، فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل ، وتمظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لمظمته . ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلمًا يدوم . بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينغصه ، وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية ، فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى الموت . وإنما الحياة الطيبة بعد الموت ، وإنما العيش عيش الآخرة ( وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ <sup>(١)</sup> ) . وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالى ، فيحب الموت ولا يكرهه إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة ، فإن المعرفة كالبذر ، وبحر المعرفة لا ساحل له ، فالإحاطة بكنهه جلال الله محال . فكلما كثرت المعرفة بالله ، وبصفاته وأفعاله ، وبأسرار مملكته وقوته ، كثر النعيم في الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن ، كثر الزرع وحسن . ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا في الدنيا ، ولا يزرع إلا في ضعيد القلب ، ولا حصاد إلا في الآخرة . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طُولُ الْعُمْرِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ » لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتنسج في العمر الطويل ب مداومة الفكر ، والمواظبة على المجاهدة ، والا تقطاع عن علائق الدنيا ، والتجرد للطلب . ويستدعى ذلك زمانا لا مجاله

فن أحب الموت أحبه لأنه رأى نفسه واقفا في المعرفة ، بالغا إلى منتهى ما يسر له . ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصيل له بطول العمر ، ورأى نفسه مقصرا عما احتمله قوته لو عمر . فهذا سبب كراهة الموت وجبه عند أهل المعرفة ، وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا ، إن اتسعت أحبوا البقاء ، وإن ضاقت تمنوا الموت . وكل ذلك حرمان وخسرات مصدره الجهل والغفلة . فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة والعلم والمعرفة أساس كل سعادة

( ١ ) حديث أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله : إبراهيم الحربي في كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهادي عن المطلب عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله ووالله المطلب عبد الله بن حوطب يختلف في صحته ولأحمد من حديث جابر أن من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإناة والترمذي من حديث أبي بكر أن رجلا قال يا رسول الله أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم

فقد عرفت بتأذكرك ناه معنى المحبة ومعنى المشق، فإنه المحبة المفرطة القوية. ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية، ومعنى لذة الرؤية، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان، كما لم تكن الرياسة ألذ من المطعومات عند الصبيان فإن قلت: فهذه الرؤية محلها القلب أو العين في الآخرة؟

فاعلم أن الناس قد اختلفوا في ذلك. وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا يظنون فيه، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة، ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق في عينه أو في جبهته، بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها، فإن العين محل وظرف لا نظر إليه ولا حكم له. والحق فيه أن القدرة الأزلية واسعة، فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين، هذا في حكم الجواز. فأما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع، والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين<sup>(١)</sup> ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره إذ لا يجوز إزالة الظواهر إلا لضرورة والله تعالى أعلم

## بيان

الأسباب المقوية لحب الله تعالى

اعلم أن أسعد الخلق حالا في الآخرة أقوام حبا لله تعالى؛ فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادته لقاءه، وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبداً لا يباد من غير منقص ومكدر، ومن غير زقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب. فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة. وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا

وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة. وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي إلى الاستهثار الذي يسمى عشقا، فذلك ينفك عنه الأكثرون. وإنما يحصل ذلك بسببين

(١) حديث رؤية الله في الآخرة حقيقة: متفق عليه من حديث أبي هريرة أن الناس قالوا يا رسول الله هل يرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر - الحديث :

أحدهما ، قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب ، فإن القلب مثل الإناء الذى لا يتسع للخل مثلا ما لم يخرج منه الماء ( مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ <sup>(١)</sup> ) وكال الحب فى أن يحب الله عز وجل بكل قلبه ، وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره . فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله . وبقدر ما يبقى من الماء فى الإناء ينقص من الخل المصبوب فيه . وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى ( قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ <sup>(٢)</sup> ) وبقوله تعالى ( إِنَّ الدِّينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا <sup>(٣)</sup> ) بل هو معنى قولك لا إله إلا الله ، أي لا معبود ولا محبوب سواه ، فكل محبوب فإنه معبود فإن العبد هو المقيد ، والمعبود هو المقيد به ، وكل يحب فهو مقيد بما يحبه . ولذلك قال الله تعالى ( أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ <sup>(٤)</sup> ) وقال صلى الله عليه وسلم ( أُنْبِضْ إِلَهَ عَبْدٍ فِي الْأَرْضِ أَنْهَوَى ) ولذلك قال عليه السلام <sup>(٥)</sup> ( مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الْجَنَّةَ ) ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله ، فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ، ومعبود قلبه ، ومقصود قلبه فقط

ومن هذا حاله فالدينا سجنه ، لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه . وموته خلاص من السجن وقدم على المحبوب . فما حال من ليس له إلا محبوب واحد ، وقد طال إليه شوقه ، وتمادى عنه حبسه ، نفى من السجن ، ومكن من المحبوب ، وروح بالأمن أبد الآباد ؟ فأحد أسباب ضعف حب الله فى القلوب قوة حب الدنيا ، ومنه حب الأهل ، والمال ، والولد ، والأقارب ، والعقار ، والدواب ، والبساتين ، والمنزهات . حتى أن التفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسفار ملتفت إلى نعيم الدنيا ، ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه . فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله ، ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة ، كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ، ولا يطيب قلب امرأته إلا يضيق به قلب زوجها . فالدينا والآخرة ضربان ، وهما كالمشرق والمغرب ، وقد انكشف ذلك لذوى القلوب انكشافا

( ١ ) حديث من قال لا إله إلا الله مجلصا دخل الجنة : تقدم

( ٢ ) الاحزاب : ٤ ( ٣ ) الأنعام : ٩١ ( ٤ ) الاحقاف : ١٢ ( ٥ ) الفرقان : ٤٣

أوضح من الإبرار بالعين . وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد ، وملازمة الصبر ، والالتقياد إليهما بزمَام الخوف والرجاء ، فذا ذكرناه من المفامات كالتوبة والصبر ، والزهد ، والخوف ، والرجاء ، هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة ، وهو تخليّة القلب عن غير الله ، وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر ، والجنة ، والنار ، ثم ينشعب منه الخوف والرجاء ، ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ، ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا ، وفي المال والجاه ، وكل حظوظ الدنيا ، حتى يحصل من جميع طهارة القلب عن غير الله فقط ، حتى يتسع بعمده لتزول معرفة الله وحبّه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب ، وهو أحد ركني المحبة . وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : <sup>(١)</sup> « الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ » كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة السبب الثاني : لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها ، واستيلاؤها على القلب ، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجرى مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش ، وهو الشطر الثاني . ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال ( ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ <sup>(١)</sup> ) وإليها الإشارة بقوله تعالى ( إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ <sup>(٢)</sup> ) أي المعرفة ( وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ <sup>(٣)</sup> ) فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالخدام ، وإنما العمل الصالح كله في تطهير القلب أولاً من الدنيا ، ثم إدامة طهارته فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة . وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل . فالعلم هو الأول وهو الآخر ، وإنما الأول علم المعاملة ، وغرضه العمل ، وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه جليلة الحق ، ويتبين بعلم المعرفة ، وهو علم المكاشفة . ومهما حصلت هذه المعرفة تبتعها المحبة بالضرورة ، كما أن من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ، ومهما أحبه حصلت اللذة ، فاللذة تبع المحبة بالضرورة ، والمحبة تبع المعرفة بالضرورة ، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافي والذكر الدائم ، والجد البالغ في الطلب ، والنظر المستمر في الله تعالى

( ١ ) حديث الطهور شطر الإيمان : مسلم من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم

(١) إبراهيم : ٢٤ ( ٢ ، ٣ ) فاطر : ١٠



وفي صفاته ، وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته

والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى الأقوياء ، ويكون أول معرفتهم لله تعالى ، ثم به يعرفون غيره ، وإلى الضعفاء ، ويكون أول معرفتهم بالأفعال ، ثم يترقون منها إلى الفاعل وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى ( أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ <sup>(١)</sup> ) وبقوله تعالى ( شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ <sup>(٢)</sup> ) ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بهم عرفت ربك قال: عرفت ربي بربي ، ولولا ربي لما عرفت ربي . وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى ( سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ <sup>(٣)</sup> ) الآية وبقوله عز وجل ( أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ <sup>(٤)</sup> ) وبقوله تعالى ( قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ <sup>(٥)</sup> ) وبقوله تعالى ( الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاقُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ <sup>(٦)</sup> ) وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين ، وهو الأوسع على السالكين ، وإليه أكثر دعوة القراءان عند الأمر بالتدبر ، والتفكر ، والاعتبار والنظر في آيات خارجة عن الحصر

فإن قلت : كلا الطريقين مشكل ، فأوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة ، فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض ، والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق ، فلا فائدة في إيرادها في الكتب وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام ، وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر ، واشتغالها بشهوات الدنيا وحفظ النفس ، والممانع من ذكر هذا إتساعه وكثرته ، وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية ، إذ مامن ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ، ومنتهى جلاله وعظمته ، وذلك مما لا يتناهى ( قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي <sup>(٧)</sup> ) فالخوض فيه انغماس في بحار علوم

(١) فصلت : ٥٣. (٢) آل عمران : ١٨. (٣) الأعراف : ١٨٥. (٤) يونس : ١٠١. (٥) الملك : ٤٣.

(٦) الكهف : ١٠٩.

المكاشفة . ولا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة ، ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول .

أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال ، فلتكلم فيها ولترك الأعلى . ثم الأفعال الإلهية كثيرة ، فلنطلب أقلها . وأحقرها ، وأصغرها ، ولننظر في عجائبها . فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها ، أعني بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات ، فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والمظم في الشخص ، فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فللكها الذي هي مركوزة فيه ، فإنه لانسبة لها إليه ، وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السموات السبع ، ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة في فلاة ، والكرسي في العرش كذلك ، فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير ، وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها ، بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « الْأَرْضُ فِي الْبَحْرِ كَالْإِسْطَبَلِ فِي الْأَرْضِ » ومصدق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة ، وعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض

ثم انظر إلى الأدبي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض ، وإلى سائر الحيوانات ، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ، ودع عنك جميع ذلك ، فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه ، فانظر في البعوض على قدر صغر قدره ، وتأمله بمقل حاضر وفكر صاف ، فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات ، إذ خلق له خرطومًا مثل خرطومها ، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين ، وانظر كيف قسم أعضائه الظاهرة ، فأثبت جناحه ، وأخرج يده ورجله ، وشق سمعه وبصره ودبره في بطنه من أعضاء الغذاء وآلاته مادبره في سائر الحيوانات ، وركب فيها من القوى الغازية ، والجاذبة ، والدافعة ، والماسكة ، والمهاضمة ، ماركب في سائر الحيوانات . هذا في شكله وصفاته . ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه ،

( ١ ) حديث الأرض في البحر كالإسطل في الأرض : لم أجده أصلا

وعرفه أن غذاءه دم الإنسان ، ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان ، وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو شدد الرأس ، وكيف هدهاه إلى مسام بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه في واحد منها ، ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم ، وكيف علمه المص والتجرع للدم ، وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفا حتى يجري فيه الدم الرقيق وينتهي إلى باطنه ، وينتشر في سائر أجزائه وينغذيه ، ثم كيف عرفه أن الإنسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعداد آله ، وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة منه فيترك المص ويهرب ، ثم إذا سكنت اليد يعود ، ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه ، وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لماسم تحتمل حدقته. الأجفان لصغره ، وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار ، خلق للبعوض والذباب يدين ، فتنتظر إلى الذباب فتراه على الدوام يمسخ حدقتيه بيديه ، وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر ، وأطرافهما حادة ، فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب ، وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين ، وتعين على الإبصار ، وتحسن صورة العين ، وتشبكها عندهيجان الغبار ، فينظر من وراء شبك الأهداب ، واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار. وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان ، وعلمها كيفية التصقيل باليدين ، ولأجل ضعف أبصارها تراها تنهافت على السراج ، لأن بصرها ضعيف ، فهي تطلب ضوء النهار ، فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه في بيت مظلم ، وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الموضع المضيء ، فلا يزال يطلب الضوء ، ويرمى بنفسه إليه ، فإذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد ، فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق .

ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهلها ، فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها . بل صورة الآدمي في الإكباب على شهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار ، إذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ، ولا يدري أن تحتها السم النافع القاتل ، فلا يزال يرمى نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ، ويتقيد بها ، ويهلك هلاكاً مؤبداً .

فلست كان جهل الآدمي كجهل الفراش ، فإنها باعتبارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال ، والآدمي يبقى في النار أبداً وأمددة مديدة . ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول <sup>(١)</sup> « إِنِّي مُنْجِزُكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَتَهَفَّتُونَ فِيهَا تَهْفُتُ الْفَرَاشِ » فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات ، وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ، ولم يطلعوا على أمور جليلة من ظاهر صورته . فأما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى

ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره . فانظر إلى النحل وعجائبها ، وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يمرشون ، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل ، وجعل أحدها ضياء ، وجعل الآخر شفاء . ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار ، واخترازها عن النجاسات والأقذار ، وطاعتها لواحد من جملتها هو أكبرها شخصا ، وهو أميرها ، ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والإنصاف بينها ، حتى أنه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها عجبا آخر المعجب إن كنت بصيرا في نفسك ، وفارغا من هم بطنتك وفرجك ، وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاته إخوانك . ثم دع عنك جميع ذلك ، وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع ، واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدس ، فلا تبني بيتا مستديرا ، ولا مربعا ، ولا خمسا ، بل مسدسا ، لخاصية في الشكل المسدس يقتصر فهم المهندسين عن دركها ، وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستديرة وما يقرب منها ، فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة ، وشكل النحل مستدير مستطيل ، فترك المربع حتى لا تضع الزوايا فتبقى فارغة ، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة ، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراسة ، ولا شكل في الأشكال ذات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير . ثم تراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس

(١) حديث أني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تهافتون فيها تهافت الفراش : منصف عليه من حديث أبي هريرة مثلى ومثل أمي كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنما أحد محجركم وأنتم تفتحون فيه لفظ مسلم وانصر البخاري على أوله ولمسلم من حديث جابر وأنا أخذ بحجزكم وأنتم تفلتون من يدي

وهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغرى جرمه ، ولطافة قده ، ولطفاً به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتها بميشه . فسبحانه ما أعظم شأنه ، وأوسع لطفه وامتنانه . فاعتبر بهذه اللعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ، ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات ، فإن القدر الذى بلغه فهمنا القاصر منه تنقضى الأعمار دون إيضاحه ولا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء ، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلمه . بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علماً فى جنب علم الله تعالى . فبالنظر فى هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين ، وبزيادة المعرفة تزداد المحبة ، فإن كنت طالباً لمساعدة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراءك ، واستغرق العرفى الذكر فالدائم والفكر اللازم ، فمساك تحظى منها بقدر يسير ، ولكن تنال بذلك اليسير ملكاً عظيماً لا آخر له .

## بيان

السبب فى تفاوت الناس فى الحب

اعلم أن المؤمنين مشتركون فى أصل الحب لا اشتراكهم فى أصل المحبة ، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم فى المعرفة وفى حب الدنيا ، إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها ، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التى قرعت سمعهم ، فتلقوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معانى يتعالى عنها رب الأرباب ، وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسداً ، بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق ، واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث ، وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين ، والمتخيلون هم الضالون ، والعارفون بالحقائق هم المقربون . وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة فى قوله تعالى ( فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَّعِيمٌ <sup>(١)</sup> ) الآية . فإن كنت لاتفهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول .

أصحاب الشافعى مثلاً يشتركون فى حب الشافعى رحمه الله ، الفقهاء منهم والموالم ، لأنهم مشتركون فى معرفة فضله ، ودينه ، وحسن سيرته ، ومحامد خصاله . ولكن العامى

يعرف عامه مجللاً ، والفقيه يعرفه منفصلاً . فتكون معرفة الفقيه به أتم ، وإعجابه به وحبه له أشد . فإن من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله ، أحبه لاجل حاله ، ومال إليه قلبه . فإن رأى تصنيفاً آخر أحسن منه وأعجب ، تضاعف لاجل حاله حبه ، لأنه تضاعفت معرفته به . وكذلك يعتقد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه ، فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذفه وصنفته ازداد به معرفة ، وازداد له حبا . وكذا سائر الصناعات والفضائل . والعامي قد يسمع أن فلاناً مصنف ، وأنه حسن التصنيف ، ولكن لا يدري ما في التصنيف ، فيكون له معرفة مجللة ، ويكون له بحسبه ميل مجمل . والبصير إذا فقه عن التصنيف ، واطلع على ما فيها من المجائب ، تضاعف حبه لاجل حاله ، لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف . والعالم بمجملته صنع الله تعالى وتصنيفه ، والعامي يعلم ذلك ويعتقده . وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه ، حتى يرى في البعوض مثلاً من عجائب صنعه ما ينهر به عقله ، ويتحير فيه لبه ، ويزداد بسببه لاجل عظمة الله وجلاله وكمال صفاته في قلبه ، فيزداد له حبا . وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا ، استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله ، وازداد به معرفة وله حبا . وبحر هذه المعرفة ، أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى ، بحر لا ساحل له ، فيلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لاحصر له

ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التي ذكرناها للحب ، فإن من يحب الله مثلاً لكونه محسناً إليه ، منما عليه ، ولم يحبه لذاته ، ضعفت محبته . إذ تتغير بتغير الإحسان ، فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنماء . وأما من يحبه لذاته ، ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة ، والتفاوت في المحبة هو السبب للتفاوت في سعادة الآخرة ، ولذلك قال تعالى ( وَلِلآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا <sup>(١)</sup> )

## بيان

السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى . وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام ، وأسهلها على العقول ، وترى الأمر بالضد من ذلك ، فلا بد من بيان السبب فيه . وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا تفهمه إلا بمثال وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخط مثلا ، كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات لحياته ، وعلمه ، وقدرته ، وإرادته للخياطة ، أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ صفاته الباطنة كشهوته ، وغضبه ، وخلقته ، وصحته ، ومرضه ، وكل ذلك لا نعرفه . وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها ، وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته . أما حياته . وقدرته ، وإرادته ، وعلمه ، وكونه حيوانا ، فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته ، فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس ، ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته ، فلو نظرنا إلى كل مافي العالم سواء لم نعرف به صفته ، فما عليه إلا دليل واحد ، وهو مع ذلك جلي واضح ووجود الله تعالى ، وقدرته وعلمه ، وسائر صفاته ، يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده ونذكره بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ، ومدر ، ونبات ، وشجر ، وحيوان ، وسماء ، وأرض ، وكوكب ، وبر ، وبحر ، ونار ، وهواء ، وجوهر ، وعرض ؛ بل أول شاهد عليه أنفسنا ، وأجسامنا ، وأوصافنا ، وتقلب أحوالنا ، وتغير قلوبنا ، وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا . وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ، ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ، ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة . وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد ، وشاهد واحد ، ودليل واحد . وجميع مافي العالم شواهد ناطقة ، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ، ومدبرها ، ومصرفها ، ومحركها ، ودالة على علمه ، وقدرته ، ولطفه ، وحكمته . والموجودات المدركة لا حصر لها ، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا ، وليس يشهد لها إلا شاهد واحد ، وهو ما أحسننا به من حركة يده ، فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها

إلا هو شاهد عليه ، وعلى عظمته وجلاله ، إذ كل ذرة فإنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ، ولا حركتها بذاتها ، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها ، يشهد بذلك أولاً تركيب أعضائها ، وائتلاف عظامها ، ولحومها ، وأعصابها ، ومنابت شعورها ، وتشكل أطرافها ، وسائر أجزائها الظاهرة والباطنة ، فإننا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها ، كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ، ولكن لما يبق في الوجود شيء مدرك ، ومحسوس ، ومعقول ، وحاضر ، وغائب ، إلا هو شاهد ومعرف ، عظم ظهوره ، فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه ، فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان :

أحدهما : خفاؤه في نفسه ونموضه ، وذلك لا يخفى مثاله .

والآخر : ما يتناهى وضوحه ، وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لاخفاء النهار واستناره ، لكن لشدة ظهوره ، فإن بصر الخفاش ضعيف يهر نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره ، فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره

فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة ، وفي غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض ، فصار ظهوره سبب خفاؤه ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره . واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ولا يتمجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ، فإن الأشياء تستبان بأضدادها ، وما عم وجوده حتى أنه لا ضده عسر إدراكه ، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أبشكل الأمر ، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض ، فإننا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ، ويزول عند غيبة الشمس . فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها ، لكننا نظن أنه لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها ، وهي السواد والبياض وغيرهما ؛ فإننا لا نشاهد في الأسود إلا السواد ، وفي الأبيض إلا البياض . فأما الضوء فلا ندركه وحده . ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع ، أدركنا تفرقة بين الحالين ، فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء ، واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب ، فعرفنا وجود النور بعدمه ، وما كنا نطلع



عليه لولا عدمه إلا بمسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور  
 هذا مع أن النور أظهر المحسوسات ، إذ به تدرك سائر المحسوسات  
 فما هو ظاهر في نفسه وهو يظهر لغيره ، انظر كيف تصور استنباه أمره بسبب ظهوره  
 لولا طريان ضده . فالثالث تعالى هو أظهر الأمور ، وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم  
 أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض ، وبطل الملك والملكوت ، ولأدرك بذلك  
 التفرقة بين الحالين . ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين  
 الشئيين في الدلالة ، ولكن دلالاته عامة في الأشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم في الأحوال  
 يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب في قصور الأفهام  
 وأما من قويت بصيرته ، ولم تضعف منته ، فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى  
 ولا يعرف غيره ، يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله ، وأفعاله أثر من آثار قدرته ، فهي تابعة له ،  
 فلا وجود لها بالحقيقة دونه ، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها ، ومن  
 هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ، ويذهل عن الفعل من حيث إنه  
 سماء ، وأرض ، وحيوان ، وشجر بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق ، فلا يكون  
 نظره مجاوزا له إلى غيره ، كمن نظر في شعر إنسان ، أو خطه أو تصنيفه ، ورأى فيها الشاعر  
 والمصنف ، ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه جبر ، وعفص ، وزاج مرقوم على  
 بياض ، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف  
 وكل العالم تصنيف الله تعالى ، فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث إنه  
 فعل الله ، وأحبه من حيث إنه فعل الله ، لم يكن ناظرا إلا في الله ، ولا عارفا إلا بالله ، ولا محبا إلا له  
 وكان هو الموحد الحق الذي لا يرى إلا الله ، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه ، بل من  
 حيث أنه عبد الله . فهذا الذي يقال فيه إنه فنى في التوحيد وإنه فنى عن نفسه وإليه الإشارة  
 بقول من قال كُنَّا بِنَا ، ففنيْنَا عَنَّا ، فبقينا بلا نحن فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر أشكلت  
 لضعف الأفهام عن دركها ، وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاها وبيانها بعبارة مفهومة موصلة  
 للنرض إلى الأفهام ، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعينهم  
 فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، وانضم إليه أن المدركات كلها

التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند فقد العقل ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهواته ، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها ، فسقط وقعا عن قلبه بطول الأنس . ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجبيا ، انطلق لسانه بالمعرفة طبعيا فقال سبحان الله وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه ، وسائر الحيوانات المألوفة ، وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها . ولو فرض أنكه بلغ عافلا ، ثم انقشعت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء ، والأرض ، والأشجار ، والنبات ، والحيوان ، دفعة واحدة على سبيل الفجأة ، لحيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة هذه المعجائب لخالفها

فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة ، والسباحة في بحارها الواسعة ، فالتناس في طلبهم معرفة الله كالدهوش الذي يضرب به المثل إذا كان راكبا لجماره وهو يطلب حماره ، والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتصة ، فهذا سر هذا الأمر فليحقق ، ولذلك قيل

لقد ظهرت فأتخفى على أحد      إلا على أكمه لا يعرف القمر  
لكن بطننت عما أظهرت محتجبا      فكيف يعرف من بالعرف قد ستر

## بيان

معنى الشوق إلى الله تعالى

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق ، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب . ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى ، وكون العارف مضطرا إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر ، وبطريق الأخبار والآثار

أما الاعتبار فيكن في إثباته ماسبق في إثبات الحب ، فكل محبوب يشاق إليه في غيبته لا محالة ، فأما الحاصل الحاضر فلا يشاق إليه . فإن الشوق طلب وتشوف إلى أمر ، والموجود لا يطلب . ولكن يبان أن الشوق لا يتصور إلا إلى شئ أدرك من وجه ولم يدرك من وجه . فأما ما لا يدرك أصلا فلا يشاق إليه ، فإن من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه لا يتصور أن يشاق إليه . وما أدرك بكاله لا يشاق إليه . وكما الإدراك بالرؤية ،

فمن كان في مشاهدة محبوه مداوما للنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق. ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجهه ولم يدرك من وجهه ، وهو من وجهين لا ينكشف إلا بمثال من المشاهدات ، فنقول مثلا من غاب عنه معشوقه ، وبقي في قلبه خياله ، فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية ، فلو انمى عن قلبه ذكره ، وخياله ، ومعرفة حتى نسيه ، لم يتصور أن يشتاق إليه . ولو رآه لم يتصور أن يشتاق في وقت الرؤية . فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله ، فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته ، فيشتاق إلى استكمال رؤيته . وتنام الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه

والثاني : أن يرى وجهه محبوه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه ، فيشتاق لرؤيته وإن لم يرها قط ، ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ، ولكنه يعلم أنه عضو وأعضاء جميلة ، ولم يدرك تفصيل مجاها بالرؤية ، فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط والوجهان جميعا متصوران في حق الله تعالى ، بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين ، فإن ما تنضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان في غاية الوضوح ، فكأنه من وراء ستار رقيق ، فلا يكون متضحا غاية الاتضاح ، بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات ، فإن الخيالات لا تفتقر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات ، وهي مكدرات للمعارف ومنقصات . وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا ، فإنما كمال الوضوح بالمشاهدة وتنام إشراق التجلي ، ولا يكون ذلك إلا في الآخرة ، وذلك بالضرورة يوجب الشوق ، فإنه منتهى محبوب العارفين .

فهذا أحد نوعي الشوق ، وهو استكمال الوضوح فيما تنضح اتضاحا تاما

الثاني : أن الأمور الإلهية لا نهاية لها ، وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها ، وتبقى أمور لا نهاية لها غامضة ، والعارف يعلم وجودها ، وكونها معلومة لله تعالى ، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال متشوقا إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلا ، لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة

والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ، ولقاء ، ومشاهدة ، ولا يتصور أن يسكن في الدنيا . وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال : قلت ذات

يوم يارب إن أعطيت أحدا من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني ذلك ، فقد  
أضر بي القلق . قال فرأيت في النوم أنه أوقفني بين يديه وقال : يا إبراهيم ، أما استحييت  
منى أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي ! وهل يسكن المشتاق قبل لقاء  
حبيبه ! فقلت يارب تهت في حبك فلم أدر ما أقول فاغفر لي وعلمي ما أقول فقال . قل اللهم  
رضني بقضائك . وصبرني على بلائك ، وأوزعني شكر نعمائك ، فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة  
وأما الشوق الثاني : فيشبه أن لا يكون له نهاية لافي الدنيا ولا في الآخرة ، إذ نهايته  
أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى ، وصفاته ، وحكمته ، وأفعاله ، بما هو معلوم  
لله تعالى ، وهو محال ، لأن ذلك لا نهاية له ، ولا يزال العبد عالما بأنه بقي من الجمال والجلال  
مالم يتضح له ، فلا يسكن قط شوقه ، لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة ، إلا  
أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال ، فهو يجد لذلك شوقا لذيذا لا يظهر  
فيه ألم . ولا يبعد أن تكون ألطاف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية ، فلا يزال النعيم  
واللذة متزايدة أبد الآباد ، وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق  
إلى مالم يحصل ، وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا  
أصلا . فإن كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفا على حد لا يتضاعف ، ولكن يكون  
مستمرا على الدوام : وقوله سبحانه وتعالى ( نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ  
رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا <sup>(١)</sup> ) محتمل لهذا المعنى ، وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزود من  
الدنيا أصل النور . ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة  
محتاجة إلى مزيد الاستكمال والإشراق ، فيكون هو المراد بتمامه . وقوله تعالى ( انظُرُوا  
نَفْتَسِ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا <sup>(٢)</sup> ) يدل على أن الأنوار لا بد  
وأن يتزود أصلها في الدنيا ، ثم يزداد في الآخرة إشراقا . فأما أن يتجدد نور فلا . والحكم  
في هذا برجم الظنون مخطر ، ولم ينكشف لنا فيه بعد ما يوثق به ، فنسأل الله تعالى أن  
يزيدنا علما ورشدا ، ويربنا الحق حقا ، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه  
وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى . فما اشتهر من دعاء رسول الله

(١) التحريم : ٨ (٢) الحديد : ١٣

صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> أنه كان يقول « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ وَرَدَّ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ وَالشُّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ »

وقال أبو الدرداء لكعب : أخبرني عن أخص آية ، بمعنى في التوراة . فقال : يقول الله تعالى : طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وإني إلى لقائهم لأشد شوقا . قال ومكتوب إلى جانبها ، من طلبني وجدني ، ومن طلب غيري لم يجدني . فقال أبو الدرداء : أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا

وفي أخبار داود عليه السلام ، أن الله تعالى قال : ياداد ، أبلغ أهل أرضي آتي حبيب لمن أحبني ، وجليس لمن جالسي ، ومؤنس لمن أنس بذكرى ، وصاحب لمن صاحبتني ، ومختار لمن اختارني ، ومطيع لمن أطاعني . ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى ، وأحبته جبا لا يتقدمه أحد من خلقي ، من طلبني بالحق وجدني ، ومن طلب غيري لم يجدني فارفضوا بأهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها ، وهلموا إلى كرامتي ، ومصاحبتي ، ومجالستي وائسوا بي أو أنسكم وأسارع إلى محبتكم ، فإني خلقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي وموسى نبيي ، ومحمد صفي ، وخلقت قلوب المشتاقين من نوري ، ونعمتها بجلالي

وروي عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين . إن لي عبادا من عبادي يحبوني وأحبهم ، ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم ، ويدكرونني وأذكرونهم ، وينظرون إلي وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك ، قال يارب وما علامتهم ؟ قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشقيق غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب ، فإذا جنهم الليل ، واختلط الظلام وفرشت الفرش ، ونصبت الأسرة ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، نصبوا إلي أقدامهم ، واقتربوا إلي وجوههم ، وناجوني بكلامي ، وتعلقوا إلي بأنعامي ، فبين صارخ وباك ، وبين متأوه وشاك ، وبين قائم وقاعد ، وبين راكع وساجد ، ببني ما يتحملون من أجلى ، وبسمعي ما يشكون من حبي . أول ما أعطيتهم ثلاث : أفذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما

( ١ ) حديث أنه كان يقول في دعائه اللهم اني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت - الحديث : أحمد والحاكم وتهتم في الدعوات .

أخبر عنهم ، والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها في موازينهم لاستقلالها لهم ،  
والثالثة أقبل بوجهي عليهم ، فترى من أقبلت بوجهي عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه !  
وفي أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى أوحى إليه ، يا داود ، إلى كم تذكر الجنة  
ولا تسألني الشوق إلي ! قال يارب من المشتاقون إليك ؟ قال إن المشتاقين إلي الذين صفيتهم  
من كل كدر ، ونهتتهم بالحذر ، وخرقت من قلوبهم إلي خرقا ينظرون إلي ، وإني لأحمل  
قلوبهم بيدي فأضمد على سمائي ، ثم أدعو نجباء ملائكتي ، فإذا اجتمعوا سجدوا لي فأقول  
إني لم أدعكم لتسجدوا لي ، ولكني دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلي ، وأباهي  
بكم أهل الشوق إلي ، فإن قلوبهم لتضيء في سمائي للملائكتي كما تضيء الشمس لأهل الأرض  
يا داود ، إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ، ونعمتها بنور وجهي ، فاتخذتهم لنفسي  
محدثي ، وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض ، وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون  
به إلي يزدادون في كل يوم شوقا . قال داود : يارب أرني أهل محبتك . فقال يا داود ، أنت  
جبل لبنان ، فإن فيه أربعة عشر نفسا ، فيهم شبان ، وفيهم شبوخ ، وفيهم كهول فإذا أتيتهم  
فأقرتهم مني السلام ، وقل لهم : إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم : ألا تسألون حاجة ؟  
فإنكم أجائي ، وأصفيائي ، وأوليائي ، أفرح لفرحكم ، وأسارع إلى محبتكم . فأتاهم داود  
عليه السلام ، فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله عز وجل . فلما نظروا  
إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه . فقال داود : إني رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم  
رسالة ربكم . فأقبلوا نحوه وألقوا أسماءهم نحو قوله ، وألقوا أبصارهم إلى الأرض . فقال  
داود : إني رسول الله إليكم ، يقرئكم السلام ، ويقول لكم ألا تسألون حاجة ؟ ألا تنادوني  
أسمع صوتكم وكلامكم ، فإنكم أجائي ، وأصفيائي ، وأوليائي ، أفرح لفرحكم ، وأسارع  
إلى محبتكم ، وأنظر إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة . قال فجرت الدموع  
على خدودهم ، فقال شيخهم . سبحانك سبحانك ، نحن عبيدك وبنو عبيدك ، فاغفر لنا  
ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا

وقال الآخر : سبحانك سبحانك ، نحن عبيدك وبنو عبيدك ، فامنن علينا بحسن  
النظر فيما بيننا وبينك . وقال الآخر : سبحانك سبحانك ، نحن عبيدك وبنو عبيدك ،

أفنجتري، على الدماء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا، فأقدم لنا لزوم الطريق إليك، وأتم بذلك المنة علينا . وقال الآخر: نحن مقصرون في طلب رضاك، فأعنا علينا بيجودك وقال الآخر: من نطفة خلقنا، ومننت علينا بالتفكير في عظمتك، أفنجتري، على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر في جلالك، وطابتنا الدنوة من نورك وقال الآخر: كلت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك، وقربك من أوليائك، وكثرة منتك على أهل محبتك . وقال الآخر: أنت هديت قلوبنا لذكرك، وفرغتنا للاستغفار بك، فاعفر لنا تقصيرنا في شكرك

وقال الآخر: قد عرفت حاجتنا إنما هي النظر إلى وجهك وقال الآخر: كيف يجتري، العبد على سيده إذ أمرتنا بالدعاء بيجودك، فهمب لنا نورا نهتدي به في الظلمات من أطباق السموات وقال الآخر: ندعوك أن تقبل علينا، وتدعنا . وقال الآخر: نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا، وتفضلت به علينا . وقال الآخر: لا حاجة لنا في شيء من خلقك، فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك وقال الآخر: أسألك من بينهم أن تعمي عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها، وقلبي عن الاشتغال بالآخرة . وقال الآخر: قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أوليائك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء دونك

فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قل لهم: قد سمعت كلامكم، وأجبتكم إلى ما أحببتهم فليفارق كل واحد منكم صاحبه، وليتخذ لنفسه سربا، فأني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري وجلالي . فقال داود: يارب هم نالوا هذامنك؟ قال بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها، والمخاوت بي، ومناجاتهم لي، وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها، ولم يشتغل بشيء من ذكرها، وفرغ قلبه لي، واختارني على جميع خلقي فعند ذلك أعطف عليه، وأفرغ نفسه، وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى ينظر إليّ نظر الناظر بعينه إلى الشيء، وأريه كرامتي في كل ساعة، وأقربه من نور وجهي، إن مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها، وإن عطش أرويته، وأذيقه طعم ذكرى

فإذا فعلت ذلك به يادارد عيبت نفسه عن الدنيا وأهلها ، ولم أحببها إليه ، لا يفر عن الاشتغال  
بى ، يستعجلنى القدوم ، وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظرى من بين خلقى ، لا يرى غيرى  
ولا أرى غيره . فلو رأيت يادارد وقد ذابت نفسه ، وتحل جسمه ، وتهشمت أعضاؤه ، وانخلع  
قلبه إذا سمع بذكرى ، أباهى به ملائكتى وأهل سمواتى ، يزداد خوفاً وعبادة ، وعزتى وجلالى  
بادارد لأقعدنه فى الفردوس ، ولأشفين صدره من النظر إلى ، حتى يرضى وفوق الرضا  
وفى أخبار داود أيضا : قل لعبادى التوجهين إلى محبتى ، ماضركم إذا احتجبت عن  
خلقى ، ورفعت الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إليّ بعيون قلوبكم ؟ وما ماضركم ما زويت  
عنكم من الدنيا إذا بسطت دينى لكم ؟ وما ماضركم مسخطة الخلق إذا التستم رضائى ؟

وفى أخبار داود أيضا ، أن الله تعالى أوحى إليه : تزعم أنك تحببى ، فإن كنت تحببى  
فأخرج حب الدنيا من قلبك ، فإن حبى وحبها لا يجتمعان فى قلب يادارد خالص حبيبى  
مخالصة ، وخالط أهل الدنيا مخالطة . ودينك فقلدنيه ، ولا تقلد دينك الرجال . أما ما استبان  
لك مما وافق محبتى فتسمك به ، وأما ما أشكل عليك فقلدنيه ، حقا على أنى أسارع إلى سياستك  
وتقويك ، وأكون قائدك ودليلك ، أعطيك من غير أن تسألنى ، وأعينك على الشدائد .  
وإني قد حلفت على نفسى أنى لا أئيب إلا عبدا قد عرفت من طلبته وإرادته اللقاء كنفه بين يدي ،  
وأنه لا غنى به عنى . فإذا كنت كذلك نزعمت الدلة والوحشة عنك ، وأسكن الغنى قلبك ،  
فإني قد حلفت على نفسى أنه لا يطمئن عبدى إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا واكلته إليها ، أضف  
الأشياء إليّ ، لانضاد عمك فتكون متعبا ولا ينفع بك من يصحبك ، ولا تجد لمعرفتى حياء  
فليس لها غاية . ومتى طلبت منى الزيادة أعطتك ، ولا تجد للزيادة منى حدا . ثم أعلم بنى اسرائيل  
أنه ليس بينى وبين أحد من خلقى نسب ، فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندي أبح لهم ما لعين رأت ،  
ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ضعنى بين عينيك ، وانظر إليّ ببصر قلبك ،  
ولا تنظر بعينك التى فى رأسك إلى الدين حجبت عقولهم عنى ، فامرجوها وسخت بانقطاع  
توابعها . فإني حلفت بعزتى وجلالى لا أفتح ثوابى لعبد دخل فى طاعتى للتجربة والتسوية .  
تواضع لمن تعلمه ، ولا تطاول على المريدين ، فلو علم أهل محبتى منزلة المريدين عندي لكانوا  
لهم أرضا يعيشون عليها . يادارد ، لأن تخرج مريدا من سكرة هوفها تستنقذه فأكتبك



عندى جهيدا ، ومن كتبته عندى جهيدا لا تكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخاويين . ياداوود ،  
تمسك بكلامي ، وخذ من نفسك لنفسك ، لا تؤثرتين منها فأحجب عنك محبتي ، لا تؤثرتين  
عبادى من رحمتى أقطع شهوتك لى فإنما أبحت الشهوات لضعفة خلقى . ما بال الأقوياء أن ينالوا  
الشهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتى . وإنما عقوبة الأقوياء عندى فى موضع التناول ، أدنى  
ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم عنى ، فإنى لم أرى الدنيا لحبى وترهته عنها ، ياداوود ، لا تجعل  
بينى وبينك عالما يحجبك بسكره عن محبتي ، أولئك قطاع الطريق على عبادى المريدين .  
استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة فى الإفطار ، فإن محبتي للصوم  
إدمانه . ياداوود ، تحبب إلى بمعادة نفسك ، امنعها الشهوات أنظر إليك ، وترى الحجب  
بينى وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابى إذا مننت عليك به ، وإنى أحبسه  
عنك وأنت متمسك بطاعتي . وأوحى الله تعالى إلى داود . ياداوود ، لو يعلم المذبرون عنى كيف  
انتظاري لهم ، ورفقى بهم ، وشوقى إلى ترك معاصيهم ، لما توا شوقا إليّ ، وتقطعت أوصالهم  
من محبتي . ياداوود ، هذه إرادتى فى المدبرين عنى ، فكيف إرادتى فى المقبلين عليّ ؟ ياداوود  
أحوج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عنى ، وأرحم ما أكون ببعدى إذا أدبر عنى ، وأجل  
ما يكون عندى إذا رجع إليّ . فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة  
والشوق ، والأنس ، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق

## بيان

محبة الله للعبد ومعناها

اعلم أن شواهد القراءان متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده ، فلا بد من معرفة معنى  
ذلك . ولنقدم الشواهد على محبته . فقد قال الله تعالى ( يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى  
( إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ  
وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ <sup>(٣)</sup> ) ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال ( قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ

(١) المائدة : ٥٤ (٢) الصف : ٤ (٣) البقرة : ٢٢٢

بِذُنُوبِكُمْ<sup>(١)</sup> . وقد روى<sup>(٢)</sup> أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى عَبْدًا لَمْ يَضُرَّهُ ذَنْبٌ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ » ثم تلا ( إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ<sup>(٣)</sup> ) ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت ، فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت ، كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام

وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال ( قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ<sup>(٤)</sup> ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup> « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٦)</sup> « مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ أَحَبَّهُ اللَّهُ » وقال عليه السلام<sup>(٧)</sup> « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أُحِبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ » الحديث وقال زيد بن أسلم : إن الله يحب العبد حتى يبلغ من حبه أن يقول اعمل ما شئت فقد غفرت لك وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر ، وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق ، والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط . وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس ، والجمال موافق أيضا ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر ، وتارة يدرك بالبصيرة ، والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر . فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا ،

( ١ ) حديث أنس إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له : ذكره صاحب الفردوس

ولم يخرج له ولده في مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث ابن مسعود وتقدم في النوبة

( ٢ ) حديث أن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب - الحديث : الحاكم وصححه استاده والبيهقي

في الشعب من حديث ابن مسعود

( ٣ ) حديث من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله : ابن ماجه

من حديث أبي سعيد بإسناد حسن دون قوله ومن أكثر إلى آخره ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه

الزيادة وفيه ابن لهيعة

( ٤ ) حديث قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه - الحديث : البخاري من حديث

أبي هريرة وقد تقدم

بل الاسامى كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلاً ، حتى أن اسم الوجود الذى هو أعم الأسماء اشتراكاً لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد ، بل كل ماسوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى ، فالوجود التابع لا يكون مساوياً للوجود المتبوع ، وإنما الاستواء فى إطلاق الاسم ، نظيره اشتراك الفرس والشجر فى اسم الجسم ، إذ معنى الجسمية وحقيقتها منسابة فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلاً ، فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر ، وليس كذلك اسم الوجود لله ولا خلقه . وهذا التباعد فى سائر الاسامى أظهر ، كالعلم ، والإرادة ، والقدرة وغيرها ، فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق . وواضع اللغة إنما وضع هذه الاسامى أولاً للخلق ، فإن الخلق أسبق إلى القول والأفهام من الخالق ، فكان استعمالها فى حق الخالق بطريق الاستعارة ، والتجوز ، والنقل . والمحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائمتها ، وهذا إنما يتصور فى نفس ناقصة فاتها ما يوافقها ، فتستفبد بنبيله كمالاً ، فتلتذ بنبيله ، وهذا محال على الله تعالى ، فإن كل كمال ، وجمال ، وبهاء ، وجلال ممكن فى حق الإلهية ، فهو حاضر وحاصل ، وواجب الحصول أبداً وأزلاً ، ولا يتصور تجرده ولا زواله ، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره ، بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط ، ولبس فى الوجود إلا ذاته وأفعاله . ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميهنى رحمه الله تعالى ، لما قرئ عليه قوله تعالى ( يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ <sup>(١)</sup> ) فقال : بحق يحبهم ، فإنه ليس يحب إلا نفسه ، على معنى أنه الكل وأن لبس فى الوجود غيره . فمن لا يحب إلا نفسه ، وأفعال نفسه ، وتصانيف نفسه ، فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته . فهو إذاً لا يحب إلا نفسه . وما ورد من الألفاظ فى حبه لعباده فهو مؤول ، ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه ، وإلى تمكينه إياه من القرب منه ، وإلى إرادته ذلك به فى الأزل ، فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التى اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب ، وإذا أضيف إلى فعله الذى يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث

(١) المائدة : ٥٤

بحدوث السبب المقتضى له ، كما قال تعالى : لا يزال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه ، وارتفاع الحجاب عن قلبه ، وحصوله في درجة القرب من ربه . فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به ، فهو معنى حبه

ولا يفهم هذا إلا بمثال ، وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ، ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه ، ليل الملك إليه ، إما لينصره بقوته ، أو ليسترىح بمشاهدته ، أو ليستشيره في رأيه ، أو ليهيئ أسباب طعامه وشرابه . فيقال إن الملك يحبه ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق للملائم له . وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه ، لالانتفاع به ، ولالاستنجاذه ، ولكن لكون العبد في نفسه موصوفاً من الأخلاق الرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريباً من حضرة الملك ؛ وافر الحظ من قرب به ، مع أن الملك لا غرض له فيه أصلاً . فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه ، يقال قد أحبه . وإذا اكتسب من الخصال الحميدة ما يقتضى رفع الحجاب ، يقال قد توصل وحجب نفسه إلى الملك . فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب ، فإن الحبيب هو القريب من الله تعالى ، والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين ، والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية ، فهو قرب بالصفة لا بالمكان ، ومن لم يكن قريباً فصار قريباً فقد تغير قريباً يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعاً ، إذ صار قريباً بعد أن لم يكن ، وهو محال في حق الله تعالى ، إذ التغير عليه محال بل لا يزال في نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الآزال

ولا ينكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص ، فإن الشخصين قد يتقاربان بتحركاتهما جميعاً ، وقد يكون أحدهما ثابتاً ، فيتحرك الآخر ، فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر . بل القرب في الصفات أيضاً كذلك ، فإن التاميز يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله ، والأستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالنزول إلى درجة تلميذه ، والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم ، فلا يزال دائماً في التغير والترقي إلى أن يقرب من أستاذه ، والأستاذ ثابت غير متغير . فكذلك ينبغي أن

يفهم ترقى العبد في درجات القرب ، فكما صار أكمل صفة ، وأتم علما وإحاطة بحقائق الأمور ، وأثبت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات ، وأظهر نزاهة عن الرذائل ، صار أقرب من درجة الكمال ، ومنتهى الكمال لله ، وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله . نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ ، وعلى مساواته ، وعلى مجاوزته ، وذلك في حق الله محال ، فإنه لانهاية كماله ، وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ، ولا ينتهى إلا إلى حد محدود ، فلا مطمع له في المساواة

ثم درجات القرب تنفاوت تفاوتاً لانهاية له أيضاً لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال فإذا محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه ، وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ، ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه . وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه ، فافدله ، فلا جرم يشاق إلى مافاته ، وإذا أدرك منه شيئاً يلتذ به ، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى .

فإن قلت : محبة الله للعبد أمر ملتبس ، فم يعرف العبد أنه حبيب الله فأقول : يستدل عليه بعلاماته . وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ فَإِذَا أَحَبَّهُ أَلْبَسَ الْبَالِغَ اقْتَنَاهُ » قيل وما اقتناه؟ قال « لَمْ يَتْرُكْ لَهُ أَهْلًا وَلَا مَالًا » فعلامته محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ، ويحول بينه وبين غيره ، قيل لعيسى عليه السلام . لم لا تشتري حماراً فتركبه ؟ فقال أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلنى عن نفسه بحمار . وفى الخبر <sup>(٢)</sup> « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ فَإِنْ صَبَرَ اجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ » وقال بعض العلماء . إذا رأيتك تحبه ، ورأيتك يتليك ، فاعلم أنه يريدك بصافيك . وقال بعض المريدين لأستاذه . قد طولمت بشيء من المحبة . فقال يابني ، هل ابتلاك بمحجوب سواه فأثرت عليه إياه ؟ قال لا . قال فلا نطمع فى المحبة ، فإنه لا يعطيها عبداً حتى يلوه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا جَعَلَ لَهُ وَاعِظًا مِنْ نَفْسِهِ وَزَاجِرًا مِنْ قَلْبِهِ »

- ( ١ ) حديث إذا أحب الله عبداً ابتلاه - الحديث : الطبرانى من حديث أبي عتبة الحولاني وقد تقدم  
( ٢ ) حديث إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتبه - الحديث : ذكره صاحب الفردوس من حديث على ابن أبي طالب ولم يخرج له ولده فى مسنده  
( ٣ ) حديث إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه - الحديث : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ إذا أراد الله بعبده خيراً

يَا مُرَّةٌ وَيَسْهَادُ » وقد قال (١) : إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا نَصَّرَهُ يُعْيُوبَ نَفْسِهِ « فأخص  
علاماته : حبه الله ، فإن ذلك يدل على حب الله  
وأما الفعل الدال على كونه محبوبا ، فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه ، سره  
وجهره ، فيكون هو المشير عليه ، والمدبر لأمره ، والمزين لأخلاقه ، والمستعمل لجوارحه  
والمسدد لظواهره وباطنه ، والجاعل همومه هما واحدا ، والمبغض للدنيا في قلبه ، والموحش  
له من غيره ، والمؤنس له بالذة المناجاة في خلاته ، والكاشف له عن الحجب بينه وبين  
معرفة الله ، فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد ، فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله فإنها  
أيضا علامات حب الله للعبد

## القول

في علامات محبة العبد لله تعالى

أعلم أن المحبة يدعيها كل أحد ، وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى ! فلا ينبغي أن يغتر  
الإنسان بتلبس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ، ما لم يمتحنها بالعلامات ،  
ولم يطالبها بالبراهين والأدلة . والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وثمارها  
تظهر في القلب ، واللسان ، والجوارح ، وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح  
على المحبة دلالة الدخان على النار ، ودلالة الثمار على الأشجار ، وهي كثيرة  
فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام . فلا يتصور أن  
يحب القلب محبوبا إلا ويحب مشاهدته ولقائه ، وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من  
الدنيا ومفارقتها بالموت ، فينبغي أن يكون محبا للموت غير فارم منه ، فإن المحب لا يشغل عليه  
السفر عن وطنه إلى مستقر محبته ليتنعم بمشاهدته ، والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول  
إلى المشاهدة . قال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ » وقال  
حذيفة عند الموت . حبيب جاء على فاقة لأفلق من ندم . وقال بعض السلف : ما من خصلة

( ١ ) حديث إذا أراد الله بعد خيرا بصره بعبود نفسه : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث

أنس بزيادة فيه بإسناد ضعيف

( ٢ ) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه : متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة

أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود . فقدم حب لقاء الله على السجود . وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق في الحب التسل في سبيل الله ، حيث قالوا إنا نحب الله ، فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال ( إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا <sup>(١)</sup> ) وقال عز وجل ( يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ <sup>(٢)</sup> ) وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما : الحق ثقيل ، وهو مع ثقله مرىء ، والباطل خفيف ، وهو مع خفته وبنىء ، فإن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدرّكك ، وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه . وروي عن <sup>(١)</sup> اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد . ألا ندعو الله ؟ فخلوا في ناحية ، فدعا عبد الله بن جحش فقال . يارب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدا فلقني رجلا شديدا بأسه ، شديدا حرده ، أفاتله فيك ويقاتلني ، ثم يأخذني فيجدع أنفي ، وأذني ، ويقر بطني ، فإذا لقيتك غدا قلت يا عبد الله من جدع أنفك وأذنك ؟ فأقول فيك يارب وفي رسولك ، فتقول صدقت . قال سعد . فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لعلقتان في خيط ، قال سعد بن المسيب أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما أبرأ أوله

وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان . لا يكره الموت إلا مريب ، لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه . وقال البويطي لبعض الزهاد . أتحب الموت ؟ فكانه توقف فقال لو كنت صادقا لأحييته ، وتلا قوله تعالى ( فَتَمَنَّوْا أَلَمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ <sup>(٣)</sup> ) فقال الرجل . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ أَلَمُوتَ » فقال : إنما قاله لضر نزل به ، لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه

( ١ ) حديث اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فخلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب إني أقسم عليك إذا لقيت العدو غدا فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أفاتله فيك ويقاتلني ويجدع أنفي وأذني - الحديث : الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية وإسناده جيد

( ٢ ) حديث لا يمتنن أحدكم الموت لضر نزل به - الحديث : متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم

( ٣ ) الصف : ٤ ( ٢ ) التوبة : ١١١ ( ٤ ) البقرة : ٩٤

فإن قلت : فمن لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محبا لله ؟  
 فأقول : كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا ، والتأسف على فراق الأهل ، والمال ، والولد  
 وهذا يناق كمال حب الله تعالى ، لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب . ولكن  
 لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة ، فإن الناس  
 متفاوتون في الحب ، ويدل على التفاوت ما روي أن <sup>(١)</sup> أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن  
 عبد شمس ، لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه ، عاتبته قريش في ذلك وقالوا . أنكحت  
 عقيلة من عقائل قريش لمولى ! فقال والله لقد أنكحت إياها وإني لأعلم أنه خير منها  
 فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله ، فقالوا وكيف وهي أختك وهو مولاك ؟ فقال سمعت  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ يُحِبُّ اللَّهُ بِكُلِّ قَلْبِهِ  
 فَلْيَنْظُرْ إِلَى سَالِمٍ » فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه ، فيحبه وينجب  
 أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه بقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه ، وعذابه  
 بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها

وأما السبب الثاني للكرهية فهو أن يكون المبدأ في ابتداء مقام المحبة ، وليس يكره  
 الموت ، وإنما يكره مجلته قبل أن يستعد للقاء الله ، فذلك لا يدل على ضعف الحب ، وهو  
 كالحب الذي وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه ، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره ،  
 ويعد له أسبابه ، فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل ، خفيف الظهر عن الموائق . فالكرهية  
 بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلا . وعلامته الدؤب في العمل ، واستغراق الهم في الاستعداد  
 ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه ، فيلزم مشاق العمل  
 ويحتجب اتباع الهوى ، ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظبا على طاعة الله ، ومتقربا  
 إليه بالنوافل ، وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب في قلب المحبوبة .  
 وقد وصف الله المحبين بالإيثار فقال ( يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً

( ١ ) حديث أبي حذيفة بن عتبة الممازوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك وفيه فقال  
 سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه  
 فلينظر إلى سالم : لم أره من حديث حذيفة وروى أبو نعيم في الحلية للرفوع منه من حديث عمر أن  
 سالما يحب الله حقا من قلبه وفي رواية له أن سالما شدد الحب لله عز وجل ولم يخف الله عز وجل  
 ما عصاه وفيه عبد الله بن ربيعة



نَمَّا أَوْثُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ <sup>(١)</sup> ) ومن بقي مستمرا على متابعة الهوى فحبه ما بهواه ، بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه . كما قيل .

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب ، كما روي أن زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام ، انفردت عنه ونحلت للعبادة ، وانقطعت إلى الله تعالى ، فكان يدعوها إلى فراشه نهارا فتدافعه إلى الليل ، فإذا دعاها ليلا سوفت به إلى النهار ، وقالت يا يوسف ، إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه ، فأما إذا عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه ، وما أريد به بدلا . حتى قال لها : إن الله جل ذكره أمرني بذلك ، وأخبرني أنه مخرج منك ولدين ، وجاعلها نبينين ، فقالت أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك ، وجعلني طريقا إليه ، فطاعة لأمر الله تعالى . فعندها سكنت إليه

فإذا من أحب الله لا يعصيه ، ولذلك قال ابن المبارك فيه .

نعصى الإله وأنت تظهر حبه      هذا لعمري في الفعال بديع  
لو كان حبك صادقا لأطعته      إن المحب لمن يحب مطيع

وفي هذا المعنى قيل أيضا

وأترك ما أهوى لما قد هويته      فأرضى بما ترضى وإن سخطت بنفسى  
وقال سهل رحمه الله تعالى . علامة الحب إثارة على نفسك ، وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيبا ، وإنما الحبيب من اجتنب المناهى . وهو كما قال ، لأن محبة الله تعالى سبب محبة الله له . كما قال تعالى ( يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ <sup>(٢)</sup> ) وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه وإنما عدوه نفسه وشهواته ، فلا يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهواته . ولذلك قال تعالى ( وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا <sup>(٣)</sup> )

فإن قلت : فالمصيان هل يضاد أصل المحبة ؟

فأقول : إنه يضاد كلها ولا يضاد أصلها . فكم من إنسان يحب نفسه ، وهو مريض ويحب الصحة ، ويأكل ما يضره ، مع العلم بأنه يضره ، وذلك لا يدل على عدم حبه لنفسه .

(١) الحشر : ٨ (٢) المائدة : ٥٤ (٣) النساء : ٥٥

ولكن المعرفة قد تضيق ، والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ، ويدل عليه ما روي <sup>(١)</sup> أن نعيان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قليل فيجده في مصيبة يرتكبها ، إلى أن أتى به يوماً فخلعه . فلعله رجل وقال ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم « لَا تَلْعَنُهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » فلم يخرج به بالمصيبة عن المحبة . نعم يخرج به المصيبة عن كمال الحب ، وقد قال بعض العارفين . إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حبا متوسطا ، فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ ، وترك المصاحي وبالجملة في دعوى المحبة خطر ، ولذلك قال الفضيل . إذا قيل لك أحب الله تعالى فاسكت ، فإنك إن قلت لا كفرت ، وإن قلت نعم فليس وصفك وصف المحبين ، فاحذر الموت . ولقد قال بعض العلماء . ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ، ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك

ومنها أن يكون مستهترا بذكر الله تعالى ، لا يفتر عنه لسانه ، ولا يخلو عنه قلبه ، فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره ، وذكر ما يتعلق به ، فعلامة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه ، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحب كل من ينسب إليه . فإن من يحب إنسانا يحب كلب محله ، فالمحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه ، وذلك ليس شراكة في الحب ، فإن من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله ، وكلامه لأنه كلامه ، فلم يجاوز حبه إلى غيره ، بل هو دليل على كمال حبه . ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله ، لأنهم خلقه ، فكيف لا يحب القرآن ، والرسول ، وعباد الله الصالحين ! وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الأخوة والصحبة ، ولذلك قال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ <sup>(١)</sup>) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « أَجِبُوا اللَّهَ لِمَا يَفْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ وَأَجِبُونِي لِلَّهِ تَعَالَى » وقال سفيان : من أحب من يحب الله تعالى فإنما أحب الله . ومن أكرم من يكرم الله تعالى

( ١ ) حديث أن نعيان يوماً فخلعه فلعله رجل قال ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم البخاري وقد تقدم

( ٢ ) حديث أحبوا الله لما ينفذوكم به من نعمه - الحديث : تقدم

فإنما يكرم الله تعالى . وحكي عن بعض المريدين قال : كنت قد وجدت حلاوة المناجاة في سن الإرادة ، فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ، ثم لحقتني فترة فانتقطعت عن التلاوة . قال فسمعت قائلا يقول في المنام : إن كنت تزعم أنك تحبني فلم جفوت كتابي ؟ أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابي ! قال فانتبهت وقد أشرب في قلبي محبة القرآن ، فعاودت إلى حالي وقال ابن مسعود : لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن . فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل ، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله . وقال سهل رحمه الله تعالى عليه : علامة حب الله حب القرآن ، وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زاداً وبلغه إلى الآخرة

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه ، فيواظب على التهجده ويغتيم هذه الليل ، وصفاء الوقت بانقطاع العوائق . وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب ، والتنعيم بمناجاته . فمن كان النوم والاستئغال بالحديث الله عنده وأطيب من مناجاة الله ، كيف تصح محبته ! قيل لإبراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل : من أين أقبلت ؟ فقال من الأنس بالله . وفي أخبار داود عليه السلام : لا تستأنس إلى أحد من خلقي ، فإني إنما أقطع عني رجلين . رجلا استبطأ ثوابي فانتقطع ، ورجلا نسيني فترضي بحاله ، وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه ، وأن أدعه في الدنيا حيران

ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ، ساقطا عن درجة محبته . وفي قصة برنخ ، وهو العبد الأسود الذي استسقى به موسى عليه السلام ، أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام . إن برنخا نعم العبد هولي ، إلا أن فيه عيبا . قال يارب وما عيبه ؟ قال يعجبه نسيم الأسفار فيسكن إليه ، ومن أحبني لم يسكن إلى شيء

وروي أن عابدا عبد الله تعالى في غيضة دهر أطويلا ، فنظر إلى طائر وقد عشن في شجرة يأوي إليها ، وبصر عندها ، فقال لو حولت مسجدي إلى تلك الشجرة ، فسكنت آتس

بصوت هذا الطائر . قال ففعل . فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان : قل لفلان العابد ، استأنست بمخلوق لأحطتكَ درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً  
 فإذا علامة المحبة كمال الأنس بمنجاة المحبوب ، وكمال التمتع بالخلوة به ، وكمال الاستيحاء من كل ما ينقص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة . وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كماه مستغرقاً بلذة المناجاة ، كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه . وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشعر به ، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهوى في الصلاة فلم يشعر به . ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عينه يدفع بها جميع الهموم ، بل تستغرق الأنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على سمعه مراراً ، مثل الماشق الولهان ، فإنه يكلم الناس بلسانه ، وأنسه في الباطن بذكر حبيبه فالحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه . وقال قتادة في قوله تعالى ( الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ <sup>(١)</sup> ) قال هشت إليه ، واستأنست به وقال الصديق رضي الله تعالى عنه : من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبي بكر : المحب لا يسأم من حديث حبيبه وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قد كذب من ادعى محبتي إذا جنه الليل نام عني أليس كل محب يحب لقاء حبيبه ؟ فيها أناذا موجود لمن طلبني . وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأفصذك ؟ فقال إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيى بن معاذ : من أحب الله أبغض نفسه . وقال أيضاً : من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب ، يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق ، والعبادة على خدمة الخلق ومنها أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل ، ويمظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته ، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب ، والتوبة . قال بعض العارفين . إن الله عباداً أحبوه واطمأنوا إليه ، فذهب عنهم التأسف على الفائت ، فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان ملك ملبسهم تاماً ، وما شاء كان ، فما كان لهم فهو واصل إليهم ، وما فاتهم فبحسن تديره لهم

وحق المحب إذا رجع من غفلته في لحظة أن يقبل على محبوبه ، ويشغل بالعتاب ، ويسأله ويقول . رب بأي ذنب قطعت برك عني ، وأبعدتني عن حضرتك ، وشغلتي بنفسي وبتابعة الشيطان ؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب ، يكفر عنه ماسبق من الغفلة ، وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه

ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ، ولم ير شيئا إلا منه ، لم يتأسف ولم يشك ، واستقبل الكل بالرضا ، وعلم أن المحبوب لم يقدر له إلا ما فيه خيرته ، ويذكر قوله ( وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ <sup>(١)</sup> )

ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ، ويسقط عنه تعبها ، كما قال بعضهم : كابدت الليل عشرين سنة ، ثم تنعمت به عشرين سنة . وقال الجنيد : علامة المحب دوام النشاط والدؤب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه وقال بعضهم : العمل على المحبة لا يدخله الفتور . وقال بعض العلماء . والله ما اشتق محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل

فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات ، فإن العاشق لا يستثقل السعي في هوى معشوقه ، ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه ، ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة ، وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به . فهكذا يكون حب الله تعالى ، فإن كل حب صار غالبا قهر لا محالة ما هو دونه . فمن كان مجبوره أحب إليه من الكسل ترك الكسل في خدمته . وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه . وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء . ما كان سبب حاله هذه في المحبة ؟ فقال سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول ، أنا والله أحبك بقلي كله ، وأنت معرض عني بوجهك كله . فقال له المحبوب : إن كنت تحبني فأيش تنفق علي ؟ قال ياسيدي أملكك ما أملك ، ثم أنفق عليك رuchi حتى تهلك . فقلت هذا خلق خلقي ، وعبد لعبد ، فكيف بعبد لمعبود ! فكل هذا بسببه

ومنها أن يكون مشفقا على جميع عباد الله ، رحبا بهم ، شديدا على جميع أعداء الله ، وعلى كل من يقارف شيئا مما يكرهه ، كما قال الله تعالى ( أَسِئَاءٌ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ يَنْهَمُ <sup>(٢)</sup> )

(١) البقرة : ٢١٦ (٢) الفتح : ٢٩

ولا تأخذه لومة لائم ، ولا يصرفه عن الغضب لله صارف ، وبه وصف الله أوليائه إذ قال :  
الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشيء ، ويأوون إلى ذكرى كما يأوى النسر إلى وكره  
ويغضبون لمحارمي كما يغضب النمر إذا حرد ، فإنه لا يبالي قل الناس أو كثروا فانظر إلى  
هذا المثال ، فإن الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلاً . وإن أخذ منه لم يكن له شغل  
إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه ، فإن نام أخذه معه في ثيابه ، فإذا اتبه عاد وتمسك به ، ومهما  
فارقه بكى ، ومهما وجده ضحك ، ومن نازعه فيه أبغضه ، ومن أعطاه أحبه . وأما النمر فإنه  
لا يملك نفسه عند الغضب ، حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه

فهذه علامات المحبة ، فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه ، فصفا  
في الآخرة شرابه وعذب مشربه . ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه  
إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقربين ، كما قال تعالى في الأبرار ( إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ <sup>(١)</sup> )  
ثم قال ( يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مِثْقَالُ حَبِّ خَيْثُ مِثْقَالِ حَبِّ خَيْثُ مِثْقَالِ حَبِّ خَيْثُ مِثْقَالِ حَبِّ خَيْثُ <sup>(٢)</sup> )  
وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ <sup>(٣)</sup> ) فإنما طاب شراب الأبرار لشوب الشراب  
للصرف الذي هو للمقربين . والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان ، كما أن الكتاب عبرة  
عن جميع الأعمال فقال ( إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ <sup>(٤)</sup> ) ثم قال ( بِشَهَادَةِ الْمُتَرَبِّطِينَ <sup>(٥)</sup> )  
فكان أمانة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقربون . وكما أن الأبرار يحدون  
الزبد في حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقربين ، ومشاهدتهم لهم ، فكذلك يكون حالهم  
في الآخرة ( مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَتَّخِذُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً <sup>(٦)</sup> ) ( كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ <sup>(٧)</sup> )  
نُعِيدُهُ <sup>(٨)</sup> ) وكما قال تعالى ( جَزَاءُ وَفَاقًا <sup>(٩)</sup> ) أي وافق الجزاء أعمالهم . فقول الخالص  
بالصرف من الشراب ، وقبول المشوب بالمشوب ، وشوب كل شراب على قدر ماسبق من  
الشوب في حبه وأعماله ( فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ <sup>(١٠)</sup> وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا <sup>(١١)</sup> )  
يَرَهُ <sup>(١٢)</sup> ) و ( إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ <sup>(١٣)</sup> ) و ( إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ <sup>(١٤)</sup> )  
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعفها <sup>(١٥)</sup> ) ( وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا <sup>(١٦)</sup> )

(١) الأنعام : ١٣ (٢) اللطيفين : ٣٥ - ٣٨ (٣) الطهين : ١٨ (٤) الطهين : ٣١ (٥) لقمان : ٢٨  
(٦) الأنبياء : ١٠٤ (٧) النبا : ٣٦ (٨) الزلزلة : ٥٧ (٩) الرعد : ١١ (١٠) النساء : ٥٤

وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ<sup>(١)</sup> ) فن كان حبه في الدنيا رجاء لنعيم الجنة والخور العين والقصور ،  
مكن من الجنة ليتبوا منها حيث يشاء ، فيلب مع الولدان ، ويتمتع بالنسوان ، فهناك تنتهي  
لذته في الآخرة ، لأنه إنما يعطى كل إنسان في المحبة ما تشبهه نفسه وتلد عينه . ومن كان  
مقصده رب الدار ومالك الملك ، ولم يغب عليه إلا حبه بالإخلاص والصدق ، أنزل في مقعد  
صدق عند مليك مقتدر . فالأبرار يرتعون في البساتين . وينعمون في الجنان مع الخور العين  
والولدان ، والمقربون ملازمون للحضرة ، عاكفون بطرفهم عليها ، يستحقرون نعيم الجنان  
بالإضافة إلى ذرة منها . فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون ، وللمجالسة أفوام  
آخرون . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَّةُ وَعَلِيُّونَ  
لِدَوَى الْأَلْبَابِ » . ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين ، عظم أمره فقال  
( وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّونَ<sup>(٣)</sup> ) كما قال تعالى ( الْفَارِعَةُ مَا الْفَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفَارِعَةُ<sup>(٤)</sup> )  
ومنها أن يكون في حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتمظيم . وقد يظن أن الخوف  
يضاد الحب ، وليس كذلك . بل إدراك العظمة يوجب الهيبة ، كما أن إدراك الجمال يوجب  
الحب . ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم . وبعض مخاوفهم أشد من  
بعض ، فأولها خوف الإعراض ، وأشد منه خوف الحجاب ، وأشد منه خوف الإبعاد  
وهذا المعنى في سورة هود هو الذي<sup>(٥)</sup> شيب سيد المحبين ، إذ سمع قوله تعالى ( أَلَا بُعْدًا  
لِلْمُؤَدِّ<sup>(٦)</sup> ) ( أَلَا بُعْدًا لِلْمُذِينَ كَمَا بَدَتْ نَحْوُ<sup>(٧)</sup> )

وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذافه وتنم به ، فحديث البعد  
في حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب في القرب ، ولا يحن إلى القرب من ألف البعد  
ولا يبكي لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب

ثم خوف الوقوف وسلب المزيد ، فإننا تدمنا أن درجات القرب لانهاية لها ، وحق العبد  
أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

( ١ ) حديث أكر أهل الجنة البله وعلبون لدوى لألباب : البزار من حديث أنس بسند ضعيف يقصرا

على الشطر الأول وقد تقدم والشطر الثاني من كلام أحمد بن أبي الخوارى ولله أدراج فيه

( ٢ ) حديث شيبتي هود أخرجه : الترمذى وقد تقدم غير مرة

( ٣ ) الأنبياء : ٤٧ ( ٤ ) المطففين ١٩ ( ٥ ) الفارعة : ١ ، ٢ ، ٣ ( ٦ ) هود : ٦٨ ، ٩٥

«مَنِ اسْتَوَى يَوْمَهُ فَهُوَ مَغْبُورٌ وَمَنْ كَانَ يَوْمُهُ شَرًّا مِنْ أَمْسِهِ فَهُوَ مَلْعُونٌ» وكذلك قال عليه السلام <sup>(١)</sup> «إِنَّهُ لَيَقَانُ عَلَى قَلْبِي فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ سَبْعِينَ مَرَّةً» وإنما كان استغفاره من القدم الأول ، فإنه كان بعدا بالإضافة إلى القدم الثاني . ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور في الطريق ، والالتفات إلى غير المحبوب ، كما روي أن الله تعالى يقول : إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوات الدنيا على طاعتي ، أن أسلبه لذيذ مناجاتي . فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم ، فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد بمجرد الدعوى ، والعجب ، والركون إلى ما ظهر من مبادئ اللطف ، وذلك هو المكر الخفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فواته ، سمع إبراهيم بن آدم قائلا يقول وهو في سياحته وكان على جبل :

كل شيء منك مغفور رسوى الإعراض عنه

قد وهبنا لك ما فات فهب ما فات منا

فاضطرب وغشي عليه ، فلم يبق يوما وليلة ، وطرأت عليه أحوال ثم قال : سمعت النداء من الجبل : يا إبراهيم كن عبدا ، فكنت عبدا واسترحمت

ثم خوف السلو عنه ، فإن الحب يلزمه الشوق والطلب الحثيث ، فلا يفتر عن طلب المزيد ، ولا ينسلى إلا بلطف جديد . فإن تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب وجعته ، والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر ، كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر ، فإن هذه التقلبات لها أسباب خفية سمارية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها . فإذا أراد الله المكربه واستدراجه أخفى عنه ما ورد عليه من السلو ، فيقف مع الرجاء ، ويفتر بحسن النظر ، أو بغلبة الغفلة ، أو الهوى ، أو النسيان ، فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم ، والعقل ، والذكر ، والبيان ، وكأن من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضى

( ١ ) حديث من استوى يومه فهو مغبور ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون : لأعلم هذا الألف منام لعبد العزيز بن أبي رواء قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله أوصني فقال

ذلك زيادة في آخره رواه البيهقي في الزهد

( ٢ ) حديث انه ليغان على قلبي : متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم



هيجان الحب ، وهى أوصاف اللطف والرحمة ، والحكمة ، فن أوصافه مايلوح فيورث السلو ، كأوصاف الجبرية ، والعزة ، والاستغناء ، وذلك من مقدمات المكر ، والشقاء ، والحرمان .  
 ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره ، وذلك هو المقت والتسلو عنه مقدمة هذا المقام ، والإعراض والحجاب مقدمة السلو ، وضيق الصدر بالبر ، واقتباسه عن دوام الذكر ، وملا له لوظائف الأوراد أسباب هذه المعاني ومقدماتها ، وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام المقت نعوذ بالله منه . وملازمة الخوف لهذه الأمور ، وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب ، فإن من أحب شيئاً خاف لاحتلاله فقده ، فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته . وقد قال بعض العارفين :  
 من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبدسط والإدلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاء ، ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى فقربه ، ومكنه ، وعلمه . فالمحب لا يخلو عن خوف ، والخائف لا يخلو عن محبة ، ولكن الذى غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ، ولم يكن له من الخوف إلا سير ، يقال هو فى مقام المحبة . وبعد من المحبين ، وكان شوب الخوف يسكن قليلاً من سكر الحب فلو غلب الحب ، واستولت المعرفة ، لم تثبت لذلك طاقة البشر ، فإنما الخوف بمد له ويحفف وقعه على القلب فقد روي فى بعض الأخبار أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ، ففعل ذلك ، فهام فى الجبال وحر عقله ، ووله قلبه وبقي شاخصاً سبعة أيام لا ينتفع بشيء ، ولا ينتفع به شيء . فسأل له الصديق : به تعالى فقال يارب أنقصه من الدرة بعضها . فأوحى الله تعالى إليه . إننا أعطيناك جزءاً من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة ، وذلك أن مائة ألف عبد سألونى شيئاً من المحبة فى الوقت الذى سألنى هذا فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا ، فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيتك فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد ، فهذا ماأصابه من ذلك . فقال سبحانه ياأحكم الحاكمين ، أنقصه مما أعطيتك . فأذهب الله عنه جملة الجزء ، وبقي معه عشر معشاره ، وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة ، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه ، وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل فى وصف حال العارف .

قريب الوجد ذو مرمى بعيد  
غريب الوصف ذو علم غريب  
لقد عزت معانيه وجلت  
يرى الأعياد في الأوقات تجري  
وللأحباب أفرح بعيد  
ولا يحسد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أياتا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين ، وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره ، وهي هذه الأيات

سرت بأناس في الغيوب قلوبهم  
عراصا بقرب الله في ظل قدسه  
موارد في المز والنهي  
تروح بمن مفرد من صفاته  
ومن بعد هذا ماتدق صفاته  
سأكم من علمي به ما يصونه  
وأعطي عباد الله منه حقوقهم  
على أن للرحمن سرا يصونه

وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له . بل لو اشترك الناس فيها خربت الدنيا . فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعبارة الدنيا . بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعيز يوم ما خربت الدنيا لزهدهم فيها ، وبطلت الأسواق والمعاش . بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ، ولوقفت الألسنة والأقدام عن كثير مما تنشر من العلوم . ولكن الله تعالى فيما هو شر في الظاهر أسرار وحكم ، كما أن له في الخير أسراراً وحكماً . ولا منتهى لحكمته ؛ كما لا غاية لقدرته ومنهسا . كتمان الحب ، واجتناب الدعوى ، والتوقى من إظهار الوجد والمجة تعظيما للمحبوب وإجلالا له ، وهيبة منه ، وغيرة على سره ، فإن الحب سر من أسرار الحبيب ، ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه . فيكون ذلك من الاقتراء

وتعظم العقوبة عليه في العقبى ، وتتعجل عليه البلوى في الدنيا . نعم قد يكون للمحب  
سكرة في حبه حتى يدهش فيه ، وتضطرب أحواله . فيظهر عليه حبه ، فإن وقع ذلك عن غير  
تحل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور ، وربما تشتمل من الحب نيرانه ، فلا يطاق  
سلطانه ، وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه . فالقادر على الكتمان يقول

وقالوا قريب قلت ما أنا صانع      بقرب شعاع الشمس لو كان في حجرى  
فالى منه غـير ذكر بخاطر      يهيج نار الحب والشوق فى صدرى  
والعاجز عنه يقول :

يخفى فيبدي الدمع أسرارهِ      ويظهر الوجد عليه النفس  
ويقول أيضا :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله      ومن سره في جفنه كيف يكتُم  
وقد قال بعض العارفين : أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم إشارة به . كأنه أراد من يكثر  
التعريض به في كل شيء ، ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد ، فهو ممقوت عند المحبين  
والعلماء بالله عز وجل . ودخل ذوالنون المصرى على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة ،  
فراه مبتلى بيلا ، فقال لا يحبه من وجد أضره . فقال الرجل . لكنى أقول لا يحبه من لم  
يتهم بضره . فقال ذوالنون : ولكنى أقول لا يحبه من شمر نفسه بحبه . فقال الرجل .  
أستغفر الله وأتوب إليه ، . فإن قلت . المحبة منتهى المقامات ، وإظهارها إظهار للخير ،  
فماذا يستنكر ؟ فاعلم أن المحبة محمودة ، وظهورها محمود أيضا . وإنما المذموم التظاهر بها ،  
لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار . وحق الحب أن ينم على حبه الخفى أفعاله وأحواله ،  
دون أقواله وأفعاله . وينبغى أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ، ولا إلى  
إظهار الفعل الدال على الحب بل ينبغى أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط . فأما إرادته  
اطلاع غيره فشره في الحب ، وفادح فيه ، كما ورد في الإنجيل . إذا نصدقت فتصدق بحيث  
لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك ، فالذى يرى الخفيات يحزبك علانية وأذا صمت فاغسل وجهك  
وادهن رأسك ، لئلا يعلم بذلك غير ربك . فإظهار القول والفعل كله مذموم ، إلا إذا غلب

سكر الحب فانطلق اللسان ، واضطربت الأعضاء ، فلا يلام فيه صاحبه . حكى أن رجلا رأى من بعض المجانين ، ما استجهله فيه ، فأخبر بذلك معروفا الكرخى رحمه الله ، فتبسم ثم قال . يا أخى ؛ له محبوب صغار وكبار ، وعقلاء ومجانين ، فهذا الذى رأيت من مجانينهم ومما يكره التظاهر بالحب بسبب أن المحب إن كان عارفا ، وعرف أحوال الملائكة فى حبهم الدائم ، وشوقهم اللازم ، الذى به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ولا يمضون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه ، وعلم قطعا أنه من أخس المحبين فى مملكته ، وأن حبه أنقص من حب كل محب لله . قال بعض المكاشفين من المحبين . عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح ، على بذل المجهود واستفراغ الطاقة ، حتى ظننت أن لى عند الله شيئا ، فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات فى قصة طويلة قال فى آخرها ، . فبلغت صفات الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شئ ، فقلت من أنتم ؟ فقالوا نحن المحبون لله عز وجل ، نعبده ههنا منذ ثلثمائة ألف سنة ، ما خطر على قلوبنا قط سواه ، ولا ذكرنا غيره . قال فاستحييت من أعمالى ، فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه فى جهنم

فإذا من عرف نفسه ، وعرف ربه ، واستحيامنه حق الحياء ، خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى . ثم يشهد على حبه حركاته ، وسكناته ، وإقدامه ، وإحجامه ، وتردداته ، كما حكى عن الجنيد أنه قال . مرض أستاذنا السرى رحمه الله ، فلم نعرف لعلته دواء ، ولا عرفنا لها سببا . فَوُصِفَ لنا طبيب حاذق ، فأخذنا قارورة مائه ، فنظر إليها الطبيب ، وجعل ينظر إليه مليا ، ثم قال لى . أراه بول عاشق . قال الجنيد . فصعقت وغشي علي ، ووقعت القارورة من يدي . ثم رجعت إلى السرى فأخبرته ، فتبسم ثم قال . قاتله الله ما أبصره ! قلت يا أستاذ ، وتبين المحبة فى البول ؟ قال نعم . وقد قال السرى مرة . لو شئت أقول ما أيسر جلدى على عظمى ، ولا سل جسمى لإحبه . ثم غشي عليه . وتدل الغشية على أنه أفصح فى غلبة الوجد ومقدمات الغشية . فهذه مجامع علامات الحب وثمراته

ومنها الأنس والرضا كما سيأتى . وبالجمله جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب ، وما لا يشره الحب فهو اتباع الهوى ، وهو من رذائل الأخلاق . نعم فديحب الله

لإحسانه إليه ، وقد يحبه الجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه . والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين . ولذلك قال الجنيد : الناس في محبة الله تعالى عام وخاص . فالعوام نالوا ذلك بمرقتهم في دوام إحسانه وكثرة نعمه ، فلم يتمالكوا أن أرضوه ، إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر الزم والإحسان ، فأما الخاصة فنالوا المحبة بمظم القدر ، والقدرة ، والعلم ، والحكمة ، والتفرد بالملك . ولما عرفوا صفاته الكاملة ، وأسماء الحسنى ، لم يمتنعوا أن أحبوه ، إذ استحق عندهم المحبة بذلك ، لأنه أهل لها ، ولو أزال عنهم جميع النعم . نعم من الناس من يحب هواه وعدوا لله إبليس ، وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل ، فيظن أنه محب لله عز وجل ، وهو الذي فقدت فيه هذه العلامات ، أو يلبس بها نقا ، ورياء ، وسمعة ، وغرضه عاجل حظ الدنيا ، وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك ، كعلماء السوء ، وقرءاء السوء ، وأولئك بنضاء الله في أرضه . وكان سهل إذا تكلم مع إفسان قال : يادوست ، أى يا حبيب ، فقيل له : قد لا يكون حبيباً ، فكيف تقول هذا ؟ فقال في أذن القائل سرا . لا يخلو إما أن يكون مؤمناً أو منافقاً . فإن كان مؤمناً فهو حبيب الله عز وجل ، وإن كان منافقاً فهو حبيب إبليس وقد قال أبو تراب النخشي في علامات المحبة أياتاً :

لا يتخذ عن فلان حبيب دلائل	ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه	وسروره في كل ماهو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة	والفقر إكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه	طوع الحبيب وإن ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسماً	والقلب فيه من الحبيب بلايل
ومن الدلائل أن يرى متفهماً	لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى متشفهاً	متحفظاً من كل ماهو قائل

وقال يحيى بن معاذ

ومن الدلائل أن تراه مشمراً	في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه وتحيينه	بحوف الظلام قاله من جاذل
ومن الدلائل أن تراه صافراً	نحو الجهاد وكل فعل فاضل

ومن الدلائل زهده فيما يرى      من دار ذل والنعيم الزائل  
ومن الدلائل أن تراه باكيا      أن قد رآه على قبيح فعاثل  
ومن الدلائل أن تراه مسلما      كل الأمور إلى المليك العادل  
ومن الدلائل أن تراه راضيا      بملكه في كل حكم نازل  
ومن الدلائل ضحكته بين الوري      والقلب محزون كقلب الناكل

## بيان

معنى الأنس بالله تعالى

قد ذكرنا أن الأنس، والخوف، والشوق، من آثار المحبة. إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على الحب بحسب نظره وما يذنب عليه في وقته، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال، واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنهه الجلال، انبعث القلب إلى الطلب، وانزعج له، وهاج إليه وتسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقا وهو بالإضافة إلى أمر غائب وإذا غلب عليه الفرح بالقرب، ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف، وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف، غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد، استبشر القلب بما يلاحظه، فيسمى استبشاره أنسا

وإن كان نظره إلى صفات العز، والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إسكان الزوال والبعد، تألم القلب بهذا الاستشعار، فيسمى تأله خوفا

وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات. والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها. فالأنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال، حتى أنه إذا غاب، وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه، وما يتطرق إليه من خطر الزوال، عظم نعيمة ولذته. ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له: أنت مشتاق؟ فقال: لا. إنما الشوق إلى غائب. فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشاق؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله، غير ملتفت إلى ما بقي في الإمكان من مزايا الألفاف

ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، كما حكى أن إبراهيم

ابن آدم نزل من الجبل ، فقبل له : من اين أقبلت ؟ فقال من الأنس بالله . وذلك لأن الأنس بالله يلزمه التوحش من غير الله . بل كل مايموق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب ، كما روي أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه ، مكث دهرًا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذته الغشيان ، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره ، فيخرج من القلب عذوبة ماسواه ، ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه : يا من أنسى بذكره ، وأوحشني من خلقه . وقال الله عز وجل لداود عليه السلام : كن لي مشتاقًا ، وبني مستأنسا ومن سواي مستوحشا . وقيل لرابعة . بم نلت هذه المنزلة ؟ قالت بتركى ما لا يعنيني ، وأنسى عن لم يزل وقال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له . ياراهب . لقد أعجبتك الوحدة ؟ فقال يا هذا ، لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك . الوحدة رأس العبادة فقلت ياراهب : ما أقل ما تجده في الوحدة ؟ قال الراحة من مداراة الناس ، والسلامة من شرم . قلت ياراهب : متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى ؟ قال إذا صفا الود وخلصته المعاملة . قلت ومتى يصفو الود ؟ قال إذا اجتمع الهم فصار هما واحدا في الطاعة وقال بعض الحكماء : عجبا للخلاق كيف أرادوا بك بدلا ! عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك !

فإن قلت . فما علامة الأنس ؟ فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاينة الخلق ، والتبرم بهم ، واستهتاره بعذوبة الذكر . فإن خالط فهو كمنفرد في جماعة ، ومجتمع في خلوة وغريب في حضر ، وحاضر في سفر ، وشاهد في غيبة ، وغائب في حضور ، مخالط بالبدن منفرد بالقلب . مستغرق بعذوبة الذكر ، كما قال علي كرم الله وجهه في وصفهم : هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فباشروا روح اليقين ، واستلنوا ما استوعر المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله في أرضه ، والدعاة إلى دينه . فهذا معنى الأنس بالله ، وهذه علامته ، وهذه شواهده

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب ، لظنه أن ذلك يدل على التشبيه ، وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال البصرات ، ولذة معرفتها أغلب على ذوى القلوب ، ومنهم أحمد بن غالب يعرف بعلام الخليل ، أنكر على الجنب ، وعلى

أبي الحسن النورى والجماعة حديث الحب والشوق والعشق، حتى أنكروا بعضهم مقام الرضا وقال  
ليس إلا الصبر، فأما الرضا فغير متصور. وهذا كله كلام ناقص قاصر، لم يطلع من مقامات  
الدين إلا على القشور، فظن أنه لا وجود إلا للقشر، فإن المحسوسات وكل ما يدخل في  
إحتيال من طريق الدين قشر مجرد، ووراءه اللب المطلوب. فمن لم يصل من الجوز إلا إلى  
قشره يظن أن الجوز خشب كله، ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة، وهو معذور  
ولكن عذره غير مقبول. وقد قيل.

الأنس بالله لا يحويه بطلان      وليس يدركه بالحوال محتال  
والآنسون رجال كلهم نجب      وكلهم صفوة لله عمال

## بيان

معنى الانبساط والإدلال الذى تثمره غلبة الأنس

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم، ولم يشوشه قلق الشوق، ولم ينغصه خوف التغير  
والحجاب، فإنه يثمر نوعاً من الانبساط فى الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى، وقد  
يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة. ولكنه مختل من أقيم فى مقام  
الأنس ومن لم يقيم فى ذلك المقام، ويتشبه بهم فى الفعل والكلام، هلك به وأشرف على الكفر  
ومثاله مناجاة برخ الأسود الذى أمر الله تعالى كلمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقى  
لبنى إسرائيل، بعد أن قحطوا سبع سنين، وخرج موسى عليه السلام ليستسقى لهم فى  
سبعين ألفاً، فأوحى الله عز وجل إليه: كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم،  
سائرهم خبيثة، يدعوننى على غير يقين، ويأمنون مكبرى أرجع إلى عبد من عبادي  
يقال له برخ، فقل له يخرج حتى أستجيب له. فسأل عنه موسى عليه السلام، فلم يعرف.  
فبينما موسى ذات يوم يمشى فى طريق، إذا بعبد أسود قد استقبله، بين عينيه تراب من أثر  
السجود، فى شملة قد عقدتها على عنقه، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل، فسلم  
عليه وقال له ما اسمك؟ فقال اسمى برخ. قال فأنت طلبتنا منذ حين، اخرج فاستسق لنا.  
فخرج فقال فى كلامه. ما هذا من قبالك، ولا هذا من حملك، وما الذى بذالك؟ أتقصت  
عليك عيونك! أم عاندت الرياح عن طاعتك! أم تقدمت عندك! أم اشتد غضبك على المذنبين



ألست كنت غفارا ! قبل خلق الخطائين خلقت الرحمة ، وأمرت بالعطف ، أم ترى أنك ممتنع ؟ أم تخشى النفوت فتعجل بالعقوبة ، قال فما برح حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر ، وأبنت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب : قال فرجع برح ، فاستقبله موسى عليه السلام فقال : كيف رأيت حين خاصبت ربي كيف أنصفني . فهم موسى عليه السلام به . فأوحى الله تعالى إليه أن برحاً يضحكني كل يوم ثلاث مرات

وعن الحسن قال : احترقت أخصاص بالبصرة ، فبقي في وسطها خص لم يحترق ، وأبو موسى يومئذ أمير البصرة ، فأخبر بذلك ، فبعث إلى صاحب الحص . قال فأني بشيخ فقال ياشيخ ، ما بال خصاك لم يحترق ؟ قال إني أقسمت على ربي عز وجل أن لا يحرقه . فقال أبو موسى رضي الله عنه : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول <sup>(١)</sup> « يَكُونُ فِي أُمِّي قَوْمٌ شَعْنَةٌ رُؤُوسُهُمْ دَنَسَةٌ ثِيَابُهُمْ لَوْ أَقْسَمُوا عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّهُمْ » قال ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخواص ، فجعل يتخطى النار : فقال له أمير البصرة : انظر لا تحترق بالنار فقال إني أقسمت على ربي عز وجل أن لا يحرقني بالنار . قال فاعزم على النار أن تطفأ . قال فعزم عليها فطفئت . وكان أبو حفص يمشي ذات يوم ، فاستقبله رستاق مدهوش فقال له أبو حفص : ما أصابك ؟ فقال ضل حماري ولا أملك غيره . قال فوقف أبو حفص وقال : وعزتك لا أخطو خطوة ما لم تردّ عليه حماره . قال فظهر حماره في الوقت ، وصر أبو حفص رحمه الله فهذا وأمثاله يجري لذوى الأنس ، وليس لغيرهم أن يتشبه بهم . قال الجنيد رحمه الله : أهل الأنس يقولون في كلامهم ، ومناجاتهم في خلواتهم ، أشياء هي كفر عند العامة . وقال مرة . لو سمعها العموم لكفروهم ، وهم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ، ويليق بهم : وإليه أشار القائل :

قوم تخالجهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاه

تاهوا برؤيته عما سواه له يا حسن رؤيتهم في عز ما تاهوا

ولا تستبعدن رضاه عن العبد بما يفضب به على غيره مهما اختلف مقامهما . ففي القرءان

( ١ ) حديث الحسن عن أبي موسى يكون في أمي قوم شعنة رؤسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبره  
ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة

تنبيهات على هذه المعاني لو فطنت وفهمت ، فجميع قصص القرءان تنبيهات . لأولى البصائر والأبصار ، حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار ، فإنما هي عند ذوى الاعتبار من الأسماء فأول القصص قصة آدم عليه السلام وإليس ، أما تراهما كيف اشتركا في اسم المعصية والمخالفة ، ثم تباينا في الاجتناء والعصاة ، أما إليس فأبلس عن رحمته ، وقيل . إنه من المبعدين وأما آدم عليه السلام فقيل فيه ( وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى <sup>(١)</sup> ) وقد عاب الله نبيه صلى الله عليه وسلم في الإعراض عن عبد والإقبال على عبد وهما في العبودية سيان ، ولكن في الحال مختلفان ، فقال ( وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى <sup>(٢)</sup> ) وقال في الآخر ( أَمَّا مَنْ اسْتَفْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى <sup>(٣)</sup> ) وكذلك أمره بالقعود مع طائفة ، فقال عز وجل ( وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ <sup>(٤)</sup> ) وأمره بالإعراض عن غيرهم فقال ( وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ <sup>(٥)</sup> ) حتى قال ( فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ <sup>(٦)</sup> ) وقال تعالى ( وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقَدَافِ وَالْعَشِيِّ <sup>(٧)</sup> )

فكذا الانبساط والإدلال ، يحتمل من بعض العباد دون بعض . فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام ( إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ <sup>(٨)</sup> ) وقوله في التملل والاعتذار ، لما قيل له اذهب إلى فرعون فقال ( وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ <sup>(٩)</sup> ) وقوله ( إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي <sup>(١٠)</sup> ) وقوله ( إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْعَى <sup>(١١)</sup> ) وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب ، لأن الذى أقيم مقام الأنس بالاطف ويحتمل ، ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة ، فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث ، ونودي عليه إلى يوم القيامة ( لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ <sup>(١٢)</sup> ) قال الحسن : العراء هو القيامة . ونهى نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به ، وقيل له ( فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ <sup>(١٣)</sup> )

(١) طه : ٦٣ ، ٦٤ (٢) عبس : ٨ (٣) عبس : ٥ (٤) ٦٤ ، ٥٤ ، ٥٤ (٥) الأنعام : ٦٨ ، ٥٤ (٦) الكهف : ٣٨ (٧) الاعراف : ١٥٥ (٨) الشعراء : ١٤ (٩) الشعراء : ١٣ ، ١٣ (١٠) طه : ٤٥ (١١) القلم : ٤٩ ، ٤٩ (١٢) (١٣)

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات ، وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين المباد . وقد قال تعالى ( وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ <sup>(١)</sup> ) وقال ( مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ <sup>(٢)</sup> ) فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ، ولإدلاله سلم على نفسه فقال ( وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا <sup>(٣)</sup> ) وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس . وأما يحيى بن زكريا عليه السلام ، فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء ، فلم ينطق حتى أنشئ عليه خالقه فقال ( وَسَلَامٌ عَلَيْهِ <sup>(٤)</sup> ) . وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف ما فعلوه يوسف ، وقد قال بعض العلماء : قد عدت من أول قوله تعالى ( إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا مَنَا <sup>(٥)</sup> ) إلى رأس العشرين من إخباره تعالى عن زهدم فيه نيفا وأربعين خطيئة ، بعضها أكبر من بعض . وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع ، فغفر لهم وعفا عنهم ، ولم يحتمل العزيز في مسألة واحدة سأل عنها في القدر ، حتى قيل يحيى من ديوان النبوة وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء ، فأكل الدنيا بالدين ، فلم يحتمل له ذلك . وكان آصف من السرفين ، وكانت معصيته في الجوارح ، ففعا عنه . فقد روي أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام . يا رأس العابدين ، ويا ابن محجة الزاهدين ، إلى كم بعصيتني ابن خالك آصف ، وأنا أحلم عليه مرة بعد مرة ؟ فوعزني وجلالي ، لئن أخذته عصفه من عصفتاني عليه ، لأتركه مثلة لمن معه ، ونكالا لمن بعده . فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام ، أخبره بما أوحى الله تعالى إليه ، فخرج حتى علا كتيبا من رمل ، ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال إلهي وسيدى . أنت أنت ، وأنا أنا ، فكيف أتوب إن لم تتب علي ، وكيف أستعصم إن لم تعصني لأعودن . فأوحى الله تعالى إليه . صدقت يا آصف ، أنت أنت ، وأنا أنا ، أستقبل التوبة ، وقد تبعت عليك ، وأنا التواب الرحيم . وهذا كلام مدلل به عليه ، وهارب منه إليه ، وناظر به إليه . وفي الخبر أن الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشنى على الهلكة . كم من ذنب واجهته غفرته لك ، قد أهلكت في دونه أمة من الأمم

(١) الاسراء : ٥٥ (٢) البقرة : ٢٥٣ (٣) (٤) مريم : ٣٣ ، ١٥ (٥) يوسف : ٨

فهذه سنة الله تعالى في عباده بالفضل، والتقديم، والتأخير؛ على ما سبقت به المشيئة الأزلية. وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل، فإني القرآن شيء، وإلا هو هدي ونور، وتسرف من الله تعالى إلى خلقه، فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) <sup>(١)</sup> وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول (أَلَمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ) <sup>(٢)</sup> وتارة يتعرف إليهم في أفعاله المخوفة والمرجوة، فيتلو عليهم سنته في أعدائه وفي أنبيائه فيقول (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ <sup>(٣)</sup> (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) <sup>(٤)</sup>

ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة، وهي الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده. ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس، وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث القرآن فقال <sup>(٥)</sup> «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ فَقَدْ قَرَأَ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ» لأن منتهى التقديس أن يكون واحداً في ثلاثة أمور، لا يكون حاصلًا منه من هو نظيره وشبهه، ودل عليه قوله (لَمْ يَلِدْ) <sup>(٥)</sup> ولا يكون حاصلًا ممن هو نظيره وشبهه، ودل عليه قوله (وَلَمْ يُولَدْ) <sup>(٦)</sup> ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلًا ولا فرعًا من هو مثله، ودل عليه قوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) <sup>(٧)</sup> ويجمع جميع ذلك قوله تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) <sup>(٨)</sup> ورجعته تفصيل قول لا إله إلا الله فهذه أسرار القرآن، ولا تنهاى أمثال هذه الأسرار في القرآن، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: نوروا القرآن والتمسوا غرائبه فقيه علم الأولين والآخرين، وهو كما قال. ولا يعرفه إلا من طال في آحاد كلماته ف فكره وصفًا له فهمه، حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر، مليك قادر، وأنه خارج عن حد استطاعة البشر. وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي القصص والأخبار، فكن

(١) حديث من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن: أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه

البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي الدرداء نحوه

(٢) الصمد (٢) الحشر: ٣٣ (٣) الفجر: ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١ (٤) الصمد

حريصا على استنباطها، لينكشف لك فيه من العجائب ما تستحق معه العلوم المزخرقة بالخارجة عنه  
فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذي هو ثمرة ، وبيان تفاوت عباد  
الله فيه ، والله سبحانه وتعالى أعلم

## القول

في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته  
اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة ، وهو من أعلى مقامات المقربين . وحقيقته غامضة  
على الأكثرين ، وما يدخل عليه من التشابه والإيهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى  
التأويل ، وفهمه وفقهه في الدين . فقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى ، ثم  
قالوا . إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله ، فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي . واتخذ  
بذلك قوم ، فرأوا الرضا بالفجور والفسوق ، وترك الاعتراض والإنكار ، من باب التسليم  
لقضاء الله تعالى . ولولا انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع ، لمادعا رسول الله  
صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> لابن عباس حيث قال « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ »  
فلنبداً ببيان فضيلة الرضا ، ثم بحكايات أحوال الراضين ، ثم نذكر حقيقة الرضا ، وكيفية تصويره  
فيما يخالف الهوى ، ثم نذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه ، كنزك الدعاء والسكوت على المعاصي

## بيان

### فضيلة الرضا

أما من الآيات فقوله تعالى ( رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ <sup>(١)</sup> ) وقد قال تعالى ( هَلْ  
جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ <sup>(٢)</sup> ) ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده ، وهو ثواب رضا  
العبد عن الله تعالى . وقال تعالى ( وَمَسَاكِينٌ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ  
أَكْبَرُ <sup>(٣)</sup> ) فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن ، كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال  
( إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ <sup>(٤)</sup> ) فكما أن مشاهدة المذکور

( ١ ) حديث دعائه لابن عباس اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل : متفق عليه دون قوله وعليه التأويل ورواه  
أحمد بهذه الزيادة وتقدم في العلم

(١) البينة : ٨ (٢) الرحمن : ٦٠ (٣) التوبة : ٧٢ (٤) العنكبوت : ٤٥

في الصلاة أكبر من الصلاة، فريضوا رب الجنة أعلى من الجنة . بل هو غاية مطلب سكان الجنان  
وفي الحديث <sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ فَيَقُولُ سَلُونِي فَيَقُولُونَ رَحْمَتَكَ »  
فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل  
وأما رضا العبد فسنذكر حقيقة

وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للعبد ،  
ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته ، إذ تقصر أفهام الخلق عن دركه . ومن يقوى عليه فيستقل  
بإدراكه من نفسه . وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه ، فإنما سأله الرضا لأنه سبب دوام  
النظر ، فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأماني لما ظفروا بنعيم النظر . فلما أمروا بالسؤال  
لم يسألوا إلا دوامه ، وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب

وقال الله تعالى ( وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ <sup>(١)</sup> ) قال بعض المفسرين فيه : يأتي أهل الجنة في وقت  
المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين . إحداها: هدية من عند الله تعالى ، ليس عندهم  
في الجنان مثلاً . فذلك قوله تعالى ( فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ <sup>(٢)</sup> ) والثانية  
السلام عليهم من ربهم ، فيزيد ذلك على الهدية فضلاً ، وهو قوله تعالى ( سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ  
رَبِّ رَجِيمٍ <sup>(٣)</sup> ) والثالثة يقول الله تعالى : إني عنكم راض ، فيكون ذلك أفضل من الهدية  
والتسليم ، فذلك قوله تعالى ( وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ <sup>(٤)</sup> ) أي من النعم الذي هم فيه  
فهذا فضل رضا الله تعالى ، وهو ثمرة رضا العبد

وأما من الأخبار . فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> سأل طائفة من أصحابه  
« مَا أُنْتُمْ ؟ » فقالوا مؤمنون . فقال « مَا عَلَامَةُ إِيْتَانِكُمْ » فقالوا نصبر على البلاء ، ونشكر  
عند الرخاء ، ونرضى بمواقع القضاء . فقال « مُؤْمِنُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ »

( ١ ) حديث أن الله يتجلى للمؤمنين فيقول سألوني فيقولون رَحْمَتَكَ : البرار والطيراني في الأوسط من حديث  
أنس في حديث طويل بسند فيه لين يرفيه فينجلي لهم يقول أنا الذي صدقتم وعدي وأنعمت  
عليكم نعمتي وهذا على أكرامهم فسألوني فيسألونه الرضا - الحديث : ورواه أبو يعلى بإسقاط

ثم يقول ماذا تريدون فيقولون رَحْمَتَكَ - الحديث : ورحاله رجال الصحيح

( ٢ ) حديث سأل طائفة من أصحابه ما أنتم فقالوا مؤمنون فقال ما علامة إيمانكم - الحديث : تقدم

(١) في : ٣٥ (٢) السجدة : ١٧ (٣) يس : ٥٨ (٤) الزوبة : ٧٣

وفي خبر آخر <sup>(١)</sup> أنه قال « حُكِّمَاءُ عُلَمَاءُ كَادُوا مِنْ قَهْمِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ »  
وفي الخبر <sup>(٢)</sup> « طُوبَى لِمَنْ هَدَى لِلْإِسْلَامِ وَكَانَ رِزْقُهُ كِفَافًا وَرِزْقِي بِهِ »  
وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « مَنْ رَضِيَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ رَضِيَ اللَّهُ  
تَعَالَى مِنْهُ بِالْقَلِيلِ مِنَ الْعَمَلِ » وقال أيضا « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى عَبْدًا أَتْبَلَاهُ فَإِنْ صَبَرَ  
أَجْتَبَاهُ فَإِنْ رَضِيَ أَصْطَفَاهُ »

وقال أيضا <sup>(٤)</sup> « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَنْبَتَ اللَّهُ تَعَالَى لِطَائِفَةٍ مِنْ أُمَّتِي أَجْنَحَةً فَيَطِيرُونَ  
مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ يَسْرَحُونَ فِيهَا وَيَتَنَعَّمُونَ فِيهَا كَيْفَ شَاءُوا فَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ  
هَلْ رَأَيْتُمْ الْحِسَابَ فَيَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا حِسَابًا فَتَقُولُ لَهُمْ هَلْ جُزِمْتُمْ الصِّرَاطَ فَيَقُولُونَ مَلَأُونَا  
صِرَاطًا فَتَقُولُ لَهُمْ هَلْ رَأَيْتُمْ جَهَنَّمَ فَيَقُولُونَ مَا رَأَيْنَا شَيْئًا فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ أُمَّةٍ  
مَنْ أَنْتُمْ فَيَقُولُونَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَقُولُ نَاشِدُنَا كُمْ اللَّهُ حَدِّثُونَا  
مَا كَانَتْ أَعْمَالُكُمْ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُونَ خَصَلْتَنَا كَانَتْ فِينَا قَبْلَتُنَا هَذِهِ الْمَنَزَلَةُ بِمُضِلِّ رَحْمَةِ  
اللَّهِ فَيَقُولُونَ وَمَا هُمَا فَيَقُولُونَ كُنَّا إِذَا خَلَوْنَا نَسْتَحْيِ أَنْ نَعْصِيَهُ وَنَرْضَى بِالْيَسِيرِ مِمَّا قَسَمَ  
أَنَا فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ يَحِقُّ لَكُمْ هَذَا »

وقال صلى الله عليه وسلم « يَأْمُرُ الْفُقَرَاءُ » <sup>(٥)</sup> أَعْطُوا اللَّهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَطْفَرُوا  
بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وَإِلَّا قَلَا . . وفي أخبار موسى عليه السلام ، أن بنى إسرائيل قالوا له  
سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا . فقال موسى عليه السلام : إلهي قد سمعت  
ما قالوا . فقال يا موسى ، قل لهم يرضون غنى حتى أَرْضَى عنهم . ويشهد لهذا ما روي

( ١ ) حديث أنه قال في حديث آخر حكاه علماء كادوا من قههم أن يكونوا أنبياء : تقدم أيضا

( ٢ ) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافا ورضى به : الترمذي من حديث فضالة ابن عبيد بلفظ  
وقنع وقال صحيح وقد تقدم

( ٣ ) حديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل : رويناه في أمالي الهاملي بإسناد

ضعيف من حديث علي بن أبي طالب ومن طريق الهاملي رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس

( ٤ ) حديث إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتي أجنحة فيطرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها

رواه ابن جبان في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف وفيه حميد

ابن علي القيسى ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرآن وللأحاديث الصحيحة في ورود غيره

( ٥ ) حديث أَعْطُوا اللَّهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَطْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ وَالْإِفْلَاحُ تَقْدَمُ

عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ مَالَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَنْظُرْ مَالَهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ »  
وفي أخبار داود عليه السلام . مالأوليائي والهم بالدنيا ، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتي  
من قلوبهم . يادود إن محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يفتنون  
وروي أن موسى عليه السلام قال . يارب دلني على أمر فيه رضاك حتى أعمله . فأوحى  
الله تعالى إليه . إن رضائي في كرهك ، وأنت لا تصبر على ماتكره . قال يارب دلني عليه ،  
قال فإن رضائي في رضاك بقضائي .

وفي مناجاة موسى عليه السلام . أي رب ، أي خلقك أحب إليك؟ قال من إذا أخذت  
منه المحبوب سألني . قال فأني خلقك أنت عليه ساخط؟ قال من يستخيرني في الأمر  
فإذا قضيت له بسخط قضائي . وقد روي ما هو أشد من ذلك ، وهو أن الله تعالى (٢)  
قال . أنا الله لا إله إلا أنا ، من لم يصبر على بلائي ، ولم يشكر نعمائي ، ولم يرض بقضائي ، فليتنذر بأسوائي  
ومثله في الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال (٣) « قَالَ اللَّهُ  
تَعَالَى قَدَرْتُ الْمَقَادِيرَ وَدَبَّرْتُ التَّدْبِيرَ وَأَحْكَمْتُ الصَّنْعَ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا مِنِّي حَتَّى  
يَلْقَانِي وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ مِنِّي حَتَّى يَلْقَانِي »  
وفي الخبر المشهور (٤) « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى خَلَقْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ فَطُوبَى لِمَنْ خَلَقْتُهُ  
لِلْخَيْرِ وَأَجْرِيَتْ الْخَيْرَ عَلَى يَدَيْهِ وَوَيْلٌ لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلشَّرِّ وَأَجْرِيَتْ الشَّرَّ عَلَى يَدَيْهِ وَوَيْلٌ  
لِمَنْ وَوَيْلٌ لِمَنْ قَالَ لِمَ وَكَيْفَ »

( ١ ) حديث من أحب أن يعلم ماله عند الله فليتنظر ماله عنده . الحديث : الحاكم من حديث جابر وصححه  
بلفظ منزله ومنزلة الله

( ٢ ) حديث قال الله أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي . الحديث : الطبراني في الكبير وابن حبان  
في الضعفاء من حديث أبي هند الدارمي مقتصرا على قوله من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي  
فليتنذر بأسواي واسناده ضعيف

( ٣ ) حديث قال الله تعالى قدرتي المقادير ودبرتي التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا . الحديث :  
لم أجده بهذا اللفظ وللطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة خلق الله الخلق وقضى القصة  
وأخذ ميثاق النبيين . الحديث : واسناده ضعيف

( ٤ ) حديث يقول الله خلقته الخير والشّر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه . الحديث :  
ابن شاهين في شرح السنة عن أبي أمامة باسناد ضعيف



وفي الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكا إلى الله عز وجل الجوع ، والفقر ، والقمل ، عشر سنين ، فسأجيب إلى ما أراد . ثم أوحى الله تعالى إليه : كم تشكو ؟ هكذا كان بدوك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض ، وهكذا سبق لك مني ، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا . أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك ، أم تريد أن أبدل ما قدرته عليك فيكون ما تحب فوق ما أحب ، ويكون ما تريد فوق ما أريد ؟ وعزتي وجلالي لأن تلجج هذا في صدرك مرة أخرى لأخونك من ديوان النبوة .

وروي أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون ، يحمل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج ، فيصعد إلى رأسه ، ثم ينزل على أضلاعه كذلك ، وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه . فقال له بعض ولده . يا أبت أماترى ما يصنع هذا بك ؟ لونهيته عن هذا ؟ فقال يابني ، إنى رأيت ما لم تروا ، وعلمت ما لم تعلموا ، إنى تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان ، ومن دار النعيم إلى دار الشقاء ، فأخاف أن أنحرك أخرى فيصيبني ما لا أعلم

وقال <sup>(١)</sup> أنس بن مالك رضي الله عنه . خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فقال لي لشيء فعلته لم فعلته ، ولا لشيء لم أفعله لم لأفعله ، ولا قال في شيء كان ليته لم يكن ، ولا في شيء لم يكن ليته كان . وكان إذا خاصمني مخاصم من أهله يقول ( دَعُوهُ لَوْ قُضِيَ شَيْءٌ لَكَانَ ) وروي أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام . يداود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد ، فإن سلمت لما أريد كفيتهك ما تريد . وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد وأما الآثاز . فقد قال النبي عباس رضي الله عنهما . أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز . ما بقى لي سرور إلا في موافق القدر . وقبل له ما تشتهي ؟ فقال ما يقضى الله تعالى . وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحقه دواء . وقال الفضيل . إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك وقال عبد العزيز بن أبي رواد . ليس الشأن في أكل خبز السمير والخل ، ولا في لبس الصوف والشعر ، ولكن الشأن في الرضا عن الله عز وجل

( ١ ) حديث أنس خدمت النبي صلى الله عليه وسلم فلما قال لي لشيء فعلته لم فعلته - الحديث : منفق عايه وقد تقدم

وقال عبد الله بن مسعود . لأن أُلحس جمره أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت ، أحب إلي من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن ، أو لشيء لم يكن ليته كان ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع ، فقال . إني لأرحمك من هذه القرحة . فقال . إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج في عيني

وروي في الإسرائيليات أن عابدا عبدا لله دهر أطويلا ، فأرى في المنام : فلانة الراعية رفيقتك في الجنة . فسأل عنها إلى أن وجدها ، فاستضافها ثلاثة ليظن إلى عملها ، فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ، ويظل صائما وتظل مفطرة . فقال أمالك عمل غير ما رأيت ؟ فقالت ماهو والله إلا ما رأيت ، لأعرف غيره . فلم يزل يقول تذكرى حتى قالت : خصيلة واحدة هي في إن كنت في شدة لم أتمن أن أكون في رخاء ، وإن كنت في مرض لم أتمن أن أكون في صحة ، وإن كنت في الشمس لم أتمن أن أكون في الظل . فوضع العابد يده على رأسه وقال . أهذه خصيلة هذه ؟ والله خصلة عظيمة : يعجز عنها العباد

وعن بعض السلف : أن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم ، والرضا بالقدر وقال عمر رضي الله عنه : ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء وقال الثوري يوما عند رابعة : اللهم ارض عنا : فقالت أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض ؟ فقال أستغفر الله : فقال جعفر بن سليمان الضبعي : فتي يكون العبد راضيا عن الله تعالى ؟ قالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة

وكان الفضيل يقول : إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالى وقال أحمد بن أبي الخوارى : قال أبو سليمان الداراني . إن الله عز وجل من كرمه قدر رضي من عبده بما رضي العبيد من مواليهم . قلت وكيف ذلك ؟ قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه ؟ قلت نعم . قال فإن محبة الله من عبده أن يرضوا عنه وقال سهل : حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِحِكْمَتِهِ وَجَلَّالِهِ جَعَلَ  
الرُّوحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِينَ وَجَعَلَ النِّعَمَ وَالْمُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ »

## بيان

حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر ، فأما الرضا فلا يتصور  
فإنما أنى من ناحية إنكار المحبة . فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى ، واستغراق الهم به ،  
فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ، ويكون ذلك من وجهين .

أحدهما : أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس ، وتصيبه جراحة  
ولا يدرك ألما . ومثاله الرجل المحارب ، فإنه في حال غضبه ، أو في حال خوفه ، قد تصيبه  
جراحة وهو لا يحس بها ، حتى إذا رأى الدم استبدل به على الجراحة . بل الذى يندو في  
شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بالألم ذلك لشغل قلبه . بل الذى يحجم  
أو يخلق رأسه بحديدة كالة يتألم به ، فإن كان مشغول القلب بهم من مهماته فرغ المزين  
والحجام وهو لا يشعر به . وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقا بأمر من الأمور ، مستوفى  
به ، لم يدرك ما عداه . فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه ، قد يصيبه  
ما كان يتألم به ، أو ينتم له لولا عشقه ، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه .  
هذا إذا أصابه من غير حبيبه ، فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من  
أعظم الشواغل . وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف ، تصور في الألم العظيم  
بالحب العظيم . فإن الحب أيضا يتصور تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الألم . وكما يقوى  
حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر ، فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة  
بنور البصيرة . وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له  
شيء منه فقد يبهره بحيث يدهش ويفشى عليه ، فلا يحس بما يجرى عليه . فقد روي أن

( ١ ) حديث إن الله بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا - الحديث : الطبراني من حديث ابن

مسعوده إلا أنه قال بتوسطه وقد تقدم

امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها ، فضحكت . فقيل لها : أما تجدين الوجد ؟ قالت  
 إن لذة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجمعه . وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها  
 ولا يعالج نفسه . فقيل له في ذلك ، فقال : يادوست ضرب الحبيب لا يوجع  
 وأما الوجه الثاني : فهو أن يحس به ، ويدرك ألمه ، ولكن يكون راضيا به ، بل راغبا  
 فيه ، مريدا له ، أعني بعقله ، وإن كان كارها بطبعه . كالذي يلتبس من الفساد الفصد والحجامة  
 فإنه يدرك ألم ذلك ، إلا أنه راض به ، وراغب فيه ، ومتقاع من الفصادة بمدة بفعله . فهذا  
 حال الراضى بما يجري عليه من الألم . وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة  
 السفر ، ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر ، وجعله راضيا بها . ومهما أصابه  
 بلية من الله تعالى ، وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته ، رضي به ، ورغب  
 فيه ، وأحبه ، وشكر الله عليه . هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به عليه  
 ويجوز أن يرغب الحب ، بحيث يكون حظ الحب في مراد محبوبه ورضاه ، لا معنى آخر  
 وراءه . فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا . وكل ذلك موجود في المشاهدات  
 في حب الخلق ، وقد توأفها المتوأسفون في نظمهم ونثرهم ، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال  
 الصورة الظاهرة بالبصر . فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم ، مشحون بالأقدار  
 والأخبث ، بدايته من نطفة مذرة ، ونهايته جيفة قذرة ، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة  
 وإن نظر إلى المدرك للجمال ، فهي العين الخسيسة التي تغلط فيما ترى كثيرا ، فترى الصغير  
 كبيرا ، والكبير صغيرا ، والبعيد قريبا ، والقيح جميلا ، فإذا تصور استيلاء هذا الحب فمن  
 أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدى ، الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة  
 التي لا يمتريها الغلط ولا يدور بها الموت ، بل تبقى بعد الموت حية عند الله ، فرحة برزق  
 الله تعالى ، مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف .

فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار . ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال  
 المحبين وأقوالهم . فقد قال شقيق البلخي : من يرى ثواب الشدة لا يشتهي المخرج منها  
 وقال الجنيد : سألت سريا السقطي ، هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال لا . قلت وإن ضرب  
 بالسيف ؟ قال نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة ، ضربة على ضربة

وقال بعضهم : أحبت كل شيء بحبه ، حتى لو أحب النار أحبت دخول النار  
وقال بشر بن الحارث : مررت برجل وقد ضرب ألف سوط في شرقية بغداد ولم يتكلم  
ثم حمل إلى الحبس فتبخته ، فقلت له : لم ضربت ؟ فقال لأنني عاشق . فقلت له : ولم سكنت ؟  
قال لأن معشوقى كانت بحذاءى ينظر إلي . فقلت : فإنا نظرت إلى المعشوق الأكبر ؟  
قال فزق زعقة خر ميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله تعالى : إذا نظر أهل  
الجنة إلى الله تعالى ، ذهب عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع  
إليهم . فما ظنك بقلوب وقت بين جماله وجلاله ، إذا لاحظت جلاله هابت ، وإذا لاحظت  
جماله تاهت ! وقال بشر : قصدت عبادان في بدايتي ، فإذا برجل أعشى ، مجذوم ، مجنون  
قد صرع ، والنمل يأكل لحمه ، فرفعت رأسه فوضعت في حجرى وأنا أردد الكلام ، فلما  
أفاق قال : من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى ؟ لو قطعت إربا ما زددت له  
إلا حبا . قال بشر : فما رأيت بعد ذلك نعمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها

وقال أبو عمرو محمد بن الأشعث : إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء  
إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام . كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم  
جماله عن الإحساس بألم الجوع . بل فى القراءان ما هو أبلغ من ذلك ، وهو قطع النسوة  
أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسن بذلك

وقال سعيد بن يحيى : رأيت بالبصرة فى خان عطاء بن مسلم شابا وفى يده مديّة ، وهو  
ينادى بأعلى صوته والناس حوله ، وهو يقول :

يوم الفراق من القيامة أطول      والموت من ألم التفرق أجمل  
قالوا الرحيل فقلت لست براحل      لكن مهجتي التي تترحل

ثم بقر بالمديّة بطنه وخر ميتا . فسألت عنه وعن أمره ، فقيل لى : إنه كان يهوى  
فتى لبعض الملوك . فحجب عنه يوما واحدا .

ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل : دلنى على أعبد أهل الأرض فدله على رجل  
قد قطع الجذام يديه ورجليه ، وذهب يبصره ، فسمعه وهو يقول : إلهى متعتنى بهما ما شئت  
أنت ، وسلبتنى ما شئت أنت ، وأبقيت لى فيك الأمل ، يا بر يا واصل

ويروى عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن ، فاشتدّ وجده عليه ، حتى قال بعض القوم لقد خشبنا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث . فأت الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشد سروراً أبداً منه . فقبل له في ذلك فقال ابن عمر : إنما كان حزني رحمة له فلما وقع أمر الله رضيانا به

وقال مسروق : كان رجل بالبادية له كلب ، وحمار ، وديك فالدّيك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خبأهم ، والكلب يحرسهم قال فجاء الثعلب فأخذ الدّيك ، فخرنوا له ، وكان الرجل صالحاً فقال : عسى أن يكون خيراً . ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله ، فخرنوا عليه فقال الرجل : عسى أن يكون خيراً . ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال : عسى أن يكون خيراً . ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقواهم . قال : وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب ، والحمير ، والديكة . فكانت الخبرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى . فإذا من عرف خفي لطف الله تعالى رضي بفضله على كل حال . : ويروى أن عيسى عليه السلام مرّ رجل أعمى ، أبرص ، مقعد ، مضروب الجنين بفالج ، وقد تناثر لحمه من الجذام ، وهو يقول : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه . فقال له عيسى : يا هذا ، أليس شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك فقال ياروح الله ، أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته . فقال له : صدقت ، هات يدك . فتأوله يده ، فإذا هو أحسن الناس وجهاً ، وأفضلهم هيئة ، وقد أذهب الله عنه ما كان به . فصحب عيسى عليه السلام وتعبّد معه

وقطع عروة بن الزبير رجله من ركبته من أكلة خرجت بها ، ثم قال . الحمد لله الذي أخذ مني واحدة ، وأعطاك لئن كنت أخذت لقد أبقيت ، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت : ثم لم يدع ورده تلك الليلة . : وكان ابن مسعود يقول : الفقر والغنى مطبتان ما أبالي أيتهما ركبت ، إن كان الفقر فإن فيه الصبر ، وإن كان الغنى فإن فيه البذل

وقال أبو سليمان الداراني قد نلت من كل مقام حلاً إلا الرضا . فإلى منه إلامشام الزيج ، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة ، وأدخلني النار ، كنت بذلك راضياً . وقيل لعارف آخر : هل نلت غاية الرضا عنه ؟ فقال : أما الغاية فلا ، ولكن مقام الرضا

قد نلته . لو جعلني جسرا على جهنم يعبر الخلائق علي إلى الجنة ، ثم ملأني جهنم تحلقه لقسمه ، وبدا من خليقته ، لأحببت ذلك من حكمه ، ورصيت به من قسمه وهذا كلام من علم أن الحب قد استغرق همه ، حتى منعه الإحساس بالنار ، فإن بقي إحساس فيغمره ما يحصل من لذته في استشهاده حصول رضا محبوبه بإلقائه إياه في النار ، واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه ، وإن كان بعيدا من أحوالنا الضعيفة ، ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأنفيا ، ويظن أن ما هو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء . وقال الروذباري : قلت لأبي عبد الله ابن الجلاء الدمشقي . قول فلان وددت أن جسدي قرص بالمقاريض ، وأن هذا الخلق أطاعوه ، ما معناه ؟ فقال يا هذا ، إن كان هذا من طريق التعظيم والإجلال فلا أعرف ، وإن كان هذا من طريق الإشفاق والنصح للخلق فأعرف . قال ثم غشي عليه

وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه ، فبقي ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد ، قد نقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته ، فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء ، فجعل يبكي لمطيراه من حاله . فقال لم تبكي ؟ قال لأني أراك على هذه الحالة العظيمة . قال لا تبك ، فإن أحبه إلى الله تعالى أحبه إلي . ثم قال : أحدثك شيئا لعل الله أن ينفعك به ، واكنم علي حتى أموت : إن الملائكة تزورني فأنس بها ، وتسلم علي فأسمع تسليمها ، فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بمقوبة ، إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة . فمن يشاهد هذا في يلائه كيف لا يكون راضيا به

قال : ودخلنا على سويد بن متعة نموده ، فرأينا ثوبا ملقى ، فساخطنا أن تحتها شيئا حتى كشف ، فقالت له امرأته : أهلي فداؤك ، مانطعمك مانسقيك ، فقال طالت الضجعة ، ودبرت الخرقيف ، وأصبحت نضوا لأطعم طعاما ، ولا أسيغ شرابا منذ كذا ، فذكر أياها وما يسرني أني نقصت من هذا قلامة ظفر

ولما قدم سند بن أبي وقاص إلى مكة ، وقد كان كف بصره ، جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له ، فيدعو لهذا ولهذا ، وكان يحجب الدعوة . قال عبد الله بن السائب فأتيته وأنا غلام ، فتعرفت إليه فعرفني وقال : أنت قاريء أهل مكة ؟ قلت نعم . فذكر قصة قال في آخرها . فقلت له يا عم ، أنت تدعو للناس ، فلماذا دعوت لنفسك فرد الله عليك

بصرى ؟ فتبسم وقال . يا بني ، قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصرى  
 وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر . فقيل له . لو سألت الله  
 تعالى أن يردّه عليك ؟ فقال : إعتراضى عليه فيما قضى أشد علي من ذهاب ولدى  
 وعن بعض العبّاد أنه قال . إني أذنبت ذنبا عظيما . فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة ،  
 وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب ، فقيل له وما هو ؟ قال : قلت مرة  
 لشيء كان ليته لم يكن . وقال بعض السلف : لو فرض جسمى بالمقاريض لكان أحب  
 إلي من أن أقول لشيء قضاء الله سبحانه ليته لم يقضه

وقيل لعبد الواحد بن زيد . ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة . فقصدته فقال له يا حييبي  
 أخبرني عنك هل فُتنت به ؟ قال لا . قال أنسيت به ؟ قال لا . قال فهل رضيت عنه ؟ قال لا  
 قال فإنما مزبدك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم . قال لولا أنى أستحي منك لأخبرتكَ  
 بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة ومعناه أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات  
 القرب بأعمال القلب ، وإنما أنت تعدّ في طبقات أصحاب اليمين ، لأن مزبدك منه في أعمال  
 الجوارح التي هي مزيد أهل الموم

ودخل جماعة من الناس على الشبلى رحمه الله تعالى في مارستان فد حبس فيه ، وقد جمع  
 بين يديه حجارة . فقال من أتم ؟ فقالوا محبوك ، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة ، قهاربوا  
 فقال ما بالكم ادعيتُم محبتي ؟ إن صدقتم فاصبروا على بلائي  
 وللشبلى رحمه الله تعالى

إن المحبة للرحمن أسكرنى وهل رأيت محبا غير سكران  
 وقال بعض عبّاد أهل الشام : كلّم يلقى الله عز وجل مصدقا ولعله قد كذبه . وذلك  
 أن أحدكم لو كان له أصبح من ذهب ظل يشير بها ، ولو كان بها شلل ظل يؤاريها . يعنى بذلك  
 أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به ، والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه  
 وقيل إنه وقع الحريق في السوق ، فقيل للسرى احترق السوق وما احترق دكانك .  
 فقال الحمد لله . ثم قال . كيف قلت الحمد لله على سلامتى دون المسلمين ! فتأب من التجارة  
 وترك الحانوت بنية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله



فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعاً أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً ، بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين . ومهما كان ذلك ممكناً في حب الخلق وحظوظهم كان ممكناً في حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعاً . وإمكانه من وجهين أحدهما : الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموجود ، كالرضا بالفصد ، والحجامة ، وشرب الدواء انتظاراً للشفاء .

والثاني : الرضا به لالحظ وراءه ، بل لكونه مراد المحبوب ورضا له ، فقد يغلب الحب بحيث ينمّر مراد الحب في مراد المحبوب ، فيكون ألد الأشياء عنده سرور قلب محبوبة ورضاه ، ونفوذ إرادته ، ولو في هلاك روحه كما قيل

فالجرح إذا أرضاكم ألم

وهذا ممكن مع الإحساس بالألم . وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم ، فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده ، فلا ينبغي أن ينكره من فقدته من نفسه ، لأنه إنما فقدته لفقد سببه وهو فرط حبه ومن لم يذوق ظمّ الحب لم يعرف عجائبه ، فالحسين عجائب أعظم مما وصفناه وقد روي عن عمرو بن الحارث الرافعي قال : كنت في مجلس بالرقعة عند صديق لي ، وكان معنا فتى يمشق جارية مغنية ، وكانت معنا في المجلس ، فضربت بالقضيب وغنت

علامة ذل الهوى على العاشقين البكا

ولاسيما عاشق إذا لم يجد مشكياً

فقال لها الفتى : أحسنت والله ياسيدتي ، أفأذنين لي أن أموت ؟ فقالت مت راشداً . قال : فوضع رأسه على الوسادة ، وأطبق فيه ، وغمض عينيه ، فخر كناه فإذا هو ميت .

وقال الجنيد : رأيت رجلاً متعلقاً بكم صبي ، وهو يتضرع إليه ويظهر له الحجة ، فالتفت إليه الصبي وقال له : إلى متى ذا النفاق الذي تظهر لي ؟ فقال قد علم الله أني صادق فيما أوردته ، حتى لو قلت لي مت لم . فقال إن كنت صادقاً فمت . قال : فتنحى الرجل وغمض عينيه ، فوجد ميتاً

وقال سمنون الحب : كان في جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب ، فاعتلت الجارية تجلس الرجل ليصلح لها حبساً ، فبينما هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه . قال : فدهش الرجل ، وسقطت المعلقة من يده ، وجعل يحرك ما في القدر يده حتى سقطت أصابعه . فقالت

الجارية : ما هذا ؟ قال هذا مكان قولك آه . وحكي عن محمد بن عبد الله البغدادي قال :  
 رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول  
 من مات عشقا فليمت هكذا لا خير في عشق بلا موت  
 ثم رمى نفسه إلى الأرض ، فمأواه ميتا . فهذا وأمثاله قديصق به في حب المخلوق  
 والتصديق به في حب الخالق أولى ، لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر ؟ وجمال  
 الحضرة الربانية أوفى من كل جمال . بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجلال  
 نعم الذي فقد البصر ينكر جمال الصور ، والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنفثات الموزونة  
 فالذي فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب

## بيان

أن الدعاء غير مناقض للرضا

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضاء . وكذلك كراهة المعاصي ، ومقت أهلها ، ومقت أسبابها ،  
 والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضا . وقد غلط في ذلك بعض  
 الباطنيين المغترين ، وزعم أن المعاصي ، والفجور ، والكفر ، من تصاء الله وقدره عز وجل ،  
 فيجب الرضاء به . وهذا جهل بالتأويل . وغفلة عن أسرار الشرع  
 فأما الدعاء فقد تعبدنا به ، وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء  
 عليهم السلام ، على ما نقلناه في كتاب الدعوات تدل عليه ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 في أعلى المقامات من الرضاء ، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله (وَيَدْعُونَ تَارَةً غَيًّا وَرَهْبًا<sup>(١)</sup>)  
 وأما إنكار المعاصي وكراهتها ، وعدم الرضاء بها ، فقد تعبد الله به عباده ، وذمهم على  
 الرضاء به فقال (وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَنُوا بِهَا<sup>(٢)</sup>) وقال تعالى (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا  
 مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ<sup>(٣)</sup>) وفي الخبر المشهور «مَنْ شَهِدَ مُنْكَرًا فَرَضِيَ بِهِ  
 فَكَأَنَّهُ قَدْ فَعَلَهُ» وفي الحديث<sup>(١)</sup> «الدَّالُّ عَلَى الشَّرِّ كَفَاعِلُهُ»

(١) حديث الدال على الشر كفاعله : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جدا

(١) الأنبياء : ٩٠ (٢) يونس : ٧ (٣) النوبة : ٩٣

وعن ابن مسعود . إن العبد يغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه .  
 قيل وكيف ذلك ؟ قال يبلغه فيرضى به . وفي الخبر <sup>(١)</sup> « لو أن عبداً قُتلَ بالشرقِ  
 وَرَضِيَ بِقَتْلِهِ آخِرُ بِالْمَرْبِ كَانَ شَرِبَكَ فِي قَتْلِهِ » . وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة  
 في الخيرات وتوقى الشرور ، فقال تعالى ( وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ <sup>(٢)</sup> )  
 وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « لا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ  
 يُنْشِئُ فِي النَّاسِ وَيُعَلِّمُهُمَا وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى مَلَكَتِهِ فِي الْخَلْقِ » وفي لفظ  
 آخر « وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَيَقُولُ الرَّجُلُ لَوْ آتَانِي  
 اللَّهُ مِثْلَ مَا آتَى هَذَا لَفَعَلْتُ مِثْلَ مَا يَفْعَلُ »

وأما بنص الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم ، فما ورد فيه من شواهد القرآن  
 والأخبار لا يحصى ، مثل قوله تعالى ( لَا تَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ  
 الْمُؤْمِنِينَ <sup>(٤)</sup> ) وقال تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ <sup>(٥)</sup> )  
 وقال تعالى ( وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا <sup>(٦)</sup> )

وفي الخبر <sup>(٧)</sup> « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَنْفَضَ كُلُّ مُنَافِقٍ وَعَلَى  
 كُلِّ مُنَافِقٍ أَنْ يَنْفَضَ كُلُّ مُؤْمِنٍ » وقال عليه السلام <sup>(٨)</sup> « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » وقال  
<sup>(٩)</sup> « مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا وَوَالَاهُمْ خَيْرَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

( ١ ) حديث لو أن رجلاً قُتل بالشرق ورضى بقتله آخرى العرب كان شربكاً في قتله : لم أجده إلا بهذا اللفظ  
 ولأن عدى من حديث أبي هريرة من حضره مصيبة فكرها فكأنما أبغضها من غاب عنها أحبها  
 فكأنما حضرها ونفد في كتاب الأمر بالمعروف

( ٢ ) حديث لا حسد إلا في اثنتين - الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث  
 ابن مسعود وقد تقدم في العلم

( ٣ ) حديث إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن ينفض كل منافق - الحديث : لم أجده إلا بهذا اللفظ

( ٤ ) حديث المرء مع من أحب : تقدم

( ٥ ) حديث من أحب قوماً ووالاهم حشر معهم : الطبراني من حديث أبي قريصة وابن عدى من حديث جابر  
 من أحب قوماً على أعمالهم حشر في زمنهم زاد ابن عدى يوم القيامة وفي طريقه اسماعيل  
 ابن يحيى التيمي ضعيف

( ١ ) المطففين : ٢٦ - آل عمران : ٢٨ ( ٢ ) المائدة : ٥١ ( ٣ ) الأنعام : ١٢٩

وقال عليه السلام <sup>(١)</sup> « أَوْتَقِ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ »  
 وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصحبة  
 وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا نعيده  
 فإن قلت : فقد وردت الآيات والأخبار <sup>(٢)</sup> بالرضا بقضاء الله تعالى ، فإن كانت المعاصي  
 بمنزلة قضاء الله تعالى فهو محال ، وهو قاذح في التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها  
 ومقتهما كراهة لقضاء الله تعالى ، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه ؟  
 وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد ؟

فأعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم ، وقد  
 التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكرات مقاما من مقامات الرضا ، وسموه حسن  
 الخلق ، وهو جهل محض . بل نقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد  
 من جهة واحدة ، على وجه واحد . فليس من التضاد في شيء واحد أن يكره من وجه ،  
 ويرضى به من وجه . إذ قديموت عدوك الذي هو أيضا عدو بعض أعدائك ، وساع في إهلاكه  
 فتكره موته من حيث إنه مات عدوك ، وترضاه من حيث إنه مات عدوك . وكذلك  
 المعصية لها وجهان : وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله ، واختياره ، وإرادته ، فيرضى به  
 من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ، ورضا بما يفعله فيه ، ووجه إلى العبد من حيث  
 إنه كسبه ، ووصفه ، وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده ، حيث سلط عليه أسباب  
 البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم . ولا يتكشف هذا لك إلا بمثال

فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدي محبيه : إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني  
 وأنصب فيه معيارا صادقا ، وميزانا ناطقا ، وهو أني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضربا

( ١ ) حديث أوتق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله : رواه أحمد وتقدم في آداب الصحبة  
 ( ٢ ) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله : الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص من سعادة ابن آدم رضاه  
 بما قسم الله عز وجل - الحديث : وقال غريب وتقدم حديث أراض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس  
 وحديث أن الله بقسطه جعل الروح والفرح في الرضا وتقدم في حديث الاستخارة وأقدر لي  
 الخير حيث كان ثم رضني به وحديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل  
 من العمل وحديث أسألك الرضا بالقضاء - الحديث : وغير ذلك

ينمطره ذلك إلى الشتم لى ، حتى إذا شتمنى أبغضته واتخذته عدوا لى . فكل من أحبه أعلم أيضا أنه عدوى ، وكل من أبغضه أعلم أنه صديق ومحبي . ثم فعل ذلك ، وحصل مراده من الشتم الذى هو سبب البغض ، وحصل البغض الذى هو سبب العداوة . فحق على كل من هو صادق فى محبته ، وعالم بشروط المحبة أن يقول : أما تديرك فى إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده ، وتعريضك إياه للبغض والعداوة ، فأنا محب له ، وراض به ، فإنه رأيك وتديرك ، وفعلك وإرادتك . وأما شتمه إياك ، فإنه عدوان من جهته ، إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ، ولكنه كان مرادك منه . فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتديرك الذى دبرته فأنا راض به ، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانا فى تديرك ، وتعميقا فى مرادك ، وأنا كاره لقوات مرادك . ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص ، وكسب له ، وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جالك ، إذ كان ذلك يقتضى أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم ، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ، ومن حيث هو وصف له ، لا من حيث هو مرادك ومقتضى تديرك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ، ومحب له ، لأنه مرادك ، وأنا على موافقتك أيضا مبغض له ، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبا ، ولعدوه عدوا . وأما بغضه لك فإنى أَرْضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك ، وسلطت عليه دواعى البغض ، ولكى أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله ، وأمته لذلك ، فهو ممقوت عندى لمقته إياك ، وبغضه ومقته لك أيضا عندى مكروه من حيث إنه وصفه ، وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضي ،

وإنما التناقض أن يقول : هو من حيث إنه مرادك مرضي ، ومن حيث إنه مرادك مكروه . وأما إذا كان مكرها لا من حيث إنه فعله ومراده ، بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا التناقض فيه . ويشهد لذلك كل ما بكره من وجه ، ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لا تنحصى فإذا تسليط الله دواعى الشهوة والمعصية عليه ، حتى يجره ذلك إلى حب المعصية ، ويجره الحب إلى فعل المعصية ، يضاهى ضرب المحبوب للشخص الذى ضربناه مثلا . ليجره الضرب إلى الغضب ، والغضب إلى الشتم . ومقت الله تعالى لمن عصاه ، وإن كانت معصيته بتدييره

يشبه بغض المشتوم لمن شتمه ، وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه . وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبده ، أعنى تسليط دواعي المعصية عليه ، يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقتته ، فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ، ويعتق من مقتته الله ، ويبغض من أبغضه الله عن حضرته ، وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته ، فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة ، وإن كان بعيدا بإبعاده قهرا ، ومطرودا بطرده واضطراره . والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقبلا بنفيسه إلى جميع المحبين موافقة للمحبيب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده

وهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من البغض في الله ، والحب في الله ، والتشديد على الكفار ، والتغليظ عليهم ، والمبالغة في مقتهم ، مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل . وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لارخصة في إفشائه . وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه ، والخير مراد مرضي به . فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل ، وكذا من قال إنهما جميعا منه من غير افتراق في الرضا والكراهة فهو أيضا مقصر . وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه ، فالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع ، فقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَلْقَدَرُ سِرُّ اللَّهِ فَلَا تُفْشَوْهُ » وذلك يتعلق بعلم المكاشفة . وغرضنا الآن بيان الإمكان فيما تعبد به الخلق ، من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ، ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى ، وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه

وهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة ، والمعصية من المعاصي ، وسائر الأسباب المعينة على الدين ، غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى ، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر ، وخشوع القلب ، ورقة التضرع ، ويكون ذلك جلاء للقلب ، ومفتاحا للكشف ، وسببا لتواتر مزايا اللطف . كما أن حمل الكوز ، وشرب الماء ، ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش . وشرب الماء طلبا لإزالة العطش مباشرة سبب رتبته

( ١ ) حديث القدر سر الله فلا تفشوه : أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وابن عدى في الكامل من حديث عائشة وكلامها ضعيف

مسبب الأسباب ، فكذلك الدعاء سبب ربه لله تعالى وأمر به ، وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل ، واستقصيناه في كتاب التوكل ، فهو أيضا لا يناقض الرضا ، لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ، ويتصل به .

نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى ، وإبكاره بالقلب على الله تعالى منافض للرضا . وإظهار البلاء على سبيل الشكر ، والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض . وقد قال بعض السلف : من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار . أي في معرض الشكاية ، وذلك في الصيف . فأما في الشتاء فهو شكر . والشكوى تناقض الرضا بكل حال . وذم الأظمة وعييها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى ، لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع ، والكل من صنع الله تعالى وقول القائل . الفقر بلاء ومحنة ، والعبال هم وتعب ، والاحتراف كد ومشقة ، كل ذلك قاذح في الرضا . بل ينبغي أن يسلم التدبير لمديره ، والمملكة لملكها ، ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه : لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا ، فإنني لأدري أيهما خير لي

## بيان

أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لا بقدر في الرضا اعلم أن الضعيف قد يظن <sup>(١)</sup> أن نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون ، يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي ، لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى ، وذلك محال : بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون ؛ أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء ، وبقي فيه المرضى مهملين ، لا ممتهد لهم ، فيهلكون هزلا وضرا . ولذلك <sup>(٢)</sup> شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بفض الأخبار بالفرار من الزحف . ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف . وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل

وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار بما لا بد من الفرار منه . وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي

( ١ ) حديث النهي عن الخروج من بلد الطاعون : تقدم في آداب السفر  
( ٢ ) حديث أنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف : تقدم في

والأسباب التي تدعو إليها ، لأجل التنفير عن المعصية ليست مذمومة ، فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك ، حتى اتفق جماعة على ذم بغداد ، وإظهارهم ذلك ، وطلب الفرار منها ، فقال ابن المبارك : قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرا من بغداد . قيل وكيف ؟ قال هو بلد تزدري فيه نعمة الله ، وتستصغر فيه معصية الله ولما قدم خراسان قيل له . كيف رأيت بغداد ؟ قال ما رأيت بها إلا شرطا غضبان ، أو تاجرا لطفان ، أو قارئا حيران . ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة ، لأنه لم تعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة ، وقد كان مقامه ببغداد ، يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما ، فكان يتصدق بستة عشر دينارا ، لكل يوم دينار كفارة لمقامه

وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز ، وكعب الأحبار . وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له : أين تسكن ؟ فقال العراق . قال فما تصنع به ، بلغني أنه مامن أحد يسكن العراق إلا قبض الله له قرينا من البلاء

وذكر كعب الأحبار يوما العراق فقال : فيه تسعة أعشار الشر ، وفيه الداء المضال وقد قيل : قسم الخير عشرة أجزاء ، فتسعة أعشاره بالشام ، وعشره بالعراق ، وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك

وقال بعض أصحاب الحديث : كنا يوما عند الفضيل بن عياض ، فجاءه صوفي متدرع بعباءة فأجلسه إلى جانبه ، وأقبل عليه ثم قال : أين تسكن ؟ فقال ببغداد . فأعرض عنه وقال : يأتينا أخدم في زي الرهبان ، فإذا سألناه أين تسكن قال في عش الظلعة وكان بشر بن الحارث يقول : مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد في الحش . وكان يقول لا تقتدوا بي في المقام بها ، من أراد أن يخرج فليخرج

وكان أحمد بن حنبل يقول : لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد أثر في نفسى . قيل وأين تختار السكنى ؟ قال بالغور

وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد : زاهدم زاهد ، وشريرهم شرير فهذا يدل على أن من يلي ببلدة تكثر فيها المعاصي ، ويقل فيها الخير ، فلا عذر له في المقام بها



بل ينبغي أن بهاجر . قال الله تعالى ( أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا <sup>(١)</sup> )  
فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة ، فلا ينبغي أن يكون راضيا بحاله ، مطمئن النفس إليه ،  
بل ينبغي أن يكون منزوع القلب منها ، قائلا على الدوام ( رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ  
الظَّالِمِ أَهْلُهَا <sup>(٢)</sup> ) وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ، ودمر الجميع ، وشمل المطيعين .  
قال الله تعالى ( وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً <sup>(٣)</sup> )

فإذاً ليس في شيء من أسباب نقص الدين ألبتة رضا مطلق ، إلا من حيث إضافتها  
إلى فعل الله تعالى . فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال

وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل المقامات الثلاث ، رجل يحب الموت شوقا إلى  
لقاء الله تعالى ، ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ، ورجل قال لا أختار شيئا بل أرضى بما اختاره  
الله تعالى . ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين فقال : صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولا  
واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد ، وسفيان الثوري ، ويوسف بن أسباط . فقال  
الثوري : كنت أكره موت الفجأة قبول اليوم ، واليوم وددت أني مت . فقال له  
يوسف : لم ؟ قال لما أخوف من الفتنة ، فقال يوسف : لكني لأكره طول البقاء . فقال  
سفيان : لم ؟ قال لعل أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا . فقيل لوهيب . أيش تقول  
أنت ؟ فقال أنا لا أختار شيئا ، أحب ذلك إليّ أحببه إلى الله سبحانه وتعالى فقبله الثوري  
بين عينيه وقال : روحانية ورب الكعبة

## بيان

جيلة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيل لبعض العارفين . إنك محب . فقال : لست محبا ، إنما أنا محبوب ، والمحب متعوب  
وقيل له أيضا : الناس يقولون إنك واحد من السبعة . فقال : أنا كل السبعة . وكان يقول  
إذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلا : قيل وكيف وأنت شخص واحد ؟ قيل لأنني رأيت  
أربعين بدلا ، وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه . وقيل له . بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام

(١) النساء : ٩٧ (٢) النساء : ٧٥ (٣) الأنفال : ٢٥

فتيسم وقال : ليس العجب ممن يرى الخضر ، ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه وحكي عن الخضر عليه السلام أنه قال : ما حدثت نفسي يوما قط أنه لم يبق وليّ الله تعالى إلا عرفته ، إلا ورأيت في ذلك اليوم وليا لم أعرفه

وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة : حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى . فصاح ثم قال : ويلكم ، لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك . قيل : فحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى فقال : وهذا أيضا لا يجوز أن أطلعكم عليه . قيل : فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم . دعوت نفسي إلى الله فجمحت عليّ ، فزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ، ولا أذوق النوم سنة ، فوفت لي بذلك . ويحكى عن يحيى بن معاذ ، أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته ، من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر ، مستوفزا على صدور قدميه ، رافعا أخصيه مع عقبيه عن الأرض ، ضاربا بذقنه على صدره ، شاخصا بعينه لا يطرف . قال ثم سجد عند السحر فاطالاه ، ثم قعد فقال . اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء ، والمشي في الهواء ، فرضوا بذلك . وإني أعود بك من ذلك . وإن قوما طلبوك فأعطيتهم طي الأرض ، فرضوا بذلك . وإني أعود بك من ذلك . وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض ، فرضوا بذلك ، وإني أعود بك من ذلك . حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء . ثم التفت فرآني ، فقال يحيى ؟ قلت نعم ياسيدي . فقال مُذمتي أنت ههنا ؟ قلت منذ حين . فسكت . فقلت ياسيدي حدثني بشيء . فقال أحدثك بما يصلح لك أدخلي في الفلك الأسفل ، فدورني في المكروت السفلى ، وأراني الأرضين وما تحتهما إلى الثرى ، ثم أدخلني في الفلك العلوى ، فطوف بي في السموات ، وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ثم أوقفني بين يديه . فقال سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك ، فقلت ياسيدي ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه . فقال أنت عبدى حقا ، تعبدني لأجلى صدقا ، لأفعلن بك ولأفعلن ، فذكر أشياء . قال يحيى : فهالني ذلك وامتلأت به ، وعجبت منه ، فقلت ياسيدي لم لاسألتك المعرفة به ، وقد قال لك الملك الملوك سلني ما شئت ؟ قال فصاح بي صيحة ، وقال اسكت ويلك . غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواه وحكي أن أبا تراب النخشي كان معجبا ببعض المريدين ، فكان يذنيه ويقوم بمصالحه ، والمريد مشغول بعبادته ومواجهته ، فقال له أبو تراب يوما : لو رأيت أبا يزيد ؟ فقال : إني عنه مشغول .

فلما كثر عليه أبو تراب من قوله لورأيت أبا يزيد ، هاج وجد المريد فقال : ويحك ، ما صنع بأبي يزيد ؟ قدرأيت الله تعالى فأغناني عن أبي يزيد . قال أبو تراب : فهاج طبعي ، ولم أملك نفسي ، فقلت : ويحك . تغتر بالله عز وجل ! لورأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة . قال : فهبت الفتى من قوله وأنكره ، فقال : وكيف ذلك ؟ قال له : ويحك ، أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك ، وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقعاره فعرف ما قلت ، فقال : احملى إليه . فذكر قصة قال في آخرها : فوقفنا على تل نتنظره ليخرج إلينا من الغيضة ، وكان يأوى إلى غيضة فيها سباع ، قال : فربنا وقد قلب فروة على ظهره ، فقلت للفتى هذا أبو يزيد فانظر إليه . فنظر إليه الفتى فصعق ، فخر كناه فإذا هو ميت ، فتعاوننا على دفنه . فقلت لأبي يزيد : ياسيدي نظره إليك قتله . قال لا : ولكن كان صاحبكم صادقا ، واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه فلما رأنا انكشف له سر قلبه ، فضاقت عن حماله لأنه في مقام الضعفاء المريدين ، فقتله ذلك . ولم ادخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ، ونهبوا الأموال ، اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا : لو سألت الله تعالى دفعهم ؟ فسكت ثم قال : إن الله عبادة في هذه البلدة لودعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات في ليلة واحدة ، ولكن لا يفعلون . قيل لم ؟ قال لأنهم لا يحبون ما لا يحب . ثم ذكر من إجابة الله أشياء لا يستطيع ذكرها حتى قال : واو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها

وهذه أمور ممكنة في أنفسها ، فمن لم يحظ بشئ منها فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها ، فإن القدرة واسعة ، والفضل عميم ، ومجائب الملك والملوك كثيرة ، ومقدورات الله تعالى لانهاية لها وفضله على عباده الذين اصطنع لا غاية له . ولذلك كان أبو يزيد يقول : إن أعطاك مناجاة موسى ، وروحانية عيسى ، وخلة إبراهيم ، فاطلب ما وراء ذلك ، فإن عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة فإن سكنت إلى ذلك حجبتك به وهذا بلاء مثلهم ، ومن هو في مثل حالهم ، لأنهم الأمثل فالأمثل به . وقد قال بعض العارفين : كوشفت بأربعين حوراء ، رأيتهن يتسعين في الهواء ، عليهن ثياب من ذهب ، وفضة وجوهر ، يتخشنخشن ويتثنى معهن ، فنظرت إليهن نظرة ، فعوقبت أربعين يوما ، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال ، وقيل لي انظر إليهن ، قال فسجدت ونمضت عيني في سجودي لئلا أنظر إليهن ، وقلت : أعوذ بك

نحماسواك ، لا حاجة لي بهذا ، فلم أزل انصرع حتى صرفهن الله عني  
فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها ، فلو لم يؤمن كل  
واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة ، وقلبه القاسي ، لضاق مجال الإيمان عليه . بل هذه  
أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ، ونيل مقامات كثيرة ، أدناها الإخلاص ، وإخراج حظوظ  
النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرا وباطنا ، ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر  
الحال ، حتى يبقى متحصنا بحسن الخمول . فهذه أوائل سلوكهم ، وأقل مقاماتهم ، وهي  
أعز موجود في الأتقياء من الناس . وبعد تصفية القلب عنكدورة الالتفات إلى الخلق  
يفيض عليه نور اليقين ، وينكشف له مبادئ الحق ، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوكه الطريق  
يجري مجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديد إذا شكلت ، وتقيت ،  
وصقلت ، وصورت بصورة المرأة ، فنظر المنكر إلى مافي يده من زبرة حديد مظلم قد  
استولى عليه الصدا والخبت ، وهو لا يحكي صورة من الصور ، فأنكر إمكان انكشاف  
المرئي فيها عند ظهور جوهرها وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال

فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء ، إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك . وقصور  
من رآه ، وبئس المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى . بل إنما يشم روائح المكاشفة من  
سلك شيئا ولو من مبادئ الطريق ، كما قيل لبشر : بأي شيء بلغت هذه المنزلة ؟ قال . كنت  
أكاتم الله تعالى حالي . معناه أسأله أن يكتم علي ويخفي أمرى . وروي أنه رأى الخضر عليه  
السلام فقال له : ادع الله تعالى لي . فقال : يسر الله عليك طاعته ، قلت : زدني قال : وسترها  
عليك . فقليل معناه سترها عن الخلق ، وقيل معناه سترها عنك حتي لا تلتفت أنت إليها  
وعن بعضهم أنه قال : أفلقني الشوق إلى الخضر عليه السلام ، فسألت الله تعالى مرة  
أن يريني إياه ليماني شيئا كان أهم الأشياء علي . قال : فرأيت ، فما غلب علي همي ولا همتي  
إلا أن قلت له : يا أبا العباس ، علمني شيئا إذا قلته حجت عن قلوب الخليقة فلم يكن لي فيها  
قدر ، ولا يعرفني أحد بصلاح ولا ديانة . فقال : قل اللهم أسبل علي كسيف سترك ، وحط  
علي سرادقات حجبك ، واجعلني في مكنون غيبك واجبني عن قلوب خلقك . قال : ثم غاب  
فلم أره ، ولم أشتق إليه بعد ذلك . فزال أقول هذه الكلمات في كل يوم . فحكي أنه  
صار بحيث كان يستذل ويتمن ، حتى كان أهل الذمة يسخرون به ، ويستسخرونه في الطرق

يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم . وكان الصبيان يلعبون به ، فكانت راحته ركود قلبه ، واستقامة حاله في ذله وخموله . فهكذا حال أولياء الله تعالى . ففي أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا . والمغرورون إنما يطلبونهم تحت الرفعات والطبائسة ، وفي المشهورين بين الخلق بالعلم ، والورع ، والرياسة . وغيره الله تعالى على أوليائه تأني الإخفاء ، كما قال تعالى : أوليائي تحت قباني ، لا يعرفهم غيري . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « رَبُّ أَشْعَثَ أَغْبَرُ ذِي طَمَرَيْنِ لَا يُؤْتِيَهُ لَهُ لَوْ أَقْتَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ »

وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه المعاني القلوب المتكبرة ، المعجبة بانفسها ، المستبشرة بعملها وعلمها . وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة ، المستشعرة ذل نفسها استشعارا إذا ذل واهتضم لم يحس بالذل ، كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه . فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته إلى الذل ، بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا في حقه ، بل يرى نفسه دون ذلك ، حتى صار التواضع بالطبع صفة ذات ، فثقل هذا القلب يرجي له أن يستنشق مبادئ هذه الروائح . فإن فقدنا مثل هذا القلب ، وحرمانا مثل هذا الروح ، فلا ينبغي أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأهله . فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله ، مؤمنا بهم ، فمسي أن يحشر مع من أحب ويشهد لهذا ماروي أن عيسى عليه السلام قال لبني اسرائيل : أين ينبت الزرع ؟ قالوا في التراب . فقال : بحق أقول لكم ، لا تنبت الحنكة إلا في قلب مثل التراب

ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها بإزالة النفس إلى منتهى الضعة والخسة ، حتى روي أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجنيذة ، دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات ، ثم كان يرده ، ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك ، حتى أدخله في المرة الرابعة ، فسأله عن ذلك . فقال : قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة ، حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد . ثم بدعي فبرمى له عظم فيعود ، ولو رددتني خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت وعنه أيضا أنه قال : نزلت في محلة ، فعرفت فيها بالصلاح ، فتشئت علي قلبي ، فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ، ثم لبست مرقعتي فوقها وخرجت ، وجعلت أمشي قليلا قليلا ، فلحقوني فترعوا مرقعتي ، وأخذوا الثياب ، وصفعوني وأوجعوني

( ١ ) حديث رب أشعث أغبر ذي طمرين : مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم

من ربا ، فسررت بعد ذلك أعرفه بأهلي الحرام ، فسكنته نفسي

فبما كانوا يروون أن أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ، ثم من النظر إلى النفس ، فإن الملتفت إلى نفسه محبوب عن الله تعالى ، وشغله بنفسه حجاب له ، فليس بين القاسم وبين الله حجاب بعد وتحلل حائل ، وإنما بعد القلوب شغلا بغيره أو بنفسها ، وأعظم الحجب شغل النفس . ولذلك حكى أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبي يزيد ، فقال له يوما : أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر ، وأقوم الليل لا أنام ، ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئا ، وأنا أصدق به وأحبه . فقال أبو يزيد : ولو صمت ثلثمائة سنة ، وقت ليلا ما وجدت من هذا ذرة . قال ولم ؟ قال لأنك محبوب بنفسك . قال فلهذا دواء ؟ قال نعم . قال قل لي حتى أعمله . قال لا تقبله . قال فاذكره لي حتى أعمله . قال اذهب الساعة إلى الزين فاحلق رأسك ولحيتك ، وانزع هذا اللباس وانزع عباءة ، وعلق في عنقك مخلعة مملوءة جوزا ، وأجمع الصبيان حولك ، وقل كل من صفعني صفة أعطيتها جوزة ، وادخل السوق ، وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك فقال الرجل : سبحان الله ، تقول لي مثل هذا ؟ فقال أبو يزيد قولك سبحان الله شرك قال وكيف ؟ قل لأنك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك فقال هذا لأفعله ، ولكن دلي على غيره فقال ابتدىء بهذا قبل كل شيء . فقال لا أطيقه . قال قد قلت لك إنك لا تقبل . فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه . ولا ينجي من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله . فمن لا يطيق الدواء فلا ينبغي أن يشكر إمكان الشفاء في حق من دواى نفسه بعد المرض ، أو لم يمرض بمنزل هذا المرض أصلا فأقل درجات الصحة الإيمان بمكانها ، فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضا وهذه أمور جليلة في الشرع واضحة ، وهي مع ذلك مستبعدة عند من يعد نفسه من علماء الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَا يَسْتَكْمِلُ الْعَبْدُ الْإِيمَانَ حَتَّى تَكُونَ مِلَّةُ الشَّيْءِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثَرَتِهِ وَحَتَّى يَكُونَ أَنْ لَا يَعْرِفَ أَحَبَّ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ » وقد قال

(١) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب

إليه من أن يعرف : ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طلحة وعلي هذا فهو معضل فعلى

ابن أبي طلحة أناس من التابعين ولم أجد له أصلا .

عليه السلام <sup>(١)</sup> « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلُ إِيمَانَهُ لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَانِمَ وَلَا يُرَآئِي شَيْئًا مِنْ عَمَلِهِ وَإِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْيَا وَالْآخَرُ لِلْآخِرَةِ آتَرَ أَمْرَ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا » وقال عليه السلام <sup>(٢)</sup> « لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ إِذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ عَنِ الْحَقِّ وَإِذَا رَجِيَ لَمْ يَدْخُلْهُ رِجَاؤُهُ فِي بَابِ الْإِثْمِ وَإِذَا قَدَّرَ لَمْ يَتَكَاوَلْ مَا لَيْسَ لَهُ » وفي حديث آخر <sup>(٣)</sup> « ثَلَاثٌ مَنْ أُوْتِيَهُنَّ فَقَدْ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ آلُ دَاوُدَ الْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالنَّصَبِ وَالْقَصْدُ فِي الْغَنِيِّ وَالْفَقْرُ وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السَّرِّ وَالْعَمَلَانِيَّةُ » . فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأولى الإيمان ، فالمعجب ممن يدعى علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد ما لا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة عالية وراء الإيمان وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه . إننا أخذنا خلقا من لا يفترون ذكرى ولا يكون له هم غيري ، ولا يؤثر علي شيئا من خلقي ، وإن مرق بالنار لم يجد لحرق النار وجما ، وإن قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألما

فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات ؟ وكل ذلك وراء الحب ، والحب وراء كمال الإيمان ، ومقامات الإيمان وتفاوتها في الزيادة والنقصان لا حصر له ، ولذلك قال عليه السلام <sup>(٤)</sup> « لِلصَّدِيقِ رِضِي اللَّهُ عَنْهُ » إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعْطَاكَ مِثْلَ إِيمَانِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِي مِنْ أُمَّتِي وَأَعْطَانِي مِثْلَ إِيمَانِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ » وفي حديث آخر <sup>(٥)</sup> « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى ثَلَاثِمِائَةِ خَلْقٍ مِنْ لِقَبِهِ يُخْلَقُ مِنْهَا مَعَ التَّوْحِيدِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » فقال أبو بكر . يا رسول الله . هل في منها خلق ؟ فقال « كُلُّهَا فِيكَ »

( ١ ) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم - الحديث : أبو مسعود الدبلي في مسند

المردوس من حديث أبي هريرة وفيه سالم المرادي صحفه ابن معين والسنائي ووثقه ابن حبان واسم أبيه الواحد

( ٢ ) حديث لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق - الحديث :

الطبراني في الصغير لم يلفظ ثلاث من أخلاق الإيمان واستاده ضعيف

( ٣ ) حديث ثلاث من أوتيهن فقد أوتى آل داود العدل في الرضا والنصب : غريب بهذا اللفظ

والمعروف ثلاث محبات ذكرهن سحوه وقد تقدم

( ٤ ) حديث انه قال للصديق ان الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتي - الحديث : أبو بصير

الدبلي في مسند المردوس من رواية الحارث الأعور عن علي مع تقديم وتأخير والحارث ضعيف

( ٥ ) حديث ان الله تعالى ثلثمائة خلق من لقبه يخلق منها مع التوحيد دخل الجنة - الحديث : الطبراني في الأوسط

يَا أَبَا بَكْرٍ وَأَحْبَهَا إِلَى اللَّهِ السَّخَاءُ» . وقال عليه السلام <sup>(١)</sup> «رَأَيْتُ مِيزَانًا دُلِّيَ مِنَ السَّمَاءِ فَوُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ أُمَّتِي فِي كِفَّةٍ فَرَجَحَتْ بِهِمْ وَوُضِعَ أَبُو بَكْرٍ فِي كِفَّةٍ وَحَيٌّ بِأُمَّتِي فَوُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ فَرَجَحَ بِهِمْ» ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره، فقال <sup>(٢)</sup> «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا لَا تَتَّخِذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ صَاحِبِكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ تَعَالَى» ، يعني بنفسه

## خاتمة الكتاب

بكلمات متفرقة تتعلق بالحببة ينتفع بها

قال سفيان . المحبة اتساع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره . دوام الذكر . وقال غيره . إشار المحبوب . وقال بعضهم : كراهية البقاء في الدنيا . وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة ، فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها . وقال بعضهم : المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه ، وتمتنع الألسن عن عبارته . وقال الجنيد . حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة . وقال : كل محبة تكون بمعوض ، فإذا زال المعوض زالت المحبة . وقال ذو النون : قل لمن أظهر حب الله إحذر أن تذلل لغير الله . وقيل للشبلي رحمه الله . صف لنا العارف والمحب فقال . العارف إن تكلم هلك والمحب إن سكث هلك . وقال الشبلي رحمه الله

يا أيها السيد الكريم	حبك بين الحشا مقيم
يارافع النوم عن جفوني	أنت بما مربى علم
عجبت لمن يقول ذكرت إلي	وهل أنسى فأذكر مانسيت
أموت إذا ذكرت ثم أحيا	ولولا حسن ظني ما حييت
فأحيا بالني . وأموت شوقا	فكم أحيا عليك وكم أموت

من حديث أنس مرفوعا عن الله خلقت بضعة عشر وثلاثمائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله الا الله دخل الجنة ومن حديث ابن عباس الاسلام ثمانمائة شريعة وثلاثة عشر شريعة وفيه وفي الكبير من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ الايمان والبرار من حديث عثمان بن عفان ان الله تعالى مائة وسبعة عشر شريعة - الحديث : وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضعيفة

(١) حديث رأيت ميزانادلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمي في كفة فرجحت بهم - الحديث :

أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف

(٢) حديث لو كنت متخذًا من الناس خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا - الحديث : منفق عليه وقد تقدم



شربت الحب كسا بعد كاس فما نفذ الشراب وما رويت

فليت خياله نصب لعيني فإن قصرت في نظري عميت

وقالت : زابغة العدوية يوما : من يدلنا على حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه . وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى : أوحى الله إلى عيسى عليه السلام . إني إذا طلعت على سر عبد فلم أجده فيه حب الدنيا والآخرة ، ملائنه من حبي ، وتوليته بحفظي . وقيل : تكلم سمنون يوما في المحبة ، فإذا بطائر نزل بين يديه ، فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فأت . وقال إبراهيم بن أدهم : إلهي إني أعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بموضة في جنب ما أكرمتني من محبتك ، وآتستني بذكرك ، وفرغتني للتفكر في عظمتك . وقال السري رحمه الله : من أحب الله عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والأحق يغدو ويروح في لاش ، والعافل عن عيوبه فتاش

وقيل لزابطة : كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت والله إني لأحبه حباً شديداً ، ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين . وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الأعمال ، فقال الرضا عن الله تعالى والحب له . وقال أبو يزيد : المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة ، إنما يحب من مولاه مولاه . وقال الشبلي : الحب دهش في لذة ، وحيرة في تعظيم ، وقيل : المحبة أن تمحو أترك عنك ، حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك . وقيل : المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح . وقال الخواص : المحبة محو الإرادات ، واحتراق جميع الصفات والحاجات وسئل سهل عن المحبة فقال : عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم المراد منه وقيل : معاملة المحب على أربع منازل . على المحبة ، والهيبة ، والحياء ، والتعظيم . وأفضلها التعظيم والمحبة ؛ لأن هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما . وقال هرم بن حبان : المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل عليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفقرة ، وهي تحسره في الدنيا ، وتروحه في الآخرة . وقال عبد الله بن محمد : سمعت امرأة من المتعبدات تقول وهي باككية ، والدموع على خدوها جارية والله لقد سئمت من الحياة ، حتى لو وجدت الموت يباع لا شترت به شوقاً إلى الله تعالى وحبال لقائه . قال : فقالت لها . فعلي ثقة أنت من عملي . قالت لا . ولكن لحي إياه ، وحسن ظني به ، أفتراه يغذيهم وأنا أحبه ؟ . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام . لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم

ورفتى هم، وشوق إلى ترك معاصيهم، لما تواشوقا إلي وتقطعت أوصالهم من محبتي . يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني ، فكيف إرادتي في المقبلين علي ! يا داود ، أحوج ما يكون العبد إلي إذا استغنى عني ، وأرحم ما أكون بعدي إذا أدير عني ، وأجل ما يكون عدى إذا رجع إلي . وقال أبو خالد الصفار : لقي نبي من الأنبياء عابدا ، فقال له إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه أنتم تعملون على الخوف والرجاء ، ونحن نعمل على المحبة والشوق وقال الشبلي رحمه الله : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ، ذكرى للذاكرين ، وجنتي للمطيعين ، وزيارتى للمشتاقين ، وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام يا آدم ، من أحب حبيبا صدق قوله . ومن أنس بحبيبه رضي فعله ، ومن اشتاق إليه جدد مسيره . وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول . واشوقاه لمن يرانى ولا أراه وقال الجنيد رحمه الله . بكى يونس عليه السلام حتى عمى ، وقام حتى انحنى ، وصلى حتى أضعف وقال . وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار خلصته إليك شوقا مني إليك وعن <sup>(١)</sup> علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال . سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال « المَعْرِفَةُ رَأْسُ مَالِي وَالْعَقْلُ أَصْلُ دِينِي وَالْحُبُّ أَسَاسِي وَالشَّوْقُ مَرْكَبِي وَذِكْرُ اللَّهِ أَيْسَى وَالثِّقَةُ كَنْزِي وَالْحُزْنُ رَفِيقِي وَالْعِلْمُ سِلَاحِي وَالصَّبْرُ رِدَائِي وَالرِّضَا غَنِيمَتِي وَالْعَجْزُ نَحْرِي وَالزُّهْدُ حِرْفَتِي وَالْيَقِينُ قُوَّتِي وَالصَّدْقُ شَفِيعِي وَالطَّاعَةُ حُبِّي وَالْجِهَادُ خُلُقِي وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » . وقال ذوالنون . سبحانه من جعل الأرواح جنودا مجندة ، فأرواح العارفين جلالية قدسية ، فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى ، وأرواح المؤمنين روحانية ، فلذلك حنوا إلى الجنة ، وأرواح النافلين هوائية ، فلذلك مالوا إلى الدنيا . وقال بعض المشايخ : رأيت في جبل اللكام رجلا أسمر اللون ، ضعيف البدن ، وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول :

الشوق والهوى صيراني كما ترى

ويقال : الشوق نار الله أشعلها في قلوب أوليائه ، حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات ، والموارض والحاجات . فهذا القدر كاف في شرح المحبة ، والأنس ، والشوق والرضا ، فلنقتصر عليه ، والله الموفق للصواب

نتم كتاب المحبة ، والشوق ، والرضا ، والأنس ، يتلوه كتاب النية والإخلاص ، والصدق

( ١ ) حديث على سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني

الحديث : ذكره القاضي عياض من حديث علي بن أبي طالب ولم أجده له إسنادا

# كتاب النية والإخلاص والصدق

## كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربيع المنجيات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين ، ونؤمن به إيمان الموقنين ، ونقر بوحدانيته إقرار الصادقين ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين . وخالق السموات والأرضين ، ومكلف الجن والإنس والملائكة المقربين أن يعبدوه عبادة المخلصين ، فقال تعالى ( وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ <sup>(١)</sup> ) فالله إله الدين الخالص المتين ، فإنه أغنى الأغنياء عن شركة المشركين والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين ، وعلى جميع النبيين ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين أما بعد : فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة ، فالناس كلهم هلكت إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكت إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكت إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص رياء ، وهو للنفاق كفاء ، ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء . وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً بمغموراً ( وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا <sup>(٢)</sup> )

وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية ، أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص ، أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه . فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص ، اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والإخلاص ، ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب .

الباب الأول : في حقيقة النية ومعناها

الباب الثاني : في الإخلاص وحقائقه

الباب الثالث : في الصدق وحقيقته

# الباب الأول

في النية

وفيه بيان فضيلة النية، وبيان حقيقة النية، وبيان كون النية خيرا من العمل، وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس، وبيان خروج النية عن الاختيار

## بيان

فضيلة النية

قال الله تعالى ( وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ )<sup>(١)</sup> والمراد بتلك الإرادة هي النية. وقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَأْنَوِيٌّ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ » وقال صلى الله عليه وسلم « أَكْثَرُ شُهَدَاءِ أُمَّتِي أَصْحَابُ الْفَرَشِ وَرُبَّ قَتِيلٍ بَيْنَ الصَّفِينِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِنِيَّتِهِ ». وقال تعالى ( إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا )<sup>(٢)</sup> فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم «<sup>(٣)</sup> إِنْ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » وإنما نظر إلى القلوب لأنها مظنة النية وقال صلى الله عليه وسلم «<sup>(٤)</sup> إِنْ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ أَعْمَالًا حَسَنَةً فَتَصْعَدُ الْمَلَائِكَةُ فِي صُحُفٍ مُخْتَمَةٍ فَتَلْقَى بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى فَيَقُولُ أَتَقُولُوا هَذِهِ الصَّحِيفَةُ فَإِنَّهُ لَمْ يُرَدِّ بِهَا فِيهَا وَجْهِي ثُمَّ يُكَادِي الْمَلَائِكَةَ أَكْتُبُوا لَهُ كَذَا وَكَذَا أَكْتُبُوا لَهُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّهُ نَوَاهُ »

( كتاب النية والاحلاص والصدق )

- ( ١ ) حديث انما الاعمال بالنيات - الحديث : متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم  
( ٢ ) حديث أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنية : أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة  
( ٣ ) حديث إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم  
( ٤ ) حديث إن العبد يعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة - الحديث : الدارقطني من حديث أنس بن مالك

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «النَّاسُ أَرْبَعَةٌ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِلْمًا وَمَالًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِي مَالِهِ فَيَقُولُ رَجُلٌ لَوْ آتَانِي اللَّهُ تَعَالَى مِثْلَ مَا آتَاهُ لَعَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ فُهِمَا فِي الْأَجْرِ سِوَاهُ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يَتَحَبَّطُ بِجَهْلِهِ فِي مَالِهِ فَيَقُولُ رَجُلٌ لَوْ آتَانِي اللَّهُ تَعَالَى مِثْلَ مَا آتَاهُ عَمِلْتُ كَمَا يَعْمَلُ فُهِمَا فِي الْوِزْرِ سِوَاهُ» ألا ترى كيف شرکه بالنية في محاسن عمله ومساويه

وكذلك في حديث أنس بن مالك . لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك <sup>(٢)</sup> قال «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَاقُطَعْنَا وَادِيًا وَلَا وَطِئْنَا مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا أَنْفَقْنَا نَفَقَةً وَلَا أَصَابْنَا نَحْمَصَةً إِلَّا شَرَكُونَا فِي ذَلِكَ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ» قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا قال «حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ» فشرکوا بحسن النية

وفي حديث <sup>(٣)</sup> ابن مسعود «مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِي شَيْئًا فَهُوَ لَهُ» فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس . وكذلك جاء في الخبر <sup>(٤)</sup> أن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار ، لأنه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره ، فقتل على ذلك ، فأضيف إلى نيته وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> «مَنْ غَزَا وَهُوَ لَا يَنْوِي إِلَّا عِقَالًا فَلَهُ مَا نَوَى» وقال <sup>(٦)</sup> أبي استعنت رجلا بغزو معي ، فقال لاحقى تجعل لى جملا . فجعلت له . فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال «أَيْسَ لَهُ مِنْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ إِلَّا مَا جَعَلَتْ لَهُ»

( ١ ) حديث الناس أربعة رجل آتاه الله علما ومالا - الحديث : ابن ماجه من حديث أبي كشة الأثرى - صحيح بلفظ مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر الحديث وقد تقدم ورواه الترمذى بزيادة وفيه وانما الدنيا لأربعة نفر الحديث وقال حسن صحيح

( ٢ ) حديث أنس إن بالمدينة أقواما ماقطعنا واديا - الحديث : البخارى مختصرا وأبو داود

( ٣ ) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغى شيئا فهو له هاجر رجل فتزوج امرأة منا وكان يسمى مهاجر أم قيس : الطبرانى بإسناد جيد

( ٤ ) حديث إن رجلا قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار : لم أجد له أصلا في المصولات وانما رواه أبو اسحق الفراءى في السنن من وجه مرسل

( ٥ ) حديث من غزا وهو لا ينوى الا قتالا فله ما نوى : النسائى من حديث عبادة بن الصامت وتقديم غير مرة

( ٦ ) حديث أبى استعنت رجلا بغزو معي فقال لاحقى تجعل لى جملا فجعلت له فذكرت ذلك لالنبي صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته الا ما جعلت له : الطبرانى في مسند الشاميين ولأبى داود من حديث يعلى بن أمية انه امتأجر أجير للغزو وسعى له ثلاثة دنائير فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أجده في غزوته هذه في الدنيا والآخرة الا دنائيره التى سعى

وروي في الاسرائيليات . أن رجلا مرّ بكشبان من رمل في مجاعة ، فقال في نفسه . لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس . فأوحى الله تعالى إلى نبيهم أن قل له : إن الله تعالى قد قبل صدقتك ، وقد شكر حسن نيتك ، وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدقت به وقد ورد في أخبار كثيرة <sup>(١)</sup> « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَفْعَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ » وفي حديث <sup>(٢)</sup> عبد الله بن عمرو « مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا نِيَّتَهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَارَقَهَا أَرْغَبَ مَا يَكُونُ فِيهَا وَمَنْ تَكُنْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ وَفَارَقَهَا أَرْهَدَ مَا يَكُونُ فِيهَا »

وفي حديث <sup>(٣)</sup> أم سلمة . أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم بالبيداء فقلت يا رسول الله : يكون فيهم المسكره والأجير . فقال « يُحْشَرُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ » وقال عمر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول <sup>(٤)</sup> « إِنَّمَا يُقْتَلُ الْمُقْتَلُونَ عَلَى النِّيَّاتِ » وقال عليه السلام <sup>(٥)</sup> « إِذَا التَّقَى الصَّفَانِ نَزَلَتْ الْمَلَائِكَةُ تَكْتُبُ الْخُلُقَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فُلَانٌ يُقَاتِلُ لِلدُّنْيَا فُلَانٌ يُقَاتِلُ حِمِيَّةً فُلَانٌ يُقَاتِلُ عَصَبِيَّةً أَلَا فَلَا تَقُولُوا فُلَانٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » . وعن جابر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال <sup>(٦)</sup> « يُبْعَثُ

( ١ ) حديث من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة : متفق عليه وقد تقدم

( ٢ ) حديث عبد الله بن عمرو من كانت الدنيا نيته جعل جعل الله فقره بين عينيه - الحديث : ابن ماجه

من حديث زيد بن ثابت باسناد جيد دون قوله وفارقها أرغب ما يكون فيهما دون قوله وفارقها أرهد ما يكون فيها وفيه زيادة ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو

( ٣ ) حديث أم سلمة في الجيش الذي يخسف بهم يحشرون على نياتهم : مسلم وأبو داود وقد تقدم

( ٤ ) حديث إنما يقتل المقتلون على النيات : ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص والنية من حديث عمر باسناد ضعيف بالفظ انما بيعت ورويناه في فوائد تمام بلفظ انما بيعت للمسلمون على النيات ولا ابن ماجه من حديث

أبي هريرة انما بيعت الناس على نياتهم وفيه ليث بن أبي سليم يختلف فيه

( ٥ ) حديث اذا التقى الصفان نزلت للملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل الدنيا - الحديث : ابن المبارك

في الزهد موقوفا على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع في الصحيحين من حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله

( ٦ ) حديث جابر يبعث كل عبد على ما مات عليه : رواه مسلم

كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ ، وفي حديث <sup>(١)</sup> الأحنف عن أبي بكرة « إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسُفْيَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ » قيل يارسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال « لِأَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ » . وفي حديث <sup>(٢)</sup> أبي هريرة « مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى صَدَاقٍ وَهُوَ لَا يَنْوِي أُدَاءَهُ فَهُوَ زَانٌ وَمَنْ أَذَانَ دَيْنًا وَهُوَ لَا يَنْوِي قَضَاءَهُ فَهُوَ سَارِقٌ » .  
وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « مَنْ تَطَيَّبَ لِلَّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ الْمِسْكِ وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللَّهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَتْنُ مِنْ الْجِيفَةِ »  
وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى ، والورع محارم الله تعالى ، وصدق النية فيما عند الله تعالى  
وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز . اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية ، فمن تمت نيته تم عون الله له ، وإن نقصت نقص بقدره . وقال بعض السلف : رب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائي : البرُّ همته التقوى ، فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوم إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بمكس ذلك وقال الثوري : كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل

وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل . ومادمت تنوي الخير فانت بخير  
وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول : من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملاً  
الله تعالى ، فإني لأحب أن يأتني على ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله .  
فقيل له : قد وجدت حاجتك ، فاعمل الخير ما استطعت ، فإذا قُتِرَ أو تركته فهم بعمله  
فإن الهام بعمل الخير كماله . وكذلك قال بعض السلف : إن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها ، وإن ذنوبكم أخفى من أن تملوها ، ولكن أصبحوا توابين ، وأمسوا توابين  
يقفر لكم ما بين ذلك . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لعين نامت ولا تهم بمعصية ،

( ١ ) حديث الأحنف عن أبي بكرة إذا التقى المسلمان بسففيهما فالقاتل والمقتول في النار : متفق عليه

( ٢ ) حديث أبي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان : أحمد من حديث صحيح

ورواه ابن ماجه مقتصراً على قصة الدين دون ذكر الصداق

( ٣ ) حديث من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك : الحديث : أبو الوليد الصغار في كتابه

الصلاة من حديث إسحق بن أبي طلحة مرسلاً



وانتهت إلى غير إثم . وقال أبو هريرة : يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم  
 وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ ( وَلَبَّلُوا نَسْكَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ  
 وَالصَّابِرِينَ وَنَبَلُّوا أَخْبَارَكُمْ <sup>(١)</sup> ) يبكي ويرددها ويقول : إنك إن باوتنا فضحتنا ، وهتكت  
 أستارنا . وقال الحسن : إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات .  
 وقال أبو هريرة : مكتوب في التوراة . ما أريد به وجهي فقليله كثير ، وما أريد به  
 غيري فكثيره قليل . وقال بلال بن سعد : إن العبد ليقول قول مؤمن ، فلا يدعه الله  
 عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله ، فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه . فإن تورع لم يدعه  
 حتى ينظر ماذا نوى ، فإن صلحت نيته فبالحري أن يصلح ما دون ذلك  
 فإذا نوى عماد الأعمال النيات ، فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيرا ، والنية في  
 نفسها خير وإن تغذر العمل بعائق

## بيان

### حقيقة النية

اعلم أن النية والإرادة ، والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد ، وهو حالة وصفة  
 للقلب يكتنفها أمران : علم ، وعمل ، العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه ، والعمل يتبعه لأنه ثمرته  
 وفرعه . وذلك لأن كل عمل ، أعنى كل حركة وسكون ، اختياري ، فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور  
 علم ، وإرادة ، وقدرة ، لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم . ولا يعمل ما لم  
 يرد ، فلا بد من إرادة ، ومعنى الإرادة انبعث القلب إلى ما يراه موافقا للغرض ، إما في  
 الحال أو في المآل ، فقد خاق الإنسان بحيث يوافق بعض الأمور ويلتزم غرضه ، ويخالفه  
 بعض الأمور . فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ، ودفع الضار المنافي عن نفسه .  
 فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك الشيء المضر والنافع ، حتى يجلب هذا ويهزب من  
 هذا ، فإن من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله ، ومن لا يبصر النار لا يمكنه  
 الهزب منها . فخلق الله الهداية والمعرفة ، وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة  
 والباطنة ، وليس ذلك من غرضنا

ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له ، فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه ، وشهوة له باعثة عليه . إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ، ولا يمكنه تناول لعدم الرغبة والميل ، ولفقد الداعية المحركة إليه . فخلق الله تعالى له الميل ، والرغبة والإرادة ، وأعطى به نزوعاً في نفسه إليه ، وتوجهاً في قلبه إليه

ثم ذلك لا يكفيه ، فكم من مشاهد طعنا ما راغب فيه ، مرید تناوله ، عاجز عنه لكونه زمناً . فخلقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم به التناول . والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة ، والداعية تنتظر العلم والمعرفة ، أو الظن والاعتقاد ، وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقاً له ، فإذا جازمت المعرفة بأن الشيء موافق ، ولا بد وأن يفعل ، وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه ، أنبعثت الإرادة ، وتحقق الميل فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء . فالقدرة خادمة للإرادة ، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة . فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة ، وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلى ما هو موافق للنرض ، إما في الحال وإما في المآل

فالمحرك الأول هو النرض المطلوب ، وهو الباعث ، والنرض الباعث هو المقصد المنوي والانبعاث هو القصد والنية ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد ، وقد يكون بباعثين اجتماعاً في فعل واحد . وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان ملياً بإنهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع ، وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر ، لكن الآخر انتهض عاضداً ومعاوناً ، فيخرج من هذا التقسيم أربعة أنسام ، فلنذكر لكل واحد مثلاً واسماً أما الأول : فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد ، كما إذا هجم على الإنسان سبع ، فكلماً رآه قام من موضعه ، فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع ، فإنه رأى السبع وعرفه صاراً ، فانبعثت نفسه إلى الهرب ورغبت فيه ، فانتفضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث ، فيقال نيته الفرار من السبع ، لانية له في القيام لغيره . وهذه النية تسمى خالصة ، ويسمى العمل بموجبها إخلاصاً بالإضافة إلى النرض الباعث ، ومعناه أنه خالص عن مشاركة غيره وممازجته وأما الثاني : فهو أن يجتمع باعثن كل واحد مستقل بإنهاض لو انفرد . ومثاله من المحسوس

أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة، فيقضيها الفقير وقرابته، وعلم أنه لو لا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لو لا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر، وعلم ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته وفقير أجنبي فيرغب أيضا فيه . وكذلك من أمره الطيب بترك الطعام ، ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية، ولو لا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل، وكان الباعث الثاني رفيق الأول: فلنسم هذا مرافقة للبواعث والثالث: أن لا يستقل كل واحد لو انفرد، ولكن قوي مجموعهما على إنهاض القدرة . ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به . ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهما فلا يعطيه ، ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ، ثم يقصده قريب الفقير فيعطيه، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين، وهو القرابة والفقر . وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الشاء، ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء، ولو كان الطالب فاسقا لاثواب في التصديق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء، ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب، وانسم هذا الجنس مشاركة والرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه ، والثاني لا يستقل ، ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالإعانة والتسهيل . ومثاله في المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوي على الحمل ، ولو انفرد القوي لاستقل ، ولو انفرد الضعيف لم يستقل ، فإن ذلك بالجملة يسهل الحمل ويؤثر في تخفيفه . ومثاله في غرضنا أن يكون للأنسان ورد في الصلاة ، وعادة في الصدقات ، فاتفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس ، فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم ، وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله ، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء بحمله عليه، فهو شوب تطرق إلى النية . ولنسم هذا الجنس المعاونة فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقا، أو شريكا، أو معينا وسنذكر حكمها في باب الإخلاص . والغرض الآن بيان أقسام النيات، فإن العمل تابع للباعث عليه ، فيكتسب الحكم منه . ولذلك قيل : إنما الأعمال بالنيات ، لأنها تابعة لأحكامها في نفسها ، وإنما الحكم للمتبع

## بيان

مر قوله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> « نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ »

أعلم أنه قديظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، والعمل ظاهر ، ولعمل السر فضل ، وهذا صحيح . ولكن ليس هو المراد ، لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه ، أو يفكر في مصالح المسلمين ، فيقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكير خيرا من التفكير . وقديظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل ، والأعمال لاندوم ، وهو ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خيرا من القليل ، بل ليس كذلك . فإن نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة ، والأعمال تدوم . والعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله . وقد يقال : إن معناه أن النية بمجرد ما خير من العمل بمجرد دون النية ، وهو كذلك ، ولكنه بعيد أن يكون هو المراد ، إذ العمل بلانية أو على النفلة لا خير فيه أصلا ، والنية بمجرد ما خير . وظاهر الترجيح للمشاركين في أصل الخير

بل المعنى به أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل ، وكانت النية من جملة الخيرات ، وكان العمل من جملة الخيرات ، ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل ، أي لكل واحد منهما أثر في المقصود ، وأثر النية أكثر من أثر العمل . فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته . والفرض أن للعبد اختيارا في النية وفي العمل ، فهما هملان ، والنية من الجملة خيرهما . فهذا معناه

وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل ، فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد ، وقاس بعض الآثار ببعض ، حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود . فن قال الخبز خير من الفاكهة فإنما يعنى به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاعتناء ، ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء ، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها ، وفهم أثر كل واحد ، وقاس بعضها ببعض . فالطاعات غذاء للقلوب ، والمقصود شفاؤها ، وبقاؤها ، وسلامتها في الآخرة

( ١ ) حديث نية المؤمن خير من عمله : الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النوايس بن سمعان وكلاهما ضعيف

وسعادتها ، وتنعمها بقاء الله تعالى . فالمقصد لذة السعادة بقاء الله فقط ، ولن يتنعم بقاء الله إلا من مات محبا لله تعالى ، عارفا بالله ، ولن يحبه إلا من عرفه ، ولن يأنس بربه إلا من طال ذكره له ، فالأنس يحصل بدوام الذكر ، والمعرفة تحصل بدوام الفكر ، والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ، ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها ، حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له . وإنما يعيل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوطة بها ، كما يعيل الماقل إلى الفضد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيهما

وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة ، فإنما يقتضى الميل والمواظبة عليه ، فإن المواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة ، حتى ترشح الصفة وتقوى بسببها ، فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفا ، فإن اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك ، تأكد ميله ورسخ ، وعسر عليه الزرع . وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر ، وربما زال وانعحق . بل الذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعه ميلا ضعيفا ، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة ، والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره ، فلا يقدر على الزرع عنه . ولو فطم نفسه ابتداء ، وخالف مقتضى ميله ، لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك زبراً ودفعاً في وجهه ، حتى يضعف وينكسر بسببه ، وينتقم وينمحي .

وهكذا جميع الصفات ، والخيرات ، والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة ، والشور كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة ، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر ، ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح ، لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة ، حتى أنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر ، فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب ، وترى القلب إذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته ، أو بهجوم أمر مخوف تأثر به الأعضاء ، وارتعدت الفرائص ، وتغير اللون . إلا أن القلب هو الأصل المتبوع ، فكأنه الأمير والراعي ، والجوارح تخدم

والرعايا والأتباع . فالجوارح خادمة للقلب بتأكيدها صفاتها فيه . فالقلب هو المقصود ، والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدِ » وقال عليه السلام <sup>(٢)</sup> « اللَّهُمَّ أَصْلِحِ الرَّاعِي وَالرَّعِيَّةَ » وأراد بالراعي القلب وقال الله تعالى ( لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَبَالُهَا التَّقْوَى مِنْكُمْ <sup>(٣)</sup> ) وهي صفة القلب

فمن هذا الوجه يجب لاحتمال أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح . ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل ، لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له . وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب لإرادة الخير ، ويؤكد فيه الميل إليه ، ليفرغ من شهوات الدنيا ، ويكسب على الذكر والفكر ، فبالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الغرض ، لأنه متمكن من نفس المقصود . وهذا كما أن المعدة إذا تأملت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر ، وتداوى بالشرب والدواء الواصل إلى المعدة فالشرب خير من طلاء الصدر ، لأن طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسري منه الأثر إلى المعدة ، فما يلاقى عين المعدة فهو خير وأنفع فكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح . فلا تظن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض ، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب ، فإن من يجد في نفسه تواضعا ، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ومن وجد في قلبه رقة على يتيم ، فإذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه . ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا ، لأن من مسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه ، أو ظان أنه يمسح ثوبا ، لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرقة . وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول بهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كعدمه ، وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا . فيقال : العبادة بغير نية باطلة . وهذا معناه إذا فعل عن غفلة .

( ١ ) حديث إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد : متفق عليه من حديث التيمان بن بشير وقد تقدم

( ٢ ) حديث اللهم أصلح الراعي والرعية . تقدم ولم أجده

(١) الحج : ٣٧

فإذا قصد به رياء أو تمظيم شخص آخر، لم يكن وجوده كعدمه، بل زاده شراً، فإنه لم يؤكّد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكّد الصفة المطلوب قبحها، وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلى الدنيا فهذا وجه كون النية خيراً من العمل . وبهذا أيضاً يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ » ، لأنّ القلب هو ميله إلى الخير، وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا، وهي غاية الحسنات . وإنما الإتمام بالعمل يزيد بها تأكيدها . فليس المقصود من إرافة دم القربان الدم واللحم، بل ميل القلب عن حب الدنيا، وبذلك إشارته لوجه الله تعالى . وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة، وإن عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها، ولكن يناله التقوى منكم . والتقوى ههنا أعنى القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ قَوْمًا بِالْمَدِينَةِ قَدْ شَرَكُونَا فِي جِهَادِنَا » كما تقدم ذكره لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير، وبذل المال والنفس، والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى، كقلوب الخارجين في الجهاد . وإنما فارقوم بالأبدان لعوائق تخص الأسباب الخارجة عن القلب، وذلك غير مطلوب إلّا لتأكيد هذه الصفات وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردناها في فضيلة النية، فأعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا تطول بالإعادة

## بيان

### تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أن الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرة من فعل، وقول، وحركة، وسكون، وجلب، ودفع، وفكر، وذكر، وغير ذلك مما لا يتسوّر إحصاؤه واستقصاؤه، فهي ثلاثة أقسام: طاعات، ومعاص، ومباحات . القسم الأول: المعاصي وهي لا تتغير عن موضعها بالنية . فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية، كالذي يفتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيراً من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجدًا أو رابطاً بمال حرام، وقصده الخير، فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلمًا، وعدوانًا، ومعصية . بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شرّ آخر . فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله

فروعاص بجعله ، إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم . والخيرات . إنما يعرف كونها خيرات بالشرح ، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا ! هيهات ، بل المروج لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى ، فإن القلب إذا كان مائلا إلى طلب الجاه ، واستمالة قلوب الناس ، وسائر حظوظ النفس ، توصل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل . ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى : ما عصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل . قيل يا أبا محمد : هل تعرف شيئا أشد من الجهل ؟ قال نعم : الجهل بالجهل . وهو كما قال : لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم . فن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يتعلم ؟ وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ، ورأس العلم العلم بالعلم ، كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل . فإن من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا ، وذلك هو مادة الجهل ، ومنبع فساد العالم . والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور ، إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ، ولم يجد بعد مهلة للتعلم . وقد قال الله سبحانه ( فَاسْئَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ <sup>(١)</sup> ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « لَا يُعَذَّرُ الْجَاهِلُ عَلَى الْجَهْلِ وَلَا يَحِلُّ لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ وَلَا لِلْعَالِمِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ » . ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام ، تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار ، المشغولين بالفسق والفجور ، القاصرين همهم على مسارة العلماء ، ومباراة السفهاء ، واستمالة وجوه الناس ، وجمع حطام الدنيا ، وأخذ أموال السلاطين ، واليتامى ، والمساكين ، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله ، واتهم كل واحد منهم في بلده نائبا عن الدجال ، يتكالب على الدنيا ، ويتبع الهوى ، ويتباعده عن التقوى ، ويستجريء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله . ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ، ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ، ويتسلسل ذلك ، ووبال جميعه يرجع إلى المعلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده : ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله

( ١ ) حديث لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله - الحديث : الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله لا يعذر الجاهل على الجهل وقال لا ينبغي بدل ولا يحل وقد تقدم في العلم



وافعاله ، وفي مطعمه وملبسه ومسكنه ، فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلاً ، وألفي سنة ، وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه . ثم العجب من جهله حيث يقول: إننا الأعمال بالنيات ، وقد قصدت بذلك نشر علم الدين ، فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني ، وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير . وإنما حب الرئاسة ، والاستتباع ، والتفاخر بعلوم العلم ، يحسن ذلك في قلبه ، والشيطان بواسطة حب الرئاسة يلبس عليه ، وليت شعري ما جوابه عن وهب سيفاً من قاطع طريق ، وأعدله خيلاً وأسباباً يستعين بها على مقصوده ، ويقول: إننا أردت البذل والسخاء ، والتخلق بأخلاق الله الجميلة ، وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله ، فإن إعداده الخيل ، والرباط ، والقوة للغزاة من أفضل القربات ، فإن هو صبرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي . وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرام ، مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ثَلَاثًا خُلِقَ مِنْ تَقَرُّبٍ إِلَيْهِ وَاحِدٍ مِنْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَآخَرُهَا إِلَيْهِ السَّخَاءُ» فليت شعري لم حرم هذا السخاء ؟ ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم ؟ فإذا لاح له من عاداته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه ، لأن يده غيره . والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله ، وقد يماون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى . فمن لا يزال مؤثراً لدنياه على دينه ، ولهواه على آخرته ، وهو عاجز عنها لقلة فضله ، فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته

بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون أحوال من يتردد إليهم ، فلو رأوا منه تقصيراً في نفل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه ، وإذا رأوا منه فجوراً واستحلل حرام هجروه ، ونفوه عن مجالسهم ، وتركوا تكليمه فضلاً عن تعليمه ، لعلمهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر ، وقد تعود جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة ، وما تموزوا من الفاجر الجاهل

حكى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين ، ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد ، وهجره وصار لا يكلمه ، فلم يزل يسأله عن تغييره عليه وهو لا يذكره حتى

( ١ ) حديث أن الله ثلاثاً خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء ، تقدم في كتاب المحبة والشوق

قال : بلغنى أنك طينت حائطدارك من جانب الشارع، وقد أخذت قدر سمك الطين، وهو أنملة، من شارع المسلمين، فلا تصلح لنقل العلم . فمكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم وهذا وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان، وإن كانوا أرباب الطيالة والأحكام الواسعة، وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير، أغنى الفضل من العلوم التي لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها، والترغيب في الآخرة والدعاء إليها، بل هي العلوم التي تتعلق بالخلق، ويتوصل بها إلى جمع الخطام، واستتباع الناس، والتقدم على الأقران فإذا قوله عليه السلام « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » يختص من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصي، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد، والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد . فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً . نعم للنية دخل فيها، وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها، وعظم وبالها، كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة

القسم الثاني : الطاعات . وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها . أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية . وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة . (١) تضاعف كل حسنة عشر أمثالها كما ورد به الخبر : ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة، ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين؟ وبلغ به درجات المقرين

أولها : أن يعتقد أنه بيت الله، وأن داخله زائر الله، فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (٢) « مَنْ قَعَدَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَدْ زَارَ اللَّهَ تَعَالَى وَحَقَّ عَلَى الْمَزُورِ إِكْرَامُ زَائِرِهِ »

(١) حديث تضعيف الحسنة بعشرة أمثالها : تقدم

(٢) حديث من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور إكرام زائره : ابن حبان في الضعفاء

من حديث سامان والبيهقي في الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإسناد صحيح وقد تقدم في الصلاة

وثانيها : أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة ، فيكون في جملة انتظاره في الصلاة ، وهو معنى قوله تعالى ( وَرَآبِطُوا<sup>(١)</sup> )

وثالثها : الترهيب بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات ، فإن الاعتكاف كف ، وهو في معنى الصوم ، وهو نوع ترهب . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « رَهْبَانِيَّةٌ أُتْمِنِي الْقُمْرُودُ فِي الْمَسَاجِدِ »

ورابعها : عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ، ودفع الشواغل الصارفة عنه بالأعمال إلى المسجد

وخامسها : التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره ، وللتذكر به ، كما روي في الخبر<sup>(٣)</sup> « مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ لِيَذْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى أَوْ يُذَكَّرَ بِهِ كَانَ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى » وسادسها : أن يقصد إفادة العلم بأمر معروف ونهي عن منكر ، إذ المسجد لا يخلو ممن يسيء في صلاته ، أو يتعاطى ما لا يحل له ، فيأمره بالمعروف ، ويرشده إلى الدين ، فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه ، فتضاعف خيراته

وسابعها : أن يستفيد أخا في الله ، فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة ، والمسجد معيش أهبل الدين المحبين لله وفي الله

وثامنها : أن يترك الذنوب خياء من الله تعالى ، وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمه . وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : من أدام الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال : أخا مستفادا في الله . أو رحمة مستنزلة . أو علما مستظرفا أو كلمة تدل على هدى أو تصرفه عن ردى . أو يترك الذنوب خشية أو حياء

( ١ ) حديث رهبانية أمتي القعود في المساجد : لم أجده أصلا .

( ٢ ) حديث من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى : هو معروف من قول كعب الأحمري رويناه في جزء بن طوق والطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حج تاما حجه وإسناده جيد وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة من غدا إلى المسجد أرواح أعداء الله في الجنة نزلا كلما غدا أرواح

فهذا طريق تكثير النيات ، وقس به سائر الطاعات والمباحات ، إذ مامن طاعة إلا وتحتل نيات كثيرة ، وإنما نحضر في قلب العبد المؤمن بتدرجده في طلب الخير ، ونشره له ، وتفكره فيه ، فهذا تزكو الأعمال ، وتتضاعف الحسنات

القسم الثالث : المباحات . وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات ، وينال بها معالي الدرجات ، فما أعظم خسران من يغفل عنها ، ويتعاطاها تعاطى البهائم المهملات عن مهم وغفلة : ولا ينبغي أن يستحققر العبد شيئاً من الخطرات ، والخطوات ، واللحظات ، فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة أنه لم فعله ؟ وما الذي قصد به ؟ هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « حَلَّالُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عِقَابٌ » وفي حديث <sup>(٢)</sup> معاذ بن جبل ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى عَنْ كُحْلِ عَيْنَيْهِ وَعَنْ فِتَاتِ الطَّيْنَةِ بِأَصْبُعَيْهِ وَعَنْ لَمَسِهِ نَوْبَ أَخِيهِ » وفي خبر آخر « مَنْ تَطَيَّبَ لِلَّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنْ الْمِسْكِ وَمَنْ تَطَيَّبَ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرِيحُهُ أَتْنُ مِنْ الْجَيْفَةِ » فاستعمال الطيب مباح ، ولكن لا بد فيه من نية

فإن قلت : فما الذي يمكن أن ينوي بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس ، وكيف يتطيب لله فاعلم أن من يتطيب مثلاً يوم الجمعة ، وفي سائر الأوقات ، يتصور أن يقصد التمتع بلذات الدنيا ، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران ، أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة ، أو ليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبية إذا كان مستحلاً للنظر إليهن ، ولأمور أخر لا تحصى . وكل هذا يجعل التطيب معصية ، فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة ، إلا القصد الأول وهو التلذذ والتمتع ، فإن ذلك ليس بمعصية ، إلا أنه يسئل عنه . ومن نوقش الحساب عذب ، ومن أتى شيئاً من مباح الدنيا لم يذب عليه في الآخرة ، ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره ، وناهيك خسرانا بأن يستمحل ما يفنى ، ويخسر زيادة نعيم لا يفنى

(١) حديث حللها حساب وحرامها عذاب : تقدم

(٢) حديث معاذ أن العبد يسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه وعن ثنات الطين بأصبعيه

وعن لمسه نوب أخيه : لم أجده لأساندا

وأما<sup>(١)</sup> النيات الحسنة ، فإنه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وينوى بذلك أيضا تعظيم المسجد ، واحترام بيت الله ، فلا يرى أن يدخله زائر الله إلا طيب الرائحة ، وأن يقصد به ترويح جيرانه ليسريجوا في المسجد عند مجاورته بروائحهم وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه ، وأن يقصد بحسم باب الغيبة عن المفتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة ، فيعصون الله بسببه ، فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية ، كما قيل :

إذا رحلت عن قوم وقد قدروا . أن لا تفارقهم فالراحلون هم  
وقال الله تعالى ( وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ )<sup>(٢)</sup>  
أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر . وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيده به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر ، فقد قال الشافعي رحمه الله : من طاب ربحه زاد عقله فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبية على قلبه . وإذا لم يطلب على قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات ، وإن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه ، فلا يكون معه منها إلا حديث النفس ، وليس ذلك من النية في شيء والمباحات كثيرة ، ولا يمكن إحصاء النيات فيها ، فقس بهذا الواحد ماعده . ولهذا قال بعض العارفين من السلف : إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكل ، وشربي ، ونومي ، ودخولي إلى الخلاء . وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى ، لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن ، وفراغ القلب من مهمات البدن ، فهو معين على الدين ، فمن قصده من الأكل التمتوى على العبادة ، ومن الوقاع تحصين دينه ، وتطبيب قلب أهله ، والتوصل به إلى ولد صالح يعبد الله تعالى بعده ، فتكثر به أمة محمد صلى الله

( ١ ) حديث أن لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة : أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه - الحديث : ولأبي داود وابن ماجة من حديث عبد الله بن سلام ماعلى أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته وفي أسناده اختلاف وفي الصحيحين أن عمر رأى حلة سيرة عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة

عليه وسلم، كان مطيعاً بأكله ونكاحه . وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع ، وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة . ولذلك ينبغي أن يحسن نيته منهما ضاع له مال ويقول : هو في سبيل الله ، وإذا بلغه إغتياب غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وستنقل إلى ديوانه حسناته ، ولينوي ذلك بسكوته عن الجواب ، ففي الخبر <sup>(١)</sup> « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَجَسِبُ فَيَبْطُلُ أَعْمَالُهُ لِدُخُولِ الْآفَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْجِبَ النَّارُ ثُمَّ يُنْشَرُ لَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الْجَنَّةَ فَيَتَعَجَّبُ وَيَقُولُ يَا رَبِّ هَذِهِ أَعْمَالُ مَا عَمِلْتُهَا فَكُفَّ قِيْقَالُ هَذِهِ أَعْمَالُ الَّذِينَ اغْتَابُوكَ وَآذُوكَ وَظَلَمُوكَ »

وفي الخبر <sup>(٢)</sup> « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُؤَاتِي الْقِيَامَةَ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ لَوْ خُلِصَتْ لَهُ لَدَخَلَ الْجَنَّةَ قِيَّاتِي وَقَدْ ظَلَمَ هَذَا وَشَتَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُقْتَصُّ لَهُذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَلِهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ حَسَنَةٌ فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ قَدْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ وَبَقِيَ طَائِلُونَ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَلْقُوا عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ ثُمَّ صُكُّوا لَهُ صَكَائِي إِلَى النَّارِ »

وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحق شيئا من حرركاتك ، فلا تجترز من غرورها وشرورها ، ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب ، فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد ، وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

وقال بعض السلف : كتبت كتاباً وأردت أن أتربه من حائط جاري ، فتخرجت ، ثم قلت تراب وما تراب ؟ فتربته ، فهتف بي هاتف : سيعلم من استشف تراب ما يلقى غدامن سوء الحساب . وصلى رجل مع الثوري ، فرآه مقلوب الثوب ، فعرّفه ، فمدّ يده ليصلحه ، ثم قبضها فلم يسوّه ، فسأله عن ذلك فقال : إني لبسته لله تعالى ، ولا أريد أن أسويه لغير الله . وقد قال الحسن : إن الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بيني وبينك الله ، فيقول : والله ما أعرفك ، فيقول : بلى أنت أخذت ابنة من حاطني ، وأخذت خيطاً من ثوبي

(١) حديث أن العبد ليحاسب فبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة - الحديث : وفيه هذه أعمال الذين اغتابوك - الحديث : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيب بن سعد البلوي عن حماد بن العبداء ليلقي كتابه يوم القيامة منتشراً فينظر فيه فيرقى حسنت لم يعملها فيقول هذا لي ولم يعملها فيقال بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر وفيه ابن لهيعة

(٢) حديث أن العبد لو أتى القيامة بحسنات أمثال الجبال وفيه ويأتي قد ظلم هذا وشتم هذا - الحديث : يهتدم مع اختلاف

فهذا وأمثاله من الأخبار قانع قلوب الخاشعين . فإن كنت من أولى العزم والنهي ، ولم تكن من المعتزين ، فانظر لنفسك الآن ، ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك ، وراقب أحوالك ، ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمل أو لا أنك لم تتحرك ؟ وماذا تقصد ؟ وما الذي تنال به من الدنيا ؟ وما الذي يفوتك من الآخرة ، وبماذا ترجع الدنيا على الآخرة ؟ فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين نامض عزمك وما خطر ببالك ، وإلا فأمسك ، ثم راقب أيضا قلبك في إمساكك وامتناعك ، فإن ترك الفعل فعل ، ولا بدله من نية صحيحة ، فلا ينبغي أن يكون الداعي هوى خفي لا يطلع عليه ، ولا يفرئك ظاهراً الأمور ، ومشهورات الخيرات ، وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاغترار ، فقد روي عن زكريا عليه السلام ، أنه كان يعمل في حائط بالطين ، وكان أجيراً لقوم ، فقد مواله رغبته ، إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده ، فدخل عليه قوم ، فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ ، فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده ، وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام ، فقال : إني أعمل لقوم بالأجرة وقدموا إليّ الرغيف لأتقوى به على عملهم ، فلما كلمتم معي لم يكفكم ولم يكفني ، وضعفت عن عملهم . فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله ، فإن ضعفه عن العمل نقص في فرض ، وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل ، ولا حكم للفضائل مع الفرائض

وقال بعضهم : دخلت على سفيان وهو يأكل . فما كلني حتى لمق أصابه ثم قال : لو لا أني أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه . وقال سفيان : من دعا رجلاً إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه ، فإن أجابه فأكل فعليه وزران ، وإن لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد بأحد الوزرين النفاق ، وبالثاني تمر يرضه أخاه لما يكره لو علمه . فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال ، فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية ، فإن لم تخضه النية توقف ، فإن النية لا تدخل تحت الاختيار

## بيان

أن النية غير داخلية تحت الاختيار

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » فيقول في نفسه عند تدريسه ، أو تجارته ، أو أكله : نويت أن أدرس لله ، أو أنجر لله ، أو آكل لله . ويظن ذلك نية . وهيهات ، فذلك حديث نفس ،

وحديث لسان وفكر ، أو انتقال من خاطر إلى خاطر ، والنية بمنزل من جميع ذلك . وإنما  
النية انبعاث النفس وتوجيهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها ، إنما عاجلا ، وإما آجلا .  
والميل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة ، بل ذلك كقول الشيعان :  
نوبت أن أشتهى الطعام وأميل إليه . أو قول الفارغ : نوبت أن أعشق فلانا وأحبه  
وأعظمه بقلبي . فذلك محال . بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء ، وميله  
إليه ، وتوجهه نحوه ، إلا باكتساب أسبابه . وذلك مما قد يقدر عليه ، وقد لا يقدر عليه .  
وإنما تنبث النفس إلى الفعل إجابة للفرض الباعث الموافق للنفس ، الملائم لها . ومالم يعتقد  
الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده . وذلك مما لا يقدر على  
اعتقاده في كل حين . وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بفرض  
شغل أقوى منه . وذلك لا يمكن في كل وقت . والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة  
بها تجتمع ، ويختلف ذلك بالأشخاص ، وبالأحوال ، وبالأعمال . فإذا غلبت شهوة النكاح مثلا ،  
ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد دينا ولا دنيا ، لا يمكنه أن يواقع على نية الولد ، بل لا يمكن إلا على نية  
قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث . ولا باعث إلا الشهوة ، فكيف ينوي الولد ! وإذا لم يغلب  
على قلبه <sup>(١)</sup> أن إقامة سنة النكاح اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليس يمكن أن ينوي  
بالنكاح اتباع السنة ، إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه . وهو حديث محض ليس بنية .

نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوى أولا إيمانه بالشرع ، ويقوى إيمانه بعظم  
ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدفع عن نفسه جميع المنفردات عن  
الولد من ثقل المؤنة ، وطول التعب ، وغیره ، فإذا فعل ذلك ربما انبثت من قلبه رغبة إلى  
تحصيل الولد للثواب ، فتحركه تلك الرغبة ، وتتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد . فإذا انتهزت  
القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب ، كان ناويا . فإن  
لم يكن كذلك ، فما يقدره في نفسه ، ويردده في قلبه من قصد الولد ، وسواس وهذيان

ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات ، إذ لم تحضرم النية . وكانوا يقولون .  
ليس تحضرننا فيه نية ، حتى أن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال : ليس  
تحضرنني نية . ونادى بعضهم امرأته ، وكان يسرح شعره ، أن هات المدري . فقالت : أجيء

( ١ ) حديث النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : تقدم في آداب النكاح



بالمرأة ؟ فسكت ساعة ثم قال : نعم . فقيل له في ذلك ، فقال : كان لى في المدرى نية ، ولم تحضر فى  
فى المرأة نية ، فتوقفت حتى هياها الله تعالى

ومات حماد بن سليمان ، وكان أحد علماء أهل الكوفة ، فقيل للثوري : ألا تشهد جنازته ؟  
فقال لو كان لى نية لفعلت . وكان أحدهم إذا سئل صلاماً من أعمال البر يقول : إن رزقنى الله تعالى نية فعلت  
وكان طاوس لا يحدث إلا بنية . وكان يسئل أن يحدث فلا يحدث ، ولا يسئل فيبتدىء .  
فقيل له في ذلك ، قال : أفتحبون أن أحدث بغير نية ؟ إذا حضرتنى نية فعلت

وحكى أن داود بن المحبر لما صنف كتاب العقل ، جاءه أحمد بن حنبل ، فطلبه منه ، فنظر فيه  
أحمد صفحا ورده ، فقال : مالك ؟ قال فيه أسانيد ضعاف . فقال له داود : أنا لم أخرج به على  
الأسانيد ، فأنظر فيه بعين الخبر ، إنما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت . قال أحمد : فرد به على  
حتى أنظر فيه بالعين التى نظرت . فأخذه ومكث عنده طويلاً ثم قال : جزاك الله خيراً ، فقد انتفعت به  
وقيل لطاوس : ادع لنا . فقال : حتى أجد له نية . وقال بعضهم : أنا فى طلب نية لعبادة  
رجل منذ شهر فما صحت لى بعد

وقال عيسى بن كثير : مشيت مع ميمون بن مهران ، فلما انتهى إلى باب داره انصرفت  
فقال ابنه : ألا تعرض عليه المشاء ؟ قال ليس من نيتى : وهذا لأن النية تتبع النظر ، فإذا  
تغير النظر تغيرت النية . وكانوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلا بنية ، لعلمهم بأن النية روح  
العمل ، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف ، وهو سبب مقت لا سبب قرب . وعلموا  
أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت ، بل هو انبعاث القلب يجرى مجرى الفتوح  
من الله تعالى ، فقد تيسر فى بعض الأوقات ، وقد تتعذر فى بعضها

نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه فى أكثر الأحوال إحضار النية  
للخيرات ، فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير ، فينبعث إلى التفاصيل غالباً . ومن مال قلبه  
إلى الدنيا وغلبت عليه ، لم يتيسر له ذلك ، بل لا يتيسر له فى الفرائض إلا بجهد جهيد ،  
وغايته أن يتذكر النار ، ويحذر نفسه عقابها ، أو نعيم الجنة ، ويرغب نفسه فيها ، وربما  
تلبعث له داعية ضعيفة ، فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيتته

وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والمعبودية ، فلا تيسر للراغب فى الدنيا

وهذه أعز النيات وأعلاها ، ويميز على بسيط الأرض من يفهمها فضلا عما يتعاطاها  
ونيات الناس في الطاعات أقسام . إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف ، فإنه  
يتقي النار . ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء ، وهو الرغبة في الجنة ، وهذا وإن كان  
نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتنظيمه لذاته وجلاله للأمر سواء ، فهو من جملة النيات  
الصحيحة ، لأنه ميل إلى الموعود في الآخرة ، وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا . وأغلب  
البواعث باعث الفرج والبطن ، وموضع قضاء وطرها الجنة . فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه  
وفرجه ، كالأجير السوء ، ودرجته درجة البله ، وإنه لينالها بعمله ، إذ أكثر أهل الجنة البله  
وأما عبادة ذوى الأبواب فإنها لا تتجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه ، حبا لجماله وجلاله  
وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف ، وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح  
والطموم في الجنة ، فإنهم لم يقصدوها ، بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون  
وجهه فقط ، وثواب الناس بقدر نياتهم . فلا جرم يتنعمون بالنظر إلى وجهه الكريم ،  
ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين ، كما يسخر المتنعم بالنظر إلى الحور العين ممن  
يتنعم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين ، بل أشد ، فإن التفاوت بين جمال حضرة  
الربوبية وجمال الحور العين ، أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور  
المصنوعة من الطين . بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان  
وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم ، يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبها وإفها لها ،  
وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء ، فعمى أكثر القلوب عن إبطار جمال الله وجلاله  
يضاهي عمى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فإنها لا تشعر به أصلا ، ولا تلتفت إليه . ولو كان  
لها عقل وذكرن لها لاستحسنن عقل من يلتفت إليهن ، ولا يزالون مختلفين ، كل حزب  
بما لديهم فرحون ، ولذلك خلقهم

حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام ، فقال له : كل الناس يطلبون مني  
الجنة إلا أبا يزيد ، فإنه يطلبني . ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال : يارب ، كيف الطريق إليك ؟  
فقال اترك نفسك وتعال إلي . ورؤي الشبل بعد موته في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال  
لم يطلبني على الدعاوى بالبرهان إلا على قول واحد ، قلت يوما أي خسارة أعظم من خسران الجنة ؟

فقال أي خسارة اعظم من خسران لقائي !

والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ، ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتبعمره العدول إلى غيرها . ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالاً وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء ، فإننا نقول : من حضرت له نية في مباح ، ولم تحضر في فضيلة ، فالمباح أولى ، وانتقلت الفضيلة إليه ، وصارت الفضيلة في حقه تقيصة ، لأن الأعمال بالنيات ، وذلك مثل العفو ، فإنه أفضل من الانتصار في الظلم ، وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو ، فيكون ذلك أفضل

ومثل أن يكون له نية في الأكل ، ولشرب ، والنوم ، ليربح نفسه ، ويتقوى على المبادات في المستقبل ، وليس تنبعت نيته في الحالين للصوم ، والصلاة ، فالأكل ، والنوم هو الأفضل له . بل لومل المباداة لمواظبته عليها ، وسكن نشاطه ، وضعفت رغبته ، وعلم أنه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه ، فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء : إني لأستجم نفسي بشيء من اللهو ، فيكون ذلك عوناً لي على الحق . وقال علي كرم الله وجهه . روتحوا القلوب فإنها إذا كرهت عميت وهذه دقائق لا يدركها إلا ساهرة العلماء دون الحشوية منهم . بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ، ويستبعده القاصر في الطب ، وإنما ينبغي به أن يعيد أوقاته ليحتمل المعالجة بالصد . والحاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد ينزل عن الرخ والفرس عجائاً ، ليتوصل بذلك إلى الغلبة . والضعيف البصيرة قد يضحك به ، ويتعجب منه ، وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ، ويوليه دبره ، حيلة منه ليستجره إلى مضيق ، فيكر عليه فيقهره

فكذلك سلوك طريق الله تعالى ، كله قتال مع الشيطان ، ومعالجة للقلب ، والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الخيل يستبدها الضعفاء ، فلا ينبغي للمريد أن يضمم إنكاراً على ما يراه من شيخه ، ولا للمتعلم أن يعترض على أستاذه ، بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته ، وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمه لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما ، وينال درجتهم ، ومن الله حسن التوفيق

## الباب الثاني

في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

### فضيلة الإخلاص

قال الله تعالى ( وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ <sup>(١)</sup> ) وقال ( إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ <sup>(٣)</sup> ) وقال تعالى ( فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا <sup>(٤)</sup> ) نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمده عليه

وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « ثَلَاثٌ لَا يَغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ رَجُلٍ مُسْلِمٍ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ » وعن <sup>(٢)</sup> مصعب بن سعد ، عن أبيه قال . ظن أبي أن له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا نَصَرَ اللَّهُ مَنْ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ يَضَعُفَانَهَا وَدَعْوَتَهُمْ وَإِخْلَاصِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ » وعن <sup>(٣)</sup> الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى الْإِخْلَاصُ سِرِّي مِنْ سِرِّي اسْتَوْذَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عِبَادِي » وقال علي بن أبي طالب كرم

( الباب الثاني في الإخلاص )

( ١ ) حديث ثلاث لا يغفل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله : الترمذی وصححه من حديث النعمان بن بشير ( ٢ ) حديث مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن أنه له فضلا على من دونه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنا نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم رواه النسائي وهو عند البخاري بلفظ هل تنصرون وترزقون الابطغافكم

( ٣ ) حديث الحسن مرسل يقول الله تعالى الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي ورواه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلا يقول كل واحد من رواه سأل فلانا عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيني عن عبد الواحد بن زيد عن الحسين عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف

الله وجهه : لا تهتموا لقلة العمل ، واهتموا للقبول ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> قال لمعاذ بن جبل « أخلص العمل يحزك منه القليل »

وقال عليه السلام <sup>(٢)</sup> « مامن عبدي يخلص لله العمل أربعين يوماً إلا ظهرت بينا بين الحكمة من قلبه على لسانه » وقال عليه السلام <sup>(٣)</sup> « أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول يارب كنت أقوم به آتاه الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك ورجل آتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فإذا صنعت فيقول يارب كنت أتصدق به آتاه الليل وأطراف الذين فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك ورجل قيل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول يارب أمرت بالجهاد ففعلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك » قال أبو هريرة . ثم خط رسول الله صلى الله عليه وسلم على نخذه وقال « يا أبا هريرة أولئك أول خلق تسعرون نار جهنم بهم يوم القيامة » فدخل راوى هذا الحديث على معاوية ، وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال : صدق الله إذ قال ( من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها <sup>(٤)</sup> ) الآية وفي الاسرائيليات أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا ، فجاءه قوم فقالوا : إن ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى . فغضب لذلك ، وأخذ فأسه على عاتقه ، وقصد الشجرة ليقطعها . فاستقبله إبليس في صورة شيخ ، فقال : أين تريد رحمك الله ؟ قال أريد أن أقطع هذه الشجرة : قال وما أنت وذاك ؟ تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لعباد ذلك

( ١ ) حديث انه قال لمعاذ أخلص العمل يحزك منه القليل : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث

معاذ واسناده منقطع

( ٢ ) حديث مامن عبد يخلص لله أربعين يوما : ابن عسدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات

عن أبي موسى وقد تقدم

( ٣ ) حديث أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم . الحديث : وقد تقدم

فقال: إن هذا من عبادتي . قال: فإني لا أتركك أن تقطعها . فآخذه العابد فطرحه إلى الأرض ، وقعد على صدره ، فقال له إبليس : أطلقني حتى أكلك . فقام عنه ، فقال له إبليس : يا هذا إن الله تعالى قد أسخطك عنك هذا ولم يفرضه عليك ، وما تعبدها أنت ، وما عليك من غيرك والله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ، ولو شاء لبعثهم إلى أهلها ، وأمرهم بقطعها . فقال العابد : لا بد لي من قطعها . فنبذه للقتال ، فعلبه العابد وصرعه ، وقعد على صدره ، فعجز إبليس ، فقال له : هل لك في أمر فصل بيني وبينك ، وهو خير لك وأنفع ؟ قال وما هو ؟ قال أطلقني حتى أقول لك . فأطلقه ، فقال إبليس . أنت رجل فقير لاشيء لك ، إنما أنت كل على الناس يعولونك ، ولعلك تحب أن تفضل على إخوانك ، وتواسى جيرانك ، وتشبع وتستغنى عن الناس ، قال نعم . قال فارجع عن هذا الأمر ، ولك علي أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين ، إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك ، وتصدقت على إخوانك ، فيكون ذلك أنفع لك وللمسامين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها . ولا يضرهم قطعها شيئا ، ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها . فتفكر العابد فيما قال ، وقال صدق الشيخ ، لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ، ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها ، وما ذكره أكثر منفعة . فعاهده على الوفاء بذلك ، وحلف له . فرجع العابد إلى متعبده فبات ، فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه ، فأخذهما ، وكذلك الغد ، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا ، فغضب وأخذ فأسه على عاتقه ، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له إلى أين ؟ قال أقطع تلك الشجرة . فقال كذبت والله ، ما أنت بقادر على ذلك ، ولا سبيل لك إليها . قال فتناول العابد ليفعل به كما فعل أول مرة ، فقال هيهات ، فأخذه إبليس وصرعه ، فإذا هو كالمصفور بين رجله ، وقعد إبليس على صدره وقال . لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك . فنظر العابد ، فإذا لاطاقة له به . قال يا هذا غلبتني فخل عني ، وأخبرني كيف غلبتك أولا وغلبتني الآن . فقال لأنك غضبت أول مرة لله ، وكانت نيتك الآخرة ، فسخرني الله لك . وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا ، فصرعتك وهذه الحكاية تصديق قوله تعالى ( إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ )<sup>(١)</sup> ) إذ لا يتخلص

العبد من الشيطان إلا بالإخلاص . ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول : يا نفس أخلصي تتخلصي . وقال يعقوب المكفوف : الخلاص من يكتم حسنه كما يكتم سيئاته ؟ وقال سليمان : طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، إلى أبي موسى الأشعري : من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس . وكتب بعض الأولياء إلى أخ له : أخلص النية في أعمالك ، بكفك القليل من العمل . وقال أيوب السخيتاني : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال . وكان مطرف يقول : من صفا صني له ، ومن خلط خلط عليه ورؤي بعضهم في المنام فقيل له : كيف وجدت أعمالك ؟ فقال : كل شيء عملته لله وجدته ، حتى حسبة رمان لقطتها من طريق ، وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات . وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيت في كفة السيئات ، وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فارأيت له ثوبا فقلت موت سنور في كفة الحسنات ، وموت حمار ليس فيها ! فقيل لي إنه قد روجّه حيث بعث به ، فإنه لما قيل لك قدماء ، قلت : في لعنة الله ، فبطل أجره فيه ، ولو قلت : في سبيل الله ، لوجدته في حسناتك ، وفي رواية ، قال : وكنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرم إلي ، فوجدت ذلك لأعلي ولاي ، قال سفيان لما سمع هذا ما أحسن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه ، وقال يحيى بن معاذ : الإخلاص يميز العمل من العيوب ، كتمييز اللبن من الفرث ، والدم ، وقيل . كان رجل يخرج في زى النساء ، ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء ، من عرس أو مأتم ، فاتفق أن حضر يوما موضعا فيه جمع للنساء ، فسرقت درة ، فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفتش ، فكانوا يفتشون واحدة واحدة ، حتى بلغت الذوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه ، فدعا الله تعالى بالإخلاص ، وقال : إن نجوت من هذه الفضيحة لأعود إلى مثل هذا ، فوجدت الدرة مع تلك المرأة ، فصاحوا أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة وقال بعض الصوفية : كنت قائما مع أبي عبيد النستري وهو يحرق أرضه بمد العصر من يوم عرفة ، فرّ به بعض إخوانه من الأبدال ، فسار به بشيء ، فقال أبو عبيد . لا ه فر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني ، فقلت لأبي عبيد . ما قال لك ؟ فقال . سألتني أن أحج معه ، قلت . لا ، قلت ، فهلا فعلت ، قال ليس لي في الحج نية ، وقد نويت

أَن أُنعم هذه الأرض العسيرة فأخاف أَن حجببت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى ، لأنى  
أدخل فى حمل الله شيئاً غيره ، فيكون ماأنا فيه أعظم عندى من سبعين حجة ، ويروى عن  
بعضهم ، قال . غزوت فى البحر فعرض بعضنا مخلاة ، فقلت . أشتريها ، فأنتفع بها فى غزوى  
فإذا دخلت مدينة كذا بعثها فربحت فيها ، فاشتريتها ، فرأيت تلك الليلة فى النوم كأن  
شخصين قد نزلا من السماء ، فقال أحدهما لصاحبه . اكتب الفزاة فأملى عليه . خرج  
فلان متنزهاً ، وفلان مرأياً ، وفلان تاجراً ، وفلان فى سبيل الله ، ثم نظر إالى ، وقال .  
اكتب فلان خرج تاجراً ، فقلت . الله فى أمرى ، ماخرجت أتجر ، وما معى تجارة  
أتجر فيها ، ما خرجت إلا للغزو ، فقال ياشيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح  
فيها فيكيت ، وقلت . لا تكتبونى تاجراً فنظر إالى صاحبه ، وقال . ماترى فقال : اكتب  
( خرج فلان فازياً إلا أنه اشترى فى طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى  
وقال سري السقطى رحمه الله تعالى : لأن تصلي ركعتين فى خلاء تخلصهما ، خير لك من  
أن تكتب سبعين حديثاً أو سبعمائة بعلو ، وقال بعضهم : فى إخلاص ساعة نجات الأبد ، ولكن  
الإخلاص عزيز ، ويقال : العلم بذر ، والعمل زرع ، وماؤه الإخلاص ، وقال بعضهم .  
إذا أبغض الله عبداً أعطاه ثلاثاً ، ومنعه ثلاثاً ، أعطاه صحبة الصالحين ، ومنعه القبول منهم  
وأعطاه الأعمال الصالحة ، ومنعه الإخلاص فيها ، وأعطاه الحكمة ، ومنعه الصدق فيها ،  
وقال السوسى : مراد الله من عمل الخلائق الإخلاص فقط ، وقال الجنيد . إن لله عبداً  
عقلوا ، فلما عقلوا عملوا ، فلما عملوا أخلصوا ، فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع  
وقال محمد بن سعيد المروزى . الأمر كله يرجع إلى أصلين ، فعل منه بك ، وفعل منك له ،  
ففرضى ما فعل ، وتخلص فيما تعمل ، فإذا أنت قد سعدت بهذين وفزت فى الدارين

## بيان

### حقيقة الإخلاص

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصاً  
ويسمى الفعل المصفى المخلص إخلاصاً ، قال الله تعالى ( مَنْ يَتَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبِئْسَ خَالِصاً



سَائِفًا لِلشَّارِبِينَ<sup>(١)</sup> ) فَإِنَّمَا خُلُوصُ اللَّبَنِ أَنْ لَا يَكُونَ فِيهِ شُوبٌ مِنَ الدَّمِ وَالْفَرْثِ ، وَمِنْ  
 كُلِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَزَجَّ بِهِ . وَالْإِخْلَاصُ بِضَادَهُ الْإِشْرَافُ ، فَمَنْ لَيْسَ مُتَخَالِصًا فَهُوَ مُشْرِكٌ ، إِلَّا  
 أَنْ الشَّرْكَ دَرَجَاتٌ ، فَلَا إِخْلَاصَ فِي التَّوْحِيدِ بِضَادَةِ الشَّرْكِ ، فِي الْإِلَهِيَّةِ ، وَالشَّرْكَ مِنْهُ  
 خَفِيٌّ ، وَمِنْهُ جَلِيٌّ ، وَكَذَا الْإِخْلَاصُ ، وَالْإِخْلَاصُ وَضْدُهُ يَتَوَارَدَانِ عَلَى الْقَلْبِ ، فَحُلُّهُ الْقَلْبَ  
 وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْقَصُودِ وَالنِّيَّاتِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا حَقِيقَةَ النِّيَّةِ ، وَأَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى إِبَابَةِ  
 الْبَوَاعِثِ ، فَهِيَ كَانِ الْبَاعِثُ وَاحِدًا عَلَى التَّجَرُّدِ سَمِيَ الْفِعْلُ الصَّادِرُ عَنْهُ إِخْلَاصًا ، بِالْإِضَافَةِ  
 إِلَى الْمُنَوِيِّ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ وَغَرَضُهُ مَحْضُ الرِّيَاءِ فَهُوَ مُخْلِصٌ ، وَمَنْ كَانَ غَرَضُهُ مَحْضُ التَّقَرُّبِ  
 إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ مُخْلِصٌ ، وَلَكِنْ الْعَادَةُ جَارِيَةٌ بِتَخْصِيصِ اسْمِ الْإِخْلَاصِ بِتَجْرِيدِهِ تَصَدَّقَ التَّقَرُّبُ  
 إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْ جَمِيعِ الشَّوَابِثِ ، كَمَا أَنَّ الْإِحْلَافَ عِبَارَةٌ عَنِ الْمِيلِ ، وَلَكِنْ خَصَصْتَهُ الْمَادَّةَ  
 بِالْمِيلِ عَنِ الْحَقِّ ، وَمَنْ كَانَ بَاعِثُهُ مَجْرَدُ الرِّيَاءِ فَهُوَ مُعْرِضٌ لِلذَّلَالَةِ ، وَلَسْنَا نَتَكَلَّمُ فِيهِ ، إِذْ قَدْ  
 ذَكَرْنَا مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ فِي كِتَابِ الرِّيَاءِ مِنْ رُبْعِ الْمَهْلَكَاتِ ، وَأَقْلَ أُمُورِهِ مَا وَرَدَ فِي الْكَلْبِ ، مِنْ  
<sup>(٢)</sup> أَنَّ الْمَرَاتِيَّ يَدْعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَرْبَعِ أَسْمَاءَ ، يَامْرَأَتِي ، يَا مُنَادِعَ ، يَا مُشْرَكَ ، يَا كَافِرَ ، وَإِنَّمَا  
 نَتَكَلَّمُ الْآنَ فِيمَنْ أَنْبَعَثَ لِقَصْدِ التَّقَرُّبِ ، وَلَكِنْ أَمْتَزَجَ بِهَذَا الْبَاعِثُ بَاعِثَ آخَرَ ، إِمَّا مِنْ  
 الرِّيَاءِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ حِظْوِظِ النَّفْسِ ، وَمِثَالُ ذَلِكَ أَنْ يَصُومَ لِيَنْتَفِعَ بِالْهَيْئَةِ الْحَاصِلَةِ بِالصَّوْمِ  
 مَعَ قَصْدِ التَّقَرُّبِ ، أَوْ بِمُتَقِّ عِبَادَةٍ لِيَتَخَلَّصَ مِنْ مُؤْتَمَتِهِ وَسُوءِ خُلُقِهِ ، أَوْ بِحُجِّ لِيَصِحَّ مَزَاجُهُ  
 بِمُحَرَكَةِ السَّفَرِ ، أَوْ يَتَخَلَّصَ مِنْ شَرِّ يَمْرُضُ لَهُ فِي بَلَدِهِ ، أَوْ لِيَهْرَبَ عَنْ عَدُوِّ لَهُ فِي مَنْزِلِهِ ،  
 أَوْ لِيَتَبَرَّمَ بِأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ ، أَوْ بِشُغْلٍ هُوَ فِيهِ ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَرِيحَ مِنْهُ أَيَّامًا ، أَوْ لِيَنْزُولَ لِيَمَارِسَ الْحَرْبَ  
 وَيَتَعَلَّمَ أَسْبَابَهُ وَيَقْدِرَ بِهِ عَلَى تَهْيِئَةِ الْعَسَاكِرِ وَجَرِّهَا ، أَوْ يَصَلِّيَ بِاللَّيْلِ وَلَهُ غَرَضٌ فِي دَفْعِ  
 النَّعَاسِ عَنْ نَفْسِهِ بِهَ لِيَرَأَى أَهْلَهُ ، أَوْ رَحْلَهُ ، أَوْ يَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيَسْهَلَ عَلَيْهِ طَلَبُ مَا يَكْفِيهِ مِنَ  
 الْمَالِ ، أَوْ لِيَكُونَ عَزِيزًا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ ، أَوْ لِيَكُونَ عَقَّارَهُ أَوْ مَالَهُ مَحْرُوسًا بِزَعْمِ الْعِلْمِ عَنِ الْأَطْمَاعِ  
 أَوْ لِيَشْتَغَلَ بِالدَّرْسِ وَالْوَعْظِ لِيَتَخَلَّصَ عَنْ كَرْبِ الصَّمْتِ وَيَتَفَرَّجَ بِلَذَّةِ الْحَدِيثِ ، أَوْ تَكْفُلَ  
 بِمُخْدَمَةِ الْعُلَمَاءِ أَوِ الصُّوفِيَّةِ لَتَكُونَ حَرَمَتُهُ وَافِرَةً عِنْدَهُمْ وَعِنْدَ النَّاسِ ، أَوْ لِيُنَالَ بِهِ رَفَقًا فِي الدُّنْيَا

(١) حدث ابن المراتي يدعي يوم القيامة يامراتي يا منادع - الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والاحلاص وقد تقدم

أو كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه ، أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء أو توشأ ليتنظف ، أو يتبرد ، أو اغتسل لتطيب رائحته ، أو روى الحديث ليعرف بملو الإسناد ، أو اعتكف في المسجد ليخف كراء المسكن ، أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبع الطعام ، أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها ، أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه ، أو يعود مريضا ليعاد إذا مرض ، أو يشيع جنازة ليشيع جنازة أهله ، أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار ، فهما كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ، ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه ، بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص ، وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتنطرق إليه الشرك ، وقد قال تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشركه وبالجمله كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ، ويميل إليه القلب ، قل أم كثير إذا تطرق إلى العمل تسكدر به صفوه ، و زال به إخلاصه ، والإنسان مرتبط في حظوظه متمسك في شهواته ، فلما ينفك فعل من أفعاله ، وعبادة من عباداته ، عن حظوظ وأغراض حاجلة من هذه الأجناس ، فلذلك قيل . من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجما ، وذلك لئلا يخلو الإخلاص ، وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب ، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى ، وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يحنى شدة الأمر على صاحبه فيها ، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ، ثم هذه الشوائب ، إما أن تكون في رتبة الموافقة ، أو في رتبة المشاركة ، أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية

وبالجمله فلما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني ، أو أقوى منه ، أو أضعف ، ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره ، وإنما الإخلاص تخلص العمل عن هذه الشوائب كلها ، قليلا وكثيرها ، حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواء ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستمتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار ، حتى لا يحب الأكل والشرب أيضا ، بل تكون رغبته فيه كرهته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلة ، فلا يشتهي الطعام لأنه طعام ، بل لأنه يقويه على عبادة الله تعالى ،

وَيَتَمَنَّى أَنْ لَوْ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ، حَتَّى لَا يَحْتَاجَ إِلَى الْإِسْكَالِ ، فَلَا يَتَّقِي فِي قَلْبِهِ سَخَطَ مَنْ أَلْفَدَّ رُؤْيَا الزَّالِمَةِ عَلَى الضَّرُورَةِ ، وَيَكُونُ قَدْرُ الضَّرُورَةِ مَطْلُوبًا عِنْدَهُ ، لِأَنَّهُ ضَرُورَةٌ دِينِيَّةٌ فَلَا يَكُونُ لَهُمْ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، فَمَثَلُ هَذَا الشَّخْصِ لَوْ أَكَلَ أَوْ شَرِبَ ، أَوْ قَضَى حَاجَتَهُ ، كَانَتْ خَالِصَ الْعَمَلِ بِصِحِّحِ النِّيَّةِ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ ، فَأَمَّا مِثْلًا حَتَّى يَرِيحَ نَفْسَهُ لِيَتَّقِيَ عَلَى الْعِبَادَةِ بَعْدَهُ تَأَنُّوْمُهُ عِبَادَةً ، وَكَانَ لَهُ دَرَجَةُ الْخُلَاصَةِ فِيهِ ، وَمِنْ أَيْسَرِ كَذَلِكَ قِيَادِ الْإِخْلَاصِ فِي الْأَعْمَالِ مَسْهُودٌ عَلَيْهِ إِلَّا عَلَى النَّدْوَرِ ، وَكَأَنَّ مِنْ غَايِبٍ عَلَيْهِ حُبُّ اللَّهِ وَحُبُّ الْآخِرَةِ فَكَانَتْ حَرَكَاتُهُ الْأَتْيَادِيَّةَ صِفَةً هَمَّهُ وَصَارَتْ إِخْلَاصًا ، فَالَّذِي يَغْلِبُ عَلَيْهِ نَفْسُهُ الدُّنْيَا وَالْأَلْوَرُ وَالرِّيَاسَةُ وَبِالْجُلَّةِ غَيْرُ اللَّهِ فَقَدْ اكْتَسَبَتْ جَمِيعَ حَرَكَاتِهِ تِلْكَ الْعَقَّةَ ، فَلَا تَسْلَمُ لَهُ عِبَادَاتُهُ مِنْ صَوْمٍ وَصَلَاةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَّا نَادِرًا فَإِذَا عُلِجَ الْإِخْلَاصُ كَسَرَ حُظْلُوظَ النَّفْسِ ، وَقَطَعَ الطَّمْعَ عَنِ الدُّنْيَا ، وَالتَّجَرَّدَ الْآخِرَةَ بِمِثْمٍ يَغْلِبُ ذَلِكَ عَلَى الْقَلْبِ ، فَإِذَا ذُكِرَ يَتَسَرَّ الْإِخْلَاصُ . وَكَمْ مِنْ أَعْمَالٍ يَتَسَبَّبُ الْإِنْسَانُ فِيهَا وَيُظَنُّ أَنَّهَا خَالِصَةٌ لَوَجْهِ اللَّهِ ، وَيَكُونُ فِيهَا مَخْرُورًا ، لِأَنَّهُ لَا يَرَى وَجْهَ الْآلَةِ فِيهَا ، كَمَا حَكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ : قَضَيْتُ صَلَاةَ ثَلَاثِينَ سَنَةً كُنْتُ صَلَّيْتُهَا فِي الْمَسْجِدِ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ ، لِأَنِّي تَأَخَّرْتُ يَوْمَ الْمَذَرِ فَصَلَّيْتُ فِي الصَّفِّ الثَّانِي ، فَأَعْتَرَنِي خُجْلَةٌ مِنَ النَّاسِ حَيْثُ رَأَوْنِي فِي الصَّفِّ الثَّانِي ، فَمَرَفْتُ أَنْ نَظُرَ النَّاسُ إِلَيَّ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ كَانُ مَسْرُورًا ، وَسَبَبُ امْتِرَاحَةٍ تَأْتِي ، مِنْ حَيْثُ لَا أَشْعُرُ ، وَهَذَا دَقِيقٌ غَامِضٌ فَلَمَّا تَسَلَّمَ الْأَعْمَالُ مِنْ أَمْثَالِهِ ، وَقَلَ مَنْ يَتَنَبَّهُ لَهُ إِلَّا مَنْ وَقَّعَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالْغَافِلُونَ عَنْهُ يَرُونَ حَسَنَاتِهِمْ كُلَّهَا فِي الْآخِرَةِ سَيِّئَاتٍ وَمِمَّا الْمَرَادُونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ( وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا <sup>(١)</sup> ) وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى ( قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا <sup>(٢)</sup> ) وَأَشَدُّ اخْتِلَافٍ تَعْرِضًا لِهَذِهِ النُّقْطَةِ الْعُلَمَاءُ فَإِنْ أَلْبَاعَتْ لِلْأَكْثَرِينَ عَلَى نَشْرِ الْعِلْمِ لِنَدَةِ الْاِسْتِيلَاءِ وَالْفَرْحِ بِالْاِسْتِثْبَاعِ ، وَالْاِسْتِثْبَارِ بِالْمَدِّ وَالنَّشَاءِ ، وَالشَّيْطَانِ يَلْبَسُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، وَيَقُولُ : غَرَبَكُمْ نَشْرُ دِينَ اللَّهِ ، وَالنُّضَالُ عَنِ الشَّرْعِ الَّذِي شَرَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَتَرَى الْوَاعِظَ يَنْصَبُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِنُصْبَةِ الْخَلْقِ ،

ووعظناه للمسلمانيين ، ويهتج بقبول الناس قوله وإنبائهم عليه ، وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظما ، وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك ونجمه ، ولو كان بأشبه الدين لشكر الله تعالى ، إذ كشفه الله تعالى هذا المهم بغيره ، ثم الشيطان مع ذلك لا يخفيه ، ويقول : إنما غمك لا تقطاع الثواب عنك ، لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك ، إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت الثواب واغتمامك لقوات الثواب محمود ، ولا يارى المسكين أن انقياده للحق ، وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا ، وأعود عليه في الآخرة من انفراد

وليت شعري لو اغمم عمر رضي الله عنه بتبصدي أبي بكر رضي الله تعالى عنه للإمامة أكان غمه محمودا أو مذموما ؟ ولا يسرنيب ذودين أن لو كان ذلك لكان مذموما ، لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصاح منه ، أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق ، مع ما فيه من الثواب الجزيل ، بل فرح عمر رضي الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر ، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك ، وقد يتخضع بعض أهل العلم بفرور الشيطان ، فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به . وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة ، والامتحان تحض الجهل والغرور ، فإن النفس سهلة القياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا داهم الأمر تميز ورجع ، ولم يف بالوعد وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكاييد الشيطان ، والنفس ، وطال اشتغاله بامتحانها . فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق ، يغرق فيه الجميع ، إلا الشاذ النادر والفرد الفذ ، وهو المستثنى في قوله تعالى ( إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ <sup>(١)</sup> ) فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق ، وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر .

## بيان

أقوال الشيوخ في الإخلاص

قال السوسى : الإخلاص فقد رؤية الإخلاص ، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص ، وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل ، فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب ، وهو من جملة الآفات ، والخالص ماصفا

عن جميع الآفات، فهذا تعرض لآفة واحدة . وقال سهل رحمه الله تعالى : الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة ، وهذه كلمة جامعة محيطه بالغرض ، وفي معناه قول ابراهيم بن أدهم . الإخلاص صدق النية مع الله تعالى ، وقيل لسهل أي شيء أشد على النفس ؟ فقال : الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب ، وقال رويم : الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين ، وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجال وعاجلا ، والمابد لأجل تنعم النفس بالشهوات في الجنة معلول ، بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى ، وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين ، وهو الإخلاص المطلق ، فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار ، فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة ، وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج ، وإنما المطلوب الحق لذوى الأبواب وجه الله تعالى فقط ، وهو القائل لا يتحرك الإنسان إلا لحظ والبراءة من الحظوظ صفة الإلهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ ، وقال هذا من صفات الإلهية ، وما ذكره حق ، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط ، فأما التلذذ بمجرد المعرفة ، والمناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء ، وهذا لا يعده الناس حظا بل يتمتعون منه ، وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة ، وملازمة الشهود ، بالحضرة الإلهية سرا وجهرا جميع نعم الجنة لاستحققوه ، ولم يلتفتوا إليه فحركاتهم لحظ ، وطاعتهم لحظ ، ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره .

وقال أبو عثمان : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط ، وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط ، ولذلك قال بعضهم : الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ، ولا ملك فيكتبه فإنه إشارة إلى مجرد الإخفاء ، وقد قيل : الإخلاص ما استتر عن الخلائق وصفا عن العلائق ، وهذا أجمع للمقاصد ، وقال المحاسبي : الإخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب ، وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء ، وكذلك قول الخواص . من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية ، وقال الحواريون لعيسى عليه السلام ما الخالص من الأعمال ؟ فقال : الذي يعمل لله تعالى لا يجب أن يحمد عليه أحد ، وهذا أيضا

تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للإخلاص، وقال الجنيد: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات، وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما، وقيل: الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها.

وهذا هو البيان الكامل، والأقارب في هذا كثيرة، ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة، وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخرين صل الله عليه وسلم، <sup>(١)</sup> وإسئل عن الإخلاص فقال « أَنْ تَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ تَسْتَقِيمَ كَمَا أُمِرْتَ » أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك؛ وتستقيم في عبادته، كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ماسوى الله عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقا.

## بيان

### درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص، بعضها جلي وبعضها خفي، وبعضها ضعيف مع الجلاء، وبعضها قوي مع الخفاء، ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال، وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء، فلنذكر منه مثالا فنقول: الشيطان يدخل الآفة على المصلي مهما كان مخلصا في صلاته، ثم نظر إليه جماعة، أو دخل عليه داخل، فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح، ولا يزدريك، ولا يتأبك، فتخشع جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته، وهذا هو الرياء الظاهر، ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين.

الدرجة الثانية، يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذر، فصار لا يطيع الشيطان فيها، ولا يلتفت إليه، ويستمر في صلاته كما كان، فيأتيه في معرض الخير،

(١) حديث سئل عن الإخلاص فقال أن تقول ربى الله ثم تستقيم كما أمرت: لم أره بهذا اللفظ للترمذى وصححه. وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى قلت يا رسول الله حدثنى بأمر أعظم به قال قل ربى الله ثم استقم وهو عند مسلم بلفظ قل لى فى الاسلام قولاً لأسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم.

ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ، ومنظور إليك ، وما تفعله يؤثر عنك ، ويتأسي بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت ، وعليك الوزر إن أسأت ، فأحسن عملك بين يديه ، فمعاذ يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة ، وهذا أغمض من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول ، وهو أيضا عين الرياء ، ومبطل للإخلاص ، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه ، فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة . ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه ، فهذا محض التلبس ، بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه ، فانتشر نوره إلى غيره ، فيكون له ثواب عليه ، فأما هذا فحض النفاق والتلبس ، فن اقتدى به أثيب عليه ، وأما هو فيطالب بتلبسه . ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفا به

الدرجة الثالثة : وهي أدق مما قبلها أن يحرب العبد نفسه في ذلك ، ويتنبه لكيد الشيطان ؛ ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمجاهدة للغير محض الرياء ، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملاء ، ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخضع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته ، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملاء ، وبصلي في الملاء أيضا كذلك ، فهذا أيضا من الرياء الغامض ، لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسين في الملاء فلا يكون قد فرق بينها ، فالتفاتة في الخلوة والملاء إلى الخلق ، بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته . ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة ، فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ، ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين ، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته في الخلوة والملاء ، وهيئات بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلوة والملاء جميعا ، وهذا من شخص مشغول المهم بالخلق في الملاء والخلوة جميعا ، وهذا من المكاييد الخفية للشيطان

الدرجة الرابعة : وهي أدق وأخفى ، أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لأجلهم ، فإنه قد عرف أنه تفتن لذلك فيقول له الشيطان تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ، ومن أنت واقف بين يديه ، واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه ، وتخشع جوارحه ، ويظن أن ذلك عين الإخلاص ،

وهو عين المكبر والحداع ، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله ليكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ، ولما كان لا يختص بحضورها بحالة حضور غيره ، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة ، كما يألفه في الملأ ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر ، كما لا يكون حضور البهيمة سبباً ، فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو يعد خارج عن صفو الإخلاص ، مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء ، وهذا <sup>(١)</sup> الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دينب التملة السوداء في الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء ، كما ورد به الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره ، وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته ، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمسين لعبادة الله تعالى ، لا ينفصل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات ، حتى في كحل العين ، وقص الشارب ، وطيب يوم الجمعة ، ولبس الثياب ، فإن هذه سنن في أوقات مخصوصة ، وللنفس فيها حظ خفي ، لا ارتباط نظر الخلق بها ولا استئناس الطبع بها ، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ، ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تتركها ، ويكون انبعاث القلب باطننا لها ، لأجل تلك الشهوة الخفية ، أو مشوبة بها شوباً يخرج عن حظ الإخلاص بسببه ، وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص ، بل من يتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع ، فالشيطان يرغب فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف

وقد يكون المحرك الخفي في سره هو الأتس بحسن صورة المسجد ، واستراحة الطبع إليه ، ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين ، أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع ، وكدورات النفس ، ومبطل حقيقة الإخلاص ، لعمرى الله الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة ، فمنها ما يغلب ، ومنها ما يقل لسكن يسهل دركه ، ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير ، وغش القاب ، ودغل الشيطان وخبت النفس ، أنغمض من ذلك وأدق كثيراً ، ولهذا قيل : ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل ، ولما ريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال ، حتى يخلص عنها ، فإن الجاهل نظره

(١) حديث الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دينب التملة السوداء في الظلمة الظلماء على الصخرة الصماء :

تقدم في العلم وفي ذم الجاه والرياء



إلى ظاهر العبادة واغتراره بها، كنظر السوادي إلى حمرة الدينار الموه واستدارته، وهو منشوش زائف في نفسه، وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير، خير من دينار يرتضيه الغر العجى فكذا يتفلوت أمر العبادات، بل أشد وأعظم ومداخل الآفات المتطرفة إلى فنون للأعمال، لا يمكن حصرها وإحصاؤها، فلينتفع بما ذكرناه مثالا، والفتن بغنيه القليل عن الكثير، والبليد لا يئنيه التطويل أيضا، فلا فائدة في التفصيل

## بيان

حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى، بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس، فقد اختلف الناس في إن ذلك هل يقتضى ثوابا، أم يقتضى عقابا، أم لا يقتضى شيئا أصلا، فلا يكون له ولا عليه، وأما الذى لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا، وهو سبب المقت والعقاب، وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب، وإنما النظر في المشوب وظاهر<sup>(١)</sup> الأخبار تدل على أنه لا ثواب له، وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه، والذى ينقدح لنا فيه، والعلم عند الله، أن ينظر إلى قدر قوة الباعث، فإن كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا، وصار العمل لاله ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع، وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب، نعم العقاب الذى فيه تخف من عقاب العمل الذى مجرد للرياء، ولم يمتزج به شائبة التقرب، وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر. فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني، وهذا لقوله تعالى (مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ<sup>(٢)</sup>)

(١) الأخبار التى يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له قال وليس تخالو الأخبار عن تعارض: أبو داود من حديث أبي هريرة أن رجلا قال يا رسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من عرض الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجر له - الحديث - والسنائي من حديث أبي أمامة بأسناد حسن أرايت رجلا غزا يبتغي الأجر والذكر ماله فقال لا شيء له فأعاده ثلاث مرات يقول لا شيء له ثم قال إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه والترمذي وقال غريب وابن جبان من حديث أبي هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أهله قال له أجران أجر السر وأجر العلانية وقد تقدم في ذم الجاه والرياء

وَقُولُهُ تَعَالَى ( إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا <sup>(١)</sup> ) فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَضِيعَ قَصْدُ الْخَيْرِ ، بَلْ إِنْ كَانَ غَالِبًا عَلَى قَصْدِ الرِّيَاءِ حَبَطَ مِنْهُ الْقَدَرُ الَّذِي يَسَاوِيهِ وَبَقِيَتْ زِيَادَةٌ ، وَإِنْ كَانَ مَغْلُوبًا سَقَطَ بِسَبَبِهِ شَيْءٌ مِنْ عَقُوبَةِ الْقَصْدِ الْفَاسِدِ وَكَشَفَ الْغَطَاءَ عَنْ هَذَا أَنَّ الْأَعْمَالَ تَأْثِيرُهَا فِي الْقُلُوبِ بِتَأْكِيدِ صِفَاتِهَا ، فِدَاعِيَةُ الرِّيَاءِ مِنَ الْمَهْلِكَاتِ ، وَإِنَّمَا غِذَاءُ هَذَا الْمَهْلَكِ وَقُوَّتُهُ الْعَمَلُ عَلَى وَفْقِهِ ، وَدَاعِيَةُ الْخَيْرِ مِنَ الْمُنْجِيَّاتِ ، وَإِنَّمَا قُوَّتُهَا بِالْعَمَلِ عَلَى وَفْقِهَا ، فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الصِّفَتَانِ فِي الْقَلْبِ فَهُمَا مُتَضَادَّتَانِ ، فَإِذَا عَمِلَ عَلَى وَفْقٍ مَقْتَضَى الرِّيَاءِ فَقَدْ قَوَّى تِلْكَ الصِّفَةَ ، وَإِذَا كَانَتِ الْعَمَلُ عَلَى وَفْقٍ مَقْتَضَى التَّقَرُّبِ ، فَقَدْ قَوَّى أَيْضًا تِلْكَ الصِّفَةَ ، وَأَحَدُهُمَا مَهْلَكٌ ، وَالْآخَرُ مُنْجٍ ، فَإِنْ كَانَ تَقْوِيَةُ هَذَا بِقَدَرِ تَقْوِيَةِ الْآخَرِ فَقَدْ تَقَاوَمَا ، فَكَانَ كَالْمُسْتَضْرَبِ بِالْحَرَارَةِ إِذَا تَنَاوَلَ مَا يَضُرُّهُ ، ثُمَّ تَنَاوَلَ مِنَ الْمُبْرِدَاتِ مَا يَقَاوِمُ قَدْرَ قُوَّتِهِ فَيَكُونُ بَعْدَ تَنَاوُلِهَا كَأَنَّهُ لَمْ يَتَنَاوَلْهُمَا ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا غَالِبًا لَمْ يَخْلُ الْغَالِبُ عَنْ أَثَرٍ ، فَكَمَا لَا يَضِيعُ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْأَدْوِيَةِ ، وَلَا يَنْفَكُ عَنْ أَثَرٍ فِي الْجَسَدِ بِحُكْمِ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَكَذَلِكَ لَا يَضِيعُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَلَا يَنْفَكُ عَنْ تَأْثِيرٍ فِي إِنْارَةِ الْقَلْبِ أَوْ تَسْوِيدِهِ وَفِي تَقْرِيْبِهِ مِنَ اللَّهِ ، أَوْ إِبْعَادِهِ فَإِذَا جَاءَ بِمَا يَقْرِبُهُ شَبْرًا مَعَ مَا يَبْعِدُهُ ، فَقَدْ عَادَ إِلَى مَا كَانَ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَا عَلَيْهِ . وَإِنْ كَانَ الْفِعْلُ مِمَّا يَقْرِبُهُ شَبْرَيْنِ ، وَالْآخَرُ يَبْعِدُهُ شَبْرًا وَاحِدًا فَضَلَّ لَهُ لَامِحَالُهُ شَبْرًا . وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(١)</sup> « أَتَبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا » فَإِذَا كَانَ الْمُحْضُ يَمْحُوهُ الْإِخْلَاضُ الْمُحْضُ عَقِيْبُهُ ، فَإِذَا اجْتَمَعَا جَمِيعًا فَلَا بُدَّ وَأَنْ يَتَسَدَّفَا بِالضَّرُورَةِ

وَيَشْهَدُ لِهَذَا إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى أَنَّ مَنْ خَرَجَ حَاجًا وَمَعَهُ تِجَارَةٌ ، صَحَّ حُجُّهُ وَأَثِمَ عَلَيْهِ ، وَقَدْ امْتَرَجَ بِهِ حُطٌّ مِنْ حِظْوِظِ النَّفْسِ . نَعَمْ يُمْكِنُ أَنْ يَقَالَ : إِنَّمَا يَشَابُ عَلَى أَعْمَالِ الْحُجِّ عِنْدَ انْتِهَائِهِ إِلَى مَكَّةَ ، وَتِجَارَتُهُ غَيْرُ وَقُوفَةٍ عَلَيْهِ ، فَهُوَ خَالِصٌ وَإِنَّمَا الْمَشْرُكُ طَوْلُ الْمَسَافَةِ ، وَلَا ثَوَابَ فِيهِ ، مَهْمَا قَصَدَ التِّجَارَةَ . وَلَسَكُنَ الصَّوَابُ أَنْ يَقَالَ : مَهْمَا كَانَ الْحُجُّ هُوَ الْحَرَكُ الْأَصْلِيُّ ، وَكَانَ غَرَضُ التِّجَارَةِ كَالْمَعِينِ وَالتَّابِعِ ، فَلَا يَنْفَكُ نَفْسُ السَّفَرِ عَنْ ثَوَابِ .

( ١ ) حَدِيثُ أَتَبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا : تَقَدَّمَ فِي رِيَاضَةِ النَّفْسِ وَفِي التَّوْبَةِ

(١) الكهف : ١١٠

هِيَ الْمُتْلِفَةُ فِي مَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَالَ صِرَاحُ بْنُ يَسْبُورٍ : تَقُولُونَ فَلَانُ شَهِيدٌ ، وَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ قَدَمًا دَقَّتِي رَاحِلَتُهُ وَرَقَا . وَقَالَ (١) ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَنْ هَاجَرَ يَتَّبِعْ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ »

فَنَقُولُ : هَذِهِ الْأَحَادِيثُ لَا تَنَافُضُ مَا ذَكَرْنَاهُ ، بَلِ الْمُرَادُ بِهَا مَنْ لَمْ يَرُدْ بِذَلِكَ إِلَّا الدُّنْيَا ، كَقَوْلِهِ « مَنْ هَاجَرَ يَتَّبِعْ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا » وَكَانَ ذَلِكَ هُوَ الْأَغْلَبُ عَلَى هَمِّهِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ ذَلِكَ عَصِيَانٌ وَعُدْوَانٌ ، لَا لِأَنْ تَطْلُبَ الدُّنْيَا حَرَامًا ، وَلَكِنْ تَطْلُبُهَا بِأَعْمَالِ الدِّينِ حَرَامًا ، لَمَّا فِيهِ مِنَ الرِّيَاءِ وَتَغْيِيرِ الْعِبَادَةِ عَنْ مَوْضِعِهَا . وَأَمَّا لَفْظُ الشَّرْكَ حَيْثُ وَرَدَ فَمُطْلَقٌ لِلتَّسَاوَى وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ إِذَا تَسَاوَى الْقَصْدَانِ تَقَاوَمَا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَا عَلَيْهِ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْجَى عَلَيْهِ ثَوَابٌ نَحْمُ إِنْ الْإِنْسَانُ عِنْدَ الشَّرْكِ أَبَدًا فِي خَطَرٍ ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَيُّ الْأَمْرَيْنِ أَغْلَبَ عَلَى قَصْدِهِ فَرَعًا يَكُونُ عَلَيْهِ وَبَالًا وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى ( قَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ) (٢) أَيُّ لَا يَرْجَى الْقِيَامُ مَعَ الشَّرْكِ الَّتِي أَحْسَنَ أَحْوَالُهَا التَّسَاوُطُ وَيُحْزَنُ أَنْ يَقَالَ أَيْضًا : مَنْصِبُ الشَّهَادَةِ لَا يَنَالُ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ فِي الْغَزْوِ ، وَبَعِيدٌ أَنْ يَقَالَ مَنْ كَانَتْ دَاعِيَتُهُ لِلدِّينِيَّةِ بِحَيْثُ تَرْجُوهُ إِلَى مَجْرَدِ الْغَزْوِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَنِيمَةً ، وَقَدَّرَ عَلَى غَزْوِ طَائِفَتَيْنِ مِنَ الْكُفَّارِ ، إِحْدَاهُمَا غَنِيَّةٌ ، وَالْأُخْرَى فَقِيرَةٌ ، فَالْإِجْتِهَادُ إِلَى جِهَةِ الْأَغْنِيَاءِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَالْغَنِيمَةِ ، لِأَثْوَابِ لَهُ عَلَى غَزْوِهِ أَبَتُهُ : وَنَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . فَإِنْ هَذَا حَرَجٌ فِي الدِّينِ ، وَمُدْخَلٌ لِلْيَأْسِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، لِأَنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ الشَّوَابِ التَّابِعَةِ قَطْ لَا يَنْفَكُ الْإِنْسَانُ عَنْهَا إِلَّا عَلَى النَّدُورِ فَيَكُونُ تَأْثِيرُ هَذَا فِي تَقْصَانِ الثَّوَابِ . فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ فِي إِجْبَاطِهِ فَلَا نَعْمُ الْإِنْسَانُ فِيهِ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ ، لِأَنَّهُ رُبَّمَا يَظُنُّ أَنَّ الْبَاعِثَ الْأَفْوَى هُوَ قَصْدُ التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ ، وَيَكُونُ الْأَغْلَبُ عَلَى سِرِّهِ الْحُظُّ النَّفْسِي ، وَذَلِكَ مِمَّا يَحْفَى غَايَةُ الْخَفَاءِ ، فَلَا يَحْصُلُ الْأَجْرُ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ ، وَالْإِخْلَاصُ فَلَمَّا يَسْتَيْقِنُهُ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَإِنْ بَالِغٌ فِي الْإِحْتِبَاطِ فَلِذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَبَدًا بَعْدَ كَمَالِ الْجَهْدِ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ الرَّدِّ وَالْقَبُولِ ، خَائِفًا أَنْ تَكُونَ فِي عِبَادَتِهِ آفَةٌ يَكُونُ وَبَالُهَا أَكْثَرُ مِنْ ثَوَابِهَا وَهَكَذَا كَانَ الْخَائِفُونَ مِنْ ذَوِي الْبَصَائِرِ

(١) حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ مِنْ هَاجَرَ يَتَّبِعْ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ : تَقَدَّمَ فِي الْبَابِ الَّذِي قَبْلَهُ

(٢) الْكَهْفُ : ١١٠

وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة . ولذلك قال سفيان رحمه الله : لا أعتمد بما ظهر من عملي . وقال عبدالعزيز بن أبي رواد : جاورت هذا البيت ستين سنة ، وحججت ستين حجة ، فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي ، فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لالي ولا علي . ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء ، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه ، إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعا . وقد حكى أن بعض الفقراء كان يخدم أباسعيد الخراز ويخف في أعماله ، فتسكلم أبوسعيد في الإخلاص يوما يريد إخلاص الحركات ، فأخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطلبه بالإخلاص ، فتعذر عليه قضاء الحوائج ، واستضر الشيخ بذلك ، فسأله عن أمره ، فأخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص ، وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فتركها . فقال أبوسعيد : لا تفعل ، إذ الإخلاص لا يقطع المعاملة ، فواظب على العمل ، واجتهد في تحصيل الإخلاص ، فما قلت لك اترك العمل ، وإنما قلت لك أخلص العمل . وقد قال الفضيل : ترك العمل بسبب الخلق رياء ، وفعله لأجل الخلق شرك

## الباب الثالث

في الصدق وفضيلته وحقيقته

### فضيلة الصدق

قال الله تعالى ( رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ <sup>(١)</sup> ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَالْبِرُّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَالْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا »

ويكنى في فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه ، والله تعالى وصف الأنبياء في معرض

﴿ الباب الثالث في الصدق ﴾

( ١ ) حديث ان الصدق يهدي الى البر - الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم

( ٢ ) الأحزاب : ٢٣

المدح والثناء فقال ( وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا <sup>(١)</sup> ) وقال ( وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا <sup>(٣)</sup> )

وقال ابن عباس : أربع من كن فيه فقد ربح ، الصدق ، والحياء ، وحسن الخلق ، والشكر وقال بشر بن الحارث : من عامل الله بالصدق استوحش من الناس وقال أبو عبد الله الرملي : رأيت منصورا الدينوري في المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك قال : غفر لي ، ورحمني ، وأعطانى مالم أؤمل . فقلت له : أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا ؟ قال : الصدق . وأقبح ما توجه به الكذب

وقال أبو سليمان : اجعل الصدق مطيتك ، والحق سيفك ، والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل لحكيم : ما رأيت صدقا فقال له : لو كنت صادقا لعرفت الصادقين . وعن محمد ابن علي الكتاني قال : وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة أركان : على الحق ، والصدق ، والعدل . فالحق على الجوارح ، والعدل على القلوب ، والصدق على العقول

وقال الثوري في قوله تعالى ( وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ <sup>(٤)</sup> ) قال : هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين . وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود ، من صدقتني في سريره صدقته عند المخلوقين في علانيته

وصاح رجل في مجلس الشبلي ، ورمى نفسه في دجلة ، فقال الشبلي . إن كان صادقا فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام ، وإن كان كاذبا فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون

وقال بعضهم : أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال ، أنها إذا صحت ففيها النجاة ، ولا يتم بعضها إلا ببعض . الإسلام الخالص عن البدعة والهوى ، والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب المطعم وقال وهب بن منبه : وجدت على حاشية التوراة . اثنين وعشرين حرفا ، كان صلاحا بني إسرائيل يجتمعون فيقرؤونها ويتدارسونها . لا كنز أنفع من العلم ، ولا مال أربح من الحلم ، ولا حسب أوضع من الغضب ، ولا قرين أزين من العمل ، ولا رفيق أشين من الجهل ، ولا شرف أعز من التقوى ، ولا كرم أوفى من ترك الهوى ، ولا عمل أفضل من الفكر ،

(١) مريم : ٤١ (٢) مريم : ٥٤ (٣) مريم : ٥٦ (٤) الزمر : ٦٠

ولا حسنة أعلى من الصبر ، ولا سيئة أخزى من الكبر ، ولا دواء ألين من الرفق ، ولا داء أوجع من الخرق ، ولا رسول أعدل من الحق ، ولا دليل أنصح من الصدق ، ولا فقر أذلّ من الطمع ، ولا غنى أشقى من الجمع ، ولا حياة أطيب من الصحة ، ولا معيشة أهنأ من العفة ، ولا عبادة أحسن من الخشوع ، ولا زهد خير من القنوع ، ولا حارس أحفظ من الصمت ، ولا غائب أقرب من الموت ، . وقال محمد بن سعيد المروزي : إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة يبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة  
وقال أبو بكر الورّاق : حفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى ، والرفق فيما بينك وبين الخلق وقيل لدى النون . هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ فقال :

قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل

فدعنا الهوى تخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل : ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه ؟ فقال : الصدق ، والسخاء ، والشجاعة فقل زدنا : فقال : التقى ، والحياء ، وطيب الغذاء

وعن <sup>(١)</sup> ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال «قَوْلُ الْحَقِّ وَالْعَمَلُ بِالصَّدَقِ» . وعن الجنيد في قوله تعالى ( لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ <sup>(١)</sup> ) قال يسأل الصادقين عن أنفسهم عن صدقهم عند ربهم ، وهذا أمر على خطر

## بيان

حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معانٍ صدق في القول ، وصدق في النية والإرادة ، وصدق في العزم ، وصدق في الوفاء بالعزم ، وصدق في العمل ، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها . فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدّيق ، لأنه مبالغة في الصدق . ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه

( ١ ) حديث ابن عباس سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق . لم أجده بهذا اللفظ

الصدق الأول : صدق اللسان . وذلك لا يكون إلا في الأخبار . أو فيما يتضمن الأخبار وينبئ عليه ، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو بالمستقبل ، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه . وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه ، فلا يتكلم إلا بالصدق ، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها . فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان . أحدهما : الاحتراز عن المعارض ، فقد قيل : في المعارض مندوحة عن الكذب . وذلك لأنها تقوم مقام الكذب ، إذ المحذور من الكذب تفهم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه . إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة ، وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال ، وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم ، وفي الحذر عن الظلمة ، وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين ، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهماً غير ما هو عليه ، لأن الصدق ما أريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء إليه ، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه

نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعارض ما وجد إليه سبيلاً<sup>(١)</sup> كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورى بغيره ، وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد . وليس هذا من الكذب في شيء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْرًا أَوْ أَمَى خَيْرًا » ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع : من أصلح بين اثنين ، ومن كان له زوجتان ، ومن كان في مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحول إلى النية ، فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخبر فهما صحت قصده ، وصدقت نيته . وتجردت للخير إرادته ، صار صادقاً وصدقاً كيفما كان لفظه ثم التعريض فيه أولى . وطريقه ما حكي عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره ، فقال لزوجته . خطي بأصبعك دائرة ، وضئ الأصبغ على الدائرة ، وقولي ليس

( ١ ) حديث كان إذا أراد سفراً ورى بغيره : متفق عليه من حديث كعب بن مالك

( ٢ ) حديث ليس بكاذب من أصلح بين الناس - الحديث : متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة

ابن أبي معيط وقد تقدم



هو ههنا . واحترز بذلك عن الكذب ، ودفع الظالم عن نفسه ، فكان قوله صدقا ، وأفهم  
الظالم أنه ليس في الدار .

فالكمال الأول في اللفظ : أن يحترز عن صريح اللفظ وعن الما ريض أيضا إلا عند الضرورة  
والكمال الثاني ، أن يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه ، كقوله : وجهت  
وجهي للذي فطر السموات والأرض ، فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى ، مشغولا  
بأمانى الدنيا وشهواته ، فهو كاذب . وكقوله : إياك نعبد . وقوله : أنا عبد الله . فإنه إذا لم  
يتصف بحقيقة العبودية ، وكان له مطلب سوى الله ، لم يكن كلامه صدقا . ولو طوب يوم  
القيامة بالصدق في قوله : أنا عبد الله ، لعجز عن تحقيقه ، فإنه إن كان عبدا لنفسه ، أو عبداً لدنيا  
أو عبداً لشهواته ، لم يكن صادقا في قوله .

وكل ما تقيّد العبد به فهو عبده . كما قال عيسى عليه السلام : يا عبيد الدنيا . وقال نبينا  
صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعِسَ عَبْدُ الدَّرْهَمِ وَعَبْدُ الْحُلَّةِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ »  
سمى كل من تقيّد قلبه بشيء عبداً له . وإنما العبد الحق لله عز وجل من أعتق أولا من غير  
الله تعالى ، فصار حرا مطلقا . فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا ، فخلت فيه العبودية  
لله ، فقتلته بالله وبمحبتة ، وتقيّد باطنه وظاهره بطاعته ، فلا يكون له مراد إلا الله تعالى  
ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية ، وهو أن يعتق أيضا عن إرادته لله من  
حيث هو ، بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد ، فتفنى إرادته في إرادة الله تعالى .  
وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ، ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا ، وصار مفقودا  
لنفسه ، موجودا لسببه ومولاه ، إن حرّكه تحرّك ، وإن سكّنه سكن ، وإن ابتلاه رضي  
لم يبق فيه متسع لطلب ، والتماس ، واعتراض ، بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الفاسل  
وهذا منتهى الصدق في العبودية لله تعالى ، فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه  
وهذه درجة الصديقين وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين ، وبعدها تتحقق  
العبودية لله تعالى . وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا .  
فهسسنا هو معنى الصدق في القول

( ١ ) حديث نعيم عبد الدينار - الحديث : البخارى من حديث أبي هريرة وقد تقدم

الصدق الثاني : في النية والإرادة . ويرجع ذلك إلى الإخلاص ، وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى ، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية ، وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا ، كما رويناه في فضيلة الإخلاص من حديث (١) الثلاثة ، حين يسئل العالم ما عملت فيما علمت ، فقال : فعلت كذا وكذا ، فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ، فإنه لم يكذبه ، ولم يقل له لم تعمل ، ولكنه كذبه في إرادته ونيته . وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد في القصد . وكذلك قول الله تعالى (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَاذِبُونَ<sup>(١)</sup>) وقد قالوا إنك لرسول الله ، وهذا صدق ، ولكن كذبهم لأن حيث نطق اللسان ، بل من حيث ضمير القلب ، وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر ، وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال ، إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يعتقد ما يقول ، فكذب في دلالة بقرينة الحال على ما في قلبه ، فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به . فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص ، فكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصا

الصدق الثالث : صدق العزم ، فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل . فيقول في نفسه . إن رزقني الله ما لا تصدقت بجميعه ، أو بشرطه ، أو إن لقيت عدوا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت ، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه ، وهي عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوع ميل ، وتردد ، وضعف يضاد الصدق في العزيمة ، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة ، كما يقال لفلان شهوة صادقة ، ويقال لهذا المريض شهوته كاذبة ، مهمالم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي ، أو كانت ضعيفة . فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق والصديق هو الذي تصادف عزمته في الخيرات كلها قوة تامة ، ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد ، بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات . وهو كما قال عمر رضي الله عنه : لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه وأكده ذلك بما ذكره من القتل

( ١ ) حدث الثلاثة حين سأل العالم ماذا عملت فيما علمت - الحديث : تقدم .

(١) المنافقون : ١٠

ومراتب الصديقين في العزائم تختلف ، فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ، ولكن إذا خلى ورأيه لم يقدم ، ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل في الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب إليه من حياة أبي بكر الصديق .

الصدق الرابع : في الوفاء بالعزم . فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال ، إذ لا مشقة في الوعد والعزم ، والمؤنة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق ، وحصل التمكن ، وهاجت الشهوات انحلت العزيمة ، وغلبت الشهوات ، ولم يتفق الوفاء بالعزم . وهذا يصادف الصدق فيه . ولذلك قال الله تعالى ( رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ <sup>(١)</sup> ) فقد روي <sup>(١)</sup> عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشق ذلك على قلبه وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، أما والله لئن أراي الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع . قال فشهد أحدافى العام القابل ، فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا أبا عمرو إلى أين ؟ فقال واهل ربح الجنة ، إني أجد ربحا دون أحد . فقاتل حتى قتل ، فوجد في جسده بضع وثمانون ، ما بين رمية ، وضربة ، وطعنة ، فقالت أخته بنت النضر : ما عرفت أخى إلا بشيابه . فزلت هذه الآية ( رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ <sup>(٢)</sup> ) <sup>(٢)</sup> ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير ، وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام ( رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ <sup>(٣)</sup> ) . وقال <sup>(٣)</sup> فضالة بن عبيد : سمعت

( ١ ) حديث أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - الحديث : في قتاله بأحد حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول رجال صدقوا الآية الترمذى وقال حسن صحيح والنسائي في الكبرى وهو عند البخارى مختصرا ان هذه الآية نزلت في أنس بن النضر

( ٢ ) حديث وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية : أبو نعيم في الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسلا

( ٣ ) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان - الحديث : الترمذى وقال حسن

عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :  
 « الشَّهَدَاءُ أَرْبَعَةٌ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الْإِيمَانِ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَّقَ اللَّهَ حَتَّى  
 قُتِلَ فَذَلِكَ الَّذِي يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أُعْيِنُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا » ورفع رأسه حتى  
 وقعت قلنسوته . قال الراوي : فلا أدرى قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 « وَرَجُلٌ جَيِّدُ الْإِيمَانِ إِذَا لَقِيَ الْعَدُوَّ فَكَأَنَّمَا يُضْرَبُ وَجْهُهُ بِشَوْكِ الطَّلْحِ أَتَاهُ سَهْمٌ عَائِرٌ  
 فَقَتَلَهُ فَهُوَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا لَقِيَ الْعَدُوَّ  
 فَصَدَّقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ وَرَجُلٌ أَشْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَّقَ  
 اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ » . وقال مجاهد : رجلان خرجا على ملاء من  
 الناس فعمود ، فقالا إن رزقنا الله تعالى مالا لنصدقن ، فبخلوا به ، فنزلت ( وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ  
 لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ <sup>(١)</sup> )

وقال بعضهم : إنما هو شيء تَوَوَّه في أنفسهم لم يتكلموا به ، فقال ( وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ  
 لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ  
 وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ  
 وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ <sup>(٢)</sup> ) فجعل العزم عهداً ، وجعل الخلف فيه كذبا ، والوفاء به صدقا

وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث ، فإن النفس قد تسخو بالعزم ، ثم تكبح عند الوفاء  
 لشدة عليها ، ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب . ولذلك استثنى عمر رضي  
 الله عنه فقال : لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر ،  
 اللهم إلا أن تسول لي نفسي عند القتل شيئا لأجده الآن ، لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك  
 فتغير عن عزمها . أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم

وقال أبو سعيد الخراز . رأيت في المنام كأن ملكين نزلا من السماء فقالا لي : ما الصدق ؟

قلت الوفاء بالعهد . فقالا لي : صدقت . وعرجا إلى السماء

الصدق الخامس : في الأعمال ، وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في  
 باطنه لا يتصف هو به ، لا بأن يترك الأعمال ، ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق  
 الظاهر . وهذا مخالف ما ذكرناه من ترك الرياء ، لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك ويرب

واقف على هيئة الخشوع في صلاته ، ليس يقصد به مشاهدة غيره ، ولكن قلبه غافل عن الصلاة ، فمن ينظر إليه يراه قائما بين يديه الله تعالى ، وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته . فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال . وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار ، وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار ، فهذا غير صادق في عمله ، وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ، ولا مرايا إياهم ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية ، بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره . ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ، ولبس ثياب الأشرار ، كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره ، فيكون كاذبا في دلالة الظاهر على الباطن

فإذا تخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ، ويفوت بها الإخلاص وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « اللَّهُمَّ اجْعَلْ سِرِّي خَيْرًا مِنْ عِلَانِيَتِي وَاجْعَلْ عِلَانِيَتِي صَالِحَةً » وقال يزيد بن الحارث : إذا استوت سريرة العبد وعلا نيته فذلك النصف . وإن كانت سريرته أفضل من

علا نيته فذلك الفضل . وإن كانت علا نيته أفضل من سريرته فذلك الجور . وأنشدوا :  
إذا السر والإعلان في المؤمن استوى فقد عز في الدارين واستوجب الثنا  
فإن خالف الإعلان سرا فاله على سعيه فضل سوى الكد والمنا  
فما خالص الدينار في السوق نافق ومنغوشه الزردود لا يقتضى المنا  
وقال عطية بن عبد الغافر . إذا وافقت سريرة المؤمن علا نيته باهى الله به الملائكة ، يقول :  
هذا عبدي حقا : وقال معاوية بن قرة : من يدلى على بكاء بالليل بسام بالنهار ! وقال عبد الواحد بن زيد : كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمال الناس به ، وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له ، ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلا نيته منه

وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول : إلهي ، عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة ، ويبكى . وقال أبو يعقوب النهرجوري : الصدق موافقة الحق في السر والعلانية ، فإذا مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق  
الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات وأعزها ، الصدق في مقامات الدين ، كالصدق

(١) حديث اللهم اجعل سريري خيرا من علانيتي - الحديث : تقدم ولم أجده

في الخوف ، والرجاء ، والتمظيم ، والزهد ، والرضا ، والتوكل ، والحب ، وسائر هذه الأمور فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق ، والصادق المحقق من نال حقيقتها . وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته ، سمي صاحبه صادقا فيه كما يقال . فلان صدق القتال ، ويقال هذا هو الخوف الصادق . وهذه هي الشهوة الصادقة وقال الله تعالى ( إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا <sup>(١)</sup> ) إلى قوله ( أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ <sup>(٣)</sup> ) إلى قوله ( أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا <sup>(٤)</sup> ) <sup>(١)</sup> وسئل أبو ذر عن الإيمان ، فقرأ هذه الآية . فقيل له سألناك عن الإيمان . فقال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية ولنضرب للخوف مثلا . فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ، ولكنه خوف غير صادق ، أي غير بالغ درجة الحقيقة . أما ترأه إذا خاف سلطانا ، أو قاطع طريق في سفره ، كيف يصفر لونه ، وترتعد فرائصه . ويتنقص عليه عيشه ، ويتمنح عليه أكله ونومه ، وينقسم عليه فكرة حتى لا ينتفع به أهله وولده ؟ وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس بالوحشة ، وبالراحة التعب والمشقة ، والتعرض للأخطار ، كل ذلك خوفا من درك المحذور . ثم إنه يخاف النار ، ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريبات معصية عليه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « لَمْ أَرِ مِثْلَ النَّارِ تَأَمَّ هَارِبُهَا وَلَا مِثْلَ الْجَنَّةِ تَأَمَّ طَائِبُهَا »

فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدا ، ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله ، إما ضعيف وإما قوي . فإذا قوي سمي صادقا فيه

فعرفة الله وتعظيمه والخوف منه لانهاية لها ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> لجبريل عليه السلام « أَحِبُّ أَنْ أُرَاكَ فِي صُورَتِكَ الَّتِي هِيَ صُورَتُكَ » فقال لا تطبق ذلك

( ١ ) حديث أبي ذر سألت عن الإيمان فقرأ قوله تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر إلى قوله أولئك الذين صدقوا رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجدها له إسنادا

( ٢ ) حديث لم أر مثل النار تأم هاربها - الحديث : تقدم

( ٣ ) حديث قال لجبريل أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطبق ذلك - الحديث : تقدم في كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا والذي ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين .

قال « بَلِّ أُرِنِي » فواعدده البقيع في ليلة مقمرة ، فأناه ، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو به قد سد الأفق يعني جوانب السماء فوق النبي صلى الله عليه وسلم مغشياً عليه ، فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الأولى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مَا ظَنَنْتُ أَنْ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ هَكَذَا » قال وكيف لو رأيت إسرائيل ؟ إن العرش لعلى كاهله ، وإن رجله قد مرقاً تحت تحوم الأرض السفلى ، وإنه ليتصاير من عظمة الله حتى يصير كالوضع ، يعني كالصفور الصغير . فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهبة حتى يرجع إلى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة ، فهذا هو الصدق في التعظيم . وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي وَجِبْرِيلُ بِالْمَلَأُ الْأَعْلَى كَالْحُلْسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى » يعني الكساء الذي يلقي على ظهر البعير . وكذلك الصحابة كانوا خائفين ، وما كانوا يملأون خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما : لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حقي في دين الله . وقال مطرف :

مامن الناس أحد إلا وهو أحق فيما بينه وبين ربه ، إلا أن بعض الحق أهون من بعض .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « لَا يَبْلُغُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى النَّاسِ كَالَأَبْعَرِ فِي جَنْبِ اللَّهِ ثُمَّ يَرْجِعَ إِلَى نَفْسِهِ فَيَجِدَهَا أَحَقَرَ حَقِيرٍ »

فالصادق إذا رأى جميع هذه المقامات عزيز ، ثم درجات الصدق لانهية لها . وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض ، فإن كان صادقاً في الجميع فهو الصديق حقاً . قال سعد بن معاذ : ثلاثة أنا فيهن قوي ، وفيما سواهن ضعيف : ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي حتى أفرغ منها . ولا شيعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها . وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولاً إلا علمت أنه حق ، فقال ابن المسيب : ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام . فهذا صدق

( ١ ) حديث مررت ليلة أُسْرِيَ بِي وَجِبْرِيلُ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى كَالْحُلْسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ - الحديث : محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيادي ضعفه الجمهور وقال البيهقي ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير ابن عطار د وهذا مرسل

( ٢ ) حديث لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير : لم أجده أصلاً في حديث مرفوع

في هذه الأمور . وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة ، واتبوا الجنائز ، ولم يبلغوا هذا المبلغ  
فهذه هي درجات الصدق ومعانيه ، والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق  
في الأغلب لا تعرض إلا لأحد هذه المعاني . نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة : صدق  
التوحيد ، وصدق الطاعة ، وصدق المعرفة . فصدق التوحيد لعامة المؤمنين . قال الله تعالى .  
(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ<sup>(١)</sup>) وصدق الطاعة ، لأهل العلم والورع ،  
وصديق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض . وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق  
السادس ، ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق ، وهو أيضا غير محيط بجميع الأقسام  
وقال جعفر الصادق : الصدق هو المجاهدة ، وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختار عليك  
غيرك ، فقال تعالى (هُوَ اجْتَبَاكُمْ<sup>(٢)</sup>) . وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام  
إني إذا أحببت عبداً ابتليته ببلايا لا تقوم لها الجبال ، لأنظر كيف صدقه . فإن وجدته صابرا  
اتخذته وليا وحييا ، وإن وجدته جزوعا يشكوني إلى خلق خذته ولا أبالي .  
فإذا من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا ، وكرهية اطلاع الخلق عليها  
تم كتاب الصدق والإخلاص ، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة والحمد لله

(١) الحديد : ١٩ (٢) الحج : ٧٨



## شهر ست الجزء الرابع عشر

صفحة	صفحة
٢٥٨٥	بيان توكل المعيل
٢٥٨٦	الفرق بين توكل المنفرد والمعيل
٢٥٩٢	اهتمام العلماء بالرزق قبيح
٢٥٩٤	بيان احوال المتوكلين في التمتع
٢٥٩٨	بالاسباب بضرب مثال . مثال
٢٦٥٩	الخلاص مع خلقه
٢٦٥٩	احوال المدخر ازاء ماله
٢٦٥٩	الادخار للميل سنة غير مبطل للتوكل
٢٦٥٩	ترك الاسباب الرافعة للضرر مبطل
٢٦٥٩	للتوكل
٢٦٥٩	بيان آداب المتوكلين اذا سرق متاعهم
٢٦٥٩	أمره صلى الله عليه وسلم بالتداوى
٢٦٥٩	ليس من التوكل الكى وما يشبهه
٢٦٥٩	بيان أن ترك التداوى قد يحمى في
٢٦٥٩	بعض الأحيان ويدل على قوة
٢٦٥٩	التوكل وأن ذلك لا يناقض فعل
٢٦٥٩	رسول الله صلى الله عليه وسلم
٢٦٥٩	اسباب ترك التداوى
٢٦٥٩	بيان الرد على من قال ترك التداوى
٢٦٥٩	أفضل بكل حال
٢٦٥٩	بيان احوال المتوكلين في اظهار المرض
٢٦٥٩	وكتمانه
٢٦٥٩	مقاصد اظهار المرض
٢٦٥٩	كتاب المحبة والشوق
٢٦٥٩	والأنس والرضا
٢٦٥٩	بيان شواهد الشرع في حب العبد لله
٢٦٥٩	تعالى
٢٦٥٩	بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده
٢٦٥٩	معنى محبة العبد لله تعالى
٢٦٥٩	الاحسان
٢٦٥٩	حب الشيء لذاته
٢٦٥٩	تناسب الأرواح
٢٦٥٩	بيان المستحق للمحبة هو الله وحده
٢٦٥٩	حب الإنسان لنفسه
٢٦٥٩	حب المحسن لاحتسانه
٢٥٨٥	حب المحسن في نفسه
٢٥٨٦	حب الجمال لذاته . مجمل الصفات
٢٥٨٦	المحبة للقلوب
٢٥٩٢	بيان أن أجل النيات وأعلوها معرفة
٢٥٩٤	الله تعالى والتمسك إلى وجهه الكريم
٢٥٩٨	العلم بالله تعالى الدعاوم
٢٥٩٨	العبادة حب لله تعالى أعلى المنازل
٢٦٥٩	مثال اطوار الخلق في اللذات
٢٦٥٩	بيان السبب في زيادة النظر في لذة
٢٦٥٩	الآخرة على المتوفرة في الدنيا
٢٦٥٩	المساعي تحجب المرء عن رؤية ربه
٢٦٥٩	تعالى
٢٦٥٩	السعادة طول العمر في طاعة الله
٢٦٥٩	بيان الاسباب المتوفرة لحب الله تعالى
٢٦٥٩	اسباب ضعف حب الله تعالى في
٢٦٥٩	القلوب
٢٦٥٩	الانشغال بحب الدنيا
٢٦٥٩	سبيل قلع حب الدنيا من القلب
٢٦٥٩	بعض عجائب قدرة الله تعالى في خلق
٢٦٥٩	البعوضة
٢٦٥٩	عجائب قدرة الله في النحل
٢٦٥٩	بيان السبب في تفاوت الناس في الحب
٢٦٥٩	مثال لتفاوت الحب عند الناس
٢٦٥٩	بيان السبب في قصور افهام الخلق
٢٦٥٩	عن معرفة الله سبحانه
٢٦٥٩	بيان معنى الشوق الى الله تعالى
٢٦٥٩	الاضطرار الى الشوق عقلا
٢٦٥٩	الأخبار والآثار في الشوق
٢٦٥٩	بيان محبة الله للعبد ومعناها
٢٦٥٩	حقيقة المحبة
٢٦٥٩	علامة معرفة حب الله للعبد
٢٦٥٩	القول في علامات محبة العبد لله تعالى
٢٦٥٩	المحب لله لا يعصيه
٢٦٥٩	علامة المحبة كمال الأنس بالمحبيب
٢٦٥٩	علامة المحبة نظما
٢٦٥٩	بيان معنى الأنس بالله تعالى . معنى
٢٦٥٩	الأنس

صفحة		صفحة	
٢١٨٩	بيان حقيقة النية	٢٦٤٧	بشارة النور
٢٦٩٠	الإخلاص و حاله		بيان معنى النية بعبارة واضحة ودلالة النية
٢٦٩١	الرافقة ومساها	٢٦٤٨	نعمه عليه السلام
	المشاركة ومساها . المعارضة ومساها	٢٦٥٠	الطاعات البالغة في عيش القرآن
٢٦٩٢	بيان معنى قوله صلى الله عليه وسلم		القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى
	نية المؤمن خير من عمله	٢٦٥٣	رحمة بقلته وما ورد في فضيلته
٢٦٩٥	وجبة كون النية خيرا من العمل		بيان حقيقة الرضا
	بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية	٢٦٥٤	ردوان الله غلبة ما يشاء الله
	المعاصي بالنسبة للنية .	٢٦٥٧	الانار في الرضا
٢٦٩٦	الداهل لا ينذر		بيان حقيقة الرضا وتفصيله فيها
٢٦٩٧	كياسه العالم مراقبة تلميذه	٢٦٥٩	يختلف الرضا
٢٦٩٨	الطاعة بالنسبة للنية		أمر الحب الرضا بفعل الحبيب
	تكثير النيات يبلغ الى درجات المقربين		عظمة سعد بن أبي وقاص في الرضا
٢٧٠٠	المباحات بالنسبة للنية	٢٦٦٣	بقضاء الله
٢٧٠٣	بيان ان النية غير داخلية تحت الاختيار	٢٦٦٥	امكان الرضا بما يخالف البنى
٢٧٠٤	طريق اكتساب النية	٢٦٦٦	بيان ان الاتقاء غير منافض الرضا
٢٧٠٥	تيسر احضار النية للمنددين		وجهة الجمع بين الرضا والكراهة في
٢٧٠٦	تفاوت نيات الناس في الطاعات	٢٦٦٨	شيء واحد
٢٧٠٧	تفاوت درجات النيات	٢٦٧٠	الدعاء بالمغفرة غير منافض للقضاء
	الباب الثاني : في الاخلاص وفضيلته	٢٦٧١	الشكوى تناقض الرضا
٢٧٠٨	وحقيقته ودرجاته		بيان ان الفرار من البلاد التي دلى
	فضيلة الاخلاص		مقتان العاصي ودميته لا يقدح في
٢٧٠٩	الاخلاص اساس النجاح في الأعمال		الرضا
٢٧١٢	بيان حقيقة الاخلاص		بيان جهلته من حكايات المحبين
٢٧١٥	تلاج الاخلاص كسر حظوظ النفس	٢٦٧٣	واقوالهم ومكاشفاتهم
٢٧١٦	بيان اقوال الشيوخ في الاخلاص	٢٦٧٦	مقامات المحبين لا ينكرها عاقل
	بيان درجات الشوائب والآفات		أبعد القلوب عن الله المتكبره وأقربها
٢٧١٨	الكثرة للاخلاص - الرياء	٢٦٧٧	المنكسرة
٢٧١٩	اهتمام الاشتغال بالخلق		بشارة النبي صلى الله عليه وسلم
	بيان حكم العمل المشوب واستهتاق		لابى بكر رضى الله عنه . خاتمة
٢٧٢١	الشوايب به		الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق
	الباب الثالث : في الصدق وفضيلته	٢٦٨٠	بالمحبة ينتفع بها
٢٧٢٥	وحقيقته		كتاب النية والاخلاص
	فضيلة الصدق		والصدق
٢٧٢٧	بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه	٢٦٨٤	
٢٧٢٨	الصدق في القول		الباب الأول : في النية
٢٧٣٠	الصدق في النية - الصدق في العزم	٢٦٨٥	بيان فضيلة النية
٢٧٣١	الصدق في الوقاء	٢٦٨٦	الاجر بقدر النية
٢٧٣٢	الصدق في الأعمال	٢٦٨٧	الاخبار في فضل النية
٢٧٣٣	الصدق في مقامات الدين	٢٦٨٨	الانار في فضيلة النية

كتاب الشعب

# إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الخامس عشر

دار الشعب

طبعة الأولى، ١٩٨٤



# كتاب المراقبة والمحاسبة

## مكتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من دبع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على كل جارحة بما اجتاحت ، المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست . الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت ، الذي لا يتزبغ من علمه مثقال ذرة في السموات والأرض تحركت أو سكنت ، المحاسب على النقيير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت ، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت ، المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت ، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت ، وتنظر فيما قدمت وأخرت ، فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت ، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لحابت وخسرت . فسبحان من عمّت نعمته كافة العباد وشملت ، واستغفرت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت ، فبنفحات فضله اتسمت القلوب بالإيمان وانسحرت ، ويمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأديت ، وبحسن هدايته انجملت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت ، وبتأييده ونصرته انقطعت مكابد الشيطان واندفعت وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت ، وبتيسيه تيسرت من الطاعات ما تيسرت فنه المطاء ، والجزاء ، والإبعاد ، والإدناء ، والإسماع ، والإشقاء

والصلاة على محمد سيد الأنبياء ، وعلى آله سادة الأصفياء ، وعلى أصحابه قادة الأتقياء أما بعد : فقد قال الله تعالى ( وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا <sup>(٢)</sup> )

(١) الأنبياء : ٤٧ (٢) الكهف : ٤٩

وقال تعالى (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ<sup>(١)</sup>) وقال تعالى (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ<sup>(٢)</sup>) وقال تعالى (ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ<sup>(٣)</sup>) وقال تعالى (يَوْمَ نَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ<sup>(٤)</sup>) وقال تعالى (وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ<sup>(٥)</sup>) فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد ، وأنهم سيناقشون في الحساب . ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات . وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة ، وصدق المراقبة ، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسبه ، وحصر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه وما به . ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته ، وطالت في عرصات القيامة وقفاته ، وقادته إلى الخزي والمقت سينثانه

فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله ، وقد أمرهم بالصبر والمراقبة فقال عز من قائل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِصُوا<sup>(٦)</sup>) فربطوا أنفسهم أولاً بالمشاركة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاقبة ، فكانت لهم في المراقبة ست مقامات ، ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضلتها ، وتفصيل الأعمال فيها ، وأصل ذلك المحاسبة ، ولكن كل حساب فبعد مشاركة ومراقبة ، ويتبعه عند الخسران المعاقبة والمعاينة ، فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق

## المقام الأول من المراقبة

المشاركة

اعلم أن مطلب المتعاملين في التجارات ، المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه . فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه ، فكذلك العقل

(١) المجادلة : ٦ (٢) الزلزاله : ٦ ، ٧ ، ٨ (٣) البقرة : ٢٨١ (٤) آل عمران : ٣٠ (٥) البقرة : ٢٥٣

(٦) آل عمران : ٢٠٠

هو التاجر في طريق الآخرة ، وإنما مطلبه وربحه تركية النفس ، لأن بذلك فلاحها .  
قال الله تعالى ( قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا <sup>(١)</sup> ) وإنما فلاحها بالأعمال  
الصالحة . والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة ، إذ يستعملها ويستسخرها فيما يتركها  
كما يستعين التاجر بشريكه وغلّامه الذي يتجر في ماله

وكأن الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه في الربح ، فيحتاج إلى أن يشارطه أولا ،  
ويراقبه ثانيا ، ويحاسبه ثالثا ، ويماقبه أو يعاتبه رابعا ، فكذلك العقل يحتاج إلى مشاركة  
النفس أولا ، فيوظف عليها الوظائف ، ويشترط عليها الشروط ، ويرشدها إلى طرق الفلاح  
ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، فإنه لو أهملها لم ير  
مها إلا الخيانة وتضييع رأس المال ، كالعبد الخائن إذا خلا له الحوّا وفرّ دبالمال . ثم بعد الفراغ  
ينبغي أن يحاسبها ويطلبها بالوفاء عما شرط عليها ، فإن هذه تجارة ربحتها الفردوس الأعلى ،  
وبلوغ مدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرا  
من تدقيقه في أرباح الدنيا ، مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فصيرها  
إلى التصرم والانقضاء ، ولا خير في خير لا يدوم . بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم ،  
لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائما وقد انقضى الشر ، والخير الذي  
لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير ، ولذلك قيل :

أشد النعم عندي في سرور تبين عنه صاحبه انتقالا

فتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها  
في حرّاتها ، وسكناتها ، وخطراتها ، وحظواتها ، فإن كل نفس من أنفاس المعرجورة  
نفس لا عوض لها ، يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا ينأى نعيمه أبدا . فانقضاء  
هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل  
فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ، ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشاركة النفس ،  
كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته ، فيقول للنفس .  
مالي بضاعة إلا العمر ، ومهما بقي فقد بقي رأس المال ، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ،



وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه ؛ وأنساً في أجلى ، وأنعم عليّ به ، ولو توفاني لكنت  
أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً . فاحسبي أنك قد توفيت ، ثم قدرُ ددت ،  
فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم ، فإن كل نفس من الأنفاس جوهره لا قيمة لها ، واعلمي  
يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد في الخبر أنه <sup>(١)</sup> ينشر للعبد بكل يوم وليلة  
أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التي عملها  
في تلك الساعة ؛ فينالها من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته  
عند الملك الجبار ، ماله وزرع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار .  
ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة ، يفوح منها ، ويغشاها ظلامها ، وهي الساعة التي عصي  
الله فيها ، فينالها من الهول والفرع ماله وقسم على أهل الجنة لتنعص عليهم نعيمها . ويفتح له  
خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسهوه ، وهي الساعة التي نام فيها ، أو غفل ،  
أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا ، فيتحصر على خلوها ، ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر  
على الربح الكثير والملك الكبير ، إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاتته ، وناهيك به حسرة وغنبا .  
وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره ، فيقول لنفسه : اجتهدى اليوم في أن تعمري  
خزانتك ، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ، ولا تميل إلى الكسل والدعة  
والاستراحة ، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك ، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك  
وإن دخلت الجنة ، فألم الغبن وحسرتة لا يطاق وإن كان دون ألم النار

وقد قال بعضهم : هب أن المصطفى قد عفي عنه ، أليس قد فاتته ثواب المحسنين ؟ أشار بها  
إلى الغبن والحسرة : وقال الله تعالى . ( يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّنَاقُيْنِ ) <sup>(١)</sup>  
فهذه وصيته لنفسه في أوقاته . ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة : وهي العين ،  
والأذن ، واللسان ، والبطن ، والفرج ، واليد ، والرجل ، وتسليمها إليها ، فإنها رعايا خادمة  
لنفسه في هذه التجارة ، وبها تتم أعمال هذه التجارة . وإن لجهنم سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء

( كتاب الحاسبة والراقبة )

( ١ ) حديث ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة  
من حسناته - الحديث : بطوله لم أجده لأصلا

مقسوم. وإنما تعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها أما العين، فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بحرم، أو إلى عورة مسلم، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار، بل عن كل فضول مستغنى عنه. فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر، كما يسأله عن فضول الكلام، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله، ومطالعة كتب الحكمة للتماظ والاستفادة. وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو، لاسيما اللسان والبطن أما اللسان فلائنه منطلق بالطبع، ولا مؤنة عليه في الحركة، وجنايته عظيمة بالغيبة، والكذب، والنميمة، وتركبة النفس، ومذمة الخلق والأطعمة، واللعن، والدعاء على الأعداء والمهارة في الكلام، وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان، فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر، والتذكير، وتكرار العلم، والتعليم، وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين، وسائر خيراته. فليشترط على نفسه أن لا يحرّك اللسان طول النهار إلا في الذكر، فنطق المؤمن ذكر، ونظرة عبدة، وصمته فكرة، وما يلفظ من قول إلا لده رقيب عتيد وأما البطن فيكلفه ترك الشره، وتقليل الأكل من الحلال، واجتناب الشبهات، ومنعه من الشهوات، ويقتصر على قدر الضرورة، ويشترط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن، ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها

وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء، واستقصاء ذلك بطول، ولا تحفى معاصي الأعضاء وطاعاتها. ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة، ثم في النوافل التي يقدر عليها، ويقدر على الاستكثار منها، ويرتب لها تفصيلها، وكيفيةها، وكيفية الاستعداد لها بأسبابها. وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم، ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً، وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها، استغنى عن المشاركة فيها. وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشاركة فيما بقي ولسكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد، وواقعة حادثة لها حكم جديد، والله عليه في ذلك حق، ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية، أو تجارة، أو تدريس، إذ فلما يخلو يوم

من وافعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها . فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها ، والالتقياد للحق في مجاريها ، ويحذر لها منبة الإهمال ، وبمطها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد ، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات ، مستعصية عن العبودية ، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين

فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام المراقبة مع النفس ، وهي محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل ، وتارة قبله للتحذير . قال الله تعالى ( وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْلُغُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ <sup>(١)</sup> ) وهذا للمستقبل . وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة وتقصان فإنه يسمى محاسبة . فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة . وقد قال الله تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا <sup>(٣)</sup> ) وقال تعالى ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُمْ مَّا تَوْسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ <sup>(٤)</sup> ) ذكر ذلك لتحذير وتنبها للاحتراز منه في المستقبل . وروى <sup>(١)</sup> عبادة بن الصامت ، أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه ويمعظه « إِذَا أَرَدْتَ أَمْرًا فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ فَإِنْ كَانَ رُشْدًا فَاْمْضِهِ وَإِنْ كَانَ غِيًّا فَانْتِهِ عَنْهُ » وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة ، فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة . وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة

وروى شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أَلَسْ كَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَتَمَلَّ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأُخْرَى مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ » دان نفسه أي حاسبها . ويوم الدين يوم الحساب . وقوله ( أَيْنَا لَمَدِينُونَ <sup>(٥)</sup> ) أي لمحاسبون وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيؤوا للعرض الأكبر . وكتب إلى أبي موسى الأشعري : حاسب نفسك في الرخاء قبل

( ١ ) حديث عبادة بن الصامت إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته - الحديث : تقدم

( ٢ ) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت - الحديث : تقدم

( ١ ) البقرة : ٢٣٥ ( ٢ ) النساء : ٩٤ ( ٣ ) الحجرات : ٦ ( ٤ ) في ١٦ ( ٥ ) الصافات : ٥٢

حساب الشدة . وقال لكعب : كيف تجدها في كتاب الله ؟ قال ويل لذيّان الأرض من ذيان السماء ، فعلاه بالدرة وقال : إلا من حاسب نفسه . فقال لكعب : يا أمير المؤمنين ، إنها إلى جنبها في التوراة ، ما بينهما حرف ، إلا من حاسب نفسه  
وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل ، إذ قال : من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولاً ، وقدرها ، ونظر فيها ، وتدبرها ، ثم أقدم عليها فبأشرها

## المراقبة الثانية

### المراقبة

إذا أوصى الإنسان نفسه ، وشرط عليها ما ذكرناه ، فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال ، وملاحظتها بالعين الكائنة ، فإنها إن تركت طغت وفسدت .  
ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها

أما الفضيلة فقد <sup>(١)</sup> سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان . فقال : أن تعبد الله كأنك تراه . وقال عليه السلام <sup>(٢)</sup> « اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » وقد قال تعالى ( أَفَنَنْهَوُ قَائِمًا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ) <sup>(١)</sup> وقال تعالى ( أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ) <sup>(٢)</sup> وقال الله تعالى ( إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ) <sup>(٣)</sup> وقال تعالى ( وَالَّذِينَ هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ) <sup>(٤)</sup>

وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى . فسأله عن تفسيره ، فقال : كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدي رقيباً عليّ فلا أبالي بغيره وقال أبو عثمان المغربي : أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة ، وسياسة عمله بالعلم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات وقال الجريري : أمرنا هذا مبنياً على أصلين : أن نلزم أنفسنا المراقبة لله عز وجل ، ويكون العلم على ظاهره قائماً . وقال أبو عثمان : قال لي أبو حفص : إذا جلست للناس فكن واعظاً

( ١ ) حديث سأل جبريل عن الإحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه : متفق عليه من حديث أبي هريرة

ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم

( ٢ ) حديث اعبد الله كأنك تراه - الحديث : تقدم

(١) الرعد : ٣٣ (٢) العلق : ١٤٠ (٣) النساء : ١ (٤) العارج : ٣٢ ، ٣٣

لنفسك وقلبك ، ولا يفر نك اجتماعهم عليك ، فإنهم يراقبون ظاهرك ، والله رقيب على باطنك وحكي أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب ، وكان بكرمه ويقدمه ، فقال له بعض أصحابه : كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شبوخ ! فدعا بمدة طيور ، وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا ، وقال : ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد . ودفع إلى الشاب مثل ذلك ، وقال له كما قال لهم . فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ، ورجع الشاب والطائر حي في يده . فقال مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال لم أجد موضعا لا يراني فيه أحد ، إذ الله مطلع على كل مكان . فاستحسنوا منه هذه المراقبة ، وقالوا حق لك أن تكرم وحكي أن زليخا لما خلت يوسف عليه السلام ، قامت فغطت وجه صنم كان لها ، فقال يوسف : مالك ؟ أتستحيين من مراقبة جاد ، ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار !

وحكي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها ، فقالت له : ألا تستحي ؟ فقال ممن أستحي وما يرانا إلا الكواكب ؟ قالت فأين مكوكبها ؟ وقال رجل للجنيذ : بم أستعين على غض البصر ؟ فقال : بملك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيذ : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس ، وفيها حور خلقن من ورد الجنة . قيل له ومن يسكنها ؟ قال : يقول الله عز وجل . إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انشئت أصلاهم من خشيتي . وعزتي وجلالي ، إني لأثم بمذاب أهل الأرض ، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والمطش من مخافتني صرفت عنهم العذاب وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب تعالى

وقال المرتش : المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولقطة ويروى أن الله تعالى قال للملائكة : أتم موكلون بالظاهر ، وأنا الرقيب على الباطن وقال محمد بن علي الترمذي : اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا يخرج عن ملكه وسلطانه

وقال سهل : لم يتزين القلب بشئ أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان

وسئل بعضهم عن قوله تعالى ( رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ <sup>(١)</sup> )  
 فقال : معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل ، وحاسب نفسه ، وتزود لمعاده  
 وسئل ذوالنون : بم ينال العبد الجنة ؟ فقال : بخمس استقامة ليس فيها روغان ،  
 واجتهاد ليس معه سهو ، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية ، وانتظار الموت بالتأهب له ،  
 وحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب  
 ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ماتخفيه عنه يغيب  
 ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا للناظرين قريب  
 وقال حميد الطويل لسليمان بن علي عظمي فقال : لئن كنت إذ عصيت الله خاليا ظننت  
 أنه يراك لقد اجتأت على أمر عظيم . ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت  
 وقال سفيان الثوري : عليك بالمراقبة ممن لا تحفى عليه خافية ، وعليك بالرجاء ممن يملك  
 الوفاء ، وعليك بالحدذر ممن يملك العقوبة

وقال فرقد السنحى : إن المنافق ينظر ، فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء ، وإنما يراقب  
 الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله  
 عنه إلى مكة ، فرسنا في بعض الطريق ، فأنحدر عليه راعٍ من الجبل فقال له : ياراعى ،  
 يعنى شاة من هذه النعم . فقال إني مملوك . فقال قل لسيدك أكلها الذئب : قال فأين الله ؟  
 قال فبكى عمر رضي الله عنه ، ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه ، وقال أعتقتك  
 في الدنيا بهذه الكلمة ، وأرجو أن تعتقك في الآخرة

## بيان

حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب ، وانصراف الهم إليه . فن احترز من أمر من  
 الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعى جانبه . ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب  
 يشمرها نوع من المعرفة ، وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب

أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب ، واستغاله به ، والنفاته إليه ، وملا سخطه إياه ، وانصرفه إليه وأما المعرفة التي تتم هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر ، عالم بالسرائر ، رقيب على أعمال العباد ، قائم على كل نفس بما كسبت . وأن سر القلب في سقه مكشوف ، كما أن ظاهر البشارة للخلق مكشوف ، بل أشد من ذلك . فهذه المعرفة إذا صارت يقينا ، أعنى أنها خلت عن الشك ، ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته ، فرب علم لاشك فيه لا يئلب على القلب ، كالملم بالموت ، فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب ، وصرفت همه إليه .

والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين ، وإلى أصحاب اليقين فراقبتهم على درجتين :

الدرجة الأولى : مراقبة المقربين من الصديقين ، وهي مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ، ومنكسرا تحت الهيبة ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا . وهذه مراقبة لا تطول النظر في تفصيل أعمالها ، فإنها مقصورة على القلب أما الجوارح فإنها تعطل عن الالتفات إلى المباحات فضلا عن المحظورات وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها ، فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على منن السداد ، بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعى ، والقلب هو الراعى ، فإذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف

وهذا هو الذى صار همه هما واحدا ، فكفاه الله مائر الهموم ، ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق ، حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به . وقد يمر على ابنه مثلا فلا يكلمه ، حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك ، فقال لمن عاتبه : إذا صررت بى فخركنى

ولا تستبعد هذا ، فإنك تجد نظير هذا فى القلوب المعظمة للملوك الأرض ، حتى أن خدام الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك أشدة استغراقهم بهم . بل قد يشتغل للقلب بهم حقير من مهمات الدنيا ، فيغوص الرجل فى الفسكر فيه ويمشى ، فرما يجاوز الموضع الذى قصده ، وينسى الشغل الذى نهض له ، وقد قيل لعبد الواحد بن زبدة :

هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ فقال ما أعرف إلا رجلاً سيدخل  
عليكم الساعة . فما كان إلا سريراً حتى دخل غتة الغلام ، فقال له عبد الواحد بن زيد :  
من أين جئت يا غتة ؟ فقال : من موضع كذا ، وكان طريقه على السوق ، ففقال : من لقيت  
في الطريق ؟ فقال : ما رأيت أحسداً

ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة ، فدفعها فمسقطت على وجهها ،  
فقال له : لم فعلت هذا ؟ فقال ما ظننتها إلا جداراً

وحكي عن بعضهم أنه قال : مررت بجماعة يترامون ، وواحد جالس بعيداً منهم ،  
فتقدمت إليه ، فأردت أن أكله ، فقال : ذكر الله تعالى أشهى . فقلت أنت وحدك :  
فقال : معي ربي وملكاى . فقلت من سبق من هؤلاء ؟ فقال : من غفر الله له . فقلت أين  
الطريق ؟ فأشار نحو السماء ، وقام ومشى وقال : أكر خلقك شاغل عنك

فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى ، لا يتكلم إلا منه ، ولا يسمع إلا فيه . فهذا  
لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه ، فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه

ودخل الشبلى على أبى الحسين النورى وهو معتكف ، فوجده ساكناً حسن الاجتماع  
لا يتحرك من ظاهره شيء . فقال له : من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ؟ فقال من  
منور كانت لنا ، فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الحجر لا تتحرك لها شعرة

وقال أبو عبد الله بن خفيف : خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبى علي الروذبارى  
فقال لى عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد : إن فى صور شاباً وكهلاً قد اجتمعا على حال  
المراقبة فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما . فدخلت صور وأنا جائع عطشان ،  
وفى وسطى خرقة ، وليس على كتي شيء . فدخلت المسجد ، فإذا بشخصين قاعدين مستقبلى  
القبلة فسلمت عليهما فأجابانى . فسلمت ثانية وثالثة ، فلم أسمع الجواب . فقلت : نشدتكما بالله  
إلا تردنما على السلام . فرفع الشاب رأسه من مرقعته ، فنظر إلى وقال : يا ابن خفيف ،  
الدنيا قليل ، وما بقى من القليل إلا القليل ، فخذ من القليل الكثير . يا ابن خفيف ، ما أقل  
شغلك حتى تنفرغ إلى لقائنا . قال : فأخذ بكليتى ثم طأ رأسه فى المكان ، فبقيت عندهما حتى  
صلينا الظهر والعصر ، فذهب جوعى وعطشى وعنائى . فلما كان وقت العصر قلت : عظمى



فرفع رأسه إلى وقال : يا ابن خفيف ، نحن أصحاب المصائب ، ليس لسان المغنة فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ، ولا رأيتهما أكلا شربا ولا شربا . فلما كان اليوم الثالث قلت في سرى : أحلفهما أن يعطاني لمي أن أتضع بمظتهما . فرفع الشاب رأسه وقال لي : يا ابن خفيف ، عليك بصحبة من يذكر الله رؤيته ؛ وتقع هيئته على قلبك ، يعطك بلسان فعله ، ولا يعطك بلسان قوله والسلام ، قم عنا . فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتمظيم ، فلم يبق فيهم منزع لغير ذلك

الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليمين ، وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم ، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال ، بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال ، متسعة للتفت إلى الأحوال والأعمال ، إلا أنهم مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت فيه ، ويعتنمون عن كل ما يفتضحون به في القيامة ، فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة

وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات ، فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالا ، فيحضرك صبي أو امرأة ، فتعلم أنه مطلع عليك ، فتستحي منه ، فتحسن جلوسك ، وتراعى أحوالك لا عن إجلال وتمظيم ، بل عن حياء . فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغفرك فإنها تهيج الحياء منك . وقد يدخل عليك ملك من الملوك ، أو كبير من الأكرابر ، فيستغفرك التمظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به ، لا حياء منه

فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى . ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته ، وسكناته ، وخطراته ، ولحظاته ، وبالجملة جميع اختياراته وله فيها نظران ، نظر قبل العمل ، ونظر في العمل

أما قبل العمل فلينظر أن مآثره له وتحرك بفعله خاطره ، أهو لله خاصة؟ أهو في هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت ، حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ؛ فإن كان لله تعالى أمضاء وإن كان لغير الله استحيانا من الله وانكشف عنه ، ثم لام نفسه على رغبته فيه ،

وهه به ، وميله إليه ، وعرفها سوء فعلها ، وسعيها في فضيحتها ، وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته . وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه ، فإن في الخبر أنه <sup>(١)</sup> ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين ، الديوان الأول لم ؟ والثاني كيف ؟ والثالث لمن ؟ ومعنى لم أي لم فعلت هذا ؟ أكان عليك أن تفعله لمولاه أو ملئت إليه بشهوتك وهواك ؟ فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني ، فقبل له كيف فعلت هذا ؟ فإن لله في كل عمل شرطا وحكما لا يدرك قدره ، ووقته ، وصفته إلا بعلم ، فيقال له كيف فعلت ، أبعلم محقق ، أم بجهل وظن ؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث ، وهو المطالبة بالإخلاص ، فيقال له : لمن عملت ؟ الوجه الله خالصا وفاء بقولك لا إله إلا الله ، فيكون أجرك على الله ؟ أو لم آآ خلق مثلك ، فخذ أجرك منه أم عملته لتنال عاجل دنياءك ، فقد وفيناك نصيبك من الدنيا ، أم عملته بسهو وغفلة ، فقد سقط أجرك ، وحبط عملك ، وخاب سعيك . وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي ، إذ كنت عبدًا لي ، تأكل رزقي ، وترفقه بنعمتي ، ثم تعمل لغيري . أما سمعتي أقول ( إِنَّ اللَّهَ يَنْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَلُكُمْ <sup>(١)</sup> ) ( إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ <sup>(٢)</sup> ) ويحك ، أما سمعتي أقول ( أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ <sup>(٣)</sup> ) .

فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والنويخات طالب نفسه قبل أن تطالب ، وأعد للسؤال جوابا ، وليكن الجواب صوابا ، فلا يبدىء ولا يعيد إلا بعد التثبت ، ولا يحرك جفنا ولا أغملة إلا بعد التأمل . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ <sup>(٢)</sup> « إِنَّ الرَّجُلَ لَيُسْأَلُ عَنْ كُلِّ عَيْنِيهِ وَعَنْ فَتَّةِ الطَّيْنِ بِأَصْبَعِيهِ وَعَنْ لَمْسِهِ ثَوْبَ أَخِيهِ » وقال الحسن : كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت ، فإن كان لله أمضاه . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عندهم ، فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخر

( ١ ) حديث ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين الأول لم والثاني كيف والثالث

لمن : لم أقف له على أصل

( ٢ ) حديث قال لمعاذ إن الرجل ليسأل عن كل عينيه - الحديث : تقدم في الذي قبله

( ١ ) الأعراف : ١٩٤ ( ٢ ) العنكبوت : ١٧ ( ٣ ) الزمر : ٣

وقال في حديث <sup>(١)</sup> سعد حين أوصاه سلمان : اتق الله عند همك إذا هممت . وقال محمد بن علي : إن المؤمن وقاف متأن ، يقف عند همه ، ليس كحاطب ليل فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ، ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين ؛ والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال ، وأغوار النفس ، ومكايد الشيطان . فمتى لم يعرف نفسه ، وربّه وعدوّه إبليس ، ولم يعرف ما يوافق هواه ، ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وهيمته ، وفكرته ، وسكونه ، وحركته ، فلا يسلم في هذه المراقبة ، بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ولا تظن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر . هيهات ، بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم ، لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ، ومواضع الغرور ، فيتق ذلك . والجاهل لا يعرفه ، فكيف يجترئ منه ! فلا يزال الجاهل في تعب ، والشيطان منه في فرح وشماتة . فعمود بالله من الجهل والفلة ، فهو رأس كل شقاوة ، وأساس كل خسران

فحكّم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسميه بالجارحة ، فيثقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه ، أو هو لهوى النفس فيتقيه ، ويزجر القلب عن الفكر فيه ، وعن الهم به . فإن الخطرة الأولى في الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة ، والرغبة تورث الهم ، والهم يورث جزم القصد ، والقصد يورث الفعل ، والفعل يورث البوار والمقت . فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول ، وهو الخاطر ، فإن جميع ما وراءه يتبعه . ومهما أشكل على العبد ذلك ، وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له ، فيتفكر في ذلك بنور العلم ، ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى . فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضيء بنور علماء الدين وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان ، بل أشد ، فقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لا تسأل عني عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي ، أو ائلك قطاع الطريق على

( ١ ) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن اتق الله عند همك إذا هممت : أحمد والحاكم وصححه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم

عبادى . فالقلوب المظلمة بحب الدنيا ، وشدة الشره ، والتكالب عليها بحجوبة عن نور الله تعالى ، فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية ، فكيف يستضيء بها من استدورها وأقبل على عدوها ، وعشق بغيضا ومقيتها ، وهي شهوات الدنيا !

فلتكن همة المرید أولاً فى أحكام العلم ، أو فى طلب عالم معرض عن الدنيا ، أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْبَصَرَ النَّاقِدَ عِنْدَ وُرُودِ الشُّبُهَاتِ وَالْعَقْلَ الْكَامِلَ عِنْدَ هُجُومِ الشَّهَوَاتِ » جمع بين الأمرين ، وهما متلازمان حقاً . فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد فى الشبهات . ولذلك قال عليه السلام <sup>(٢)</sup> « مَنْ قَارَفَ ذَنْبًا فَارَقَهُ عَقْلٌ لَا يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَدًا » فما قدر العقل الضعيف الذى سعد آدمى به ، حتى يعمد إلى محوه وعقه بعارفة الذنوب

ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست فى هذه الأعصار ، فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم ، واشتغلوا بالتوسط بين الخلق فى الخصومات النائرة فى اتباع الشهوات ، وقالوا هذا هو الفقه ، وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم ، وبجروا لفقه الدنيا الذى ما قصد به إلا دفع الشوائل عن القلوب ليثفرخ لفقه الدين ، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه . وفى الخبر <sup>(٣)</sup> « أَنتُمْ الْيَوْمَ فِي زَمَانٍ خَيْرُكُمْ فِيهِ الْمَسَارِعُ وَسَيِّئَانِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ خَيْرُكُمْ فِيهِ الْمَتَشَبُّتُ » ولهذا توقف طائفة من الصحابة فى القتال مع أهل العراق وأهل الشام ، لما أشكل عليهم الأمر ، كسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة ، ومحمد بن مسلمة ، وغسبرم

فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعاً لهواه ، متمجياً برأيه ، وكان ممن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال <sup>(٤)</sup> « فَإِذَا رَأَيْتَ شُعْطًا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ » وكل من خاض فى شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى

(١) حديث إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات - الحديث : أبو نعيم فى الحلية من حديث عمران

ابن حصين وفيه حفص بن عمر العدنى ضعفه الجمهور

(٢) حديث من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً : تقدم ولم أجده

(٣) حديث أتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسبأى عليكم زمان خيركم فيه للتثبت : لم أجده

(٤) حديث فإذا رأيت شعاً مطاعاً وهوى متبعاً - الحديث : تقدم

( وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ <sup>(١)</sup> ) وقوله عليه السلام <sup>(١)</sup> « يَا كُفُّ وَالظَّنُّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ » وأراد به ظنا بغير دليل ، كما يستفتى بمض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه . ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق رضي الله تعالى عنه : اللهم أرني الحق حقا وارزقني اتباعه ، وأرني الباطل باطلا وارزقني اجتنابه ، ولا تجعله متشابها علي فاتبع الهوى <sup>(٢)</sup> وقال عيسى عليه السلام : الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبعه ، وأمر استبان غيه فاجتنبه ، وأمر أشكل عليك فكله إلى عاله . وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَقُولَ فِي الدِّينِ بِغَيْرِ عِلْمٍ » فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم ، وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ، ولذلك قال تعالى امتنانا على عبده ( وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا <sup>(٤)</sup> ) وأراد به العلم . وقال تعالى ( فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ <sup>(٥)</sup> ) وقال تعالى ( إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى <sup>(٦)</sup> ) وقال ( ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ <sup>(٧)</sup> ) وقال ( وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ <sup>(٨)</sup> )

وقال علي كرم الله وجهه : الهوى شريك المعى ، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، ونم طارد لهم اليقين ، وعاقبة الكذب الندم ، وفي الصدق السلامة . رب بعيد أقرب من قريب ، وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه . ولا يعدمك من حبيب سوء ظن ، نعم الخلق التكرم ، والحياء سبب إلى كل جميل ، وأوثق المرى التقوى ، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى . إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، والرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فإن لم تأته أتاك ، وإن كنت جازعا على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك ، واستدل على ما لم يكن بما كان ، فإنما الأمور أشباه ، والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليديره . فإنا لك من دنياك فلا تكثرن به فرحا ، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفا . وليكن سرورك بما قدمت ، وأسفك على ما خلفت ، وشغلك لآخرتك ، وهمك فيما بعد الموت . وغرضنا

( ١ ) حديث ابانم والظن - الحديث : تقدم

( ٢ ) حديث قال عيسى الامور ثلاثة - الحديث : الطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف

( ٣ ) حديث اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم : لم أجده

(١) الاسراء : ٣٦ (٢) النساء : ١١٣ (٣) النحل : ٤٣ (٤) الليل : ١٢ (٥) القيامة : ١٩ (٦) النحل : ٩

من نقل هذه الكلمات قواه ومن التوفيق التوقف عند الخبرة

فإذا نظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة، أهى لله أم للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً وَلَا يُرَآئِي بَشِيئَةً مِنْ عَمَلِهِ وَإِذَا عَرِضَ لَهُ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْيَا وَالْآخَرُ لِلْآخِرَةِ آثَرُ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا » وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحا، ولكن لا يعنيه فتركه لقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ »

النظر الثاني: للمراقبة عند الشروع في العمل، وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه، ويحسن النية في إتمامه، ويكمل صورته، ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه وهذا ملازم له في جميع أحواله، فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون. فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية، وحسن الفعل، ومراعاة الأدب. فإن كان قاعدا مثلا، فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة، لقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « خَيْرُ الْمَجَالِسِ مَا اسْتُقْبِلَ بِهِ الْقِبْلَةُ » ولا يجلس متربعا، إذ لا يجالس الملوك كذلك، وملك الملوك مطلع عليه. قال ابراهيم بن آدم رحمه الله: جلست مرة متربعا، فسمعت هاتفا يقول: هكذا تجالس الملوك؟ فلم أجلس بعد ذلك متربعا. وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة، مع سائر الآداب التي ذكرناها في مواضعها، فكل ذلك داخل في المراقبة. بل لو كان في قضاء الحاجة فراغاته لآدابها وفاء بالمراقبة. فإذا لا يخلو العبد إماما أن يكون في طاعة، أو معصية، أو في مباح. فراقبته في الطاعة بالإخلاص، والإكمال، ومراعاة الأدب، وحراستها عن الآفات. وإن كان في معصية فراقبته بالتوبة، والندم، والإقلاع، والحياء، والاشتغال بالتفكير. وإن كان في مباح فراقبته بمراعاة الأدب، ثم بشهود المنعم في النعمة، والشكر عليها

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها. ونعمة لا بد له من الشكر عليها. وكل ذلك من المراقبة. بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله تعالى عليه إما فعل

(١) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم - الحديث: أبو منصور الديلمي في مسند

الفردوس من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٢) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه: تقدم

(٣) حديث خير المجالس ما استقبل به القبلة الحاكم من حديث ابن عباس: وقد تقدم

يلزمه مباشرة ، أو محذور يلزمه تركه ، أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ، ويسابق به عباد الله ، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه ، وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة ( وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ <sup>(١)</sup> ) فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة . فإذا كان فارغا من الفرائض ، وقدر على الفضائل ، فينبغي أن يلتبس أفضل الأعمال ليشتمل بها ، فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون ، والأرباح تنال بمزايا الفضائل ، فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته ، كما قال تعالى ( وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا <sup>(٢)</sup> )

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة ، فإن الساعات ثلاث : ساعة مضت لاتعب فيها على العبد كيفما انتقضت في مشقة أو رفاهة ، وساعة مستقبلية لم تأت بعد ، لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ، ولا يدري ما يقضي الله فيها ، وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ، ويراقب فيها ربه . فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة ، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى . ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها ، بل يكون ابن وقته ، كأنه في آخر أنفاسه ، فلعلمه آخر أنفاسه وهو لا يدري . وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة ، وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه <sup>(١)</sup> أبو ذر رضي الله تعالى عنه ، من قوله عليه السلام « لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ طَاعِنًا إِلَّا فِي ثَلَاثٍ تَرَوْدُ لِمَلَأٍ أَوْ مَرَمَةٍ لِمَلَأٍ أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ » وما روي عنه أيضا في معناه <sup>(٢)</sup> « وَ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ وَسَاعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِيهَا فِي صُنْعِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِمُعْطَمٍ وَ الشَّرْبِ » فإن في هذه الساعة عون له على بقية الساعات ، ثم هذه الساعة التي هو فيها مشغول

( ١ ) حديث أبي ذر لا يكون للمؤمن طاعنا الا في ثلاث تزود لمعاد - الحديث : أحمد وابن حبان والحاكم وصححه

انه صلى الله عليه وسلم قال انه في صحف موسى وقد تقدم

( ٢ ) حديث وعلى العاقل ان يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجي فيها ربه - الحديث : وهي بقية حديث أبي ذر الذي قبله

الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو عن صل هو أفضل الأعمال ، وهو الذكر والفكر ، فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له ، كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح

والناس فيه أقسام : قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون في عجائب صنعه ، وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به ، وكيفية تقدير الله لأسبابه ، وخلق الشهوات الباعثة عليه ، وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه ، كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر ، وهذا مقام ذوى الألباب

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ، ويلاحظون وجه الاضطراب إليه ، وبودهم لو استغنوا عنه ، ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه ، مسخرين لشهواته ، وهذا مقام الزاهدين . وقوم يرون في الصنعة الصانع ، ويترقون منها إلى صفات الخالق ، فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تفتح عليهم بسببه ، وهو أعلى المقامات ، وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين ، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه ، وكتابه ، وتصنيفه ، نسي الصنعة ، واشتغل قلبه بالصانع . وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى ، فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جداً . وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص ، فيتأسفون على ما فاتهم منه ، ويفرحون بما حضرهم من جلته ، ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ، ويعيبونه ويذمون فاعله ، فيذمون الطيبخ والطباخ ، ولا يعمون أن الفاعل للطيبخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى ، وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ »

فهذه المراقبة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال . وشرح ذلك يطول ، وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول

( ١ ) حديث لاتسبوا الدهر فإن الله هو الدهر : مسلم من حديث أبي هريرة



## المرايطة الثالثة

محاسبة النفس بعد العمل . ولندكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقةها

أما الفضيلة فقد قال الله تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ <sup>(١)</sup> ) وهذه إشارة إلى المحاسبة على ماضى من الأعمال . ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا . وفي الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال : يا رسول الله أوصني . فقال « أُمْسِتَوْصِ أَنْتَ » فقال نعم : قال « إِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ فَتَدَبَّرْهُ عَاقِبَتُهُ فَإِنْ كَانَ رُشْدًا فَاْمْضِهِ وَإِنْ كَانَ غِيًّا فَانْتَبِهْ عَنْهُ » وفي الخبر ، وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ، ساعة يحاسب فيها نفسه وقال تعالى ( وَتَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ <sup>(٢)</sup> ) والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِنِّي لَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ » وقال الله تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ <sup>(٤)</sup> ) . وعن عمر رضي الله تعالى عنه ، أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنّه الليل ويقول لنفسه : ماذا عملت اليوم ؟

وعن ميمون بن مهران أنه قال : لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه . والشريك أن يتحاسبان بعد العمل

وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ما أحد من الناس أحب إليّ من عمر . ثم قال لها : كيف قلت ؟ فأعادت عليه ما قال ، فقال : لا أحد أعز عليّ من عمر . فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة ، فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها . وحديث <sup>(٥)</sup> أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته ، فتدبر ذلك ، فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندما ورجاء للموض مما فاتته

( ١ ) حديث أنى لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة : تقدم غير مرة

( ٢ ) حديث أبي طلحة حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حديثه صدقة : تقدم غير مرة

( ٣ ) الحشر : ١٧ ( ٢ ) النور : ٣١ ( ٤ ) الاعراف : ٢٠١

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب ، فقيل له يا أبا يوسف ، قد كان في  
 بئيك وغلما نك ما يكفونك هذا . فقال : أردت أن أجرب نفسي هل تكره  
 وقال الحسن : المؤمن قوام على نفسه يحاسبها الله . وإنما خف الحساب على قوم جاسبوا  
 أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة .  
 ثم فسر المحاسبة فقال : إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إنك لتمجيني ، وإنك  
 من حاجتي ، ولكن هيئات ، حيل بيني وبينك . وهذا حساب قبل العمل . ثم قال : ويفرط  
 منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ماذا أردت بهذا ؟ والله لا أعذر بهذا ، والله لا أعود  
 لهذا أبدا إن شاء الله . وقال أنس بن مالك : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه  
 يوما ، وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطاً ، فسمعتة يقول ، وبينى وبينه جدار  
 وهو في الحائط . عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ! بخ بخ ، والله لتتقين الله أو ليعذبنك  
 وقال الحسن في قوله تعالى (وَلَا تُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ<sup>(١)</sup>) قال لا يلقى المؤمن إلا  
 يعاتب نفسه ، ماذا أردت بكلمتي ؟ ماذا أردت بأكلتي ؟ ماذا أردت بشربتي ؟ والفاسح  
 يمضي قدما لا يعاتب نفسه . وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى : رحم الله عبدا قال لنفسه  
 ألسنت صاحبة كذا ؟ ألسنت صاحبة كذا ؟ ثم ذمها ، ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله تعالى  
 فكان له فائدة . وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه

وقال ميمون بن مهران : التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح  
 وقال إبراهيم التيمي : مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها  
 وأما نقي أبكارها . ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج  
 سلاسلها وأغلالها . فقلت لنفسى : يا نفس ، أي شيء تريد ، فقالت أريد أن أرد إلى الدنيا  
 فأعمل صالحا . قلت : فأنت في الأمانة فاعمل

وقال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول . رحم الله أمرا حاسب نفسه  
 قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله أمرا أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به ، رحم  
 الله أمرا نظر في مكيا له ، رحم الله أمرا نظر في ميزانه . فما زال يقول حتى أبكاني

وحكى صاحب اللاخنف بن فيس قال : كنت أصعبه ، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء  
وكان يحجى إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ، ثم يقول لنفسه . يا خفيف ،  
ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟

## بيان

حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق  
فينبغى أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها  
وسكناتها ، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة ، أو شهر ، أو يوم ، حرصا  
منهم على الدنيا ، وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته ، ولو  
حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما قلائل . فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر  
الشقاوة والسعادة أبد الآباد ! ماهذه المساهلة إلا عن الغفلة ، والخذلان ، وقلة التوفيق ،  
نموذ بالله من ذلك . ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال ، وفي الربح  
والخسران ، ليتبين له الزيادة من النقصان . فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره  
وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل . فكذلك رأس مال العبد في  
دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المماضى . وموسم هذه التجارة جملة  
النهار ، ومعاملة نفسه الأمانة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولا ، فإن أداها على وجهها  
شكر الله تعالى عليه . ورغبها في مثلها ، وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وإن أداها  
ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكبت معصية اشتغل بمقوبتها ، وتعذيبها ، ومعاتبتها  
ليستوفى منها ما يتدارك به ما فرط ، كما يصنع التاجر بشريكه

وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط ، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان  
حتى لا يغبى في شيء منها ، فينبغى أن ينقى غبينة النفس ومكرها ، فإنها خداعة ملبسة سكاره  
فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من  
الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره ، وأفكاره

وقيامه ، وقعوده ، وأكله ، وشربه ، ونومه ، حتى عن سكوته إنه لم سكت ، وعن  
سكونه لم سكن . فإذا عرف مجموع الواجب على النفس ، وصح عنده قدر أدى الواجب  
فيه ، كان ذلك القدر محسوبا له ، فيظهر له الباقي على نفسه ، فليثبت عليها ، وليكتبه على صحيفة  
قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون . أما بعضها فبالغرامة والضمان ، وبعضها  
برذّ عينه ، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك . ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب  
وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه . فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء

ثم ينبني أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما ، وساعة ساعة ، في جميع الأعضاء  
الظاهرة والباطنة ، كما نقل عن توبة بن الصمة ، وكان بالركة ، وكان محاسبا لنفسه ، فحسب  
يوما فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة  
يوم ، فصرخ وقال . يا ويلتي ، ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب ! فكيف وفي كل يوم  
عشرة آلاف ذنب ! ثم خر مغشيا عليه فإذا هو ميت . فسمعوا قائلا يقول . يالك ركضة  
إلى الفردوس الأعلى !

فكذا ينبني أن يحاسب نفسه على الأنفاس ، وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل  
ساعة . ولورمى العبد بكل معصية حجرا في داره لامتلائت داره في مدة يسيرة قريبة من  
عمره ، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي ، والمكان يحفظان عليه ذلك ، أحصاه الله ونسوه

## المراقبة الرابعة

في معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم من مقارفة معصية ، وارتكاب تقصير في حق الله تعالى ،  
فلا ينبني أن يهملها ، فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي ، وأنست بها نفسه ، وعسر  
عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها . بل ينبني أن يعاقبها . فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة  
نفس ينبني أن يعاقب البطن بالجوع . وإذا نظر إلى غير محرم ينبني أن يعاقب العين بمنع  
النظر . وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة

سالكى طريق الأحره ، فقد روي عن منصور بن ابراهيم ، أن رجلا من المباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على نغذها ، ثم ندم فوضع يده على النار حتى ييست وروي أنه كان في بنى اسرائيل رجل يتعبد في صومعه ، فكثت كذلك زمانا طويلا ، فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة ، فافتتن بها وهم بها ، فأخرج رجله لينزل إليها ، فأدركه الله بسابقة فقال : ما هذا الذى أريد أن أصنع ؟ فرجعت إليه نفسه ، وعصمه الله تعالى ، فندم . فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال : هيهات هيهات ، رجل خرجت تريد أن تعصى الله نعود معى في صومعتى ! لا يكون والله ذلك أبدا . فتركها معلقة في الصومعة نصيبها الأمطار ، والرياح ، والثلج ، والشمس ، حتى تقطعت فسقطت ، فشكر الله له ذلك ، وأنزل في بعض كتبه ذكره ويحكى عن الجنيد قال : سمعت ابن الكريبي يقول : أصابتنى ليلة جنابة ، فاحتجت أن أغتسل ، وكانت ليلة باردة ، فوجدت في نفسى تأخرا وتقصيرا ، فحدثتنى نفسى بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أو أدخل الحمام ، ولا أعنى على نفسى . فقلت واعجبا ! أنا عامل الله في طول عمرى ، فيجب له على حق ، فلا أجد في المسارعة ، وأجد الوقوف والتأخر ! آليت أن لا أغتسل إلا في مرتعتى هذه ، وآليت أن لا أتزعمها ، ولا أعصرها ، ولا أجففها في الشمس . ويحكى أن غزوان وأباموسى كانا في بعض منازلهما ، فكشفت جارية ، فنظر إليها غزوان ، فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال : إنك للعاقلة إلى ما يبصرك ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة ، فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينقص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبى سنان مر بفرقة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعينك ، لأعافبك بصوم سنة ، فصامها . وقال مالك بن ضيغم : جاء رباح القيسى يسأل عن أبى بعد المعصر ، فقلنا إنه نائم . فقال أنوم هذه الساعة ! هذا وقت نوم ! ثم ولى منصرفا . فأتبعناه رسولا وقلنا . ألا نوقظه لك ؟ فجاء الرسول وقال . هو أشغل من أن يفهم غنى شيئا ، أدركته وهو يدخل المنابر وهو يعاتب نفسه ويقول . أقلت وقت نوم هذه الساعة ؟ أفكان هذا عليك ؟ ينام الرجل متى شاء . وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم ؟ تسكمين بالآلامين ؟ أما إن لله علي عهدا لا أنقضه أبدا لأؤسدك الأرض لنوم حولا إلا لمرض حائل ، أو لمقل

زائل ، سواء لك ، أما تستحين ؟ كم توحنين ؟ وعن غيك لانتتهين ؟ قال وجمل ينيكي وهو لا يشعر بمكاني . فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته . ويحكى عن نعيم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها يتعبد ، فقام سنة لم ينيم فيها عقوبة للذى صنع

وعن<sup>(١)</sup> طلحة رضي الله تعالى عنه قال . انطلق رجل ذات يوم فزرع ثيابه وتمرغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه . ذوق نار جهنم أشد حرا . أجيفة بالليل بطلة بالنهار ! فينما هو كذلك إذ أبصر النبي صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة ، فأتاه فقال : غلبتني نفسى . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « أَلَمْ يَكُنْ لَكَ بُدٌّ مِّنَ اللَّذِي صَنَعْتَ أَمَا لَقَدْ فَتَحْتَ لَكَ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَقَدْ بَاهَى اللَّهُ بِكَ الْمَلَائِكَةَ » ثم قال لأصحابه « تَزَوَّدُوا مِنْ أَخِيكُمْ » فجعل الرجل يقول له يافلان ادع لى ، يافلان ادع لى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « عُمَمُهُمْ » فقال . اللهم اجعل التقوى زادهم ، واجمع على الهدى أمرهم . فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول « اللَّهُمَّ سَدِّدْهُ » فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مأبهم

وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهواتها ؟ فقال ماعلى وجه الأرض نفس أبغض إلي منها : فكيف أعطيها شهواتها !

ودخل ابن السماك على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب ، فقال يادادود ، سجننت نفسك قبل أن تسجن ، وعذبت نفسك قبل أن تمذب ، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له . وعن وهب بن منبه ، أن رجلا تمعد زمانا ، ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة ، فقام سبعين سبتا يأكل في كل سبت إحدى عشرة ثمرة ، ثم بآل حاجته فلم يعطها ، فرجع إلى نفسه وقال . منك أتيت ، لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك . فنزل إليه ملك وقال . يا ابن آدم ، ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت ، وقد قضى الله حاجتك

وقال عبد الله بن قيس : كنا في غزاة لنا ، فحضر المدو ، فصيح في الناس ، فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح ، وإذا رجل أعمى وهو يخاطب نفسه ويقول . أي نفسى ، ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لى أهلك وعيالك فأطمتك ورجعت ؟ ألم أشهد مشهد كذا

( ١ ) حديث طلحة انطلق رجل ذات يوم فزرع ثيابه وتمرغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه نار جهنم أشد

حرا - الحديث : بطوله ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس من رواية لبث بن أبي سليم عنه وهذا

منقطع أو مرسل ولا أدري من طلحة هذا

وكذا فقلت لى أهلك وعيالك فأطمئك ورجعت ؟ والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك . فقلت لأرمقنه اليوم ، فرمقته ، فحمل الناس على عدوم فكان فى أوائلهم . ثم إن العدو حمل على الناس فأنكشفوا ، فكان فى موضعه حتى أنكشفوا صرات ، وهو ثابت يقاتل فو الله ما زال ذاك دأبه حتى رأيته صريعا . فمددت به وبدأته ستين أو أكثر من ستين طمئة . وقد ذكرنا حديث أبى طلحة لما اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك . وأن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول . ماذا عملت اليوم وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح ، فوقع بصره على امرأة ، فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام فى الدنيا . وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل ، فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه . ما حملك على أن صنعت يوم كذا كذا ؟ وأنكر وهيب بن الورد شيئا على نفسه ، فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ، ثم جعل يقول لنفسه . ويحك ، إنما أريد بك الخير

ورأى محمد بن بشر دأود الطائى وهو يأكل عند إفطاره خبزا بغير ملح ، فقال له : لو أكلته بملح ؟ فقال : إن نفسى لتدعونى إلى الملح منذ سنة ، ولا ذاق داود ملحاً مادام فى الدنيا فهكذا كانت عقوبة أروى الحزم لأنفسهم . والمجب أنك تعاقب عبدك ، وأمتك ، وأهلك ، وولدك ، على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير فى أمر ، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبنوا عليك ، ثم تهمل نفسك وهى أعظم عدو لك ، وأشد طغيانا عليك ، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك ، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة ، وأن فيه النعيم المقيم الذى لا آخر له . ونفسك هى التى تنقص عليك عيش الآخرة . فهى بالمعاقبة أولى من غيرها

## المرا بطة الخامسة

### المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه قرأها قد قارفت ممصية ، فينبى أن يعاقبها بالعقوبات التى مضت . وإن رآها تتوانى بحكم الكسل فى شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد ،

فينبى أن يؤدبها بتقبل الأوراد عليها ، ويلزمها ، فنونا من الوظائف جبرا لما فات منه ،  
وتداركا لما فرط ، فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى . فقد طاب عمر بن الخطاب نفسه  
حين فاتته صلاة العصر في جماعة ، بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم  
وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحياء تلك الليلة . وأخر ليلة صلاة المغرب حتى  
طلع كوكبان ، فأعتق رقتين . وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر . فاعتق رقبة .  
وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة ، أو الحج ماشيا ، أو التصديق بجميع ماله ، كل  
ذلك مرابطة للنفس ومواخاة لها بما فيه نجاتها

فإن قلت : إن كانت نفس لا تطوعني على المجاهدة والمواظبة على الأوراد ، فاسبيل معالجتها ؟  
فأقول : سبيلك في ذلك أن تسمعها ماورد في الأخبار من فضل المجتهدين <sup>(١)</sup> ومن  
أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحة عبد من عباد الله يجتهد في العبادة ، فتلاحظ أقواله  
وتقتدى به . وكان بعضهم يقول : كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال  
محمد بن واسع ، وإلى اجتهداه ، فعملت على ذلك أسبوعا . إلا أن هذا العلاج قد تعذر ،  
إذ قد نُقِدَ في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهد الأولين ، فينبى أن يعدل من  
المشاهدة إلى السماع ، فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ، ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه  
من الجهد الجهد ، وقد انقضى تعبهم ، وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع ، فاعظم  
ملكهم ، وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم ، فيمتع نفسه أياما قلائل بشهوات مكذبة ،  
ثم يأتيه الموت ، ويحال ينهو بين كل ما يشتهي أبد الآباد ! نعوذ بالله تعالى من ذلك

ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد اقتداء  
بهم . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> : « رَجِمَ اللَّهُ أَقْوَامًا يَحْسِبُهُمُ النَّاسُ مَرْضَى

( ١ ) الأخبار الواردة في حق المجتهدين : أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص من قام بعض آيات

لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من الثمانين ومن قام بألف آية كتب من القنطريين  
وله والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة باسناد صحيح رحم الله رجلا قام من الليل فصلى  
وأبغض امرأته ولترمدى من حديث بلال عليه السلام بقبام الليل فانه دأب الصالحين قبله - الحديث :

وقال غريب ولا يصح وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذلك

( ٢ ) حديث رحم الله أقواما يحسبهم مرضى ومأم بمرضى : لم أجده أصلا في حديث مرفوع ولكن رواه أحمد

في الزهد موقفا على علي في كلام له قال فيه ينظر اليهم الناظر فيقول مرضى ومأبالقوم من مرضى



وَمَا هُمْ بِمَرْضَى » قال الحسن : أجهدتهم العبادة . قال الله تعالى ( وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ <sup>(١)</sup> ) قال الحسن : يعملون ماعملوا من أعمال البر ، ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « طُوبَى لِمَنْ طَالَ حُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ » . و يروى أن الله تعالى يقول للملائكة : مبال عبادى مجتهدين ، فيقولون إلهنا خوفهم شيئا يخافوه ، وشوقهم إلى شيء فاشتاقوا إليه . فيقول الله تبارك وتعالى : فكيف لو رآنى عبادى لكانوا أشد اجتهادا

وقال الحسن : أدركت أقواما وصحبت طوائف منهم ، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذى تطؤنه بأرجلكم إن كان أحدهم يعيش عمره كله ما طوى له ثوب ، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ، ولا جعل يده وبين الأرض شيئا قط . وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ، إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفتشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم يثاجون ربهم فى فكاك رقابهم . إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ، ودأبوا فى شكرها . وسألوا الله أن يتقبلها . وإذا عملوا السيئة أحزنتمهم ، وسألوا الله أن يغفرها لهم . والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك ، والله ما ساموا من الذنوب ، ولا نجوا إلا بالمغفرة

ويحكى أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه فى مرضه ، وإذا فيهم شاب ناحل الجسم . فقال عمر له : يافتي ، ما الذى بلغ بك ما أرى ؟ فقال يأمير المؤمنين ، أسقام وأمراض . فقال سألتك بالله إلا صدقتنى . فقال يأمير المؤمنين ، ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة ، وصغر عندى زهرتها وحلاوتها ، واستوى عندى ذهبها وحجرها ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى والناس يساقون إلى الجنة والنار ، فأظلمات لذلك نهارى ، وأسهرت ليلى ، وقليل حقير كل ما أنا فيه فى جنب ثواب الله وعقابه

وقال أبو نعيم : كان داود الطائى يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز ، فقبل له فى ذلك ، فقال :

( ١ ) حديث طوبى لمن طال عمره وحسن عمله : الطبرانى من حديث عبد الله بن بشر وفيه بقية رواء بصيغة عن وهو مدلس والترمذى من حديث أبي بكر خير الناس من طال عمره وحسن عمله وقال

حسن صحيح وقد تقدم

بين مضجع الخبير وشرب الفتيت قراءة خمسين آية . ودخل رجل عليه يوما فقال : إن في  
سقف بيتك جذعا مكسورا . فقال : يا ابن أخي ، إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت  
إلى السقف . وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام  
وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر ، فما التفت  
عنة ولا يسرة ، فقبل له في ذلك ، فقال : إن الله عز وجل خلق الميتين لينظر بهما العبد إلى  
عظمة الله تعالى . فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة  
: وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وسافاه متفتختان من طول الصلاة .  
وقالت : والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له

وقال أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا : الظمأ لله بالهواجر ،  
والسجود لله في جوف الليل ، وبجاسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر .  
وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة ، ويصوم في الحر ، حتى يخضر جسده ويصفر ،  
فكان علقمة بن قيس يقول له : لم تعذب نفسك ؟ فيقول كرامتها أريد . وكان يصوم حتى  
يخضر جسده ، ويصلي حتى يسقط . فدخل عليه أنس بن مالك والحسن ، فقالا له : إن  
الله عز وجل لم يأمر بك بكل هذا . فقال إنما أنا عبد مملوك ، لأدع من الاستكانة شيئا  
إلا جئت به . وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجله ،  
فكان يصلي جالسا ألف ركعة ، فإذا صلى العصر احتجى ثم قال : عجبت للخليقة كيف  
أرادت بك بدلا منك ! عجبت للخليقة كيف أنست بسواك ! بل عجبت للخليقة كيف  
استنارت قلوبها بذكر سواك ،

وكان ثابت البناني قد حبيت إليه الصلاة ، فكان يقول : اللهم إن كنت أذنت لأحد  
أن يصلي لك في قبره فائذن لي أن أصلي في قبري . وقال الجنيد : ما رأيت أعبد من  
المرء ، أتمت عليه ثمان وتسعون سنة مارؤي مضطجعا إلا في علة الموت . . .  
وقال الحارث بن سعد : مرّ قوم براهب ، فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده ،  
فكلموه في ذلك فقال : وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقة الأحوال وم غافلون ! قد  
اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ، ونسوا حظهم الأكبر من ربهم . فبكى القوم عن آخرهم

ومن أبي محمد المازلي قال : جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة ، فلم ينم ، ولم يتكلم ، ولم يستند إلى صمود ولا إلى حائط ، ولم يمد رجله . فمبر عليه أبو بكر الكتاني ، فلم عليه . وقال له : يا أبا محمد ، بم قدرت على اعتكافك هذا ؟ فقال : علم صدق باطني فأعاني على ظاهري فأطرق الكتاني ومشي مفكرا

وعن بعضهم قال : دخلت على فتح الموصلي ، فرأيت قدمه كفيه يكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه . فدنوت منه ، فإذا دموعه قد خالطها صفرة . فقلت ولم بالله يافتح بكيت الدم ؟ فقال لولا أنك أحلفتني بالله ما أخبرتك . نعم بكيت دما فقلت له : على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال على تخافي عن واجب حق الله تعالى . وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لي الدموع . قال : فرأيت بعد موته في المنام فقلت : ما صنع الله بك ؟ قال : غفر لي . فقلت له فإذا صنع في دموعك ؟ فقال : قربني ربي عز وجل وقال لي : يافتح الدمع على ماذا ؟ قلت يارب على تخلفي عن واجب حقك ، فقال والدم على ماذا ؟ قلت على دموعي أن لا تصح لي . فقال لي : يافتح ما أردت بهذا كله ؟ وعزني وجلالي لقد صعد حافظك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة

وقيل إن قوما أرادوا سفرا ، فخذوا عن الطريق ، فأتوها إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه ، فأشرف عليهم من صومعته ، فقالوا ياراهب ، إنا قد أخطأنا الطريق ، فكيف الطريق ؟ فأومأ برأسه إلى السماء . فعلم القوم ما أراد . فقالوا ياراهب ، إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال سلوا ولا تكثروا ، فإن النهار لن يرجع ، والمبر لا يمبود ، والطالب حثيث . فمجب القوم من كلامه فقالوا : ياراهب ، علام الخلق غداً عند مليكهم ؟ فقال على نياتهم . فقالوا : أوصنا . فقال : تزودوا على قدر سفركم ، فإن خير الزاد ما بلغ البغية . ثم أرشدهم إلى الطريق ، وأدخل رأسه في صومعته

وقال عبد الواحد بن زيد : مررت بصومعة راهب من رهبان الصين ، فناديته ياراهب فلم يجبني ، فناديته الثانية فلم يجبني ، فناديته الثالثة فأشرف علي وقال : يا هذا ما أنا براهب ، إنما الراهب من رهب الله في سمائه ، وعظمه في كبريائه ، وصبر على بلائه ، ورضي بقضائه

وحده على آلائه ، وشكره على نعمائه ، وتواضع لمظمته ، وذل لعزته ، واستسلم لقبوته ،  
وخضع لمهاجته ، وفكر في حسابه وعقابه ، فهاهنا صائم ، وليله قائم ، قد أسهره ذكر النار  
ومسألة الجبار ، فذلك هو الراهب ، وأما أنا فكلب عقور ، حبست نفسي في هذه الصومعة  
عن الناس لئلا أعظم . فقلت ياراهب : فما الذي قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه ؟ فقال  
يأخى لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها ، لأنها محل المعاصي والذنوب ، والمآكل  
من دنى بها عن قلبه ، وتاب إلى الله تعالى من ذنبه ، وأقبل على ما يقربه من ربه

وقيل لداود الطائي : لو سرحت لحيتك ؟ فقال إني إذاً لفارغ  
وكان أويس القرني يقول : هذه ليلة الركوع ، فيحيي الليل كله في ركعة . وإذا كانت  
الليلة الآتية قال : هذه ليلة السجود ، فيحيي الليل كله في سجدة  
وقيل لما تاب عتبة الغلام : كان لا يتهنأ بالطعام والشراب ؟ فقالت له أمه : لو رفقت  
بنفسك ؟ قال : الرقى أطلب ، دعيني أتعب قليلاً وأتعم طويلاً  
وحج مسروق فما نام قط إلا ساجداً . وقال سفيان الثوري : عند الصباح يحمد القوم  
السري ، وعند الممات يحمد القوم التقي

وقال عبد الله بن داود : كان أحدم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه ، أي كان لا ينام  
طول الليل . وكان كهس بن الحسن يصلي كل يوم ألف ركعة ، ثم يقول لنفسه : قوى  
يامأوى كل شر . فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ، ثم كان ييكي ويقول : ذهب نصف عملي  
وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له : ياأبت مالى أرى الناس ينامون وأنت لاتنام ؟  
فيقول : ياابنتاه ، إن أباك يخاف اليات

ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسهر ، نادته يا بني : لعلك قتلت قتيلاً ؟  
قال : نعم يأماه ، قالت : فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك ، فوالله لو يعلمون ما أنت فيه  
لرحموك وعفوا عنك ؟ فيقول : يأماه هي نفسي

وعن عمر ابن أخت بشر بن الحارث قال : سمعت خالي بشر بن الحارث يقول لآخى :  
يأخى ، جوفى وخواصرى تضرب علي . فقالت له أمى : يأخى ، تأذن لى حتى أصلح لك  
قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه يرم جوفك ؟ فقال لها : ويحك ، أخاف أن يقول

من أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدري ابش أقول له . فبكيت أُمى ، وبكى معها ، وبكيت معهم قال عمر : ورأت أُمى ما يشر من شدة الجوع ، وجعل ينفس نفسا ضعيفا ، فقالت له أُمى : يا أخى ، ليت أمك لم تلدنى ، فقد والله تقطعت كبدى مما أرى بك . فسمعتة يقول لها : وأنا فليت أُمى لم تلدنى ، وإذ ولدتنى لم يدّر ثديها علي . قال عمر : وكانت أُمى تبكى عليه الليل والنهار . وقال الربيع : أتيت أوبسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ، ثم جلس فجلست ، فقلت لأشغله عن التسبيح ، فكنت مكانه حتى صلى الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت مكانه حتى صلى المشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فقلبتة عيناه فقال : اللهم إني أعوذ بك من عين نومة ، ومن بطن لا تشبع . فقلت حسبي هذا منه ، ثم رجعت ونظر رجل إلى أوبس فقال : يا أبا عبد الله ، مالى ألك كأنك مريض ؟ فقال وما لأوبس أن لا يكون مريضا ؛ يُطعمُ المريض وأوبس غير طاعم ، وينام المريض وأوبس غير نائم . وقال أحمد بن حرب : يا عجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه ، وأن النار تسعر تحته ، كيف ينلم بينهما . وقال رجل من النساء : أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى المشاء ، فقمعت أرقبه ، فلف نفسه بعباءة ، ثم رعى بنفسه ، فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن ، فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءا . فذاك ذلك فى صدرى ، فقلت له : رحمك الله ، قد نمت الليل كله مضطجعا ، ثم لم تجدد الوضوء ؟ فقال كنت الليل كله جائلا فى رياض الجنة أحيانا ، وفى أودية النار أحيانا ، فهل فى ذلك نوم وقال ثابت البناني : أدركت رجلا كان أحدهم يصلى فيعجز عن أن يأتى فراشه إلا حبواً وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ، وتزل الماء فى إحدى عينيه فكثت عشرين سنة لا يعلم به أهله ، وقيل كان ورد سمنون فى كل يوم خمسمائة ركة ، وعن أبي بكر المطوعى قال : كان وردى فى شيبتي كل يوم وليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد إحدى وثلاثين ألف مرة ، أو أربعين ألف مرة ، شك الراوى وكان منصور بن المتمر إذا رأيته قلت : رجل أصيب بمصيبة ، منكسر الطرف ، منخفض الصوت ، رطب العينين ، إن حركته جاءت عيناه بأربع . ولقد قالت له أمه

ما هذا الذي تصنع بنفسك ؟ بكى الليل عامته لانسكت ! لعلك يا بني أصبت نفسا ، لملك  
قتلت قتيلًا . فيقول يأمه ، أنا أعلم بما صنعت بنفسي

وقيل لعامر بن عبد الله : كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر ؟ فقال هل هو  
إلا أني صرفت طعام النهار إلى الليل ، ونوم الليل إلى النهار ، وليس في ذلك خطير أمر  
وكان يقول : ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ، ولا مثل النار نام هاربها .. وكان إذا جاء  
الليل قال : أذهب حر النار النوم ، فما ينام حتى يصبح . فإذا جاء النهار قال : أذهب حر النار  
النوم ، فما ينام حتى يمسي فإذا جاء الليل قال : من خاف أدلج . وعند الصباح يحمد القوم السرى  
وقال بعضهم : صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار  
ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال : ضليت  
مخلف علي رضي الله تعالى عنه الفجر ، فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة ، فكث حتى  
طلعت الشمس ، ثم قلب يده وقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وما  
أرى اليوم شيئًا يشبههم ، كانوا يصبحون شعنا ، غبرا ، صفرا ، قد باتوا لله سجدا وقياسا  
يتلون كتاب الله ، يراوحن بين أقدامهم وجباههم . وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما  
يميد الشجر في يوم الريح . وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، وكان القوم باتوا غافلين  
بمعنى من كان حوله

وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطا في مسجد بيته يخوف به نفسه ، وكان يقول  
لنفسه : قومي فوالله لأزحفن بك زحفا حتى يكون الكلل منك لأمني . فإذا دخلت الفترة  
تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول : أنت أولى بالضرب من دابتي . وكان يقول : أيقظن  
أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا ؟ كلا والله ، لنزاحهم عليه زحاما حتى  
يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالا . وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من  
أطول القيام ، وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غدا ما وجد متزايدا . وكان إذا جاء الشتاء  
اضطجع على السطح ليضر به البرد ، وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر  
فلا ينام . وإنه مات وهو ساجد ، وإنه كان يقول : اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي  
وقال القاسم بن محمد : غدوت يوما ، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضي الله عنها

أسلم عليها . ففقدت يوما إليها ، فإذا هي تصلى صلاة الضحى وهي تقرأ ( فَنِّ اللَّهُ عَلَيْنَا )  
وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ<sup>(١)</sup> ) وتبكي وتدعو وتردد الآية . فقامت حتى مللت ، وهي كما هي ،  
فما سأرت ذلك ذهبت إلى السوق ، فقلت أفرغ من حاجتي ثم أرجع . ففرغت من حاجتي  
ثم رجعت وهي كما هي ، تردد الآية وتبكي وتدعو

وقال محمد بن إسحق : لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجا اعتلت إحدى قدميه ،  
فقام يصلى على قدم واحدة ، حتى صلى الصبح بوضوء العشاء

وقال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل  
وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر ،  
وعمش العيون من البكاء ، وذبول الشفاه من الصوم ، عليهم غبرة الخاشعين  
وقيل للحسن : ما بال المهجدين أحسن الناس وجوها ؟ فقال لأنهم خلوا بالرحمن  
فألهمهم نورا من نوره . وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلهي خلقتني ولم تؤامرني ،  
وتمينني ولا نعماني ، وخلقت معي عدوا ، وجعلته يجرى مني مجرى الدم ، وجعلته يراني  
ولا أراه ، ثم قلت لي استمسك ، إلهي كيف استمسك إن لم تمسكني ؟ إلهي في الدنيا الهموم  
والأحزان ، وفي الآخرة العقاب والحساب ، فأين الراحة والفرح ؟

وقال جعفر بن محمد : كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات ، كان إذا صلى العتمة  
وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه  
يتفكر ، فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا كان  
السبحر صاح صيحة . قال جعفر بن محمد : أخذت به بعض البصريين فقال : لا تنظر إلى  
صياحه ، ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح

وعن القاسم بن راشد الشيباني قال : كان زمعة نازلا عندنا بالحصب ، وكان له أهل  
وبنات ، وكان يقوم فيصلي ليلا طويلا ، فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب  
المعرسون ، أكل هذا الليل ترقدون ! أفلا تقومون فترحلون ؟ فيتواثبون ، فيسمع من  
ههنا بك ، ومن ههنا داع ، ومن ههنا قاري ، ومن ههنا متوضي . فإذا طلع الفجر نادى

باعلى صوته : عند الصباح بحمد القوم المرى  
وقال بعض الحكماء : إن لله عبادا أنعم عليهم فعرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه ،  
وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه ، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين ، ويوتا  
للحكمة ، وتوايت للعظمة ، وخزانة للقدرة ، فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون ، وقلوبهم  
تجول في الملكوت ، وتلوذ بحجوب الغيوب ، ثم ترجع ومعا طوائف من لطائف  
القوائد ، وما لا يمكن واصفا أن يصفه ، فهم في باطن أمورهم كالدياج حسنا ، وم في الظاهر  
مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعا . وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف ، وإنما  
هو فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس ، إذ هبطت إلى واد  
هناك ، فإذا أنا بصوت قد علا ، وإذا تلك الجبال تجيبه لها دوي عال . فاتبعت الصوت ،  
فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف ، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية ( يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ  
نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّراً <sup>(١)</sup> ) إلى قوله ( وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ <sup>(٢)</sup> ) قال جلست  
خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خر مغشياً عليه . فقلت وا أسفاه ،  
هذا لشقائي . ثم انتظرت إفاقته ، فأفاق بعد ساعة ، فسمعتة وهو يقول : أعوذ بك من  
مقام الكذابين ، أعوذ بك من أعمال الباطلين ، أعوذ بك من إعراض النافلين . ثم قال :  
لك خشعت قلوب الخائفين ، وإليك فرغت آمال المقصرين ، ولعظمتك ذلت قلوب العارفين  
ثم نقض يده فقال : مالي وللدنيا ، ومال الدنيا لى . عليك يا دنيا بأبناء جنسك ، وآلاف  
نعمتك ، إلى عبيك فاذهبي ، وإياهم فاخذعي . ثم قال : أين القرون الماضية ، وأهل الدهور  
السالفة ، فى التراب ييلون ، وعلى الزمان يفتنون . فتأديته يا عبد الله ، أنا منذ اليوم خلقت  
أنتظر فراغك . فقال : وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره ، يخاف سبقها بالموت  
إلى نفسه ! أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه ! ثم قال : أنت لها ولكل شدة  
أتوقع نزولها . ثم لها غنى ساعة وفرأ ( وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَهُمْ بِكَوْنُوا يَخْتَسِبُونَ <sup>(٣)</sup> )  
ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى ، وخر مغشياً عليه ، فقلت قد خرجت روحه .



فدوت منه فإذا هو يضطرب ، ثم أفاق وهو يقول : من أنا ؟ ما خاطرى ؟ هب لي إساءتي من فضلك ؛ وجلالني بسترك ، واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك . فقلت له : بالذي ترجوه لنفسك وتنق به إلا بكيتي . فقال : عليك بكلام من ينفعك كلامه ، ودع كلام من أوبقته ذنوبه . إني لفي هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدني ، فلم يجد عونا علي ليخرجني مما أنا فيه غيرك . فإليك عنى يا مخدوع ، فقد عطلت علي لساني ، وميلت إلى حديثك شعبة من قلبي . وأنا أعوذ بالله من شرك ، ثم أرجو أن يبيدني من سخطه ، ويتفضل علي برحمته . قال : فقلت هذا ولي الله أخاف أن أشغله فأعاقب في موضعي هذا . فأنصرفت وتركته

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير في مسير لي ، إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف علي فقال لي : يا هذا قم ، فإن الموت لم يمت ، ثم هام علي وجهه فاتبعته ، فسمعته وهو يقول ( كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ <sup>(١)</sup> ) اللهم بارك لي في الموت . فقلت وفيما بعد الموت . فقال : من أيقن بما بعد الموت شمر مئذ الحذر ، ولم يكن له في الدنيا مستقر . ثم قال : يامن لوجه عنت الوجوه ، ييئس وجهي بالنظر إليك ، واملا قلبي من المحبة لك ، وأجرتني من ذل التوبيخ غدا عندك ، فقد آن لي الحياء منك ، وحان لي الرجوع عن الإعراض عنك . ثم قال : لولا حاكمك لم يسعني أجلى ، ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملي . ثم مضى وتركني ، وقد أنشدوا في هذا المعنى

تحيل الجسم مكتتب الفؤاد	تراه بقعة أو بطن وادي
ينوح على معاص فاضحات	يكدر ثقلها صفو الرقاد
فإن هاجت مخاوفه وزادت	فدعوته أغثنى يا عمادي
فأنت بما ألقىه عليم	كثير الصفح عن زلل العباد

وقيل أيضا

أله من التلذذ بالنوائ	إذا أقبلن في حلل حسان
منيب فر من أهل وسال	يسبح إلى مكان من مكان

ليخمل ذكره ويميشن فردا      وبظهر في العبادة بالأمانى  
تلهذه التلاوة أين ولى      وذكر بالفؤاد وباللسان  
وعند الموت يأتيه بشير      يبشر بالنجاة من الهوان  
فيدرك ما أراد وما تمنى      من الراحة فى غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القراءة فى كل يوم ثلاث مرات . ويجاهد نفسه فى العبادات  
فأية المجاهدة ، فقبل له : قد أجهدت نفسك . فقال : كم عمر الدنيا ؟ فقبل : سبعة آلاف سنة  
فقال : كم مقدار يوم القيامة ؟ فقبل : خمسون ألف سنة . فقال : كيف يعجز أحدكم أن يعمل  
سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم ! بئنى أنك لو عشت عمر الدنيا ، واجتهدت سبعة آلاف  
سنة ، وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة ، لكان ربحك كثيرا ،  
وكنت بالرغبة فيه جديرا . فكيف وعمرك قصير ، والآخرة لا غاية لها

فكذا كانت سيرة السلف الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها . فهما تمردت نفسك  
عليك ، وامتنعت من المواظبة على العبادة ، فطالع أحوال هؤلاء ، فإنه قد عز الآن وجود  
مثلهم . ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع فى القلب ، وأبعث على الاقتداء  
فابس الخبر كالمعاينة . وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء ، فإن لم تكن  
إبل فعزى ، وخبر نفسك بين الاقتداء بهم والكون فى زميرهم وغمارهم ، وهم العقلاء  
والحكماء وذوو البصائر فى الدين ، وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك . ولا  
ترضى لها أن تنخرط فى سلك الحق ، وتقع بالنسبة بالأغبياء ، وتؤثر مخالفة العقلاء ، فإن  
حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم ، فطالع أحوال النساء المجتهدات  
وقل لها يانفس لا تستنكى أن تكونى أقل من امرأة ، فأخس برجل يقصر عن  
امرأة فى أمر دينها ودنياها

ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات . فقد روي عن حبيبة المدوية أنها كانت  
إذا صلت العتمة قامت على سطح لها ، وشدت عليها درعها وخمارها ، ثم قالت : إلهى  
قد هارت النجوم ، ونامت المبون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلال كل حبيب بحبيبه ، وهذا  
مقامى بين يديك . ثم تقبل على صلاتها . فإذا طلع الفجر قالت : إلهى هذا الليل قد أدبر ،

وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنتها، أم رددتها عليّ فأعزى؟ وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما أبقتني . وعزتك لو أنهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من جودك وكرمك . وبرى عن عجرة أنها كانت تحيي الليل، وكانت مكفوفة البصر؛ فإذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون، إليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك ، فبك يا إلهي أسألك لا بنيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين ، وأن ترفني لديك في عليين في درجة المقرين، وأن تلحقني بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم المظماء ، وأكرم الكرماء يا كريم . ثم نخر ساجدة فيسمع لها وجبة ، ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر . وقال يحيى بن بسطام : كنت أشهد مجلس شعوانة ، فكنت أرى ماتصنع من النياحة والبكاء ، فقلت لصاحب لي . لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها ؟ فقال أنت وذاك . قال فأتيناها فقلت لها : لو رقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئا فكان لك أفوى على ماتريدين ؟ قال فبكيت ثم قالت : والله لوددت أني أبكي حتى تنفد دموعي ، ثم أبكي دما حتى لا تبقى قطرة من دم في جراحة من جوارحي ، وأنى لي بالبكاء ، وأنى لي بالبكاء . فلم تزل تردد . وأنى لي بالبكاء ، حتى غشي عليها

وقال محمد بن معاذ : حدثتني امرأة من المتعبدات قالت : رأيت في منامي كأنني أدخلت الجنة ، فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم ، فقلت ماشأن أهل الجنة قيام ؟ فقال لي قائل . خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها . فقلت ومن هذه المرأة ؟ فقيل أمة سوداء . من أهل الأيكة يقال لها شعوانة . قالت فقلت أختي والله . قالت فينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجبية تطير بها في الهواء ، فلما رأيتها ناديت يا أختي أما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك ، قالت فتبسمت إليّ وقالت لم يأن لقدومك ولكن احفظي عنى اثنتين ، ألزى الحزن قلبك ، وقدمى محبة الله على هوالك ولا يضرك متى مت . وقال عبد الله بن الحسن : كانت لي جارية رومية ، وكنت بها منجبا ، فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي ، فانتبهت فالتفتها فلم أجدها ، فقممت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول . بحبك لي ألا ماغفرت لي ذنوبي . فقلت لها : لا تقول بحبك لي ،

ولكن قولي بحبي لك ، فقالت : لا ، يا مولاي بحبه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام ، وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام

وقال أبو هاشم القرشي : قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية ، فنزلت في بعض ديارنا ، قال فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا ، فقلت يوما لخادم لي : أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع ، قال فأشرف عليها فآها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول : خلقت سرية ، ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال ، وكل أحوالك لها حسنة ، وكل بلائك عندها جميل ، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوئب على معاصيك فلتة بعد فلتة ، أترأها تظن أنك لا ترى سوء فعلها وأنت عليم خبير ، وأنت على كل شيء قدير .

وقال ذو النون المصري : خرجت ليلة من وادي كنعان ، فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل عليّ وهو يقول ( وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَالٌ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ <sup>(١)</sup> ) ويبيكي . فلما قرب مني السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف ، ويدها ركوة ، فقالت لي : من أنت ؟ غير فرعة مني . فقلت رجل غريب . فقالت يا هذا ، وهل يوجد مع الله غربة ؟ قال فبكيت لقولها . فقالت لي : ما الذي أبكاك ؟ فقلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه قالت : فإن كنت صادقا فلم بكيت ؟ قلت . يرحمك الله والصادق لا يبكي ؟ قالت : لا . قلت : ولم ذلك ؟ قالت لأن البكاء راحة القلب فسكنت متعجبا من قولها .

وقال أحمد بن عليّ : استأذنا على عفيرة فحجبنا ، فلأزمننا الباب ، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا ، فسمعتها وهي تقول : اللهم إني أعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكرك . ثم فتحت الباب ودخلنا عليها ، فقلنا لها : يا أمة الله ادعي لنا ، فقالت ، جعل الله فراكم في بيتي المغفرة ، ثم قالت لنا . مكث عطاء السلمي أربعين سنة ، فكان لا ينظر إلى السماء ، فحانت منه نظرة ، فخر مغشيا عليه ، فأصابه فتق في بطنه . فيا ليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص ، وباليها إذا عصت لم تعد

وقال بعض الصالحين : خرجت يوما إلى السوق ومعى جارية حبشية ، فاحتبسها

في موضع بناحية السوق، وذهبت في بعض حوائجي ، وقلت : لا تبرحني حتى انصرف إليك قال فانصرف فلم أجدها في الموضع . فانصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها ، فلما رأته عرفت الغضب في وجهي ، فقالت يا ولاي لا تعجل عليّ ، إنك اجلسني في موضع لم أر فيه ذا كراً لله تعالى ، فخفضت أن يخسف بذلك الموضع . فعجبت لقولها . وقلت لها : أنت حرة فقالت ساء ما صنعت ، كنت أخدمك فيكون لي أجران ، وأما الآن فقد ذهب عني أحدها وقال ابن العلاء السمدى : كانت لى ابنة عم يقال لها بريرة ، تعبدت وكانت كثيرة القراءة في المصحف ، فكلما أنت على آية فيها ذكر النار بكت ، فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء . فقال بنو عمها . انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعد لها في كثرة البكاء . قال فدخلنا عليها ، فقلنا يا بريرة ، كيف أصبحت ؟ قالت أصبحتنا أضيقاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب . فقلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه ، فقالت إن يكن لعيني عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما في الدنيا . وإن كان لهما عند الله شرف فيزيدهما بكاء أطول من هذا . ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا ، فهي والله في شيء غبر ما نحن فيه

وكانت معاذة المدوية إذا جاء النهار تقول : هذا يومى الذى أموت فيه . فما نطم حتى تمسى . فإذا جاء الليل تقول : هذه الليلة التى أموت فيها . فتصلى حتى تصبح وقال أبو سليمان الداراني : بت ليلة عند رابعة ، فقامت إلى محراب لها ، وقت أنا إلى ناحية من البيت ، فلم تزل قائمة إلى السحر . فلما كان السحر قلت : ماجزاء من قوتانا على قيام هذه الليلة ؟ قالت جزاؤه أن تصوم له غدا

وكانت شعوانة تقول في دعائها : إلهي ما أشوقني إلى لقائك ، وأعظم رجائي لجزائك ، وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك أمل الآملين ، ولا يطل عندك شوق المشتاقين . إلهي إن كان دنا أجلى ولم يقرّ بى منك عملى ، فقد جعلت الاعتراف بالتدب وسائل على ، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك ؟ وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك إلهي قد جرت على نفسى في النظر لها وبقى لها حسن نظرك ، فالويل لها إن لم تسعدها . إلهي إنك لم تزل بى برا أيام حياتى ، فلا تقطع عني برك بمدمماتى . ولقد رجوت ممن تولاني في حياتى

يا حسانه ، أن يسعني عند مماتي بفراقه . إلهي كيف أياأس من حسن نظرك بعد مماتي ، ولم تولني إلا الجليل في حياتي . إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني ، فإن محبتى لك قد أجارتني ، فتول من أمرى ما أنت أهله ، وعد بفضلك على من غره جهله . إلهي لو أردت إهانتى لما هديتني ، ولو أردت فضيحتى لم تسترني ، فتعنى بعاليه هديتني ، وأدم لي مابه سترتني . إلهي ما أظنك تردني في حاجة أفيت فيها عمري . إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك

وقال السخاوص : دخلنا على رحلة المابدة ، وكانت قد صامت حتى اسودت ، وبكت حتى صميت ، وصلت حتى أقعدت ، وكانت تصلى قاعنده . فسلمنا عليها ، ثم ذكرنا لها شيئا من العفو ليهون عليها الأمر ، قال فشبهت ثم قالت : على بنفسى قرّح فؤادى وكلم كبدى . والله لو ددت أن الله لم يخلقنى ولم أك شيئا مذكورا . ثم أقبلت على صلاتها

فعليك إن كنت من الرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين ، لينبئت نشاطك ، ويزيد حرصك . وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك ، فإنك إن نطع أكثر من في الأرض بضلوك عن سبيل الله

وحكايات المجتهدين غير محصورة ، وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر . وإن أردت مزيدا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء ، فهو مشتمل على شرح أحوال الصخابة والتابيين ومن بعدهم ، وبالوقوف عليه يستبين لك بُعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك ، وقالت إنما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعموان ، والآن فإن خالفت أهل زمانك وأولئك مجنوننا ، وبسخروا بك ، فوافقهم فيما بهم فيه وعليه ، فلا يجرى عليك إلا ما يجرى عليهم ، والمصيبة إذا عمت طابت ، وإياك أن تتدلى بحبل غرورك وتخدع بتزويرها ، وقل لها : أرايت لو هجم سبل جارف يفرق أهل البلد ، وتبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال ، وقدرت أنت على أن تفارقهم وتركي في سفينة تخلصين بها من الفرق ، فهل بمخيل في نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت ، أم تركين موافقتهم ، وتستجلبينهم في صنيعهم ، وتأخذين حذرهم مما دهالك ؟ فإذا كنت تركين موافقتهم خوفا من الفرق ، وعذاب الفرق لا ينأدى إلا ساعة ، فكيف

لا تهرين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له في كل حال ! ومن أين تطيب المصيبة إذا همت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ! ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ<sup>(١)</sup>) فمليك إذا اشتغلت بمعاتبه نفسك ، وحملها على الاجتهاد فاستعصت ، أن لا تترك معاتبها وتويعها ، وتقرىمها ، وتعربفها سوء نظرها لنفسها ، فعساها تنزجر عن طغيانها

## المرايطة السادسة

في توبيخ النفس ومعاتبها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك . وقد خلقت أمانة بالسوء ، ميالة إلى الشر ، فرارة من الخير . وأمرت بتزكيتها ، وتقويمها ، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها . ومنعها عن شهواتها ، وفطامها عن لذاتها . فإن أهملتها جمحت وشردت ، ولم تظفر بها بعد ذلك . وإن لازمتها بالتوبيخ ، والمعاتب ، والعذل ، والملامة ، كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها ، وزجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية . فلا تغفل ساعة عن تذكيرها ومعاتبها ، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغلن أولا بوعظ نفسك . أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : يَا بَنِي مَرْيَمَ ، عِظْ نَفْسَكَ ، فَإِنَّ أَمْعَاظَ نَفْسِ النَّاسِ ، وَإِلَّا فَاسْتَحْيَ مِنِّي وَقَالَ تَعَالَى ( وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٢)</sup>)

وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جلها لغاوتها ، وإنها أبدا تبرز بقطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحق ، فتقول لها يا نفس ، تأعظم جهلك ، تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا ، أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار ، وأنت صائرة إلى إحداها على القرب ، فإليك تفرحين ، ونضحكين ، وتشتغلين باللهو ، وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم ، وعساك اليوم تحتطفين أو غدا ! فأراك ترين الموت بعيدا ويراها الله قريبا . أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن البعيد ما ليس بآت ؟

أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ، ومن غير مواعدة ومواطاة ، وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ، ولا في شتاء دون صيف ، ولا في صيف دون شتاء ، ولا في نهار دون ليل ، ولا في ليل دون نهار ، ولا يأتي في الصبا دون الشباب ، ولا في الشباب دون الصبا ، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ، ثم يفضى إلى الموت ، فمالك لاستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب . أما تدبرين قوله تعالى ( اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَأَهَيَّ قُلُوبُهُمْ <sup>(١)</sup> ) ويحك يا نفس ، إن كانت جراتك على معصية الله لا اعتقادك أن الله لا يراك ، فما أعظم كفرك . وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك ، وأقل حيائك

ويحك يا نفس ، لو واجهك عبد من عبيدك ، بل أخ من إخوانك ، بانكرهينة كيف كان غضبك عليه ، ومقتك له ، فبأي جسارة تعرضين لمقت الله ، وغضبه ، وشديد عقابه ! أفتظنين أنك تطيقين عذابه ؟ هيناه هيناه ، جربى نفسك ، إن أهلك البطر عن أليم عذابه فاحتبسى ساعة في الشمس ، أو في بيت الحمام ، أو قربى أصبعك من النار ، ليتبين لك قدر طاعتك . أم تغترين بكرم الله وفضله ، واستغنائاه عن طاعتك وعبادتك ، فما لك لاتعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك . فإذا فصدك عدو فلم تمنبطين الحيل في دفعه ، ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى ! وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينتضى إلا بالدينار والدرهم ، فمالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل ، فلم لاتعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز ، أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب ، أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا ، وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل لها ، وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للإنسان إلا ما سعى

ويحك يا نفس ، ما أعجب نفاقك ودعاويك الباطلة ، فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ، ألم يقل لك سيدك ومولاك ( وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا <sup>(٢)</sup> ) وقال في أمر الآخرة ( وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى <sup>(٣)</sup> ) فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة

(١) الأنبياء : ١٠ ، ١١ ، ١٢ (٢) هود : ٦ (٣) النجم : ٣٩



وصرفك عن السعى فيها ، فكذبته بأفمالك ، وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب  
 المدهوش المستهتر ، و وكل أمر الآخرة إلى سعيك ، فأعرضت عنها إعراض الغرور المستهقر  
 ما هذا من علامات الإيمان . لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار ؟  
 ويحك يا نفس ، كأنت لا تؤمنين بيوم الحساب ، وتظنين أنك إذا مت انقلت وتخلصت  
 وهيات ، أتخسبين أنك تتركين سبدي ، ألم تكوني نقطة من مني يعني ، ثم كنت علقة  
 فخلق فسوى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ فإن كان هذا من إضمارك فما أكرهك  
 وأجهلك ! أما تتفكرين أنه مما ذا خلقتك ، من نقطة خلقتك فقدرك ، ثم السبيل يسرك ، ثم  
 أماتك فأقبرك ، أفتكذبنه في قوله ثم إذا شاء أنشرك ؟ فإن لم تكوني مكذبة فالك لا تأخذين  
 حذرک ؟ ولو أن يهوديا أخبرك في ألد أطمعتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته  
 وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات ، وقول الله تعالى في كتبه  
 المنزلة ، أقل عندك تأثيرا من قول يهودي يخبرك عن حدس ، وتخمين ، وظن ، مع نقصان  
 عقل ، وقصور علم ؟ والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقربا لميت ثوبك في الحال  
 من غير مطالبة له بدليل وبرهان ، أفكان قول الأنبياء ، والعلماء ، والحكماء ، وكافة الأولياء  
 أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ؟ أم صار حر جهنم ، وأغلالها ، وأنكالها ، وزقومها  
 ومقامعها ، وصديدها ، وسمومها ، وأفاعيها ، وعقاربها ، أحقر عندك من عقرب لا تحسبن  
 بألمها إلا يوما أو أقل منه ؟ ما هذه أفعال العقلاء . بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا  
 منك ، وسخرؤا من عقلك . فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك ، وآمنت به ،  
 فمالك تسوفين العمل ، والموت لك بالمرصاد ، ولعله يخطفك من غير مهلة فبماذا أمنت استعجال  
 الأجل . وهبك أنت وعدت بالإمهال مائة سنة ، أفتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض  
 العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك ! أرايت لو سافر رجل  
 ليتفق في الغربة ، فأقام فيها سنين متعطلا ، بطالا ، يمد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند  
 رجوعه إلى وطنه ، هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطعم فيه بمدة  
 قريية ، أو حسبانة أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتمادا على كرم الله سبحانه وتعالى  
 ثم هي أن الجهد في آخر العمر نافع ، وأنه موصل إلى الدرجات الملاء ، فلعل اليوم آخر فمررك

فلم لا تشغلين فيه بذلك ، فإن أوحى إليك بالإمهال ، فما المانع من المبادرة ، وما الباعث لك على التسويف ! هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة أفنتظرين يوما يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ، هذا يوم لم يخلقه الله قط ، ولا يخلقه ، فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس . وهذا محال وجوده . أما تتأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين غدا غدا ، فقد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدته ، أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوما كان له حكم الأمس ، لا بل تعجزين عنه اليوم ، فأنت غدا عنه أعجز وأعجز ، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تتبدد العبد بقلمها ، فإذا عجز العبد عن قلمها للضعف وأخرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي ، فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا ووهنا ! فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب بل من العناء رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب . والقضيب الرطب يقبل الانحناء ، فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك

فإذا كنت أيتها النفس لاتفهمين هذه الأمور الجلية ، وتركبين إلى التسويف ، فما بالك تدعين الحكمة ، وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟ ولعلك تقولين ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرصى على لذة الشهوات ، وقلة صبرى على الآلام والمشقات ، فما أشد غباوتك ، وأفجع اعتذارك ! إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التمتع بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ، ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها ، قرب أكلة تمنع أكالات . وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح وبهنا يشربه طول عمره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضا مزمنيا وامتنع عليه شربه طول العمر ، فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام لينعم طول العمر ؟ أم يقضى شهوته في الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام ، حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالته مدته وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة ، أو ألم النار في دركات جهنم

فن لا يطبق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطبق ألم عذاب الله ! ما أراك تتوانين عن النظر  
لنفسك إلا لكفر خفي ، أو لخلق جلي . أما الكفر الخفي فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب ،  
وقلة معرفتك . بمظم قدر الثواب والعقاب . وأما الخلق الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى  
وعفوه ، من غير التفات إلى مكره ، واستدراج ، واستغناء عن عبادتك ، مع أنك  
لا تعتمد على كرمه في لقمة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة تسمعها من  
الخلق ، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل . وبهذا الجهل تستحقين لقب  
الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا  
بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَثَمُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي »

ويحك يا نفس ، لا ينبغي أن تغرك الحيلة الدنيا ، ولا يفرنك بالله الغرور ، فانظري  
لنفسك فما أمرك بهم لغيرك ، ولا تضيعي أوقاتك فالأنفاس معدودة ، فإذا مضى منك  
نفس فقد ذهب بعضك ، فاغتني الصحة قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل ، والغنى قبل  
الفقر ، والشباب قبل الهرم ، والحياة قبل الموت ، واستعدي للأخرة على قدر بقاءك فيها  
يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته ، فتجمعين له القوت ، والكسوة والحطب  
وجميع الأسباب ، ولا تتكلمين في ذلك على فضل الله وكرمه ، حتى يدفع عنك البرد من  
غير جبة ، ولبد ، وحطب وغير ذلك ، فإنه قادر على ذلك ، أفطنين أيتها النفس أنت  
زمهرير جهنم أخف بردا ، وأقصر مدة من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا  
كلّا أن يكون هذا كذلك ، أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدة والبرودة . أفطنين أن  
العبد ينجو منها بغير سعي ؟ هيهات ، كما لا يدفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب  
فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات . وإنما كرم الله تعالى في  
أن صرفك طريق التحصن ، وبسر لك أسبابه ، لافي أن يدفع عنك العذاب دون حصنه  
كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار ، وهداك لطريق استغراجها من  
بين حديدة وحجر حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك ، وكما أن شراء الحطب والجبة مما  
يستغني عنه خالك ومولاك ، وإنما تشتريه لنفسك إذ خلقه سببا لاستراحتك ، فطاعتك

ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها ، وإنما هي طريقك إلى نجاتك . فبين أحسن فلنفسه ،  
ومن أساء فعلها ، والله غني عن العالمين

ويحك يا نفس انزعي عن جهلك ، وقبسي آخرتك بدنياك ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا  
كنفس واحدة ، وكما بدأنا أول خلق نعيده ؛ وكما بدأكم تعودون ، وسنة الله تعالى لا تجد  
لها تبديلا ولا تحويلا . ويحك يا نفس ما أراك إلا ألقت الدنيا وأنست بها ، فمسر  
هلك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكد في نفسك مودتها ، فاحسبي أنك غافلة  
عن عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك  
وبين محابك . أقترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر ، فمدّ بصره إلى  
وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر لا محالة إلى مفارقتها ، أهو معدود من العقلاء  
أم من الحمقى ، أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك ، ومالك فيها لا مجاز ، وكل ما فيها لا يصحب  
المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ  
نَفَتْ فِي رُوعِي أَحِبُّ مَنْ أَحْبَبْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ تَجْزِي بِهِ  
وَعِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ »

ويحك يا نفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا . ويأنس بها مع أن الموت من  
ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزوّد من السم المهلك وهو لا يدري  
أوما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلاوا ، ثم ذهبوا وخلوا ، وكيف أورث الله  
أرضهم وديارهم أعداءهم ؟ أما تريد كيف يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون  
ويؤملون ما لا يدركون ؟ يبني كل واحد قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ، ومقره قبر  
محفور تحت الأرض . فهل في الدنيا حق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه  
وهو مرتحل عنها يقينا ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعا ؟ أما تستحيين يا نفس من  
مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ؟

واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور ، وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه  
والاقتداء ، فقبسي عقل الأنبياء ، والعلماء ، والحكماء ، بعقل هؤلاء المكين على الدنيا

(١) حديث انبrog القدس نفت في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة - الحديث : تقدم في العلم وغيره

واقتردى من الفريقين بمن هو أعدل عندك إن كنت تمتقدين في نفسك العقل والذكاء  
 يانفس ما أعجب أمرك ، وأشد جهلك ، وأظهر طغيانك ! عجبا لك ، كيف تعمين عن  
 هذه الأمور الواضحة الجلية ! ولعلك يانفس أسكرتك حب الجاه ، وأدهشك عن فهمها ،  
 أو ماتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبى أن كل من  
 على وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقي أنت  
 ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك ، وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر  
 من ذكرك ، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ؟ ( هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ  
 لَهُمْ رِكْزًا <sup>(١)</sup> ) فكيف تبيعين يانفس ما يبقى أبد الآبدين لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن  
 بقي ؟ هذا إن كنت ملصكا من ملوك الأرض ، سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذعنت لك  
 الرقاب ، وانتظمت لك الأسباب ، كيف ويأبى إيدبارك وشقارتك أن يسلم لك أمر محلتك  
 بل أمر دارك فضلا عن محلتك ؟ فإن كنت يانفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك  
 وعمى بصيرتك ، فمالك لا تتركينها ترفعا عن خسة شركتها ، وتنزها عن كثرة عنائها ، وتوقيا  
 من سرعة فنائها ، أم مالك لا ترهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ؟ ومالك تفرحين  
 بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ، ويزيدون  
 عليك في نعمها وزينتها ؟ فأف لدينا يسبقك بها هؤلاء الأخصاء . فما أجهلك ، وأخس  
 همك ، وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكوني في زمرة المقربين من النبيين والصديقين ،  
 في جوار رب العالمين أبد الآبدين ، لتكوني في صف النعال من جملة الجاهلين أياما  
 قلائل . فيا حسرة عليك أن خسرت الدنيا والدين

فبادري ويحك يانفس فقد أشرفت على الهلاك ، واقترب الموت ، وورد النذير ، فمن ذا  
 يصلي عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟  
 ويحك يانفس ، مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك ، إن التجرت فيها وقد ضيعت  
 أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك ، فكيف  
 إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك ؟ أما تعلمين يانفس أن الموت موعدك ، والقبر بيتك

والتراب فراشك ، والدود أنيسك ، والفزع الأكبر بين يديك ؛ أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك ، وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيان المغلظة أنهم لا يرحلون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ؟ أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوماً ليستغلوا بتدارك ما فرط منهم ، وأنت في أمنيتهن ، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بخذا فبرها لا شتره لو قدروا عليه ، وأنت تضعين أيامك في الغفلة والبطالة ؟

ويحك يا نفس ، أما تستحيين ؟ تزينين ظاهرك للخلق ، وتبارزين الله في السر بالعظامم أفستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك ؟ تأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالذائل ؟ تدعين إلى الله وأنت عنه فارة ، وتذكرين بالله وأنت له ناسية ؟ أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العذرة ؟ وأن العذرة لا تطهر غيرها ؟ فلم تطمئنين في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك ؟

ويحك يا نفس ، لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك ويحك يا نفس ، قد جعلت نفسك حماراً لإبليس يقودك إلى حيث يريد ، ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لكان الرمح في يديك . وكيف تعجبين بملك مع كثرة خطاياك وزلللك ؟ وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة ؟ وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه ويحك يا نفس ، ما أغدرك ! ويحك يا نفس ، ما أوقحك ، ويحك يا نفس ، ما أجهلك وما أجراك على المماص ! ويحك كم تعقدين فتنقضين ! ويحك كم تعهدن فتبغدين

ويحك يا نفس ، أتستغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنيالك كأنك غير مرتحلة عنها ؟ أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا ؟ جمعوا كثيراً ، وبنوا مشيذاً ، وأملوا بعيداً ، فأصبح جمعهم بوراً ، وبنياهم قبوراً ، وأملهم غروراً .

ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة ؟ أما لك إليهم نظرة ؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ هيئات هيئات ، ساء ماتو همين . ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك . فأنبي على وجه الأرض قصرك ، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك . أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراق أن تبدو رسل ربك منحدره إليك يسود الألوان

وكلح الوجوه ، وبشرى بالمذاب ؟ فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن  
أو يرحم منك البسكاه ؟

والمعجب كل المعجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة. ومن فطنتك  
أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ، ولا تحزنين بنقصان عمرك ، وما تقع مال يزيد وعمر ينقص  
ويحك يا نفس ، تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك ، وتقبلين على الدنيا وهي  
معرضة عنك . فكم من مستقبل يوما لا يستكملها ، وكم من مؤمل لغد لا يبلغه . فأنت  
تشاهدين ذلك في إخوانك ، وأقاربك ، وجيرانك ، قترين تحسرم عند الموت ثم لاترجمين  
عن جهالتك . فاحذري أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا  
أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله ، دقيقه وجليله ، سره وعلايته . فانظري يا نفس  
بأي بدن تقفين بين يدي الله ، وبأي لسان تجيبين ، وأعدّي للسؤال جوابا ، وللجواب  
صوابا ، واعلمي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال ، وفي دار زوال لدار مقامة ، وفي دار  
حزن ونصب لدار نعيم وخلود . اعلمي قبل أن لاتعلمي ، اخرجي من الدنيا اختيارا  
خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات  
الدنيا ، قرب مسرور مغبون ، ورب مغبون لا يشعر . فويل لمن له الويل ثم لا يشعر  
يضحك ويفرح ، ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب ، وقد حق له في كتاب الله أنه من  
وقود النار . فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارا ، وسميك لها اضطرارا ، ورفضك لها  
اختيارا ، وطلبك للآخرة ابتدارا . ولا تكوني ممن بعجز عن شكر ما أوتي ، ويبتغي الزيادة  
فيما بقى ، وينهى الناس ولا ينهى ، واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض ، ولا لإيمان بدل ،  
ولا للجسد خلف . ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر

فاتعطي يا نفس بهذه الموعظة ، واقبلي هذه النصيحة ، فإن من أعرض عن الموعظة فقد  
رضي بالنار ، ومأراك بها راضية ، وللهذه الموعظة واعية . فإن كانت القساوة تمنعك عن  
قبول الموعظة ، فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام ، فإن لم تنزل فبالمواعظة على الصيام ، فإن  
لم تنزل فبقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تنزل فبصلة الأرحام والطف بالأيتام ، فإن لم تنزل فاعلمي  
أن الله قد طبع على قلبك وأنفل عليه ، وأنه قد تراكت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ،

فوطئ نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا ، وخلق النار وخلق لها أهلا ، فكل ميسر لما خلق له . فإن لم يبق فيك نجال للوعظ فاقنطري من نفسك ، والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك ، فلا سبيل لك إلى القنوط ، ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك ، فإن ذلك اغترار وليس برجاء . فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها ، وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك ، فإن سمحت فستقي الدمع من بحر الرحمة ، فقد بقي فيك موضع للرجاء ، فواظبي على النياحة والبكاء ، واستغثي بأرحم الراحمين ، واشتكي إلى أكرم الأكرمين ، وأدمنى الاستغاثة ، ولا تملّ طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك ، فإن مصيبتك قد عظمت ، وبليتك قد تفاقت ، وتماذك قد طال ، وقد انقطعت منك الحيل ، وراحت عنك الملل ، فلا مذهب ولا مطلب ، ولا مستغاث ولا مهرب ، ولا ملجأ ولا منجأ إلا إلى مولاك ، فافزعي إليه بالتضرع ، واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك ، لأنه يرحم المتضرع الذليل ، وينبت الطالب المتلهف ، ويحيب دعوة المضطر

وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقت بك السبل ، وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت منك الحيل ، ولم تنجع فيك العظات ؛ ولم يكسرك التسويخ ، فالمطلوب منه كريم ، والمسؤل جواد ، والمستغاث به برءوف ، والرحمة واسعة ، والكرم قائض ، والنفو شامل . وقولي يا أرحم الراحمين ، يا رحمن ، يا رحيم ، يا حلیم ، يا عظيم ، يا كريم ، أنا المذنب المصير ، أنا الجريء الذي لا أقلع ، أنا التماذى الذي لا أستحي ، هذا مقام المتضرع المسكين ، والبائس الفقير ، والضعيف الحقير ، والهالك الغريق فعجل إغاثة وفرجى ، وأرني آثار رحمتك ، وأذقني برّء عفوك ومغفرتك ، وارزقني قوة عصمتك يا أرحم الراحمين ، اقتداء بأبيك آدم عليه السلام ، فقد قال وهب بن منبه : لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترفأ له دمة ، فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون ، كئيب ، كظيم ، منكس رأسه ، فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ، ما هذا الجهد الذي أرى بك ؟ قال يارب عظمت مصيبتى ، وأحاطت بى خطيئتي ، وأخرجت من ملكوت ربى ، قصرت فى دار الهوان بعد الكرامة ، وفى دار الشقاء بعد السعادة ، وفى دار النصب



بعد الراحة ، وفي دار البلاء بعد العافية ، وفي دار الزوال بعد القرار ، وفي دار الموت والفناء  
بعد الخلود والبقاء ، فكيف لأبكي على خطيئتي ، فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ، ألم أصطفك  
لنفسى ، وأجللتك دارى ، وخصصتك بكرامتى ، وحذرتك سنخى ، ألم أخلقك يدي ،  
ونفخت فيك من روحي ، وأسجدت لك ملائكتى ، فعمصيت أسمى ، ونسيت عهدى  
وتمرضت لسنخى ؟ فوعزنى وجلالى لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك ، يعبدوننى ،  
ويسبحوننى ، ثم عصونى ، لأنزلتهم منازل العاصين . فبكى آدم عليه السلام عند ذلك ثلثمائة عام  
وكان عبيد الله البجلى كثير البكاء ، يقول فى بكائه طول ليله : إلهى أنا الذى كلما طال  
عمرى زادت ذنوبى : أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى . واعبيده  
خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب أخرى . واعبيده إن كانت النار لك مقبلا ومأوى .  
واعبيده إن كانت المقامع لرأسك تهيتاً : واعبيده قضيت حوائج الطالين ولعل حاجتك لا تقضى  
وقال منصور بن عمار : سمعت فى بعض الليالى بالكوفة عابدا يناجى ربه وهو يقول :  
يارب وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ، ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل  
ولا لعقوبتك متعرض ، ولا لنظرك مستخف ، ولكن سؤلت لى نفسى ، وأعاني على ذلك  
شقونى ، وغرني سترك المرخى على ، فمعصيتك بجھلى ، وخالفتك بفعلى ، فمن عذابك  
الآن من يستنقذنى ؟ أو بجبل من اعتصم إن قطعت حبلك عنى ؟ واسوأته من الوقوف  
بين يديك غدا إذا قيل للمخفين جوزوا ، وقيل للمثقلين حطوا . أمع المخفين أجوز ،  
أم مع المثقلين أخط ؟ ويلى ، كلما كبرت سنى كثرت ذنوبى . ويلى ، كلما طال عمرى كثرت  
معاصي ، فإلى متى أتوب وإلى متى أعود ؟ أما آن لى أن أستحي من ربى ؟  
فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم ، وفى معاتبة نفوسهم . وإنما مطلبهم من المناجاة  
الاسترضاء ، ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء . فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن  
لنفسه مراعىا ، ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضيا والسلام  
تم كتاب المحاسبة والمراقبة ، يتلوه كتاب التفكير إن شاء الله تعالى ، والحمد لله وحده ،  
وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم



# كتاب التفكير

## كتاب التفكر

وهو الكتاب التاسع من ربيع المنجيات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لم يقدر لانتهاه عزته نحوا ولا قطرا ، ولم يجعل لمراقى أقدام الأوهام ،  
ومرعى سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى ، بل ترك قلوب الطالبين في يدهاء كبريائه  
والهة حيرى ، كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سُبُحات الجلال فسرا ، وإذا هممت بالانصراف  
آيسة نوديت من سُرادات الجمال صبرا صبرا ، ثم قيل لها أجبلى في ذل العبودية منك فكرا  
لأنك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدرى له قدرا . وإن طلبت وراء الفكر في صفاتك  
أمرا ، فانظري في نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليك تنرى ، وجددى لكل نعمة  
منها ذكرا وشكرا ، وتأملى في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرا ، ونفعا  
وضرا ، وعمرا ويسرا ، وفوزا وخسرا ، وجبرا وكسرا ، وطيا ونشرا ، وإيمانا وكفرا  
وعرفانا ونكرا . فإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذات فقد حاولت أمرا إثرا  
وخطرت بنفسك مجاوزة جد طاقة البشر ظالما وجورا ، فقد انبهرت العقول دون مبادئ  
إثرافه ، وانتكصت على أعقابها اضطرابا وقهرا . والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن  
كان لم يعمد سيادته فخرا ، صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدة وذخرا ، وعلى آله وأصحابه  
الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدرا . ولطوائف المسلمين صدرا ، وسلم تسليما كثيرا  
أما بعد: فقد وردت السنة بأن<sup>(١)</sup> تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، وكثر الحث

### ﴿ كتاب التفكر ﴾

( ١ ) حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة : ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة بلفظ ستين سنة  
باسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمى في مسنده  
الفردوس من حديث أنس بلفظ ثمانين سنة واسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول  
ابن عباس بلفظ خير من قيام ليلة

في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار ، والنظر والافتكار ، ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح  
الأنوار ، ومبدأ الاستبصار ، وهو شبكة العلوم ، ومصيدة المعارف والفهوم . وأكثر الناس  
قد عرفوا فضله وربته ، لكن جهلوا حقيقة ثمرته ، ومصدره ومورده ، ومجراه ومسرحه  
وطريقه وكيفيته . ولم يعلم أنه كيف يتفكر ، وفيما ذا يتفكر ، ولماذا يتفكر ، وما الذي  
يطلب به ، أهو مراد لعينه أم لثمره تستفاد منه ، فإن كان لثمره فالتلك الثمرة ، أهى من  
العلوم ، أو من الأحوال ، أو منهما جميعا . وكشف جميع ذلك مهم . ونحن نذكر أولا  
فضيلة التفكير ، ثم حقيقة التفكير وثمرته ، ثم مجارى الفكر ومسارحه إن شاء الله تعالى

## فضيلة التفكير

قد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى ، وأثنى على  
المتفكرين فقال تعالى ( الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ  
فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا <sup>(١)</sup> ) وقد قال <sup>(٢)</sup> ابن عباس رضي  
الله عنهما : إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم « تَفَكَّرُوا فِي  
خَلْقِ اللَّهِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ فَإِنَّكُمْ لَن تَقْدُرُوا قُدْرَهُ »

وعن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> ، أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال  
« مَا لَكُمْ لَا تَتَكَلَّمُونَ » فقالوا : نتفكر في خلق الله عز وجل . قال « فَبِكَيْفِكَ فَافْعَلُوا  
تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِهِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِيهِ فَإِنَّ بِهَذَا الْمَغْرِبِ أَرْضًا يَبِضُّاءُ نُورُهَا يَأْصُفُّهَا  
وَيَبْأُضُّهَا نُورُهَا مَسِيرَةُ الشَّمْسِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا بِهَا خَلَقَ مِنَ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَمُتُوا  
اللَّهُ طَرَفَةً عَيْنٍ » قالوا يا رسول الله ، فأين الشيطان منهم ؟ قال « مَا يَذَرُونَ خَلْقَ الشَّيْطَانِ »

( ١ ) حديث ابن عباس ان قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله

ولا تتفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره ؛ أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه باسناد ضعيف ورواه  
الاصمغاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي

في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا اسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك

( ٢ ) حديث خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال ما لکم لا تتکلمون فقالوا نتفكر في خلق الله

الحديث : رويناه في جزء من حديث عبد الله بن سلام

أَمْ لَا ، قالوا من ولد آدم ؟ قال « لَا يَذَرُونَ خَلْقَ آدَمَ أَمْ لَا »

وعن <sup>(١)</sup> عطاء قال : انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها ، فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب ، فقالت : يا عبيد ، ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « زُرْ غَيْبًا تَزِدُّ حُبًّا » قال ابن عمير : فأخبرينا بأعجب شيء رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فبكت وقالت : كل أمره كان عجا . أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال « ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ » ، فقام إلى القربة فتوضأ منها ، ثم قام يصلي ، فبكي حتى بلّ لحيته ، ثم سجد حتى بلّ الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح . فقال : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال « وَيَحْكُ يَا بَلَالُ وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِيَ وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ » ( إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَأْتِي لِأُولِي الْأَلْبَابِ <sup>(٢)</sup> ) ثم قال « وَيَلْ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا » فقليل للاؤزاعي : ما غاية التفكر فيهن ؟ قال يقرؤهن ويمقلهن . وعن محمد بن واسع ، أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر ؛ فسألها عن عبادة أبي ذر ، فقالت : كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر وعن الحسن قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة

وعن الفضيل قال : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك

وقيل لإبراهيم : إنك تطيل الفكرة ، فقال : الفكرة مخ العقل

وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يمشي يقول القائل :

إذا المرء كانت له فكرة فني كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم : يا روح الله ، هل على الأرض اليوم

مثلك ؟ فقال نعم ، من كان منطقته ذكرا ، وصمته فكرا ، ونظره عبرة فإنه مثلي

( ١ ) حديث عطاء انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة - الحديث : قال ابن عمير : فأخبرينا بأعجب شيء

رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم - الحديث : في نزول إن في خلق السموات والأرض

وقال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها تقدم في الصبر والشكر وأنه في صحيح ابن حبان من رواية

عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء

وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لنوء ومن لم يكن سلوكه تفكرا فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو

وفي قوله تعالى ( سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِتَغْيِيرِ الْحَقِّ )<sup>(١)</sup> قال أئمنع قلوبهم التفكر في أمرى

وعن<sup>(١)</sup> أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَعْطُوا أَعْيُنَكُمْ حَظَّهَا مِنَ الْعِبَادَةِ » فقالوا يا رسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال « النَّظَرُ فِي الْمَصْحَفِ وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ وَالْإِعْتِبَارُ عِنْدَ عَجَائِبِهِ »

وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت : لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد اذخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة ، لم يصف لهم في الدنيا عيش ، ولم تقر لهم في الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده ، فكان يمر به مولاة فيقول : يا لقمان ، إنك تديم الجلوس وحدك ، فلو جلست مع الناس كان آنس لك . فيقول لقمان : إن طول الوحدة أفهم للفكر ، وطول الفكر دليل على طريق الجنة

وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم ، وما علم امرئ قط إلا عمل

وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة

وقال عبد الله بن المبارك وما السهل بن علي ، وراه ساكتا متفكرا : أين بلغت ؟ قال الصراط

وقال بشر : لو تفكر الناس في عظمة الله . ما عصوا الله عز وجل

وعن ابن عباس : ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب

وبينا أبو شريح يمشي ، إذ جلس فتقنع بكسائه ، فجعل يبكي ، فقيل له ما يبكيك ؟ قال :

تفكرت في ذهاب عمري ، وقلة عملي ، واقتراب أجلي

وقال أبو سليمان : عودوا أعينكم البكاء ، وقلوبكم التفكر

وقال أبو سليمان : الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة ، وعقوبة لأهل الولاية . والفكر

في الآخرة يورث الحكمة ، ويحيي القلوب

( ١ ) حديث أبي سعيد الخدري أعطوا أعينكم حظها من العبادة - الحديث : ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ بن جبان في كتاب العظمة بإسناد ضعيف

وقال حاتم : من العبرة يزبد العلم ، ومن الذكر يزيد الحب ، ومن التفكير يزيد الخوف  
وقال ابن عباس : التفكير في الخير يدعو إلى العمل به ، والندم على الشر يدعو إلى تركه  
ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه : إني لست أقبل كلام كل حكيم ، ولكن  
أنظر إلى همه وهواه . فإذا كان همه وهواه لي ، جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم  
وقال الحسن : إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر ، وبالفكر على الذكر ،  
حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة

وقال اسحاق بن خلف : كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قراء ، فتفكر  
في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي ، حتى وقع في دار جاره . قال :  
فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا ويده سيف ، وظن أنه لص . فلما نظر إلى داود  
رجع ووضع السيف وقال : من ذا الذي طرحك من السطح ! قال ما شعرت بذلك .

وقال الجعيد : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد ، والنسم  
بنسيم المعرفة ، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد ، والنظر بحسن الظن لله عز وجل .  
ثم قال : يألها من مجالس مأجلها ! ومن شراب مألذه ، طوبى لمن رزقه

وقال الشافعي رحمه الله تعالى : استعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الاستنباط بالفكر .  
وقال أيضا : صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور ، والعزم في الرأي سلامة من التفريط  
والندم ، والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ، ومشاورة الحكماء ثبات في النفس  
وقوة في البصيرة ، ففكر قبل أن تمزم ، وتدبر قبل أن تهجم ، وشاور قبل أن تقدم . وقال  
أيضا : الفضائل أربع : إحداها الحكمة وقوامها الفكرة ، والثانية العفة وقوامها في الشهوة ،  
والثالثة القوة وقوامها في الغضب ، والرابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس  
فهذه أقاويل العلماء في الفكرة ، وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها

## بيان

حقيقة الفكر وثمرته

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة . ومثاله  
أن من مال إلى العاجلة ، وآثر الحياة الدنيا ، وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإشارة



من العاجلة فله طريقان . أحدهما : أن يسع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا ، فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بتحقيقة الأمر ، فيميل بعمله إلى إثارة الآخرة اعتمادا على مجرد قوله . وهذا يسمى تقليدا ، ولا يسمى معرفة

والطريق الثاني : أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار ، ثم يعرف أن الآخرة أبقى ، فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة ، وهو أن الآخرة أولى بالإيثار . ولا يمكن تحقيق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين . فإحضار المرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا ، واعتبارا ، وتذكرا ، ونظرا ، وتأملا ، تدبرا . أما التدبر ، والتأمل ، والتفكر ، فعبارات مترادفة على معنى واحد ، ليس تحتها معان مختلفة وأما اسم التذكر ، والاعتبار ، والنظر ، فهي مختلفة المعاني ، وإن كان أصل المسمى واحدا . كما أن اسم الصارم ، والمهند ، والسيف ، يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة : فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع ، والمهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه ، والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد . فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار المرفتين من حيث إنه يعبرُ منهما إلى معرفة ثالثة . وإن لم يقع العبور ، ولم يمكن إلا الوقوف على المرفتين ، فينطلق عليه اسم التذكر لا اسم الاعتبار . وأما النظر والتفكر فيقع عليه من حيث أن فيه طلب معرفة ثالثة . فن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا . فكل متفكر فهو متذكر ، وليس كل متذكر متفكرا . وفائدة التذكّر تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تمنحى عن القلب ، وفائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر . والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص ، أثمرت معرفة أخرى . فالمعرفة نتاج المعرفة . فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر . وهكذا يتمادى النتاج ، ويتمادى العلوم ، ويتمادى الفكر إلى غير نهاية . وإنما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت أو بالعوائق هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدى إلى طريق التفكير . وأما أكثر الناس فإنهم امنعوا الزيادة في العلوم لفقدان رأس المال ، وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم . كالذي لا بضاعة له . فإنه لا يقدر على الربح . وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا .

فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ، ولكن ليس بحسن استعمالها ،  
وتأليفها ، وإيقاع الازدواج للفضى إلى التناج فيها

ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهى فى القلب يحصل بالفطرة ،  
كما كان للأنبيا صلوات الله عليهم أجمعين ، وذلك عزيز جداً . وقد تكون بالتعلم والممارسة ،  
وهو الأكثر . ثم للتفكر قد تحضره هذه المعارف ، ونحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية  
حصولها ، ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير فى الإرادة ، فكم من إنسان  
يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علماً حقيقياً ، ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيرادها والتعبير  
عنه ، مع أنه لم يحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين ، وهو أن الأبقى أولى بالإيثار ،  
وأن الآخرة أبقى من الدنيا ، فتحصل له معرفة ثلاثة ، وهو أن الآخرة أولى بالإيثار .  
فرجع حاصل حقيقة التفكير إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة

وأما ثمره الفكر فى العلوم ، والأحوال ، والأعمال . ولكن ثمرته الخاصة العلم لاغير  
نعم إذا حصل العلم فى القلب تغير حال القلب ، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح  
فالعمل تابع الحال ، والحال تابع العلم ، والعلم تابع الفكر . فالفكر إذا هو المبدأ والمفتاح  
للاخبارات كلها . وهذا هو الذى يكشف لك عن فضيلة التفكير ، وأنه خير من الذكر  
والتذكر . لأن الفكر ذكر وزيادة ، وذكر القلب خير من عمل الجوارح . بل شرف  
العمل لما فيه من الذكر . فإذا التفكير أفضل من جملة الأعمال . ولذلك قيل : تفكر  
معاة خير من عبادة سنة . فقل هو الذى ينقل من المكارة إلى المحاب ، ومن الرغبة  
والحرص إلى الزهد والقناعة . وقيل هو الذى يحدث مشاهدة وتقوى . ولذلك قال تعالى  
( لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا <sup>(١)</sup> )

وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر ، فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة ، فإن  
الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار . فإذا رسخت هذه المعرفة يقيناً فى قلوبنا تغيرت  
القلوب إلى الرغبة فى الآخرة ، والزهد فى الدنيا . وهذا ما عتينا به الحال إذا كان حال القلب  
قبل هذه المعرفة حب العاجلة ، والميل إليها ، والنفرة عن الآخرة ، وقلة الرغبة فيها .

وبهذه المعرفة تغير حال القلب ، وتبدلت إرادته ورغبته ، ثم أثر تغير الإرادة أعمال الجوارح في أطراح الدنيا ، والإقبال على أعمال الآخرة فهنا خمس درجات :

أولها : التذكر ، وهو إحضار المعرفتين في القلب

وثانيتهما : التفكير ، وهو طلب المعرفة المقصودة منهما

والثالثة : حصول المعرفة المطلوبة ، واستنارة القلب بها .

والرابعة : تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة

والخامسة : خدمة الجوارح للقلب ، بحسب ما يتجدد له من الحال . فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع ، فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة ، وتنهض الأعضاء للعمل ، فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر ، فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد ، ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا ، فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ، ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه . كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه ، ثم تنهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب ، كما ينهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره

فإذا ثمرة الفكر العلوم والأحوال ، والعلوم لانهاية لها ، والأحوال التي تنصور أن تتقلب على القلب لا يمكن حصرها . ولهذا لو أراد مرید أن يحصر فنون الفكر ومجاريه ، وأنه فيما ذاتفكر ، لم يقدر عليه ، لأن مجارى الفكر غير محصورة ، وغراته غير متناهية . نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريه بالإضافة إلى مهمات العلوم الدينية ، وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين ، ويكون ذلك ضبطا جليا ، فإن تفصيل ذلك يستدعى شرح المألزم كلها ، وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها ، فإنها مشتملة على علوم ، تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة ، فلنشير إلى ضبط المجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر

# بيان

بجاري الفكر

اعلم أن الفكر قديمجى في أمر يتعلق بالدين ، وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين . وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين ، فلترك القسم الآخر . ونعنى بالدين المعاملة التي بين العبد وبين الرب تعالى . فجميع أفكار العبد إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله ، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله ، لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين . وما يتعلق بالعبد إما أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى أو فيما هو مكروه . ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين . وما يتعلق بالرب تعالى إما أن يكون نظرا في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ، وإما أن يكون في أفعاله وملكه وملكوته ، وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما

وينكشف لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال ، وهو أن حال السائر ين إلى الله تعالى ، والمتشاقين إلى لقائه ، يضاهي حال المشاق فلتتخذ العاشق المستهتر مثالا فنقول : العاشق المستغرق الهم بمشقه لا يمدو فكره من أن يتعلق بمشوقه ، أو يتعلق بنفسه . فإن تفكر في مشوقه فلما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ، لينعم بالفكر فيه وبمشاهدته ، وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ، ليكون ذلك مضجعا لذته ومقويا لمحبهته . وإن تفكر في نفسه فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها ، أو في الصفات التي تقربه منه وتجيئه إليه حتى يتصف بها . فإن تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حد العشق ، وهو تقضيان فيه ، لأن العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب ، حتى لا يترك فيه متسعاً لغيره فحجب الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك ، فلا يمدو نظره وتفكره محبوبه . ومهما كان تفكره محصورا في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا

فلنبذا بالقسم الأول : وهو تفكره في صفات نفسه ، وأفعال نفسه ، ليميز المحبوب منها عن المكروه ، فإن هذا الفكر هو الذي يتعلق بعلم المعاملة الذي هو المقصود بهذا الكتاب وأما القسم الآخر : فيتعلق بعلم المكاشفة . ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب

ينقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصي ، وإلى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التي عليها القلب ، وذكرنا تفصيلها في ربيع المهلكات والمنجيات ، والطاعات والمعاصي تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة ، وإلى ما ينسب إلى جميع البدن ، كالفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين ، والسكون في المسكن الحرام . ويجب في كل واحد من المكاره التفكير في ثلاثة أمور :

١ الأول : التفكير في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا قرب شيء لا يظهر كونه مكروها ، بل يدرك بدقيق النظر . والثاني : التفكير في أنه إن كان مكروها فسا طريق الاحتراز عنه والثالث : أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال ، فيتركه ، أو هو متعرض له في المستقبل فيحترز عنه ، أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه

وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات . فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجاري الفكر في هذه الأقسام على مائة ، والعبد مدفوع إلى الفكر إما في جميعها أو في أكثرها . وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ، ولكن المحصر هذا القسم في أربعة أنواع : الطاعات ، والمعاصي ، والصفات المهلكات ، والصفات المنجيات . فلنذكر في كل نوع مثالا يقيس به المرید سائرهما ، وينفتح له باب الفكر ، ويتسع عليه طريقه

النوع الأول : المعاصي ، ينبني أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ، ثم بدنه على الجملة ، هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها ، أو لا بسا بالأمس فيتداركها بالترك والندم ، أو هو متعرض لها في نهارة فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر في اللسان ويقول : إنه متعرض للنغية ، والكذب ، وتزكية النفس ، والاستمراء بالغير ، والمماراة ، والممازخة ، والخوض فيما لا يعني ، إلى غير ذلك من المكاره . فيقرر أولا في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ، ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ، ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ، ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد ، أو بأن لا يجالس إلا صالحا تقيا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله ، وإلا فيضع حجرا في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له . فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز

ويتفكر في سمعه أنه يصني به إلى النغية ، والكذب ، وفضول الكلام ، وإلى اللهو

والبدعة ، وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمر ، وأنه ينبغي أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر . . . فهما كان ذلك يفكر في بطنه أنه إنما يعصى الله تعالى فيه بالأكل والشرب ، إما بكثرة الأكل من الحلال ، فإن ذلك مكروه عند الله ، ومقو للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله ، وإما بأكل الحرام أو للشبهة ، فينظر من أين مطعمه ، وملبسه ، ومسكنه ، ومكسبه ، وما مكسبه ، ويفكر في طريق الحلال ومداخله ، ثم يفكر في طريق الحيلة في الإكساب منه والاحتراز من الحرام ، ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام ، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها <sup>(١)</sup> وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام كما ورد الخبر به

فهكذا يفكر في أعضائه ، ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء ، فهما حصل بالتفكير حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها وأما النوع الثاني : وهو الطاعات فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها ، وكيف يخرسها عن النقصان والتقصير ، أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ، ثم يرجع إلى عضو عضو يفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى ، فيقول مثلاً : إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة ، ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة ، فلم لا أفعله ؟ وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرور على قلبه ، وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء فأزجره بذلك عن معصيته ، فلم لا أفعله ؟ وكذلك يقول في سمعه : إني قادر على استماع كلام ملهوف ، أو استماع حكمة وعلم ، أو استماع قراءة وذكر ، فإلى أعطله وقد أنعم الله عليّ به ، وأودعني لأشكره ، فإلى أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله ؟

وكذلك يفكر في اللسان ويقول : إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم ، والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح ، وبالسؤال عن أحوال الفقراء ، وإدخال السرور على قلب

(١) حديث أن الله لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام : أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول وقد تقدم

زيد الصالح ، وعمره العالم بكلمة طيبة ، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول : أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني ، فإنني مستغن عنه ومهما احتجت إليه رزقني الله تعالى مثله ، وإن كنت محتاجا الآن فأنا إلى ثواب الإيتار أحوج مني إلى ذلك المال . وهكذا يفتش عن جميع أعضائه ، وجملة بدنه وأمواله ، بل عن دوابه وغلمايه وأولاده ، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه ، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها ، فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ، ويتفكر ، فيما يرغبه في البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر في إخلاص النية فيها ، ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله . وتس على هذا سائر الطاعات

وأما النوع الثالث : فهي الصفات المهلكة التي محلها القلب . فيعرفها بما ذكرناه في ربيع المهلكات ، وهي استيلاء الشهوة ، والغضب ، والبخل ، والكبر ، والعجب ، والرياء والحسد ، وسوء الظن ، والغفلة ، والغرور ، وغير ذلك . ويتفقد من قلبه هذه الصفات ، فإن ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه ، والاستشهاد بالعلامات عليه ، فإن النفس أبدا تبتدئ بالخير من نفسها وتخلف . فإذا أدعت التواضع والبراءة من الكبر فينبني أن تجرب بحمل حزمة حطب في السوق ، كما كان الأولون يجربون به أنفسهم . وإذا أدعت الحلم تعرض اغضب يناله من غيره ، ثم يجربها في كظم الغيظ . وكذلك في سائر الصفات وهذا تفكر في أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ، ولذلك علامات ذكرناها في ربيع المهلكات . فإذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقيح تلك الصفات عنده ، وتبين أن منشأها من الجهل والغفلة ، وخبث الدخلة . كما لو رأى في نفسه عيبا بالعمل ، فيتفكر ويقول : إنما عملي يبدني وجارحتي ، وبقدرتي وإرادتي ، وكل ذلك ليس مني ولا إلهي ، وإنما هو من خلق الله وفضله عليّ ، فهو الذي خلقني ، وخلق جوارحتي ، وخلق قدرتي وإرادتي ، وهو الذي حرك أعضائي بقدرته . وكذلك قدرتي وإرادتي ، فكيف أعجب بعملتي أو بنفسي ، ولا أقوم لنفسي بنفسي

فإذا أحس في نفسه بالكبر ، قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها : لم ترين نفسك أكبر ؟ والكبير من هو عند الله كبير ، وذلك ينكشف بعد الموت . وكمن كافر في الحال

يموت مقر بالآلة تعالى بنزوعه عن الكفر، وتم من مسلم يموت شقيا بشعب حاله عند الموت بسوء الخاتمة، فإذا عرف أن الكبر مهلك، وأن أصله الخاتمة، فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطى أفعال المتواضعين

وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه، تفكر في أن هذه صفة البهائم، ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة، كالم والقدرة ولما اتصف به البهائم ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه، وعن الملائكة المقربين أبعد. وكذلك يقرر على نفسه في الغضب، ثم يتفكر في طريق العلاج، وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب، فمن يريد أن يتسع له طرق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب

وأما النوع الرابع: وهو المنجيات فهو التوبة، والندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص والصدق في الطاعات، ومحبة الله وتمظيمه، والرضا بأفعاله، والشوق إليه، والخشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه في هذا الرجع، وذكرنا أسبابه وعلاماته، فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى الله تعالى، فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يشرها إلا علوم، وأن العلوم لا يشرها إلا أفكار

فإذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم، فليفتش ذنوبه أولا، وليتفكر فيها، وليجملها على نفسه، وليمظمها في قلبه، ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها، وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فليتنظر في إحسان الله إليه، وأياديه عليه، وفي إرساله جميل ستره عليه على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر، فليطالع ذلك

وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتفكر في جلال الله وجماله، وعظمته، وكبريائه، وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه، كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر وإذا أراد حال الخوف فليتنظر أولا في ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر في الموت وسكراته، ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير، وعذاب القبر، وحياته، وعقابه، وديدانه،



ثم في هول النداء عند نفخة الصور ، ثم في هول المحشر فتد جمع الخلائق على صعيد واحد ،  
ثم في المناقشة في الحساب ، والمضايقة في النقيير والقطمير ، ثم في الصراط ودقته وحدته ،  
ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار ، أو يصرف إلى  
اليمن فينزل دار القرار . ثم ليحضر بعد أهوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ،  
ومقامعها وأهوالها ، وسلاسلها وأغلالها ، وزقوفها وصديدنها ، وأنواع العذاب فيها ، وقبح  
صور الزبانية الموكلين بها ، وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها ، وأنهم كلما أرادوا  
أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ،  
وهلم جرا إلى جميع ماورد في القرآن من شرحها

وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فلينظر إلى الجنة ونعيمها ، وأشجارها وأنهارها ،  
وحورها وولدانها ، ونعيمها المقيم ، وملكها الدائم

فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة ، أو التزهد  
عن صفات مذمومة . وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتابا مفردا يستعان به  
على تفصيل الفكر أما يذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكير ، فإنه  
جامع لجميع المقامات والأحوال ، وفيه شفاء للعالمين ، وفيه ما يورث الخوف والرجاء ، والصبر  
والشكر ، والمحبة ، والشوق ، وسائر الأحوال ، وفيه ما يزرع عن سائر الصفات المذمومة .  
فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكير فيها مرة بعد أخرى ، ولومائة  
مرة ، قراءة آية بتفكير وفهم خير من ختمه بغير تدبر وفهم . فليتوقف في التأمل فيها  
وليلة واحدة ، فإن تحمت كل كلمة منها أسرار لا تنحصر ، ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر  
عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة . وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم  
(١) فإنه قد أوتي جوامع الكلام ، وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ، ولو تأملها العالم حق  
التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره . وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول ، فانظر  
إلى قوله صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَحِبُّ مَنْ أَحْبَبْتَ

( ١ ) حديث انه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلام : تقدم

( ٢ ) حديث ان روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة - الحديث : تقدم غير مرة

فَأَنَّكَ مُفَارِقَةٌ وَمَعْنَى مَا شِئْتَ فَأَنَّكَ مَيِّتٌ وَأَعْمَلْ مَا شِئْتَ فَأَنَّكَ نَجْرِي بِهِ ، فَإِنْ هَذِهِ  
الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين ، وهي كافية للتأملين فيها طول العمر ، إذ لو وقفوا  
على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغفرتهم ، وحال ذلك بينهم وبين التلافت إلى  
الدنيا بالكيفية . فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة  
عند الله تعالى أو مكروهة . والمبتدئ ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى  
يعمر قلبه بالأخلاق الحمودة والمقامات الشريفة ، وينزه باطنه وظاهره عن المكاره ، وليعلم  
أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات فليس هو له غاية المطلب ، بل المشغول به محبوب  
عن مطلب الصديقين ، وهو التنعم بالفكر في جلال الله تعالى وجماله ، واستغراق القلب  
بحيث يفنى عن نفسه ، أي ينسى نفسه ، وأحواله ، ومقاماته ، وصفاته ، فيكون مستغرق  
الهم بالمحبوب ، كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب ، فإنه لا يتفرغ للنظر في أحوال نفسه  
وأوصافها ، بل يبقى كالمبهوت النافل عن نفسه ، وهو منتهى لذة العشاق

فأما ما ذكرناه فهو تفكير في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال ، فإذا صيغ جميع  
عمره في إصلاح نفسه فتنى يتنعم بالقرب ؛ ولذلك كان الخواص يدور في البوادي ، فلقبه  
الحسين بن منصور وقال : فيم أنت ؟ قال : أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل . فقال  
الحسين : أفيت عمرك في عمران باطنك ، فأين الفناء في التوحيد ؟

فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ، ومنتهى نعيم الصديقين . وأما التنزه  
عن الصفات المهلكات فيجرب مجرى الخروج عن العدة في النكاح . وأما الانصاف  
بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجرب مجرى تهيئة المرأة جهازها ؟ وتنظيفها وجهها  
ومشطها شعرها ، لتصلح بذلك للقاء زوجها . فإن استغرقت جميع عمرها في تهيئة الرحم  
وتزيين الوجه ، كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب

فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة  
وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفا من الضرب وطمعا في الأجرة ، فدونك  
وإتمام البدن بالأعمال الظاهرة ، فإن بينك وبين القلب حجابا كثيفا ، فإذا قضيت حق  
الأعمال كنت من أهل الجنة . ولكن للمجالسة أفوام آخرون

وإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه ، فينبغي أن نتخذ ذلك  
عادتك وديدتك صباحا ومساء ، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى .  
وأحوالك المقربة إليه سبحانه وتعالى . بل كل مرید فينبغي أن يكون له جريدة يثبت فيها  
جملة الصفات المهلكات ، وجملة الصفات المنجيات ، وجملة المعاصي والطاعات ، ويعرض  
نفسه عليها كل يوم . ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة ، فإنه إن سلم منها سلم من  
غيرها ، وهي البخل ، والكبر ، والمجب ، والرياء ، والحسد ، وشدة الغضب ، وشره  
الطعام ، وشره الوقاع ، وحب المال ، وحب الجاه . ومن المنجيات عشرة : الندم على  
الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء  
والزهد في الدنيا ، والإخلاص في الأعمال ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ،  
والخشوع له . فهذه عشرون خصلة ، عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة . فهما كفي من  
المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ، ويدع الفكر فيها ، ويشكر الله تعالى على كفايته  
إياها ، وتنزيه قلبه عنها . ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ، ولو وكله إلى  
نفسه لم يقدر على نحو أقل الرذائل عن نفسه . فيقبل على التسعة الباقية . وهكذا يفعل حتى  
يخط على الجميع . وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات ، فإذا اتصف بواحدة منها  
كالتوبة والندم مثلاً خط عليها ، واشتغل بالباقي ، وهذا يحتاج إليه المرید المشر  
وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي أن يشتوا في جرائم المعاصي  
الظاهرة كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة ، والتمية ، والمراء ، والثناء على النفس ،  
والإفراط في معاداة الأعداء وموالة الأولياء ، والمداينة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف  
والنهي عن المنكر ، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من  
هذه المعاصي في جوارحه . وما لم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة  
القلب وتطهيره . بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية ؛ فينبغي أن يكون  
تفقد لهم ، وتفكرهم فيها لافي معاصم بمزول عنها . مثالة العالم الورع ، فإنه لا يخلو في  
غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم ، وطلب الشهرة ، وانتشار الصيت ، إما بالتدريس

أو بالوعظ . ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة ؛ لا ينجو منها إلا الصديقون . فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب ، لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء ، والتزين والتصنع وذلك من المهلكات . وإن ردّ كلامه لم يخل عن غيظ وأثرة وحقد على من يرده ، وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره . وقد يلبس الشيطان عليه ويقول : إن غيظك من حيث إنه ردّ الحق وأنكره . فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان . ثم مهما كان له ارتياح بالقبول ، وفرح بانشاء ، واستنكاف من الرد أو الإعراض ، لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد ، حرصا على استجلاب الثناء ، والله لا يحب المتكلفين . والشيطان قد يلبس عليه ويقول : إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها لينشر الحق ، ويحسن موقعه في القلب ، إعلاء لدين الله فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مغدوع . وإنما يدورون حول طلب الجاه ، وهو يظن أن مطلبه الدين . ومهما اختلف ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك ، حتى يكون الموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراما ، ويكون بقلائه أشد فرحا واستبشارا ممن يفلو في موالاة غيره ، وإن كان ذلك الغير مستحقا للموالاة وربما ينتهى الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء فيشق على أحسدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره ، وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ، ومستفيد منه في دينه

وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة في سر القلب ، التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها . وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات . ففتنة العالم عظيمة ، وهو إما مالك وإما هالك ، ولا مطمع له في سلامة العوام . فمن أحس في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة ، والافتراد ، وطلب الخمول ، والمدافعة للفتاوى مهما سئل ، فقد كان المسجد يحوى في زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جمعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كلهم مفتون ، وكانوا يتدافعون الفتوى ، وكل من كان يفتى كان يود أن يكفيه غيره . وعند هذا ينبغي أن يتق شياطين الإنس إذا قالوا لا تفعل هذا ، فإن هذا الباب لو فتح لاندurst العلوم من بين الخلق ، وليقل لهم : إن دين الإسلام مستغن عن

فإنه قد كان معمورا قبلي ، وكذلك يكون بمدى . ولو مت لم تهدم أركان الإسلام فإن الدين مستغن عنى . وأما أنا فلست مستغنيا عن إصلاح ناسي . وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم فخيل يدل على غاية الجهل ، فإن الناس لو حبسوا في السجن ، وفيدوا بالقيود ، وتوعدوا بالنار على طلب العلم ، لكان حب الرياسة والدلو يحملهم على كسر القيود ، وهدم حيطان الحصون ، والخروج منها ، والاشتغال بطلب العلم . فالعلم لا يندرس مادام الشيطان يحبب إلى الخلق الرياسة ، والشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة ، بل ينتهز لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم في الآخرة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup>

« إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ »<sup>(٢)</sup> « وَإِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ » . فلا ينبغي أن يفتر العالم بهذه التليسات فيشتغل بمخالطة الخلق . حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتمظيم ، فإن ذلك بذر النفاق . قال صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « حُبُّ الْجَاهِ وَالْمَالِ يُنْبِتُ النَّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> « مَا ذُبَّانِ ضَارِبَانِ أَوْسِلَا فِي زُرِّيَّةِ غَنَمٍ بِأَكْثَرِ إِفْسَادٍ فِيهَا مِنْ حُبِّ الْجَاهِ وَالْمَالِ فِي دِينِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ »

ولا ينقطع حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس ، والمهرب من مخالطتهم ، وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم . فليكن فكر العالم في التفتن خلفايا هذه الصفات من قلبه ، وفي استنباط طريق الخلاص منها ، وهذه وظيفة العالم المتقي :

فأما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكرنا فيما يقوى إيماننا بيوم الحساب ، إذ لو رأنا السلف الصالحون : لقالوا قطعا إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب ، فإعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار ، فإن من خاف شيئا هرب منه ، ومن رجا شيئا طلبه ، وقد علمنا أن المهرب من النار بترك الشبهات والحرام ، وبترك المعاصي ، ونحن منهمكون فيها ، وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ، ونحن مقصرون في الفرائض منها ، فلم يحصل لنا

( ١ ) حديث أن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم : تقدم .

( ٢ ) حديث أن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر : تقدم أيضا في العلم

( ٣ ) حديث حب المال والجاه ينبت النفاق في القلب - الحديث : تقدم

( ٤ ) حديث ما ذبَّانِ ضاربانِ أوسلا في زرية غنم - الحديث : تقدم

من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا ، والتكالب عليها ، ويقال لو كان هذا مذموماً لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا ، فليتنا كُنّا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا ، فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا ، فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ، ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا ، إنه الكريم اللطيف بنا ، المنعم علينا

في هذه مجارى أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة . فإن فرغوا منها انقطع انفساتهم عن أنفسهم ، وارتقبوا منها إلى التفكير في جلال الله وعظمته ، والتمتع بعشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات ، والاتصاف بجميع المنجيات . وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولاً مملولاً ، مكدرًا مقطوعاً ، وكان ضعيفاً كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ، ويكون كالماشق الذي خلا بمشوقه ، ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى ، فتتنص عليه لذة المشاهدة ، ولا طريق له في كمال التمتع إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه : وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات ، وهي مؤذيات ومشوشات ، وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات . فهذا القدر كاف في التنبيه على مجارى فكر المبدى في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى

القسم الثاني : الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه ، وفيه مقامان :

المقام الأعلى : الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه . وهذا مما منع منه حيث قيل : تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله . وذلك لأن العقول تحير فيه ، فلا يطبق مد البصر إليه إلا الصديقون ، ثم لا يطبقون درام النظر . بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصير الخفاش بالإضافة إلى نور الشمس ، فإنه لا يطيقه ألبتة ، بل يحتجى نهائياً ، وإنما يتردد ليلًا ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض . وأحوال الصديقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس ، فإنه يقدر على النظر إليها ولا يطبق دوامه ، ويخشى على بصره لو أدام النظر ، ونظيره المختطف إليها يورث العشى ويفرق البصر . وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل . قال صواب إذاً لأن لا تعرض لمجارى الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته ، فإن أكثر العقول لا تحتمله . بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء ، وهو أن الله تعالى مقدس عن المسكان .

ومنزّه عن الأقطار والجّهات ، وأنّه ليس داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه ، قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطبقوا ، بماعه ومعرفته . بل ضمنت طائفة عن احتمال أقلّ من هذا ، إذ قيل لهم إنه يتعاطم ويتعالى عن أن يكون له رأس ، ورجل ، ويد ، وعين ، وعضو ، وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم ، فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله ، حتى قال بعض الحمقى من العوام : إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله ، لظن المسكين أن الجلالة والمظمة في هذه الأعضاء ، وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه ، فلا يستعظم إلا نفسه . فكل مالا يساريه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه . نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة ، جالسا على سريره وبين يديه غلمان يمشون أمره ، فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة . بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لمخالقك جناحان ، ولا يد ، ولا رجل ، ولاله طيران لأنكر ذلك وقال : كيف يكون خالقي أنقص مني ! أفيكون مقصوص الجناح ، أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران ، أو يكون لي آلة وقدره لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري وعقولي أكثر الخلق قرب من هذا العقل ، وإن الإنسان لجهول ظالم كفار ، ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تخبر عبادي بسفاتي فينكروني ، ولكن أخبرهم عنّي بما يفهمون ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته مخطرا من هذا الوجه ، اقتضى أدب الشرح وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه . لكننا نعدل إلى المقام الثاني ، وهو النظر في أفعاله ، ومجاري قدره ، وعجائب صنعه ، وبدائع أمره في خلقه ، فإنها تدل على جلالة وكبريائه ، وتقديره وتعاليه ، وتدل على كمال علمه وحكمته ، وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فينظر إلى صفاته من آثار صفاته . فإننا لا نطبق النظر إلى صفاته ، كما أننا نطبق النظر إلى الأرض مهما استنارت بنور الشمس ، ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب ، لأن نور الأرض من آثار نور الشمس ، والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة متناهية ، وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر . وجميع موجودات الدنيا آثار من آثار قدرة الله تعالى ، ونور من أنوار ذاته ، بل لا ظلمة أشد من المدم ، ولا نور أظلم من الوجود ، ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس . إذ قوام وجود الأشياء

بذاته الفيوم بنفسه ، كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها . ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت المادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ، ويمكن النظر إليها ، فيكون الماء واسطة يفيض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها . فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم « تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ،

## بيان

كيفية التفكير في خلق الله تعالى

اعلم أن كل مافي الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلق . وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته ، وجلاله وعظمته . وإحصاء ذلك غير ممكن ، لأنه لو كان البحر مدادا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشره ، ولكننا نشير إلى جل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه فنقول :

الموجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكير فيها ، وكم من الموجودات التي لانعلمها كما قال الله تعالى ( وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ <sup>(١)</sup> ) (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ <sup>(٢)</sup> ) وقال ( وَتُنشِئُكُمْ فِيهَا لَا تَعْلَمُونَ <sup>(٣)</sup> ) وإلى ما يعرف أصلها وجلتها ولا يعرف تفصيلها ، فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها . وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر ، وإلى ما لا ندركه بالبصر أما الذي لا ندركه بالبصر فكالملائكة ، والجن ، والشياطين ، والعرش ، والكرسي ، وغير ذلك ، ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغض ، فلنعدل إلى الأقرب إلى الأنفهام وهي المدركات بحس البصر ، وذلك هو السموات السبع ، والأرض ، وما بينهما . فالسموات مشاهدة بكواكبها ، وشمسها ، وقرها ، وحركتها ، ودورانها في طلوعها وغروبها . والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ، ومعادنها ، وأنهارها ، وبحارها ، وحيوانها ، ونباتها . وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بنجومها ، وأمطارها ، وثلوجها ، ورعدها ، وبرقها ،

(١) النحل : ٨ (٢) يس : ٣٦ (٣) الواقعة : ٦١



وصواعقها ، وشهبها ، وعواصف رياحها . فهذه هي الأجناس المشاهدة من السموات والأرض وما بينهما . وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع ، وكل نوع ينقسم إلى أقسام ، ويتشعب كل قسم إلى أصناف ، ولانهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهياتته ومعانيه الظاهرة والباطنة . وجميع ذلك مجال الفكر فلا تتحرك ذرة في السموات والأرض من جماد ، ولانبات ، ولا حيوان ، ولا فلک ، ولا كوكب ، إلا والله تعالى هو محركها ، وفي حركتها حكمة ، أو حكمتان ، أو عشر ، أو ألف حكمة ، كل ذلك شاهد لله تعالى بالواحدانية ، ودال على جلاله وكبريائه ، وهي الآيات الدالة عليه

وقد ورد القرآن بالحث على التفكير في هذه الآيات ، كما قال الله تعالى ( إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا آيٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ <sup>(١)</sup> ) وكما قال تعالى ( وَمِنْ آيٰتِهِ <sup>(٢)</sup> ) من أول القرآن إلى آخره ، فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات

فمن آياته الإنسان المخلوق من النطفة . وأقرب شيء إليك نفسك ، وفيك من المعجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشره ، وأنت غافل عنه فيأمن هو غافل عن نفسه وجاهل بها ، كيف تطمع في معرفة غيرك ! وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال ( وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ <sup>(٣)</sup> ) وذكر أنك مخلوق من نطفة قدرة فقال ( قُلِّلَ الْإِنْسَانُ مَا كَفَرَهُ مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ بَسَرَهُ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ <sup>(٤)</sup> ) وقال تعالى ( وَمِنْ آيٰتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ <sup>(٥)</sup> ) وقال تعالى ( أَلَمْ يَكُ نُطْفَةٍ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ <sup>(٦)</sup> ) وقال تعالى ( أَلَمْ يَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ <sup>(٧)</sup> ) وقال ( أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ <sup>(٨)</sup> ) وقال ( إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ <sup>(٩)</sup> ) ثم ذكر كيف جعل النطفة علقه ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظما فقال تعالى ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً

(١) آل عمران : ١٩٠ (٢) الروم : ٢٥ (٣) الداريات : ٢١ (٤) عبس : ١٧ - ٢٢ (٥) الروم : ٢٠

(٦) القيامة : ٣٧ ، ٣٨ (٧) الرسائل : ٢٠ - ٢٢ (٨) يس : ٧٧ (٩) الدهر : ٢

فِي قَرَارِ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً<sup>(١)</sup> ( الآيَة

فتكرير ذكر النطفة في الكتاب المزبور ليس لسمع لفظه ويترك التفكير في معناه .  
فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء لذرة ، لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت  
وأنتنت ، كيف أخرجهارب الأرباب من الصلب والتراتيب ، وكيف جمع بين الذكر والأنثى  
وأتى الألفة والمحبة في قلوبهم ، وكيف قادم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ، وكيف  
استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق  
وجمه في الرحم ، ثم كيف خلق المولود من النطفة ، وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا  
وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقه حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف  
قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام ، والأعصاب ، والعروق ، والأوتار  
واللحم ، ثم كيف ركب من اللحوم ، والأعصاب ، والعروق الأعضاء الظاهرة ، فدور  
الرأس ، وشق السمع ، والبصر ، والأنف ، والفم وسائر المنافذ ، ثم مدّ اليد والرجل وقسم  
رؤسها بالأصابع ، وقسم الأصابع بالأنامل ، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب ،  
والمعدة ، والكبد ، والطحال ، والرئة ، والرحم ، والمثانة ، والأمعاء ، كل واحد على شكل  
مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ، ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء  
بأقسام آخر ، فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة  
لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار . فلو ذهبنا إلى  
أن نصف مافي آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لا تقضى فيه الأعمار ، فانظر الآن  
إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيقة رقيقة ، ثم جعلها قواما  
للبدن وعمادا له ، ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة ، فنه صغير ، وكبير ، وطويل ،  
ومستدير ، ومجوف ، ومصمت ، وعريض ، ودقيق

ولما كان الإنسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه و ببعض أعضائه ، مفتقرا للتردد في  
حاجاته ، لم يجعل عظمه عظما واحدا ، بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة  
وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها ، وربط بعضها ببعض

(١) المؤمنون : ١٢ ، ١٣ ، ١٤

بأوتار أُنبتها من أحد طرفي العظم ، وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه ، وفي الآخر حفرا فأنصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها ، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يتمتع عليه . ولولا المفاصل لتمسك عليه ذلك . ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها ، وقد ركبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور ، فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه ، فنها ستة تخص القحف ، وأربعة عشر للحى الأعلى واثنان للحى الأسفل ، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن ، وبعضها حادة تصلح للقطع ، وهي الأنياب ، والأضراس ، والشايات . ثم جعل الرقبة مركبا للرأس ، وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ، فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ، ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ، ثم ركب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ، وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ، فيتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء ، ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر ، وعظام الكتف ، وعظام البدن وعظام العانة ، وعظام العجز ، وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلا نطول بذكر عدد ذلك ومجموع عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما ، سوى العظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل . فانظر كيف خلق جميع ذلك من نقطة سخيفة رقيقة . وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها ، فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون ، وإنما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها ومدبرها ، وخالف بين أشكالها وأقذارها ، وخصصها بهذا العدد المخصوص ، لأنه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الإنسان يحتاج إلى قلمه ، ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج إلى جبره . فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها . وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها . فشتان بين النظرين ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات ، فخلق في بدن

الإنسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة ، والمضلة مركبة من لحم ، وعصب ، ورباط وأغشية ، وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها ، فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدة العين وأجفانها ، لو نقصت واحدة من جملة هذه الأعضاء ، واختل أمر العين . وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص وأمر الأعصاب ، والعروق ، والأوردة ، والشرابيين ، وعددها ، ومنابتها ، وانشعاباتها أعجب من هذا كله ، وشرحه يطول ، فللذكر مجال في آحاد هذه الأجزاء ، ثم في آحاد هذه الأعضاء ، ثم في جملة البدن

فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن . وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم . فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه ، وإلى بدنه وصفاته ، فترى به من العجائب والصنعة ما يقضى به العجب : وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قدرة . ترى من هذا صنعه في قطرة ماء ، فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها ؟ وما حكمته في أوضاعها ، وأشكالها ، ومقاديرها ، وأعدادها ، واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها ، وتفاوت مشارقها ومغاربها ؟ فلا تظن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم ، بل هي أحكم خلقا ، وأتقن صنعا ، وأجمع للعجائب من بدن الإنسان . بل لانسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات . ولذلك قال تعالى : ( أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَعْطَشَ رَبْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا <sup>(١)</sup> )

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا ، وما صارت إليه ثانيا ، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمما ، أو بصرا ، أو عقلا ، أو قدرة ، أو علما ، أو روحا أو يخلقوا فيها عظما ، أو عرقا ، أو عصبا ، أو جلدا ، أو شعرا ، هل يقدرُونَ على ذلك ؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته ، وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصور على حائط تأتق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان ، وقال الناظر إليها : كأنه إنسان ، عظم تعجبك

من صنعة النقاش وحذقه ، وخفة يده ، وتعام فطنته ، وعظم في قلبك عمله ، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما نحت بالصنع ، والقلم ؛ والبذ ، وبالحائط ، وبالقدرة ، وبالعلم ، وبالإرادة ، وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه ، بل هو من خلق غيره ، وإنما انتهى فعله الجمع بين الصنع والحائط على ترتيب مخصوص ، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه ، وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة ، فخلقها خالقها في الأصلاب والبرائب . ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها ، وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها ، وقسم أجزائها للتشابهة إلى أجزاء مختلفة ، فأحكم العظام في أرجائها ، وحسن أشكال أعضائها ، وزين ظاهرها وباطنها ، ورتب عروقها وأعصابها ، وجعلها مجرى لنفاثها ليكون ذلك سبب بقاءها ، وجعلها سمعية ، بصيرة ، عالمة ، ناطقة ، وخلق لها الظهر أساساً لبدنها ، والبطن حادياً لآلات غذائها ، والرأس جامعاً لحواسها

ففتح العينين ورتب طبقاتها ، وأحسن شكلها ولونها وهياتها ، ثم حمأها بالأجفان لتسترها ، وتحفظها ، وتصلقها ، وتدفع الأذى عنها ، ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها ، فهو ينظر إليها ثم شق أذنيه وأودعها ماء مراً ليحفظ سمعها ، ويدفع الهوام عنها ، وجوَّطها بصدفه الأذن لتجمع الصوت وترده إلى صماخها ، ولتحسب بديب الهوام إليها ، وجعل فيها تحريقات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ، ويطول طريقه ، فينبه من النوم صاحبها إذا قصد لها دابة في حال النوم . ثم رفع الأنف من وسط الوجه ، وأحسن شكله ، وفتح منخريه ، وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ، وليستشيق بمنفذ المنخرين روح الهواء ، غذاء لقلبه ، وترويحاً لحرارة باطنه وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً وترجائاً ومعرباً عما في القلب ، وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع ، فأحكم أصولها ، وحدد رؤسها ، وبض لونها ؛ ورتب صفوفها ، متساوية الرءوس ، متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه ، ولتحميها بحروف الكلام ، وخلق الحنجرة وهياًها لخروج الصوت ، وخلق اللسان قدرة للحركات

والتقطيمات ، لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ، ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ، ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق ، والسعة ، والخشونة ، والملاسة ، وصلابة الجوهر ورخاوته ، والطول ، والقصر ، حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان ، بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ،

ثم زين الرأس بالشعر والأصداع ، وزين الوجه باللحية والحاجبين ، وزين الحاجب بركة الشعر واستقواس الشكل ، وزين العينين بالأهداب

ثم خلق الأعضاء الباطنة ، وسخر كل واحد لفعل مخصوص ، فسخر المعدة لنضج الغذاء ، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم ، والطحال والمرارة والكلى لخدمة الكبد ، فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها ، والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها ، والكلى تخدمها بجذب المائية عنها ، والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ، ثم تخرجه في طريق الإحليل ، والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن

ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد ، وعرض الكف ، وقسم الأصابع الخمس ، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ، ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع ، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع ، وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدرُوا عليه ، إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء ، فإن بسطها كانت له طبقا يضع عليها ما يريد ، وإن جمعها كانت له آلة للضرب ، وإن ضمها ضمها غير عام كانت مغرفة له ، وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له ؛ ثم خالق الأظفار على رؤسها زينة للأنامل ؛ وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل ، وليحرك بها بدنه عند الحاجة . فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكمة لكان أعجز الخلق وأضعفهم . ولم يقم أحد مقامه في حرك بدنه . ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ، ولو استمان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل

ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث ، واو كسف الغطاء والامشاء وامتد البصر اليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئا فشيئا ، ولا يرى المصور ولا آله ، فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آله ومسنوعه ولا يلاقه ، وهو يتصرف فيه ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته ، فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر ، كيف هداه السبيل حتى تنكس ، وتحرك ، وخرج من ذلك المضيق ، وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه ، ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التيقام الثدي ، ثم لما كان بدنه سخيلا لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خالق اللبن اللطيف ، واستخرجه من بين الفرت والدم سائفا خالصا ، وكيف خاق الثديين وجمع فيهما اللبن وأبنت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ، ثم فتح في حلمة الثدي تقبلا ضيقا جدا حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجا فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ثم أنظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين ، لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغنى عن السن ، وإذا كبر لم يوافق اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن ، فأبنت له الأسنان عند الحاجة لأقبلها ولا يمددها ، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة ثم حزن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدييره في الوقت الذي كان عاجزا عن تدير نفسه فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدير نفسه

ثم انظر كيف رزقه القدرة ، والتمييز ، والعقل ، والهداية تدريجا حتى يبلغ وتكامل فصار مرافقا ، ثم شابا ، ثم كهلا ، ثم شيخا ، إما كفورا أو شكورا ، مطبعا أو عاصبا مؤمنا أو كافرا ، تصديقا لقوله تعالى ( هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَبِيحًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا <sup>(١)</sup> ) فانظر إلى اللطف والكرم ، ثم إلى

### القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية

والمعجب كل المعجب ممن يرى خطأ حسنا ، أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه ، فيصرف جميع هم إلى التفكير في النقاش والخطاط ، وأنه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ، ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول ما أحذقه ، وما أكل صنمته وأحسن قدرته . ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ، ثم ينفل عن صانعه ومصوره ، فلاندهشه عظمت ، ولا يحيره جلاله وحكمته . فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها ، فهو أقرب مجال لفكرك ، وأجلى شاهد على عظمة خالقك ، وأنت غافل عن ذلك ، مشغول بيطنك وفرجك ، لا تعرف من نفسك إلا أن نجوع فتأكل ، وتشبع فتنام ، وتشتهي فتجائع ، وتغضب فتقاتل ، والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك وإنما خاصية الإنسان التي حجبت البهائم عنها ، معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض ، وعجائب الآفاق والأففس ، إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين ويحشر في زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين . وليست هذه المنزلة للبهائم ، ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم ، فإنه شر من البهائم بكثير إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك ، وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها ، وكفر نعمة الله فيها ، فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا

وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرك ، ثم في أنهارها ، وبحارها ، وجبالها ، ومعادنها ، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السموات

أما الأرض فمن آياته أن خلق الأرض فراشا ومهادا ، وسلك فيها سبلا فجاجا ، وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكبها ، وجعلها قارة لا تتحرك ، وأرسي فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد ، ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم ، فقال تعالى ( وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا مُلَوِّسُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا <sup>(٣)</sup> )

(١) الداريات : ٤٧ ، ٤٨ (٢) الملك : ١٥ (٣) البقرة : ٢٢



وقد أكرر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها . فظهرها مقمر  
للأحياء، وبطنها مرقعاً لموات قال تعالى ( أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا <sup>(١)</sup> )  
فانظر إلى الأرض وهي ميتة ، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت ، واخضرت وأنبئت  
عجائب النبات ، وخرجت منها أصناف الحيوانات

ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات ، الشوامخ الصم الصلاب ،  
وكيف أودع المياه تحتها ، ففجر العيون وأسال الأنهار تجري على وجهها ، وأخرج من  
الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً ، عذبا ، صافيا ، زلالا ، وجعل به كل شيء  
جبي ، فأخرج به فنون الأشجار والنبات ، من حب ، وغنب ، وقضب ، وزيتون ، ونخل  
ورمان ، وفواكه كثيرة لا تحصى ، مختلفة الأشكال ، والألوان ، والطعوم ، والصفات ،  
والأرايح ، يفضل بعضها على بعض في الأكل ، تسقى بماء واحد ، وتخرج من أرض واحدة  
فإن قلت : إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها ، فتى كان في النواة نخلة مطوقة بسنايد

الرطب ؟ ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة ؟

ثم انظر إلى أرض البوادي وقش ظاهرها وباطنها ، فتراها ترابا متشابها ، فإذا أنزل  
عليها الماء اهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج ، ألوانا مختلفة ، ونباتا متشابها وغير  
متشابه ، لسكل واحد طعم ، وريح ، ولون ، وشكل يخالف الآخر ، فانظر إلى كثرتها  
واختلاف أصنافها ، وكثرة أشكالها ، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه ، وكيف  
أودع الله تعالى المقايير المنافع القريبة ، فهذا النبات ينفذ ، وهذا يقوى ، وهذا يحبي ،  
وهذا يقتل ، وهذا يبرد ، وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل في المعدة قع الصفراء من أعماق  
العروق ، وهذا يستحيل إلى الصفراء ، وهذا يجمع البلغم والسوداء ، وهذا يستحيل إليهما  
وهذا يصفى الدم ، وهذا يستحيل دما ، وهذا يفرح ، وهذا ينوم ، وهذا يقوى ، وهذا  
يضعف ، فلم تنبت من الأرض ورقة ولا تينة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف  
على كمها ، وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربيته إلى عمل مخصوص ، فالنخل  
تؤبر ، والكرم يكسح ، والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل ، وبعض ذلك يستنبت يث

البذر في الأرض ، وبعضه بفرس الأغصان ، وبعضه يركب في الشجر ولو أردنا أن نذكر  
اختلاف أجناس النبات ، وأنواعه ، ومنافعه ، وأحواله وعجائبه ، لانقضت الأيام في وصف  
ذلك ، فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات  
ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال ، والمعادن الحاصلة من الأرض في الأرض  
قطع متجاورات مختلفة ، فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب  
والفضة ، والفيروزج ، واللؤلؤ وغيرها ، بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب ، والفضة ،  
والنحاس ، والرصاص ، والحديد ، وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللؤلؤ ، وكيف هدى الله  
الناس إلى استخراجها وتنقيتها ، واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلي منها

ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط ، والكبريت ، والقار ، وغيرها ، وأقلها الملح  
ولا يحتاج إليه إلا لتطيب الطعام ، ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها ، فانظر إلى  
رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجوهرها ، بحيث يجتمع فيها الماء الضافي  
من المطر فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه ، ليكون ذلك تطيبا  
لطعامك إذا أكلته فيتها عيشك

وما من جماد ، ولا حيوان ، ولا نبات ، إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ، ما خلق  
بهي منها عبثا ، ولا لعبا ، ولا هزلا ، بل خلق الكل بالحق كما ينبغي ، وعلى الوجه الذي  
ينبغي ، وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه . ولذلك قال تعالى ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ  
وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ) (١)

ومن آياته أصناف الحيوانات وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يعيش ، وانقسام ما يعيش  
إلى ما يعيش على رجلين ، وإلى ما يعيش على أربع ، وعلى عشر وعلى مائة ، كما يشاهد في بعض  
الحشرات ، ثم انقسامها في المنافع ، والصور ، والأشكال ، والأخلاق ، والطباع ، فانظر  
إلى طيور الجو ، وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ، ترى فيها من العجائب ما لا تشك  
معه في عظمتها خالقها ، وقدرة مقدرها ، وحكمة مصورها ، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك ؟  
بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقعة ، أو النملة ، أو النحلة ، أو العنكبوت ، وهي من صغار الحيوانات

في بنائها بيتها ، وفي جمعها غذاءها ، وفي إلفها زوجها . وفي ادخارها لنفسها وفي حذنها في هندسة بيتها ، وفي هدايتها إلى حاجاتها لم تقدر على ذلك

فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر ، فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فسادونه ، حتى يمكنه أن يصل بالخيوط بين طرفيه ، ثم يتدلى ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلصق به ، ثم يندو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ، ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا ، ويجعل بعد ما بينهما متناسبا تناسباً هندسياً ، حتى إذا أحكم معاقده القمط ، ورتب الخيوط كالسدى ، استغل باللحمة ، فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ، ويحكم المقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ، ويراعى في جميع ذلك تناسب الهندسة ، ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والبقاب ، ويقعد في زاوية مترصدا لوقوع الصيد في الشبكة ، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله ، فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ، ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ، ثم علق نفسه فيها بخيط آخر ، وبقي منكسفا في الهواء ينتظر ذبابة تطير ، فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه ، ولف خيطه على رجله وأحكمه ثم أكله

وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى . أفترى أنه تعلم هذه الصنعة من نفسه ؟ أو تكون بنفسه ؟ أو كونه آدمي أو علمه ؟ أولا هادي له ولا معلم ؟ أفيشك ذو بصيرة في أنه مسكين ، ضعيف ، عاجز ، بل القليل ، العظيم شخصه ، الظاهرة قوته ، عاجز عن أمر نفسه ، فكيف هذا الحيوان الضعيف ؟ أفلا يشهد هو بشكله ، وصورته ، وحر كته ، وهدايته ، وعجائب صنعته لفاطره الحكيم ، وخالقه القادر العليم ؟ فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر ، وجلاله ، وكمال قدرته وحكمته ما تنحير فيه الأبواب والمقولات فضلا عن سائر الحيوانات

وهذا الباب أيضا لا حصر له فإن الحيوانات ، وأشكالها ، وأخلاقها ، وطباعها غير محصورة ، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهد . نعم إذا رأى حيوانا لم يزل يلوذ بآلهة مجده تعجبه ، وقال : سبحان الله ما أعجب ، والإنسان أعجب الحيوانات

وليس يتعجب من نفسه . بل لو نظر إلى الأنعام التي ألفها ، ونظر إلى أشكالها وصورها ، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها ، وأصوافها ، وأوبارها ، وأشعارها ، التي جعلها الله لباسا لخلقها ، وأكناها لهم في ظعنهم وإقامتهم ، وآنية لأشربتهم ، وأوعية لأغذيتهم ، وصوانا لأقدامهم ، وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ، ثم جعل بعضها زينة للركوب ، وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبادي والمفازات البعيدة . لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ونصورها ، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها ، سابق على خلقه إياها ، فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكر ، ومن غير تأمل وتدبر ، ومن غير استعانة بوزير أو مشير ، فهو العليم الخبير ، الحكيم القدير ، فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده ، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته ، والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته ، فن ذا الذي يحصى ثناء عليه ؟ بل هو كما أثنى على نفسه . وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته ، فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورافته

ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض ، حتى أن جميع المكشوف من البوادي والجبال من الماء بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم ، وبقية الأرض مستورة بالماء ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) 'الأرض في البحر كالأسطبل في الأرض' فانسب اصطبلنا إلى جميع الأرض واعلم أن الأرض بالإضافة إلى البحر مثله . وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها ، فتأمل الآن عجائب البحر ، فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضاعف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض ، كما أن سعته أضاعف سعة الأرض

ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة ، فينزل الركاب عليها ، وربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس . أو طير ، أو بقر ، أو إنسان ، إلا وفي البحر أمثاله وأضاعفه وفيه أجناس لا يعمد لها نظير في البر ، وقد ذكرت أوصافها

(١) حديث الأرض في البحر كالأسطبل في الأرض: تقدم ولم أجده

في مجلدات ، وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه  
ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ وذوره في صدفة تحت الماء ، وانظر كيف أنبت المرجان  
من صم الصخور تحت الماء ، وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر  
ثم تأمل ما عدها من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه  
ثم أنظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء ، وسير فيها التجار  
وطلاب الأموال وغيرهم ، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ، ثم أرسل الرياح لتسوق  
السفن ، ثم عرف الملاحين موارد الرياح ، ومهابها ومواقيتها  
ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات . وأعجب من ذلك  
كله ما هو أظهر من كل ظاهر ، وهو كيفية قطرة الماء ، وهو جسم رقيق ، لطيف ، سيال  
مشف ، متصل الأجزاء كأنه شيء واحد ، لطيف التركيب ، سريع القبول للتقطيع كأنه  
منفصل ، مسخر للتصرف ، قابل للانفصال والاتصال ، به حياة كل ما على وجه الأرض  
من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض  
وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك . ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن  
الأرض وملك الدنيا في إخراجها . فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم  
ونفائس الجواهر ، وينفل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ  
عنها بذل جميع الدنيا فيها . فتأمل في عجائب المياه والأنهار ، والآبار والبحار ، ففيها  
منسج للفكر ومجال : وكل ذلك شواهد متظاهرة ، وآيات متناصرة ، ناطقة بلسان  
حالتها ، مفصحة عن جلال بارتها ، معربة عن كمال حكمته فيها ، منادية أرباب القلوب  
بنملتها ، قائلة لكل ذي لب أما تراني ونرى صورتي ، وتركبي ، وصفاتي ، ومنافعي ،  
واختلاف حالاتي ، وكثرة فوائدني ؟ أتظن أنني كوّنت نفسي ! أو خلقتني أحد من جنسي ؟  
أوما تستحي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف ، فتقطع بأنها من صنعة آدمي  
عالم ، قادر ، صريد ، متكلم ، ثم تنظر إلى عجائب المخطوط الإلهية المرقومة على صفحات  
وجهي ، بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط ، ثم  
ينفك قلبك عن جلالة صانعه ؟

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب ، لا للذين هم عن السمع معزولون ، توهمنى فى ظلمة الأحشاء منموسة فى دم الحيض ، فى الوقت الذى يظهر التخطيط والتصوير على وجهى فينقش النقاش حدقى ، وأجفانى وجبهتى ، وخدى ، وشفتى ، فترى القوبس يظهر شيئا فشيئا على التدريج ، ولا ترى داخل النطفة نقاشا ولا خارجها ، ولا داخل الرحم ولا خارجة ، ولا خبر منها للآم ، ولا للاب ، ولا للنطفة ، ولا للرحم ، أفأهذا النقاش بأعجب مما نشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة ، لو نظرت إليها مرة أو مرتين لاملته ؟ فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذى يعم ظاهر النطفة ، وباطنها ، وجميع أجزائها ، من غير ملائمة للنطفة ، ومن غير اتصال بها لامن داخل ولا من خارج ؟ فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ، ولا تفهم بها أن الذى صور ونقش وقدر لا نظير له ، ولا يساويه نقاش ولا مصور ، كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع ، فبين الفاعلين من المباشرة والتباعد ما بين الفعلين ، فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك ، فإنه أعجب من كل عجب ، فإن الذى أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ، ومنعك من التبين مع هذا البيان ، جدير بأن تتعجب منه : فسبحان من هدى وأضل ، وأغوى وأرشد ، وأشق وأسعد ، وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه فى جميع ذرات العالم وأجزائه ، وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه ، فله الخلق والأمر ، والامتنان والفضل ، والल्प والقهر ، لاراد لحكمه ، ولا معقب لقضائه

ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض ، لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ، ولا يرى بالعين شخصه : وجملة مثل البحر الواحد ، والطيور مخلقة فى جو السماء ومسبقة ، مسباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر فى الماء ، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر . فإذا حرك الله الهواء وجملة ريحا هابة ، فإن شاء جملة بشر بين يدي رحمته ، كما قال سبحانه ( وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحَ<sup>(١)</sup> ) فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات ، فتستعد للنماء وإن شاء جملة عذابا على العصاة من خليقته ، كما قال تعالى

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْنُ مُسْتَمِرٌّ تَنْزِعُ الْمَاءَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ<sup>(١)</sup>) ثم انظر إلى لطف الهواء ، ثم شدته وقوته مهما ضغط في الماء ، فالزق المنفوخ يتعامل عليه الرجل القوي لينغمسه في الماء فيعجز عنه ، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه . فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء ، وكذلك كل يخوف فيه هواء لا ينوص في الماء لأن الهواء ينقبض عن النوص في الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة ، فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف ، كالذي يقع في بئر فيتعلق بذيل رجل قوي تمتنع عن الهوي في البئر . فالسفينة بمقعرها تتشبث بأذيال الهواء القوي حتى تمتنع من الهوي والنوص في الماء . فسبحان من علق المركب الثقيل في الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد ، وعقدة تشد

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم ، والرعود والبروق ، والأمطار ، والثلوج ، والشهب ، والصواعق ، فهي عجائب ما بين السماء والأرض ، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك في قوله تعالى ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ<sup>(٢)</sup> ) وهذا هو الذي بينهما ، وأشار إلى تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى : ( وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ<sup>(٣)</sup> ) وحيث تعرض للرعد ، والبرق ، والسحاب ، والمطر ؛ فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بينك ، وتسمع الرعد بأذنك ، فالهبة تشاركك في هذه المعرفة . فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى . فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها ، فغمض عينك الظاهرة وانظر بمصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها

وهذا أيضا باب يطول الفكر فيه ، إذ لامطع في استقصائه ، فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لاكدورة فيه ، وكيف يخلق الله تعالى إذا شاء ومتى شاء ، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل ، وممسك له في جو السماء ، إلى أن يأذن الله في إرسال الماء ، وتقطع القطرات كل قطرة بالقدر الذي أراد الله تعالى ،

(١) القمر : ١٩ ، ٢٠ (٢) الدخان : ٣٨ (٣) البقرة : ١٦٤

وعلى الشكل الذى شاءه ، فترى السحاب يرش الماء على الأرض ، ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ، ولا تتصل واحدة بأخرى ، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذى رسم لها لا تعدل عنه ، فلا يتقدم المتأخر ، ولا يتأخر المتقدم ، حتى يصيب الأرض قطرة قطرة . فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة ، أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة واحدة ، أو قرية واحدة ، لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك . فلا يعلم عددها إلا الذى أوجدها . ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الأرض ، ولكل حيوان فيها من طير ، ووحش ، وجميع الحشرات ، والدواب ، مكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية ، التى في ناحية الجبل الفلاني ، تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني . هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن المندوف من المعجائب التى لا تحصى

كل ذلك فضل من الجبار القادر ، وقهر من الخلاق القاهر ، مالأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل ، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلالة وعظمته ، ولا للعميان الجاحدين إلا الجهل بكيفيته ، ورجم الظنون بذكر سببه وعلته . فيقول الجاهل المفرور : إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه ، وإنما هذا سبب نزوله . وبظن أن هذه معرفة انكشفت له ، ويفرح بها . ولو قيل له مامعنى الطبع ؟ وما الذى خلقه ؟ ومن الذى خلق الماء الذى طبعه الثقل ؟ وما الذى رقى الماء المصبوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه ؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئا فشيئا ، بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق ، فيغذى كل جزء من كل ورقة ، ويمجرى إليها في تجاويف عروق شعرية صفار ، يروى منه العرق الذى هو أصل الورقة ، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صفار ، فكان الكبير نهر ، وما انشعب عنه جداول ، ثم ينشعب من الجداول سواك أصغر منها ، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تتبسط في جميع عرض الورقة ، فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة لينفذها وينميها ، ويزينها ، وتبقى طراوتها ونضارتها ، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه .



فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل ، فكيف تحرك إلى فوق ؟ فإن كان ذلك يجذب جاذب  
فما الذى سخر ذلك الجاذب ؟ وإن كان ينتهى بالآخرة إلى خالق السموات والأرض ،  
وجبار الملك والملكوت ، فلم لا يحال عليه من أول الأمر ؟ فنهاية الجاهل بداية العاقل  
ومن آياته ملكوت السموات والأرض وما فيها من الكواكب ، وهو الأمر كله  
ومن أدرك السكل وفاته عجائب السموات فقد فاته السكل تحقيقا . فالأرض ، والبحار ،  
والهواء ، وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة في بحر وأصغر . ثم  
انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في كتابه ، فإمن سورة إلا ونشتمل على  
تفخيمها في مواضع . وكمن قسم في القرآن بها ، كقوله تعالى ( وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ <sup>(١)</sup> )  
( وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ <sup>(٢)</sup> ) ( وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ <sup>(٣)</sup> ) ( وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا <sup>(٤)</sup> ) وكقوله  
تعالى ( وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَأَلْقَمَرٍ إِذَا تَلَاهَا <sup>(٥)</sup> ) وكقوله تعالى ( فَلَا أُفِيمُ بِالْخُسْرِ  
الْجَوَارِ الْكُنُوسِ <sup>(٦)</sup> ) وقوله تعالى ( وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى <sup>(٧)</sup> ) ( فَلَا أُفِيمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ  
وَلَئِنْ لَّقِيتُمْ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ <sup>(٨)</sup> ) فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها  
الأولون والآخرون ، وما أقسم الله بها ، فلا ظنك بما أقسم الله تعالى به ، وأحال الأرزاق  
عليه ، وأضافها إليه ، فقال تعالى ( وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ <sup>(٩)</sup> ) وأثنى على  
للمتفكرين فيه فقال ( وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ <sup>(١٠)</sup> )  
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١١)</sup> « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ مَسَحَ بِهَا  
مَبَلَّتُهُ » أي تجاوزها من غير فكر . وذم المرضين عنها فقال ( وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا  
مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ <sup>(١٢)</sup> )

فأي نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء ، وهي متغيرات على القرب والسموات  
صلاب شداد ، محفوظات عن التغير إلى أن يبلغ الكتاب أجله . ولذلك سماه الله تعالى محفوظا

( ١ ) حديث ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبته أى قوله تعالى - ويتفكرون في خلق  
السموات والأرض - تخدم

(١) البروج : ١ (٢) الطارق : ١ (٣) الداريات : ٧ (٤) الشمس : ٥ (٥) الشمس : ١٠  
(٦) التكوير : ١٥ (٧) النجم : ١ (٨) الواقعة : ٧٥ (٩) الداريات : ٢٣ (١٠) آل عمران : ١٩١  
(١١) الأنبياء : ٣٢

فقال ( وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا <sup>(١)</sup> ) وقال سبحانه ( وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا <sup>(٢)</sup> )  
وقال ( أَلَا تَنْتَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ تَمَتُّكَهَا فَسَوَّاهَا <sup>(٣)</sup> ) .

فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت ، ولا تظن أن معنى النظر إلى  
الملكوت بأن تمد البصر إليه ، فتري زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها ، فإن البهائم  
تشاركك في هذا النظر . فإن كان هذا هو المراد ، فلم مدح الله تعالى إبراهيم بقوله ( وَكَذَلِكَ  
نُوحِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ <sup>(٤)</sup> ) لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر ،  
فالقرءان يعتبر عنه بالملك والشهادة . وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت .

والله تعالى عالم الغيب والشهادة ، وجبار الملك الملكوت ، ولا يحيط أحد بشيء من علمه  
إلا بما شاء ، وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول

فأجل أيها العاقل فكرك في الملكوت ، فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك  
في أقطارها ، إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن ، فعند ذلك ربما يرجى لك أن  
تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال : رأى قلبي ربي . وهذا لأن بلوغ الأقصى  
لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى . وأدنى شيء إليك نفسك ، ثم الأرض التي هي مقرك ، ثم  
الهواء المكتنف لك ، ثم النبات والحيوان وما على وجه الأرض ، ثم عجائب الجو وهو ما بين  
السماء والأرض ، ثم السموات السبع بكواكبها ، ثم الكرسي ، ثم العرش ، ثم الملائكة  
الذين هم حملة العرش وخزان السموات ، ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش ، والكرسي  
والسموات ، والأرض ، وما بينهما . فينبك وبين هذه المفاوز العظيمة ، والمسافات الشاسعة  
والعقبات الشاهقة ، وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة ، وهي معرفة ظاهر نفسك  
ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك ، وتدعى معرفة ربك ، وتقول قد عرفته وعرفت خلقه  
فقيما ذا تفكر ؟ وإلى ماذا أتطلع ؟

فارفع الآن رأسك إلى السماء ، وانظر فيها وفي كواكبها ، وفي دورانها ، وطلوعها ،  
وغروبها ، وشمسها وقمرها ، واختلاف مشارقها ومغاربها ، ودورها في الحركة على الدوام  
من غير فتور في حركتها ، ومن غير تغير في سيرها . بل تجري جميعا في منازل مرتبة

(١) النبا : ١٣ (٢) النازعات : ٢٧ ، ٢٨ (٣) الأنعام : ٧٥

بحساب مقدر ، لا يزيد ولا ينقص ، إلى أن بطويها الله تعالى ملي السجل للكتاب . وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها ، فبعضها يميل إلى الحمرة ، وبعضها إلى البياض ، وبعضها إلى اللون الرصاصي . ثم انظر كيفية أشكالها ، فبعضها على صورة العقرب ، وبعضها على صورة الحمل ، والثور ، والأسد ، والإنسان وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء . ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة ثم هي تطام في كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ، ولولا ملوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ، ولم تعرف المواقيت ، ولأطبق الفلازم على الدوام أو الضياء على الدوام ، فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل الله تعالى الليل إلباسا . والنوم سباتا ، والنهار معاشا . وانظر إلى إبلاجه الليل في النهار ، والنهار في الليل ، وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص . وانظر إلى إمالاته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف ، والشتاء ، والربيع ، والخريف ، فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان . وعجائب السموات لا ميطمع في إحصاء عشر عشر جزء من أجزائها ، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر . واعتقد على الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا والله تعالى حكيم كثيرة في خلقه ، ثم في مقداره ، ثم في شكله ، ثم في لونه ، ثم في وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده ، وقربه من الكواكب التي يجنبه وبعده ، وفس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك ، إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة . وأمر السماء أعظم بل لانسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء ، لافي كبر جسم ، ولا في كثرة معانيه . وفس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض ، فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بجوانبها ، وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة <sup>(١)</sup> وفي الأخبار ما يدل على عظمها . ثم الكواكب التي تراها أصغرها مثل الأرض

(١) الحديث الدال على عظم الشمس : أحمد من حديث عبد الله بن عمر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال في نار الله الحامية لولا ما نزعها من أمر الله لأهلك ما على الأرض والطيراني في الكبير من حديث أبي أمامة وكل بالشمس تسعة أملاك يرونها بالثلج كل يوم

ثماني صرات ، وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض ، وبهذا تعرف ارتفاعها وبعدها ، إذ للبعد صارت ترى صفارا . ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال ( رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا <sup>(١)</sup> ) وفي الأخبار أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضعافا ، فانظر إلى كثرة الكواكب ، ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها ، ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لاتحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها ، لكن لاتشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب ، لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير ، وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة ، فقد دار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة . وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه

وانظر كيف عبر <sup>(٢)</sup> جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم « هَلْ زَالَتْ الشَّمْسُ ؟ » فقال : لا نعم . فقال « كَيْفَ تَقُولُ لَا نَعَمْ » فقال : من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام . فانظر إلى عظم شخصها ، ثم إلى خفة حركتها ، ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها في حدقة العين مع صغرها ، حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فتزى جميعها فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لاتنظر إليها ، بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ، ثم أمسكها من غير عمد ترونها ، ومن غير علاقة من فوقها ، وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه ، فالمعجب منك أنك تدخل بيت غني قترام مزوفا بالصبغ ، مموها بالذهب ، فلا ينقطع تعجبك منه ، ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك ، وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم ، وإلى أرضه ، وإلى سقفه وإلى هوائه ، وإلى عجائب أمتعته ، وغرائب

لولا ذلك ماأنت على شيء إلا حرقته

( ١ ) حديث بين كل سماء الى سماء خمسمائة عام : انترمذى من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال غريب قال وروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبي هريرة ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي نصر عن أبي ذر ورجاله ثقات الا أنه لا يعرف لأبي نصر سماع من أبي ذر

( ٢ ) حديث أنه قال لجبريل هل زالت الشمس فقال لانعم فقال كيف تقول لانعم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام : لم أجده أصلا

(١) النازعات : ٢٨

حيواناته ، وبدائع نقوشه ، ثم لا تتحدث فيه ، ولا تلتفت بقلبك إليه ، فما هذا البيت دون ذلك البيت الذي تصفه ، بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت ، ومع هذا فلا تنظر إليه ، ليس له سبب إلا أنه بيت ربك ، هو الذي انقرد بينائه وترتيبه ، وأنت قد نسيت نفسك ، وربك ، وبيت ربك ، واشتغلت ببطنك وفرجك ، ليس لك ثم إلا شهوتك أو حشمتك ، وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ، ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة ، فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات ، وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أومائة من معارفك فيناقون بأستهم بين يديك ، ويضمرون خباثت الاعتقادات عليك ، وإن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك ، وقد اشتغلت بهذا الغرور ، وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض ، ثم غفلت عن التمتع بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك ، وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذي حفرت في قصر مشيد من قصور الملك ، رفيع البنيان ، حصين الأركان ، مزين بالجوارى والغلمان ، وأنواع الذخائر والنقائس ، فإنها إذا خرجت من جحرها ، ولقيت صاحبها ؛ لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بيتها وغذائها ، وكيفية إدخارها ، فأما حال القصر والملك الذي في القصر فهي بمنزل عنه وعن التفكير فيه ، بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيره ، وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه ، وسقفه ، وحيطانه ، وسائر بنيانه ، وغفلت أيضا عن مكانه ، فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى ، وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته ، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرفه النملة منك ومن سكان بيتك . نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه ، وأما أنت فلك قدرة على أن تجول في الملكوت وتعرف عن عجائبه ما الخلق غافلون عنه ، ولتقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنه مجال لا آخر له ، ولو استقصينا أعمارا طويلة لم تقدر على شرح ما فضل الله تعالى علينا بمعرفته وكل ما عرفناه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء ؛ وما عرفوه قليل نزر حقير بالإضافة إلى ما عرفه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وجملة ما عرفوه قليل

بالإضافة إلى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم . وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقربون كإسرافيل وجبريل وغيرهما . ثم جميع علوم الملائكة ، والجن ، والإنس ، إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما ، بل هو إلى أن يسمى دهشا ، وحيرة ، وقصورا ، وعجزا أقرب ، فسبحان من عرف عباده ما عرف ، ثم خاطب جميعهم فقال (وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا<sup>(١)</sup>) . فهذا بيان معاقدا الجمل التي تجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى ، وليس فيها فكر في ذات الله تعالى ، ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لآحالة معرفة الخالق ، وعظمته ، وجلاله وقدرته ، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم ، وهذا كما أنك معظم غالما بسبب معرفتك بعلمه ، فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره ، فتزداد به معرفة ، وتزداد بحسنه له توقيرا وتعظيما واحتراما ، حتى أن كل كلمة من كلماته ، وكل بيت عجيب من أبيات شعره ، يزيد محلا من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه ، وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه ، والنظر والفكر فيه لا يتناهي أبدا ، وإنما لكل عبد منهما بقدر ما رزق ، فلنقتصر على ما ذكرناه ، ولننصف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر ، فإننا نظرنا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو إحسان إلينا ، وإنعام علينا ، وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعل الله فقط ، وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته ، والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته . وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ، ويهدي بها من يشاء . فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته ، وأهتدى به ، ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض ، لا من حيث ارتباطها بسبب الأسباب ، فقد شق وارتنى ، فنعوذ بالله من الضلال ونسأله أن ينجبنا مزالة أقدام الجهال بمنه ، وكرمه ، وفضله ، وجوده ، ورحمته

تم الكتاب التاسع من ربيع المنجيات ، والحمد لله وحده ، وصلواته على محمد وآله وسلامه يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده وبه كتلى جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه

# کتاب ذکر الموت وما بعده

## كتاب ذكر الموت وأبجده

وهو الكتاب العاشر من ربيع المنجيات  
وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسره به ظهور الأكاسرة ، وقصر به  
آمال القياصرة ، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق  
فأرداهم في الحافرة ، فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحد ،  
ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التمتع بالطعام والشراب  
إلى التمرغ في التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير إلى  
المصرع الويل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا ، واتخذوا من دونه حجابا  
وحرزا ، وانظر هل نحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا ؟ فسبحان من انفرد بالقهر  
والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء  
ثم جعل الموت مخلصا للآتقياء ، وموعدا في حقهم للقاء ، وجعل القبر سجنا للآشقياء ،  
وحبسا ضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء ، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة وله الانتقام  
بالنقم القاهرة ، وله الشكر في السموات والأرض ، وله الحمد في الأولى والآخرة ،  
والصلاة على محمد ذي المعجزات الظاهرة ، والآيات الباهرة ، وعلى آله  
وأصحابه وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فخذير عن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر  
ونكير جليسه ، والقبر مقره ، وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده ، والجنة أو النار  
مورده ، أن لا يكون له فكر إلا في الموت ، ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ،  
ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا ترجع إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول  
إلا حوله ، ولا انتظار وتر بص إلا له ، وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ويراه في أصحاب القبور ؟



فإن كل ما هو آت قريب . والبعيد ما ليس بآت . وقد قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup>  
 « الْكَئِيسُ مَنْ ذَانَ نَفْسَهُ وَتَعَمَّلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ » ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند  
 تجديد ذكره على القلب ، ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له ،  
 والنظر في المنبهات عليه

ونحن نذكر من أمر الموت ، ومقدماته ولواحقه ، وأحوال الآخرة ، والقيامة ،  
 والجنة ، والنار ، ما لابد للعبد من تذكره على التكرار ، وملازمته بالافتكار والاستبصار  
 ليكون ذلك مستحثا على الاستعداد ، فقد قرب لما بعد الموت الرحيل ، فما بقي من العمر  
 إلا القليل ، واخلى عنه غافلون ( اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ <sup>(١)</sup> )  
 ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين

## السطر الأول

في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور وفيه ثمانية أبواب

الباب الأول : في فضل ذكر الموت والتوغيب فيه

الباب الثاني : في ذكر ملول الأمل وقصره

الباب الثالث : في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الأحوال عند الموت

الباب الرابع : في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

الباب الخامس : في كلام المجتصرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

الباب السادس : في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور

الباب السابع : في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور

الباب الثامن : فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام

﴿ كتاب ذكر الموت وما بعده ﴾

( ١ ) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت : تقدم غير مرة

(١) الأنبياء : ١

## الباب الأول

في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره

اعلم أن المنهمك في الدنيا ، للكسب على غرورها ، المحب لشهواتها ، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره ، وإذا ذكر به كرهه ونفر منه ، وأنتك هم الذين قال الله فيهم ( قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ <sup>(١)</sup> ) ثم الناس إما منهمك ، وأما تأنب مبتدىء ، أوعارف منته ، أما المنهمك : فلا يذكر الموت ، وإن ذكره فيسذكره للتأسف على دنياه ، ويشغل بمذمته ، وهذا يزيد ذكر الموت من الله بعدا .

وأما التأنب : فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعت به من قلبه الخوف والخشية ، فيفي بتمام التوبة ، وربما يكره الموت خيفة من أن يحتطفه قبل تمام التوبة ، وقبل إصلاح الزاد ، وهو معذور في كراهة الموت . ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ » فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله ، وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره . وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشغلا بالاستعداد للقاءه على وجه يرضاه . فلا يمدكارها للقاءه . وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له ، لا شغل له سواه ، وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا .

وأما العارف : فإنه يذكر الموت دائما لأنه موعده للقاءه لحبيبه ، والمحب لا ينسى قط موعده لقاء الحبيب . وهذا في غالب الأمر يستبطنه محب الموت ، ومحب محبته ليتخلص من دار العاصين ، وينتقل إلى جوار رب العالمين ، كما روي عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة ، لأفصح من ندم . اللهم إن كنت تعلم أن الفقير أحب إلي من الغني ، والسقم أحب إلي من الصحة ، والموت أحب إلي من العيش ، فسهل علي الموت حتى ألقاك . فإذا التأنب معذور في كراهة الموت ، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه .

( الباب الأول في ذكر الموت والترغيب فيه )

( ١ ) حديث من كره لقاء الله كره الله لقاءه : متفق عليه . من حديث أبي هريرة

(١) الجملة : ٨

وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى ، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة ، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه ، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا ، وهو الغاية والمنتهى .

وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل ، فإن المنهمك أيضاً يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا ، إذ ينقص عليه نعيمه ، ويكدر عليه صفو لذته ، وكل ما يكدر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة

## بيان

فضل ذكر الموت كيفما كان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَكْثَرُوْا مِنْ ذِكْرِ هَٰذِهِمُ اللَّذَاتِ » معناه تنصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها . فتقبلوا على الله تعالى ، وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « أَوْ تَعْلَمُ الْبَهَائِمُ مِنَ الْمَوْتِ مَا يَعْلَمُ ابْنُ آدَمَ مَا أَكَلَتْ مِنْهَا سَمِينًا » <sup>(٣)</sup> وقالت عائشة رضي الله عنها : يارسول الله ، هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : « نَعَمْ مَنْ يَذْكُرُ الْمَوْتَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عَشْرِينَ مَرَّةً » وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور ، ويتقاضى الاستعداد للآخرة . والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « تُخَفِّةُ الْمُؤْمِنِ الْمَوْتُ » وإنما قال هذا لأن الدنيا مسجن المؤمن ، إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ، ورياضة شهواته ، ومداغة شيطانه

( ١ ) حديث أكثروا من ذكر هاذم اللذات : الترمذى وقال حسن والنسائى وابن ماجه من حديث

أبي هريرة وقد تقدم

( ٢ ) حديث لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلت منها سمينا : البيهقى في الشعب من حديث أم حبيبة

الجهنية وقد تقدم

( ٣ ) حديث قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من ذكر الموت في اليوم واللييلة عشرين

مرة : تقدم

( ٤ ) حديث تخفة المؤمن الموت : ابن أبي الدنيا في كتاب الموت : والطبرانى والحاكم من حديث عبد الله بن عمر

مرسلا بسند حسن

فالموت إطلاق له من هذا المذاب ، والإطلاق تحفة في حقه

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَلْمُوتُ كَفَّارَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ » وأراد بهذا المسلم حقا ، المؤمن صدقا ، الذي يسلم السمايون من لسانه ويده ، ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ، ولم يتدنس من المعاصي إلا باللم والصغائر ، فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض . قال <sup>(٢)</sup> عطاء الخراساني : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال « شُوبُوا مَجْلِسَكُمْ بِذِكْرِ مُكَدِّرِ اللَّذَاتِ » قالوا وما مكدر اللذات ؟ قال « أَلْمُوتُ »

وقال <sup>(٣)</sup> أنس رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ أَلْمُوتِ فَإِنَّهُ يُمَحِّصُ الذُّنُوبَ وَيُزْهِدُ فِي الدُّنْيَا » . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « كُنِّي بِأَلْمُوتِ مُفَرَّقًا » . وقال عليه السلام <sup>(٥)</sup> « كَفَى بِأَلْمُوتِ وَاعِظًا »

<sup>(٦)</sup> وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال « أَذْكَرُوا أَلْمُوتَ أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ أَصْحَابَكُمْ قَلِيلًا وَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » . <sup>(٧)</sup> وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل ، فأحسنوا

( ١ ) حديث الموت كفارة لكل مسلم : أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج المريدين انه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرقة في جزه

( ٢ ) حديث عطاء الخراساني مر النبي صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات - الحديث : ابن أبي الدنيا في اللوت هكذا مرسل ورويناه في أمالي الحلال من حديث أنس ولا يصح

( ٣ ) حديث أنس أكثروا من ذكر الموت فانه يحصن الذنوب ويزهد في الدنيا : ابن أبي الدنيا في الموت باسناد ضعيف جدا

( ٤ ) حديث كني بالموت مفرقا : الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في البر والعملة من رواية أبي عبد الرحمن الجلي مرسل

( ٥ ) حديث كني بالموت واعظا : الطبراني ، والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد

( ٦ ) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت - الحديث : ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر باسناد ضعيف

( ٧ ) حديث ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال كيف كان ذكر

الثناء عليه ، فقال « كَيْفَ ذَكَرُ صَاحِبِكُمْ لِلْمَوْتِ ؟ » قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت . قال « فَإِنَّ صَاحِبَكُمْ لَيْسَ هُنَالِكَ » . وقال ابن <sup>(١)</sup> عمر رضي الله عنهما : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة ، فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس وأكرم الناس يارسول الله ؟ فقال « أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ وَأَشَدَّهُمْ اسْتِعْدَادًا لَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَكَرَامَةِ الْآخِرَةِ »

وأما الآثار : فقد قال الحسن رحمه الله تعالى : فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحا وقال الربيع بن خثيم : ما غائب ينتظره المؤمن خبراله من الموت . وكان يقول : لا تشعروا بى أحدا ، وسأولنى إلى ربى سلا . وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : يا أخى احذر الموت فى هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء ، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يكون حتى كأن بين أيديهم جنارة

وقال ابراهيم التيمى شيئا قطعاعنى لذة الدنيا ، ذكر الموت ، والوقوف بين يدي الله عز وجل وقال كمب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها

وقال مطرف : رأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول فى وسط مسجد البصرة . قطع ذكر الموت قلوب الخائفين ، فوالله ما أراهم إلا والهين

وقال أشعث : كنا ندخل على الحسن ، فإنما هو النار ، وأمر الآخرة ، وذكر الموت وقالت صفية رضي الله تعالى عنها : إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها فساوة قلبها ، فقالت أكرى ذكر الموت يرق قلبك . ففعلت فرق قلبها . فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلوده دما وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكى حتى تنخلع أوصاله ، فإذا ذكر الرحمة

صاحبكم للموت - الحديث : ابن أبي الدنيا فى الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك فى الزهد قال أنما لك من مغول فذكره بلاغا بزيادة فيه

( ١ ) حديث ابن عمر أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس الحديث : ابن ماجه مختصرا وابن أبي الدنيا بكامله باسناد جيد

رجعت إليه نفسه . وقال الحسن : ما رأيت عاقلاً قط إلا أصبته من الموت حذراً ، وعليه حزيناً  
وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء : عظمى ، فقال : لست أول خليفة تموت .  
قال : زدنى . قال : ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت ، وقد جاءت نوبتك . فبكى  
هم لذلك : وكان الربيع بن خثيم قد حفر قبراً في داره ، فكان ينام فيه كل يوم مرات  
يستديم بذلك ذكر الموت ، وكان يقول : لو فارق ذكر الموت فلبي ساعة واحدة لفسد .  
وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : إن هذا الموت قد نقص على أهل النعم نعيمهم ،  
قاطبوا نعيماً لموت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لعنيسة : أكثر ذكر الموت ، فإن  
كنت واسع العيش ضيقه عليك ، وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك  
وقال أبو سليمان الداراني : قلت لأم هرون أتحبين الموت ؟ قالت : لا ، قلت : لم ؟ قالت :  
لو عصبت آدمياً ما اشتبهت لقاءه ، فكيف أحب لقاءه وقد عصبتني !

## بيان

الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب

اعلم أن الموت هائل ، وخطره عظيم ، وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكورهم له ،  
ومن يذكروه ليس يذكروه بقلب فارغ ، بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا ، فلا ينجع ذكر  
الموت في قلبه . فالطريق فيه أن يفرغ القلب عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو  
بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة خطيرة . أو يركب البحر ، فإنه لا يتفكر  
إلا فيه . فإذا باشر ذكر الموت قلبه ، فيوشك أن يؤثر فيه ، وعند ذلك يقل فرحه  
وسرووه بالدنيا ، وينكسر قلبه .

وأنجع طريق فيه أن يذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله ، فيتذكر موتهم  
ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف محال التراب  
الآن حسن صورهم ، وكيف تبددت أجزاءهم في قبورهم ، وكيف أرسلوا نساءهم ، وأيتعوا  
أولادهم ، وضيعوا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم . فهما  
تذكر رجل رجلاً ، وفصل في قلبه حاله وكيفية موته ، وتوهم صورته ، وتذكر نشاطه وتردده  
وتأمله للعيش والبقاء ، ونسيانه للموت ، وانخداعه بتواتر الأسباب ، وركونه إلى القوة

والشباب ، وميله إلى الفجاءة واللاهو ، ونفثته عما بين يديه من الموت الذريع ، والهلاك السريع ، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدت رجلاه ومفاساه ، وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يفجأك وقد أكل التراب أسنانه ، وكيف كان يدبر لنفسه مالا يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر : وهو غافل عما يراد به ، حتى جاء الموت في وقت لم يحتسبه ، فأنكشف له صورة الملك ، وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار . فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم ، وغفلته كغفلتهم ، وستكون عاقبته كعاقبتهم . قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : السعيد من وعظ بغيره

وقال عمر بن عبد العزيز : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا أوراءا إلى الله عز وجل تضمونه في صدع من الأرض ، قد توسد التراب ، وخلف الأحياب ، وقطع الأسباب ؟ فلازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى ، هو الذي يحدد ذكر الموت في القلب ، حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ، ويتجافى عن دار الغرور . وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه . ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد له من مفارقتها . نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ، ثم بكى فقال : والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور اقترت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته

## الباب الثاني

في طول الأمل ؛ وفضيلة قصر الأمل ، وسبب طوله ، وكيفية معالجته

### فضيلة قصر الأمل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر (١) « إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالنِّسَاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ وَخُذْ مِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ »

في الباب الثاني في طول الأمل

( ١ ) . حديث قال لعبد الله بن عمر إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالنساء . الحديث : ابن حبان ورواه البخاري .

وَمِنْ صِخْرِكَ لِسِقْمِكَ فَإِنَّكَ يَاعْبُدَ اللَّهَ لَا تَذَرِي مَا أَسْمُكَ غَدًا »

وروى<sup>(١)</sup> عليّ كرم الله وجهه ، أنه صلى الله عليه وسلم قال « إِنَّ أَشَدَّ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ خَصْلَتَانِ اتَّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ فَأَمَّا اتَّبَاعُ الْهَوَى فَإِنَّهُ يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَإِنَّهُ الْحُبُّ لِلدُّنْيَا ، ثُمَّ قَالَ : « أَلَا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَيُمْضُ وَإِذَا أَحَبَّ عَبْدًا أَعْطَاهُ الْإِيمَانَ أَلَا إِنَّ لِلدِّينِ أَبْنَاءَ وَلِلدُّنْيَا أَبْنَاءَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدِّينِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا قَدِ ارْتَحَلَتْ مُوَلِّيَّةٌ أَلَا إِنَّ الْآخِرَةَ قَدِ ارْتَحَلَتْ مُفْضِلَةٌ أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي يَوْمٍ عَمَلٍ لَيْسَ فِيهِ حِسَابٌ أَلَا وَإِنَّكُمْ تُوشِكُونَ فِي يَوْمٍ حِسَابٍ لَيْسَ فِيهِ عَمَلٌ »

وقالت<sup>(٢)</sup> أم المنذر : أطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ أَمَا تَسْتَحْيُونَ مِنْ اللَّهِ » قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « تَجْمَعُونَ مَالًا تَأْكُلُونَ وَتَأْمَلُونَ مَالًا تُذَرِكُونَ وَتَبْنُونَ مَا لَا تَسْكُنُونَ »

وقال<sup>(٣)</sup> أبو سعيد الخدري : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أَلَا تَعْجَبُونَ مِنْ أُسَامَةَ ائْتَشَرَى إِلَى شَهْرٍ إِنَّ أُسَامَةَ لَطَوِيلُ الْأَمَلِ وَالَّذِي تَفْسَى يَدِيهِ مَا طَرَفَتْ عَيْنَايَ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنْ شَفَرَنِي لَا يَلْتَقِيَانِ حَتَّى يَقْبِضَ اللَّهُ رُوحِي وَلَا رَفَعْتُ طَرَفِي فَظَنَنْتُ أَنَّي وَاضِعُهُ حَتَّى أَقْبِضَ وَلَا لَقَمْتُ لُقْمَةً إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّي لَا أُسَبِّحُهَا حَتَّى أُغْصَّ بِهَا مِنَ الْمَوْتِ » ثم قال : « يَا بَنِي آدَمَ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فَعَدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتِ وَالَّذِي تَفْسَى يَدِيهِ إِنْ مَا تُوَعَّدُونَ لَا تِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ »

من قول ابن عمر في آخر حديث كن في الدنيا كأنك غريب

( ١ ) حديث علي أن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل - الحديث : بطوله ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف

( ٢ ) حديث أم المنذر أيها الناس أما تستحيون من الله تعالى قالوا وما ذاك يا رسول الله قال تجمعون مالا تأكلون الحديث : ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب باسناد ضعيف وقد تقدم

( ٣ ) حديث أبي سعيد اشترى ابن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة - الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل والطبراني في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب باسناد ضعيف



وعن <sup>(١)</sup> ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج بهريق الماء فيمسح بالتراب ، فأقول له يا رسول الله إن الماء منك قريب . فيقول « مَا يُدْرِيكَ لَمْ يَلْ لَأَبْلَغُهُ » . وروى <sup>(٢)</sup> أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد ، ففرز عودا بين يديه والآخر إلى جنبه ، وأما الثالث فأبعده . فقال « هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال « هَذَا الْإِنْسَانُ وَهَذَا الْأَجَلُ وَذَلِكَ الْأَمَلُ يَتَعَاطَاهُ ابْنُ آدَمَ وَيَخْتَلِجُهُ الْأَجَلُ دُونَ الْأَمَلِ » وقال عليه السلام <sup>(٣)</sup> « مَثَلُ ابْنِ آدَمَ وَإِلَى جَنْبِهِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ مَنِيَّةً إِنْ أَخْطَأَتْهُ الْمَنَآيَا وَقَعَ فِي الْهَرَمِ » قال ابن مسعود : هذا المرء وهذه الختوف حوله شوارع إليه ، والهرم وراء الختوف ، والأمل وراء الهرم ، فهو يؤمل وهذه الختوف شوارع إليه فأياها أمر به أخذه ، فإن أخْطَأَتْهُ الختوف قتله الهرم ، وهو ينتظر الأمل

قال عبد الله : <sup>(٤)</sup> خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا ، وخط وسطه خطا ، وخط خطوطا إلى جنب الخط ، وخط خطا خارجا وقال « أَتَدْرُونَ مَا هَذَا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال « هَذَا الْإِنْسَانُ » للخط الذي في الوسط . « وَهَذَا الْأَجَلُ مُحِيطٌ بِهِ وَهَذِهِ الْأَعْرَاضُ » للخطوط التي حوله تنهشه ، إن أخْطَأَ هذا نهشه هذا . « وَذَلِكَ الْأَمَلُ » يعني الخط الخارج . وقال <sup>(٥)</sup> أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَهْرُمُ ابْنُ آدَمَ وَيَبْقَى مَعَهُ اثْنَتَانِ الْحِرْصُ وَالْأَمَلُ » وفي رواية « وَتَشَبُّ مَعَهُ اثْنَتَانِ الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرِ »

( ١ ) حديث ابن عباس كان يخرج بهريق الماء فيمسح بالباب فأقول الماء منك قريب فيقول ما يدري لعل

لأبْلَغُهُ ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل والبرار بسند ضعيف

( ٢ ) حديث انه أخذ ثلاثة أعواد ففرز عودا بين يديه - الحديث : أحمد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظه والرامهرمزي في الأمثال من رواية أبي التوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري واسناده

حسن ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضا من رواية أبي التوكل مرسل

( ٣ ) حديث مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية - الحديث : الترمذي من حديث عبد الله ابن الشخير وقال حسن

( ٤ ) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا - الحديث : رواه البخاري

( ٥ ) حديث أنس يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والأمل : وفي رواية ويشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر ورواه مسلم بلفظ الثاني وابن أبي الدنيا في قصر الأمل باللفظ

الأول باسناد صحيح

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « بِحَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْيَقِينِ وَالزُّهْدِ وَبِهَلْكَ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْبُخْلِ وَالْأَمَلِ »

وقيل بينما عيسى عليه السلام جالس ، وشيخ يعمل بمسحاة يثربها الأرض ، فقال عيسى : اللهم انزع منه الأمل . فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة . فقال عيسى : اللهم اردد إليه الأمل . فقام فجعل يعمل . فسأله عيسى عن ذلك فقال : بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسى : إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير ؟ فألقيت المسحاة واضطجعت . ثم قالت لي نفسى والله لا بد لك من عيش ما بقيت . فقامت إلى مسحاتى

وقال <sup>(٢)</sup> الحسن : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَكُلُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ » قالوا : نعم يا رسول الله ، قال « قَصِّرُوا مِنَ الْأَمَلِ وَتَبَتُّوا آجَالَكُمْ بَيْنَ أَبْصَارِكُمْ وَاسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ » <sup>(٣)</sup> وكان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ ذُنُوبٍ تَمْنَعُ خَيْرَ الْآخِرَةِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ حَيَاةٍ تَمْنَعُ خَيْرَ الْمَمَاتِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَمَلٍ يَمْنَعُ خَيْرَ الْعَمَلِ »

الآثار : قال مطرف بن عبد الله : لو علمت متى أجلى لخشيت على ذهاب عقلى ولكن الله تعالى من على عباده بالغفلة عن الموت . ولولا الغفلة ما تهنؤا بعيش ، ولا قامت بينهم الأسواق . وقال الحسن : السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بنى آدم ولولا هما مامشى المسلمون فى الطرق . وقال الثوري : بلغنى أن الإنسان خلق أحق ، ولولا ذلك لم يهناه العيش . وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن : إنما عمرت الدنيا بقله عقول أهلها . وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه : ثلاث أعجبتنى حتى أضحكتنى : مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس يفضل عنه ، وضاحك ملء فيه

( ١ ) حديث نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد وهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل : ابن أبى الدنيا فيه

من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده

( ٢ ) حديث الحسن أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصروا من الأمل - الحديث :

ابن أبى الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسل

( ٣ ) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه اللهم انى أعوذ بك من أمل يمنع حير الآخرة

وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل : ابن أبى الدنيا فيه

من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفى استاده ضعف وجهالة ولا أدري من حوشب

ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض . وثلاث أحزنتني حتى أبكتني  
فراق الأحبة محمد وحزبه ، وهول المطلاع ، والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى  
الجنة يؤسر بي أو إلى النار . وقال بعضهم : رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في  
النام ، فقلت : أي الأعمال أبلغ عندهم ؟ قال التوكل ونصر الأمل . وقال الثوري :  
الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة . وسأل الفضل بن  
فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب . ثم دعا ربه  
فرد عليه الأمل ، فرجع إلى الطعام والشراب . وقيل للحسن : يا أبا سعيد ،  
ألا تفعل قيصك ؟ فقال الأمر أعجل من ذلك . وقال الحسن : الموت معقود بنواصيكم  
والدنيا تطوى من ورائكم وقال بعضهم : أنا كرجل مادّ عنقه والسيف عليه ، ينتظر  
متى تضرب عنقه . وقال داود الطائي : لو أملت أن أعيش شهرا لرأيتني قد أتيت  
عظيما . وكيف أوئل ذلك وأرى الفجائع تنشى الخلائق في شاعات الليل والنهار  
وحكي أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذه يقول له أبو هاشم الرماني ، وفي طرف  
كسائه شيء مصرور ، فقال له أستاذه : إيش هذا معك ؟ فقال : لوزات دفعتها إلي . أخ لي  
وقال أحب أن تفطر عليها . فقال شقيق ، وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل !  
لا كلمتك أبدا . قال : فأغلق في وجهي الباب ودخل

وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته : هُنْ لكل سفر زادا لا محالة ، فتزودوا  
لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه  
ترغبوا وترهبوا . ولا يطولن عليكم الأمد فتفسد قلوبكم ، وتنفقوا لعدوكم ، فإنه  
والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ، ولا ينسى بعد صباحه ، وربما  
كانت بين ذلك خطفات المنايا . وم رأيت ورأيت من كان بالدنيا مغترا . وإنما تفرعين  
من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى ، وإنما يفرح من أمن أهوال القيامة . فأما  
من لا يداوي كلما إلاصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح ! أعوذ بالله من  
أن آمركم بما لا ينهي عنه نفسي ، فتخسر صفقتي وتظهر عيبتني ، وتبدو مسكنتي في يوم

يبدو فيه الغنى والفقر ، والموازن فيه منصوبة . لقد عنيت بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت ، ولو عنيت به الجبال لذابت ، ولو عنيت به الأرض لتشققت . أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة : وأنكم صائرون إلى إحداهما

وكتب رجل إلى أخ له : أما بعد : فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، ونحن في أضغاث أحلام ، والسلام

وكتب آخر إلى أخ له : إن الحزن على الدنيا طويل ، والموت من الإنسان قريب ، وللنقص في كل يوم منه نصيب ، وللبلاء في جسمه ديب ، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل والسلام . وقال الحسن : كان آدم عليه السلام قبل أن يخطيء أملة خلف ظهره ، وأجله بين عينيه . فلما أصاب الخطيئة حول فجعل أملة بين عينيه ، وأجله خلف ظهره

وقال عبد الله بن سميطة : سمعت أبي يقول : أيها المغتر بطول صحته ، أما رأيت ميتا قط من غير سقم ؟ أيها المغتر بطول المهلة ، أما رأيت مأخوذا قط من غير عدة ؟ إنك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك . أيا لصحة تغتروا ؟ أم بطول العافية تمرحون ؟ أم الموت تأمنون ؟ أم على ملك الموت تجترئون ؟ إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ، ولا كثرة احتشادك . أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب ، وغصص ، وندامة على التفريط ، ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت ، رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت . وقال أبو زكريا التيمي : بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام ، إذا أتى بحجر منقور ، فطلب من يقرؤه ، فأتى بوهب بن منبه ، فإذا فيه : ابن آدم ، إنك لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك ، ولرغبت في الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك وحيلك . وإنما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك ، وأسأمت أملك وحشمك ، وفارقت الوالد والقريب ، ورفضك الولد والنسيب ، فلا أنت إلى دنياك هائد ، ولا في حسراتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة . فبكى سليمان بكاء شديدا وقال بعضهم : رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف : سلام عليك ، فإنني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنني أحذرك متحوالك من دار مهلك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك ، فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها ،

فيا تيك منكرو وتكبر في قعدانك وينتير انك ، فإن يكن الله معك فلا بأس ، ولا وحشة ، ولا فاقة ، وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع ، وضيق مضجع ، ثم تبلغك صبيحة الجسر ، ونفخ الصور . وقيام الجبار لفصل قنساء الخلائق ، وخلاء الأرض من أهلها ، والسموات من سكانها ، فباحث الأسرار ، وأسمرت النار ، ووضعت الموازين ، وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضي بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين . فكم من مفتضح ومستور ، وكم من هالك وناج ، وكم من معذب ومرحوم ، فيا ليت شعري ما حالي وحالك يومئذ ؟ ففي هذا ما هدم اللذات ، وأسلى عن الشهوات ، وقصر عن الأمل ، وأيقظ النائمين ، وحذر الغافلين . أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم ، وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين ، فإنما نحن به وله والسلام

وخطب عمر بن عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس ، إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى . وإن لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم . فغاب وشقي غدا عهد أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء ، وجنته التي عرضها السموات والأرض . وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى ، وباع قليلا بكثير ، وفانيا بباقي ، وشقوة بسعادة ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيخلف بعدكم الباقون ؟ ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه ، وانقطع أملاه ، فتضمونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممدد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ؟ وأيم الله إنى لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي . ولكنها سنن من الله عادية ، أمر فيها بطاعته ، وأنهى فيها عن معصيته ، واستغفر الله ، ووضع كفه على وجهه وجعل يمينه حتى يلت دموعه لحيته . وما عاد إلى محاسنه حتى مات . وقال القمقاع بن حكيم : قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة ، فلو أتاني ما أحبيت تأخير شيء عن شيء

وقال الثوري : رأيت شيخا في مسجد الكوفة يقول : أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي ، ولو أتاني ما أمرته بشيء ، ولا نهيته عن شيء ، ولأني على أحدث شيء ، ولا لأحد عندي شيء

وقال عبد الله بن ثعلبة : تضحك ولعل أ كفا ناك قد خرجت من عند القصار !  
وقال أبو محمد بن علي الزاهد : خرجنا في جنازة بالكوفة ، وخرج فيها داود الطائي ، فانتبذ  
فعمد ناحية وهي تدفن ، فجئت فعمدت قريبا منه ، فتكلم فقال : من خاف الوعيد قصر عليه  
البعيد . ومن طال أمله ضعف عمله . وكل ما هو آت قريب  
واعلم يا أخي أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤم ، وأعلم أن أهل الدنيا جميعا  
من أهل القبور ، إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون . فما ندب عليه أهل  
القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون ، وفيه يتنافسون ، وعليه عند القضاة يختصمون  
وروي أن معروفا الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة . قال محمد بن أبي توبة : فقال لي  
تقدم : فقلت : إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها . فقال معروف : وأنت  
تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى ! نموذ بالله من طول الأمل ، فإنه يمنع من خير العمل  
وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته : إن الدنيا ليست بدار قراركم . دار كتب الله  
عليها الفناء ، وكتب على أهلها الظمن عنها . فكم من عامر موثق عما قليل يخرب ، وكم  
من مقيم مغتبط عما قليل يظمن فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضر تكمن من  
الدقلة ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى . إنما لدنيا كنيء ظلال تلص فذهب ، بينا ابن آدم  
في الدنيا ينافس وهو قرير العين ، إذ دعاه الله بقدره ، ورماه بيوم حشفه فسلبه آثاره ودنياه ،  
وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه . إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر . إنها تسر قليلا وتحزن  
طويلا . وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، أنه كان يقول في خطبته أين الوضاعة  
الحسنة وجوهرهم ؟ المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان ؟  
أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب ؟ قد تضعع بهم الدهر ، فأصبحوا في  
ظلمات القبور . الواح \* الواح النجا النجا

## بيان

السبب في طول الأمل وعلاجه

اعلم أن طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل ، والآخر حب الدنيا  
أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنس بها ، وبشهواتها ، ولداتها ، وعلائقها ، ثقل على قلبه

في الواح الواح : السمعة السرعة

مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه ، والإنسان مشغوف بالأمانى الباطلة ، فيجنى نفسه أبدا بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ، ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال ، وأهل ، ودار ، وأصدقاء ، ودواب ، وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر ، موقوفا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت ، فلا يقدر قرب . فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له ، سوف ووعد نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب . وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير شيخا . فإذا صار شيخا قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار ، وعمارة هذه الضيعة ، أو ترجع من هذه السفرة ، أو تفرغ من تدير هذا الولد ، وجهازه ، وتدير مسكن له ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك . فلا يزال يسوف ويؤخر ، ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال آخر ، وهكذا على التدرج يؤخر يوما بعد يوم ، ويفضي به شغل إلى شغل ، بل إلى أشغال ، إلى أن تحطفه المنية في وقت لا يحاسبه ، فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف ، يقولون واحزنناه من سوف . والمسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدا ، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيئات ، فلا يفرغ منها إلا من أطرحها

فما لضي أحسد منها لبائته وما انتهى إرب إلا إلى إرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا ، والأنس بها ، والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « أَحِبُّ مَنْ أَحَبَّتْ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ »

وأما الجهل فهو أن الإنسان قد يعول على شبابه ، فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد ، وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر ، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب . وقد يستبعد الموت لصحته ، ويستبعد الموت فجأة ، ولا يدري أن ذلك غير بعيد . وإن كان ذلك بعيد

(١) حديث أحب من أحببت فانك مفارقة - الحديث : تقدم عبر مرة

فالمرض فجأة غير بعيد . وكل مرض فإنما يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدا  
ولو تفكر هذا الغافل ، وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب ، وشيب ،  
ومكولة ، ومن صيف ، وشتاء ، وخريف ، وربيع ، من ليل ونهار ، لعظم استشهاده ،  
واشتغل بالاستعداد له . ولكن الجاهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل ،  
وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب ، فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ، ولا يقدر  
نزوله به ووقوعه فيه . وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز ، ولا يقدر أن تشيع جنازته ، لأن  
هذا قد تكرر عليه وألفه ، وهو مشاهدة موت غيره . فأما موت نفسه فلم يألفه ، ولم يتصور  
أن يألفه ، فإنه لم يقع . وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه ، فهو الأول وهو الآخر ،  
وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ، ويعلم أنه لا بد وأن تحمل جنازته ، ويدفن في قبره . ولعل  
اللبن الذي يغطي به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري ، فتسوفه جهل محض

وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا ، فعلاجه دفع سببه . أما الجهل فيدفع  
بالفكر الصافي من القلب الحاضر ، وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة

وأما حب الدنيا فالملاج في إخراجها من القلب شديد ، وهو الداء العضال الذي أعيى  
الأولين والآخرين علاجه ، ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر ، وبما فيه من عظيم  
العقاب وجزيل الثواب . ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا ،  
فإن حب الخطيئة هو الذي يحو عن القلب حب الحقير . فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة  
الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها ، وإن أعطي ملك الأرض من المشرق إلى  
المغرب . وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منقص ، فكيف يفرح بها  
أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة ! فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها  
الصالحين من عباده . ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من  
الأفان والأشكال ، وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا . أما من كان مستعداً  
فقد فاز فوزاً عظيماً . وأما من كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خساراً مبيهاً

فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه ، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان  
لا محالة ، وكيف تنفتت عظامها ، وليتفكر أن الدود يبدأ بحدقته اليمنى أولاً أو اليسرى ،



فاعلى بدنه شيء إلا وهو طعنة الدود ، وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى . وكذلك يفكر فيما سوره من عذاب القبر ، وسؤال منكر ونكير ، ومن الحشر ، والنشر ، وأهوال القيامة ، وقرع النداء يوم العرص الأكبر . وأمثال هذه الأفكار هي التي تجدد ذكر الموت على قلبه ، وتدعوه إلى الاستعداد له

## بيان

مراتب الناس في طول الأمل وقصره

اعلم أنت الناس في ذلك يتفاوتون . فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبدا قال الله تعالى ( يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ <sup>(١)</sup> )

ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه . وهو الذي يحب الدنيا حبا شديدا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « الشَّيْخُ شَابٌ فِي حُبِّ طَلَبِ الدُّنْيَا وَإِنْ أَلْتَفَّتْ رَقُوتَاهُ مِنْ الْكِبَرِ إِلَّا الدِّينَ اتَّقُوا وَقَلِيلٌ مَا هُمْ »  
ومنهم من يأمل إلى سنة ، فلا يشتغل بتدبير ماوراءها ، فلا يقدر لنفسه وجودا في عام قابل . ولكن هذا يستعد في الصيف للشتاء ، وفي الشتاء للصيف . فإذا جمع ما يكفيه لستته اشتغل بالعبادة . ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء ، فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ، ولا في الشتاء ثياب الصيف

ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة ، فلا يستعد إلا لنهاره ، وأما للنهار فلا . قال عيسى عليه السلام : لا تهتموا برزق غد ، فإن يكن غد من آجالكم فستأني فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم  
ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة ، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم « يَا عَبْدَ اللَّهِ إِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ »

( ١ ) حديث الشيخ شاذلي في حب طلب الدنيا وإن التفت رقوقتا من الكبر والالذين اتقوا وقليل ما هم : لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال الشيخ شاذلي على حب اثنتين طول الحياة وحب المال

ومنهم من لا يقدر البقاء أية ساعة . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيسم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول « كَمَلَى لَأَبْلُغُهُ »

ومنهم من يكون الموت نصب عينيهِ ، كأنه واقع به ، فهو ينتظره . وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع . وفيه ورد ما نقل عن ((مما ذنب جيل رضي الله تعالى عنه ، لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال ، ماخطوت خطوة إلا ظننت أني لأتبعها أخرى . وكما نقل عن الأسود وهو حبشي ، أنه كان يصلي ليلا ويلتفت يمينا وشمالا فقال له قائل ما هذا ؟ قال أنظر ملك الموت من أي جهة يأتيني

فهذه مراتب الناس . ولكل درجات عند الله . وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم ، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله ، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة . ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل . وكل إنسان يدعي أنه قصير الأمل وهو كاذب ، وإنما يظهر ذلك بأعماله ، فإنه يعتنى بأسباب ربحا لا يحتاج إليها في سنة ، فيدل ذلك على طول أمله . وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا ينفل عنه ساعة . فليستعد الموت الذي يرد عليه في الوقت . فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته ، وفرح بأنه لم يضع نهاره ، بل استوفى منه حظه ، وادخره لنفسه . ثم يستأنف مثله إلى الصباح ، وهكذا إذا أصبح . ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه . فثل هذا إذا مات سعد وغنم ، وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة ، والحياة له مزيد

فليكن الموت على بالك يامسكين ، فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ، ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهلت فيفسده

( ١ ) حديث سؤاله لما ذ عن حقيقة إيمانه فقال ماخطوت خطوه الاظننت اني لا أتبعها أخرى : أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وهو ضعيف

## بيان

المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير

اعلم أن من له أخوان غائبان ينتظر قدوم أحدهما في غدا ، ينتظر قدوم الآخر بهد شهر أو سنة ، فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة ، وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غدا . فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار . فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ، ونسي ما وراء المدة ، ثم يسبح كل يوم وهو ينتظر السنة بكاملها ، لا ينتص منها اليوم الذي مضى . وذلك يمنع من مبادرة العمل أبدا ، فإنه أبدا يرى لنفسه متسما في تلك السنة ، فيؤخر العمل ، كما قال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَا يَنْتَظِرُ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا غَنِيَ مُطْنِيًّا أَوْ فَقْرًا مُنْسِيًّا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُقْبِدًا أَوْ مَوْتًا مُجْزِئًا أَوْ الدَّجَالَ فَالَّذِي جَالَ شَرُّ غَايِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةُ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ »

وقال <sup>(٢)</sup> ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه و اعتنم تمسك قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلِكَ وحياتك قبل موتك »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ » أي أنه لا يفتنهما ، ثم يعرف قدرهما عند زوالهما  
وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ إِلَّا أَنْ سِيلَمَةَ اللَّهِ غَايَةً إِلَّا أَنْ سِيلَمَةَ اللَّهِ الْجَنَّةَ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ وَجَاءَ

( ١ ) حديث ما ينتظر أحدكم من الدنيا الاثني مطافيا أو فقرا منسيا - الحديث : الترمذي من حديث

أبي هريرة بلفظ هل ينتظرون الاغناء - الحديث : وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد

ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ المصنف وفيه من لم يسم

( ٢ ) حديث ابن عباس اعتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك - الحديث : ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن

ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدي مرسل

( ٣ ) حديث نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ : البخاري من حديث ابن عباس وقد تقدم

( ٤ ) حديث من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل : الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن

( ٥ ) حديث جاءت الراجفة تتبعها الرادفة - الحديث : الترمذي وحسنه من حديث أبي بن كعب

الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ»<sup>(١)</sup> : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة، نادى فيهم بصوت رفيع «أَتَشْكُمُ الْمَنِيَّةَ رَابِتَةً لَا زِمَةَ إِلَّا بِشَقَاةٍ وَإِمَاءٍ بِسَادَةٍ» وقال<sup>(٢)</sup> أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أَنَا النَّذِيرُ وَالْمَوْتُ الْمَغِيرُ وَالسَّاعَةُ الْمَوْعِدُ» وقال<sup>(٣)</sup> ابن عمر: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السَّعَفِ فقال «مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا فِي مِثْلِ مَا مَضَى مِنْهُ» : وقال صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> «مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ ثَوْبٍ شَقَّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَبَقِيَ مُتَمَلِّقًا يَخِيطُ فِي آخِرِهِ فَيُوشِكُ ذَلِكَ الْخِيطُ أَنْ يَنْقَطِعَ» وقال<sup>(٥)</sup> جابر: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته، واهمرت وجنتاه، كأنه منذر جيش يقول «صَبَّحْتُكُمْ وَمَسَّيْتُكُمْ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» وقرن بين أصبعيه .<sup>(٦)</sup> وقال ابن مسعود رضي الله عنه: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (فَن يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ بِشَرْحِ صَدْرِهِ لِلْإِسْلَامِ)<sup>(٧)</sup> فقال «إِنَّ النُّورَ دَخَلَ الصَّدْرَ انْفَسَحَ» فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف؟ قال «نَعَمْ: التَّحَافِي عَنْ دَارِ الْفُرُورِ وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ» وقال السدي: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ بَعْمَلًا)<sup>(٨)</sup> أي أيكم أكثر للموت ذكرا، وأحسن له استعدادا، وأشد منه خوفا وحذرا

(١) حديث كان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتنكم المنية . الحديث: ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السلمي مرسل

(٢) حديث أبي هريرة أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد: ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوي بإسناد فيه لين

(٣) حديث ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه: ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن والترمذي نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه

(٤) حديث مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره . الحديث: ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح

(٥) حديث جابر كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واهمرت وجنتاه . الحديث: مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له

(٦) حديث ابن مسعود تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فَن يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ بِشَرْحِ صَدْرِهِ لِلْإِسْلَامِ فقال إن النور أَدْخَلَ الْقَلْبَ انْفَسَحَ . الحديث: ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرک وقد تقدم

(٨) الأنعام: ٢٥ (٢) الملك: ٢

وقال حذيفة ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادى : أيها الناس ، الرجل الرجل .  
وتصديق ذلك قوله تعالى ( إِنَّمَا لِإِخْدَى الْكُبَرِ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ  
أَوْ يَتَأَخَّرَ <sup>(١)</sup> ) في الموت . وقال سحيم مولى بنى تميم : جلست إلى عامر بن عبد الله  
وهو يصلى ، فأوجز في صلاته ثم أقبل عليّ فقال : أرحنى بحاجتك فأني أبادر قلت وما تبادر؟  
قال ملك الموت رحمك الله . قال فقممت عنه ، وقام إلى صلاته

ومرّ داود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال : دعنى إنما أبادر خروج نفسى  
قال عمر رضي الله عنه : التؤدة في كل شيء خير إلا في أعمال الخير للآخرة  
وقال المنذر : سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه : ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر ،  
ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر ، حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعته ولا يرانى  
وكان الحسن يقول في موعظته : المبادرة المبادرة ، فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت  
عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل . رحم الله أمراً نظراً إلى نفسه ، وبكى  
على عدد ذنوبه . ثم قرأ هذه الآية ( إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا <sup>(٢)</sup> ) يعنى الأنفاس ، آخر العدد  
خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخولك في قبرك  
واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته اجتهدا شديدا ، فقليل له لو أمسكت أو رفقت  
بنفسك بعض الرفق ؟ فقال إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس . مجراها أخرجت جميع  
ما عندها . والذي بقي من أجل أقل من ذلك : قال فلم يزل على ذلك حتى مات ، وكان يقول  
لأمرأته : شدى رحلك ، فليس على جهنم معبر

وقال بعض الخلفاء على منبره : عباد الله ، اتقوا الله ما استطعتم ، وكونوا فوما صيغ  
بهم فانتبهوا ، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا ، واستعدوا للموت فقد أظلمكم ،  
وترحلوا فقد جدّ بكم ، وإن غاية تنقصها اللحظة ، وتهدمها الساعة ، لجديرة بقصر المدة .  
وإن غائبا يجد به الجديد أن الليل والنهار لحريّ بسرعة الأوبة ، وإن قادما يحل بالفوز والشقوة  
لمستحق لأفضل المدة . فالتقيّ عند ربّه من ناصح نفسه ، وقدم توبته . وغلب شهوته ،  
فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له والشيطان موكل به ، يعنيه التوبة ليسوفها ، ويزين

إليه المعصية ليرتكبها ، حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها : وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به . فيها حسرة على ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة ، وأن ترد به أيامه إلى شقوة ، جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ، ولا تقصر به عن طاعة الله معصية ، ولا يحل به بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء ، وإنه بيده الخير دائما فعال لما يشاء وقال بعض المفسرين في قوله تعالى ( فَتَنَّمْ أَنْفُسَكُمْ <sup>(١)</sup> ) قال بالشهوات واللذات ( وَتَرَبَّصُمْ <sup>(٢)</sup> ) قال بالتوبة ( وَارْتَبِصْ <sup>(٣)</sup> ) قال شككتم ( حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ <sup>(٤)</sup> ) قال الموت ( وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْفَرُورُ <sup>(٥)</sup> ) قال الشيطان

وقال الحسن : تصبروا وتشددوا فإنما هي أيام قلائل ، وإنما أنتم ركب وقوف ، يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما يحضرنكم

وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف ، وماله عارية ، والضيف مرتحل ، والعارية مؤداة . <sup>(١)</sup> وقال أبو عبيدة الباجي دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه ، فقال : مرحبا بكم وأهلا ، حياكم الله بالسلام : وأحلنا وإياكم دار المقام : هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتيتم ، فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن ، وتخرجوه عن هذه الأذن ، فإن من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا ورائجا ، لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، ولكن رفع له علم فشمم إليه ، الوحا الوحا ، النجا النجا . علام تمرجون ؟ أتيتهم ورب الكعبة كأنكم والأمر معا ، رحم الله عبدا جمل العيش عيشا واحدا ، فأكل كسيرة ، ولبس خفا ، ولزق بالأرض ، واجتهد في العبادة ، وبكى على الخطيئة ، وهرب من العقوبة ، وابتنى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك

وقال عاصم الأحول : قال لي فضيل الرقاشي وأنا سائله : يا هذا لا يشغلك كثرة الناس عن نفسك ، فإن الأمر يخلص إليك دونهم . ولا تقل أذهب ههنا وههنا ، فينقطع عنك النهار

( ١ ) حديث أبي عبيدة الباجي دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم . الحديث : ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وابن جبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه

في لاشيء ، فإن الأمر محفوظ عليك ، ولم تر شيئاً قبل أحسن طلباً ولا أسرع إدراكاً  
من حسنة حديثة لذنب قديم

## الباب الثالث

في سكرات الموت وشدة وما يستحب من الأحوال عنده

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ، ولا هول ، ولا عذاب ، سوى  
سكرات الموت بمجردھا ، لكان جديراً بأن يتنصص عليه عيشه ، ويتكدر عليه سروره  
ويفارقه سهوہ وغفلته ، وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ، ويمظلم له استمداده ، لاسيما وهو  
في كل نفس بصده . كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك ، لا تدرى متى يغشاك  
وقال لقمان لابنه : يا بني ؛ أمر لا تدرى متى يلقاك ، استعمله قبل أن يفجأك  
والمعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو : فانتظر أن يدخل  
عليه جندي فيضربه خمس خشبات ، لتكدرت عليه لذته ، وقسد عليه عيشه . وهو في كل  
نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع ، وهو عنه غافل . فما  
لهذا سبب إلا الجهل والغرور

واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها . ومن لم يذوقها  
فإنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدركها ، وإما بالاستدلال بأحوال الناس في  
النزع على شدة ما هم فيه . فأما القياس الذي يشهدله فهو أن كل عضو لاروح فيه  
فلا يحس بالألم . فإذا كان فيه الروح فالمدرک للألم هو الروح . فهما أصابته العضو  
جرح أو حريق سرنى الأثر إلى الروح ، فيقدر ما يسرى إلى الروح يتألم . والمؤلم يتفرق  
على اللحم ، والدم ، وسائر الأجزاء ، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم . فإن كان في الآلام  
ما يباشر نفس الروح ولا يلاق غيره ، فما أعظم ذلك الألم وما أشده ! والنزع عبارة  
عن مؤلم نزل بنفس الروح ، فاستغرق جميع أجزائه ، حتى لم يبق جزء من أجزائه  
الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم . فلو أصابته شوكة فالألم الذي  
يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاق ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة .

وإنما يظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تنفوس في سائر أجزاء البدن ، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا وباطنا إلا وتصيبه النار ، فتحسسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم . وأما الجراحة فإنما تصيب الموضع الذي منه الحديد فقط ، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار . فإلم النزع يهجم على نفس الروح ، ويستغرق جميع أجزائه ، فإنه المتزوع المجذوب من كل عرق من العروق ، وعصب من الأعصاب ، وجزء من الأجزاء ، ومفصل من المفصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم فلا تسأل عن كربه وألمه ، حتى قالوا إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ، ونشر بالناشير ، وقرض بالمقاريض . لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح ، فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح . وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء نفسه في قلبه وفي لسانه . وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه ، وتضاعف على قلبه ، وبلغ كل موضع منه ، فهذه كل قوة ، وضعف كل جراحة ، فلم يترك له قوة الاستغاثة . أما العقل فقد غشيه وشوشه . وأما اللسان فقد أبكمه . وأما الأطراف فقد ضعفها . وبود لو قدر على الاستراحة بالأيمن والصباح والاستغاثة ، ولكنه لا يقدر على ذلك . فإن بقيت فيه قوة سمعته عند نزع الروح وجذبها خوارا وغمرة من حلقه وصدره ، وقد تغير لونه وأربد ، حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته ، وقد جذب منه كل عرق على حياله . فالألم منتشر في داخله وخارجيه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه ، وتنقلص الشفتان ، وينقلص اللسان إلى أصله ، وترتفع الاثنيان إلى أعالي موضعهما ، وتختصر أنامله . فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه . ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما ، فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم ، لامن عرق واحد ؛ بل من جميع العروق . ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا ، فتبرد أولا قدماه ، ثم مساقاه ، ثم نخذه . ولكل عضو سكرة بعد سكرة ، وكربة بعد كربة ، حتى يبلغ بها إلى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ، ويفلق دونه باب التوبة



و يحيط به الحسرة والندامة .<sup>(١)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَقْبَلُ تَوْبَةُ الْقَلْبِ مَا لَمْ يُغْرَغِرْ » وقال مجاهد في قوله تعالى ( وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ )<sup>(٢)</sup> قال: إذا عاين الرسل فستد ذلك تبدوله صفحة وجهه ملك الموت ، فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكرهه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول<sup>(٣)</sup> «اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ» والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به ، فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية . ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت ، حتى قال عيسى عليه السلام : يا معشر الحوارين ادعوا الله تعالى أن يهون علي هذه السكره ، يعنى الموت ، فقد خفت الموت مخافة أوقفتى خوفا من الموت على الموت وروي أن نفرا من بنى إسرائيل ساروا بمقبرة ، فقال بعضهم لبعض : لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه ، فدعوا الله تعالى ، فإذا هم برجل قد قام وبين عيبيه أثر السجود ، قد خرج من قبر من القبور ، فقال ياقوم : ما أردتم منى ؟ لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي وقالت عائشة رضي الله عنها : لا أغبط أحدا يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم وروي أنه عليه السلام<sup>(٤)</sup> كان يقول « اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَأْخُذُ الرُّوحَ مِنْ بَيْنِ الْعَصَبِ وَالْقَصَبِ وَالْأَنَامِلِ اللَّهُمَّ فَأَعِنِّي عَلَى الْمَوْتِ وَهَوْنَهُ عَلَيَّ » وعن الحسن<sup>(٥)</sup> أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال

#### ﴿ الباب الثالث في سكرات الموت ﴾

- ( ١ ) حديث أن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر: الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر
- ( ٢ ) حديث كان يقول اللهم هون على محمد سكرات الموت: تقدم
- ( ٣ ) حديث كان يقول اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل - الحديث: ابن أبي الدنيا
- في كتاب الموت من حديث صعبة بن غيلان الجعفي وهو مفضل سقط منه الصحاح والتأني
- ( ٤ ) حديث الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف ابن أبي الدنيا فيه هكذا بمرسلا ورجاله ثقات .

« هُوَ قَدْرُ ثَلَاثِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ » . (١) وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدة فقال « إِنَّ أَهْوَنَ الْمَوْتِ بَمَنْزِلَةِ حَسَكَةٍ فِي صُوفٍ قَتَلُ تَخْرُجُ الْحَسَكَةُ مِنَ الصُّوفِ إِلَّا وَمَعَهَا صُوفٌ » . (٢) ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال « إِنِّي أَعْلَمُ مَا يَلْقَى مَآئِنُهُ عِرْقٌ إِلَّا وَيَأْلُمُ لِلْمَوْتِ عَلَى جِدَّتِهِ »

وكان علي كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول : إن لم تقتلوا تموتوا . والذي نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من موت علي فراش

وقال الأوزاعي : بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره

وقال شداد بن أوس : للموت أقطع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن . وهو أشد من نشر بالمناسير ، وقرض بالمقاريض ، وغلي في القدور . ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ، ولا لدوا بنوم . وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال : إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكرهه درجته في الجنة . وإذا كان للكافر معروف لم يحز به ، هوّن عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار . وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف تجدون الموت فلما مرض قيل له : فأنت كيف تجده؟ فقال : كأن السموات مطبقة على الأرض . وكان نفسى يخرج من ثقب إبرة . وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « مَوْتُ الْفَجَاءَةِ رَاحَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَأَسْفٌ عَلَى الْفَاجِرِ » . وروي عن (٤) مكحول ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لَوْ أَنَّ شَعْرَةً مِنْ شَعْرِ الْمَيِّتِ وَضِعَتْ عَلَى أَهْلِ السَّمَوَاتِ وَارْتَضَ لَمَاتُوا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى »

( ١ ) حديث سئل عن الموت وشدة فقال إن أهون الموت بمنزلة حسكة - الحديث : ابن أبي الدنيا فيه

من رواية شهر بن حوشب مرسلا

( ٢ ) حديث دخل على مريض فقال أني أعلم ما يلقى مآئنه عرق الاويام للموت على حديثه : ابن أبي الدنيا فيه

من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه في المرض وانكفارات من رواية عبيد بن عمير مرسلا

مع اختلاف ورجاله ثقات

( ٣ ) حديث موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر : احمد من حديث عائشة باسناد صحيح قال

وأخذة أسف ولابي داود من حديث خالد السلمي موت الفجأة أخذة أسف

( ٤ ) حديث مكحول لو ان شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا - الحديث :

ابن أبي الدنيا في الموت من رواية أبي ميسرة رفعه وفيه لو أن ألم شعرة وزاد وان في يوم القيامة

لتعين هول أدناها هولاً يضاعف على الموت سبعين ألف ضعف وابوه يسرة هو عمرو

ابن شرجيل والحديث مرسل حسن الاسناد

لأن في كل شعرة الموت ، ولا يقع الموت بشيء إلا مات  
ويروى <sup>(١)</sup> لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت  
وروي أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له : كيف وجدت الموت يا خليلي ؟  
قال كسفؤود جعل في صوف رطب ثم جذب . فقال : أما إنا قد هونا عليك  
وروي عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه : يا موسى  
كيف وجدت الموت ؟ قال وجدت نفسي كالصفيحة حين يقلب على القلي ، لا يموت فيستريح  
ولا ينجو فيطير . وروي عنه أنه قال : وجدت نفسي كشاة حية تسليخ بيد القصاب  
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت ، فجعل  
يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول « اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيَّ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ »  
<sup>(٣)</sup> وفاطمة رضي الله عنها تقول : واكره لكرهك يا أبتاه ! وهو يقول « لَا كَرْبَ عَلَيَّ  
أَيُّكَ بَعْدَ الْيَوْمِ » . وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحمري : يا كعب ، حدثنا  
عن الموت . فقال نعم يا أمير المؤمنين : إن الموت كعمس كثير الشوك أدخل في جوف  
رجل ، وأخذت كل شوكة بعرق ، ثم جذبه رجل شديد الجذب ، فأخذ ما أخذ ، وأبقى ما بقي  
وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُعَاجِزُ كَرْبَ الْمَوْتِ وَسَكَرَاتِ  
الْمَوْتِ وَإِنَّ مَفَاصِلَهُ لَيُسَلِّمُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ تَقُولُ عَلَيْكَ السَّلَامُ تُفَارِقُنِي وَأُفَارِقُكَ  
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » : فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه ، فما حالنا ونحن  
المنهمكون في المعاصي ! وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي ! فإن دواهي الموت ثلاث  
الأولى : شدة النزاع كما ذكرناه

( ١ ) حديث لو أن قطرة من الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت لم أجد له أصلاً : ولعل المصنف لم يورده

حديثاً فإنه قال ويروى

( ٢ ) حديث أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم  
هون علي سكرات الموت : متفق عليه من حديث عائشة

( ٣ ) حديث أن فاطمة قالت واكره لكرهك يا أبتاه : الحديث : البخاري من حديث أنس بلفظ واكره  
أبتاه وفي رواية لابن خزيمة واكره

( ٤ ) حديث أن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض : الحديث :

الدامية الثانية : مشاهدة صورة ملك الموت ، ودخول الروح والخوف منه على القلب  
فلو رأى صورته ! التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته .  
فقدروى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت : هل تستطيع أن ترينى صورتك  
التي تقبض عليها روح الفاجر . قال لا تطيق ذلك . قال بلى . قال فأعرض عني . فأعرض  
عنه ثم التفت ، فإذا هو برجل أسود ، قائم الشعر ، منثن الريح ، أسود الثياب ، يخرج  
من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان . فغشي على إبراهيم عليه السلام ، ثم أفاق وقد عاد  
ملك الموت إلى صورته الأولى . فقال ياملك الموت ، لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة  
وجهك لكان حسبه . وروى <sup>(١)</sup> أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم د أن دَاوُدَ  
عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ رَجُلًا غَيُورًا وَكَانَ إِذَا خَرَجَ أَغْلَقَ الْأَبْوَابَ فَأَغْلَقَ ذَاتَ يَوْمٍ وَخَرَجَ  
فَاشْرَفَتْ امْرَأَتُهُ فَإِذَا هِيَ بِرَجُلٍ فِي الدَّارِ فَقَالَتْ مَنْ أَدْخَلَ هَذَا الرَّجُلَ لَيْنُ جَاءَ دَاوُدُ  
لِيَلْقَيْنَ مِنْهُ عَنَاءَ دَاوُدَ فَرَأَاهُ فَقَالَ مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ أَنَا الَّذِي لَا أَهَابُ الْمُلُوكَ  
وَلَا يَمْنَعُ مِنِّي الْحِجَابُ فَقَالَ فَأَنْتَ وَاللَّهِ إِذَا مَلَكَ الْمَوْتُ وَزَمَلَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكَانَهُ ،  
وَرَوَى أَن عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّ بِمَجْمَعَةٍ فَضَرَبَهَا بِرَجْلِهِ ، فَقَالَ : تَكَلَّمِي بِإِذْنِ اللَّهِ .  
فَقَالَتْ يَا رُوحَ اللَّهِ ، أَنَا مَلِكُ زَمَانٍ كَذَا وَكَذَا ، بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَلَكِي عَلِيَّ تَاجِي ، وَحَوْلِي  
جُنُودِي وَحَشَمِي ، عَلَى سِرِّرٍ مَلَكِي ، إِذْ بَدَأَ لِي مَلِكُ الْمَوْتُ ، فَزَالَ مِنِّي كُلُّ عَضْوٍ عَلَى حِيَالِهِ  
ثُمَّ خَرَجْتُ نَفْسِي إِلَيْهِ ، فَيَالَيْتَ مَا كَانَ مِنْ تِلْكَ الْجُمُوعِ كَانَ فِرْقَةً ، وَيَالَيْتَ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ  
الْأَنْسِ كَانَ وَحْشَةً . فَبِهِدَاهِيَةٍ يَلْقَاهَا الْمَصَاةُ ، وَيَكْفَاهَا الْمَطِيعُونَ . فَقَدْ حَكَى  
الْأَنْبِيَاءُ بِمَجْدِ سَكْرَةِ النُّزْعِ ، دُونَ الرُّوعَةِ الَّتِي يَدْرِكُهَا مِنْ بِشَاهِدِ صُورَةِ مَلِكِ الْمَوْتُ  
كَذَلِكَ . وَلَوْ رَأَاهُ فِي مَنَامِهِ لَيْلَةً لَتَنَفَّسَ عَلَيْهِ بَقِيَّةُ عَمْرِهِ ، فَكَيْفَ بِرُؤْيَاهُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ  
وَأَمَّا الْمَطِيعُ فَإِنَّهُ يَرَاهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَأَجْمَلِهَا . فَقَدْ رَوَى عِكْرَمَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ،  
أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ رَجُلًا غَيُورًا ، وَكَانَ لَهُ بَيْتٌ يَتَعَبَّدُ فِيهِ إِذَا خَرَجَ

رويناه في الأربعين لأبي هديبة إبراهيم بن هديبة عن أنس وأبو هديبة هالك  
( ١ ) حديث أبي هريرة : أن داود كان رجلا غيورا - الحديث : أحمد بإسناد جيد نحوه . وابن أبي الدنيا  
في كتاب الموت بلفظه

أغلقه . فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف الببت ، فقال من أدخلك داري ؟ فقال  
أدخلنيها ربها . فقال أنا ربها . فقال أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك . فقال من أنت  
من الملائكة ؟ قال أنا ملك الموت . قال هل تستطيع أن تري الصورة التي تقبض فيها روح  
المؤمن ؟ قال نعم فأعرض عني ، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب ، فذكر من حسن وجهه وحسن  
ثيابه وطيب ريحه ، فقال يا ملك الموت ، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه  
ومنها مشاهدة الملكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يترأى  
له ملكاه الكاتبان عمله . فإن كان مطيعاً قال له . جزاك الله عنا خيراً ، فرب مجلس صدق  
أجلستنا ، وعمل صالح أحضرتنا . وإن كان فاجراً قال له لا جزاك الله عنا خيراً فرب مجلس  
سوء أجلستنا ، وعمل غير صالح أحضرتنا ، وكلام قبيح أسمعنا ، فلا جزاك الله عنا خيراً .  
فذلك شخص بصر الميت إليهما ، ولا يرجع إلى الدنيا أبداً

الداهية الثالثة : مشاهدة العصاة مواضعهم من النار ، وخوفهم قبل المشاهدة . فإنهم في  
حال السكرات قد تخاذلت قواهم ، واستسلمت للخروج أرواحهم ، ولن تخرج أرواحهم  
ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد البشريين ، إما بشرياً عدو الله بالنار ، أو بشرياً ولي الله  
بالجنة . ومن هذا كان خوف أرباب الأبواب . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup>  
« لَنْ يُخْرَجَ أَحَدُكُمْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ مَصِيرُهُ وَحَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ  
أَوْ النَّارِ » . وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ  
كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ » فقالوا . كلنا نكره الموت . قال « لَيْسَ ذَلِكَ بِذَلِكَ إِنْ  
الْمُؤْمِنِينَ إِذَا فُرِجَ لَهُ عَمَّا هُوَ قَادِمٌ عَلَيْهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ »  
وروي أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود وهو لما به من آخر الليل . قم فانظر

( ١ ) حديث لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار : ابن أبي الدنيا  
في الموت من رواية رجل لم يسم عن علي موقوفا لا يخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم  
أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار وفي رواية حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل  
الجنة هي أم من أهل النار وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يشهد لذلك أن المؤمن  
إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته - الحديث :  
( ٢ ) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه - الحديث : متفق عليه  
من حديث عبادة بن الصامت

أي ساعة هي . فقام ابن مسعود ، ثم جاءه فقال قد طلعت الحمراء . فقال حذيفة . أعوذ بالله من صباح إلى النار . ودخل مروان على أبي هريرة . فقال مروان . اللهم خفف عنه فقال أبو هريرة . اللهم اشدد ، ثم بكى أبو هريرة وقال : والله ما أبكى حزنا على الدنيا ، ولا جزعا من فراقكم ، ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي بجنة أم بنار

وروي في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> أنه قال « إِنَّ اللَّهَ إِذَا رَضِيَ عَنْ عَبْدٍ قَالَ يَأْمَلُكَ الْمَوْتُ أَذْهَبَ إِلَى فُلَانٍ فَأُتِنِي بِرُوحِهِ لِأَرْيَحَهُ حَسْبِي مِنْ عَمَلِهِ قَدْ بَلَوْتُهُ فَوَجَدْتُهُ حَبِثٌ أَحَبُّ فَيَنْزِلُ مَلَكُ الْمَوْتِ وَمَعَهُ خَمْسِمِائَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَعَهُمْ قُضْبَانُ الرَّيْحَانِ وَأَصُولُ الزَّعْفَرَانِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُبَشِّرُهُ بِبَشَارَةٍ سِوَى بَشَارَةِ صَاحِبِهِ وَتَقُومُ الْمَلَائِكَةُ صَفَيْنِ خِرُوجِ رُوحِهِ مَعَهُمُ الرَّيْحَانُ فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ ثُمَّ صَرَخَ ، قَالَ « فَيَقُولُ لَهُ جُنُودُهُ مَا لَكَ يَا سَيِّدَنَا فَيَقُولُ أَمَا تَرَوْنَ مَا أُعْطِيَ هَذَا الْعَبْدُ مِنَ الْكِرَامَةِ أَيْنَ كُنْتُمْ مِنْ هَذَا قَالُوا قَدْ جَهَدْنَا بِهِ فَكَانَ مَعْصُومًا » وقال الحسن : لراحة المؤمن إلا في لقاء الله ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى

فيوم الموت يوم سروره ، وفرحه ، وأمنه ، وعزه ، وشرفه

وقيل لجابر بن زيد عند الموت . ما تشتهي ؟ قال نظرة إلى الحسن . فلما دخل عليه الحسن قيل له . هذا الحسن فرفع طرفه إليه ثم قال . يا إخواناه ، الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة . . وقال محمد بن واسع عند الموت : يا إخواناه ، عليكم السلام إلى النار أو يعفو الله . وتغنى بعضهم أن يبقى في النزع أبدا ولا يبعث اثواب ولا عقاب فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين ، وهو من الدواهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة ، وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء ، وهو لا يتق بهذا الموضع ، ولكننا لا نطول بذكره وإعادته

( ١ ) حديث أن الله إذا رضى على عبده قال يأمرك الموت اذهب إلى فلان فأني بروحه لأريحه . الحديث :

ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الداري بإسناد ضيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على أنه مرفوع وللنساء من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح إذا حضر الميت أنه ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون اخرجي راضية مرضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان . الحديث :

## بيان

ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون : ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى  
أما الصورة فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال <sup>(١)</sup> « اِرْقُبُوا أَلْمِيتَ عِنْدَ ثَلَاثٍ إِذَا رَشَحَ جَبِينُهُ وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ وَيَبَسَتْ شَفَتَاهُ فَهِيَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ قَدْ نَزَلَتْ بِهِ وَإِذَا غَطَّ غَطِيطٌ الْمَخْنُوقَ وَاحْمَرَّ لَوْنُهُ وَأَرْبَدَتْ شَفَتَاهُ فَهُوَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ قَدْ نَزَلَ بِهِ ، وَأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهي علامة الخير . قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « لَقِنُوا مَوْتَكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » وفي رواية <sup>(٣)</sup> حذيفة « فَإِنَّهَا تَهْدِمُ مَا قَبْلَهَا مِنَ الْخَطَايَا » . وقال عثمان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » وقال عبيد الله « وَهُوَ بِشَهِدٍ » وقال عثمان : إذا احتضر الميت فلقنوه لا إله إلا الله فإنه ما من عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة

وقال عمر رضي الله عنه . احضروا موتاكم وذكروهم ، فإنهم يرون ما لا ترون ، ولقنوه لا إله إلا الله . وقال <sup>(٥)</sup> أبو هريرة . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « حَضَرَ مَلَكُ الْمَوْتِ رَجُلًا يَمُوتُ فَنَظَرَ فِي قَلْبِهِ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئًا فَقَالَ لِحَبِيبِهِ فَوَجَدَ طَرَفَ لِسَانِهِ لَا صِقًا بِحَنَكِهِ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَغَفِرَ لَهُ بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ »

(١) حديث ارقبوا الميت عند ثلاث اذا رشح جبينه وذرفت عيناه - الحديث : الترمذي الحكيم في نوادر

الاصول من حديث سلمان ولا يصح

(٢) حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله : تقدم

(٣) حديث حذيفة فانها تهدم ما قبلها : تقدم

(٤) حديث من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة : تقدم

(٥) حديث أبي هريرة حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئا - الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين والطبراني والبيهقي في الشعب واسناده جيد الآن في رواية

البيهقي رجلا لم يسم وسمى في رواية الطبراني اسحق بن يحيى بن ملحجة وهو ضعيف

وينبئى للملقن أن لا يلج في التلقين ، ولكن يتلطف ، فربما لا ينطق لسان المريض ، فيشق عليه ذلك ، ويؤدى إلى استنقاله التلقين ، وكراهيته للكلمة ، ويمحش أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة . وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله ، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق ، كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه . وإن كان القلب مشعوقا بالدنيا ، ملتفتا إليها ، متأسفا على لذاتها ، وكانت الكلمة على رأس اللسان ، ولم ينطبق القلب على تحقيقها ، وقع الأمر في خطر المشيئة فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول

وأما حسن الظن فهو مستحب في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء ، وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله <sup>(١)</sup> دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرني كيف ظنك بالله ؟ قال أغرتني ذنوب لي ، وأشرفت على هلكة ، ولكنى أرجو رحمة ربي فكبر واثلة ، وكثر أهل البيت بتكبيره ، وقال الله أكبر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيُظَنِّ بِي مَا شَاءَ » <sup>(٢)</sup> ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت ، فقال « كَيْفَ تَجِدُكَ » قال أرجو الله وأخاف ذنوبى فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مَا جِئْتَهُ فِي قَلْبِ عَبْدِي فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ الَّذِي يَرْجُو وَآمَنَهُ مِنَ الَّذِي يَخَافُ »

وقال ثابت البناني : كان شاب به حدة ، وكان له أم تعظه كثيرا وتقول له . يا بني ، إن لك يوما فاذا كر يومك . فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه ، وجملت تقول له يا بني ، قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوما . فقال يا أمه ، إن لي ربا كثير للعروف ، وإنى لأرجو أن لا يمدنى اليوم بعض معروفه . قال ثابت . فرحمه الله بحسن ظنه بربه . وقال جابر بن وداعة : كان شاب به رفق فاحتضر ، فقالت له أمه يا بني توصى بشيء ؟ قال نعم خاتمي لانسلينيه ، فإن فيه ذكر الله تعالى ، فلعل الله يرحمنى . فلما دفن روى في المنام فقال . أخبروا أمى أن الكلمة قد نفعتى ، وأن الله قد غفر لي

(١) حديث دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله وفيه يقول الله أنا عند ظن

عبدى بى فليظن بى ما شاء ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقى فى الشعب به جميعا

(٢) حديث دخل على شاب وهو يموت فقال كيف تجدك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبى - الحديث : تقدم



ومرض أعرابي ، فقيل له إنك نموت . فقال أين يذهب بي ؟ قالوا إلى الله قال فما كراحتي أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه  
وقال أبو المعتمر بن سليمان : قال أبي لما حضرته الوفاة : يا معتمر ، حدثني بالرخص لعلني ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به . وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه

## بيان

الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها

قال أشعث بن أسلم : سأل ابراهيم عليه السلام ملك الموت ، واسمه عزرائيل ، وله عينان ، عين في وجهه ، وعين في قفاه ، فقال يا ملك الموت ، ما تصنع إذا كان نفس بالشرق ونفس بالمغرب ، ووقع الوباء بأرض ، والتقى الزحفان ، كيف تصنع ؟ قال أدعو الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعي هاتين . وقال قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه ، يتناول منها ما يشاء . قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل

وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام : مالي لأراك تعدل بين الناس ، تأخذ هذا وتدع هذا ؟ قال ما أنا بذلك بأعلم منك إنما هي صحف أو كتب تلقى إلي فيها أسماء . وقال وهب بن منبه : كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض ، فدعا بثياب ليلبسها ، فلم تعجبه ، فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرات . وكذلك طلب دابة فأتى بها فلم تعجبه ، حتى أتى بدواب ، فركب أحسنها . فجاء إبليس فنفخ في منخره نفخة ، ففلاه كبراهم سار وسارت معه الخيول ، وهو لا ينظر إلى الناس كبرا . فجاءه رجل رث الهيئة ، فسلم فلم يرذ عليه السلام . فأخذ بلجام دابته ، فقال أرسل اللجام فقد تماطيت أمرا عظيما . قال إن لي إليك حاجة . قال أصبر حتى أنزل . قال لا الآن . فقهره على اللجام دابته . فقال اذكرها . قال هو سر . فأدنى له رأسه ، فسارته وقال : أنا ملك الموت . فتغير لون الملك ، واضطرب لسانه ؛ ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي ، وأقضى حاجتي ، وأودعهم قال لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبدا . فقبض روحه ، فخر كأنه خشبة ، ثم مضى فلقى

عبدا مؤمنا في تلك الحال ، فسلم عليه فرد عليه السلام ، فقال إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك . فقال هات . فسارّه وقال : أنا ملك الموت . فقال أهلا ومرحبا بمن طالت غيبته عليّ ، فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إليّ أن ألقاه منك . فقال ملك الموت : اقض حاجتك التي خرجت لها . فقال مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى ، قال فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك ، فقال تقدر على ذلك ؟ قال نعم إنني أمرت بذلك ، قال فدعني حتى أتوضأ وأصلي ، ثم أقبض روحي وأنا ساجد . فقبض روحه وهو ساجد وقال أبو بكر بن عبد الله المزني : جمع رجل من بني إسرائيل مالا ، فلما أشرف على الموت قال لبنيه : أروني أصناف أموال . فأثني شيء كثير من الخيل ، والإبل ، والرقيق ، وغيره فلما نظر إليه بكى تحسرا عليه . فرآه ملك الموت وهو يبكي . فقال له ما يبكيك ؟ فوالذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك . قال فالمهلة حتى أفرسه . قال هيئات انقطعت عنك المهلة . فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك ! فقبض روحه

وروي أن رجلا جمع مالا فأوعى ، ولم يدع صنفا من المال إلا اتخذّه ، وابتنى قصرا ، وجعل عليه بايين وثيقين ، وجمع عليه حرما من غلمان ، ثم جمع أهله وصنع لهم طعاما ، وقعد على سرير ، ورفع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون . فلما فرغوا قال : يا نفس أنسى لسنين ، فقد جمعت لك ما يكفيك . فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب ، وفي عنقه بخلة يشبه بالمساكين . فقرع الباب بشدة عظيمة فرما أفزعه وهو على فراشه . فوثب إليه الغلمان وقالوا : ما شأنك ؟ فقال ادعوا إليّ مولايكم . فقالوا وإلى مثلك يخرج مولانا ؟ قال نعم : فأخبروه بذلك . فقال هلا فلتكم به وفلتم : فقرع الباب قرعة أشد من الأولى ، فوثب إليه الحرس . فقال أخبروه أنني ملك الموت . فلما سمعوه ألق عليهم الزعب ، ووقع على مولاهم الذل والتخشع . فقال قولوا له قولنا لنا ، وقولوا هل تأخذ به أحدا ؟ فدخل عليه وقال : اصنع في مالك ما أنت صانع ، فأثني لست بخارج منها حتى أخرج روحك . فأمر بماله حتى وضع بين يديه ، فقال حين رآه لعنك الله من مال أنت شغلتنى عن عبادة ربي . ومنعتني أن أنجلي لربي . فأنطق الله المال فقال : لم تسبني وقد كنت تدخل على السلاطين بي : ويرد المتقي عن باهم ؟

وكنتم تنكح المتنعمات في ، وتجلس مجالس الملوك في ، ونفقني في سبيل الشرف لا أمتنع منك ، ولو أنفقني في سبيل الخير نفعتك خلقت وابن آدم من تراب ، فنطاق بر ، ومنطاق بإثم . ثم قبض ملك الموت روحه فسقط

وقال وهب بن منبه : قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ، ما في الأرض مثله ، ثم عرج إلى السماء ، فقالت الملائكة لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه ؟ قال أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض ، فأتيها وقد ولدت مولودا ، فرحمها لغربتها ، ورحمت ولدها لصغره وكونه في الفلاة لا تمتهد له بها فقالت الملائكة : الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذي رحمته . فقال ملك الموت : سبحان اللطيف لمن يشاء

قال عطاء بن يسار : إذا كان ليلة النصف من شعبان ، دفع إلى ملك الموت صحيفة ، فيقال اقْبُضْ في هذه السنة مَنْ في هذه الصحيفة . قال فإن العبد ليغرس الغراس ، وينكح الأزواج ، ويبني البنيان ، وإن اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري

وقال الحسن : ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات ، فمن وجده منهم قد استوفى رزقه ، وانقضى أجله ، قبض روحه . فإذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء ، فيأخذ ملك الموت بمضادتي الباب فيقول : والله ما أكلت له رزقا ، ولا أفنيت له عمرا ، ولا انتقصت له أجلا . وإن لي فيكم لعودة بعد عودة ، حتى لا أبقى منكم أحدا . قال الحسن : فوالله لو يرون مقامه ، ويسمعون كلامه ، لذهلوا عن ميتهم ، ولبكوا على أنفسهم

وقال يزيد الرقاشي : بينما جبار من الجبابرة من بني إسرائيل جالس في منزله . قد خلا بعض أهله ، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته ، فثار إليه فرعا مضضا ، فقال له من أنت ؟ ومن أدخلك على داري ؟ فقال أما الذي أدخلني الدار فربها . وأما أنا فوالذي لا يمنع مني الحجاب ، ولا أستاذن على الملوك ، ولا أخاف صولة المتسلطين ، ولا يمتنع مني كل جبار عنيد ، ولا شيطان مريد . قال فسقط في يده الجبار ، وارتعد حتى سقط منكبا على وجهه ، ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذللا له ، فقال له : أنت إذاً ملك الموت . قال أنا هو . قال فهل أنت بمملى حتى أحدث عهدا ؟ قال هيئات انقطعت مدتك ، وانقضت أنفاسك ، ونفدت حياتك

فليس إلى تأخيرك سبيل . قال فألى أين تذهب بي ؟ قال إلى عملك الذى قدمته : وإلى بيتك الذى مهدته قال فأنى لم أقدم عملا صالحا . ولم أمهد بيتا حسنا . قال فألى لفتى ، نزاعة للشوى . ثم قبض روحه ، فسقط ميتا بين أهله . فن بين صارخ وبالك

قال يزيد الرقاشى : لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر وعن الأعمش ، عن خيشمة قال : دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليهما السلام ، فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فلما خرج قال الرجل من هذا ؟ قال هذا ملك الموت . قال لقد رأيته ينظر إليّ كأنه يريدنى . قال فاذا تريد ؟ قال أريد أن تخلصنى منه فتأمر الريح حتى تحملنى إلى أقصى الهند . ففعلت الريح ذلك . ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانيا : رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائى ، قال نعم : كنت أتعجب منه ، لأنى كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند فى ساعة قريبة ، وكان عندك فعجبت من ذلك

## الباب الرابع

فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

## وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حيا وميتا ، وفلا وقولا . وجميع أحواله عبرة للتأخرين ، وتبصرة للمستبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيه ونبيه ، وكان صفيه ، ورسوله ، ونبيه . فانظر هل أمهله ساعة عندا نقضاء مدته ؟ وهل أخره لحظة بعد حضور منيته ؟ لابل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام ، فجذوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان ، وخيرات حسان . بل إلى مقعد صدق فى جوار الرحمن . فاشتد مع ذلك فى النزاع كربه وظهر أنينه ، وترادف قلقه وارتفع حنينه ، وتغير لونه وعرق جبينه ، واضطربت فى الاقتباس والانبساط شماله وعينه ، حتى بكى لمصرعه من حضره ، واتحجب لشدة جاله من شاهد منظره . فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا ؟ وهل راقب

الملك فيه أهلا وعشيرا ، وهل ساعه إذ كان للحق نصيرا ، وللخلق بشيرا ونذيرا ، هيهات ، بل امتثل ما كان به مأمورا ، واتبع ما وجدته في اللوح مسطورا . فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود ، والحوض المورود . وهو أول من تنشق عنه الأرض ، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض . فالمعجب أنا لانتم به ، ولسنا على ثقة فيما نلقاه . بل نحن أسراء الشهوات ، وقرناء المعاصي والسيئات ، فما بالنا لا نتمط بمصرع محمد سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وحبیب رب العالمين ؟ لعلنا نظن أننا مخلصون ، أو نتوهم أنما مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون ، هيهات هيهات ، بل نتيقن أننا جميعا على النار واردون ، ثم لا ينجو منها إلا المتقون . فنحن للورود مستيقنون ، وللصدور عنها استوهمون . لابل ظامنا أنفسنا إن كنا كذلك لغالب الظن منتظرين ، فما نحن والله من المتقين . وقد قال الله رب العالمين ( وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ تُنْجَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَاً <sup>(١)</sup> )

فلينظر كل عبد إلى نفسه أنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين . فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين ، فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخائفين . ثم انظر إلى سيد المرسلين ، فإنه كان من أمره على يقين ، إذ كان سيد النبيين ، وقائد المتقين . واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا ، وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى . قال <sup>(٢)</sup> ابن مسعود رضي الله عنه : دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق ، فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال « مَرَجَبًا بِكُمْ حَيَّاكُمْ اللَّهُ آوَاكُمْ اللَّهُ نَصَرَكُمْ اللَّهُ وَأَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَأَوْصَى بِكُمْ اللَّهُ

﴿ الباب الرابع في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ﴾

( ١ ) حديث ابن مسعود دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق الحديث : رواء البرار وقال هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدھا متقاربة قال وعبد الرحمن الأصماني لم يسمع هذا من مرة وإنما هو عن أخره عن مرة قال ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة \* قلت وقد روى من غير ماوجه رواء ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود ورويناه في مشيخة القاضي أبي بكر الانصاري من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضعفان والحسن العربي إنما يرويه عن مرة كما رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط

إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى اللَّهِ فِي بِلَادِهِ وَعِبَادِهِ وَقَدْ ذُنَا الْأَجَلُ وَأُمْنَقَلَبُ  
إِلَى اللَّهِ وَإِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَإِلَى جَنَّةِ الْمَأْوَى وَإِلَى السَّكَّاسِ الْأَوْفَى فَأَنْزَلُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ  
وَعَلَى مَنْ دَخَلَ فِي دِينِكُمْ بَعْدِي مِنَ السَّلَامِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ۝

وروي <sup>(١)</sup> أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته « مَنْ لَأَمْتِي بَعْدِي ؟ »  
فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذه في أمته وبشره بأنه أسرع الناس  
خروجاً من الأرض إذا بعثوا ، وسيدهم إذا جمعوا ، وأن الجنة مجرمة على الأمم حتى تدخلها  
أمته . فقال « الْآنَ قَرَأْتُ عَيْنِي » . وقالت <sup>(٢)</sup> عائشة رضي الله عنها أمرنا رسول الله  
صلى الله عليه وسلم أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار . ففعلنا ذلك ، فوجد راحة ، فخرج  
فصلى بالناس ، واستغفر لأهل أحد . ودعا لهم ، وأوصى بالأنصار فقال « أَمَّا بَعْدُ يَا مَعْشَرَ  
الْمُهَاجِرِينَ فَإِنَّكُمْ تَزِيدُونَ وَأَصْبَحَتِ الْأَنْصَارُ لَا تَزِيدُ عَلَى هَيْئَتِهَا الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا الْيَوْمَ  
وَإِنَّ الْأَنْصَارَ عَيْنِي » الَّتِي آوَيْتُ إِلَيْهَا فَأَكْرَمُوا كَرِيمَهُمْ » يعني محسنهم « وَتَجَاوَزُوا  
عَنْ مُسَيِّئِهِمْ » ثم قال « إِنَّ عَبْدًا خَيْرَ بَيْنِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ آعِنَدَ اللَّهِ فَاحْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ »  
فبكى أبو بكر رضي الله عنه ، وظن أنه يريد نفسه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم  
« عَلَى رِسْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ سُدُّوا هَذِهِ الْأَبْوَابَ الشَّوَارِعَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ  
فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَمْرًا أَفْضَلَ عِنْدِي فِي الصَّخْبَةِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ » قالت <sup>(٣)</sup> عائشة رضي الله عنها  
فقبض صلى الله عليه وسلم في بيتي ، وفي يوم ، وبين سمري ونحري وجمع الله بين ربي  
وريقه عند الموت ، فدخل على أخي عبد الرحمن ويده سواك ، فجعل ينظر إليه ، فعرفت  
أنه يعجبه ذلك ، فقلت له آخذه لك ؟ فأوماً برأسه أي نعم . فناولته إياه ، فأدخله في فيه ،

( ١ ) حديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته من لأمتي بعدى فأوحى الله تعالى إلى جبريل  
أن بشر حبيبي أني لا أخذه في أمته - الحديث : الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث  
طويل فيه من لأمتي للصطفاء من بعدى قال أبشر يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول قد حرمت  
الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال الآن طابت نفسي واسناده ضعيف  
( ٢ ) حديث عائشة أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس  
واستغفر لأهل أحد - الحديث : الدارمي في مسنده وفيه إبراهيم المختار يختلف فيه عن محمد  
ابن اسحق وهو مدلس وقد رواه بالنعنة

( ٣ ) حديث عائشة قبض في بيتي وفي يوم وبين سمري ونحري وجمع الله بين ربي وريقه عند الموت  
الحديث : متفق عليه

فاستد عليه . فقلت أليه لك ؟ فأوما برأسه أي نعم فلينته . وكان بين يديه ركوة ماء ، فجعل يدخل فيها يده ويقول « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ الْمَوْتَ لَسَكْرَاتٍ » ثم نصب يده يقول « الرَّفِيقَ الْأَعْلَى الرَّفِيقَ الْأَعْلَى » فقلت إذا والله لا يختارنا

وروى <sup>(١)</sup> سعيد بن عبد الله عن أبيه قال : لما رأت الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا ، أطافوا بالمسجد ، فدخل العباس رضي الله عنه ، على النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه بمكانهم وإشفاتهم . ثم دخل عليه الفضل ، فأعلمه بمثل ذلك . ثم دخل عليه علي رضي الله عنه ، فأعلمه بمثله . فديده وقالها فتناولوه . فقال « مَا تَقُولُونَ ؟ » قالوا نقول نخشى أن تموت . وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج متوكئا على علي والفضل ، والعباس أمامه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس بخط برجليه ، حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثاب الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّكُمْ تَخَافُونَ عَلَيَّ أَلَمْ تَكُنْ أَسْتَنْكَارَ مِنْكُمْ الْمَوْتَ وَمَا تُنْكِرُونَ مِنْ مَوْتِ نَبِيِّكُمْ أَلَمْ أَنْعِ إِلَيْكُمْ وَتُنْعَى إِلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ هَلْ خَلَّدَ نَبِيٌّ قَبْلِي فَيَمُنَ بَعْدَ مَا خَلَّدُ فَيَكُنْ أَلَا إِلَهَ إِلَّا رَبِّي وَإِنَّكُمْ لَا حِقُونَ بِهِ وَإِنِّي أَوْصِيكُمْ بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ خَيْرًا وَأَوْصِي الْمُهَاجِرِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ (وَالْعَصْرِ) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُسْرٌ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا (١) ) إلى آخرها » وَإِنَّ الْأُمُورَ تَجْرِي بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِبْطَاءُ أَمْرِ عَلَى اسْتِعْجَالِهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبَلُ لِمَجَلَّةٍ أَحَدٍ وَمَنْ غَالَبَهُ اللَّهُ غَلَبَهُ وَمَنْ خَادَعَ اللَّهَ خَدَعَهُ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ وَأَوْصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا فَإِنَّهُمْ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا أطافوا

بالمسجد فدخل العباس فأعلمه بمكانهم وإشفاتهم فذكر الحديث في خروجه متوكئا معصوب الرأس بخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر فذكر خطبته بطولها هو وحديث مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجده أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الأزور تابعي روى عن ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفي أبيه سعيد ليس بالقوى

مِنْ قَبْلِكُمْ أَنْ تُخْسِنُوا إِلَيْهِمْ أَلَمْ يُشَاطِرُواكُمْ الثَّارَ أَلَمْ يُوسِّعُوا عَلَيْكُمْ فِي الدِّيَارِ أَلَمْ  
يُؤَيِّرُواكُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبِهِمُ الْخِصَاصَةُ أَلَا قَدْ وَدَّيْ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَلْيَقْبَلَ مِنْ  
مُحْسِنِهِمْ وَلْيَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ أَلَا وَلَا تَسْتَأْذِرُوا عَلَيْهِمْ أَلَا وَإِنِّي فَرَضْتُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ  
لَا حَاقُونَ بِي أَلَا وَإِنْ مَوَّعِدْكُمْ الْحَوْضُ حَوْضِي أَعْرَضُ بِمَا بَيْنَ بَصْرَى الشَّامِ  
وَصَنْعَاءَ الْيَمَنِ يَصُبُّ فِيهِ مِيزَابُ الْكَوْثَرِ مَاءٌ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَاللَّيْنِ مِنَ الزَّبَدِ  
وَأَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا حَصْبَاؤُهُ الْوُلُؤُ وَبَطْحَاؤُهُ الْإِلْسُكُ مَنْ  
حُرِمَهُ فِي الْمَوْقِفِ غَدًا حُرِمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ أَلَا قَدْ أَحَبُّ أَنْ يَرِدَهُ عَلَيَّ غَدًا فَلْيَكْفِفْ  
لِسَانَهُ وَيَدَهُ إِلَّا مِمَّا يَنْبَغِي ، فقال العباس : يابني الله ، أوص بقريش . فقال « إِنَّمَا أَوصِي  
بِهَذَا الْأَمْرِ قُرَيْشًا وَالنَّاسُ تَتَّبِعُ لِقُرَيْشٍ بَرُّهُمْ لِبَرِّهِمْ وَفَاجِرُهُمْ لِفَاجِرِهِمْ فَاسْتَوْصُوا  
أَلْ قُرَيْشِ بِالنَّاسِ خَيْرًا يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الدُّنْيَا تُغَيَّرُ النَّعَمَ وَتُبَدَّلُ الْقَسَمُ فَإِذَا بَرَّ النَّاسُ  
بَرَّهُمْ أُنْعِمْتُمْ وَإِذَا جَفَرَّ النَّاسُ عَقُوبُهُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ( وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا  
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ )<sup>(١)</sup>

وروى<sup>(١)</sup> ابن مسعود رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضي  
الله عنه « سَلْ يَا أَبَا بَكْرٍ » فقال يا رسول الله دنا الأجل ؟ فقال « قَدْ دَنَا الْأَجَلُ وَتَدَلَّى »  
فقال ليهنك يابني الله ما عند الله ، فليت شعري عن منقلبتنا فقال « إِلَى اللَّهِ وَإِلَى سِدْرَةِ  
الْمُنْتَهَى ثُمَّ إِلَى جَنَّةِ الْمَأْوَى وَالْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى وَالْكَأْسِ الْأَوْفَى وَالرِّفْقِ الْأَعْلَى  
وَالْحُظِّ وَالنِّيشِ الْمُهَنَّأ » فقال يابني الله ، من بلى غسلك ؟ قال « رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي  
الْأَدْنَى نَالًا دَنَى » قال فقيم نكفئك ؟ فقال « فِي ثِيَابِي هَذِهِ وَفِي حُلَّتِي يَمَانِيَّةٌ وَفِي بِيَاضِ  
مُصَرِّي » فقال كيف الصلاة عليك منا ؟ وبكينا وبكى . ثم قال « مَهْلًا غَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ »

( ١ ) حديث ابن مسعود إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر سل يا أبا بكر فقال يا رسول الله دنا  
الأجل فقال قد دنا الأجل - الحديث : في سؤالهم له من بلى غسلك وقيم نكفئك وكيفية الصلاة  
عليه رواه ابن سعد في الطبقات عن محمد بن عمر وهو الواقدي بأسناد ضعيف إلى ابن عوف  
عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم



وَجَزَاكُمْ عَنْ نَبِيِّكُمْ خَيْرًا إِذَا غَسَلْتُمُونِي وَكَفَّشْتُمُونِي فَضَعُونِي عَلَى سَرِيرِي فِي بَيْتِي  
هَذَا عَلَى شَفِيرِ قَبْرِي ثُمَّ اخْرُجُوا عَنِّي سَاعَةً فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُصَلِّي عَلَيَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (هُوَ  
الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ<sup>(١)</sup>) ثُمَّ يَأْذَنُ لِلْمَلَائِكَةِ فِي الصَّلَاةِ عَلَيَّ فَأَوَّلُ مَنْ  
يَدْخُلُ عَلَيَّ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَيُصَلِّي عَلَيَّ جِبْرِيلُ ثُمَّ ميكائيلُ ثُمَّ إسرَافيلُ ثُمَّ مَلَكُ  
الْمَوْتِ مَعَ جُنُودٍ كَثِيرَةٍ ثُمَّ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْمَعِهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَنْتُمْ  
فَادْخُلُوا عَلَيَّ أَفْوَاجًا فَصَلُّوا عَلَيَّ أَفْوَاجًا زُمَرَةً زُمَرَةً وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا وَلَا تُؤْذُونِي  
بِتَرْكِ كَيْتَةٍ وَلَا صِيْحَةٍ وَلَا رَنَّةٍ وَلْيَبْدَأْ مِنْكُمْ الْإِمَامُ وَأَهْلُ بَيْتِي الْأَدْنَى فَأَلَدْنِي ثُمَّ  
زُمَرُ النِّسَاءِ ثُمَّ زُمَرُ الصَّبْيَانِ « قَالَ فَمَنْ يَدْخُلُ الْقَبْرَ ؟ قَالَ « زُمَرٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي الْأَدْنَى  
فَأَلَدْنِي مَعَ مَلَائِكَةٍ كَثِيرَةٍ لَا تَرَوْنَهُمْ وَهُمْ يَرَوْنَكُمْ . قُومُوا فَأَذُوا عَنِّي إِلَى مَنْ  
بَعْدِي . » وقال<sup>(١)</sup> عبد الله بن زمرة . جاء بلال في أول شهر ربيع الأول ، فأذن بالصلاة ،  
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ، فخرجت فلم أربحضة  
الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر . فقلت قم يا عمر فصل بالناس ، فقام عمر ،  
فلما كبر وكان رجلا صيتا . سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير ، فقال « أَيْنَ  
أَبُو بَكْرٍ يَا بَنِي اللَّهِ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ » فالحا ثلاث مرات « مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ  
بِالنَّاسِ » فقالت عائشة رضي الله عنها ، يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب ، إذا قام في  
مقامك غلبه البكاء . فقال « إِنَّكُنَّ صَوَابِحَاتُ يُوسُفَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ »  
قال فضلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر . فكان عمر يقول لعبد الله بن زمرة بعد  
ذلك : ويحك ماذا صنعت بي ؟ والله لولا أني ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

( ١ ) حديث عبد الله بن زمرة جاء بلال في أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم

مرؤا أبا بكر فليصل بالناس فخرجت فلم أربحضة الباب الا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر  
الحديث : أبوداود باسناد جيد نحوه غنصرا دون قوله فقالت عائشة ان أبا بكر رجل رقيق  
الى آخره ولم يقل في أول ربيع الأول وقال مرؤا من صلى بالناس وقال يا بني الله ذلك والمؤمنون  
مرتبن وفي رواية له فقال لا لا لا ليصل للناس ابن أبي خافة يقول ذلك مغضبا وأما ما في آخره  
من قول عائشة في الصحيحين من حديثها فقالت عائشة يا رسول الله ان أبا بكر رجل رقيق  
اداقام مقامك لمسمع الناس من البكاء فقال انكن صواحبنا يوسف مرؤا أبا بكر فليصل بالناس

أمرك ما فعلت . فيقول عبد الله : إني لم أر أحداً أولى بذلك منك . قالت عائشة رضي الله عنها : وما فعلت ذلك ولا صرفته عن أبي بكر إلا رغبة به عن الدنيا ، ولما في الولاية من المخاطرة والهلكة إلا من سلم الله ، وخشيت أيضاً أن لا يكون الناس يحبون رجلاً صلى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حي أبداً إلا أن يشاء الله فيحسدونه ويبنون إليه ، ويتشاءمون به ، فإذا الأمر أمر الله ؟ والقضاء قضاءه ، وعصمه الله من كل ما نخوفت عليه من أمر الدنيا والدين

وقالت <sup>(٢)</sup> عائشة رضي الله عنها : فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأوا منه خفة في أول النهار ، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوالحهم مستبشرين ، وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء ، فدننا نحن على ذلك ، لم تكن على مثل حالنا

( ١ ) حديث عائشة لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوالحهم مستبشرين وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فبينما نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجني عن هذا الملك يستأذن علي - الحديث : بطوله في بحر ملك الموت ثم ذهابه ثم عبي جبريل ثم عبي ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم : الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن اهبط إلى حبيبي وصفيي محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وارفق به في قبض روحه وفيه دخول ملك الموت واستئذانه في قبضه فقال يا ملك الموت أين خلقت حبيبي جبريل قال خلفته في سماء الدنيا والملائكة بمزونه فيك فما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقمع عند رأسه وذكر بشارته جبريل له بتأعد الله له وفيه أدن يملك الموت فأنته إلى ما أمرت به - الحديث : وفيه فدنا ملك الموت بعالج قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كربه لذلك إلى أن قال فتبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث طويل في ورقين كبار وهو منكر وفيه عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد كان يكذب على وهب بن منبه وأبوه إدريس أيضاً متروك قاله الدارقطني ورواه الطبراني أيضاً من حديث الحسين بن علي أن جبريل جاءه أولاً فقال له عن ربه كيف تجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء اسماعيل وإن جبريل دخل أولاً فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله امض لما أمرت به وهو منكر أيضاً فيه عبد الله بن ميمون القدامح قال البخاري ذاهب - الحديث : ورواه أيضاً من حديث ابن عباس في بحر ملك الموت أولاً واستئذانه وقوله إن ربك يقرئك السلام فقال أين جبريل فقال هو قريب مني الآن يأتي بآتي فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل - الحديث : وفيه المختار لابن نافع منكر الحديث قاله البخاري وابن حبان

في الرجاء والفرح قبل ذلك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَخْبِرْنِي عَنْ هَذَا الْمَلِكُ يَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ » ، فخرج من في البيت غيبي ، ورأسه في حجرى ، فجلس وتنحيت في جانب البيت ، فاجى الملك طويلا ، ثم إنه دعاني ، فأعاد رأسه في حجرى ، وقال للنسوة « ادْخُلْنَ » فقالت ما هذا بحس جبريل عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَجَلٌ يَا عَائِشَةُ هَذَا مَلَكُ الْمَوْتِ جَاءَنِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَنِي وَأَمَرَ نِي أَنْ لَا أَدْخُلَ عَلَيْكَ إِلَّا بِإِذْنٍ فَإِنْ لَمْ تَأْذَنْ لِي أَرْجِعْ وَإِنْ أَذِنْتَ لِي دَخَلْتُ وَأَمَرَ نِي أَنْ لَا أَقْبِضَكَ حَتَّى تَأْمُرَنِي فَمَازَا أَمْرُكَ فَقُلْتُ أَكْفَفَ عَنِّي حَتَّى يَأْتِيَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهَذِهِ سَاعَةُ جِبْرِيلَ » فقالت عائشة رضي الله عنها . فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأي ، فوجدنا وكأنما ضربنا بصاخرة ما نحير إليه شيئا ، وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملائكة أجوافنا . قالت وجاء جبريل في ساعته . فسلم فمرفت حسه ، وخرج أهل البيت ، فدخل فقال : إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول كيف تجددك ؟ وهو أعلم بالذى تجدد منك ، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا ؛ وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق ، وأن تكون سنة في أمتك . فقال « أَجِدُنِي وَجِيعًا » فقال : أبشر ، فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك . فقال « يَا جِبْرِيلُ إِنَّ مَلَكُ الْمَوْتِ يَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ » وأخبره الخبر فقال جبريل . يا محمد ، إن ربك إليك مشتاق ، ألم يعلمك الذى يريد بك ؟ لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ، ولا يستأذن عليه أبدا ، إلا أن ربك متم شرفك ، وهو إليك مشتاق . قال « فَلَا تَبْرَحْ إِذَا حَتَّى يَجِيءَ » وأذن للنساء فقال « يَا فَاطِمَةُ أَذْنِي » فأكبت عليه ، ففاجأها ، فرفعت رأسها وعيناها تدمع ، وما تطيق الكلام ثم قال « أَذْنِي مِنِّي رَأْسُكَ » فأكبت عليه ، ففاجأها فرفعت رأسها وهي تضحك ، وما تطيق الكلام . فكان الذى رأينا منها عجبا . فسألناها بعد ذلك فقالت : أخبرنى وقال « إِنِّي مَيِّتٌ الْيَوْمَ » فبكيت : ثم قال « إِنِّي دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُلْحِقَكَ بِي فِي أَوَّلِ أَهْلِ وَأَنْ يَجْمَعَكَ مَعِيَ » فضحكيت . وأدبني ابنهما منه ، فشهما : قالت وجاء ملك الموت ، فسلم واستأذن ، فأذن له

فقال الملك : ما تأمرنا يا محمد ؟ قال « أَلْحَقْنِي بِرَبِّي الْآنَ » فقال بلى من يومك هذا ، أما إن ربك إليك مشتاق ، ولم يتردد عن أحد ترده عنك ، ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك . ولكن ساعتك أمامك . وخرج . قالت وجاء جبريل فقال : السلام عليك يا رسول الله ، هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدا ، طوي الوحي ، وطويت الدنيا ، وما كان لي في الأرض حاجة غيرك ، ومالي فيها حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفي . لا والذي بعث محمدا بالحق ، مافي البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ، ولا يبعث إلى أحد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ، ووجدنا وإشفاقنا . قالت فقامت إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى أضع رأسه بين ثديي ، وأمسكت ب صدره ، وجعل يغمى عليه حتى يغلب ، وجهته ترشح . رشحا ما رأيته من إنسان قط ، فجعلت أسلت ذلك العرق ، وما وجدت رائحة شيء . أطيّب منه ، فكنت أقول له إذا أفاق : بأبي أنت وأمي ، ونفسي وأهلي ما تلقى جبهتك من الرشح فقال « يَا عَائِشَةُ إِنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ تَخْرُجُ بِالرَّشْحِ وَنَفْسَ الْكَافِرِ تَخْرُجُ مِنْ شِدْقَيْهِ كَنَفْسِ الْحَمَارِ » فعند ذلك ارتعنا ، وبمثنأ إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخى ، بعثه إليّ أبى ، فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يحيى أحد . وإنما صدم الله منه لأنه ولاه جبريل وميكائيل ، وجعل إذا أغشي عليه قال « بَلِ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى » كأن الخيرة تماد عليه . فإذا أطاق الكلام قال « الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ إِنَّكُمْ لَا تَزَالُونَ مُتَمَسِّكِينَ مَا صَلَّيْتُمْ جَمِيعًا الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ » كان يوصي بها حتى مات وهو يقول « الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ »

قالت (١) عائشة رضي الله عنها : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الإثنين . قالت فاطمة رضي الله عنها : مالقيت من يوم الإثنين ؟ والله لا تزال الأمة تصاب فيه بمظيمة . وقالت أم كلثوم : يوم أصيب علي كرم الله وجهه بالكوفة مثلها : مالقيت من يوم الإثنين ؟ مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه قتل علي ، وفيه قتل أبى ، فما لقيت من يوم الإثنين ؟

(١) حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الإثنين رواه ابن عبد البر

وقالت عائشة <sup>(١)</sup> رضي الله عنها : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة ، وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبه ، فاختلقوا فكذب بعضهم بموته ، وأخرس بعضهم فأتكلموا إلا بعد البعد ، وخلط آخرون فلا تلو ، الكلام بغير بيان ، وبقي آخرون معهم عقولهم ، وأقعد آخرون . فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته ؛ وعلي فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس . فخرج عمر على الناس وقال ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يموت ، وليرجعنه الله عز وجل ، وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتعنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت . إنما واعد الله عز وجل كما واعد موسى ، وهو آتاكم . وفي رواية أنه قال : يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يموت . والله لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسيفي هذا . وأما علي فإنه أقعد فلم يرح في البيت وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدا ، يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به . ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس ، فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والساداد وإن كان الناس لم يرعوا إلا بقول أبي بكر ، حتى جاء العباس فقال : والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ، ولقد قال وهو بين أظهركم ( : إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ <sup>(٢)</sup> )

<sup>(٢)</sup> وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج ، فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنظر إليه ، ثم أكب عليه فقبله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ،

( ١ ) حديث عائشة لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله

صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبه فاختلقوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فأتكلموا إلا بعد البعد وخلط آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون وكان عمر بن الخطاب ممن كذب بموته وعلي فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يموت - الحديث : إلى قوله عند ربكم تختصمون لم أجده أصلا وهو منكر

( ٢ ) حديث بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال بأبي أنت وأمي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين الحديث : إلى آخر قوله وكان الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ : البخاري ومسلم من حديث عائشة أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالنسج حتى نزل ودخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منقبى بثوب جبة فكشف عن وجهه

ما كان الله ليذيقك الموت مرتين ، فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم خرج إلى الناس فقال : أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد رب محمداً فإنه حي لا يموت . قال الله تعالى ( وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ )<sup>(١)</sup> الآية . فكان الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ . وفي رواية<sup>(٢)</sup> أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر ، دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعيناه تهملان . وغصصه ترتفع كقصع الجرة ، وهو في ذلك جسد الفعل والمقال ، فأكب عليه ، فكشف عن وجهه ، وقبّل جبينه وخديه ، ومسح وجهه ، وجعل يبكي ويقول : بأبي أنت وأمي ، ونفسي ، وأهلي ، طبت حيا وميتا ، انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة ، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البكاء . وخصصت حتى صرت مسلاة ، وعممت حتى صرنا فيك سواء . ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لحزنك بالنفوس . ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك ماء العيون : فأما مالا نستطيع نفيه عنا فكمد وادّكار مخالقات لا يبرحان . اللهم فأبلغه عنا ، اذكرنا يا محمد صلى الله عليه وسلم عند ربك ، ولكن من بالك ، فلو لا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة . اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا وعن ابن عمر ، أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى ، عجب أهل البيت عجيبا سمعه أهل المصلى كلما ذكر شيئا ازدادوا ، فمأسكهم عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال : السلام عليكم يا أهل البيت ( كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ )<sup>(٣)</sup> الآية<sup>(٤)</sup> إن في الله خلفا من كل أحد

ثم أكب عليه فقله وبكى ثم قال بأبي وأمي أنت والله لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التي كتبت عليك فقدمتها ولهما من حديث ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس - الحديث : وفيه والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية تلاها أبو بكر لفظ البخاري فيهما

( ١ ) حديث أن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه - الحديث : إلى قوله واحفظه فينا ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث ابن عمر باسناد ضعيف جاء أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فكشف الثوب عن وجهه - الحديث : إلى آخره

( ٢ ) حديث ابن عمر في سماع التعزية به صلى الله عليه وسلم أن في الله خلفا من كل أحد ودور الكل رغبة ونجاة

( ٣ ) آل عمران : ١٤٤ ( ٤ ) المنكوت : ٥٧

ودركا لكل رغبة ، ونجاة من كل غفلة ، فآله فارجوا ، وبه فتقوا . فاستمعوا له وأنكروا ، وقطعوا البكاء . فلما انقطع البكاء فقد صوته ، فأطاع أحدهم فلم ير أحدا . ثم نادوا فبكوا ، فناداهم مناد آخر لا يعرفون صوته ، يأهل البيت اذكروا الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين ، إن في الله عزاء من كل مصيبة ، وعوضا من كل رغبة ، فآله فأطيعوا ، وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر : هذا الخضر والبسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم واستوفى القمعاق بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضي الله عنه فقال : قام أبو بكر في الناس خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم ، بخطبة جلها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فله الحمد وحده . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وخاتم أنبيائه ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين . اللهم فصل على محمد عبدك ، ورسولك ، ونبيك ، وحبيبك ، وأمينك ، وخيرتك ، وصفوتك ، بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك

من كل غفلة فآله فارجوا وبه فتقوا ثم سمعوا آخر بعده أن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فآله فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر والبسع : لم أجد فيه ذكر البسع وأما ذكر الخضر في التعزية فأذكر النووي وحده في كتب الحديث وقال انما ذكره الاحباب قلت بلى قد رواه الحائكم في المستدرک في حديث أنس ولم يصححه ولا يصح ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضا قال لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله ليكون فدخل عليهم رجل طويل شعر المتكئين في أزار ورداء يتحطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذ بمنادى باب البيب فبكي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على أصحابه فقال إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك فآلى الله تعالى فانيوا ونظروا اليكم في البلاء فانظروا فان الساب من لم يحبره الدواب ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر على الرجل فنظروا بينا وشمالا فلم يروا أحدا فقال أبو بكر لعل هذا الخضر أخونا بينا عليه السلام جاء يعزينا ورواه الطبراني في الاوسط واسناده ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا أيضا من حديث علي بن أبي طالب لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء آت فسمع حبه ولا يرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن في الله عوضا من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فبآله فتقوا وآياه فارحوا فان المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم فقال علي تدرون من هذا هو الخضر وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه وفيه انقطاع بين علي بن الحسين وبين جده علي والمروفي عن علي بن الحسين مرسل من غير ذكر على تكاروا الشافعي في الام وليس فيه ذكر الخضر

اللهم واجعل صلواتك ، ومعافاتك ، ورحمتك ، وبركاتك ، على سيد المرسلين ،  
وخاتم النبيين ، وإمام المتقين ، محمد قائد الخير ، وإمام الخير ، ورسول الرحمة . اللهم قرب  
زلفته ، وعظم برهانه ، وكرم مقامه ، وابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون ،  
وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة ، واخلفه فينا في الدنيا والآخرة ، وبلغه الدرجة والوسيلة  
في الجنة . اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت  
وباركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد . أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً مات  
ومن كان يعبد الله فإن الله حي لم يموت . وإن الله قد تقدم إليكم أمره فلا تدعوه جزعاً ، فإن  
الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ماعنده على ما عندكم ، وقبضه إلى ثوابه ،  
وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق  
بينهما أنكر (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ (١) ولا يشغلكم الشيطان ؛ موت نبيكم  
ولا يفتنكم عن دينكم ، وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ، ولا تستنظروه فبلحق بكم ويفتنكم  
وقال ابن عباس : لما فرغ أبو بكر من خطبته قال : يا عمر ، أنت الذي بلغني أنك  
تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه وسلم ، أما ترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال  
يوم كذا . كذا وكذا ، ويوم كذا . كذا وكذا ، وقال تعالى في كتابه (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَمِمَّنْهُمْ  
مَيِّتُونَ) (٢) فقال : والله لكانى لم أسمع به في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا . أشهد أن الكتاب كما  
أنزل ، وأن الحديث كما حدث ، وأن الله حي لا يموت ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، وصلوات  
الله على رسوله ، وعند الله نحسب رسوله صلى الله عليه وسلم . ثم جلس إلى أبي بكر  
وقالت عائشة رضي الله عنها . لما اجتمعوا لغسله قالوا : والله ما ندري كيف نغسل  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا ؟ أو نغسله في ثيابه ؟  
قالت فأرسل الله عليهم النوم ، حتى ما بقي منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره  
نائماً . ثم قال قائل لا يدري من هو : غسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه :  
فانتبهوا ففعلوا ذلك . فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبضه ، حتى إذا قرعوا  
من غسله كف . وقال علي كرم الله وجهه : أردنا خلق قبضه فنودينا لا نخلعوا عن رسول الله



صلى الله عليه وسلم ثيابه ، فافررناه ، ففسلناه في قيصره كما نفسل موتانا مستلقيا ، مانشاء أن  
يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه ، وإن معنا لحفيفا في البيت  
كالريح الرخاء ، ويصوت بنا ارفقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم ستكفون  
فبكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يترك سبدا ولا لبدا إلا دفن  
معه . قال <sup>(١)</sup> أبو جعفر : فرش لحده بفرشه وقطيفته ، وفرشت ثيابه عليها التي كان  
يابس يقظان على القطيفة والمفرش ، ثم وضع عليها في أكفانه . فلم يترك بعد وفاته مالا ، ولا بني في  
حياته لبنة على لبنة ، ولا وضع قصبة على قصبة . ففي وفاته عبرة تامة ، وللمسلمين به أسوة حسنة

## وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، جاءت عائشة رضي الله عنها ، فتمثلت بهذا البيت  
لممرك ما يعني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر  
فكشف عن وجهه وقال : ليس كذا . ولكن قولي ( وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ )  
ذَلِكَ مَا كُنْتُ مِنْهُ نَجِيدُ <sup>(١)</sup> انظروا ثوبي هذين ، فإغسلوها وكفنوني فيهما ، فإن  
الحي إلى الجديد أحوج من الميت . وقالت عائشة رضي الله عنها عند موته :  
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامي عصمة للأرامل  
فقال أبو بكر : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم . ودخلوا عليه فقالوا ألا تدعوك  
طيبيا ينظر إليك ؟ قال قد نظر إلي طيببي ، وقال إني فعال لما أريد  
ودخل عليه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه يعوده ، فقال يا أبا بكر ، أوصنا . فقال  
إن الله فاتح عليكم الدنيا ، فلا تأخذن منها إلا بлагتك واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو

( ١ ) حديث أبي جعفر فرش لحده بفرشه وقطيفة وفيه . فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بني في حياته لبنة على لبنة  
ولا وضع قصبة على قصبة اما وضع المفرش والقطيفة فالذي وضع القطيفة شقران مولى رسول الله  
صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث  
عائشة وغيرها وأما كونه ما بني في حياته فتقدم أيضا

في ذمة الله ، فلا تحقرن الله في ذمته فيكذبك في النار على وجهك  
ولما ثقل أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، وأراد الناس منه أن يستخلف ، فاستخلف عمر  
رضي الله عنه ، فقال الناس له : استخلفت علينا فظا غليظا ، فماذا تقول لربك ؟ فقال أقول :  
استخلفت على خلقك خير خلقك . ثم أرسل إلى عمر رضي الله عنه ، فجاء فقال : إني  
موصيك بوصية ، اعلم أن الله حقا في النهار لا يقبله في الليل ، وأن الله حقا في الليل لا يقبله في  
النهار ، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم  
يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن  
يثقل . وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم ،  
وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف . وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم ،  
وتجاوز عن سيئاتهم . فيقول القائل أنا دون هؤلاء ، ولا أبلغ مبلغ هؤلاء . فإن الله ذكر  
أهل النار بأسوأ أعمالهم ، وزد عليهم صالح الذي عملوا ، فيقول القائل أنا أفضل من  
هؤلاء . وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغباً راهباً ، ولا يلقى  
بيديه إلى التهلكة ، ولا يتمنى على الله غير الحق . فإن حفظت وصيتي هذه فلا يكون  
غائب أحب إليك من الموت ولا بدلك منه . وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب  
أبغض إليك من الموت ولا بدلك منه ، ولست بمعجزه .

وقال سعيد بن المسيب : لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه أتاه ناس من  
الصحابة ، فقالوا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا ، فإننا نراك لما بك .  
فقال أبو بكر : من قال هؤلاء الكلمات ثم مات ، جعل الله روحه في الأفق المبين .  
قالوا وما الأفق المبين ؟ قال قاع بين يدي العرش ، فيه رياض الله ، وأنهار وأشجار ،  
يشاء كل يوم مائة رحمة . فن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا المكان .  
اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ، ثم جعلتهم فريقين ، فريقاً للنعيم ،  
وفريقاً للسمير . فاجعلني للنعيم ، ولا تجعلني للسمير . اللهم إنك خلقت الخلق فرقاء ،  
وميزهم قبل أن تخلقهم ، فجعلت منهم شقياً وسعيداً ، وغويّاً ورشيداً ، فلا تشقني  
بمعاصيك . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها ، فلا محيص لها مما علمت

فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك . اللهم إن أحدا لا يشاء حتى تشاء ؛ فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربني إليك . اللهم إنك قد قدرت حركات العباد ، فلا يتحرك شيء إلا بإذنك ، فاجعل حركاتي في تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر ، وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به ، فاجعلني من خير القسمين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار ، وجعلت لكل واحدة منهما أهلا ، فاجعلني من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال ، وضيقته به صدورهم ، فأشرح صدري للإيمان وزينه في قاي . اللهم إنك دبرت الأمور ، وجعلت مصيرها إليك ، فأحيني بعد الموت حياة طيبة ، وقرني إليك زلني . اللهم من أصبح وأمسى تقته ورجاؤه غيرك فأنت تقتي ورجائي ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال أبو بكر هذا كله في كتاب الله عز وجل

## وفاة .. عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

قال عمرو بن ميمون : كنت قائما غداة أصيب عمر ، ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس وكان إذا مر بين الصفين قام بينهما ، فإذا رأي خلا قال استموا ، حتى إذا لم يرفيهم خلا تقدم فكبر . قال ورعا فرأ سورة يوسف ، أو النحل ، أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس . فما هو إلا أن كبر ، فسمعته يقول : قتلى أبو بكر بنى الكلب ، حين طعنه أبو لؤلؤة . وطار الملعج بسكين ذات طرفين ، لا يمر على أحد يمينا أو شمالا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا . فمات منهم تسعة . وفي رواية سبعة . فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه بُرّسا . فلما ظن الملعج أنه مأخوذ نحر نفسه . وتناول عمرو رضي الله عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه . فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت . وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر ، غير أنهم فقدوا صوت عمر ، وهم يقولون سبحان الله سبحان الله ، فصلّى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن العباس ، انظر من قتلى قال فتاب ساعة ثم جاء فقال : غلام المغيرة بن شعبه . فقال عمرو رضي الله عنه ، قاتله الله ، لقد كنت أمرت به معروفا . ثم قال : الحمد لله الذي لم يجعل مني يده رجل مسلم . فلو كنت

أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة . وكان العباس أكثرهم رفيقا . فقال ابن عباس : إن شئت فعلت . أي إن شئت قتلناهم . قال بعد ما تكلموا بلسانكم ، وصلوا إلى قبلكم ، وحجوا حجكم ، فاحتفل إلى بيته ، فانطلقنا معه . قال وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ . قال فقائل يقول أخاف عليه ، وقائل يقول لا بأس . فأني \* بنبيذ فشرب منه ، فخرج من جوفه . ثم أتى بلبن فشرب منه ، فخرج من جوفه . فعرفوا أنه ميت . قال : فدخلنا عليه ، وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل ، قد كان لك صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقدم في الإسلام ما قد علمت ، ثم ولّيت فعدلت ، ثم شهادة فقال وددت أن ذلك كان كفافا لا علي ولا لي . فلما أدبر الرجل إذا لازره عسّ الأرض ، فقال ردوا علي الغلام . فقال يا ابن أخي ، ارفع ثوبك فإنه أبقى لثوبك ، وأتقى لربك . ثم قال : يا عبد الله انظر ما عليّ من الدين . فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه . فقال إن وقى به مال آل عمر فأده من أموالهم ، وإلا فسل في بني عدي بن كعب ، فإن لم تنف أموالهم فسل في قريش ، ولا تعدم إلى غيرهم وأدّ عني هذا المال . انطلق إلى أم المؤمنين عائشة ، فقل عمر يقرأ عليك السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين . فإني لست اليوم للمؤمنين أميرا . وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه . فذهب عبد الله فسلم واستأذن ، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي . فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه . فقالت كنت أريدك لنفسى ، ولأثره اليوم على نفسى . فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء ، فقال : ارفعوني ، فأسنده رجل إليه ، فقال مالديك ؟ قال الذي تحب يا أمير المؤمنين ، قد أذنت . قال : الحمد لله ، ما كان شيء أم إليّ من ذلك ، فإذا أنا قبضت فأحملوني ، ثم سلم وقل : يستأذن عمر . فإن أذنت لي فأدخلوني ، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها ، فلما رأيناها قننا ، فولجت عليه ، فبكت عنده ساعة . واستأذن الرجال ، فولجت داخلا ، فسمعنا بكاءها من داخل . فقالوا أوص يا أمير المؤمنين واستخلف . فقال ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . فسمى عليا ، وعثمان ، والزبير ،

وطالحة ، وسعدا ، وعبد الرحمن . وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء ، كهيئة التعزية له . فإن أصابت الإمارة سعدا فذاك ، وإلا فليستمن به أيكم أتمر ، فإنني لم أعزله من عجز ولا خيانة . وقال : أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ، ويحفظ لهم حرمتهم . وأوصيه بالأنصار خيرا ، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفوا عن مسيئتهم . وأوصيه بأهل الأمصار خيرا ، فإنهم ردة الإسلام ، وجباة الأموال ، وغيط العدو ، وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم . وأوصيه بالأعراب خيرا ، فإنهم أصل العرب ، ومادة الإسلام ، وأن يأخذ من حواشي أموالهم ويرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله عز وجل ، وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل لهم من ورائهم ، ولا يكلفهم إلا طاقهم قال فلما قبض خريجنابه ، فانطلقنا نمشي ، فسلم عبد الله بن عمر وقال : يستأذن عمر بن الخطاب . فقالت أدخلوه . فأدخلوه في موضع هنالك مع صاحبيه الحديث وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال <sup>(١)</sup> « قَالَ لِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَبْكِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى مَوْتِ عُمَرَ » . وعن <sup>(٢)</sup> ابن عباس قال : وضع عمر على سريره ، فتكفنه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع ، وأنا فيهم ، فلم يرعنى إلا رجل قد أخذ بمنكبى ، فالتفت فإذا هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه فترحم على عمر وقال : ما خلفت أحدا أحب إلي أن أتى الله بمثل عمله منك . وأيم الله إن كنت لأظن لي جملتك الله مع صاحبيك ، وذلك أنى كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ » ، فإننى كنت لأرجو أن لأظن أن يجعلك الله معهما

(١) حديث قال لي جبريل عليه السلام ليكن الإسلام على موت عمر : أبو بكر الأجرى في كتاب الشريعة

من حديث أبي بن كعب بسند ضعيف جدا وذكره ابن الجوزى في الموضوعات

(٢) حديث ابن عباس قال وضع عمر على سريره فكفنه الناس يدعون ويصلون فذكر قول علي بن أبي طالب كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذهب أنا وأبو بكر وعمر الحديث : متفق عليه

## وفاة .. عثمان رضي الله عنه

الحديث في قتله مشهور. وقد قال عبد الله بن سلام : أتيت أخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور فدخلت عليه فقال مرحبا يا أخى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في هذه الخوخة، وهي خوخة في البيت فقال يا عثمان، حصروك . قلت نعم . قال عطشوك ، قلت نعم . فأدلى إلي دلو فيه ماء ، فشربت حتى رويت ، حتى أنى لأجد برده بين يدي وبين كتفي ، وقال لى . إن شئت نصرت عليهم ، وإن شئت أفطرت عندنا . فاخترت أن أفطر عنده . فقتل ذلك اليوم رضي الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان في الموت حين جرح، ماذا قال عثمان وهو يتشحط ؟ قالوا سمعناه يقول : اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا . قال والذي نفسى بيده ، لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة وعن<sup>(١)</sup> ثمامة بن حزن القشيري قال : شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه ، فقال اتوني بصاحبيكم اللذين أباكم علي . قال فجىء بهما كأنهما جملان أو حماران فأشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال : أنشدكم بالله والإسلام ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة ، فقال « مَنْ يَشْتَرِي رُومَةَ يَحْمِلْ دَلْوَهُ مَعَ دِلَاةِ الْمَسَاكِينِ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ » فاشتريتها من صلب مالى ، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا اللهم نعم . قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أنى جهزت جيش العسرة من مالى ؟ قالوا نعم . قال أنشدكم الله والإسلام ، هل تعلمون أن المسجد كان قد ضاق بأهله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ يَشْتَرِي بِقَعَةَ آلِ فُلَانٍ فَيَزِيدُهَا فِي الْمَسْجِدِ بِخَيْرٍ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ » فاشتريتها من صلب مالى ، فأنتم اليوم تمنعوني أن أصلي فيها ركعتين ؟ قالوا اللهم نعم . قال أنشدكم الله والإسلام ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة ، ومعه أبو بكر وعمر وأنا ، فتحرك الجبل حتى تساقت حجارتها بالحضيض قال فركضه برجله وقال « اسْكُنْ ثَبِيرٌ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ » قالوا اللهم نعم . قال الله أكبر شهدوا لى ورب الكعبة أنى شهيد

( ١ ) حديث ثمامة بن حزن القشيري شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان - الحديث : الترمذى وقال حسن والنسائى

وروي عن شيخ من صُبة : أن عثمان حين ضرب والداه تسيل على لحيته جعل يقول :  
لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، اللهم إني أستعديك عليهم ، واستعينك  
على جميع أموري ، وأسألك الصبر على ما ابتليني

## وفاة .. علي كرم الله وجهه

قال الأصمعي الحنظلي : لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي كرم الله وجهه ، أتاه ابن التياح  
حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة ، وهو مضطجع متثاقل ، فماد الثانية وهو كذلك ،  
ثم عاد الثالثة ، فقام علي يمشي وهو يقول :

أشد حيا زيمك للموت فإن الموت لا فيكا  
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديك

فأما بلغ الباب الصغير ، شد عليه ابن ماجم فضربه ، فخرجت أم كلثوم ابنة علي رضي  
الله عنه ، فجعلت تقول : مالي ولصلاة الفداء ، قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الفداء ،  
وقتل أبي صلاة الفداء . وعن شيخ من قريش : أن عليا كرم الله وجهه لما ضرب ابن ملجم ، قال فزت  
ورب الكعبة . وعن محمد بن علي ، أنه لما ضرب أوصى بنيه ، ثم لم ينطق إلا بلأله إلا الله حتى قبض  
ولما ثقل الحسن بن علي رضي الله عنهما ، دخل عليه الحسين رضي الله عنه ، فقال يا أخي  
لأي شيء تجزع ؟ تقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى علي بن أبي طالب ،  
وهما أبواك ، وعلى خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وهما أماك ، وعلى حمزة  
وجعفر ، وهما عماك . قال يا أخي ، أقدم على أمر لم أقدم على مثله

وعن محمد بن الحسن رضي الله عنهما قال : لما نزل القوم بالحسين رضي الله  
عنه ، وأيقن أنهم قاتلوه ، قام في أصحابه خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : قد نزل من  
الأمر ماترون ، وإن الدنيا قد تغيرت ، وتنكرت ، وأدبر معروفها ، وانشمرت حتى لم يبق  
منها إلا كصباة الإناث . ألا حسبي من عيش كالرعي الويل . ألا ترون الحق لا يعمل به ،  
والباطل لا يتناهى عنه . ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى ، وإني لأرى الموت إلا سعادة ،  
والحياة مع الظالمين إلا جرما

## الباب الخاص

في كلام المختصرين من الخلفاء والأمراء والصالحين

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال : أقعدوني . فأقعد ، فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ، ثم بكى وقال : تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ، ألا كان هذا وغصن الشباب نصرريان ! وبكى حتى حلا بكأوه وقال : يارب ارحم الشيخ العاصي ، ذا القلب القاسي اللهم أقل العثرة ، واغفر الزلة ، وعد بحلمك علي من لم يرج غيرك ، ولم يثق بأحد سواك . وروى عن شيخ من قريش ، أنه دخل مع جماعة عليه في مرضه ، فرأوا في جلده غصونا . فحمد الله وأثني عليه ثم قال : أما بعد ، فهل الدنيا أجمع إلا ماجربنا ورأينا ، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بمجدتنا ، وباستلذاذنا بميشنا ، فالبثتنا الدنيا أن تقضت ذلك منا حالا بعد حال ، وعروة بعد عروة ، فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلقتنا ، واستلأمت إلينا . أف للدنيا من دار ، ثم أف لها من دار

ويروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس ، إني من زرع قد استحصد ، وإني قد وليتكم ، ولن يليكم أحد من بعدى إلا وهو شر مني ، كما كان من قبلي خيرا مني . ويا يزيد ، إذا وفي أجلى فول غسلى رجلا ليديا ، فإن اللبيب من الله بمكان ، فلينعم الغسل ، وليجهر بالتكبير . ثم أعمد إلى منديل في الخزانة فيه ثوب من ثياب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرضة من شعره وأظفاره ، فاستودع القراضة أنفي ، وفمي ، وأذني ، وعيني ، واجعل الثوب على جلدي دون أكفاني . ويا يزيد ، احفظ وصية الله في الوالدین ، فإذا أدرجتموني في جددي ، ووضعتوني في حفرتي ، فخلوا معاوية وأرحم الراحمين .

وقال محمد بن عقبة : لما نزل بمعاوية الموت قال : يا ليتني كنت رجلا من قريش بذي طوي ، وأنى لم آل من هذا الأمر شيئا . ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة ، نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ، ثم يضرب به المغسلة ، فقال عبد الملك : ليتني كنت غسالا آكل من كسب يدي يوما بيوم ، ولم آل من أمر الدنيا شيئا . فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذي جعلهم إذا حضروا الموت يتمنون ما نحن فيه ، وإذا حضروا



الموت لم تسن مام فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه . كيف  
تجده يا أمير المؤمنين ؟ قال أجدني كما قال الله تعالى ( وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ  
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ )<sup>(١)</sup> الآية ، ومات

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، امرأة عمر بن عبد العزيز . كنت أسمع  
عمر في مرضه الذي مات فيه يقول : اللهم اخف عليهم موتى ولوساعة من نهار . فلما  
كان اليوم الذي قبض فيه ، خرجت من عنده ، فجلست في بيت آخر بيني وبينه باب ،  
وهو في قبة له فسمعتة يقول ( تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْمَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي  
الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ )<sup>(٢)</sup> ثم هدا ، فجعلت لا أسمع له حركة ولا كلاما ، فقلت  
لوضيف له : انظر أنا ثم هو ؟ فلما دخل صاح ، فوثبت فإذا هو ميت وقيل لما حضره  
الموت : أعهد يا أمير المؤمنين ؟ قال أحذركم مثل مصرعى هذا ، فإنه لا بد لكم منه

وروي أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعي له طبيب ، فلما نظر إليه قال : أرى الرجل  
قد سقى السم . ولا آمن عليه الموت . فرفع عمر بصره وقال . ولا تأمن الموت أيضا على  
من لم يسق السم . قال الطبيب : هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم قد عرفت  
ذلك حين وقع في بطني قال فتعالج يا أمير المؤمنين ، فإني أخاف أن تذهب نفسك . قال ربى  
خير مذهب إليه . والله لو علمت أن شفائي عند شحمة أذني مارفت يدي إلى أذني  
فتناولته . اللهم خر لعمر في لقائك . فلم يلبث إلا أياما حتى مات

وقيل لما حضرته الوفاة بكى فقيلا له ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ أبشر فقد أحيا الله بك  
سنا ، وأظهر بك عدلا . فبكى ثم قال : أليس أوقف فأستل عن أمر هذا الخلق ؟ فوالله  
لو عدلت فيهم خلقت على نفسي أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله ، إلا أن يلقنها الله حجتها  
فكيف بكثير مما ضيعنا ، وفاضت عيناه ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات

ولما قرب وقت موته قال : أجلسوني . فأجلسوه فقال أنا الذي أمرتني فقصرت  
ونهيتني فقصيت ؟ ثلاث مرات ولكن لا إله إلا الله . ثم رفع رأسه فأحد النظر ، فقيلا  
له في ذلك ، فقال : إني لأرى خضرة مام بإنس ولا جن . ثم قبض رحمه الله

وخفي عن هرون الرشيد أنه انتقى أكفانه يده عند الموت ، وكان ينظر إليها ويقول  
 (مَا أَغْنَى عَنِّي مَا لِيَه هَلَاكَ عَنِّي مُلْكًا نِيَه<sup>(١)</sup>)  
 وفرش المؤمن رمادا واضطجع عليه ، وكان يقول : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه  
 وكان المعتصم يقول عند موته : لو علمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت  
 وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته ، فقبل له لا بأس عليك يا أمير المؤمنين .  
 فقال ليس إلا هذا لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة  
 وقال عمرو بن العاص عند الوفاة ، وقد نظر إلى صناديق لبيه : من يأخذها بما فيها ليه كان بعرا  
 ، وقال الحجاج عند موته : اللهم اغفر لي ، فإن الناس يقولون إنك لا تغفر لي . فكان  
 عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ، وينبسط عليها . ولما حكى ذلك للحسن  
 قال : أفاها ؟ قيل نعم . قال عسى .

## بيان

أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة

والتابعين ، ومن بعدهم من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين

لما حضر معاذ رضي الله عنه الوفاة قال . اللهم إني قد كنت أخافك ، وأنا اليوم أرجوك  
 اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار ، ولا لغرس الأشجار  
 ولكن لظما الهواجر ، ومكابدة الساعات ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حاق الذكر . ولما  
 اشتد به النزع ، ونزع ترعا لم ينزعه أحد ، كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال : رب  
 ما أحنقني خنقك ، فوعزت لك إنك تعلم أن قلبي يحبك

<sup>(١)</sup> ولما حضرت سلمان الوفاة بكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ قال ما أبكي جزعا على الدنيا ،  
 ولكن عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون بُلغة أحدنا من الدنيا كزاد  
 الراكب . فلما مات سلمان نظر في جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهما

(١) حديث لما حضرت سلمان الوفاة بكى وفيه عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بُلغة  
 أحدنا من الدنيا كزاد الراكب : أحمد والحاكم وصححه وقد تقدم

ولما حضر بلالا الوفاة قالت امرأته : وإحزنناه . فقال : بل وأطربناه ، غدا تأتي الأجابة محمدًا وحزبه . وقيل : فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال ( لِمَنْ هَذَا فَلْيَتَمَلَّ أَنْتَ أَمِلْتُ )<sup>(١)</sup> . ولما حضر إبراهيم النخعي الوفاة بكى ، فقيل له ما يبكيك؟ قال : أنتظر من الله رسولاً يبشرني بالجنة أو بالنار

ولما حضر ابن المنكدر الوفاة بكى ، فقيل له ما يبكيك؟ فقال : والله ما أبكي لذنب أعلم أني أتيت به ، ولكن أخاف أني أتيت شيئاً حسبه هيناً وهو عند الله عظيم . ولما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى ، فقيل له ما يبكيك؟ قال ما أبكي جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا ، ولكن أبكي على ما يفوتني من ظمأ الهواجر ، وعلى قيام الليل في الشتاء . ولما حضرت فضيلاً الوفاة غشي عليه ثم فتح عينيه وقال : وأبعد سفراء وافلة زاداه . ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاة : اجعل رأسي على التراب ، فبكى نصر فقال له ما يبكيك؟ قال ذكرت ما كنت فيه من النعيم ، وأنت هو ذا تموت فقيراً غريباً قال اسكت ، فإني سألت الله تعالى أن يحيني حياة الأغنياء ، وأن يميتني موت الفقراء . ثم قال له : لقي ، ولا تعد عليّ ما لم أتكلم بكلام ثان

وقال عطاء بن يسار : تبدى إبليس لرجل عند الموت ، فقال له نجوت فقال ما آمنك بعد وبكى بعضهم عند الموت ، فقيل له ما يبكيك؟ قال آية في كتاب الله تعالى ، قوله عز وجل ( إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ )<sup>(٢)</sup>

ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال : إن امرأ هذا أوله لجدير أن يتقى آخره ، وإن امرأ هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله . وقال الجريري : كنت عند الجنيد في حال نزع ، وكانت يوم الجمعة ويوم التبروز وهو يقرأ القرآن ، فختم فقلت له في هذه الحالة يا أبا القاسم؟ فقال ومن أولى بذلك مني ، وهو ذا تطوى صحيفتي

وقال رويم : حضرت وفاة أبي سعيد الخراساني وهو يقول :

(١) الصافات : ٦١ (٢) اللائدة : ٣٧

حينئذ قلوب العارفين إلى الذكر  
أديرت كؤوس المنايا عليهم  
هو مهمو جواله بمسك  
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه  
فأعرسوا إلا بقرب حبيبهم  
وما عرجوا من مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد . إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت . فقال لم يكن بمعجب  
أن تطير روحه اشتياقا : وقيل لذي النون عند موته . ما تشتهي ؟ قال أن أعرفه قبل موته بلحظة  
وقيل لبعضهم وهو في النزع . قل الله . فقال إلى متى تقولون الله ، وأنا محترق بالله  
وقال بعضهم . كنت عند ممشاد الدينوري ، فقدم فقير وقال . السلام عليكم ، هل هنا  
موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه ؟ قال فأشاروا إليه بمكان ، وكان ثم عين ماء ،  
فجدد الفقير الوضوء ، وركع ماشاء الله ، ومضى إلى ذلك المكان ، ومدّ رجله ، ومات  
وكان أبو العباس الدينوري يتكلم في مجلسه ، فصاحت امرأة تواجدا ، فقال لها موتى  
قامت المرأة ، فلما بلغت باب الدار التفت إليه وقالت . قد مت . ووقعت ميتة  
ويحكى عن فاطمة أخت أبي علي الروزباري قالت . لما قرب أجل أبي علي الروزباري  
وكان رأسه في حجرني ، فتح عينيه وقال . هذه أبواب السماء قد فتحت ، وهذه الجنان قد  
زينت ، وهذا قائل يقول . يا أبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى ، وإن لم تردها . ثم أنشأ يقول  
وحقك لا نظرت إلى سواك بين مودة حتى أراك  
أراك معذبي بفتور لحظ وبالحمد الموزد من حياكا  
وقيل للجنيد قل لا إله إلا الله . فقال مانسيته فأذكره

وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري خادم الشبلي ، ما الذي رأيت منه ؟ فقال : قال  
عليّ درهم مظلمة ، وتصدقت عن صاحبه بألف ، فاعلى قلبي شغل أعظم منه . ثم قال :  
وصنتي للصلاة ، ففعلت ، فنسبت تخليل لحيته ، وقد أمسك على لسانه ، فقبض على يدي  
وأدخلها في لحيته ، ثم مات . فبكى جعفر وقال : ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره  
أدب من آداب الشريعة . وقيل لبشر بن الحارث لما احتضر : وكان يشق عليه : كأنك

تحب الحياة ؟ فقال : القديوم على الله شديد

وقيل لصالح بن مسار : ألا توصي بابنك وعيالك ؟ فقال إني لأستحي من الله أن أوصي بهم إلى غيره . ولما احتضر أبو سليمان الداراني ، أتاه أصحابه فقالوا : أبشر فإنك تقدم على رب غفور رحيم ؛ فقال لهم : ألا تقولون احذر فإنك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ، ويعاقبك بالكبير . ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له : أوصنا . فقال احفظوا مراد الحق فيكم . واحتضر بعضهم ، فبكت امرأته ، فقال لها ما يبكيك ؟ فقالت عليك أبكي فقال : إن كنت باكية فابكي على نفسك ، فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة وقال الجنيد : دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته ، فقالت كيف تبتدك ؟ فأنشأ يقول

كيف أشكو إلى طيبي مابي      والذي بي أصابي من طيبي  
فأخذت المروحة لأروحه فقال : كيف يجدر بريح المروحة من جوفه يحترق ؛ ثم أنشأ يقول  
القلب محترق والدمع مستبق      والكرب مجتمع والصبر مفترق  
كيف القرار على من لا قرار له      مما جناه الهوى والشوق والقلق  
يارب إن يك شيء فيه لي فرج      فامنن عليّ به مادام بي رفق  
وحكي أن قوما من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت ، فقالوا له : قل  
لا إله إلا الله . فأنشأ يقول

إن يتنا أنت ساكنه      غير محتاج إلى السرج  
وجهك المأمول حجبنا      يوم يأتي الناس بالحجب  
لا أتاح الله لي فرجا      يوم أدعو منك بالفرج

وحكي أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد في وقت نزعه ، فسلم عليه فلم يجبه ، ثم أجاب بعد ساعة وقال : أعذرني فإنني كنت في وردي . ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبر ومات وقيل للسكناني لما حضرته الوفاة ما كان صمك ؟ فقال لو لم يقرب أجلى ما أخبرنكم به وفتت على باب قاي أربعين سنة ، فكما مرّ فيه غير الله حجبه عنه

وحكي عن المعتز قال : كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق ، فقالت اللهم هون عليه سكرات الموت فإنه كان وكان ، فذكرت محاسنه ، فأفاق فقال : من المتكلم ؟

قلت أنا : فقال ابن سلام : أثبت عليه السلام يقول لي : إني بكل سني رقيق ، ثم طفي .  
ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة ، شهده حذيفة فوجده قلعا . فقال : يا أبا محمد  
هذا أو أن القلق والجرح ؟ فقال يا أبا عبد الله ، وكيف لا أقلق ولا أجزع وإني لا أعلم أني  
صدقت الله في شيء من ضللي ! فقال حذيفة : وإعجيب لهذا الرجل الصالح ، يحلب عند موته  
أنه لا يعلم أنه صدق الله في شيء من ضلله .

وعن المغازلي قال . دخلت على شيخ لي من أصحاب هذه الصفة وهو عليل ، وهو يقول  
يمكنك أن تعمل ما تريد ، فارق بي . ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينوري في  
وقت وفاته فقال له . فعل الله تعالى وصنع من باب الدماء ، فضحك ثم قال . منذ ثلاثين سنة  
تعرض علي الجنة بما فيها فما أعزها طرفي

وقيل لروهم عند الموت . قل لا إله إلا الله . فقال لا أحسن غيره .  
ولما حضر الثوري الوفاة قيل له . قل لا إله إلا الله . فقال أليس ثم أمر  
ودخل المزني على الشافعي رحمه الله عليهما في مرضه الذي توفي فيه ، فقال له . كيف  
أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال أصبحت من الدنيا راحلا ، وللاخوان مفارقا ، وللسوء عملي  
ملافا ، وللكأس المنية شاربا ، وعلى الله تعالى واردا ، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة  
فأهنيها ، أم إلى النار فأعزها . ثم أنشأ يقول .

ولما قسى قلبي وضافت مذاهبي      جعلت رجائي نحو عفوك سلما  
تعاظمني ذنوبي فلما قرنته      بعفوك ربي كان عفوك أعظما  
فازلت ذاعفوع الذنب لم تزل      تجود وتمفو منة وتكرما  
ولولاك لم ينوي إبليس عابدا      فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ولما حضر أحمد بن خضرويه الوفاة ، سئل عن مسألة . فدمعت عيناه وقال يا بني ،  
باب كنت أدنه خمسا وتسعين سنة ، هوذا يفتح الساعة لي ، لا أدري أيفتح بالسعادة  
أو الشقاوة ، فأثنى لي أوان الجواب . فهذه أفاديلهم . وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم  
فقلب على بعضهم الخوف ، وعلى بعضهم الرجاء ، وعلى بعضهم الشوق والحب ، فتكلم كل  
واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم

## الباب السادس

في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير ، وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة ، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة ، لأنهم يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون ، ولا يحسبون أنهم لاحالة على الجنائز يحملون ، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدر ، ولا يتفكرون أن المخمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون ، فيطل حسبانهم ، وانقرض على القرب زمانهم . فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها ، فإنه محمول عليها على القرب ، وكأن قد ، وأمله في غدا أو بعد غد : ويروى عن أبي هريرة أنه كان إذا رأى جنازة قال . امضوا فإننا على الأثر وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال . اغدوا فإننا رائحون ، موعظة بليغة وغفلة سريعة ، يذهب الأول والآخرة لا عقل له . وقال أسيد بن حضير . ماشهدت جنازة فحدثني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به وما هو صائر إليه ولما مات أخو مالك بن دينار . خرج مالك في جنازته يبكي ويقول : والله لا تقر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ، ولأعلم مادمت جيا . وقال الأعمش . كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نمرى لحزن الجميع

وقال ثابت البناني . كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعا باكيا

ف هكذا كان خوفهم من الموت ، والآن لا ينظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون ، ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته ، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه ، ولا يتفكر واحد منهم إلا ما شاء الله في جنازة نفسه ، وفي حاله إذا حمل عليها . ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب ، حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر ، والأحوال التي بين أيدينا ، فصرنا نلهو ، ونغفل ، ونشتغل بما لا يعنيننا ، فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة ، فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاءهم على الميت ، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لاعلى الميت نظر ابراهيم الزيات إلى أناس يترحمونه على الميت ، فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم ، إنه نجا من أهوال ثلاثة . وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق

وخوف الخاتمة وقد أمن . وقال أبو عمرو بن العلاء . جلست إلى جرير وهو على  
كاتبه شعرا ، فأطلعت جنازة فأمسك وقال . شيدني والله هذه الجنازة . وأنشأ يقول

ترونا الجناز مقبلات ونلهو حين تذهب مديرات  
كروعة ثلثة لنار ذئب فلما غاب حادت راتمات

فمن آداب حضور الجناز التفكير والتنبه ، والاستعداد ، والمشي أمامها على هيئة  
التواضع كما ذكرنا آدابه وسننه في فن الفقه

ومن آدابه حسن الظن باليت وإن كان فاسقا ، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها  
بالصلاح ، فإن الخاتمة خطيرة لا ندري حقيقتها . ولذلك روي عن عمر بن ذر أنه مات واحد  
من جيرانه ، وكان مسرفا على نفسه ، فتجافى كثير من الناس عن جنازته ، فحضرها هو  
فصلى عليها ، فلما دلى في قبره وقف على قبره وقال : يرحمك الله يا أبا فلان ، فلقد صحبت عمرك  
بالتوحيد ، وعفرت وجهك بالسجود . وإن قالوا مذهب وذو خطايا ، فمن منا غير مذهب  
وغير ذي خطايا ؟ . ويحكى أن رجلا من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي  
البصرة ، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته ، إذ لم يدربها أحد من جيرانه لكثرة  
فسقه . فاستأجرت حمالين ، وحملتها إلى المصلى ، فاصلى عليه أحد ، فحملتها إلى الصحراء للدفن  
فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار ، فرأته كالمستظر للجنازة ، ثم قصد  
أن يصلى عليها . فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان فخرج أهل البلد ؛ فصلى  
الزاهد وصلوا عليه ، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه ، فقال قيل لي في المنام انزل إلى  
موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصلت عليه فإنه مفقوره . فزاد تعجب  
الناس ، فاستدعى الزاهد امرأته ، وسألها عن حاله ، وأنه كيف كانت سيرته . قالت كما  
عرف ، كأنه طول نهاره في المأخور مشغولا بشرب الخمر . فقال انظري هل تعرفين منه  
شيئا من أعمال الخير ؟ قالت نعم ، ثلاثة أشياء . كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح  
يبدل ثيابه ، ويتوضأ ، ويصلى الصبح في جماعة ، ثم يعود إلى المأخور ، ويشغل بالفسق  
والذاني أنه كان أبدا لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمة ، وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه  
إلى أولاده ، وكان شديد التفقد لهم . والثالث أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل



فيكي ويقول يارب أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن علاها بهذا الشئيت ؟ يعني نفسه  
فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره

وعن صلة بن أشيم ، وقد دفن أخ له ، فقال على قبره

فإن تنج منها تنج من ذى عظمة ولا فاني لا أخالك ناجيا

## بيان

حال القبر وأقاربهم عند القبور

قال <sup>(١)</sup> الضحاك : قال رجل يارسل الله من أزهد الناس ؟ قال « من لم ينس القبر  
وأولئى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعدد غدا من أيامه وعد نفسه  
من أهل القبور » . وقيل لعلي كرم الله وجهه : ما شأنك جاورت المقبرة ؟ قال إني أجدهم  
خير جيران ، إني أجدهم جيران صدق ، يكفون الألسنة ، ويذكرون الآخرة

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « ما رأيت منظرأ إلا والقبر أظع منه »  
وقال <sup>(٣)</sup> صمر بن الخطاب رضي الله عنه . خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى  
المقابر ، فجلس إلى قبر ، وكنت أدنى القوم منه ، فبكى وبكيت وبكوا ، فقال « ما يبكيكم ؟ »  
قلنا بكينا لبكائك قال « هذا قبر أُمى آمنه بنت وهب استأذنت ربى في زيارتها  
فأذن لي فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى علي فأذكرني ما يذكر أولاد من الرقة »  
وكان <sup>(٤)</sup> عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ، فسئل

﴿ الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر ﴾

( ١ ) حديث الضحاك قال رجل يارسل الله من أزهد الناس قال من لم ينس القبور والبلى - الحديث : تقدم

( ٢ ) حديث ماريت منظرا الاوالقبر افضع منه : تقدم في الباب الثالث من آداب الصعبة

( ٣ ) حديث عمر خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم

الحديث : وفيه هذا قبر آمنه بنت وهب استأذنت ربى في زيارتها فأذن لي - الحديث : وتقدم

في آداب الصعبة ايضا ورواه ابن أبى الدنيا في كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه

ذكر لعمر بن الخطاب وآخره عند ابن ماجه مختصرا وفيه ايوب بن هاني ضعفه ابن معين

وقال ابو حاتم صالح

( ٤ ) حديث عثمان كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته وفيه ان القبر أول منازل الآخرة : الترمذي

وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم في آداب الصعبة

عن ذلك وقيل له . تذكر الجنة والنار فلا تبكى ، وتبكي إذا وقفت قبر ! فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ فَإِنْ نَجَّاهُ مِنْهُ صَاحِبُهُ فَأَبْعَدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَأَبْعَدَهُ أَشَدُّ ،

وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة ، فنزل وصلى ركعتين ، فقبل له هذا شيء لم تكن تصنعه ! فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه ، فأحييت أن أتقرب إلى الله بهما . وقال مجاهد : أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول . أنا بيت الدود وبيت الوحدة ، وبيت العربة ، وبيت الظامة . هذا ما أعددت لك ، فما أعددت لي ؟

وقل أبو ذر : ألا أخبركم يوم قفري ؟ يوم أوضع في قبري . وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور ، فقبل له في ذلك . فقال أجلس إلى قوم يذكرون معادي ، وإذا قت لم يفتابوني وكان جعفر بن محمد يأتي القبور ليلا ويقول . يا أهل القبور مالي إذا دعوتكم لتجيبيوني ثم يقول : حيل والله بينهم وبين جوابي ، وكأني بي أكون مثلهم . ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر ، وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه ! يا فلان ، لقد أرقت الليلة أتفكر في القبر وساكنه ، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة في قبره لاستوحشت من قربيه بعد طول الأنس منك به ، ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام ، ويمر في فيه العسديد ، وتحترقه الديدان مع تغير الريح ، وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة ، وطيب الريح ، ونقاء الثوب . قال ثم شق شقة خر مغشيا عليه . وكان يزيد الرقاشي يقول : أيها القبور في حفرته ، والمتخلى في القبر بوحدته ، المستأنس في بطن الأرض بأعماله ، ليت شعري بأي أعمالك استبشرت ، وبأي إخوانك اغتبطت . ثم يبكي حتى يبل عمامته ، ثم يقول : استبشر والله بأعماله الصالحة ، واغتبط بالله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى . وكان إذا نظر إلى القبور خارقا يخور الثور

وقال حاتم الأصم : من مر بالمقابر فلم يفكر لنفسه ، ولم يدع لهم ، فقد خان نفسه وخانهم وكان بكر العابد يقول : يا أماء ، ليتك كنت بي عقيبا ، إن لابنك في القبر حبسا طويلا ، ومن بعد ذلك منه رحيل . وقال يحيى يابن معاذ : ابن آدم ، دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه . إن أجبتك من دنياك ، واشتغلت بالرحلة إليه

دخلتها وإن أجبته من قبرك منعتها . وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول : ما أحسن ظواهرك ، إنما الدواهي في بواطنك

وكان عطاء السلمي إذا جنّ عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول : بأهل القبور ، مَتَم فواموتاه ، وعابنتم أعمالكم فوا عملاه . ثم يقول : غدا عطاء في القبور ، غدا عطاء في القبور . فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح . وقال سفيان : من أكثر من ذكر القبر وجدّه روضة من رياض الجنة ، ومن غفل عن ذكره وجدّه حفرة من حفر النار . وكان الربيع بن خثيم قد حفر في داره قبرا ، فساكن إذا وجد في قلبه فساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ماشاء الله ، ثم يقول ( رَبِّ ارْجِعُونِي لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ )<sup>(١)</sup> بردها ، ثم يرد على نفسه ، يارب ، قد رجعتك فاعمل وقال أحمد بن حنبل . تعجب الأرض من رجل يهد مضجعه ، ويسوي فراشه للنوم فتقول : يا ابن آدم ، لم أتذكر طول بلاك وما بيني وبينك شيء ؟

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ، فلما نظر إلى القبور بكى ، ثم أقبل على قتال : ياميمون ، هذه قبور آبائي بني أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلثات ، واستحكّم فيهم البلي ، وأصابت الهوام مقيلا في أبدانهم . ثم بكى وقال : والله ما أعلم أحدا أنعم بمن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله . وقال ثابت البناني : دخلت المقابر ، فلما فصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول : يا ثابت ، لا يغررك صوت أهلها ، فكلم من نفس مغمومة فيها . ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فغطت وجهها وقالت :

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية      لقد عظمت تلك الرزايا وجلت .  
وقبل إنها ضربت على قبره فسقاطا واعتكفت عليه سنة ، فلما مضت السنة فلمّا  
الفسقاط ودخلت المدينة ، فسمعوا صوتا من جانب البقيع : هل وجدوا ما فقدوا ؟

فسمعوا من الجانب الآخر ، بل يشوا فانقلبوا \*  
 وقال أبو موسى النخعي : توفيت امرأة الفرزدق ، فخرج في جنازتها وجوه البصرة  
 وفيهم الحسن . فقال له الحسن : يا أبا فراس ، ماذا أعددت لهذا اليوم ؟ فقال شهادة  
 أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة . فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافني      أشد من القبر التهابا وأضيقا  
 إذا جاءني يوم القيامة قائد      عنيف وسواق يسوق الفرزدقا  
 لقد خاب من أولاد آدم من مشى      إلى النار مغلول القلادة أزرقا  
 وقد أنشدوا في أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساحاتها      من منكم المغمور في ظلماتها  
 ومن المكرم منكم في قبرها      قد ذاق برد الأمن من روعاتها  
 أما السكون لذى العيون فواحد      لا يستبين الفضل في درجاتها  
 لو جابوك لأخبروك بألسن      تصف الحقائق بعد من حالاتها  
 أما المطيع فنازل في روضة      يفضى إلى ماشاء من دوحاتها  
 والمجرم الطاغى بها متقلب      في حفرة يأوئى إلى حباتها  
 وعقارب تسمى إليه فروجه      في شدة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول :

عـدمت الحياة ولا نلتها      إذا كنت في القبر قد ألدوكا  
 فكيف أذوق لطم الكرى      وأنت يمينك قد وستوكا

ثم قالت : يا ابناء ، ليت شعري بأي خديك بدأ الدود ؟ فصعق داود مكانه وخر مغشيا عليه  
 وقال مالك بن دينار . مررت بالمقبرة فانشأت أقول :

أتيت القبور فناديتها      فأين المظم والمحتـمـر  
 وأين المسدد بسلطانه      وأين المزكى إذا ما اقتـمـر

قال . فنوديت من بينها أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فما نخسر      وماتوا جميعا ومات الخـبـر

تروح وتضدو بنات النرى      ذبحو دمارن قلقت النوى  
فيا سائلي عن أناس مندوا      أملك فيما قرى من  
قال : فرجعت وأنا بالك

أيات ومبته مكتوبه على القبر.

وجد مكتوبا على قبر .

تناجيك أجدات وهن صموت      وسكانها تحت التراب خفوت  
أيا جامع الدنيا لنسب بلاغه      لمن تجمع الدنيا وأنت تورت  
ووجد على قبر آخر مكتوبا

أيا غائم أما ذراك فواسع      وقبرك معمور الجوانب شمس  
وما ينفع المقبور عمران قبره      إذا كان فيه جسمه يتمدم  
وقال ابن السماك : مررت على المتابر فإذا على قبر مكتوب .

بر أقاربى جنات قبرى      كأن أقاربى لم يبرفونى  
ذوو للبراث يقتسمون مالى      وما يألون أن جحدوا ديونى  
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا      فيالله أسرع مانسونى  
ووجد على قبر مكتوبا .

إن الحبيب من الأحباب مختلس      لا يمنع الموت بواب ولا حرس  
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها      يامن يمد عليه اللفظ والنفس  
أصبحت يا غافلا فى النقص منفسا      وأنت دهرك فى الذات منفس  
لا يرحم الموت ذا جهل لغرته      ولا الذى كان منه العلم يقتبس  
كم أخرس الموت فى قبر وقفت به      عن الجواب لسانا مابه خرس  
قد كان قصرك معوزا له شرفه      فقبرك اليوم فى الأجدات مندرس  
ووجد على قبر آخر مكتوبا .

وقفت على الأجرة حين صفت      قبورهم كأفراس الرمان  
فلما أن بكيت وفاض دمعى      رأيت عيناى بينهم مكانى  
ووجد على قبر طيب مكتوبا .

قد قلت لما قال لي قائل قد صار لقمان إلى ربه  
فأين ما يوصف من طبه وحذقه في الماء مع جسده  
هيات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه  
ووجد على قبر آخر مكتوبا

يا أيها الناس كان لي أمل قصر بي عن بلوغي الأجل  
فليتق الله . ربه رجل أمكنه في حياته العمل  
ما أنا وحدي نقلت حيث ترى كل إلى مثله سينتقل

فهذه آيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت ، والبصير هو  
الذي ينظر إلى قبر غيره فبرى مكانه بين أظهرهم ، فيستعد للحقوق بهم ، ويعلم أنهم  
لا يرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم . وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره  
الذي هو مضى له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بخذا فبرها ، لأنهم عرفوا قدر  
الأعمال ، وانكشفت لهم حقائق الأمور . فإنا حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك  
المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب ، وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب  
فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه ، فحسرتهم على ساعة من الحياة ، وأنت قادر على  
تلك الساعة ، وأملك تقدر على أمثالها ، ثم أنت مضى لها . فوطن نفسك على التحسر على  
تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار ، إذ لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار  
فقد قال بعض الصالحين : رأيت أخا لي في الله فيما يرى النائم ، فقلت يا فلان عشت الحمد لله  
رب العالمين ، قال لأن أقدر على أن أقولها ، يعني الحمد لله رب العالمين ، أحب إلي من الدنيا  
وما فيها . ثم قال : ألم تر حيث كانوا يدفنونني ، فإن فلانا قد قام فصلى ركعتين ، لأن أكون  
أقدر على أن أصليهما أحب إلي من الدنيا وما فيها

## بيان

أقاربهم عند موت الولد

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه ، أن ينزله في تقدمه عليه في الموت منزلة  
والو كإنا في سفر ، فيسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطنه ، فإنه لا يعظم عليه تأسفه

لعله أنه لاحق به على القرب، وناس بينهما إلا تقدم وتأخر. وهذا الموت فإن معناه السبق إلى الوطن، إلى أن يلحق المتأخر. وإذا اعتقد هذا قل جزءه وحزنه، لاسيما وقد وزد في موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَأَنْ أَقْدَمَ سَقَطًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَخْلَفَ مِائَةَ فَارِسٍ تُكَلِّمُهُمْ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى، وإلا فالثواب على قدر عمل الولد من القلب وقال زيد بن أسلم: توفي ابن لداود عليه السلام، لحزن عليه حزنا شديدا، فقيل له: ما كان عدله عندك؟ قال ملء الأرض ذهباً. قيل له: فإن لك من الأجر في الآخرة مثل ذلك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَوْلَادِهِ فَيَحْتَسِبُهُمْ إِلَّا كَانُوا لَهُ جَنَّةً مِنَ النَّارِ» فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اثنان؟ قال «أو اثنان»

وليلخص الوالد الدعاء لولده عند الموت، فإنه أرجى دعاء وأقربه إلى الإجابة. ووقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال: اللهم إني أصبحت أرجوك له، وأخافك عليه، فحقق رجائي وآمن خوفي. ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال: اللهم إني قد غفرت له ماوجب له عليه، فاغفر له ماوجب لك عليه، فإنك أجود وأكرم.

ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال: اللهم إني قد وهبت له ماصرفه من برى، فهب له ماصرفه من طاعتك.

ولما مات ذر بن عمر بن ذر، قال أبوه عمر بن ذر بعد ما وضعه في الحدف فقال: يا ذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك، فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك. ثم قال: اللهم إن هذا ذر، متمتع به مامتعتي، ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه. اللهم وقد كنت ألزمت طاعتك وطاعتي، اللهم وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبي فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تعذبه. فأبسكى الناس، ثم قال عند انصرافه: ما علينا بعدك من خصاصة يا ذر.

(١) حديث لأن أقدم سقطاً أحب إلى من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله: لم أجد فيه

ذكر مائة فارس وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة لسقط أقدمه بين يدي أحب إلي من فارس أخلفه خلفي

(٢) حديث لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم - الحديث: تقدم في النكاح

وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة ، فلقد مضينا وتركناك ، ولو أقننا ما نفعناك  
ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال : مارأيت مثل هذه النضارة ، وما ذاك إلا من قلة  
الحزن . فقالت يا عبد الله ، إني لني حزن ما يشركني فيه أحد . قال فكيف ؟ قالت إن زوجي  
ذبح شاة في يوم عيد الأضحى ، وكان لي صبيّان مليحان يلعبان ، فقال أكبرهما للآخر .  
أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة ؟ قال نعم . فأخذه وذبحه ، وما شعرنا به إلا متسخطا  
في دمه . فلما ارتفع الصراخ هرب الفلام فلجأ إلى جبل ، فرهقه ذئب فأكله ، وخرج  
أبوه يطلبه ، فأت عطشا من شدة الحر . قالت فأردني الدهر كما ترى  
فأمثال هذه المصائب ينبغي أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع  
فما من مصيبة إلا ويتصور ما هو أعظم منها ، وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر

## بيان

زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكّر والاعتبار . وزيارة قبور الصالحين مستحبة  
لأجل التبرك مع الاعتبار . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> نهى عن زيارة القبور  
ثم أذن في ذلك بعد : روي عن علي رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> أنه قال  
« كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا فَإِنَّهَا تُدَكِّرُكُمْ بِالْآخِرَةِ غَيْرَ  
أَنْ لَا تَقُولُوا هَجْرًا » . <sup>(٣)</sup> وزار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه في ألف مقنع ، فلم  
يمر بأكثر من يومئذ <sup>(٤)</sup> وفي هذا اليوم قال « أُذِنَ لِي فِي الزِّيَارَةِ دُونَ الْاسْتِغْفَارِ »

- ( ١ ) حديث نبيه عن زيارة القبور ثم أذنه في ذلك : مسلم من حديث بريدة وقد تقدم
- ( ٢ ) حديث علي كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا : رواه  
أحمد وأبو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظ له ولم يقل أحمد وأبو يعلى  
غير أن لا تقولوا هجرا وفيه علي بن زيد بن جدعان عن ربيعة بن النابغة قال البخاري لم يصح  
وربيعة ذكره ابن حبان في الثقات
- ( ٣ ) حديث زار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه في ألف مقنع فلم يمر بأكثر من يومئذ : ابن أبي الدنيا  
في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأحنس متروك ورواه بنحوه  
من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكب وفيه أنه لم يؤذن له في الاستغفار لها
- ( ٤ ) حديث وقال في هذا اليوم أذن لي في الزيارة دون الاستغفار : تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة



كما أوردنا من قبل . وقال <sup>(١)</sup> ابن أبي مليكة : أقبلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر ، فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت من قبر أخي عبد الرحمن . فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها ؟ قالت : نعم ثم أمر بها

ولا ينبغي أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر ، فإنهن يكثرن المعجر على رؤوس المقابر ، فلا يفي خير زيارتهن بشرتها ، ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظامهم ، والزيارة سنة ، فكيف يحتمل ذلك لأجلها ؟ نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها ، وذلك بشرط الإقتصار على الدعاء ، وترك الحديث على رأس القبر . وقال <sup>(٢)</sup> أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زُرِ الْقُبُورَ تَذَكُّرُ بِهَا الْآخِرَةِ وَاغْسِلِ الْمَوْتَى فَإِنَّ مُعَالَجَةَ جَسَدِ خَاوٍ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ وَصَلِّ عَلَى الْجَنَائِزِ لَعَلَّ ذَلِكَ أَنْ يُخْزِيَنَّكَ فَإِنَّ الْحَزِينَ فِي ظِلِّ اللَّهِ »

وقال ابن أبي مليكة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « زُورُوا مَوْتَاكُمْ وَسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ لَكُمْ فِيهِمْ عِبْرَةً »

وعن نافع ، أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام ، فتصلي وتبكي عنده وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « مَنْ زَارَ قَبْرَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدِهِمَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ »

أعلم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة استأذنت ربي أن أستغفر لأبي فلم يأذن لي واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي

( ١ ) حديث ابن أبي مليكة أقبلت عائشة يوما من المقابر فقالت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن قلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها : ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد

( ٢ ) حديث أبي ذر زر القبور تذكروا الآخرة واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة - الحديث : ابن أبي الدنيا في القبور والحام بإسناد جيد

( ٣ ) حديث ابن أبي مليكة زوروا موتاكم وسلّموا عليهم وصلوا عليهم - الحديث : ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلًا وإسناده حسن

( ٤ ) حديث من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا : الطبراني في الصغير والوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن أنعمان برفعه وهو مفضل ومحمد

قُفِرَ لَهُ وَكُتِبَ بِرَّاهُ . وعن ابن سيرين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> : « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَمُوتُ وَالِدَاهُ وَمَوْتُهُمَا قَاتِلُهُمَا فَيَدْعُو اللَّهَ لهُمَا مِنْ بَعْدِهِمَا فَيَكْتُبُهُ اللَّهُ مِنْ آلْبَارِئِينَ » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> : « مَنْ زَارَ قَبْرِي فَقَدْ وَجَّهَتْ لَهُ شَفَاعَتِي » ، وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> : « مَنْ زَارَنِي بِالْمَدِينَةِ مُحْتَسِبًا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا وَشَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وقال كعب الأحبار . ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر ، يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبطوا مثلهم ، فصنعوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقرونه .

والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة ، مستقبلاً بوجهه الميث ، وأن يسلم ، ولا يمسح القبر ، ولا يمسسه ، ولا يقبله ، فإن ذلك من عادة النصارى قال نافع : كان ابن عمر رأته مائة مرة لأوأكثر ، يحيى إلى القبر فيقول : السلام على النبي السلام على أبي بكر . السلام على أبي ، وينصرف . وعن أبي أمامة قال : رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف ، فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة ، فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف . وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> : « مَا مِنْ رَجُلٍ يَزُورُ قَبْرَ أَخِيهِ وَيَجْلِسُ عِنْدَهُ إِلَّا اسْتَأْنَسَ بِهِ وَرَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُومَ » . وقال سليمان بن سعيد : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقلت : يا رسول الله ، هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك ، أتفقه سلامهم ؟ قال نعم وأرد عليهم .

ابن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء البجلي متروك

( ١ ) حديث ابن سيرين أن الرجل لموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارئين : ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الاسناد ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عقبة ابن أبي العزاز عن محمد بن حجاج عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن حجاج

عن قتادة عن أنس . ويحيى بن عقبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف

( ٢ ) حديث من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي : تقدم في أسرار الحج

( ٣ ) حديث من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شافعياً وشهيداً يوم القيامة : تقدم فيه

( ٤ ) حديث عائشة ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده الاستئناس به ورد عليه حتى يقوم : ابن أبي الدنيا

في القبور وفيه عبد الله بن صمان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث

ابن عباس نحوه . وصححه عبد المطلب الأشيلي

وقال أبو هريرة . إذا مرّ الرجل بقبر الرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه  
 وإذا مرّ بقبر لا يعرفه وسلم عليه ، رد عليه السلام  
 وقال رجل من آل عاصم الجحدري : رأيت عاصماً في منامى بعد موته بستين ، فقلت  
 أليس قد مت ؟ قال بلى . فقلت أين أنت ؟ فقال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونقر  
 من أصحابي ، نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله المزني ، فتتلاقى أخباركم .  
 قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيهات بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح . قال قلت  
 فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال نعم نعم بها عشية الجمعة ، ويوم الجمعة كله ، ويوم السبت  
 إلى طلوع الشمس . قلت وكيف ذاك دون الأيام كلها . قال لفضل يوم الجمعة وعظمه  
 وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة ، فقيل له لو أخرت إلى يوم الإثنين . قال بلغني  
 أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ، ويوما قبله ، ويوما بعده  
 . وقال الضحاك : من زار قبراً قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته . قيل  
 وكيف ذاك ، قال لمكان يوم الجمعة

وقال بشر بن منصور . لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة  
 على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال . آنس الله وحشتكم ، ورحم غريبتكم  
 وتجاوز عن سيئاتكم ، وقبل الله حسناتكم . لا يزيد على هذه الكلمات . قال الرجل .  
 فأسميت ذات ليلة ، فأنصرفت إلى أهلي ، ولم آت المقابر فأدعوا كما كنت أدعو ، فبينما  
 أنا نائم ، إذا بخلق كثير قد جاءوني ، فقلت ما أنتم ، وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر  
 قلت ما جاء بكم ، قالوا : إنك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك . قلت وما هي ؟  
 قالوا الدعوات التي كنت تدعو لنا بها . قلت فإني أعود لذلك . فأتركتها بعد ذلك  
 وقال بشار بن غالب النجرائي : رأيت رابعة المدوية العابدة في منامى ، وكنت كثير  
 الدعاء لها ، فقالت لي يا بشار بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور ، خمرة يناديل  
 الحرير قلت : وكيف ذاك ؟ قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذ ادعوا للموتى فاستجيب لهم  
 جعل ذلك الدعاء على أطباق النور ، وخمر يناديل الحرير ، ثم أتني به الميت ، فقيل له هذه

هدية فلان إليك . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَا أَلْمِيتُ فِي قَبْرِهِ إِلَّا كَالْفَرِيقِ  
الْمُتَفَوِّتِ يَنْتَظِرُ دَعْوَةَ تَلْحَقُهُ مِنْ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ أَوْ صَدِيقٍ لَهُ فَإِذَا لَحِقَتْهُ كَانَتْ  
لِحَبِّهِ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَإِنْ هَدَايَا الْأَحْيَاءِ لِلْأَمْوَاتِ الدُّعَاءُ وَالِاسْتِغْفَارُ »  
وقال بعضهم: مات أخ لي، فرأيت في المنام قفلة ما كان حالك حيث وضعت في قبرك؟  
قال أناني آت بشهاب من ناز، فلو أن داعيا دعا لي رأيت أنه سيضر بني به

ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له . قال <sup>(٢)</sup> سعيد بن عبد الله الأزدي :  
شهدت أبا أمانة الباهلي وهو في النزع ، فقال ياسعيد ، إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا  
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَسَوْيَتُمْ عَلَيْهِ التُّرَابَ فَلْيَقُمْ  
أَحَدُكُمْ عَلَى رَأْسِ قَبْرِهِ ثُمَّ يَقُولُ يَا فُلَانُ ابْنَ فُلَانَةَ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ وَلَا يُجِيبُ ثُمَّ لِيَقُلْ  
يَا فُلَانُ ابْنَ فُلَانَةَ الثَّانِيَةَ فَإِنَّهُ يَسْتَوِي قَاعِدًا ثُمَّ لِيَقُلْ يَا فُلَانُ ابْنَ فُلَانَةَ الثَّلَاثَةَ فَإِنَّهُ  
يَقُولُ أَرْشِدْنَا يَرْحَمَكَ اللَّهُ وَلَكِنْ لَا تَسْمَعُونَ فَيَقُولُ لَهُ إِذَا كُرَّ مَا خَرَجْتَ عَلَيْهِ مِنْ  
الدُّنْيَا شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّكَ رَضِيتَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ  
دِينًا وَبِعُمْدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا وَبِالْقُرْآنِ إِمَامًا فَإِنْ مُشْكِرًا وَكَبِيرًا يَتَأَخَّرُ كُلُّ  
وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَيَقُولُ انْطَلِقْ بِنَا مَا يُعِيدُنَا عِنْدَ هَذَا وَقَدْ لَقِّنَ حُجَّتَهُ وَيَكُونُ اللَّهُ عَزَّ  
وَجَلَّ حَاجِبَهُ دُونَهُمَا » فقال رجل يا رسول الله ، فإن لم يعرف اسم أمه ؟ قال فلينسبه إلى حواء  
ولا بأس بقراءة القرآن على القبور . روي عن علي بن موسى الحداق قال : كنت  
مع أحمد بن حنبل في جنازة ، ومحمد بن قدامة الجوهري معنا ، فلما دفن الميت جاء رجل

(١) حديث ما أليت في قبره الا كالفریق المتفوت ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو من أخيه أو صديق له

الحديث : أبو منصور الديلي في مستند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي  
ابن عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل

(٢) حديث سعيد بن عبد الله الأزدي قال شهدت أبا أمانة الباهلي - وهو في النزع فقال ياسعيد اذامت

فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اذامت أحدكم فسويتم عليه التراب

فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة - الحديث : في تلقين الميت في قبره الطبراني

هكذا بإسناد ضعيف

ضريير يقرأ عند القبر، فقال له أحمد: يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد: يا أبا عبد الله، ما تقول في مبشر بن إسماعيل الحلبي؟ قال ثقة. قال هل كتبت عنه شيئاً؟ قال نعم. قال أخبرني مبشر بن إسماعيل، عن عبد الرحمن بن العلاء بن الجلاج، عن أبيه، أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها. وقال: سمعت ابن صمر يوصي بذلك. فقال له أحمد: فارح إلى الرجل فقل له يقرأ. وقال محمد بن أحمد المروزي: سمعت أحمد بن حنبل يقول: إذا دخلتم المقابر فاقرءوا بفاتحة الكتاب، والمعوذتين، وقل هو الله أحد، واجملوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم. وقال أبو قلابة: أقبلت من الشام إلى البصرة، فزلت الخندق، فتطهرت وصليت ركعتين ليل، ثم وضعت رأسي على قبر فنمت، ثم تنبهت، فإذا صاحب القبر يشتكيني يقول: لقد آذيتني منذ الليلة، ثم قال: إنكم لانعمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل. ثم قال: للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها. ثم قال: جزى الله عنا أهل الدنيا خيراً، أفرئهم السلام، فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال

فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها، وللمزور الانتفاع بدعائه، فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت، ولا عن الاعتبار به. وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه، وكيف يبعث من قبره، وأنه على القرب يصلح به، كما روي عن مطرف بن أبي بكر المسذلي قال: كانت عجوز في عبد القيس متعبدة، فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب، وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور، فبلغني أنها عوتبت في كثرة إتيانها المقابر فقالت: إن القلب القاسي إذا جفأ لم يلبثه إلا رسوم البلى، وإنى لآتي القبور فكأنى أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها، وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتغيرة، وإلى تلك الأجسام المتغيرة، وإلى تلك الأجفان الدسمة، فيألفها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنسكل مرارتها للأنفس، وأشد تلقها للآبدان. بل ينبغي أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز، حيث دخل عليه فقيه، فتمعجب من تغير صورته لكثرة الجهد والمبادة، فقال له يا فلان، لو رأيتني

بعد ثلاث وقد أدخلت قبري ، وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين ، وتقلصت الشفتان عن الاسنان ، وخرج الصديد من الفم ، وانفتح الفم ، وتنا البطن فعلا الصدر ، وخرج الصلب من الدبر ، وخرج الدود والصديد من المناخر ، رأيت أعجب مما تراه الآن ويستحب الثناء على الميت ، وألا يذكر إلا بالجميل . قالت عائشة رضي الله عنها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِذَا مَاتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوهُ وَلَا تَقْعُوا فِيهِ » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « لَا تَسْبُوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا » وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « لَا تَذْكُرُوا مَوْتَنَاكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ فَإِنَّهُمْ إِنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَأْتُوا وَإِنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ تَحْسَبُهُمْ مَأْتُهُمْ فِيهِ »

وقال <sup>(٤)</sup> أنس بن مالك : مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأثنوا عليها شراً ، فقال عليه السلام « وَجِبَتْ » ومروا بأخرى ، فأثنوا عليها خيراً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وَجِبَتْ » فسأله عمر عن ذلك فقال « إِنَّ هَذَا أَتَيْنِي عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَهَذَا أَتَيْنِي عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجِبَتْ لَهُ النَّارُ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ » وقال <sup>(٥)</sup> أبو هريرة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنْ أَلْبَدَ كَيْمُوتُ فَيْثِي عَلَيْهِ الْقَوْمُ النَّشَاءُ يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْهُ غَيْرَهُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِمَلَايَكِنِهِ أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ قَبِلْتُ شَهَادَةَ عِبِيدِي عَلَى عِبِيدِي وَبَجَاوَزْتُ عَنْ عَمِي فِي عِبِيدِي »

(١) حديث إدامات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه : أبو داود من حديث عائشة بإسناد جيد

(٢) حديث لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا : البخاري من حديث عائشة أيضا

(٣) حديث لا تذكروا موتاكم إلا بخير - الحديث : ابن أبي الدنيا في الموت هكذا بإسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائي من حديث عائشة جيد مقصرا على ما ذكر منه هنا بلغظ هلككم وذكره بالزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائي والطبراني

(٤) حديث أنس مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشوا عليه الشرا فقال وجبت . الحديث : متفق عليه

(٥) حديث أبي هريرة أن العبد لم يمت فيثني عليه القوم النشاء يعلم الله منه غير غيره ذلك - الحديث : أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عز وجل ما من عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث آيات من جبرانه الأدنين بخير الأقال الله عز وجل قد قبلت شهادة عبيدي على عبيدي على ما علموا وغفرت له ما علموا

## الباب السابع

في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور

## بيان

حقيقة الموت

اعلم أن للناس في حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطؤا فيها . فظن بعضهم أن الموت هو الغدوم ، وأنه لا حشر ولا نشر ، ولا عاقبة للخير والشر ، وأن موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات ، وهذا رأي الملحدين . وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر وظن قوم أنه ينعدم بالموت ، ولا يتألم بعقاب ، ولا يتنعم بشواب مادام في القبر ، إلى أن يعاد في وقت الحشر

وقال آخرون : إن الروح باقية لا تنعدم بالموت ، وإنما الثاب والمغائب هي الأرواح دون الأجساد ، وإن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق . بل الذي تشهد له طرق الاعتبار ونطق به الآيات والأخبار ، أن الموت معناه تنير حال فقط ، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة . ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها ، حتى أنها لتبسط باليد ، وتسمع بالأذن وتبصر بالعين ، وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب . والقلب ههنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ، ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن ، والغم ، والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور ، وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء . فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيشغل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما يحكم به على كل عيد من عباده وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بقصد مزاج يقع فيه ، وبسدة

تفنع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها ، فتكون الروح المائلة ، المارقة ، المدركة ، باقية مستعملة لبعض الأعضاء ، وقد استعصى عليها بعضها والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات ، والروح هي المستعملة لها . وأعني بالروح المعنى الذي يدرك من الإنسان العلوم ، وآلام الغموم ، ولذات الأفراح . ومهما بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ، ولا بطل منها الأفراح والغموم ، ولا بطل منها قبولها للآلام والذات . والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام والذات وذلك لا يموت ، أي لا ينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن ، وخروج البدن عن أن يكون آله له ، كما أن معنى الزمانه خروج اليد عن أن تكون آله مستعملة . فالوقت زمانه مطلقة في الأعضاء كلها . وحقيقة الإنسان نفسه وروحه ، وهي باقية . نعم تغير حاله من جهتين .

إحداها : أنه سلب منه عينه ، وأذنه ، ولسانه ، ويده ، ورجله ، وجميع أعضائه . وسلب منه أهله ، وولده ، وأقاربه ، وسائر معارفه : وسلب منه خيله ، ودوابه وعلمانه ، ودوره ، وعقاره ، وسائر أملاكه . ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان ، وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء ، فإن المؤلم هو الفراق ، والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل ، وتارة بأن يسبي الرجل عن الملك والمال ، والألم واحد في الحالتين . وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزواجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم ، فإن كان له في الدنيا شيء يأنس به ويستريح إليه ، ويمتد بوجوده ، فيعظم تحسره عليه بعد الموت ، ويصعب شقاؤه في مفارقتة ، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله . وجاهه ، وعقاره ، وحتى إلى قميص كان يلبسه مثلاً ويفرح به . وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ، ولم يأنس إلا به ، عظم نعيه ، وتمت سعادته ، إذ خلى بينه وبين محبوبه ، وقطعت عنه الموانق والشواغل ، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله . فهذا لأحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة

والثاني : أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له في الحياة ، كما قد ينكشف للمتيقظ



ما لم يكن مكشوفاً في النوم . والناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته ، وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوى في سر قلبه ، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا . فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله ، فلا ينظر إلى سيئته إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة ، وعند ذلك يقال له ( كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً <sup>(١)</sup> ) وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس ، وقبل الدفن ، وتشتمل فيه نيران الفراق ، أغنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية ، دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة ، فإن من طلب الزاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح بمفارقتها بقية الزاد ، إذ لم يكن يريد الزاد لعيته . وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة ، وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه ، فقد حصل ما كان يوده ، واستغنى عنه

وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة ، تهجم عليه قبل الدفن ، ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب ، وقد يعنى عنه . ويكون حال المتنعم بالدنيا ، المطمئن إليها ، كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك في داره ، وملكه ، وحريره ، اعتماداً على أن الملك يتساهل في أمره ، أو على أن الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبيح أفعاله ، فأخذه الملك بفتة ، وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجنائاته ذرة ذرة ، وخطوة خطوة ، والملك قاهر متسلط ، وغيور على حرمة ، ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه في المصاة عليه . فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف ، والحجلة ، والحياء ، والتحسر ، والندم . فهذا حال الميت الفاجر المفتقر بالدنيا ، المطمئن إليها ، قبل نزول عذاب القبر به ، بل عند موته نعوذ بالله منه ، فإن الخزي والافتضاح وهتك السترا عظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع ، وغيرها . فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت : شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين . ونشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة . نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت ، إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ، ومعرفة الحياة بمعرفة

حقيقة الروح في نفسها ، وإدراك ماهية ذاتها <sup>(١)</sup> ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فيها ، ولا أن يزيد على أن يقول : الروح من أمر ربي ، فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه ، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة أما الآيات : فما ورد في الشهداء ، إذ قال تعالى ( وَلَا تَحْصِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ <sup>(٢)</sup> ) ولما <sup>(٣)</sup> قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يَا فُلَانُ يَا فُلَانُ قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا » فقبل يارسول الله أتناديهم وهم أموات ! فقال صلى الله عليه وسلم « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ لَا تَسْمَعُ لِهَذَا الْبِكَلَامِ مِنْكُمْ إِلَّا أَنْهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْجَوَابِ » فهذا نص في بقاء روح الشقي ، وبقاء إدراكها ومعرفتها والآية نص في أرواح الشهداء ؛ ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة .

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « الْقَبْرُ إمَّا حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّارِ أَوْ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ » وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير جال فقط ، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتمجل عند الموت من غير تأخر ، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله .

وروى <sup>(٥)</sup> أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أَلَمُوتُ الْقِيَامَةُ فَنَ ماتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ »

#### ﴿ الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر ﴾

(١) حديث أنه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أن يتكلم في الروح : متفق عليه من حديث

ابن مسعود في سؤال اليهود له عن الروح ويؤول قوله تعالى ويستأونك عن الروح وقد تقدم

(٢) حديث نداءه من قتل من صناديد قريش يوم بدر يافلان قد وجدت ما وعدني ربي حقا - الحديث ؛

مسلم من حديث عمر بن الخطاب .

(٣) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة : الترمذي من حديث أبي سعيد

وقد تقدم في الرجاء والخوف

(٤) حديث أنس الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته : ابن أبي الدنيا في الموت لاستاد ضعيف وقد تقدم

(٥) آل عمران : ١٦٩

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عَرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ النَّارِ وَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى تُبْعَثَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم في الحال وعن أبي قيس قال كنا مع علقمة في جنازة ، فقال : أما هذا فقد قامت قيامته وقال علي كرم الله وجهه : حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار

وقال <sup>(٢)</sup> أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ مَاتَ غُرْبًا مَاتَ شَهِيدًا وَوُفِّيَ فَنَانَاتِ الْقَبْرِ وَغُدِي وَرِيحٌ عَلَيْهِ بِرِزْقِهِ مِنَ الْجَنَّةِ » وقال مسروق : ما غبطت أحدا ما غبطت مؤمنا في اللحد ، قد استراح من نصب الدنيا ، وأمن عذاب الله

وقال يعلى بن الوليد : كنت أمشي يوما مع أبي الدرداء ، فقلت له . ما تحب لمن تحب ؟ قال الموت . قلت فإن لم يميت ! قال يقلّ ماله وولده . وإنما أحب الموت لأنه لا يحبه إلا المؤمن والموت إطلاق المؤمن من السجن . وإنما أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للأنس بالدنيا ، والأنس بمن لا بدّ من فراقه غاية الشقاء ، فكل ما سوى الله ، وذكره ، والأنس به فلا بدّ من فراقه عند الموت لاخلاله . ولهذا قال عبد الله بن عمرو : إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه ، فهو يتفصح في الأرض ويتقلب فيها . وهذا الذي ذكره جال من تجافى عن الدنيا وتبرّم بها ، ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى ، وكانت شواغل الدنيا تجبسه عن محبوبه ، ومقاساة الشهوات تؤذيه ، فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات ، وانفراده بمحبوبه الذي كان به أنسه من غير عائق ولا دافع ، وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات

( ١ ) حديث إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالعمى والعشى - الحديث : متفق عليه من حديث ابن عمر  
( ٢ ) حديث أبي هريرة من مات غريبا مات شهيدا ووفى فنانا القبر ولين ما به يمنه ضيق وقال لنتا  
للغير وقال ابن أبي الدنيا فنان

وَأَكَلِ الذَّاتَ لِلشَّهَدَاءِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَأَنَّهُمْ مَا أَقْدَمُوا عَلَى الْقِتَالِ إِلَّا قَاطِعِينَ  
التَّفَاتِهِمْ مِنْ عِلَاقِ الدُّنْيَا، مُشْتَاقِينَ إِلَى لِقَاءِ اللَّهِ . رَاضِينَ بِالْقِتْلِ فِي طَلَبِ مَرْضَاتِهِ . فَإِنْ  
نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا فَقَدْ بَاعَهَا طَوْعًا بِالْآخِرَةِ ، وَالبَائِعُ لَا يَلْتَفِتُ قَلْبُهُ إِلَى الْمَبِيعِ . وَإِنْ نَظَرَ إِلَى  
الْآخِرَةِ فَقَدْ اشْتَرَاهَا وَتَشَوَّقَ إِلَيْهَا ، فَمَا أَعْظَمَ فَرْحَهُ بِمَا اشْتَرَاهُ إِذَا رَآه ، وَمَا أَقْلَ التَّفَاتِ  
إِلَى مَا بَاعَهُ إِذَا فَارَقَهُ . وَتَجَرَّدَ الْقَلْبُ لِحُبِّ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ يَتَّفِقُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ ، وَلَكِنْ  
لَا يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ عَلَيْهِ فَيَتَغَيَّرُ ، وَالْقِتَالُ سَبَبٌ لِلْمَوْتِ ، فَكَانَ سَبَبًا لِإِدْرَاكِ الْمَوْتِ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ  
فَلِهَذَا عَظِمَ النِّعَمُ ، إِذْ مَعْنَى النِّعَمِ أَنْ يَنَالَ الْإِنْسَانُ مَا يَرِيدُهُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ( وَلَهُمْ مَا  
يَشْتَهُونَ <sup>(١)</sup> ) فَكَانَ هَذَا أَجْمَعَ عِبَارَةً لِمَعْنَى لَذَاتِ الْجَنَّةِ

وَأَعْظَمَ الْمَذَابَ أَنْ يَنْعَمَ الْإِنْسَانُ عَنْ مَرَادِهِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ( وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ  
مَا يَشْتَهُونَ <sup>(٢)</sup> ) فَكَانَ هَذَا أَجْمَعَ عِبَارَةً لِعُقُوبَاتِ أَهْلِ جَهَنَّمَ

وَهَذَا النِّعَمُ يَدْرِكُهُ الشَّهِيدُ كَمَا انْقَطَعَ نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ تَأْخِيرٍ ، وَهَذَا أَمْرٌ أَنْكَشَفَ لِأَرْبَابِ  
الْقُلُوبِ بِنُورِ الْيَقِينِ ، وَإِنْ أُرِدْتَ عَلَيْهِ شَهَادَةً مِنْ جِهَةِ السَّمْعِ فَجَمِيعُ أَحَادِيثِ الشَّهَدَاءِ تَدُلُّ  
عَلَيْهِ ، وَكُلُّ حَدِيثٍ يَشْتَمِلُ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْ مَنْتَهَى نِعِيمِهِمْ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى : فَقَدْ رَوَى عَنْ  
عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِجَابِرٍ « أَلَا أُبَشِّرُكَ  
بِكَجَابِرٍ » وَكَانَ قَدْ اسْتَشْهَدَ أَبُوهُ يَوْمَ أَحَدٍ ، فَقَالَ بَلَى بِشَرِّكَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ . فَقَالَ « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ  
وَجَلَّ قَدْ أَحْيَا أَبَاكَ وَأَقْعَدَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ تَمَنَّ عَلَى عَبْدِي مَا شِئْتَ أُعْطِيكَهُ » فَقَالَ  
يَا رَبِّ مَا عَبْدُكَ حَقٌّ عِبَادَتِكَ أُنَعِّى عَلَيْكَ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأُقَاتِلَ مَعَ نَبِيِّكَ  
فَأُقَاتَلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى قَالَ لَهُ إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنْتَ إِلَيْهَا لَا تَرْجِعْ <sup>(١)</sup>

وَقَالَ كُفَّ : يَوْجَدُ رَجُلٌ فِي الْجَنَّةِ يَبْكِي ، فَيُقَالُ لَهُ لِمَ تَبْكِي وَأَنْتَ فِي الْجَنَّةِ ؟ قَالَ أَبْيَى  
لَأَنِّي لَمْ أَقْتُلْ فِي اللَّهِ إِلَّا قَتْلَةً وَاحِدَةً ، فَكُنْتُ أُمْتَهِي أَنْ أُرَدَّ فَأُقَاتَلَ فِيهِ قَتْلَاتٌ

(١) حديث عائشة ألا أبشرك يا جابر - الحديث : وفيه ان الله أحيا أباك فأقعدته بين يديه - الحديث :  
ابن أبي الدنيا في اللوت بأسناد فيه ضعف وللترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث جابر  
ألا أبشرك بالقي الله به أباك قال بلى يا رسول الله - الحديث : وفيه فقال يا عبدي تمن على  
نعمتك قال يا رب تهيئني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه انه سبق مني انهم لا يرجعون

واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق ، ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكفاف ، لا يبلغ طرفه أفصاه ، فيه أنواع الأشجار ، والأزهار ، والثمار ، والطيور ، فلا يشتهي العود إلى السجن المظلم . وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً <sup>(١)</sup> فقال لرجل مات « أَصْبَحَ هَذَا مَرْتَحِلاً عَنِ الدُّنْيَا وَتَرَكَهَا لِأَهْلِهَا فَإِنْ كَانَ قَدْ رَضِيَ فَلَا يَسْرُهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا كَمَا لَا يَسْرُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى بَطْنِ أُمِّهِ » فعرّفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا ، كنسبة سعة الدنيا إلى ظامة الرحم

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنْ مَثَلَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَطْنِهَا بَكَى عَلَى مَخْرَجِهِ حَتَّى إِذَا رَأَى الضُّوءَ وَوُضِعَ لَمْ يُحِبَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَكَانِهِ » وكذلك المؤمن يجزع من الموت ، فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا ، كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن فلانا قد مات . فقال <sup>(٣)</sup> «مُسْتَرِيحٌ أَوْ مُسْتَرَاخٌ مِنْهُ » أشار بالمستريح إلى المؤمن ، وبالمستراخ منه إلى الفاجر ، إذ يستريح أهل الدنيا منه وقال أبو عمر صاحب السقيا مرّ بنا ابن عمر ونحن صبيان ، فنظر إلى قبر ، فإذا جمجمة بادية ، فأمر رجلاً فواراها ثم قال : إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئاً ، وإنما الأرواح التي تعاقب وتتاب إلى يوم القيامة

( ١ ) حديث قال لرجل مات أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قدرضي فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كالأيسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه : ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسل ورجاله ثقات

( ٢ ) حديث إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه : ابن أبي الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر ابن غاتم السلفي عن سليم بن عامر الجنائري مرسل هكذا

( ٣ ) حديث قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلانا قد مات فقال مستريح أو مستراخ منه : متفق عليه من حديث أبي قتادة بلفظ مرسله يخارفة فقال ذلك وهو عند ابن أبي الدنيا في الموت باللفظ الذي أورده للسنن

وعنه عمرو بن دينار قال : ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده ،  
وانهم ليغسلونه ويكفونونه ، وإنه لينظر إليهم

وقال مالك بن أنس : بلغني أن أرواح المؤمنين مرسله تذهب حيث شاءت

وقال (١) النعمان بن بشير : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول  
« **الْأَيُّهَا لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مِثْلُ الذُّبَابِ يَمُورُ فِي جَوْهَا فَاللَّهُ اللَّهُ فِي إِخْوَانِكُمْ**  
**مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ فَإِنْ أَعْمَالَكُمْ تُعَرِّضُ عَلَيْهِمْ** »

وقال (٢) أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « **لَا تَفْضَحُوا مَوْتَاكُمْ بِسَيِّئَاتِ**  
**أَعْمَالِكُمْ فَإِنَّهَا تُعَرِّضُ عَلَى أَوْلِيَائِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ** »

ولذلك قال أبو الدرداء : اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملا أخزي به عند عبد الله  
ابن رواحة ، وكانت قد مات ، وهو خاله

وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي ؟ قال : في  
حواصل طير يبيض في ظل العرش ، وأرواح الكافرين في الأرض السابعة

وقال (٣) أبو سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « **إِنْ لَمْ يَلَيْتَ**  
**يَعْرِفُ مَنْ يُسَلِّهُ وَمَنْ يُحْمِلُهُ وَمَنْ يُدْلِيهِ فِي قَبْرِهِ** »

وقال صالح المري : بلغني أن الأرواح تتلاقى عند الموت ، فتقول أرواح الموتى للروح

( ١ ) حديث النعمان بن بشير أنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور في جوفها فالله الله في إخوانكم من أهل  
القبور فإن أعمالكم تعرض عليهم : ابن أبي الدنيا وأبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدى  
عن النعمان من قوله الله الله ورواه بكاه الأزدى في الضعفاء وقال لا يصح إسناده وذكره  
ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكاه في ترجمة أبي إسماعيل السكوني رواية عن مالك بن أدى  
ونقل عن أبيه أن كلامهم مجهول قال الأزدى لا يصح إسناده وذكر ابن جبان في الثقات مالك بن أدى  
( ٢ ) حديث أبي هريرة لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور :  
ابن أبي الدنيا والحايمي بإسناد ضعيف ولا تجد من رواية من سمع أنسا عن أنس أن أعمالكم  
تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات - الحديث ؟

( ٣ ) حديث أبي سعيد الخدري أن الميت يعرف من يسله ومن يحمله وعن بدلي في قبره : رواه أحمد من رواية  
رجل عنه اسمه معاوية لثيان معاوية نسيه عبد الملك بن حسن

التي تخرج إليهم . كيف كان ماواك ؟ وفي أي الجسد كنت ؟ في طيب أو خبيث ؟  
وقال عبيد بن عمير . أهل القبور يترقبون الأخبار ، فإذا أتاهم الميت قالوا ما فعل فلان  
فيقول ألم يأتكم أو ما قدم عليكم ؟ فيقولون : إنا لله وإنا إليه راجعون ، سلك به غير سبيلنا  
وعن جعفر بن سميد قال : إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب  
وقال مجاهد : إن الرجل ليبشر بصلاح ولده في قبره

وروى <sup>(١)</sup> أبو أيوب الأنصاري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِنَّ نَفْسَ  
الْمُؤْمِنِ إِذَا قُبِضَتْ تَلْقَاهَا أَهْلُ الرَّحْمَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كَمَا يُتَلَقَّى الْبَشِيرُ فِي الدُّنْيَا  
يَقُولُونَ أَنْظِرُوا أَخَاكُمْ حَتَّى يَسْتَرْجِحَ فَإِنَّهُ كَانَ فِي كَرْبٍ شَدِيدٍ فَيَسْأَلُونَهُ  
مَاذَا فَعَلَ فَلَانٌ وَمَاذَا فَعَلَتْ فَلَانَةٌ وَهَلْ تَزَوَّجَتْ فَلَانَةٌ فَإِذَا سَأَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ مَاتَ  
قَبْلَهُ وَقَالَ مَاتَ قَبْلِي قَالُوا إِنْ لَكَ اللَّهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَلَاوِيَةِ »

## بيان

### كلام القبر للميت

وكلام الموتي إما بلسان المقال ، أو بلسان الحال التي هي أفصح في تفهيم الموتي من  
لسان المقال في تفهيم الأحياء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « يَقُولُ الْقَبْرُ لِلْمَيِّتِ  
حِينَ يُوضَعُ فِيهِ وَيَحْكُ يَا ابْنَ آدَمَ مَا غَرَّكَ بِي أَلَمْ تَعْلَمْ أَنِّي يَنْتُ الْفِتْنَةُ وَيَنْتُ

(١) حديث أبي أيوب أن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يلتقي البشير بقولون  
انظروا أخاكم حتى يستريح : ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في مسند الشاميين بإسناد  
ضعيف ورواه ابن المبارك في الزهد موقوفا على أبي أيوب بإسناد جيد ورفع ابن صاعد في زوائد  
على الزهد وفيه سلام الطويل ضعيف وهو عند النسائي وابن حبان نحوه من حديث  
أبي هريرة بإسناد جيد

(٢) حديث يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك بي ألم تعلم أنني كنت  
ابن أبي الدنيا في كتاب القبور والطبراني في مسند الشاميين وإبواحمد الحاكم في الكنى من حديث  
أبي الجراح التلم بإسناد ضعيف

لِلظِّلَةِ وَرَبَّتِ الْوَحْدَةَ وَبَيَّتِ الدُّرْدُ مَا غَرَّكَ بِي إِذْ كُنْتَ تَعْرِى بِي فَذَاذَا فَإِنْ كَانَ  
مُعْجِلًا أَجَابَ عَنْهُ مُجِيبُ الْقَبْرِ فَيَقُولُ أَرَأَيْتَ أَنْ كَانَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ  
وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَقُولُ الْقَبْرُ إِنَّ إِذَا اتَّخَوَّلَ عَلَيْهِ خَضِرًا وَيَعُودُ جَسَدُهُ نُورًا وَتَصْعَدُ  
رُوحُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى » والنَّذَاذ هو الذي يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، هكذا فسرهُ الراوى

وقال عبيد بن حمير الليثي : ليس من ميت يموت إلا نادته حفرة التي يدفن  
فيها . أنا بيت الظلّة والوحدة والانفراد ، فإن كنت في حياتك لله مطيعا كنت  
عليك اليوم رحمة ، وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نقمة . أنا الذى من دخلنى  
مطيعا خرج مسرورا ، ومن دخلنى عاصيا خرج مشبورا

وقال محمد بن صبيح : بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فعذب ، أو أصابه  
بعض ما يكره ، ناداه جيرانه من الموتى : أيها المتخلف في الدنيا بعد إخوانه  
وجيرانه ، أما كان لك فينا معتبر ؟ أما كان لك في متقدمنا إياك فكرة ؟ أما رأيت  
انقطاع أوصالنا عنا وأنت في المهلة ؟ فهلا استدركت ما فات إخوانك ! وتناديه بقاع  
الأرض . أيها المقتر بظاهر الدنيا ، هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك في بطن الأرض  
ممن غرته الدنيا قبلك ، ثم سبق به أجله إلى القبور ، وأنت تراه محمولا تهاداه أحبه  
إلى المنزل الذى لا بد له منه

وقال يزيد الرقاشي : بلغنى أن الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ؛ ثم أنطقها الله  
فقلت : أيها العبد المنفرد في حفرة ، انقطع عنك الأخلاء والأهلون ، فلا أنيس لك اليوم عندنا  
وقال كعب : إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة ، الصلاة ، والصيام  
والحج ، والجهاد ، والصدقة ، قال فتجىء ملائكة المذاب من قبل رجله ، فتقول الصلاة ؛  
إليك من فلا سبيل لكم عليه ، فقد أطال بى القيام لله عليهما . فيأتونه من قبل رأسه ،  
فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه ، فقد أطال ظمأه لله في دار الدنيا ، فلا سبيل لكم عليه ،  
فيأتونه من قبل جسده ، فيقول الحج والجهاد : إياكم منه ، فقد أنصب قسوتكم بغيره



وحج واجاهد لله ، فلا سبيل لكم عليه ، قال فيأتونه من قبل يديه ، فتقول الصدقة : كفوا عن صاحبي ، فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه ، فلا سبيل لكم عليه

قال فيقال له : هنيئا طبت حيا وطبت ميتا . قال وتأتيه ملائكة الرحمة ، فتفرش له فراشا من الجنة : ودثارا من الجنة ، ويفسح له في قبره مد بصره ، ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره

وقال (١) عبد الله بن عبيد بن عمير في جنازة . بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إِنَّ أَلَمِيَّتَ يَقْعُدُ وَهُوَ يَسْمَعُ خَطْوَ مُشِيْعِيهِ فَلَا يُكَلِّمُهُ شَيْءٌ إِلَّا قَبْرُهُ يَقُولُ وَيَحْكُ ابْنُ آدَمَ أَلَيْسَ قَدْ حَذَرْتَنِي وَحَذَرْتَ صَنِيقِي وَنَنِي وَهُوَ لِي وَدُوْدِي فَمَاذَا أَعْدَدْتَ لِي ؟»

( ١ ) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أليت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم - الحديث : ابن أبي الدنيا في القبور هكذا مرسلأورجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلغني ولم يرفعه .



كتاب الشعب

# إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء السادس عشر

دار الشعب  
٩٠ شارع صومرية، الكويت ٢١٨٤



## بيان

عذاب القبر وسؤال منكر ونكير

قال <sup>(١)</sup> البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ، ثم قال « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ « إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي قَبْرِ مِنْ الْآخِرَةِ بَعَثَ اللَّهُ مَلَائِكَةً كَانَتْ وَجُوهُهُمُ الشَّمْسُ مَعَهُمْ حُنُوطُهُ وَكَفَنُهُ فَيَجْلِسُونَ مَدَّةَ بَصَرِهِ فَإِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَلَيْسَ مِنْهَا بَابٌ إِلَّا بِحَبٍّ أَنْ يَدْخُلَ بِرُوحِهِ مِنْهُ فَإِذَا صُيِدَ بِرُوحِهِ قِيلَ أَيُّ رَبِّ عَبْدُكَ فَلَانَ فَيَقُولُ أَرْجِعُوهُ فَأَرْوَهُ مَا أَعَدَدْتُ لَهُ مِنْ الْكَرَامَةِ فَأَنَّى وَعَدْتُهُ ( مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ) <sup>(٢)</sup> الْآيَةُ . وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفَقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَوْ أُمْدِيرِينَ حَتَّى يُقَالَ يَا هَذَا مِنْ رَبِّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ ؟ فَيَقُولُ رَبِّي اللَّهُ وَدِينِي الْإِسْلَامُ وَنَبِيِّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ فَيَنْتَهَرَانِهِ انْتِهَارًا شَدِيدًا وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعَرَّضُ عَلَى الْإِثْمِ فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ نَادَى مُنَادٍ أَنْ قَدْ صَدَقْتَ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى ( يُشَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ <sup>(٣)</sup> ) الْآيَةُ ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الْوَجْهِ طَيِّبُ الرَّيْحِ حَسَنُ الثِّيَابِ فَيَقُولُ أَبَشِّرْ بِرَحْمَةِ رَبِّكَ وَجَنَاتٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ فَيَقُولُ وَأَنْتَ قَبَشْرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ مِنْ أَنْتَ ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ وَاللَّهُ مَاعِلَمْتُ أَنْ كُنْتُ أَسْرِيًا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ يَطِيئُ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا قَالَ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ أَنْ أَفْرِشُوا لَهُ مِنْ فَرَشِ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ فَيُفْرَشُ لَهُ مِنْ فَرَشِ الْجَنَّةِ وَيُفْتَحُ

( ١ ) حديث البراء خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال اللهم اني أعوذ بك من عذاب القبر - الحديث: بطوله أبو داود والحاكم بكامله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا

لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ فَيَقُولُ اللَّهُمَّ عَجِّلْ فَيَأْتِي السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي قَالَ وَأَمَّا  
الْكَافِرُ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ فِي قُبُلٍ مِنَ الْأَخْيَرَةِ وَانْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا نَزَلَتْ إِلَيْهِ مَلَائِكَةُ  
هَلَاكِهِ شِدَادًا مَعَهُمْ يَبْأَبُ مِنْ نَارٍ وَتَرَايِلُ مِنْ قَطِيرَانٍ فَيَحْتَوِ شَوْنَهُ فَإِذَا خَرَجَتْ نَفْسُهُ  
لَعَنَهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ وَغُلِقَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ فَلَيْسَ  
مِنْهَا بَابٌ إِلَّا بِسُكْرِهِ أَنْ يَدْخُلَ بِرُوحِهِ مِنْهُ فَإِذَا صُعِدَ بِرُوحِهِ يُبْذَلُ وَيَلِ أَيُّ رَبٍّ  
قَبْلُكَ فَلَنْ لَمْ تَقْبَلْهُ سَمَاءٌ وَلَا أَرْضٌ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْجِعْهُ فَأَرُوهُ مَا أَعَدَدْتُ لَهُ  
مِنَ الشَّرِّ إِنِّي وَعَدْتُهِ (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ<sup>(١)</sup>) الْآيَةُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خُفْقَ  
لِجَالِحِهِمْ إِذَا وَلُوا مُدْبِرِينَ حَتَّى يُقَالَ لَهُ يَا هَذَا مَنْ رَبُّكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ وَمَا دِينُكَ؟  
فَيَقُولُ لَا أَدْرِي فَيَقَالَ لِأَدْرِبَتْ ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ مُشْتَنُّ الرَّيْحِ قَبِيحُ الشَّابِ  
فَيَقُولُ أَبَشِّرْ بِسَخَطِ مِنَ اللَّهِ وَبِعَذَابِ أَلِيمٍ مُقِيمٍ فَيَقُولُ بِشَرِّكَ اللَّهُ بِشَرٍّ مِنْ أَنْتَ؟  
فَيَقُولُ أَنَا تَمَلَّكَ الْخَبِيثُ وَاللَّهُ إِنْ كُنْتَ لَسَرِيمًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ بِطِيشًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ  
لَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا فَيَقُولُ وَأَنْتَ فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا ثُمَّ يَقْبِضُ لَهُ أَصَمُّ أَعْمَى أَبْكَمٌ مَعَهُ  
مِرْزَبَةٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا الثَّقَلَانِ عَلَى أَنْ يُقْلِعُوهَا لَمْ يَسْتَطِيعُوا لَوْ ضُرِبَ  
بِهَا جَبَلٌ صَارَ تُرَابًا فَيَضْرِبُ بِهَا ضَرْبَةً فَيَصِيرُ تُرَابًا ثُمَّ تَعُودُ فِيهِ الرُّوحُ فَيَضْرِبُ بِهَا  
بَيْنَ عَيْنَيْهِ ضَرْبَةً بِسَمِّهَا مِنْ عَلَى الْأَرْضَيْنِ لَيْسَ الثَّقَلَيْنِ قَالَ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ أَنْ افْرِشُوا  
لَهُ لَوْحَيْنِ مِنْ نَارٍ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ فَيُفَرِّشُ لَهُ لَوْحَانِ مِنْ نَارٍ وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ  
إِلَى النَّارِ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ : مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ إِلَّا مَثَلُ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ أَعْمَالُهُ

الحسنة وأعماله السيئة . قال فيشخص إلى حسناته ويطرق عن سيئاته

وقال<sup>(١)</sup> أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا اخْتَضَرَ  
أَتَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِحَرِيرَةٍ فِيهَا مِسْكٌ وَضَبَائِرُ الرِّيحَانِ قَتَلُ رُوحُهُ كَمَا تُسَلُّ

(١) حديث أبي هريرة أن المؤمن إذا حضرته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبابير الريحان . الحديث :

ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبخاري بلفظه المصنف

الشَّعْرَةُ مِنَ الْهَجِينِ وَيُقَالُ أَيْتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَخْرَجِي رَاضِيَةً وَمَرْضِيًّا عَنْكَ إِلَى رُوحِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ فَإِذَا أُخْرِجَتْ رُوحُهُ وَضِعَتْ عَلَى ذَلِكَ الْمَلِكِ وَالرَّيْحَانِ وَطُوبِتْ عَلَيْهَا الْحَرِيرَةُ وَبُعِثَ بِهَا إِلَى عِلِّيِّينَ وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا اخْتُصِرَ أَتَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِمَسْجٍ فِيهِ جَهَنَّمَةُ فَتُزَعَمُ رُوحُهُ انْتِزَاعًا شَدِيدًا وَيُقَالُ أَيْتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ أَخْرَجِي سَاخِطَةً وَمَسْخُوطًا عَلَيْكَ إِلَى هَوَانِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ فَإِذَا أُخْرِجَتْ رُوحُهُ وَضِعَتْ عَلَى تِلْكَ الْجَمْرَةِ وَإِنَّ لَهَا نَشِيشًا وَبُطْوَى عَلَيْهَا الْمَسْحُ وَيَذْهَبُ بِهَا إِلَى سِجِّينَ ۝

وعن محمد بن كعب القرظي ، أنه كان يقرأ قوله تعالى ( حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ <sup>(١)</sup> ) قال أي شيء تريد؟ في أي شيء ترغب؟ أتريد أن ترجع لتجمع المال ، وتفرس الفراس ، وتبنى البنين ، وتشقق الأنهار؟ قال لا لعلِّي أعمل صالحا فيما تركت . قال فيقول الجبار . كلا ، إنها كلمة هو قائلها ، أي ليقولها عند الموت . وقال <sup>(٢)</sup> أبو هريرة . قال النبي صلى الله عليه وسلم « الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ فِي رَوْضَةٍ خَضِرَاءَ وَيُرْحَبُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَيُضَيُّ حَتَّى يَكُونَ كَالْقَمَرِ نَيْلَةَ الْبَدْرِ هَلْ تَذَرُونَ فِيمَاذَا أُتْرِلَتْ ( فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا <sup>(٣)</sup> ) » قالوا الله ورسوله أعلم قال « عَذَابُ الْكَافِرِ فِي قَبْرِهِ يُسَلَّطُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تَنِينًا هَلْ تَذَرُونَ مَا لِلتَّيْنِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ حَبَّةً لِكُلِّ حَبَّةٍ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ يَخْدِشُونَهُ وَيَلْحَسُونَهُ وَيَنْفُخُونَ فِي جِسْمِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝

ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص ، فإن أعداد هذه الحيات والمقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر ، والرياء ، والحسد ، والغل ، والحق ، وسائر الصفات ، فإن لها أصولا معدودة ، ثم تنشعب منها فروع معدودة ، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام . وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات ، وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات ، فالقوي منها يلدغ لدغ التين ، والضعيف يلدغ لدغ العقرب ، وما بينهما يؤذي إنداء الحية . وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات والنشعب فروعها ، إلا أن مقدار

(١) حديث أبي هريرة المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا الحديث: ورواه ابن حبان

(٢) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ طه : ١٢٤

هددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة . فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة ، وأسرار خفية ، ولكنها عند أرباب البصائر واضحة . فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها . بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم

فإن قلت : فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ، ولا نشاهد شيئا من ذلك ، فواجه التصديق على خلاف المشاهدة ؟

فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا :

أحدها : وهو الأظهر والأصح والأسلم ، أن تصدق بأنها موجودة ، وهي تلدغ الميت ، ولكنك لا تشاهد ذلك ، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور المملوكة ، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم المملوكات . أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل ، وما كانوا يشاهدونه ، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده ؟ فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أم عليك . وإن كنت آمنت به ، وجوزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة ، فكيف لا يجوز هذا في الميت ؟ وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات ، فالحيات والمقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حياتنا ، بل هي جنس آخر ، وتترك بحاسة أخرى

المقام الثاني : أن تتذكر أمر النائم ، وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه ، وهو يتألم بذلك ، معنى تراه يصبح في نومه ، ويرق جبينه ، وقد يزعج من مكانه . كل ذلك يدركه من نفسه ، ويتأذى به كما يتأذى البقطان ، وهو يشاهده ، وأنت ترى ظاهره ساكنا ، ولا ترى حواليه حية ، والحية موجودة في حقه ، والعذاب حاصل ، ولكنه في حقه غير مشاهد . وإذا كان العذاب في ألم اللدغ ، فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد

المقام الثالث : أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم ، بل الذي يلقاك منها وهو السم . ثم السم ليس هو الألم ، بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم . فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفر ، وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يقضي إليه في المادة . فإنه لو خلق في الإنسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع ، لم يمكن تعريفها إلا بالإضافة إليه ، لتكون بالإضافة للتعريف بالسبب ،



وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب : والسبب يراد لثمرته لآلذاته ، وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت ، فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات . وانقلاب الصفة مؤذية بضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت المعشوق ، فإنه كان لذيذا فطرات حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلما ، حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يمتنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال . بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت ، فإنه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه ، فصار يعشق ماله ، وعقاره ، وجاهه ، وولده ، وأقاربه ، ومعارفه ، ولوا أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فإذا ترى يكون حاله ؟ أليس يعظم شقاؤه ، ويشد عذابه ، ويتمنى ويقول ليت لم يكن لى مال قط . ولا جاه قط ، فكنت لأتأذى بفراقه ؟ فالوت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعه واحدة

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا ، فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ، ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسره على مفاته من نعيم الآخرة ، والحجاب عن الله عز وجل ، فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به ، فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته ، وحسرتة على مفاته من نعيم الآخرة أبد الآباد ، وذل الرد والحجاب عن الله تعالى ، وذلك هو العذاب الذى يمدب به ، إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم ، كما قال تعالى ( كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ <sup>(١)</sup> )

وأما من لم يأنس بالدنيا ، ولم يحب إلا الله ، وكان مشتاقا إلى لقاء الله ، فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاسات الشهوات فيها ، وقدم على محبوه ، وانقطعت عنه العوائق والصوارف ، وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد ، ومثل ذلك فليعمل العاملون والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب ، آثر الصبر على لدغ العقرب . فإذا ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ العقرب ، وجبه للفرس هو الذى يلدغه إذا أخذ منه فرسه ، فليستمد لهذه اللدغات ، فإن الموت يأخذ

منه قومه ، ومركبه ، وداره ، وعقاره ، وأهله ، وولده ، وأحبابه ، ومعارفه ، ويأخذ منه  
جانه وقبوله ، بل يأخذ منه سمعه ، وبصره ، وأعضاءه ، ويأس من رجوع جميع ذلك إليه .  
فإذا لم يجب سواه ، وقد أخذ جميع ذلك منه ، فذلك أعظم عليه من العقارب والحيات .  
وكما لو أخذ ذلك منه وهو حي فيمظم عقابه ، فكذلك إذا مات ، لأننا قد بينا أن المعنى الذى  
هو المدرك للآلام واللذات لم يمت ، بل عذابه بعد الموت أشد ، لأنه فى الحياة يتسلى بأسباب  
يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ، ويتسلى برجاء العود إليه ، ويتسلى برجاء العوض  
منه ، ولاسلوة بعد الموت ، إذ قد انسد عليه طرق التسلى ، وحصل اليأس ، فإذا كل قيص  
له ومنديل قد أحبه بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفا عليه ، ومعذبا به . فإن  
كان مخفا فى الدنيا سلم ، وهو المعنى بقولهم نجا الخفون . وإن كان مثقلا عذابه  
وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير ، فكذلك  
حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين . وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup>  
« صَاحِبُ الدَّرْهِمِ أَخَفُّ حِسَابًا مِنْ صَاحِبِ الدَّرْهِمَيْنِ » وما من شيء من الدنيا يتخلف  
هناك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت ، فإن شئت فاستكثر ، وإن شئت فاستقل .  
فإن استكثر فاستكثر ، وإن استكثر إلا من الحسرة ، وإن استقلت فاستقلت إلا عن  
ظهورك . وإنما تكثر الحيات والعقارب فى قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا  
على الآخرة ، وفرحوا بها ، واطمأنوا إليها

فهذه مقامات الإيمان فى حيات القبر وعقابه ، وفى سائر أنواع عذابه  
رأى أبو سعيد الخدرى ابنا له قدماء فى المنام ، فقال له يابني عظمي . قال لا تخالف  
الله تعالى فيما يريد . قال يابني زدنى قال يابنت لا تطيق . قال قل ، قال لا تجعل بينك وبين الله  
قيصا . فقال بس قيصا ثلاثين سنة

فإن قلت : فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث ؟ فاعلم أن فى الناس من لم يثبت إلا الأول  
وأنكر ما بعده . ومنهم من أنكر الأول وأثبت الثانى . ومنهم من لم يثبت إلا الثالث .  
وإنما الحق الذى انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك فى حيز الإمكان ، وأن من ينكر

( ١ ) حديث صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين ؛ لم أجده له أصلا

بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله بانساع قدرة الله سبحانه ومجائب تديره ، فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه ، وذلك جهل وقصور . بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة ، والتصديق بها واجب . ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع ، ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة ، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره .

هذا هو الحق فصدق به تقليدا ، فيز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقا ، والذي أوصيك به أن لا تكثر نظرك في تفصيل ذلك ، ولا تشتغل بعرفته ، بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان ، فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك ، كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويحده أنفه ، فأخذ طول الليل يتفكر في أنه هل يقطعه بسكين ، أو بسيف ، أو بموسى ، وأهمل طريق الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه ، وهذا غاية الجهل . فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم ، أو نعيم مقيم ، فينبغي أن يكون الاستعداد له . فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان

## بيان

سؤال منكرو ونكبر وصورتهما وضغط القبر وبقية القول في عذاب القبر

قال <sup>(١)</sup> أبو هريرة : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا مُنْكَرٌ وَلِلْآخَرِ نَكِيرٌ فَيَقُولَانِ لَهُ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي النَّبِيِّ؟ فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَالَ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَيَقُولَانِ إِنْ كُنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ ذِرَاعًا وَيُنَوَّرُ لَهُ فِي قَبْرِهِ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ نَمْ فَيَقُولُ دَعُونِي أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ فَيُقَالُ لَهُ نَمْ فَيَنَامُ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ . وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ لَا أَدْرِي كُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَقُولُونَ

( ١ ) حديث أبي هريرة اذا مات العبد اتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير

الحديث : الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف

فَمِنْكُمْ وَكُنْتُمْ أَقْوَامًا يَقُولُونَ إِنَّ كُنَّا بِنَعْلَمَ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ النَّبِيَّةِ  
 عَلَيْهِ قَتَلْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهَا أَضْلَاعُهُ فَلَا يَزَالُ مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ  
 بَطْنِ نَجْدٍ ذَلِكَ . وعن عطاء بن يسار قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 لعمر بن الخطاب رضي الله عنه « يَا عُمَرُ كَيْفَ بِكَ إِذَا أَنْتَ مُتَّ فَأَنْطَلِقَ بِكَ قَوْمُكَ  
 فَمَقَّسُوا لَكَ ثَلَاثَةَ أَذْرُعٍ فِي ذِرَاعٍ وَشِبْرٍ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْكَ فَمَقَّسُوا لَكَ وَكَفَّنُوكَ وَحَنَطُوكَ  
 ثُمَّ احْتَمَلُوكَ حَتَّى يَضَعُوكَ فِيهِ ثُمَّ يَهْبِكُوا عَلَيْكَ التُّرَابَ وَيَدْفِنُوكَ فَإِذَا انْصَرَفُوا عَنْكَ  
 أَنْتَ قَتَانَا الْقَبْرِ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ أَصْوَاتُهُمَا كَالرَّعْدِ الْقَاصِفِ وَأَبْصَارُهُمَا كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ  
 يَجْرُونَ أَشْعَارَهُمَا وَيَبْحَثَانِ الْقَبْرَ بَأْنِيًا بِيَهْمَا قَتَلْتَاكَ وَتَرْتَرَاكَ كَيْفَ بِكَ عِنْدَ ذَلِكَ يَا عُمَرُ »  
 فقال عمر ويكون معي مثل عقلي الآن ؟ قال نعم . قال إذا أ كفيكما

وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت ، إنما يتغير البدن والأعضاء ، فيكون  
 الميت عاقلاً ، مدركاً ، عالماً بالآلام واللذات كما كان ، لا يتغير من عقله شيء . وليس العقل  
 المدرك هذه الأعضاء ، بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض ، بل الذي لا ينقسم في نفسه  
 هو المدرك للأشياء . ولوتناثر أعضاء الإنسان كلها ، ولم يبق إلا الجزء المدرك الذي  
 لا يتجزأ ولا ينقسم ، لكان الإنسان العاقل بكامله قائماً باقياً . وهو كذلك بعد الموت ، فإن ذلك  
 الجزء لا يحلله الموت ، ولا يطرأ عليه العدم

وقال محمد بن المنكدر : بلغني أن الكافر يسلم على غيره في قبره دابة صمياء ، صماء ،  
 في يدها سوط من حديد ، في رأسه مثل غرب الجمل ، تضربه به إلى يوم القيامة ، لا تراه  
 فتتقيه ، ولا تسمع صوته فترحمه

وقال أبو هريرة : إذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاخترشته ، فإن أتاه

( ١ ) حديث عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب يا عمر كيف بك إذا أنت  
 مت فانطلق بك قومك فمقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر . الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب  
 القبور هكذا مرسل ورجاله ثقات قال البيهقي في الاعتقاد رويناه من وجه صحيح عن عطاء  
 ابن يسار مرسل قلت ووصله ابن بطة في الإبانة من حديث ابن عباس ورواه البيهقي في الاعتقاد  
 من حديث عمر وقال غريب بهذا الاسناد تفرد به مفضل وأحمد وابن جبان من حديث عبد الله  
 ابن عمر فقال عمر أريد البنا عقولنا فقال نعم كملتكم اليوم فقال عمر بيه الحجر

من قبل رأسه جاء قراءته القرآن ، وإن أتاه من قبل رجله جاء قيامه ، وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء ، لاسبيل لكم عليه ، وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه ، وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية ، فيقول : أما إني لورأيت خللا لكنت أنا صاحبه . قال سفيان : تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه ، وأهله ، وولده ، ثم يقال له عند ذلك : بارك الله لك في مضجعك ، فتم الأكلاء أخلاؤك ، وبع أصحاب أصحابك

وعن <sup>(١)</sup> حذيفة قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة ، فجلس على رأس القبر ، ثم جعل ينظر فيه ، ثم قال « نَضَعُ الْمُؤْمِنُ فِي هَذَا ضَنْعَةً تُرَدُّ مِنْهَا حَمَلُهُ » وقالت <sup>(٢)</sup> عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَنْعَةً وَلَوْ سَلِمَ أَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لَنَجَّ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ »

وعن أنس قال : <sup>(٣)</sup> توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت امرأة مسقامة ، فقبها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فساءنا حاله ، فلما انتهينا إلى القبر فدخله التمع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه ، فقلنا يا رسول الله رأينا منك شأنا فم ذلك ؟ قال « ذَكَرْتُ ضَنْعَةَ ابْنَتِي وَشِدَّةَ عَذَابِ الْقَبْرِ فَأَتَيْتُ فَأَخْبَرْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ خَفَّفَ عَنْهَا وَلَقَدْ ضَغَطْتُ ضَنْعَةَ سَمِعَ صَوْتَهَا مَا يَنْبَغِي لَهَا فَقَيْنِ »

## الباب الثامن

فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام

اعلم أن أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن مناهج الاعتبار ، تعرفنا أحوال الموتى على الجملة ، وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء .

( ١ ) حديث حذيفة كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر

فيه - الحديث : رواه أحمد بسند ضعيف

( ٢ ) حديث عائشة ان القبر ضغطة لو سلم أو نجا منها أحد لحاءه بن معاذ : رواه أحمد بإسناد جيد

( ٣ ) حديث أنس توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة - الحديث : وفيه

لقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الحافقين : ابن أبي الدنيا في الموت من رواية سليمان

الاعمش عن أنس ولم يسمع منه

ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا يكشف أصلاً ، فإننا إن عولنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندري على ماذا مات ، وكيف ختم له . وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القاب ، وهو غامض يخفى على صاحب التقوى ، فكيف على غيره ، فلاحكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى ( إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ <sup>(١)</sup> ) فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه . وإذا مات فقد تحول من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملسكوت ، فلا يرى بالعين الظاهرة ، وإنما يرى بعين أخرى ، خلقت تلك العين في قلب كل إنسان ، ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية ، فصار لا يبصر بها ، ولا يتصور أن يبصر بها شيئاً من عالم الملسكوت مالم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه . ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام ، فلا جرم نظروا إلى الملسكوت وشاهدوا عجائبه ، والموتى في عالم الملسكوت ، فشاهدوهم وأخبروا . ولذلك <sup>(٢)</sup> رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفطة القبر في حق سعد بن معاذ ، وفي حق زينب ابنته . وكذلك حال أبي جابر لما استشهد ، إذا خبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها غير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجاتهم منهم . وإنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة ، إلا أنها أيضاً مشاهدة نبوية ، وأعني بها المشاهدة في المنام ، وهي من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْأً مِنَ النَّبُوءَةِ » وهو أيضاً انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب ، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق . ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه ، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام ولذلك <sup>(٤)</sup> أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهراً ، وهو إشارة

( الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة )

( ١ ) حديث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك

حال أبي جابر لما استشهد : تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبله

( ٢ ) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة : تقدم

( ٣ ) حديث أمره بالطهارة عند النوم متفق عليه من حديث البراء إذا أتيت مضجعك فتوضأ

وضوأك للصلاة الحديث :

إلى طهارة الباطن أيضا ، فهو الأصل ، وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها وفيها ماصفا  
الباطن انكشف في حدة القلب ماسيكون في المستقبل ، كما <sup>(١)</sup> انكشف دخول مكة  
لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ، حتى نزل قوله تعالى ( لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّؤْيَا  
بِالْحَقِّ <sup>(١)</sup> ) ولما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة

والرؤيا ومعرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى ، وبدائع فطرة آدمي ،  
وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت ، والخلق غافلون عنه كففتهم عن سائر عجائب  
القلب وعجائب العالم . والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة ، فلا يمكن  
ذكره ، علاوة على علم المعاملة ، ولكن القدر الذي يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود ،  
وهو أن تعلم أن القلب مثاله مثال مرآة تراءى فيها الصور وحقائق الأنور ، وأن كل ما قدره  
الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى ، يعب  
عنه تارة بالروح ، وتارة بالكتاب المبين ، وتارة بإمام مبين كما ورد في القرآن . فجميع ما جرى  
في العالم وما سيجري مكتوب فيه ، ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه العين . ولا تظن  
أن ذلك اللوح من خشب ، أو حديد ، أو عظم ، وأن الكتاب من كاعد أو ورق ، بل ينبغي  
أن تفهم قطعا أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق ، وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق ، كما أن ذاته  
وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم . بل إن كنت تطلب له مثالا يقربه إلى فهمك فاعلم  
أن ثبوت المقادير في اللوح يضاهي ثبوت كلمات القرآن وحروفه في دماغ حافظ القرآن  
وقلبه ، فإنه مسطور فيه ، حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ، ولو فتشت دماغه جزأ جزأ  
لم تشاهد من ذلك الخط أحرفا ، وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر

فمن هذا النمط ينبغي أن تفهم كون اللوح منقوشا بجميع ما قدره الله تعالى وفضاه ،  
واللوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصور ، فلو وضع في مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت  
صورة تلك المرآة تراءى في هذه ، إلا أن يكون بينهما حجاب . فالقلب مرآة تقبل رسوم  
العلم ، واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها ، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى

( ١ ) حديث انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم : ابن أبي حاتم في تفسيره من

رواية مجاهد مرسلا .

حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة الاوح الذى هو من عالم الملكوت . فإن هبت  
ريح حركت هذا الحجاب ورفعته ، تلاً لآ في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق  
الخاطف ، وقد ثبت ويدوم ، وقد لا يدوم وهو الغالب . وما دام متيقظاً فهو مشغول  
بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة ، وهو حجاب عن عالم الملكوت . ومعنى النوم  
أن تركد الحواس عليه فلا تورده على القلب . فإذا تخلص منه ومن الخيال ، وكان صافياً  
في جوهره ، ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ ، فوقع في قلبه شيء مما في اللوح ،  
كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما . إلا أن النوم مانع سائر  
الحواس عن العمل ، وليس مانعاً للخيال عن عمله وعن تحركه . فواقع في القلب يبتدره الخيال  
فيحاكيه بمثال يقاربه ، وتكون التخيلات أثبت في الحفظ من غيرها ، فيبقى الخيال  
في الحفظ ، فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال ، فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية  
أي معنى من المعاني ، فيرجع إلى المعاني بالنسبة التي بين التخيل والمعاني

وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير ، ويكفيك مثال واحد ، وهو أن رجلاً  
قال لابن سيرين : رأيت كأن يدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال أنت  
مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان . قال صدقت . فانظر أن روح الختم هو المنع ، ولأجله  
يراد الختم ، وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه ، وهو كونه  
مانعاً للناس من الأكل والشرب ، ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم ، فتمثله بالصورة  
الخيالية التي تتضمن روح المعنى ، ولا يبق في الحفظ إلا الصورة الخيالية

فهذه نبذة بسيرة من بحر علم الرؤيا الذي لا تنحصر عجائبه ، وكيف لا وهو أخو الموت ،  
وإنما الموت هو عجب من العجائب ، وهذا لأنه يشبهه من وجه ضعيف أثر في كشف الغطاء  
عن عالم النيب ، حتى صار النائم يعرف ماسيكون في المستقبل . فإذا ترى في الموت الذي  
يخرق الحجاب ، ويكشف الغطاء بالكلية ، حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير  
تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والمخازي والفضائح ، نموذجاً لله من ذلك ، وإما مكنوفاً بنعيم  
مقيم وملك كبير لا آخر له ، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء ( لَقَدْ كُنْتُمْ  
فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ <sup>(١)</sup> ) ويقال ( أفسحِرْ هَذَا



أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ أَصْلَوهَا فَأَصْبِرُوا أَلَمْ لَا تُصْبِرُوا سَوَّلَهُ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ <sup>(١)</sup> ) وإليهم الإشارة بقوله تعالى ( وَبَدَأَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ <sup>(٢)</sup> ) فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من المجانب والآيات ما لم يخطر فطرياله ، ولا اختلج به ضميره . فلو لم يكن للمافل هم وغم إلا الفكرة في خطر تلك الحال ، أن الحجاب عما ذير تقع ، وما الذي ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة ، لكان ذلك كافيا في استغراق جميع العمر

والمعجب من غفلتنا وهذه العظام بين أبدينا ، وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا ، وأهليتنا ، وبأسبابنا ، وذريتنا ، بل بأعضائنا ، وسممنا ، وبصرنا ، مع أننا نعلم مفارقة جميع ذلك يقينا ، ولكن <sup>(٣)</sup> أين من ينفث روح القدس في روعه فيقول ما قال لسيد النبيين : أحب من أحببت فإنك مفارقة ، وعش ماشئت فإنك ميت ، واعمل ماشئت فإنك محزى به ؟ فلا جرم لما كان ذلك مكشوفاً له بعين البقين كان في الدنيا . كما بر سبيل <sup>(٤)</sup> لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة <sup>(٥)</sup> ، ولم يخلف ديناراً ولا درهما ، ولم يتخذ حنينا ولا خليلاً . ثم قال <sup>(٦)</sup> : « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَأَتَّخِذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ صَاحِبَكُمُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ » فبين أن خلة الرحمن تجليات باطن قلبه ، وأن حبه تمكن من حبه قلبه ، فلم يترك فيه منسما لخليل ولا حبيب . وقد قال لأمته ( إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ <sup>(٧)</sup> ) فلما أمتا من أتبعه ، وما أتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة ، فإنه مادحا إلا إلى الله واليوم الآخر ، وما صرف إلا عن الدنيا والحطوط العاجلة . فبقدر ما عرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلك سبيله الذي سلكه . وبقدر ما سلك سبيله فقد أتبعته ، وبقدر ما أتبعته فقد صرت من أمته ، وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعتها ،

( ١ ) حديث أن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فإنك مفارقة : الحديث تقديم

( ٢ ) حديث لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة : تقديم أيضا

( ٣ ) حديث لم يخلف ديناراً ولا درهما : تقديم أيضا

( ٤ ) حديث لو كنت متخذاً خليلاً لآخذت أبا بكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن : تقديم أيضا

( ٧ ) الطور : ١٥ ، ٢٦ ( ٢ ) الزمر : ٤٧ ( ٣ ) آل عمران : ٣١

والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم ( فَأَمَّا مَنِ ظَنَّىٰ أَنَّهُ خَلَّىٰ بِهَاجِلٍ فَانِ الْيَوْمِ )<sup>(١)</sup>

فلو خرجت من ممكن النور ، وأنصفت نفسك يارجل ، وكلنا ذلك الرجل ، علمت أنك من حين تصبح إلى حين تسمى لا تسمى إلا في الحظوظ العاجلة ، ولا تتحرك ولا تسكن إلا لعاجل الدنيا ، ثم تطمع أن تكون غدا من أمته وأتباعه ! ما أبعد ظنك ، وما أبرد طمعك ( أَفَتَجْمَلُ الْمُسْلِمِينَ كَأَلْمَجْرِمِينَ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ )<sup>(٢)</sup>

ولنرجع إلى ما كنا فيه وبصده فقد ابتدء عنان الكلام إلى غير مقصده . ولنذكر الآن من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى ما يعظم الانتفاع به ، إذ ذهب النبوة وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنامات .

## بيان

منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> وقد قال عليه السلام « مَنْ رَأَىٰ فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَىٰ حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتِمَثَّلُ بِي » ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، فرأيت أنه لا ينظر إليّ ، فقلت يارسول الله ما شأنى ؟ فالتفت إليّ وقال : ألسنتي المقبل وأنت صائم ؟ قال والذي نفسي بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبداً وقال العباس رضي الله عنه . كنت وداعا لعمر ، فاشتبهت أن أراه في المنام ، فما رأيت إلا عند رأس الحول ، فرأيت أنه يمسح العرق عن جبينه وهو يقول هذا أوان فراغى ، إن كان عرشي ليهده لولا أنى لقيته رؤفا رحيم .

وقال الحسن بن علي . قال لى علي رضي الله عنه . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منحه لى الليلة فى منامى ، فقلت يارسول الله ، ما لقيت من أمثلك ! قال ادع عليهم . فقلت اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم ، وأبدلهم بى من هو شر لهم منى فخرج فضر به ابن ملجم

( ١ ) حديث من رأى فى المنام فقد رأى فان الشيطان لا يتخيل بى : متفق عليه من حديث أبى هريرة

( ٢ ) النازعات : ٣٧ ( ٢ ) القلم : ٣٥ ، ٣٦

وقال بمص الشيوخ . رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت يا رسول الله استغفر لي ، فأعرض عني . فقلت يا رسول الله إن سفيان<sup>(١)</sup> بن عيينة حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله ، أنك لم تُسأل شيئا قط فقلت لا . فأقبل علي فقال غفر الله لك وروي عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت مواخيا لأبي لهب ، مصاحبا له ، فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر ، حزنت عليه ، وأهني أمره . فسألت الله تعالى حولاً أن يريني إياه في المنام . قال فرأيتَه يلهب ناراً ، فسألته عن حاله فقال : صرت إلى النار في العذاب ، لا يخفف عني ولا يروح إلا ليلة الإثنين في كل الأيام والليالي ، قلت وكيف ذلك؟ قال ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم ، فجاءتني أميمة فبشرني بولادة آمنة إياه ، ففرحت به ، وأعتقت وليدة لي فرحابه ، فأنا بئني الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين وقال عبد الواحد بن زيد : خرجت حاجاً ، فصحبني رجل كان لا يقوم ، ولا يقعد ، ولا يتحرك ، ولا يسكن ، إلا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم . فسألته عن ذلك فقال : أخبرك عن ذلك . خرجت أول مرة إلى مكة ومعى أبي ، فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل ، فبينما أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي : قم فقد أمت الله أباك وسود وجهه ، قال فقممت مذعوراً ، فكشفت الثوب عن وجهه ، فإذا هو ميت أسود الوجه . فداخاني من ذلك رعب . فبينما أنا في ذلك الغم ، إذ غلبتني عيني فنمت ، فإذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد ، إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين ، فقال لهم تنحوا . فمسح وجهه بيده ، ثم أتاني فقال قم فقد بيض الله وجه أهلك . فقلت له من أنت بأبي أنت وأمي؟ فقال أنا محمد . قال فقممت فكشفت الثوب عن وجه أبي ، فإذا هو أبيض فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن عمر بن عبد العزيز قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسا عنده ، فسأمت وجلست ، فبينما أنا جالس إذ أتني بعلي ومعاوية ، فأدخلا بيتاً ، وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر ، فما كان بأسرع من أن خرج

(١) حديث ابن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر ماسئل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا : رواه مسلم وقد تقدم

علي رضي الله عنه وهو يقول : قضى لي ورب الكعبة . وما كان بأسرع من أن يخرج  
مباوية على أثره وهو يقول : غفر لي ورب الكعبة  
واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما صرة من نومه فاسترجع وقال : قتل الحسين والله  
وكان ذلك قبل قتله ، فأنكره أصحابه . فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه  
زجاجة من دم ، فقال ألا تعلم ما صنعت أمتي بعدى ؟ قتلوا ابني الحسين ، وهذا دمه ودم  
أصحابه أرفعها إلى الله تعالى . فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوما بقتله في اليوم الذي رآه  
ورؤي الصديق رضي الله عنه ، فقيل له إنك كنت تقول أبدا في لسانك : هذا  
أوردني الموارد ، فاذا فعل الله بك ؟ قال قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة

## بيان

منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين

قال بعض المشايخ : رأيت متما الدورقي في المنام ، فقلت ياسيدي ما فعل الله بك ؟ فقال  
ديرني في الجنان ، فقيل لي يامتمم هل استحسننت فيها شيئا ؟ قلت لا ياسيدي . فقال  
لو استحسننت منها شيئا لو كنتك إليه ، ولم أوصلك إلي  
ورؤي يوسف بن الحسين في المنام ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي . قيل بماذا ؟  
قال ما خلطت جدا بهزل

وعن منصور بن اسماعيل قال : رأيت عبد الله البزار في النوم ، فقلت ما فعل الله بك ؟  
قال أوقفني بين يديه ، فغفر لي كل ذنب أفررت به إلا ذنبا واحدا ، فإني استحييت أن أقر به .  
فأوقفني في المرق حتى سقط لحم وجهي . فقلت ما كان ذلك الذنب ؟ قال نظرت إلى غلام  
جميل فاستحسننته ، فاستحييت من الله أن أذكره

وقال أبو جعفر الصيدلاني : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ، وحوله  
، جماعة من الفقراء فيبينا نحن كذلك إذ انشقت السماء ، فنزل ملكان ، أحدهما بيده طشت ،  
ويده الآخر إبريق . فوضع الطشت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغسل يده ،  
ثم أمر حتى غسلوا ، ثم وضع الطشت بين يدي ، فقال أحدهما للآخر : لا تنصب على يده

فإنه ليس منهم : فقلت يا رسول الله أليس قد روي عنك أنك قلت المرء مع من أحب ؟ قال بلى : قلت يا رسول الله فإني أحب هؤلاء الفقراء . فقال صلى الله عليه وسلم : صب على يده فإنه منهم

وقال الجنيد : رأيت في المنام كأنى أتكلم على الناس ، فوقف علي ملك فقال : أقرب ما تقرب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا ؟ فقلت عمل خفي بيزان وفي . فولى الملك وهو يقول : كلام موفق والله . ورؤي بجمع في النوم ، فقيل له كيف رأيت الأمر ؟ فقال رأيت الزاهدين في الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة

وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد : رأيتك في النوم كأنك في الجنة . فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال : لعل الشيطان أراد أمرا فمصمت منه ، فأشخص رجلا يقتلني وقال محمد بن واسع : الرؤيا تسر المؤمن ولا تنره

وقال صالح بن بشير : رأيت عطاء السلمي في النوم فقلت له رحمك الله ، لقد كنت طويل الحزن في الدنيا . قال أما والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة وفرحا دائما . فقلت في أي الدرجات أنت ؟ فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والآية

وسئل زرارة بن أبي أوفى في المنام ، أي الأعمال أفضل عندكم ؟ فقال : الرضا وقصر الأمل وقال يزيد بن مذكور : رأيت الأوزاعي في المنام ، فقلت : يا أبا عمرو ، دلني على عمل أتقرب به إلى الله تعالى قال : ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ، ثم درجة المحزونين . قال وكان يزيد شيخا كبيرا فلم يزل يبكي حتى أظلمت عيناه

وقال ابن عيينة : رأيت أخى في المنام ، فقلت يا أخى ما فعل الله بك ؟ فقال كل ذنب استغفرت منه غفر لي ، وما لم أستغفر منه لم يغفر لي

وقال علي الطلحي : رأيت في المنام امرأة لاتشبه نساء الدنيا ؛ فقلت من أنت ؟ فقالت حوراء . فقلت زوجيني نفسك . قالت اخطبني إلى سيدي وأمهرني . قلت وما مهرك ؟ قالت حبس نفسك عن آفاتهما

وقال ابراهيم بن اسحاق الحربي : رأيت زبيدة في المنام ، فقلت ما فعل الله بك ؟ قالت غفر لي . فقلت لها بما أنفقت في طريق مكة ؟ قالت أما النفقات التي أنفقتها رجعت

أجورهما إلى آرباها وغفر لي بذي

ولمات سفيان الثوري رثي في المنام، فقبل له مافعل الله بك؟ قال وضمت أول قدمي على الصراط، والثاني في الجنة

وقال أحمد بن أبي الحواري: رأيت فيما يرى النائم جارية مارأيت أحسن منها وكان يتلأأ وجهها نورا، فقلت لها ماذا ضوء وجهك؟ قالت تذكر تلك الليلة التي بكبت فيها قلت نعم قالت أخذت دمعك فمسحت به وجهي، فمن ثم ضوء وجهي، كما ترى وقال الكتاني: رأيت الجنيد في المنام، فقلت له مافعل الله بك؟ قال طاحت تلك الإشارات، وذهبت تلك العبارات، وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما في الليل ورثت زبيدة في المنام، فقلت لها مافعل الله بك، قالت غفر لي بهذه الكلمات الأربع لا إله إلا الله أفنى بها عمري. لا إله إلا الله أدخل بها قبري، لا إله إلا الله أخلو بها وحدي، لا إله إلا الله ألقى بها ربي

ورثي بشر في المنام، فقلت له مافعل الله بك، قال رحماني ربي عز وجل وقال: يا بشر أما استحييت مني؟ كنت تخافني كل ذلك الخوف؟

وروي أبو سليمان في النوم، فقلت له مافعل الله بك؟ قال رحماني، وما كان شيء أضرم علي من إشارات القوم إلي

وقال أبو بكر الكتاني: رأيت في النوم شابا لم أر أحسن منه، فقلت له من أنت؟ قال التقوى. قلت فأين تسكن؟ قال كل قلب حزين. ثم التفت فإذا امرأة سوداء فقلت من أنت؟ قالت أنا السقم. قلت فأين تسكنين، قالت كل قلب فرح مرح. قال فانتبهت وتماهدت أن لا أضحك إلا غلبة

وقال أبو سعيد الخراز: رأيت في المنام كأن إبليس وتب علي، فأخذت العصا لأضربه فلم يفرغ منها، فهتف بي هاتف: إن هذا لا يخاف من هذه، وإنما يخاف من نور يكون في القلب وقال المسوحى: رأيت إبليس في النوم يمشي عريانا، فقلت ألا تستحي من الناس؟ فقال بالله هؤلاء ناس؟ لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة، بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي، وأشار يده إلى أصحابنا الصوفية

وقال أبو سعيد الخراز ، كنت في دمشق ، فرأيت في المنام كأن النبي صلى الله عليه وسلم جاءني متكئا على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فجاء فوقف عليّ وأنا أقول شيئا من الأصوات وأدق في صدري ، فقال شر هذا أكثر من خيره .

وعن ابن عيينة قال : رأيت سفيان الثوري في النوم كأنه في الجنة ، يطير من شجرة إلى شجرة ، يقول لمثل هذا فليعمل الماملون . فقلت له أوصني . قال أقل من معرفة الناس . وروى أبو حاتم الرازي ، عن قبيصة بن عقبة قال : رأيت سفيان الثوري ، فقلت ما فعل الله بك ؟ فقال :

نظرت إلى ربي كفاحا فقال لي      هنيئا رضائي عنك يا ابن سعيد  
فقد كنت قواما إذا أظلم الدجى      بمسيرة مشتاق وقلب عميد  
فدونك فاختر أي قصر أردته      وزرني فإني منك غير بعيد

ورؤي الشبل بعد موته بثلاثة أيام ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال ناقشني حتى أيسمت فلما رأي يأسى تنجدني برحمته .

ورؤي مجنون بن عامر بعد موته في المنام ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي وجمعاني حجة على المحبين .

ورؤي الثوري في المنام ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال رحمني . فقيل له ما حال عبد الله ابن المبارك ؟ فقال هو ممن يابح على ربه في كل يوم مرتين .

ورؤي بعضهم فسئل عن حاله ، فقال حاسبونا فدققوا ، ثم منوا فأعنتوا  
ورؤي مالك بن أنس ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان ابن عفان رضي الله عنه عند رؤية الجنائز ، سبحان الحي الذي لا يموت .

ورؤي في الليلة التي مات فيها الحسن البصري ، كأن أبواب السماء مفتحة ، وكأن مناديا ينادي : ألا إن الحسن البصري قدم على الله وهو عنه راض  
ورؤي الجاحظ ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال :

ولا تكتب بخطك غير شيء      يسرك في القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس في المنام عريانا ، فقال ألا تستحي من الناس ؟ فقال وهو لاء ناس ؟

للناس لهوام في مسجد الشوميزية ، قد أصتوا جسدى ؛ وأحرفوا كبدى . قال الجنيد : فلما انتبهت غدوت إلى المسجد ، فرأيت جماعة قد وضعوا رؤسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأوني قالوا لا يترك حديث الخبيث .

ورؤي النصراباذي بمكة بعد وفاته في النوم ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ قال عوتبت صتاب الأشراف ، ثم نوديت يا أبا القاسم ، أبعد الاتصال انفصال ؟ فقلت لا يا ذا الجلال فما وضعت في اللحد حتى لحقت بربى .

ورأى عتبة الغلام حوراء في المنام على صورة حسنة ، فقالت يا عتبة ، أنا لك عاشقة ، فانظر لاتسل من الأعمال شيئاً فيحال بيني وبينك . فقال عتبة : طلقت الدنيا ثلاثاً ، لارجعة لى عليها حتى ألقاك .

وقيل رأى أيوب السخيتاني جنازة عاص ، فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها ، فرأى للبيت بعضهم في المنام ، فقيل له ما فعل الله بك ، قال غفرلى وقال : قل لأيوب ( قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ <sup>(١)</sup> )

وقال بعضهم : رأيت في الليلة التي مات فيها داود الطائي نورا ، وملائكة نزولا ، وملائكة صعودا . فقلت أى ليلة هذه ؟ فقالوا ليلة مات فيها داود الطائي وقد زخرفت للجنة لقدوم روحه

وقال أبو سعيد الشحام : رأيت سهلا الصعلوكى في المنام ، فقلت أيها الشيخ ، قال دع الشيخ . قلت تلك الأحوال التي شاهدها ، فقال لم تغن عنا . فقلت ما فعل الله بك . قال غفرلى بمسائل كان يسأل عنها العجز

وقال أبو بكر الرشيدى : رأيت محمد الطوسى المعلم في النوم ، فقال لى : قل لأبى سعيد الصفار المؤدب .

وكنا على أن لانهول عن الهوى فقد وحياء الحب حلتم وما حلنا  
قال فانتهت فذكرت ذلك له ، فقال كنت أزور قبره كل جمعة ، فلم أزره هذه الجمعة  
وقال ابن راشد : رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته ، فقلت أليس قدمت ؟ قال بلى



قلت فما صنع الله بك ؟ قال غفر لي مغفرة احاطت بكل ذنب . قلت فسيان الثوري ، قال بخ بخ ، ذك من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الآية وقال الربيع بن سليمان : رأيت الشافعي رحمة الله عليه بعد وفاته في المنام ، فقلت يا أبا عبد الله ، ما صنع الله بك ؟ قال أجلسني على كرسي من ذهب وثر عليّ اللؤلؤ الرطب ورأى رجل من أصحاب الحسن البصري ليلة مات الحسن ، كأن مناديا ينادي ( إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ <sup>(١)</sup> ) واصطفني الحسن البصري . على أهل زمانه . وقال أبو يعقوب القاري الدقيق رأيت في منامي رجلا آدم طوالا والناس يتبعونه فقلت من هذا ؟ قالوا أويس القرني . فأتيته فقلت وصني رحمك الله . فكلمني في وجهي فقلت مسترشد فأرشدني أرشدك الله . فأقبل علي وقال : اتبع رحمة ربك عند محبته ، واحذر نقمته عند معصيته ، ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك ، ثم ولى وتركني

وقال أبو بكر بن أبي مريم . رأيت ورقاء بن بشر الحضرمي ، فقلت ما فعلت يا ورقاء قال نجوت بعد كل جهد . قلت فأني الأعمال وجدتموها أفضل ، قال البكاء من خشية الله وقال يزيد ابن نعامة : هلكت جارية في الطاعون الجارف ، فرآها أبوها في المنام فقال لها يا بنية أخبريني عن الآخرة . قالت يا أبت قد مننا على أمر عظيم ، نعلم ولا نعمل ، ونعملون ولا نعلمون ، والله لتسيحجة أو تسيحجان ، أو ركمة أو ركعتان في فسحة عمل أحب إلي من الدنيا وما فيها .

وقال بعض أصحاب عتبة الغلام : رأيت عتبة في المنام . فقلت ما صنع الله بك ؟ قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة في بيتك . قال فلما أصبحت جئت إلى بيتي ، فإذا خط عتبة الغلام في حائط البيت : يا هادي المضلين ، ويا راحم المذنبين ، ويا مقبل عثرات العائرين ، ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسامين كلهم أجمعين ، واجملنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء والصالحين ، آمين يا رب العالمين

وقال موسى بن حماد : رأيت سفيان الثوري في الجنة ، يطير من نخلة إلى نخلة ،

ومن شجرة إلى شجرة . فقلت يا أبا عبد الله ، بم نلت هذا ؟ قال بالورع . قلت فما بال  
على بن حاصم ؟ قال ذلك لا يكاد يرى إلا كما يرى الكوكب  
ورأى رجل من التابعين النبي صلى الله عليه وسلم في المنام . فقال : يا رسول الله عظمي .  
قال نعم من لم ينفق النقصان فهو في نقصان . ومن كان في نقصان فالموت خير له  
وقال الشافعي رحمه الله عليه : ذهني في هذه الأيام أمر أمضى وآلتي ، ولم يطلع عليه  
غير الله عز وجل ، فلما كان البارحة أتاني آت في منامي ، فقال لي يا محمد بن إدريس ،  
قل اللهم إني لا أملك لنفسي نفعا ، ولا ضرا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا . ولا  
أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني ، ولا اتقى إلا ما وقيتني . اللهم فوقني لما تحب وترضى  
من القول والعمل في عافية . فلما أصبحت أعدت ذلك ، فلما ترحل النهار أعطاني الله  
عز وجل طلبتي ، وسهل لي الخلاص مما كنت فيه ، فعليك بهذه الدعوات لا تنفلوا عنها  
فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى ، وعلى الأعمال المقربة إلى الله زلي  
فلنذكر بعدها ما بين يدي الموتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار ، إما في الجنة أو في  
النار ، والحمد لله حمد الشاكرين

## السطر الثاني

من كتاب ذكر الموت ، في أحوال الميت من وقت نفخة الصور

إلى آخر الاستقرار في الجنة أو في النار ، وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار  
وفيه بيان نفخة الصور ، وصفة أهل المحشر وأهله ، وصفة عرق أهل المحشر ، وصفة  
طول يوم القيامة ، وصفة يوم القيامة ودواهيها وأسماها ، وصفة المساءلة عن الذنوب  
وصفة الميزان ، وصفة الحصى ورد المظالم ، وصفة الصراط ، وصفة الشفاعة ، وصفة الحوض  
وصفة جهنم وأهوالها ، وأنكالتها ، وحياتها ، وعقاربها ، وصفة الجنة وأصناف نعيمها ،  
 وعدد الجنان ، وأبوابها ، وغرفها ، وحيطانها ، وأنهارها ، وأشجارها ، ولباس أهلها ،  
 وقرشهم وسررهم ، وصفة طعامهم ، وصفة الحور العين والولدان ، وصفة النظر إلى  
وجه الله تعالى ، وباب في سعة رحمة الله تعالى ، وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى

## صفة

نفخة الصور

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت في سكرات الموت ، وخطره في خوف العاقبة ، ثم مقاساته لظامة القبر وديدانه ، ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ، ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوبا عليه . وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه ، من نفخ الصور ، والبعث يوم النشور ، والعرض على الجبار ، والسؤال عن القليل والكثير ، ونصب الميزان لمعرفة المقادير ، ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسماع وإما بالإشقاء . فهذه أحوال وأحوال لا بد لك من معرفتها ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ، ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها

وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ، ولم يتمكن من سويده أفئدتهم . ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء ، وتهاونهم بحر جهنم وزمهر يرها ، مع ما تكتنفه من المصاعب والأحوال . بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ، ثم غفلت عنه قلوبهم . ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم ، فقال لصاحبه الذي أخبره صدقت ، ثم مده لشارله ، كان مصدقا بلسانه ، ومكذبا بعمله . وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى شَتَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتَنِي وَكَذَّبَنِي وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي ، أَمْ أَشْتَمُهُ إِيَّايَ قِيْلُ إِنَّ لِي وَلَدًا وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي

وإنما فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم الأمثال تلك الأمور . ولولم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات ، وقيل له إن صائنا يصنع من النطفة

( الشطر الثاني من وقت نفخة الصور )

( ١ ) حديث قال الله تعالى شتني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة

القذرة مثل هذا الآدمي المصور ، العاقل ، المتكلم ، المتصرف ، لا شئ تقور باطنه  
عن التصديق به . ولذلك قال الله تعالى ( أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا  
هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ <sup>(١)</sup> ) وقال تعالى ( أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ  
نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ  
الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى <sup>(٢)</sup> )

ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه ، واختلاف تركيب أعضائه ، أعاجيب تزيد على  
الآعاجيب في بعته وإعادته . فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك  
في صنعته وقدرته ! فإن كان في إيمانك ضعف ففوق الإيمان بالنظر في النشأة الأولى ، فإن  
الثانية مثلها وأسهل منها . وإن كنت قوي الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار ،  
وأكثر فيها التفكير والاعتبار ، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار ، فتشتغل بالتشمر للعرض  
على الجبار ، وتفكر أولاتها يقرع سمع سكان القبور ، من شدة نفخ الصور ، فإنها صبيحة  
واحدة تنفجر بها القبور عن رموس الموتى ، فيثورون دفعة واحدة ، فتوم نفسك وقد وثبت  
متغيرا وجهك ، مضربا بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك ، مبهوتا من شدة  
الصعقة ، شاخص العين نحو النداء ، وقد تار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها  
بلاؤهم ، وقد أزهجهم الفرع والرب مضافا إلى ما كان عندهم من الهموم ، والغموم ، وشدة  
الانتظار لعاقبة الأمر ، كما قال تعالى ( وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ  
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ <sup>(٣)</sup> )  
وقال تعالى ( فَإِذَا نُفِخَ فِي النُّفُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ  
غَيْرُ يَسِيرٍ <sup>(٤)</sup> ) وقال تعالى ( وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ  
مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً  
وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ  
قَالُوا يَا وَبِلْنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ <sup>(٥)</sup> )  
فلو لم يكن بين بدى الموتى إلهول تلك النفخة ، لكان ذلك جديرا بأن يتقى ، فإنها

(١) يس : ٧٧ : (٢) القيامة : ٣٦ إلى ٣٩ (٣) الزمر : ٦٨ : (٤) للدثر : ٨ إلى ١٠ (٥) يس : ٤٨ إلى ٥٢

نفخة وصيحة يصق بها من في السموات والأرض ، يعني يموتون بها إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « كَيْفَ أَنْتُمْ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدْ أَنْتَمُ الْقَرْنُ وَحَتَّى الْجَبْهَةِ وَأُصْنَى بِالْأُذُنِ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ » قال مقاتل : الصور هو القرن . وذلك أن إسرأفيل عليه السلام واصل فاه على القرن كهيئة البوق ، ودائرة رأس القرن كمرض السموات والأرض ، وهو شاخص بصره نحو العرش ، ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى . فإذا نفخ صق من في السموات والأرض ، أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله ، وهو جبريل ، وميكائيل ، وإسرأفيل وملك الموت . ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ، ثم روح ميكائيل ، ثم روح إسرأفيل . ثم يأمر ملك الموت هيموت ، ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة ، ثم يحيي الله إسرأفيل ، فيأمره أن ينفخ الثانية . فذلك قوله تعالى ( ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ نُفُوسٌ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ <sup>(٢)</sup> ) على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « حِينَ بُعِثَ إِلَى بَيْتِ إِلَى صَاحِبِ الصُّورِ فَأَهْوَى بِهِ إِلَى فِيهِ وَقَدَّمَ رِجْلًا وَآخَرَ أُخْرَى يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ أَلَا فَاتَّقُوا النَّفْخَةَ ، فَتَفْكَرَ فِي الْخَلَائِقِ وَذَلْهِمْ ، وَانْكَسَارُهم ، وَاسْتِكَاتِهِمْ عِنْدَ الْإِنْبَاءِ خَوْفًا

(١) حديث كيف أنتم وصاحب الصور قد أنتم القرن وحتى الجبهة - الحديث : الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ أن صاحبي القرن بأيديهما أو في أيديهما قرنان بلا حظان النظر متى يؤمران وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة : يختلف فيه (٢) حديث حين بعث إلى بيت إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرسي الحديث : لم أجده هكذا بل قد ورد أن إسرأفيل من حين إبتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخاري في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة أن الله بارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرأفيل فبواضعه على فيه شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر : قال البخاري ولم يصح وفي رواية لأن الشيخ ما طرف صاحب الصور مد وكل به مستعد بنظر نحو العرش خافة أن يؤمر قبل أن يرد إليه طرفه كأن عينه كوكبان دوران : وإسناده جيد

من هذه الصعقة ، وانتظارا لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة ، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم ، متحير كتحيرهم بل إن كنت في الدنيا من المترفهين والأغنياء المتنعمين ، فلوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل أرض الجمع ، وأصغرهم ، وأحقرهم ، يوطئون بالأقدام مثل النذر . وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال ، منكسة رهوسها ، مختلطة بالخلائق بعد توحشها ، ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنس بها . ولكن حشرتهم شدة الصعقة ، وهول النفخة ، وشغلهم ذلك عن الحرب من الخلق والتوحش منهم . وذلك قوله تعالى ( وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ <sup>(١)</sup> ) ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمردها وعتوها ، وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى ، تصديقا لقوله تعالى ( فَوَرَبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُخْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا <sup>(٢)</sup> ) فتفكر في حالك وحال قلبك هناك

## صفة

أرض المحشر وأهله

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة ، عراة ، غرلا ، إلى أرض المحشر ، أرض بيضاء ، قاع صفصف ، لاترى فيها عوجا ولا أمثا ، ولا ترى عليها روبة يحتق الإنسان وراءها ، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها ، بل هو صعيد واحد بسيط ، لاتفاوت فيه ، يساقون إليه زمرا . فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض ، إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة . والراجفة هي النفخة الأولى ، والرادفة هي النفخة الثانية . وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ، وتلك الأبصار أن تكون خاشعة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ

(١) حديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عراة كفرن من النقى ليس فيها معلم لأحد منفق

(١) التکوین : ٥ (٢) مريم : ٦٨

يَبْضَاءُ عَفْرَاءُ كَفَرَصِ النَّبِيِّ لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ، قَالَ الرَّادِيُّ: وَالْعَفْرَةُ بَيَاضٌ لَيْسَ  
بِالنَّاصِعِ، وَالنَّقْيُ هُوَ النَّقْيُ عَنِ الْقَشْرِ وَالنَّخَالَةِ، وَمَعْلَمٌ أَيْ لَا بِنَاءَ يَسْتَرْ، وَلَا تَفَاوُتَ  
بِرَدِّ الْبَصَرِ. وَلَا تَنْظُرُ أَنْ تَكُنِ الْأَرْضُ مِثْلَ أَرْضِ الدُّنْيَا، بَلْ لَا تَسَاوِيهَا إِلَّا فِي  
الْأَسْمِ، قَالَ تَعَالَى (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ<sup>(١)</sup>) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ  
يَزَادُ فِيهَا وَيَنْقُصُ، وَتَذْهَبُ أَشْجَارُهَا، وَجِبَالُهَا، وَأَوْدِيَّتُهَا، وَمَا فِيهَا، وَتَعْدُ مَدَّةَ  
الْأَدِيمِ الْمَكَاطِي، أَرْضٌ بَيْضَاءُ مِثْلَ الْفِضَّةِ، لَمْ يَسْفِكْ عَلَيْهَا دَمٌ، وَلَمْ يَعْمَلْ عَلَيْهَا خَطْبَةٌ  
وَالسَّمَوَاتُ تَذْهَبُ شَمْسُهَا، وَقُرَّهَا، وَنُجُومُهَا

فَانْظُرْ يَا مُسْكِبِينَ فِي هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَشِدَّتِهِ، فَإِنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ الْخَلَائِقُ عَلَى هَذَا  
الصَّعِيدِ تَنَافَرَتْ مِنْ فَوْقِهِمْ نُجُومُ السَّمَاءِ، وَطُمَسَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَأُظْلِمَتِ الْأَرْضُ  
لِخُجُودِ سَرَاجِهَا، فَيَنَامُ كَذَلِكَ إِذَا دَارَتْ السَّمَاءُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ، وَانْشَقَّتْ مَعَ غُلْظِهَا  
وَشِدَّتِهَا خَمْسَمِائَةَ عَامٍ، وَالْمَلَائِكَةُ قِيَامٌ عَلَى حَافَاتِهَا وَأَرْجَائِهَا، فَيَا هَوْلَ صَوْتِ انْشِقَاقِهَا  
فِي سَمْعِكَ، وَيَاهِييَّةَ لِيَوْمِ تَنْشَقُّ فِيهِ السَّمَاءُ مَعَ صَلَاتِهَا وَشِدَّتِهَا، ثُمَّ تَهَارُ وَتَسِيلُ  
كَالْفِضَّةِ الْمَذَابَةِ تَخَالِطُهَا صَفْرَةٌ، فَصَارَتْ وَرْدَةً كَالْدِهَانِ، وَصَارَتْ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ،  
وَصَارَتْ الْجِبَالُ كَالْمُهْنِ، وَاشْتَبَكَ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْبَشُوثَ، وَهُمْ حَفَاةٌ، عَرَاءُ، مَشَاءُ  
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>(٢)</sup> «يُيَبِّتُ النَّاسُ حَفَاةَ عَرَاءَ غُرْلًا» قَدْ أَجْلَسَهُمُ  
الْعَرَقُ وَبَلَغَ شُحُومَ الْأَذَانِ «قَالَتْ سُودَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاوِيَةً  
الْحَدِيثَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَسْوَاتَاهُ! يَنْظُرُ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ فَقَالَ شَغَلَ النَّاسُ  
عَنْ ذَلِكَ بِهِمْ (لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمٌ يُؤْتَى شَأْنٌ يُعْنِيهِ<sup>(٣)</sup>) فَأَعْظَمَ يَوْمٌ تَنْكَشِفُ  
فِيهِ الْعُورَاتُ، وَيُؤْمِنُ فِيهِ مَعَ ذَلِكَ النَّظَرُ وَالِاتِّفَاتُ. كَيْفَ وَبَعْضُهُمْ يَمْشُونَ عَلَى

علبة من حديث سهل ابن سعد وفصل البخاري قوله ليس فيها معلم لأحد فجعلها من قول سهل

أو غيره وأدرجها مسلم فيه

(١) حديث يبيت الناس حفاة عرأة غرلا قد أجلسهم العرق وبلغ شحوم الأذان قالت سودة رواية الحديث  
وأسواتاه - الحديث: الثعلبي والبخاري وهو في الصحيحين من حديث عائشة وهي القائلة  
وأسواتاه: ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أم سلمة وهي القائلة وأسواتاه.

(٢) إبراهيم: ٤٨ (٢) عبس: ٣٧

غُرْلًا: أَيْ مِنْ غَيْرِ اخْتِتَانٍ.

بطونهم ووجوههم ، فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم قال <sup>(١)</sup> أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يُخْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ رُكْبَانًا وَمُشَاةٌ وَعَلَى وَجُوهِهِمْ ، فقال رجل يا رسول الله ، وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : الَّذِي أَمْسَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ فَادِرٌّ عَلَى أَنْ يَمْشِيَهُمْ عَلَى وَجُوهِهِمْ ، في طبع الآدمي إنكار كل ما لم يأنس به . ولولم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف ، لأنكر تصور المشي على غير رجل . والمشي بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك . فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لخالفته قياس ما في الدنيا ، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ، ثم عرضت عليك قبل المشاهدة ، لكنت أشد إنكارا لها : فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عاريا ، مكشوبا ، ذليلا ، مدحورا ، متحيرا ، مبهوتا ، منتظرا لما يجري عليك من القضاء بالسادة أو بالشقاوة ، وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة

### صفة العرو

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم ، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع ، من ملك ، وجن ، وإنس ، وشيطان ، ووحش ، وسبع ، وطير ، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها ، وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ، ثم أدنبت من رموس المالين كقاب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب المالين ولم يمكن من الاستئلال به إلا المقربون ، فن بين مستظل بالعرش ، وبين مضح لحر الشمس ، قد صهرته بحرّها ، واشتد كربه وغمه من وهجها . ثم تدافعت الخلائق ، ودفع بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الأقدام ، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح ؛ والاختزاء عند المرض على

( ١ ) حديث أبي هريرة يحشر الناس يوم القيامة ركبانا ومشاة على وجوههم الحديث - رواه الترمذي وحسنه وفي الصحيحين من حديث أنس أن رجلا قال يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه قال أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة



يجبار السماء ، فاجتمع وجمع الشمس ، وحر الأنفاس ، واحترق القلوب بنار الحياه والخوف ، ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة ، ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله ، فبعضهم بلغ العرق ركبته ، وبعضهم حقوبه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، وبعضهم كاد يغيب فيه

قال <sup>(١)</sup> ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حَتَّى يَنْسِبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أَذُنَيْهِ » وقال <sup>(٢)</sup> أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَغْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ بَاعًا وَيُلْجِمُهُمْ وَيَبْلُغُ آذَانَهُمْ » كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح

وفي حديث آخر <sup>(٣)</sup> « قِيَامًا شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَى السَّمَاءِ فَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ مِنْ شِدَّةِ الْكَرْبِ »

وقال <sup>(٤)</sup> عقبة بن عامر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَذْنُو الشَّمْسُ مِنْ الْأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَغْرَقُ النَّاسُ فَيَنْزِلُ النَّاسُ مَنْ يَبْلُغُ عَرَقُهُ عَقْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ نِصْفَ سَاقِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ رُكْبَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَخِذَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ خَاصِرَتَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ فَاهُ » وأشار بيده فألجها فاه « وَمِنْهُمْ مَنْ يُغَطِّيهِ الْعَرَقُ » وضرب يده على رأسه هكذا

فتأمل يامسكين في عرق أهل المحشر وشدة كربهم ، وفيهم من ينادى فيقول :

( ١ ) حديث ابن عمر يوم يقوم الناس لرب العالمين - حق يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه : متفق عليه

( ٢ ) حديث أبي هريرة يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا - الحديث : أخرجاه في الصحيحين كما ذكر المصنف

( ٣ ) حديث قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب : ابن عدي من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى بن سليمان الجرجاني : ضعفه ابن معين وقال ابن عدي لا ظن أنه كان يعتمد الكذب لكن لعله تشبه عليه

( ٤ ) حديث عقبة بن عامر تذنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه الحديث رواه أحمد وفيه ابن لهيعة

رب أرخني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار . وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولا عقابا ، فإنك واحد منهم ، ولاتدرى إلى أين يبلغ بك العرق .  
واعلم أن كل عرق لم يخرج به التعب في سبيل الله من حج ، وجهاد ، وصيام ، وقيام ، ومردد في قضاء حاجة مسلم ، وتحمل مشقة في أمر بمعروف ونهي عن منكر ، فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ، ويطول فيه الكرب . ولوسلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا ، وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار في القيامة ، فإنه يوم عظيمة شدته ، طويلة مدته

## صفة

طول يوم القيامة

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم ، منفطرة قلوبهم ، لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ، ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون فيه روح نسيم . قال كعب وفتادة ( يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ <sup>(١)</sup> ) قال يقومون مقدار ثلثمائة عام . بل قال عبد الله <sup>(٢)</sup> بن عمرو : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال « كَيْفَ بِكُمْ إِذَا جَمَعَكُمْ اللَّهُ كَمَا تُجْمَعُ النَّبِلُ فِي الْكِنَانَةِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ لَا يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ »

وقال الحسن . ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة ، لا يأكلون فيها أكلة ، ولا يشربون فيها شربة ، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا ، واحتترقت أجوافهم جوعا ، انصرف بهم إلى النار ، فسقوا من عين آنية قد آن حرها ،

(١) حديث ابن عمرو تلا هذه الآية يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم قال كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم قلت إنما هو عبد الله بن عمر : ورواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راويا غير ابن وهب ولهم عبد الرحمن ابن ميسرة الحضرمي أربعة هذا أحدهم مصري والثلاثة الآخرون شاميون

واستبد لفحها . فلما بلغ المجهود منهم مالا طاقة لهم به ، كالم بعضهم بمننا في طلب من يكرم على مولاه ليشفع في حقهم ، فلم يتعلقوا بنبي إلا دفعهم وقال : دعوى نفسى نفسى ، شغلنى أمرى عن أمرغبرى . واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى ، وقال قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه لا يعلكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا

فتأمل في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه ، حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصى في صمرك المختصر

واعلم أن من طال انتظاره في الدنيا الموت ، لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات ، فإنه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال « وَلَئِى نَفْسِى بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يُكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ يُصَلِّيَهَا فِي الدُّنْيَا »

فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين ، فإدام يبق لك نفس من صمرك فالأمر إليك ، والاستعداد بيدك ، فاعمل في أيام قصار لأيام طوال تريح ربك بالانتهى لسروره ، واستحقر صمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة ، فإنك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان ربحك كثيرا ، وتمبك يسيرا

( ١ ) حديث مثل عن طول ذلك اليوم فقال والذى نفسى بيده إنه يخفف على المؤمن حتى يكون أهون

عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا : أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدرى وفيه ابن طهية وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن طهية وهو حسن ولأبى يعلى من حديث أبى هريرة بأسناد جيد يهون ذلك على المؤمن كقضى الشمس للغروب إلى أن تغرب : ورواه البيهقي في الشعب إلى أن قال أظنه رفعه بلفظ إن الله يخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة

## صفة

يوم القيامة ودواهبه وأساميه

فاستعد يامسكين لهذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه ، القريب  
أوانه : يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هولاء قد انتثرت ،  
والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد سيرت ، والمشار  
قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت ، والنفوس إلى الأبدان  
قد زوجت ، والجحيم قد سمرت ، والجنة قد أزلفت ، والجبال قد نسفت ،  
والأرض قد مدت

يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ  
يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم

يوم تحمل الأرض والجبال فدكنا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ،  
وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك  
فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية

يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة

يوم ترج الأرض فيه رجا ، وتبس الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا  
يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش  
يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى  
الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار  
يوم تنسف فيه الجبال نسفا ، فترك قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمثا  
يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب

يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لا يستل عن ذنبه  
انس ولا جان

يوم يمنع فيه الماصى من الكلام ، ولا يستل فيه عن الإجماع ، بل يؤخذ  
 بالنواصى والأفئدام  
 يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود  
 لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا  
 يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت ، وتشهد ما قدمت وأخرت .

يوم تحرس فيه الألسن ، وتنطق الجوارح  
 يوم شيب ذكره سيد المرسلين ، إذ قال له الصديق رضي الله عنه ، أراك قد شبت  
 يارسول الله . قال (١) « شَيْبَتْنِي هُوْدٌ وَأَخَوَاتُهَا » وهي الواقعة ، والمرسلات ، وعم  
 يتساءلون ، وإذا الشمس كورت . فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءة تلك  
 أن تجمع القراءان ، وتحرك به اللسان ، ولو كنت متفكرا فيما تقرؤه لكنت جديرا  
 بأن تنشق مزارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين . وإذا قنعت بحركة اللسان  
 فقد حرمت ثمرة القراءان ، فالقيامة أحد ما ذكر فيه ، وقد وصف الله بمض دواهيها  
 وأكثر من أساميها ، لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها ، فليس المقصود  
 بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب ، بل الغرض تنبيه أولى الألباب ،  
 فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر ، وفي كل نعت من نعوتها معنى فاحرص  
 على معرفة معانيها

ونحن الآن نجمع لك أساميها ، وهي يوم القيامة ، ويوم الحسرة ، ويوم الندامة ،  
 ويوم المحاسبة ، ويوم المسائلة ، ويوم المسابقة ، ويوم المناقشة ، ويوم المنافسة ،  
 ويوم الزلزلة ، ويوم الدمذمة ، ويوم الصاعقة . ويوم الواقعة ، ويوم القارعة ،  
 ويوم الراجفة ، ويوم الرادفة ، ويوم الفاشية ، ويوم الداهية ، ويوم الآزفة ،  
 ويوم الحاقفة ، ويوم الطامة ، ويوم الصاخة ، ويوم التلاق ، ويوم الفراق ،  
 ويوم المساق ، ويوم القصاص ، ويوم القناد ، ويوم الحساب ، ويوم المآب ،

(١) حديث شيبتي هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت : الترمذي وحسنه  
 والحاكم وصححه وقد تقدم

ويوم المذاب ، ويوم الفرار ، ويوم التقرار ، ويوم اللقاء ، ويوم البقاء ،  
 ويوم القضاء ، ويوم الجزاء ، ويوم البلاء ، ويوم البكاء ، ويوم الحشر ،  
 ويوم الوعيد ، ويوم العرض ، ويوم الوزن ، ويوم الحق ، ويوم الحكم ،  
 ويوم الفصل ، ويوم الجمع ، ويوم البعث ، ويوم الفتح ، ويوم الخزي ،  
 ويوم عظيم ، ويوم عقيم ، ويوم عسير ، ويوم الدين ، ويوم اليقين ، ويوم النشور ،  
 ويوم المصير ، ويوم النفخة ، ويوم الصيحة ، ويوم الرجفة ، ويوم الرجسة ،  
 ويوم الزجرة ، ويوم السكر ، ويوم الفزع ، ويوم الجزع ، ويوم المنتهى ،  
 ويوم المأوى ، ويوم الميقات ، ويوم الميعاد ، ويوم المرصاد ، ويوم القاق ، ويوم العرق ،  
 ويوم الافتقار ، ويوم الانكدار ، ويوم الانتشار ، ويوم الانشقاق ، ويوم الوقوف ،  
 ويوم الخروج ، ويوم الخلود ، ويوم التغابن ، ويوم عبوس ، ويوم معلوم ،  
 ويوم موعود ، ويوم مشهود ، ويوم لاريب فيه . ويوم تبلى السرائر ، ويوم  
 لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ويوم تشخص فيه الأبصار ، ويوم لا يغنى مولى  
 عن مولى شيئا ، ويوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، ويوم يدعون إلى نار جهنم  
 دُعا ، ويوم يسحبون في النار على وجوههم ، ويوم تقلب وجوههم في النار ،  
 ويوم لا يجزى والد عن ولده ، ويوم يضر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، ويوم  
 لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، يوم لا مرد له من الله ، يوم هم بارزون ،  
 يوم هم على النار يفتنون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، يوم لا تنفع الظالمين معذرتهم  
 ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، يوم ترد فيه المعاذير ، وتبلى السرائر ، وتظهر  
 الضمائر ، وتكشف الأستار ، يوم تخشع فيه الأبصار ، وتسكن الأصوات ، ويقل  
 فيه الالتفات ، وتبرز الخفيات ، وتظهر الخطيئات . يوم يساق العباد ومعهم الشهداء  
 ويشيب الصغير ، ويسكر الكبير ، فيومئذ وضعت الموازين ، ونشرت الدواوين  
 وبرزت الجحيم ، وأغلي الجحيم ، وزفرت النار ، ويئس الكفار ، وسمرت النيران ،  
 وتغيرت الألوان ، وخرس اللسان ، ونطقت جوارح الإنسان  
 فيها أيها الإنسان ما عرك ربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب ، وأرخت الستور

واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور ، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك فالويل كل الويل لنا معاشر النافلين ، يرسل الله لنا سيد المرسلين ، وينزل عليه الكتاب المبين ، ويخبرنا بهذه الصفات من نموت يوم الدين ، ثم يعرفنا غفلتنا ، ويقول ( اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَأِمْيَـةٌ قَلْبُوبُهُمْ <sup>(١)</sup> ) ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول ( اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ <sup>(٢)</sup> ) ( إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا <sup>(٣)</sup> ) ( وَمَا يَذُرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا <sup>(٤)</sup> ) ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملاً ، فلا تدبر معانيه ولا تنظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ، ولا نستعد للتخلص من دواهيهِ ، فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنّا الله بواسع رحمته

## صفة المسألة

ثم تفكر يامسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان ، فتسئل عن القليل والكثير ، والنقيض والقطيع . فيينا أنت في كرب القيامة وعرقها ، وشدة عذابها ، إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام ، وأشخاص ضخام غلاظ شداد ، أمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى موقف العرض على الجبار ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكًا مَا يَنْ شَفَرِي عَيْنِيهِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ » فساظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام الغرض ؟ وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم ، مستشعرين مما يدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لا يبقى نبي ، ولا صديق ، ولا صالح ، إلا ويخرون لأذقانهم خوفاً من

( ١ ) حديث ان لله عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيهِ مسيرة خمسمائة عام : لم أراه بهذا اللفظ

( ١ ) الأنبياء : ١ ، ٢ ، ٣ ( ٢ ) القمر : ١ ( ٣ ) النازعات : ٦ ، ٧ ( ٤ ) الأحزاب : ٦٣

أن يكونوا هم المأخوذون ، فهذا جال المقربين ، فما ظنك بالعصاة المجرمين ؟  
وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة : أفيكم ربنا ؟  
وذلك لعظم موكبهم ، وشدة هيبتهم . فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالا  
لخالقهم عن أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم منزهين لملكهم عما توهمه أهل  
الأرض ، وقالوا سبحان ربنا ما هو فينا ، ولكنه آت من بعد . وعند ذلك تقوم  
الملائكة صفا محدقين بالخالق من الجوانب ، وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع  
وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم ، وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله <sup>(١)</sup> ( فَلَنَسْأَلَنَّ  
الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقْصُصَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ )  
وقوله ( فَوَرَبَّكَ نَسْأَلُهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ <sup>(٢)</sup> ) فيبدأ سبحانه بالأنبياء  
( يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ  
الْغُيُوبِ <sup>(٣)</sup> ) . فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء ، وتنمحي علومهم من  
شدة الهيبة ، إذ يقال لهم ماذا أجبتهم وقد أرسلتم إلى الخلائق ، وكانوا قد علموا  
فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون ، فيقولون من شدة الهيبة لا علم لنا ،  
إنك أنت علام الغيوب . وهم في ذلك الوقت صادقون ، إذ طارت منهم العقول ،  
وانمحت العلوم ، إلى أن يقويهم الله تعالى ،

فيدعى نوح عليه السلام ، فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول نعم . فيقال لأمه  
هل بلغكم ؟ فيقولون ماأنا من نذير . ويؤتى بميسى عليه السلام ، فيقول  
الله تعالى له : أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله ؟ فيبقى  
متشحطا تحت هيئة هذا السؤال سنين ، فيالعظم يوم تقام فيه السياسة على  
الأنبياء بمثل هذا السؤال . ثم تقبل الملائكة ، فينادون واحدا واحدا ،  
يافلان بن فلانة ، هلم إلى موقف العرض . وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب  
الجوارح ، وتبهت العقول ، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ، ولا تعرض  
قبائح أعمالهم على الجبار ، ولايكشف سترهم على ملائ الخلائق



• وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ، وأشرفت الأرض بنور دبرها ، وأيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد ، وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه ، وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه . فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك : يا جبريل اثنى بالنار . فيجيب لها جبريل ويقول : يا جهنم أجبني خالقك ومليكك . فيصاففها جبريل على غيظها وغضبها ، فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت ، وفارت ، وزفرت إلى الخلائق وشهقت ، وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها ، وانتهضت خزنها متوثة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره فأخطر ببالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فرما وربما قفسا فطوا جثيا على الركب ، وولوا مدبرين . يوم ترى كل أمة جائية ، وسقط بعضهم على الوجوه منكبين . وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور ، وينادي الصديقون نفسى نفسى . فبينما هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية ، فتضاعف خوفهم ، وتخاذلت قواهم ، وظنوا أنهم مأخوذون . ثم زفرت الثالثة ، فتساقطت الخلائق على وجوههم ، وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي خاشع ، وانهمضت عند ذلك قلوب الظالمين ، فبلغت الحناجر كاظمين ، وذهلت المقول من السعداء والأشقياء أجمعين . وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال : ماذا أجبتم فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء ، اشتد الفزع على العصاة ، فقرّر الوالد من ولده ، والأخ من أخيه ، والزوج من زوجته ، وبقي كل واحد منتظرا لأمره ثم يؤخذ واحد واحد ، فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره ، وعن سره وعلايته ، وعن جميع جوارحه وأعضائه . قال أبو هريرة <sup>(١)</sup> : قالوا يا رسول الله هل ترى ربنا يوم القيامة ؟ فقال « هل تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ فِي الظُّهْرِ لَيْسَ دُونَهَا مَحَابٌ » قالوا لا قال « وَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ مَحَابٌ » قالوا لا قال « فَوَالَّذِي نَفْسِي يَدِيهِ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَا رَبِّكُمْ قَبْلَتِي الْمُبْدَى

(١) حديث أبي هريرة هل ترى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهر ليس دونهما محاب . الحديث : متفق عليه دون قوله قبلتي المبدى فأنفرد بها مسلم

فَيَقُولُ لَهُ أَلَمْ أَكْرَمْتُكَ وَأَسَوَّدْتُكَ وَأَزَوَّجْتُكَ وَأَسَخَّرْتُ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَذَرْتُكَ تَرَاسُ وَتَرْبَعٌ \* فَيَقُولُ الْعَبْدُ بَلَى فَيَقُولُ أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِي فَيَقُولُ لَا فَيَقُولُ فَأَنَا أَنْبَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي ۝

فتوهم نفسك ياسكين وقد أخذت الملائكة بعصديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاها ، فيقول لك ألم أنعم عليك بالشباب ؟ ففيما ذا أبليته ؟ ألم أمهل لك في العمر ؟ ففيما ذا أفنيته ؟ ألم أرزقك المال ، فمن أين اكتسبته ؟ وفيما ذا أنفقتة ؟ ألم أكرمك بالعلم ؟ فماذا عملت فيما علمت ؟ فكيف ترى حياك وخجلتك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك ، وأياديه ومساويك ، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك (١) قال أنس رضي الله عنه : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ثم قال « أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم . قال « مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ يَا رَبِّ أَلَمْ تُجَرِّنِي مِنَ الظُّلُمِ قَالَ يَقُولُ بَلَى قَالَ فَيَقُولُ فَإِنِّي لَأُجِزُّ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا قَالَ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ وَيُقَالُ لَأَرْكَانُهُ انْطَبَقَ قَالَ فَتَنْطَبِقُ بِأَعْمَالِهِ ثُمَّ يُخْلَى يَنْنُهُ وَيَنْتِ الْكَلَامَ فَيَقُولُ لِأَعْضَائِهِ بَعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنَّا كُنْتُ أَنَا ضِلُّ ۝ فنعوذ بالله من الافتضاح على ملائكة الخلق بشهادة الأعضاء . إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ، ولا يطلع عليه غيره . (٢) سأل ابن عمر رجل فقال له : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى ؟ فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ فَيَقُولُ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ نَعَمْ ثُمَّ يَقُولُ إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ۝ »

(١) حديث أنس أندرون مم أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبدربه - الحديث رواه مسلم

(٢) حديث سأل ابن عمر رجل فقال كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى

الحديث رواه مسلم

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « مَنْ سَتَرَ عَلَى مُؤْمِنٍ عَوْرَتَهُ سَتَرَهُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فهذا إنما يرجي لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم ، واحتمل في حق نفسه تقصيرهم ، ولم يحرك لسانه بذكر مساوئهم ، ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه ، فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة وهب أنه قد ستره عن غيرك ، أليس قد قرع صمك النداء إلى العرض ؟ فيكيفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك ، إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر ، وفرائصك مرتعدة ، وجوارحك مضطربة ، ولونك متغير ، والعالم عليك من شدة الهول مظلم . فقدرد نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب ، وتخرق الصفوف ، وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب ، وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم فتوهم نفسك أنك في أيدي الموكلين بك على هذه الصفة ، حتى أنهى بك إلى عرش الرحمن ، فرموك من أيديهم ، وناداك الله سبحانه وتعالى بمعظم كلامه يا ابن آدم ادن مني . فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل ، وطرف خاشع ذليل ، وفؤاد منكسر ، وأعطيت كتابك الذي لا ينادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فكم من فاحشة نسيها فتذكرتها ، وكم من طاعة غفلت عن آفاتنا فانكشف لك عن مساوئها فكم لك من خجل وجبن ، وكم لك من حصر وعجز ، فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه ، وبأي لسان تجيب ، وبأي قلب تمقل ماتقول

ثم تفكر في عظم حيائك إذا ذكرت ذنوبك شفاهاً ، إذ يقول يا عبيدي أما استحييت مني فبارزتنى بالقبيح ، واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجميل ؟ أكنت أهون عليك من سائر عبادي ؟ استخففت بنظري إليك فلم تكترث ، واستمظمت نظر غيري . ألم أنعم عليك ؟ فإذا غررك بي ؟ أظننت أنني لأراك وأنتك لا تلقاني ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَيَسْأَلُهُ اللَّهُ رَبُّهُ

(١) حديث من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة : تقدم

(٢) حديث ما منكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين - الحديث : متفق عليه من حديث ابن عمر عن أبي حاتم يلفظ إلا يسأله - الحديث

أَلَمْ يَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلَا تُرْجَانٌ « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> » لَيَقْفَنَ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ فَيَقُولُ لَهُ أَلَمْ أَنْعَمْ عَلَيْكَ أَلَمْ أُؤْتِكَ مَالاً؟ فَيَقُولُ بَلَى فَيَقُولُ أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولاً؟ فَيَقُولُ بَلَى ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ فَلْيَتَّقِ أَحَدُكُمْ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ »

وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا سيخارو الله عز وجل به كما يخارو أحدكم بالقر ليلة البدر ، ثم يقول يا ابن آدم ، ما غرتك بي ؟ يا ابن آدم ما عملت فيما علمت ؟ يا ابن آدم ماذا أجبته المرسلين ؟ يا ابن آدم ألم أكن رقيباً على عينك وأنت تنظر بها إلى ما لا يحل لك ؟ ألم أكن رقيباً على أذنك ؟ وهكذا حتى عد سائر أعضائه

وقال مجاهد : لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله من أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ما عمل فيه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفباذا أنفقه

فأعظم يامسكين بمجائلك عند ذلك وبخطررك ، فإنك بين أن يقال لك سنرتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ، وينبئك الأولون والآخرون ، وإما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء قتلوه ، ثم الجحيم صلوه ، وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديراً بمعظم مصيبتك ، وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله ، وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك

## صفة الميزان

ثم لا تنفل عن الفكر في الميزان ، وتطائر الكتب إلى الأيمان والشمال ، فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق : فرقة ليس لهم حسنة ، فيخرج من النار هنق

(١) حديث يقفن أحدكم بين يدي الله تعالى ليس بينه وبينه ترجان - الحديث : البخاري من حديث عدي بن حاتم

أسود فيلقطهم لقط الطير الحب ، وينطوى عليهم ويلقيهم في النار فتبتلعهم النار ، وينادى عليهم شقاوة لاسعادة بعدها . وقسم آخر لاسيئة لهم ، فينادى مناد ليقم الحمادون لله على كل حال ، فيقومون ويسرحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم تشمله تجارة الدنيا ولا يعمها عن ذكر الله تعالى ، وينادى عليهم سعادة لاشقاوة بعدها . ويبقى قسم ثالث ، وهم الأكثرون ، خلطوا صلا صالحا وآخر سيئا ، وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أوسيئاتهم ، ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند المغفرة ، وعدله عند العقاب ، فتطير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات ، وينصب الميزان ، وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع في اليمين أوفي الشمال ، ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات ، وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق

وروى <sup>(١)</sup> الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه في حجر عائشة رضي الله عنها ، فنفس ، فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها . فنقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتبه فقال « مَا يَبْكُكِ يَا عَائِشَةُ » قالت ذكرت الآخرة ، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ فِي ثَلَاثِ مَوَاطِنَ فَإِنَّ أَحَدًا لَا يَذْكُرُ إِلَّا نَفْسَهُ إِذَا وُضِعَتِ الْمَوَازِينُ وَوُزِنَتِ الْأَعْمَالُ حَتَّى يَنْظُرَ ابْنُ آدَمَ أَيَحْفَ مِيزَانُهُ أَمْ يَثْقُلُ وَعِنْدَ الصُّحُفِ حَتَّى يَنْظُرَ أَيْسَرِيهِ يَأْخُذُ كِتَابَهُ أَوْ يَشْمَالِهِ وَعِنْدَ الصَّرَاطِ »

وعن أنس قال : يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ، ويوكل به ملك ، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت بسمع الخلائق : سعي فلان سعادة

(١) حديث الحسن أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت - الحديث وفيه قال ما يبكيك يا عائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة - الحديث : أبو داود من رواية الحسن أنها ذكرت النار فبكت فقال ما يبكيك دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم في حجرها وأنه نفس واسناده جيد

لا يشقى بعدها أبدا . وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق : شقي فلان شقاوة  
لا يسعد بعدها أبدا .

وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد ، عليهم ثياب من  
نار فيأخذون نصيب النار إلى النار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة  
« إِنَّهُ يَوْمَ يُنَادِي اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ <sup>(١)</sup> . فَيَقُولُ لَهُ قُمْ يَا آدَمُ  
فَابْعَثْ بَعَثَ النَّارَ فَيَقُولُ وَكَمْ بَعَثَ النَّارَ فَيَقُولُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ  
وَتِسْعُونَ » فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتى ما أوضحوا بضاحكة . فلما رأى  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند أصحابه قال « اَعْمَلُوا وَأُبَشِّرُوا قَوْلَ الَّذِي نَفْسُ  
مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ . إِنَّ مَعَكُمْ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتْ مَعَ أَحَدٍ قَطُّ إِلَّا كَثُرَتْ لَهُ مَعَ مَنْ هَلَكَ  
مِنْ بَنِي آدَمَ وَبَنِي إِبْلِيسَ » قالوا وما هما يا رسول الله ؟ قال « يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ »  
قال فسرتى عن القوم فقال « اَعْمَلُوا وَأُبَشِّرُوا قَوْلَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ  
فِي النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ أَوْ كَالرَّقَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّائِيَةِ »

## صفة

الخصماء ورد المظالم

قد عرفت هول الميزان وخطره ، وأن العين شاخصة إلى لسان الميزان  
( فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ  
وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ نَارُ حَامِيَةٍ <sup>(١)</sup> ) واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب  
في الدنيا نفسه ، ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله ، وخطراته ولحظاته ،  
كما قال صهر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنها قبل أن

( ١ ) حديث يقول الله يا آدم قم فابث بئث النار فيقول وكم بئث النار فيقول من كل ألف تسعمائة  
وتسع وتسعون - الحديث : متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري  
من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم

توزنوا . وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ،  
ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى ، ويرد المظالم حبة بعد حبة ،  
ويستحل كل من تعرض له بلسانه ، ويده وسوء ظنه بقلبه ، ويطيب قلوبهم ،  
حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة ، فهذا يدخل الجنة بغير حساب  
وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه ، فهذا يأخذ يده ، وهذا يقبض  
على ناصيته ، وهذا يعلق بلبه . هذا يقول ظلمتني ، وهذا يقول شتمتني ، وهذا  
يقول استهزأت بي ، وهذا يقول ذكرتني في النية بما يسوءني ، وهذا يقول  
جاورتني فأسأت جوارى ، وهذا يقول عاملتني فغششني ، وهذا يقول بايستني  
فخبنتني وأخفيت عني عيب سلتك ، وهذا يقول كذبت في سر متاعك ، وهذا  
يقول رأيتني محتاجا وكنت غنيا فما أطمتني ، وهذا يقول وجدتنني مظلوما وكنت  
قادرا على دفع الظلم عني فداهنت الظالم ومارعتني ، فينا أنت كذلك وقد أنشب  
الخصماء فيك مخالفهم ، وأحكموا في تلايبك أيديهم ، وأنت مبهوت متحير من  
كثرتهم ، حتى لم يبق في صمرك أحد عاملته على درهم ، أو جالسته في مجلس ،  
إلا وقد استحق عليك مظلمة بنية ، أو خيانة ، أو نظر بعين استحقار ، وقد  
ضعفت عن مقاومتهم ، ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من  
أيديهم ، إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله ( الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا  
كَسَبَتْ لِأَظْلَمَ الْيَوْمِ <sup>(١)</sup> ) فمعد ذلك ينخلع قلبك من الهيبة ، وتوقن نفسك بالبوار ،  
وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال ( وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا  
يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي  
رُؤُسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدُتْهُمْ هَوَاهُ وَأَنْذِرِ النَّاسَ <sup>(٢)</sup> )  
فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس ، وتناولك أموالهم ،  
وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل ، وشوفت  
بخطاب السياسة ، وأنت مفلس فقير ، عاجز مهين ، لا تقدر على أن ترد حقا ،

أو تظهر عذرا ، فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك ، وتنقل إلى خصمائك عوضا عن حقوقهم . قال <sup>(١)</sup> أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هَلْ تَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ » قلنا المفلس فينا يا رسول الله من لادرهم له ولادينار ولامتاع قال « الْمُفْلِسُ مَنْ أُتِيَ مِنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ »

فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم ، إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكاييد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها . ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل ، لعلمت أنه لا ينقضي عنك يوم إلا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك ، فكيف يبقية السيئات من أكل الحرام والشبهات ، والتقصير في الطاعات ، وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجماء من القراء ، فقد روى أبو ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال <sup>(٢)</sup> « يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي فِيمَ يَنْتَطِحَانِ ؟ » قلت لا . قال « وَلَكِنَّ اللَّهَ يَذَرِي وَسِيقَئِي بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وقال أبو هريرة في قوله عز وجل ( وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ يُجْنَحِيهِ إِلَّا أُمُّهُ أُمَّالِكُمْ <sup>(١)</sup> ) إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ، البهائم ، والدواب ، والطيور ، وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القراء ، ثم يقول كوني ترابا . فذلك حين يقول الكافر بالبنى كنت ترابا

(١) حديث أبي هريرة هل تدرون من المفلس قالوا المفلس يا رسول الله من لادرهم له ولامتاع

الحديث : تقدم

(٢) حديث ياباذر أتدري فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن ربك يدري وسيقئ بينهما : أحمد من رواية

أشباح لم يسموا عن أبي ذر



فكيف أنت يامسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها  
تعبك ، فتقول أين حسناتي ؟ فيقال نقلت إلى صحيفة خصمائك . وترى . صحيفتك  
مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبك ، واشتد بسبب الكف عنها عناؤك ،  
فتقول يارب هذه سيئات ما قارقتها قط ، فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم ،  
وشتمتهم ، وقصدتهم بالسوء ، وظلمتهم في المباينة ، والمجاورة ، والمحاطبة ،  
والمناظرة ، والمذاكرة ، والمدارسة ، وسائر أصناف المعاملة قال (١) ابن مسعود :  
قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَسِسَ أَنْ تُعْبَدَ الْأَصْنَامُ  
بِأَرْضِ الْعَرَبِ وَلَيْكِنْ سَبَرَضَى مِنْكُمْ بِمَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ بِالْمَحَقَّرَاتِ وَهِيَ  
الْمُؤَبَّاتُ فَاتَّقُوا الظُّلْمَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَجِيءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَمْثَالِ الْجِبَالِ  
مِنَ الطَّاعَاتِ فَيَرَى أَنَّهَا سَبْنُجِيئَةٌ فَمَا يَزَالُ عَبْدٌ يَجِيءُ فَيَقُولُ رَبُّ إِنْ فَلَانَا  
ظَلَمْنِي بِمَظْلَمَةٍ فَيَقُولُ امْنَحْ مِنْ حَسَنَاتِي فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ مِنْ  
حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ وَإِنْ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ سَفَرٍ نَزَلُوا بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ لَيْسَ مَعَهُمْ  
حَطَبٌ فَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ فَحَطَبُوا فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ أُعْظِمُوا نَارَهُمْ وَصَنَعُوا مَا أَرَادُوا  
وَكَذَلِكَ الذُّنُوبُ »

(٢) ولما نزل قوله تعالى (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ لَأَنُكَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ  
رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ) (٣) قال الزبير : يارسول الله ، أبكرر علينا ما كان بيننا  
في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال « نَعَمْ لَيُكْرَرَنَّ عَلَيْكُمْ حَتَّى تُؤَدُّوا إِلَى

(١) حديث ابن مسعود ان الشيطان قد آيس ان تعبد الاصنام بأرض العرب ولكن سبرضى منكم بماهون  
ذلك المحقرات وهي الموبقات - الحديث : وفي آخره وان مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة  
الحديث : رواه أحمد والبيهقي في الشعب مقتصرًا على آخره اياكم ومحقرات الذنوب فانهم يجتمعون  
على الرجل حتى يهلكه وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لمن مثلاً الحديث وأسناده  
جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصراً من حديث جابر أن الشيطان قد آيس أن يعبد  
المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحرير بينهم

(٢) حديث لما نزل قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير يارسول  
الله أبكرر علينا ما كان بيننا الحديث أحمد واللفظه والترمذي من حديث الزبير وقال حسن صحيح

كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقُّهُ ، قال الزبير : والله إن الأمر لشديد  
 فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة ، ولا يتجاوز فيه عن لطفة ، ولا عن كلمة ،  
 حتى ينتقم للمظلوم من الظالم . قال <sup>(١)</sup> أنس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 يقول : « يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ عُرَاةً غُبْرًا بَيْنَهُمَا » قال قلنا ما بهما ؟ قال : لَيْسَ مَعَهُمْ  
 شَيْءٌ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ رَبُّهُمْ تَعَالَى بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ  
 أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ  
 أَهْلِ النَّارِ عَلَيْهِ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أَقْتَصَهُ مِنْهُ وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ  
 وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أَقْتَصَهُ مِنْهُ حَتَّى الْأَطْفَامِ ، قلنا وكيف  
 وإنما نأتى الله عز وجل عراة غبرا بهما ؟ فقال : بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ فَاتَّقُوا  
 اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ »

ومظالم العباد بأخذ أموالهم ، والتعرض لأعراضهم ، وتضييق قلوبهم ، وإساءة  
 الخلق في معاشرتهم ، فإن ما بين العبد وبين الله خاصة بالمغفرة إليه أسرع ، ومن  
 اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها ، وعسر عليه استحلال أرباب المظالم ، فلبس أكثر  
 من حسناته ليوم القصاص وَلَيْسَ ببعض الحسنات بينه وبين الله بكال الإخلاص ،  
 بحيث لا يطعم عليه إلا الله ، فعماء يقربه ذلك إلى الله تعالى ، فينال به لطفه  
 الذى يادخره لأحبابه المؤمنين فى دفع مظالم العباد عنهم ، كما روي عن <sup>(٢)</sup> أنس ،  
 عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 جالس ، إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه . فقال عمر : ما يضحكك يا رسول الله  
 بأبى أنت وأُمى ؟ قال : « رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي جَثِيَا بَيْنَ يَدَيَّ رَبِّ الْعِزَّةِ فَقَالَ  
 أَحَدُهُمَا يَا رَبِّ خُذْنِي مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى أُعْطِ أَخَاكَ مَظْلَمَتَهُ »

(١) حديث أنس يحشر العباد عراة غبرا بهما قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء . الحديث : قلت ليس من حديث

أنس وإنما هو عبيد الله بن أنس رواه أحمد بإسناد حسن وقال غزلا مكان غبرا

(٢) حديث أنس بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر

ما يضحكك يا رسول الله بأبى وأُمى قال رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العالمين الحديث

بطوله ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله والحاكم في المستدرک وقد تقدم

فَقَالَ يَا رَبِّ لَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلطَّالِبِ كَيْفَ تَصْنَعُ  
وَلَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ قَالَ يَا رَبِّ يَتَحَمَّلُ عَنِّي مِنْ أَوْزَارِي •  
قَالَ وَفَاضَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبُكَاءِ ثُمَّ قَالَ « إِنَّ ذَلِكَ لَيَوْمٌ  
عَظِيمٌ يَوْمٌ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ مِنْ أَوْزَارِهِمْ » قَالَ « فَقَالَ اللَّهُ  
لِلطَّالِبِ ارْفَعْ رَأْسَكَ فَانْظُرْ فِي الْجَنَانِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ يَا رَبِّ أَرَى مَدَائِنَ  
مِنْ فِضَّةٍ مُرْتَفِعَةً وَقُصُورًا مِنْ ذَهَبٍ مُكَمَّلَةً بِاللُّؤْلُؤِ لِأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا  
أَوْ لِأَيِّ صِدِّيقٍ هَذَا أَوْ لِأَيِّ شَهِيدٍ هَذَا قَالَ لَنْ أُعْطَاكَ الشَّيْءَ قَالَ يَا رَبِّ وَمَنْ  
يَمْلِكُ مَعْنَهُ قَالَ أَنْتَ تَمْلِكُهُ قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ غَفُوكَ عَنْ أَخِيكَ قَالَ يَا رَبِّ  
إِنِّي قَدْ غَفَوْتُ عَنْهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى خُذْ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ » ثُمَّ قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ « اتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ فَإِنْ  
اللَّهُ يُصْلِحْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ » وَهَذَا تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَنَالُ بِالتَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِ  
اللَّهُ ، وَهُوَ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَسَائِرُ الْأَخْلَاقِ

فَتَفَكَّرِ الْآنَ فِي نَفْسِكَ إِنْ خَلَّتْ صَحِيفَتُكَ عَنِ الْمَظَالِمِ ، أَوْ تَلَطَّفَ لَكَ حَتَّى عَفَا  
عَنْكَ ، وَأَيَقَنْتَ بِسَعَادَةِ الْأَبَدِ ، كَيْفَ يَكُونُ سُرُورُكَ فِي مَنْصَرَفِكَ مِنْ مَفْصَلِ  
الْقَضَاءِ ، وَقَدْ خَلَعَ عَلَيْكَ خِلْمَةَ الرِّضَا ، وَعَدْتَ بِسَعَادَةٍ لَيْسَ بِمَدَهَا شَقَاءٌ ، وَبِنَعِيمٍ  
لَا يَدُورُ بِجَوَاشِيهِ الْفَنَاءِ . وَعِنْدَ ذَلِكَ طَارَ قَلْبُكَ سُرُورًا وَفَرَحًا ، وَابْيَضَ وَجْهُكَ  
وَاسْتَنَارَ ، وَأَشْرَقَ كَمَا يَشْرُقُ الْقَمَرُ لِبَلَّةِ الْبَدْرِ ، فَتَوَهَّمُوا تَبَخُّرُكَ بَيْنَ الْخَلَائِقِ رَافِعًا  
رَأْسَكَ ، خَالِيًا عَنِ الْأَوْزَارِ ظَهْرَكَ ، وَنُضْرَةً نَسِيمِ النِّعَمِ وَبَرْدِ الرِّضَا يَتَلَاوُذًا مِنْ  
جَبِينِكَ ، وَخَلَقَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَإِلَى حَالِكَ ، وَيَنْبُطُونَكَ فِي  
حُسْنِكَ وَجَمَالِكَ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَمْشُونَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَمِنْ خَلْفِكَ ، وَيَنَادُونَ عَلَى رِءُوسِ  
الْأَشْهَادِ هَذَا فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ، وَقَدْ سَعِدَ سَعَادَةً لَا يَشْتِي  
بِمَدَهَا أَبَدًا . أَقْتَرَى أَنَّ هَذَا الْمَنْصَبَ لَيْسَ بِأَعْظَمِ مِنَ الْمَكَانَةِ الَّتِي تَنَالُهَا فِي قُلُوبِ  
الْخَلْقِ فِي الدُّنْيَا بِرِيَائِكَ ، وَمَدَاهِنَتِكَ ، وَتَصْنَعِكَ ، وَتَزِينِكَ ؟ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ

خير منه ، بل لانسبة له إليه ، فتوصل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافي ،  
والنية الصادقة في معاملتك مع الله ، فلن تدرك ذلك إلا به  
وإن تكن الأخرى والمياذ بالله ، بأن خرج من صحتك جرمة كنت تحسبها  
هينة وهي عند الله عظيمة ، فقتك لأجلها ، فقال عليك لعنتي يا عبد السوء ،  
لأقبل منك عبادتك ، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسود وجهك ، ثم تغضب  
الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون . عليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين ، وعند  
ذلك تنثال إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها ، فأقدمت عليك بفظاظها ،  
وزمارتها ، وصورها المنكرة ، فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملاء  
الخلق ، وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك ، وإلى ظهور خزيك ، وأنت تنادى  
بالويل والثبور ، وهم يقولون لك لا تدع اليوم ثورا واحدا وادع ثورا كثيرا ،  
وتنادى الملائكة ويقولون ، هذا فلان بن فلان ، كشف الله عن فضائحه ومخازيه  
ولعنه بقبائح مساويه ، فشقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا . ورعا يكون ذلك بذنب  
أذنبته خفية من عباد الله ، أو طلبا للمكانة في قلوبهم ، أو خوفا من الافتضاح عند  
فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا  
المنقرضة ، ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملاء العظيم ، مع التعرض  
لسخط الله وعقابه الأليم ، والسياق بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم . فهذه أحوالك  
وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط

## صفة الصراط

ثم تفكر بعد هذه الأهوال في قول الله تعالى ( يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى  
الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثَةً ) وفي قوله تعالى ( فَأَهْدُوهُمْ  
إِلَى صِرَاطٍ الْجَحِيمِ وَفَقُّوهُمْ ) (١) (٢) فإن الناس بعد هذه الأهوال  
يساقون إلى الصراط ، وهو جسر ممدود على متن النار ، أحد من السيف ، وأدق

(١) مريم : ٨٥ ، ٨٦ (٢) الصافات : ٢٣ ، ٢٤

من الشعر ، فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط  
الآخرة ونجا ، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا ، وأثقل ظهره بالأوزار وعصى ،  
تعثّر في أول قدم من الصراط . وتردى . فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك  
إذا رأيت الصراط ودقته ، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، ثم قرع  
سمك شهيق النار وتغيظها ، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك ،  
واضطراب قلبك ، وتزلزل قدمك ، وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على  
بساط الأرض فضلا عن حدة الصراط ، فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك  
فأحسست بحدته ، واضطرت إلى أن ترفع القدم الثانية ، والخلائق بين يديك  
يزلون ويتعثرون ، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلايب ، وأنت تنظر  
إليهم كيف يتنكسون فتسفل إلى جهة النار رهوسهم ، وتعلو أرجلهم ، فباله  
من منظر ما أفظمه ، ومرتقي ما أصعبه ، ومجاز ما أضيقه

فانظر إلى حالك وأنت ترحف عليه ، وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك ،  
تلتفت يمينا وشمالا إلى الخلق وهم يتهافون في النار ، والرسول عليه السلام يقول  
يارب سلم سلم ، والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة  
من زل عن الصراط من الخلائق ، فكيف بك لو زلت قدمك ، ولم ينفعك ندمك  
فناديت بالويل والثبور ، وقلت هذا ما كنت أخافه ، يا ليتني قدمت لحياتي ،  
يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ، يا ليتني كنت  
ترابا ، يا ليتني كنت نسيا منسيا ، يا ليت أُمِّي لم تلدني . وعند ذلك تختطفك النيران  
والعياذ بالله ، وينادي المنادي اخسؤا فيها ولا تكلمون ، فلا يبقى سبيل إلا الصباح  
والأنين ، والتنفس والاستغاثة ، فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين  
يديك ، فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات  
جهنم . وإن كنت به مؤمنا وعنه غافلا ، وبلاستعداد له متهاونا ، فما أعظم  
خسرانك وطغيانك ، وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يعمك على السعي في طلب رضا  
الله تعالى بطاعته وترك معاصيه ؟ فلو لم يكن بين يدك إلا هول الصراط ،

خارت باع قلبك من خطر الجواز عليه وإن سلمت ، فناهيك به هولا وفزعا ورعبا  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « يُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ  
فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ بِأَمْتِهِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ  
وَدُعُوِي الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمُ اللَّهُمَّ سَلِّمُ اللَّهُمَّ سَلِّمُ اللَّهُمَّ سَلِّمُ اللَّهُمَّ سَلِّمُ  
السَّعْدَانِ هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ ؟ » قالوا نعم يا رسول الله . قال « فَإِنَّهَا مِثْلُ  
شَوْكَ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عَظِيمِهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى تَخْطِيفُ النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ  
فِيْنَهُمْ مَنْ يُؤْتَقُ بِعَمَلِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرَدَلُ ثُمَّ يَنْجُو » وقال (٢) أبو سعيد  
الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَمُرُّ النَّاسُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ  
وَعَلَيْهِ حَسَكٌ وَكَلَالِبُ وَخَطَاطِيفُ تَخْطِيفُ النَّاسَ يَمِينًا وَشِمَالًا وَعَلَى جَنْبَيْهِ  
مَلَائِكَةٌ يَقُولُونَ اللَّهُمَّ سَلِّمُ اللَّهُمَّ سَلِّمُ اللَّهُمَّ سَلِّمُ اللَّهُمَّ سَلِّمُ اللَّهُمَّ سَلِّمُ  
مَنْ يَمُرُّ كَالرَّيْحِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْمَجْرِيِّ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَنِي سَعْيًا  
وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْبُوا حَبْوًا وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْخَفُ زَحْفًا فَأَمَّا أَهْلُ  
النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَلَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيَوْنَ وَأَمَّا نَاسٌ فَيُؤْخَذُونَ  
بِذُنُوبٍ وَخَطَايَا فَيَحْتَرِقُونَ فَيَكُونُونَ نَفْثًا ثُمَّ يُؤْذَنُ فِي الشَّفَاعَةِ » وذكر إلى  
آخر الحديث ، وعن (٣) ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم قال  
« يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمَقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً شَاخِصَةً  
أَبْصَارُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُونَ فَصَلَ الْقَضَاءِ » وذكر الحديث إلى أن ذكر  
وقت سجود المؤمنين قال « ثُمَّ يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ارْقَعُوا رُؤُوسَكُمْ فَيَرْقَعُونَ  
رُؤُوسَهُمْ فَيُعْطِيهِمْ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فَيَنْتَظِرُونَ نُورَهُ مِثْلَ الْجَبَلِ

( ١ ) حديث ينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يجيز: متفق عليه من حديث أبي هريرة

في أثناء حديث طويل

( ٢ ) حديث أبي سعيد يحشر الناس على جسر جهنم وعليه حنك وكلالب وخطاطيف - الحديث :

متفق عليه مع اختلاف ألفاظ

( ٣ ) حديث ابن مسعود يجمع الله الأولين والآخرين لمقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخته أبصارهم

إلى السماء ينتظرون فصل القضاء قال وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين - الحديث :

بطوله رواه ابن عدي والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا

الْعَظِيمِ يَسْتَعِي يَدَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورُهُ أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورُهُ مِثْلَ النَّخْلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورُهُ أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ رَجُلًا يُعْطَى نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ فَيُضِيءُ مَرَّةً وَيَحْبُو مَرَّةً فَإِذَا أَضَاءَ قَدَمَ قَدَمِهِ فَمَشَى وَإِذَا أَظْلَمَ قَامَ ، ثُمَّ ذَكَرَ مَرُورَهُمْ عَلَى الصَّرَاطِ عَلَى قَدَرِ نُورِهِمْ فَهُمْ مِنْ يَمْرِ كَطَرَفِ الْعَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْرِ كَالْبَرْقِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْرِ كَالسَّحَابِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْرِ كَانْقِضَاضِ الْكَوَاكِبِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْرِ كَشَدِّ الْفَرَسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْرِ كَشَدِّ الرَّجُلِ ، حَتَّى يَمْرِ الَّذِي أُعْطِيَ نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ يَحْبُو عَلَى وَجْهِهِ وَيُدِيهِ وَرَجْلَيْهِ ، تَجَرُّ مِنْهُ يَدٌ ، وَتَمْلُقُ أُخْرَى ، وَتَمْلُقُ رَجُلٌ ، وَتَجَرُّ أُخْرَى ، وَتَصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ . قَالَ « فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَخْلُصَ فَإِذَا خُلِّصَ وَقَفَ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا إِذْ نَجَّيَنِي مِنْهَا بَعْدَ إِذْ رَأَيْتَهَا فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى غَدِيرٍ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ فَيَغْتَسِلُ »

وقال (١) أنس بن مالك : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الصَّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ أَوْ كَحَدِّ الشَّعْرَةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُنْجُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَأَخِذٌ بِحُجْرَتِي وَإِنِّي لَأَقُولُ يَا رَبِّ سَلِّمْ وَسَلِّمْ فَالزَّالُونَ وَالزَّالَاتُ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ »

فهذه أهوال الصراط وعظائمه ، فطوّل فيه فكرك ، فإن أسلمَ الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا ، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد ، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة . ولست أعني بالخوف رقة كرقاة النساء تدمع عينك ، ويرق قلبك حال السماع ، ثم تنساه على القرب ، وتعود إلى لهوك ولعبك ، فماذا من الخوف في شيء . بل من خاف شيئاً هرب منه ، ومن رجا شيئاً طلبه ، فلا ينجيكَ إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ، ويحثك على طاعته

( ١ ) حديث أنس الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة - الحديث : البيهقي في الشعب وقال هذا اسناد ضعيف

قال وروي عن زياد النخعي عن أنس مرفوعاً الصراط كحد الشعرة أو كحد السيف قال وهي رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة

وأبعد من رقة النساء خوف الحلقى ، إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم : استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم . وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم ، فالشيطان يضحك من استعاذتهم ، كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ، ووراء حصن ، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بُعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين ، وأستعين بشدة بنيانه ، وإحكام أركانه ، فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه . فأني يغني ذلك عنه من السبع ! وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقا ، ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ، ولا معبود غيره ، ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده ، وأمره خطر في نفسه

فإن هجرت عن ذلك كله فكن محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حريصا على تعظيم سنته ، ومتشوقا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ، ومتبركا بأدعيتهم فمسالك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم ، فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة

## صفة الشفاعة

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين ، فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعاة الأنبياء والصديقين ، بل شفاعاة العلماء والصالحين . وكل من له عند الله جاه وحسن معاملة ، فإن له شفاعاة في أهله ، وقرابته ، وأصدقائه . ومعارفه . فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعاة ، وذلك بأن لا تحقر آدميا أصلا ، فإن الله تعالى خبا ولايته في عباد ، فلعل الذي تدر به عينك هو ولي الله ، ولا تستصغر معصية أصلا ، فإن الله تعالى خبا غضبه في معاصيه ، فلعل مقت الله فيه . ولا تستحقر أصلا طاعة ، فإن الله تعالى خبا رضاه في طاعته ، فلعل رضاه فيه ، ولو الكلمة الطيبة ، أو اللقمة ، أو النية الحسنة ، أو ما يجري مجراه وشواهد الشفاعاة في القرآن والأخبار كثيرة . قال الله تعالى ( وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى <sup>(١)</sup> )

(١) الضحى : ٥



روى (١) عمرو بن العاص ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام ( رَبِّ إِنِّي أٌضِلُّنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) (٢) وقول عيسى عليه السلام ( إِنِّي مُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ) (٣) ثم رفع يديه وقال « أُمَّتِي أُمَّتِي » ثم بكى . فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يسئلك ؟ فأتاه جبريل فساله ، فأخبره والله أعلم به ، فقال يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولانسوءك وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَثَرَابُهَا طُحُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِّنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكُلُّ نَبِيٍّ بُعِثَ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » وقال صلى الله عليه وسلم « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ . وَخَطِيبَهُمْ وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ مِنْ غَيْرِ فَخْرٍ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ لِّوَلَاءِ الْحَمْدِ تَحْتَهُ آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُّسْتَجَابَةٌ »

(١) حديث عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه وسلم رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم وقول عيسى صلى الله عليه وسلم ان تعذبهم فانهم عبادك ثم رفع يديه ثم قال أمقي أمقي ثم بكى - الحديث : وفيه يا جبريل اذهب الى محمد فقل اناسنرضيك ولانسوءك في أمتك قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وانما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كإرواه مسلم وعله سقط من الاحياء ذكر عبد الله من بعض النساخ

(٢) حديث أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى - الحديث : وفيه وأعطيت الشفاعة متفق عليه من حديث جابر اذا كان يوم القيامة كنت امام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير نخر: الترمذى

وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذى حسن صحيح

(٣) حديث أنا سيد ولد آدم ولا فخر - الحديث : الترمذى وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدرى

(٤) حديث لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أخشى دعوتى شفاعته لأمقي يوم القيامة: متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة

فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتِيءَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

(١) وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُنْصَبُ لِلْأَنْبِيَاءِ مَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ فَيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا وَيَبْقَى مِنْبَرِي لَا أَجْلِسُ عَلَيْهِ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيَّ رَبِّي مُتَضَمِّيًا خَافَةً أَنْ يَبْعَثَ بِي إِلَى الْجَنَّةِ وَتَبْقَى أُمَّتِي بَعْدِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَا مُحَمَّدُ وَمَا تُرِيدُ أَنْ أَصْنَعَ بِأُمَّتِكَ؟ فَأَقُولُ يَا رَبِّ عَجِّلْ حِسَابَهُمْ فَإِنِّي أَشْفَعُ حَتَّى أُعْطَى صَكَكَ بَرَجَالٍ قَدْ بُعِثَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ وَحَتَّى أَنْ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ يَقُولُ يَا مُحَمَّدُ مَا تَرَكْتَ النَّارُ لِعُظْبِ رَبِّكَ فِي أُمَّتِكَ مِنْ بَقِيَّةٍ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنِّي لَا أَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَكْثَرِ مِمَّا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ حَجَرٍ وَمَدَرٍ »

وقال (٣) أبو هريرة : أني رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه ، ففُهِشَ مِنْهَا نَهْشَةً ثُمَّ قَالَ « أَنَا سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهَلْ تَذَرُونَنِي مِنْ ذَلِكَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفِذُهُمُ الْبَصَرُ وَتَذْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطْلِقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَلَا تَرَوْنَ مَا فَعَلَ بَلْفَكُمُ إِلَّا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ عَلَيْكُمْ بِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ يَدِيهِ وَفَتَحَ فَيْكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ أَشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ

(١) حديث ابن عباس ينصب للأنبياء منابر من ذهب يجلسون عليها ويبقى منبري لأجلس عليه قائما بين يدي

ربي منتصباً - الحديث : الطبراني في الأوسط وفي إسناده محمد بن ثابت البناني ضعيف

(٢) حديث أني لاشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدرة : أحمد والطبراني ، بن حديث

بريدة بسند حسن

(٣) حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بلحم فرفع إليه الذراع وكان يعجبه ففُهِشَ

منها نهشة ثم قال أنا سيد الناس - الحديث : بطوله في الشفاعة قال وفي حديث آخر هذا

الباق مع ذكر خطايا إبراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجها مسلم

أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ إِلَّا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا فَيَقُولُ لَهُمْ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ  
وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَتَصَيَّتُهُ نَفْسِي نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى  
نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ  
الْأَرْضِ وَقَدْ سَأَلَكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا أَشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ  
فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ  
مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي  
أَذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ  
أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ  
فِيهِ فَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَا  
يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ وَبَدَّ كُرْهَا نَفْسِي نَفْسِي  
أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ  
يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَضَّلَكَ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ أَشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ  
أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ  
وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِي نَفْسِي  
أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ  
يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَكَانَتْ النَّاسُ  
فِي الْمَهْدِ أَشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ  
إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ  
وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا نَفْسِي نَفْسِي أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي أَذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَغَفَرَ  
اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ أَشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ  
فِيهِ فَأَنْطَلِقُ فَأَتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَتَعُ سَاحِدًا لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ لِي مِنْ

مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ  
ارْفَعْ رَأْسَكَ مَكَانَ نُعْطَ وَأَشْفَعْ تُشَفِّعُ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ أُمِّي أُمِّي يَا رَبَّ  
فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ادْخُلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَاحِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْإِيمَنِ مِنْ  
أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ سُرَّكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ « ثُمَّ قَالَ  
« وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ بَيْنَ الْمَصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ  
وَحِجْرَ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى »

وفي حديث آخر هذا السياق بعينه ، مع ذكر خطايا إبراهيم ، وهو قوله  
في الكواكب هذا ربي ، وقوله لآلهتهم بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله إني سقيم  
فهذه شفاعته رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولأحد أمته من العلماء والصالحين  
شفاعة أيضا ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ  
وَجُلٍّ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ رِبْعَةِ وَمُضَرَّ »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « يُقَالُ لِلرَّجُلِ قُمْ يَا فُلَانُ فَاشْفَعْ فَيَقُومُ الرَّجُلُ  
فَيَشْفَعُ لِلْقَبِيلَةِ وَلِأَهْلِ الْبَيْتِ وَلِلرَّجُلِ وَالرَّجُلَيْنِ عَلَى قَدَرِ عَمَلِهِ »  
وقال <sup>(٣)</sup> أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ  
الْجَنَّةِ يُشْرِفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَهْلِ النَّارِ فَيَنَادِيهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَيَقُولُ

( ١ ) حديث يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من ربيعة ومضر : رواه في جزءه أبي عمر بن السماك  
من حديث أبي امامة إلا أنه قال مثل أحد الحارين ربيعة ومضر وفيه فكان المشيخة يرون أن ذلك  
الرجل عثمان بن عفان واسناده حسن والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله  
ابن أبي الجعدا يدخل الجنة بشفاعة الرجل من أمتي أكثر من بني تميم قالوا سواك قال سوى  
قال الترمذي حسن صحيح وقال الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويضا

( ٢ ) حديث يقال للرجل قُمْ يَا فُلَانُ فَاشْفَعْ فَيَقُومُ لِلْقَبِيلَةِ وَلِأَهْلِ الْبَيْتِ وَلِلرَّجُلِ وَالرَّجُلَيْنِ عَلَى قَدَرِ  
عمله : الترمذي من حديث أبي سعيد أن من أمتي من يشفع للناس ومنهم من يشفع للقبيلة  
الحديث : وقال حسن وللبرار من حديث أنس أن الرجل يشفع للرجلين والثلاثة

( ٣ ) حديث أنس أن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار  
ويقول يا فُلَانُ هَلْ تَعْرِفُنِي فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ مَا عَرَفْتُكَ مِنْ أَنْتَ فَيَقُولُ أَمَا الَّذِي مَرَرْتُ بِهِ فِي اللَّهِ دِيَا  
يَوْمًا فَاسْتَفَيْتَنِي شُرْبَةَ نَسِيتُكَ - الحديث : في شفاعته فيه وإخراجه من النار أبو منصور  
البيهقي في مسنده الترمذي بسند ضعيف

يَا فُلَانُ هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ لَا وَاللَّهِ مَا أَعْرِفُكَ مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ أَنَا الَّذِي مَرَرْتُ  
بِي فِي الدُّنْيَا فَاسْتَسْقَيْتَنِي شَرْبَةَ مَاءٍ فَسَقَيْتُكَ فَقَالَ قَدْ عَرَفْتُ قَالَ فَاسْتَسْقَيْتَنِي  
بِهَا عِنْدَ رَبِّكَ فَيَسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ وَيَقُولُ إِنِّي أَشْرَفْتُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ  
فَنَادَانِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِهَا فَقَالَ هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَقُلْتُ لَا مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ أَنَا الَّذِي  
اسْتَسْقَيْتَنِي فِي الدُّنْيَا فَسَقَيْتُكَ فَاسْتَسْقَيْتَنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَسَقَيْتَنِي فِيهِ فَيُشَفِّعُهُ اللَّهُ فِيهِ  
فَيُؤَمِّرُهُ بِهِ فَيُخْرِجُهُ مِنَ النَّارِ «

وعن أنس <sup>(١)</sup> قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا  
إِذَا بُعِثُوا وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا يَتَسَوَّاهُ الْخَمْدُ يَوْمَئِذٍ  
بِيَدِي وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنِّي أَقُومُ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ  
فَأُكْسَى حُلَّةً مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ أَقُومُ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ  
يَقُومُ ذَلِكَ الْمَقَامَ غَيْرِي »

وقال <sup>(٣)</sup> ابن عباس رضي الله عنهما : جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ينتظرونه ، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ، فسمع حديثهم  
فقال بعضهم : عجبا ! إن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا ، اتخذ إبراهيم خليلا .  
وقال آخر : ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليما . وقال آخر . فعيسى كلمة الله وروحه .  
وقال آخر آدم اصطفاه الله . فخرج لهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال « قَدْ  
سَمِعْتُ كَلَامَكُمْ وَتَعَجَّبْتُكُمْ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ وَهُوَ كَذَلِكَ وَمُوسَى نَبِيُّ  
اللَّهِ وَهُوَ كَذَلِكَ وَعِيسَى رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ وَهُوَ كَذَلِكَ وَآدَمُ اصْطَفَاهُ اللَّهُ وَهُوَ  
كَذَلِكَ أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا حَامِلُ لَوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ

- ( ١ ) حديث أنس أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا - الحديث : الترمذی وقال حسن غريب  
( ٢ ) حديث فأكسى حلة من حلال الجنة ثم أقوم عن يمين العرش - الحديث : الترمذی من حديث  
أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح  
( ٣ ) حديث ابن عباس جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا  
دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا ! إن الله اتخذ من خلقه خليلا اتخذ  
إبراهيم خليلا - الحديث : رواه الترمذی وقال غريب

وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ  
يُحَرِّكُ خَلْقَ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُ اللَّهُ لِي فَأَدْخُلُهَا وَمَعِيَ فَقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا فَخْرَ  
وَأَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَلَا فَخْرَ ،

## صفة الحوض

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد  
اشتملت الأخبار على وصفه ، ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه ،  
وفي الآخرة ذوقه ، فإن من صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبدا قال <sup>(١)</sup> أنس :  
أغنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أغفاءة فرفع رأسه متبسما ، فقال له يارسول الله  
لم ضحكت ؟ فقال « آيَةُ أَنْزِلَتْ عَلَيَّ آفَاءً » وقرأ ( بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ )  
إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ <sup>(٢)</sup> حتى ختمها ثم قال « هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ ؟ » قالوا  
الله ورسوله أعلم ، قال « إِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي الْجَنَّةِ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ  
عَلَيْهِ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آيَتُهُ عَدَدُ بُحُورِ السَّمَاءِ »  
وقال <sup>(٣)</sup> أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَتَنَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ  
إِذَا نَهَرَ حَافَتَاهُ قَبَابُ اللَّوْلُؤِ الْمَجُوفِ قُلْتُ مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ هَذَا الْكَوْثَرُ  
الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ فَضْرَبَ أَلَمَّاكَ يَدِهِ فَإِذَا طِبْنُهُ مِسْكٌ أَذْفَرُ »  
وقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول <sup>(٤)</sup> « مَا بَيْنَ لَابَتَيْ حَوْضِي  
مِثْلُ مَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَصَنْعَاءَ أَوْ مِثْلُ مَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَنَعْمَانَ »

- ( ١ ) حديث أنس أغنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يارسول الله  
لم ضحكت فقال آية نزلت على آفأ وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر رواه مسلم  
( ٢ ) حديث أنس بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف - الحديث : الترمذي وقال  
حسن صحيح ورواة البخاري من قول أنس لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء  
الحديث : وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبي صلى الله عليه وسلم  
( ٣ ) حديث أنس ما بين لابتى حوضي مثل ما بين المدينة وصنعاء أو مثل ما بين المدينة ونعمان : رواه مسلم

وروى <sup>(١)</sup> ابن عمر إنه لما نزل قوله تعالى ( إِنَّا أُعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ <sup>(٢)</sup> ) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ شَرَابُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ يَجْرِي عَلَى جَنَادِلِ الْأَوْكُوتِ وَالْمَرْجَانِ »

وقال <sup>(٣)</sup> ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ حَوْضِي مَا بَيْنَ عَدْنِ إِلَى عَمَّانِ الْبَلَقَاءُ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَكْوَابُهُ عَدَدُ نَجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا أَوَّلُ النَّاسِ وَرُودًا عَلَيْهِ فَقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ » فقال عمر ابن الخطاب : ومن هم يارسول الله ؟ قال : همُ الشَّعْثُ رُؤُوسُ الدُّنْسِ ثِيَابُ الَّذِينَ لَا يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعِمَاتِ وَلَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّدَدِ » فقال عمر بن عبد العزيز : والله لقد نسكحت المتنعمات : فاطمة بنت عبد الملك ، وفتحت لي أبواب السدد إلا أن يرحمني الله لأجرم لأدهن رأسى حتى يشعث ، ولا أغسل ثوبى الذى على جسدى- حتى يتسخ

<sup>(٤)</sup> وعن أبى ذر قال : قلت يارسول الله ، ما آية الحوض ؟ قال « وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَنْتَهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نَجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ آخِرُ مَا عَلَيْهِ يَشْخُبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ مَا بَيْنَ عَمَّانَ وَآيَةَ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ »

( ١ ) حديث ابن عمر لما نزل قوله تعالى إِنَّا أُعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هوانهر في الجنة حافاه من ذهب - الحديث : الترمذى مع اختلاف لفظ وقال حسن صحيح ورواه الداريمى في مسنده وهو أقرب إلى لفظ الصنف

( ٢ ) حديث ثوبان ان حوضى ما بين عدن الى عمان البقا - الحديث : الترمذى وقال غريب وابن ماجه

( ٣ ) حديث أبى ذر قلت يارسول الله ما آية الحوض قال والذى نفسى بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء - الحديث : رواه مسلم

وعن <sup>(١)</sup> سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنْ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ وَارِدَةً »  
 فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون في جملة  
 الواردين ، وليحذر أن يكون متمنيا ومغتريا وهو يظن أنه راج ، فإن الراجي للحصاد  
 من بثّ البذر ، ونقى الأرض ، وسقاها الماء ، ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات  
 ودفع الصواعق إلى ألوان الحصاد . فأما من ترك الحزائنة أو الزراعة ، وتنقية الأرض  
 وسقيها ، وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة ، فهذا مغتر ومتمن  
 وليس من الراجين في شيء . وهكذا رجاء أكثر الخلق ، وهو غرور الحق ،  
 نعوذ بالله من الغرور والنفلة ، فإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا .  
 قال الله تعالى ( فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ <sup>(١)</sup> )

## القول

في صفة جهنم وأهوالها وأنكالاها

بأيها الغافل عن نفسه ، المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على  
 الانقضاء والزوال ، دع التفكير فيما أنت مرتحل عنه ، واصرف الفكر إلى  
 موردك ، فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل ( وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا  
 كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا <sup>(٢)</sup> )  
 فانت من الورود على يقين ، ومن النجاة في شك . فاستشعر في قلبك هول  
 ذلك المورد ، فعمساك تستعد للنجاة منه . وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا  
 من دواهي القيامة ما قاسوا ، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفا ينتظرون حقيقة  
 أنبائها ، وتشفيع شفعاؤها ، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأظلت

( ١ ) حديث سمرة أن لكل نبي حوضا وانهم ليتباهون أيهم أكثر واردة - الحديث : الترمذي وقال غريب  
 قال وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم  
 مرسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح

(١) فاطر : ه (٢) مريم : ٦٩ ، ٧٠



عليهم نار ذات لهب ، وسموا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة النبط والنصب ، فعند ذلك أيقن المجرمون بالمطب ، وجثت الأمم على المركب ، حتى أشفق البراء من سوء المقلب ، وخرج المنادى من الزبانية قائلا : أين فلان بن فلان المصروف نفسه في الدنيا بطول الأمل ، المضيع عمره في سوء العمل ؟ فيبادرونه بمقامع من حديد ، ويستقبلونه بمطائم التهديد ، ويسوفونه إلى المذاب الشديد ، وينكسونه في قعر الجحيم ، ويقولون له ( ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ )<sup>(١)</sup> فأمسكوا دارا ضيقة الأرجاء ، مظلمة المسالك ، مبهمة المهالك ، يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير . شرابهم فيها الحميم ، ومستقرم الجحيم ، الزبانية تقبهم ، والهاوية تجمعهم . أمانهم فيها الهلاك ، ومألمهم منها فكاك . قد شدت أقدامهم إلى النواصي ، واسودت وجوههم من ظلمة المصاى . يتادون من أكافها ، ويسبحون في نواحيها وأطرافها ، يأمالكُ قد حق علينا الوعيد ، يأمالكُ قد أثقلنا الحديد ، يأمالكُ قد نضجت منا الجلود ، يأمالكُ أخرجنا منها فإنا لانعود . فتقول الزبانية هيات لات حين أمان ، ولاخروج لكم من دار الهوان فاختبؤا فيها ولا تكلمون ، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتهم عنه تعودون . فعند ذلك يقنطون ، وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون . ولا ينجيهم الندم ، ولا ينجيهم الأسف ، بل يكون على وجوههم مغلولين ، النار من فوقهم ، والنار من تحتهم ، والنار عن أيمنهم ، والنار عن شمائلهم ، فهم غرق في النار ، طعامهم نار ، وشرابهم نار ، ولباسهم نار ، ومهادهم نار . فهم بين مقطعات النيران ، وسرايل القطران ، وضرب المقامع ، وثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون في مضايقتها ويتحطمون في دركاتهما ، ويضطربون بين غواشيتها . تغلي بهم النار كغلي القدور ويهتفون بالويل والعويل ، ومها دعوا بالشبور صب من فوق رؤسهم الحميم ، يصهر به مافي بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، تهشم بها جباههم ، فيتفجر الصديد من أفواههم ، وتنقطع من المطش أكيادهم ، وتسيل على الخلود

أحداقهم ، ويسقط من الوجنات لحومها ، ويتمط من الأطراف شعورها بل ،  
جلودها . وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها . قد عريت من اللحم عظامهم  
فبقيت الأرواح منوطة بالمروق وعلائق العصب ، وهي تنشّ في لفتح تلك النيران  
وم مع ذلك ، يتمنون الموت فلا يموتون .

فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سواد من الحميم ،  
وأعميت أبصارهم ، وأبكت ألسنتهم ، وقصمت ظهورهم ، وكسرت عظامهم ،  
وجدعت آذانهم ، ومزقت جلودهم ، وغلت أيديهم إلى أعناقهم ، وجمع بين  
نواصيرهم وأقدامهم ، وهم يمشون على النار بوجوههم ، ويطؤون حسك الحديد  
يأحداقهم . فلهيب النار سار في بواطن أجزائهم ، وحيات الهاوية وعقاربها  
متشبثة بظواهر أعضائهم ،

هذا بعض جملة أحوالهم . وانظر الآن في تفصيل أهوالهم ، وتفكر أيضا  
في أودية جهنم وشعابها ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (١)  
« إِنَّ فِي جَهَنَّمَ سَبْعِينَ أَلْفَ وَادٍ فِي كُلِّ وَادٍ سَبْعُونَ أَلْفَ شَعْبٍ فِي كُلِّ شَعْبٍ  
سَبْعُونَ أَلْفَ ثَعْبَانٍ وَسَبْعُونَ أَلْفَ عَقْرَبٍ لَا يَنْتَهِي الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ حَتَّى  
يُوَاقِعَ ذَلِكَ كُلَّهُ »

وقال (٢) عليّ كرم الله وجهه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَعَوَّذُوا  
بِاللَّهِ مِنَ جُبِّ الْحُزْنِ أَوْ وَادِي الْحُزْنِ » قيل بارسول الله وما وادي أو جب الحزن؟  
قال « وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً أَعَدَّهُ اللَّهُ  
تَعَالَى لِلْقُرَّاءِ الْمُرَائِينَ »

#### (القول في صفة جهنم)

(١) حديث ان في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان  
وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله : لم أجده هكذا بجملة وسيأتي  
بمده ماورد في ذكر الحيات والعقارب

(٢) حديث عليّ نعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن - الحديث : رواه ابن عدى بلفظ وادي  
الحزن وقال باطل وأبو نعيم والأصبهاني بسند ضعيف ورواه الترمذي وقال غريب وأبو ماجه  
من حديث أبي هريرة بلفظ جب الحزن وضعفه ابن عدى وتقدم في ذم الجاه والرياء

فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها ، وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشبهواتها . وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصى العبد بعضها فوق بعض ، الأعلى جهنم ، ثم مقر ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية . فانظر الآن في عمق الهاوية ، فإنه لأحد لعمقها ، كما لأحد لعمق شهوات الدنيا . فكم لا ينتهي أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه ، فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها . قال <sup>(١)</sup> أبو هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نسمعنا وجبة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟ » قلنا الله ورسوله أعلم . قال « هَذَا حَجَرٌ أُرْسِلَ فِي جَهَنَّمَ مُنْذُ مَبْعُوثٍ حَامِلًا الْآنَ انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا »

ثم انظر إلى تفاوت الدرجات ، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً . فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت ، فمن منهمك مستكثر كالفرق فيها ومن خائض فيها إلى حد محدود ، فكذلك تناول النار لهم متفاوت ، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة ، فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه . إلا أن أقلهم عذاباً لو عرضت عليه الدنيا بمخافيرها لافتدى بها من شدة ما هو فيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْتَعِلُ بِتَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي دِمَاغُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ »

فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر به من شدة عليه : ومنهما تشككت في شدة عذاب النار ، فقرب أصبعك من النار ، وقس ذلك به ثم اعلم أنك أخطأت

(١) حديث أبي هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نسمعنا وجبة - الحديث : وفيه هذا حجر

أُرسل في جهنم - الحديث : رواه مسلم

(٢) حديث أن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة من ينتعل بتعلين من نار - الحديث : منقول عليه من حديث النعمان بن بشير

في القياس ، فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا هذاب هذه النار ، عرف عذاب جهنم بها . وهبات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لحاضوها طائعين هربا مما هم فيه ، وعن هذا عبر في الأخبار حيث قيل <sup>(١)</sup> « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطافها أهل الدنيا . بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال <sup>(٢)</sup> » أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوقَدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ عَامٍ حَتَّى احْمَرَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ عَامٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فِيهِ سَوْدَاءٌ مُظْلَمَةٌ »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « اشْتَكَّتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ يَا رَبِّ أَكُلَ بَعْضِي بَعْضًا فَأَذِنَ لَهَا فِي نَفْسَيْنِ نَفْسٍ فِي الشِّتَاءِ وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَهُ فِي الصَّيْفِ مِنْ حَرِّهَا وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَهُ فِي الشِّتَاءِ مِنْ زَمْهِرِ يَرِّهَا » وقال أنس بن مالك : يؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار ، فيقال اغمسوه في النار غمسة ، ثم يقال له هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول لا . ويؤتى بأشد الناس ضرا في الدنيا ، فيقال اغمسوه في الجنة غمسة . ثم يقال له هل رأيت ضرا قط ؟ فيقول لا

وقال أبو هريرة لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ، ثم تنفس رجل من أهل النار لما تروا

وقد قال بعض العلماء في قوله ( تَلْفَحُ وَجُوهَهُمُ النَّارُ <sup>(١)</sup> ) إنها لفتحهم لفتح واحدة ، فما أبقت لحما على عظم إلا ألقتة عند أعقابهم

ثم انظر بعد هذا في نتن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يفرقون فيه ،

(١) حديث أن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطافها أهل الدنيا ذكر ابن عبد الر من حديث ابن عباس وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولولا ذلك ما انتفع بها أحد ولا يزال من حديث أنس وهو ضعيف وما وصل اليكم حتى أحسبه قال انضجت بالماء فتضى عليكم

(٢) حديث أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت - الحديث : تقدم

(٣) حديث اشتكت النار الى ربها فقالت يا رب أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين - الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

وهو الفساق . قال <sup>(١)</sup> أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْ أَنَّ دُلُومًا مِنْ غَسَاقِ جَهَنَّمَ أُلْقِيَ فِي الدُّنْيَا لَأَنْتَنَ أَهْلُ الْأَرْضِ » فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقي أحدهم ( مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ <sup>(٢)</sup> ) ( وَلَئِنْ يَسْتَفِيسُوا بُعَاثُوا غَمًّا كَأَمْلِهِلِ بَشَوَى الْوُجُوهِ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا <sup>(٣)</sup> ) ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم ، كما قال الله تعالى ( ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَا كِيلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُومٍ فَالْوُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَلِيمِ <sup>(٤)</sup> ) وقال تعالى ( إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَا كِيلُونَ مِنْهَا فَاِلْوُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ <sup>(٥)</sup> ) وقال تعالى ( تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ <sup>(٦)</sup> ) وقال تعالى ( إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا <sup>(٧)</sup> ) وقال <sup>(٨)</sup> ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُومِ قَطَرَتْ فِي بَحَارِ الدُّنْيَا أَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَاشَهُمْ فَكَيْفَ مَنْ يَكُونُ طَعَامُهُ ذَلِكَ »

وقال <sup>(٩)</sup> أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ارْغَبُوا فِيمَا رَغِبَكُمْ اللَّهُ وَاحْذَرُوا وَخَافُوا مَا خَوَّفَكُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ وَمِنْ جَهَنَّمَ فَإِنَّهُ لَوْ

(١) حديث أبي سعيد الخدري لو أن دلوًا من غساق ألقى في الدنيا لأنتن أهل الأرض : الترمذي وقال

أنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف

(٢) حديث ابن عباس لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معاشهم

الحديث : الترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه

(٣) حديث أنس ارغبوا فيما رغبتكم الله فيه واحذروا وخافوا مما خوفكم به من عذاب الله وعقابه من جهنم

الحديث : لم أجده له أسنادا

(٤) ابراهيم : ١٦ ، ١٧ (٥) الكهف : ٢٩ (٦) الواقعة : ٥١ - ٥٥ (٧) الصافات : ٦٤ - ٦٨ (٨) الغاشية : ٥٤

(٩) الزمّل : ١٢ ، ١٣

كَانَتْ قَطْرَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ مَعَكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا طَيِّبَتَا لَكُمْ وَلَوْ  
كَانَتْ قَطْرَةٌ مِنَ النَّارِ مَعَكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا خَبَّتَا عَلَيْكُمْ .  
وقال (١) أبو الدرداء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يُلْقَى عَلَى أَهْلِ  
النَّارِ الْجُوعُ حَتَّى يَمْدَلَ مَاهُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ فَيَسْتَيْشُونَ بِالطَّعَامِ فَيَعْنَأُونَ  
بِطَّعَامٍ مِنْ خَرِيجٍ لَا يُسَمِّنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ وَيَسْتَيْشُونَ بِالطَّعَامِ فَيَعْنَأُونَ  
بِطَّعَامٍ ذِي غُصَّةٍ فَيَذْكُرُونَ أَنَّهُمْ كَمَا كَانُوا يُحْزِنُونَ النَّصَصَ فِي الدُّنْيَا  
بِشَرَابٍ فَيَسْتَيْشُونَ بِشَرَابٍ فَيَرْفَعُ إِلَيْهِمُ الْحَمِيمُ بِكَلاَيبِ الْحَدِيدِ فَإِذَا  
دَنَتْ مِنْ وُجُوهِهِمْ شَوْتٌ وَوُجُوهُِهُمْ فَإِذَا دَخَلَ الشَّرَابُ بَطُونَهُمْ قَطَعَ مَا فِي  
بَطُونِهِمْ فَيَقُولُونَ أَدْعُوا خَزَنَةَ جَهَنَّمَ قَالَ فَيَدْعُونَ خَزَنَةَ جَهَنَّمَ أَنْ أَدْعُوا  
رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ فَيَقُولُونَ أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ  
بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ قَالَ  
فَيَقُولُونَ أَدْعُوا مَا لَكُمْ فَيَدْعُونَ فَيَقُولُونَ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ  
فَيَجِيبُهُمْ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ « قَالَ الْأَعْمَشُ أَنْبَتُ أَنْ بَيْنَ دَعَائِهِمْ وَبَيْنَ إِجَابَةِ مَالِكِ  
إِيَّاهُمْ أَلْفَ عَامٍ . قَالَ « فَيَقُولُونَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ فَلَا أَحَدَ خَبِرَ مِنْ رَبِّكُمْ  
فَيَقُولُونَ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ  
عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ فَيَجِيبُهُمْ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ  
يُسْأَلُونَ مِنْ كُلِّ خَبِيرٍ وَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذُوا فِي الزَّفِيرِ وَالْحُسْرِ وَالْوَيْلِ »  
وقال (٢) أبو أمامة : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ( وَيُسْقَى

( ١ ) حديث أبي الدرداء يلقى على أهل النار الجوع حتى يمدل ماهم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام  
الحديث : الترمذي من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء  
قال البخاري والناس لا يعرفون هذا الحديث وإنما روى عن الأعمش عن سمرة بن عطية  
عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله

( ٢ ) حديث أبي أمامة في قوله تعالى ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه قال يقر باليه - الحديث :  
الترمذي وقال غريب

مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ<sup>(١)</sup> ) قَالَ « يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكَرَّهُهُ فَإِذَا أَذْنِي مِنْهُ شَوَى وَجْهَهُ فَوَقَعَتْ فَرْوَةٌ رَأْسِهِ فَإِذَا شَرِبَهُ قَطَعَ أَمْنَاءُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ دُبُرِهِ » يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ( وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْنَاءَهُمْ<sup>(٢)</sup> ) وَقَالَ تَعَالَى ( وَإِنْ يَسْتَفِيشُوا يُفَاكُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ<sup>(٣)</sup> )

فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم . فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها ، وإلى شدة سُمومها ، وعظم أشخاصها ، وفضاظة منظرها ، وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم ، فهي لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة . قال<sup>(١)</sup> أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَيْبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهَازِمِهِ »<sup>(٢)</sup> يعني أشداه « فَيَقُولُ أَنَا مَالِكٌ أَنَا كَنْزُكَ » ثم تلا قوله تعالى ( وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ<sup>(٤)</sup> ) الْآيَةَ

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « إِنَّ فِي النَّارِ لَحَبَاتٍ مِثْلَ أُعْتَاقِ الْبُخْتِ يَلْسَعْنَ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ خُمُوتَهَا أَرْبَعِينَ خَرِيفًا وَإِنْ فِيهَا لَمَقَارِبَ كَالْبَيْعَالِ الْمَوْ كَفَّةٍ يَلْسَعْنَ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ خُمُوتَهَا أَرْبَعِينَ خَرِيفًا »

وهذه الحيات والمقرب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل ، وسوء الخلق ، وإيذاء الناس . ومن وقى ذلك وقى هذه الحيات فلم تمثله ثم تفكر بعد هذا كله في تعظيم أجسام أهل النار ، فإن الله تعالى يزيد في أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه ، فيحسون بلفح النار ، ولدغ المقارب والحيات ، من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي . قال<sup>(٢)</sup> أبو هريرة

( ١ ) حديث أبي هريرة من آتاه مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع - الحديث :

البخارى من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث جابر بنحوه

( ٢ ) حديث أن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة - الحديث : أحمد من رواية ابن أبي ليثة

عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء

( ٣ ) حديث أبي هريرة ضرس الكافر في النار مثل أحد - الحديث رواه مسلم

(١) إبراهيم : ١٦ ، ١٧ (٢) محمد : ١٥ (٣) الكهف : ٩٩ (٤) آل عمران : ٧٥

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « ضَرَسُ الْكَافِرِ فِي النَّارِ مِثْلُ أَحَدٍ وَغُلَظُ جِلْدِهِ مِثْرَةُ كَلَابَتٍ » وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(١)</sup> « شَفَتُهُ السُّفْلَى سَاقِطَةٌ عَلَى صَدْرِهِ وَالْعُلْيَا قَالِصَةٌ قَدْ غَطَّتْ وَجْهَهُ » وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ <sup>(٢)</sup> « إِنَّ الْكَافِرَ لَيَجْرُ لِسَانُهُ فِي سِجِّينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَوَاطَوُهُ النَّاسُ » وَمَعَ عَظَمِ الْأَجْسَامِ كَذَلِكَ تَحْرِقُهُمُ النَّارُ مَرَاتٍ ، فَتَجْدُدُ جُلُودَهُمْ وَلَحُومَهُمْ . قَالَ الْحَسَنُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ( كَلَّمَآ نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا <sup>(٣)</sup> ) قَالَ تَأْكُلُهُمُ النَّارُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ أَلْفَ مَرَّةً ، كُلَّمَا أَكَلْتَهُمْ قِيلَ لَهُمْ عُودُوا فَيَمُودُونَ كَمَا كَانُوا ثُمَّ تَفَكَّرَ الْآنَ فِي بَكَاءِ أَهْلِ النَّارِ وَشَهيقِهِمْ ، وَدَعَائِهِمْ بِالْوَيْلِ وَالشُّبُورِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْلُطُ عَلَيْهِمْ فِي أَوَّلِ الْقَائِمِ فِي النَّارِ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ <sup>(٤)</sup> « يُؤْتَى بِمَجْنَنٍ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ » وَقَالَ <sup>(٥)</sup> أَنَسُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « يُرْسَلُ عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْبُكَاءُ فَيَبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدَّمُوعُ ثُمَّ يَبْكُونَ الدَّمَ حَتَّى يَبْرَى فِي وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الْأَخْدُودِ لَوْ أُرْسِلَتْ فِيهَا السُّفْنُ لَجَرَتْ »

وَمَا دَامَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فِي الْبُكَاءِ وَالشَّهيقِ ، وَالزَّفِيرِ ، وَالْدَعْوَةِ بِالْوَيْلِ وَالشُّبُورِ ، فَلَهُمْ فِيهِ مَسْتَرُوحٌ . وَلَكِنَّهُمْ يَمْنَعُونَ أَيْضًا مِنْ ذَلِكَ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ : لِأَهْلِ النَّارِ خَمْسُ دَعَوَاتٍ ، يُجِيبُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَرْبَعَةٍ ، فَإِذَا كَانَتِ الْخَامِسَةُ لَمْ يَتَكَلَّمُوا بَعْدَهَا أَبَدًا : يَقُولُونَ ( رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَتْنَا اثْنَتَيْنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ <sup>(٦)</sup> ) فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ ( ذَلِكَكُمْ

(١) حديث شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه : الترمذي من حديث أبي سعيد

وقال حسن صحيح شريب

(٢) حديث ان الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس : الترمذي من رواية أبي الخارق

عن ابن عمر وقال غريب وأبو الخارق لا يعرف

(٣) حديث يؤتى بمجنن يومئذ لها سبعون ألف زمام - الحديث : مسلم من حديث عبد الله بن مسعود

(٤) حديث أنس يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تنقطع الدموع - الحديث : ابن ماجه من رواية

يزيد الرقاشي عن أنس والرقاشي ضعيف

(١) النساء : ٥٦ (٢) غافر : ١١



بأنه إذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ <sup>(١)</sup> ) ثم يقولون ( رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا <sup>(٢)</sup> ) فيجيبهم الله تعالى ( أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ <sup>(٣)</sup> ) فيقولون ( رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ <sup>(٤)</sup> ) فيجيبهم الله تعالى ( أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُبْدِكُمْ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ <sup>(٥)</sup> ) ثم يقولون ( رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ <sup>(٦)</sup> ) فيجيبهم الله تعالى ( اخْسَؤْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ <sup>(٧)</sup> ) فلا يتكلمون بعدها أبداً ، وذلك غاية شدة العذاب قال مالك بن أنس رضي الله عنه : قال زيد بن أسلم في قوله تعالى ( سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ نَحِيصٍ <sup>(٨)</sup> ) قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ، ثم صبروا مائة سنة ، ثم قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٩)</sup> « يُؤْتَى بِالْمُوتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ فَيَذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَيُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ بِلَا مَوْتٍ »

وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام ، وليني كنت ذلك الرجل وروى الحسن رضي الله عنه جالسا في زاوية وهو يبكي ، فقيل له لم تبكي ؟ فقال أخشى أن يطرحني في النار ولا يبالى

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة . وتفصيل غمومها ، وأحزانها ، وغمها وحسرتها ، لانهاية له . فأعظم الأمور عليهم مع ما يلا فونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة ، وفوت لقاء الله تعالى ، وفوت رضاه مع علمهم بأنهم باعوا

( ١ ) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح : البخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد وقد تقدم

( ١ ) غافر : ١٣ ( ٢ ) السجدة : ١٣ ( ٣ ) ابراهيم : ٤٤ ( ٤ ) طه : ٣٧

( ٥ ، ٦ ) المؤمنون : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ( ٨ ) ابراهيم : ٣١

كل ذلك بشئ بخسٍ درهمٍ ممدودة ، إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهواتٍ حقيرة في الدنيا  
أياماً قصيرة ، وكانت غير صافية ، بل كانت مكدرة منغصة ، فيقولون في أنفسهم  
واحسرتاه ! كيف أهلكنا أنفسنا بمصيان ربنا ، وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر  
أياماً قلائل ، ولوصبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه ، وبقينا الآن في جوار رب  
العالين ، متنعين بالرضا والرضوان ! فيا حسرة هؤلاء وقبد فاتهم ما فاتهم ،  
وبلوا بما بلوا به ، ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها .

ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم ، لكنها تعرض عليهم ،  
فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِنَاسٍ مِنَ النَّارِ  
إِلَى الْجَنَّةِ حَتَّى إِذَا ذَنُوبُهَا مِنْهَا وَاسْتَنْشَقُوا رَائِحَتَهَا وَنَظَرُوا إِلَى قُصُورِهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ  
اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا نُودُوا أَنْ اصْرَفُوهُمْ عَنْهَا لَأَنْصِيبَ لَهُمْ فِيهَا قَبِيرَ جِعُونَ  
بِحَسْرَةٍ مَا رَجَعَ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ بِمِثْلِهَا فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا لَوْ أَدْخَلْتَنَا النَّارَ  
قَبْلَ أَنْ تُرِينَا مَا أَرَيْتَنَا مِنْ ثَوَابِكَ وَمَا أَعَدَدْتَ فِيهَا لَأَوْلِيَاكَ كَانَ أَهْوَنَ  
هَلَيْنَا فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ أَرَدْتُ بِكُمْ كُنْتُمْ إِذَا خَلَوْتُمْ بَارِزَ مُنُونِي بِالْعِظَائِمِ  
وَإِذَا لَقِيتُمُ النَّاسَ لَقِيتُمُوهُمْ مُخْبِتِينَ مُرَاوُونَ النَّاسَ بِخِلَافِ مَا تُعْطُونِي مِنْ  
ثَلُوبِكُمْ هَبْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تَهَابُونِي وَأَجَلَلْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تُجَلِّلُونِي وَتَرَكْتُمُ لِلنَّاسِ  
وَلَمْ تَتَذَكَّرُوا لِي فَالْيَوْمَ أَذِيقُكُمُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ مَعَ مَا حَرَمْتُكُمْ مِنْ  
السَّيِّئَاتِ الْمُنْقِمِ »

قال أحمد بن حرب : إن أحسدتنا يؤثر الظل على الشمس ، ثم لا يؤثر  
الجنة على النار !

وقال عيسى عليه السلام : كم من جسد صبيح ، ووجه صبيح ، ولسان فصيح  
فداً بين أطباق النار يصبح

وقال داود : إلهي لا صبر لي على حر شمسك ، فكيف صبرني على حر نارك !

( ١ ) حديث يؤمر يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا روائحها . الحديث :  
روياه في الأربعين لأبي هذبة عن أنس وأبو هذبة إبراهيم بن هذبة هالك

ولا صبر لي على صوت رحمتك ، فكيف على صوت عذابك !  
فانظر يا مسكين في هذه الأوهال ، واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها  
وخلق لها أهلا لا يزيدون ولا ينقصون ، وأن هذا أمر قد قضي وفرغ منه .  
قال الله تعالى ( وَأَنْذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْخُسْفِ إِذْ تُضِي الْأُمُزُّ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ  
لَا يُؤْمِنُونَ <sup>(١)</sup> ) ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة ؛ بل في أزل الأزل ،  
ولكن أظهر يوم القيامة ماسبق به القضاء

فالعجب منك حيث تضحك وتلهو ، وتشتغل بمحقرات الدنيا ، ولست  
تدري أن القضاء بماذا سبق في حقك

فإن قلت : فليت شعري ماذا موردى ؟ وإلى ماذا مآلى ومرجى ؟ وما الذي  
سبق به القضاء في حقى ؟ فلك علامة تستأنس بها ، وتصدق رجاءك بسببها .  
وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك ، فإن كلاميسر لما خلق له . فإن كان  
قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار . وإن كنت لاتقصد خيرا  
إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ، ولاتقصد شرا إلا ويتيسر لك أسبابه ، فاعلم أنك  
مقضي عليك ، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ، ودلالة الدخان  
على النار ، فقد قال الله تعالى ( إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ <sup>(٢)</sup> )  
فامرض نفسك على الآيتين ، وقد عرفت مستقرك من الدارين ، والله أعلم

## القول

في صفة الجنة وأصناف نعيمها

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها ، تقابلها دار أخرى ، فتأمل  
نعيمها وسرورها ، فإن من بعد من أحدهما استقر لآحالة في الأخرى . فاستم  
الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم ، واستشر الرجاء بطول الفكر

(١) ص ٩ : (٢) الانفاطار : ١٤٠١٣

في النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان ، وسق نفسك بسوط الخوف ، وقدها  
بزماء الرجاء إلى الصراط المستقيم ، فبذلك تنال الملك العظيم : وتسلم من العذاب الأليم  
فتفكر في أهل الجنة ، وفي وجوههم نضرة النعيم ، يُسقون من رحيق  
مختوم ، جالسين على منابر الياقوت الأحمر ، في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض  
فيها بسط من المبقرى الأخضر ، متكئين على أرائك ، منصوبة على أطراف أنهار  
مطرودة بالخر والعسل ، محفوفة بالنمان والولدان ، مزينة بالخور العين من الخيرات  
الجليل ، كأنهن الياقوت والمرجان ، لم يطمثنّ إنس قبلهم ولا جانّ ، يمشين في  
درجات الجنان ، إذا اختالت إحداهنّ في مشيها حمل أعطافها سبعون ألفاً من  
الولدان ، عليها من طرائف الحرير الأبيض ماتتخير فيه الأبصار ، مكملات بالتيجان  
المرصعة باللؤلؤ والمرجان ، شكلات ، غنجات ، عطرات ، آمينات من الهرم  
والبوّس ، مقصورات في الخيام ، في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات  
الجنان ، قاصرات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس  
من معين ، ييضاء لذة للشاربين . ويطوف عليهم نخدام وولدان كأمثال اللؤلؤ  
المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، في مقام أمين ، في جنات وعيون ، في جنات  
ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم ،  
وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم ، لا يرهقهم قتر ولا ذلة ، بل عباد مكرمون  
وبأنواع التحف من ربهم يتماهدون ، فهم فيما اشتته أنفسهم خالدون ، لا يخافون  
فيها ولا يحزنون ، وهم من رب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعمون ، ويأكلون من  
أطعمتها ، ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً ، في أنهار أراضيها من فضة ،  
وعصباؤها مرجان ، وعلى أرض ترابها مسك أذفر ، ونباتها زعفران ، ويمطرون  
من معاب فيها من ماء النسرين ، على كسبان الكافور ، ويؤتون بأكواب وأي  
أكواب ، بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان ، كوب فيه من  
الرحيق المختوم ، ممزوج به السلسبيل العذب ، كوب يشرق نوره من صفاء جواهره  
يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرة ، لم يصنعه آدمي فيقصر في تسوية صنعته ،

ونحسب صناعته ، في كف حادم يخكى صبا ، وجهه الشمس في إشرافها ، ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته ، وحسن أصدائه ، وملاحة أحداقه فيا عجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها ، ويوقن بأنه لا يموت أهلها ، ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ، ولا تنظر الأحداث بعين التغير إلى أهلها ، كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ، ويتهنأ بعيش دونها ! والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان ، مع الأمن من الموت ، والجوع ، والمطش ، وسائر أصناف الحداث لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها ، وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنقص من ضرورته . كيف وأهلها ملوك آمنون ، وفي أنواع السرور تمتعون ، لهم فيها كل ما يشتهون ، وهم في كل يوم بفناء العرش يحضرون ، وإلى وجه الله الكريم ينظرون ، وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنات ولا يلتفتون ، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون؛ وهم من زوالها آمنون! قال <sup>(١)</sup> أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يُنَادِي مُنَادٌ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنَعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ( وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) <sup>(٢)</sup> »

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن ، فليس وراء بيان الله تعالى بيان . واقرأ من قوله تعالى ( وَلَمِنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ) <sup>(٣)</sup> إلى آخر سورة الرحمن . واقرأ سورة الواقعة ، وغيرها من السور . وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها ، بعد أن اطلعت على جملتها وتأمل أولاً :

#### ﴿ القول في صفة الجنة ﴾

( ١ ) حديث أبي هريرة ينادي لمن أن تصحوا فلا تسقموا أبداً - الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد

(١) الاعراف : ٤٣ (٢) الرحمن : ٤٦

عدد الجنان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ( وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ <sup>(١)</sup> ) قال <sup>(٢)</sup> « جَنَّاتٌ مِنْ فَضَّةٍ أُنِيتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَجَنَّاتٌ مِنْ ذَهَبٍ أُنِيتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءَ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٌ »

ثم انظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات ، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي . قال <sup>(٣)</sup> أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أُنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ كُلِّهَا وَلِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ » فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي فهل يدعى أحد منها كلها ؟ قال « نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ »

وعن عاصم بن ضمرة ، عن علي كرم الله وجهه ، أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكرها لأحفظه ، ثم قال ( وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا <sup>(٤)</sup> ) حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها ، وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عيان تجريان ، فعمدوا إلى إحداها كما أمروا به ، فشربوا منها ، فأذهبت مافي بطونهم من أذى أو بأس ثم عمدوا إلى الأخرى ، فتطهروا منها ، فخرت عليهم نضرة النعيم ، فلم تتغير أشعارهم بعدها أبدا ، ولا تشمت رؤسهم ، كأنما دهنوا بالدهان ثم انتهوا إلى الجنة ، فقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . ثم تلقاهم الولدان ، يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة ، يقولون له : أبشر بأعد الله لك من الكرامة كذا . قال فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض

( ١ ) حديث جنتان من فضة أُنِيتُهُمَا وما فيهما وجنتان من ذهب أُنِيتُهُمَا وما فيهما ... الحديث : متفق عليه

من حديث أبي موسى

( ٢ ) حديث أبي هريرة من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة ... الحديث : متفق عليه

(١) الرحمن : ٤٦ (٢) الزمر : ٧٣

أزواجه من الحور المين ، فيقول قد جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا فتقول أنت رأيته ، فيقول أنا رأيته وهو بأثرى . ويستخفها بالفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه ، فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر ، وأخضر ، وأصفر ، من كل لون . ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه ، فإذا مثل البرق . ولولا أن الله تعالى قدره لألم أن يذهب بصره . ثم يطأطئ رأسه ، فإذا أزواجه ، وأكواب موضوعة ، ونعارق مصنوفة ، وزرابي مبثوثة . ثم اتكأ فقال : الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ثم ينادى مناد : تحيون فلا تموتون أبدا ، وتقيمون فلا تظمنون أبدا ، وتصحون فلا تمرضون أبدا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « آتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَابَ الْجَنَّةِ فَاسْتَفْتَحَ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ ؟ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ يَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ أَنْ لَا أَفْتَحَ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ » . ثم تأمل الآن في غرف الجنة ، واختلاف درجات العلو فيها ، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا . وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة ، والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً ، فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهري . فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى ، فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها ، فقال تعالى ( سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ <sup>(٢)</sup> ) وقال تعالى ( وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ <sup>(٣)</sup> ) .

والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم ، أو بملو بناء ، قل عليك ذلك ، وضاق به صدرك ، وتنقص بسبب الحسد عيشك . وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة ، وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بالطائف لا توازيها الدنيا بمخذافيها . فقد قال <sup>(٤)</sup> أبو سعيد الخدري : قال رسول الله

(١) حديث آتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن من أنت فأقول محمد - الحديث : مسلم

من حديث أنس

(٢) حديث أبي سعيد أن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تراءون الكواكب - الحديث :

(٣) الحديث : ٣١ (٢) الطوفين : ٢٦

صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ فَوْفَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ  
الْكَوْكَبَ الْفَائِرَ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لِنَفَاصِلِ مَا بَيْنَهُمْ » ، قالوا  
يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال : « بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ  
رَجُلًا آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ »

وقال أيضا <sup>(١)</sup> : « إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ نَحْتَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ  
النَّجْمَ الطَّالِعَ فِي أَفْقٍ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمْ وَأَنِيعَا » ،  
وقال <sup>(٢)</sup> جابر : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أُحَدِّثُكُمْ  
بِغُرَفِ الْجَنَّةِ » قال قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأيينا أنت وأمننا .  
قال : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا مِنْ أَصْنَافِ الْجَوْهَرِ كُلِّهِ يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا  
وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا وَفِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَاللَّذَاتِ وَالشُّرُورِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا  
أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » قال قلت يا رسول الله ، ولئن هذه  
الغرف ؟ قال : « لَئِنْ أَفْشَى السَّلَامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصَّبَامَ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ  
وَالنَّاسُ نِيَامٌ » قال قلنا يا رسول الله ومن يطبق ذلك ؟ قال : « أُمَّتِي تُطَبِّقُ  
ذَلِكَ وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ أَفْشَى  
السَّلَامَ وَمَنْ أَطْعَمَ أَهْلَهُ وَعِيَالَهُ مِنَ الطَّعَامِ حَتَّى يُشْبِعَهُمْ فَقَدْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَمَنْ  
صَامَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَمِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَقَدْ أَدَامَ الصَّبَامَ وَمَنْ صَلَّى  
الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ وَصَلَّى الْغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ فَقَدْ صَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ » يعني  
اليهود والنصارى والمجوس

<sup>(٣)</sup> وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ( وَمَسَا كُنَّ طَبِيبَةً فِي جَنَّاتٍ

متفق عليه وقد تقدم

( ١ ) حديث ان أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما يراه النجم الطالع رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه

من حديث أبى سعيد

( ٢ ) حديث جابر ألا أحدثكم بغرف الجنة قلت يا رسول الله بأيينا أنت وأمننا ان في الجنة غرفا من أصناف

الجواهر - الحديث : أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر

( ٣ ) حديث سئل عن قوله تعالى ومساكن طيبة في جنات عدن قال قصور من لؤلؤ - الحديث :

أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظيمة والآجرى في كتاب النصيحة من رواية الحسن



عَدْنُ<sup>(١)</sup> » قال « قُصُورٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ فِي كُلِّ قَصْرِ سَبْعُونَ دَارًا مِنْ يَأْتُونَ  
أَحْمَرَ فِي كُلِّ دَارٍ سَبْعُونَ يَتَنَا مِنْ زُمُرٍ أَخْضَرَ فِي كُلِّ يَتٍ سَرِيرٌ عَلَى كُلِّ  
سَرِيرٍ سَبْعُونَ فِرَاشًا مِنْ كُلِّ لَوْنٍ عَلَى كُلِّ فِرَاشٍ زَوْجَةٌ مِنَ الْخُورِ أَلْبِينِ  
فِي كُلِّ يَتٍ سَبْعُونَ مَائِدَةً عَلَى كُلِّ مَائِدَةٍ سَبْعُونَ لَوْنًا مِنَ الطَّعَامِ فِي  
كُلِّ يَتٍ سَبْعُونَ وَصِيفَةً وَيُعْطَى الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ غَدَاةٍ ، بِعَنَى مِنَ الْقُوَّةِ  
« مَا يَأْتِي عَلَى ذَلِكَ أَجْمَعُ »

## صفة

حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها

تأمل في صورة الجنة ، وتفكر في غبطة سكانها ، وفي حسرة من حرمها لفنايته بالدنيا  
عوضاً عنها . فقد قال<sup>(١)</sup> أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ حَائِطَ  
الْجَنَّةِ لَبَنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبَنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ تُرَابُهَا زَعْفَرَانٌ وَطِينُهَا مِسْكٌ »  
<sup>(٢)</sup> وسئل صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة فقال « دَرَمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ »  
وقال<sup>(٣)</sup> أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْقِيَهُ  
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْحُمْرَ فِي الْآخِرَةِ فَلْيَتْرُكْهَا فِي الدُّنْيَا وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يُكْسُوهُ

ابن خليفة عن الحسن قال سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يضح  
والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة  
على قول الجمهور

( ١ ) حديث أبي هريرة أن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك  
الترمذي بلفظ وبلاطها المسك وقال ليس اسناده بذلك القوي وليس عندي بمتصل ورواه  
البزار من حديث أبي سعيد باسناد فيه مقال ورواه موقوفا عليه باسناد صحيح  
( ٢ ) حديث سئل عن تربة الجنة فقال درمكة بيضاء مسك خالص : مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن عباس

سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فذكره  
( ٣ ) حديث أبي هريرة من سره أن يسقيه الله الحمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه  
الله الحرير فليتركه في الدنيا : الطبراني في الأوسط باسناد حسن والنسائي باسناد صحيح  
من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الحمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة

الله الحريز في الآخرة فليتركه في الدنيا. (١) أنهار الجنة تنفجر من تحت تلال  
أو تحت جبال المسك (٢) ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل  
الدنيا جميعها لكان ما يحلبه الله عز وجل به في الآخرة أفضل من  
حلية الدنيا جميعها

وقال (٣) أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة  
شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها فرقوا إن شئتم  
(و ظل تمدود (٤) )

وقال (٥) أبو أمامة . كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون :  
إن الله عز وجل ينفضنا بالأعراب ومسائلهم . أقبل أعرابي فقال . يا رسول الله  
قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أدري أن في الجنة شجرة  
تؤذي صاحبها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما هي ؟ » قال السدر ، فإن لها  
شوكا . فقال « قد قال الله تعالى ( في سدر مخضود (٦) ) يخضد الله شوكه  
فيجعل مكان كل شوكية ثمرة ثم تنفق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا  
من الطعام مامنها . لون يشبه الآخر »

وقال جرير بن عبد الله . نزلنا الصفا ، فإذا رجل نائم تحت شجرة قد  
كادت الشمس أن تبلغه ، فقلت للفلان انطلق بهذا النطع فأظله . فانطلق فأظله  
فلما استيقظ فإذا هو سامان ، فأثبته أسلم عليه . فقال . يا جرير ، تواضع لله ، فإن

(١) حديث أنهار الجنة تنفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك : العقيلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة

(٢) حديث لو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحلبه الله به في الآخرة

أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها : الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن

(٣) حديث أن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها . الحديث : متفق عليه

من حديث أبي هريرة

(٤) حديث أبي أمامة أقبل أعرابي فقال يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية قال ما هي

قال السدر - الحديث : ابن المبارك في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسل

من غير ذكر لأبي أمامة

من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة . هل تدري ما الظلمات يوم القيامة ؟ قلت لا أدري . قال ظلم الناس بعضهم بعضا . ثم أخذ عوبدا لا أكاد أراه من صغره فقال . يا جرير ، لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده . قلت يا أبا عبد الله ، فأين النخل والشجر ؟ قال أصولها اللؤلؤ والذهب ، وأعلاها الثمر

## صفة

لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم

قال الله تعالى ( يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ <sup>(١)</sup> ) والآيات في ذلك كثيرة . وإنما تفصيله في الأخبار ، فقد روى <sup>(١)</sup> أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْتَمُ لَا يَبَاسُ لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ فِي الْجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ »

<sup>(٢)</sup> وقال رجل . يارسول الله ، أخبرنا عن ثياب أهل الجنة ، أخلق تخلق ؟ أم نسج تنسج ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مِمَّ تَضَحَكُونَ مِنْ جَاهِلٍ سَأَلَ عَالِمًا » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بَلْ يَنْشَقُّ عَنْهَا ثَمَرُ الْجَنَّةِ مَرَّتَيْنِ » وقال <sup>(٣)</sup> أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَوَّلَ ذُفْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا

( ١ ) حديث أبي هريرة من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس لا تبلى ثيابه - الحديث : رواه مسلم دون قوله

في الجنة ملاعين رأت الخ فاتفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبي هريرة قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ملاعين رأت - الحديث :

( ٢ ) حديث قال رجل يارسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق خلقا أم تنسج نسجا - الحديث :

النسائي من حديث عبد الله بن عمرو

( ٣ ) حديث أبي هريرة أول ذمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر - الحديث مفقود عليه

وَلَا يَتَخَطُّونَ وَلَا يَتَنَوِّطُونَ آيَاتِهِمْ وَأَمْسَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَرَشْحُهُمْ  
الْمِسْكُ يَكُلُّ وَاحِدٌ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ بَرَى مِخْ سَاقَهَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنْ  
الْحَسَنِ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ  
بِكُرَّةٍ وَعَشِيَّةٍ ، وفي رواية ، « عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> في قوله تعالى ( يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ  
ذَهَبٍ ) <sup>(١)</sup> قال « إِنَّ عَلَيْهِمُ التَّيجَانَ إِنَّ أَدْنَى لَوْلُؤَةٍ فِيهَا تُضَى مَا بَيْنَ  
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « الْخَيْمَةُ دُرَّةٌ مَجُوفَةٌ طُولُهَا فِي السَّمَاءِ سِتُونَ  
مِيلًا فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا لِلْمُسَوِّينَ أَهْلٌ لَا يَرَاهُمُ الْآخَرُونَ » رواه البخاري  
في الصحيح . قال ابن عباس . الخيمة درة مجوفة ، فرسخ في فرسخ لها  
أربعة آلاف مصراع من ذهب

وقال <sup>(٣)</sup> أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى  
« وَفُورٌ مَرْفُوعَةٌ » <sup>(٣)</sup> قال « مَا بَيْنَ الْفِرَاشَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »

## صفة

طعام أهل الجنة

بيان طعام أهل الجنة المذكور في القرآن ، من الفواكه ، والطيور السمان ،  
والمن ، والسلاوى ، والمسل ، واللبن ، وأصناف كثيرة لا تحصى . قال الله تعالى

( ١ ) حديث في قوله تعالى يحلون فيها من أساور من ذهب قال ابن عليم التيجان أدنى لؤلؤة فيها نضى

ما بين الشرق والمغرب : الترمذى من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لا تعرفه

الا من حديث رشد بن سعد

[ ٢ ] حديث الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا - الحديث : عزاه المصنف للبخاري وهو متفق

عليه من حديث أبي موسى الأشعري

( ٣ ) حديث أبي سعيد في قوله تعالى وفور مرفوعة قال ما بين الفراشين كابين السماء والارض : الترمذى

بلفظ ارتفاعها لكابين السماء والارض خمسمائة سنة وقال صريب لا تعرفه الا من حديث

رشد بن سعد

(١) الحج : ٣٤ (٢) الواقعة : ٣٤

( كَلِمًا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ عَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا <sup>(١)</sup> )

وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة . وقد قال <sup>(١)</sup> ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه خبر من أحبار اليهود ، فذكر أسئلة إلى أن قال : فمن أول إجازة ؟ يعنى على الصراط . فقال « فقراء المهاجرين » قال اليهودي : فما تحفهم حين يدخلون الجنة ؟ قال « زيادة كبد الخوت » قال فما غداؤهم على أرضها ؟ قال « يُنَحَّرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ فِي أَطْرَافِهَا » قال فما شرابهم عليه ؟ قال « مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا » فقال صدقت

وقال <sup>(٢)</sup> زيد بن أرقم : جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال يا أبا القاسم ، ألسنت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ؟ وقال لأصحابه . إن أقر لي بها خصمته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْجَمَاعِ » فقال اليهودي : فإن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حَاجَتُهُمْ عَرَقُ يَفِيزُ مِنْ جُلُودِهِمْ مِثْلُ الْمِسْكِ فَإِذَا الْبَطْنُ قَدْ ضَمَرَ »

وقال <sup>(٣)</sup> ابن مسعود : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّكَ لَتَنْظُرُ إِلَى الطَّيْرِ فِي الْجَنَّةِ فَتَشْتَهِيهِ فَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيًا »

( ١ ) حديث ثوبان جاء خبر من أحبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال فمن أول الناس إجازة يعنى على الصراط فقال فقراء المهاجرين قال اليهودي فما تحفهم حين يدخلون الجنة فقال زيادة كبد النون الحديث : رواه مسلم بزيادة في أوله وآخره .

( ٢ ) حديث زيد بن أرقم جاء رجل من اليهود فقال يا أبا القاسم ألسنت تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون - الحديث : وفيه حاجتهم هرق يفيض من جلودهم مثل المسك النسي

في الكبرى بإسناد صحيح

( ٣ ) حديث ابن مسعود أنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا: البزار بإسناد فيه ضعف

وقال (١) حذيفة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ طَيْرًا أُتِمَّالَ أَبْخَاتِي » قال أبو بكر رضي الله عنه : إنها لناعمة يارسول الله . قال « أَنْتُمْ مِنْهَا مَنْ يَأْكُلُهَا وَأَنْتَ يَمْنُ يَأْكُلُهَا يَا أَبَا بَكْرٍ »

وقال عبد الله بن عمرو في قوله تعالى ( يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ <sup>(١)</sup> ) قال : يطاف عليهم بسبعين صحيفة من ذهب ، كل صحيفة فيها لون ليس في الأخرى مثله . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ( وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ <sup>(٢)</sup> ) قال :

يمزج لأصحاب اليمين ، ويشربه المقربون صرفا

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه ، في قوله تعالى ( خِتَامُهُ مِسْكٌ <sup>(٣)</sup> ) قال : هو شراب أبيض مثل الفضة ، يحتمون به آخر شراهم ، لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذر روح إلا وجد ريح طيبها

## صفة

الخور العين والولدان

قد تكرر في القرآن وصفهم ، ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه . روى أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال <sup>(١)</sup> « غَدَاةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَقَابٌ قَوْسٌ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعٌ قَدَمِهِ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لَأَصَابَتْ وَلَمَلَّتْ مَا بَيْنَهُمَا رَائِحَةً وَلَتَصِفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا » يعني الحمار

(١) حديث حذيفة أن في الجنة طيرا أمثال البخاتي - الحديث : عريب من حديث حذيفة ولأحمد

من حديث أنس بإسناد صحيح أن طير الجنة كامثال البخت ترعى في شجر الجنة قال أبو بكر يارسول الله إن هذه الطير ناعمة قال أكلتها أنتم منها قالوا لا إنا وإن أرجو أن تكون ممن يأكل منها وهو عند الترمذي من وجه آخر ذكر فيه سهر الكوثر وقال فيه طير أعناقها كلسناق الجزر

قال عمران هذه لناعمة - الحديث وليس فيه ذكر لأبي بكر وقال حسن

(٢) حديث غداة في سبيل أوروحة خير من الدنيا وما فيها - الحديث : البخاري من حديث أنس

(٣) الخ خرفة لا (٢) النطفية : ٢٧ (٢) النطفية : ٢٦

وقال <sup>(١)</sup> أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ( كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ <sup>(٢)</sup> ) قال « يَنْظُرُ إِلَى وَجْهَهَا فِي خَدْرِهَا أَصْنَى مِنَ الْمَرْءَةِ وَإِنْ أُذِنَ لَوْلُؤَةٍ عَلَيْهَا لَتُضَيَّ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَإِنَّهُ يَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثَوْبًا يَنْقُدُهَا بِصَرِّهِ حَتَّى يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ »  
 وقال <sup>(٣)</sup> أنس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَمَّا أُسْرِى بِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ مَوْضِعًا يُسَمَّى الْبَيْدَخُ عَلَيْهِ خِيَامُ اللُّؤْلُؤِ وَالزَّبَرْجَدِ الْأَخْضَرِ وَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ فَقُلْنَا السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقُلْتَ يَا جَبْرِيلُ مَا هَذَا النَّدَاءُ؟ قَالَ هَؤُلَاءِ الْمَقْصُورَاتُ فِي الْخِيَامِ أَسْتَأْذِنُ رَبَّيْنِ فِي السَّلَامِ عَلَيْكَ فَأَذِنَ لَهُنَّ فَطَفِقْنَ يَقْلُنَّ نَحْنُ الرَّاغِبَاتُ فَلَا نَسْخَطُ أَبَدًا وَنَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَظْمَعُنَّ أَبَدًا » وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ( سُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ <sup>(٤)</sup> )

وقال مجاهد في قوله تعالى ( وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ <sup>(٥)</sup> ) قال : من الحيض ، والغائط ، والبول ، والبصاق ، والنخامة ، والمني ، والولد

( ١ ) حديث أبي سعيد الخدرى في قوله تعالى كأنهن الياقوت والمرجان قال تنظر إلى وجهها في خدرها أصنى من المرأة - الحديث : أبو يعلى من رواية أمي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية أبي الهيثم عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا دون ذكر أبي سعيد والترمذى من حديث ابن مسعود أن المرأة من ليلاء أهل الجنة ليرى يبايض مخ ساقها من وراء سبعين حلة - الحديث : ورواه عنه موقوفًا قال وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم

( ٢ ) حديث أنس لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى الخيام عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر - الحديث : وفيه ابن جبريل قال هؤلاء المقصورات في الخيام وفيه فطفتن يقلن عن الراضيات فلا نسخط : لم أحده هكذا بتمامه والترمذى من حديث علي أن في الجنة مجتمعا للجنات يرفعن أصواتهن لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكذاله وقال غريب ولأبي الشيخ في كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى بسد ضيق فيجنين في كل سبعة أيام فيقلن بأصوات - الحديث :

(١) الرحمن : ٥٨ (٢) الرحمن : ٧٢ (٣) آل عمران : ١٥

وقال الأوزاعي ( في شغل فاكهون<sup>(١)</sup> ) قال : شغلهم اقتضاها الأبقار  
<sup>(١)</sup> وقال وجل : يارسول الله ، أيباض أهل الجنة ؟ قال « يُعْطَى الرَّجُلُ مِنْهُمْ  
 مِنَ الْقُوَّةِ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ مِنْكُمْ »  
 وقال عبد الله بن عمر : إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى معه ألف خادم

كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه  
 وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> « إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيَتَزَوَّجُ  
 خَمْسَمِائَةَ حُورًا وَأَرْبَعَةَ آلَافٍ بَكْرٍ وَثَمَانِيَةَ آلَافٍ ثِيَبٍ يُعَارِقُ كُلَّ وَاحِدَةٍ  
 مِنْهُنَّ مِقْدَارَ عُمْرِهِ فِي الدُّنْيَا »

وقال النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ سُوقًا مَا فِيهَا بَيْعٌ وَلَا شِرَاءٌ  
 إِلَّا الصُّورُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءُ فَإِذَا اشْتَبَهَى الرَّجُلُ صُورَةَ دَخَلَ فِيهَا وَإِنْ فِيهَا  
 لَمُجْتَمَعُ الْحُورِ الْعَيْنِ يَرْفَعْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ تَسْمَعْ الْخَلَائِقُ مِثْلَهَا يَقْلُنَّ نَحْنُ  
 الْخَلَائِقُ فَلَا نَبِيدُ وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبَاسُ وَنَحْنُ الرَّاضِيَاتُ فَلَا نَسْخَطُ  
 فَطُوبَى لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنَّا لَهُ »

وقال<sup>(٤)</sup> أنس رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ  
 الْحُورَ فِي الْجَنَّةِ يَتَغَنَّيْنَ نَحْنُ الْحُورُ الْحَسَنُ خُبْنًا لِأَزْوَاجِ كِرَامٍ »

(١) حديث قال رجل يارسول الله أيباض أهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد  
 أفضل من سبعين منك : الترمذي وصححه وابن حبان من حديث أنس يعطى المؤمن في الجنة قوة

كذا وكذا من الجماع قليل أو يطبق ذلك قال يعطى قوة مائة  
 (٢) حديث أن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق  
 كل واحدة منهم مقدار عمره في الدنيا : أبو الشيخ في طبقات المحمدين وفي كتاب العظمة من حديث

ابن أبي أوفى إلا أنه قال مائة حوراء ولم يذكر فيه عنقه لمن واسناده ضعيف وتقدم قبله بحديث  
 (٣) حديث أن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء - الحديث : الترمذي فرقه  
 في موضعين من حديث على وقد تقدم بعضه قبل هذا بمحدثين

(٤) حديث أنس أن الحور في الجنة يتغنن فيقلن نحن الحور الحسن خبنا لأزواج كرام : الطبراني  
 في الأوسط وفيه الحسن بن داود للسكندري قال البخاري يسكلمون فيه وقال ابن عدي  
 أرجوانه لا بأس به



وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى ( فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ <sup>(١)</sup> ) قال  
السماع في الجنة

وقال <sup>(٢)</sup> أبو أمامة الباهلي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَا مِنْ غُفٍّ  
يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا وَبِجِلْسٍ عِنْدَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ ثِنْتَانِ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ  
يُغْنِيَانِهِ بِأَحْسَنِ صَوْتٍ سَمِعَهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَلَيْسَ بِمِزْمَارِ الشَّيْطَانِ وَلَكِنْ  
بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَتَقْدِيرِهِ «

## بيان

جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الاخبار

روى <sup>(٣)</sup> أسامة بن زيد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه  
« أَلَا هَلْ مُشَمَّرٌ لِلْجَنَّةِ إِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا هِيَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأَلُ  
وَرَيْنَجَالَةٌ تَهْتَزُّ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ وَنَهْرٌ مُطَرَّدٌ وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَسِيجَةٌ وَزَوْجَةٌ  
حَسَنَاءُ جَمِيلَةٌ فِي حَبْرَةٍ وَنِعْمَةٌ فِي مَقَامٍ أَبَدًا وَنَضْرَةٌ فِي دَارٍ عَالِيَةٍ بِهَيْئَةٍ سَلِيمَةٍ »  
قالوا : نحن المشمرون لها يا رسول الله . قال « قُولُوا إِنَّ شَاءَ اللَّهِ تَعَالَى » ثم  
ذكر الجهاد وحض عليه

<sup>(٤)</sup> وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هل في الجنة  
خيل فإنها تعجبنى ؟ قال « إِنْ أُحْبِبْتَ ذَلِكَ أُتِيَتْ بِفَرَسٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءِ »

( ١ ) حديث أبي أمامة ماس عبد يدخل الجنة الا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الخور العين  
يغنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديره

الطبراني باسناد حسن

( ٢ ) حديث أسامة بن زيد لأهل من مشعر للجنة ان الجنة لا خطر لها - الحديث : ابن ماجه وابن حبان

( ٣ ) حديث جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له هل في الجنة خيل فانها تعجبنى - الحديث :

الترمذي من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه السعدي مختلف فيه ورواه ابن المبارك

في الزهد بلفظ الضنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسل قال الترمذي وهذا أصح

وقد ذكر أبو موسى الدين عبد الرحمن بن سابط في ذيله على ابن منده في الصحابة ولا يصح له حجة

فَطِيرُ بَكَ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتَ »

وقال له رجل إن الإبل تعجنني ، فهل في الجنة من إبل ؟ فقال « يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنَّ أُدْخِلْتَ الْجَنَّةَ فَلَكَ فِيهَا مَا شِئْتَ نَفْسُكَ وَلَدَّتْ عَيْنَاكَ »

وعن <sup>(١)</sup> أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُولَدُ لَهُ الْوَلَدُ كَمَا يَشْتَهِي يَكُونُ حَمْلُهُ وَفِضَالُهُ وَشَبَابُهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « إِذَا اسْتَقَرَّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ اشْتَقَّ الْإِخْوَانُ إِلَى الْإِخْوَانِ فَيَسِيرُ سَرِيرُهُ هَذَا إِلَى سَرِيرِ هَذَا فَيَلْتَقِيَانِ وَيَتَحَدَّثَانِ مَا كَانَ يَنْتَهِي فِي دَارِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ يَا أَخِي تَذَكَّرُ يَوْمَ كَذَا فِي مَجْلِسٍ كَذَا فَدَعَوْنَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَغَفَرَ لَنَا »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ جُرْدٌ مُرْدٌ بِيضٌ رِجَمَاءٌ مَكْحُولُونَ أَبْنَاءُ ثَلَاثَ وَثَلَاثِينَ عَلَى خَلْقِ آدَمَ طُولُهُمْ مِثْوَنَ ذِرَاعًا فِي عَرَضٍ مِثْبَعَةٍ أُذْرُوعٍ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « أُدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ الَّذِي لَهُ مِثْمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ »

( ١ ) حديث أبي سعيد أن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي ويكون حمله وفصاله ونشأته في ساعة واحدة : ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب قال وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم في الجنة جماع ولا يكون ولدانتهى ولا حمد من حديث لأبي رزين يلذو لم مثل لداتكم في الدنيا ويلنذون بكم غير أن لاتواله

( ٢ ) حديث إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سريره هذا إلى سريره هذا البراز من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن بن أنس وقال لانعله يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم الإبهذا الاسناد تفرد به أنس انتهى والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مرسل دون ذكر أنس

( ٣ ) حديث أهل الجنة جرد مرد ببيض جعاد مكلون أبناء ثلاث و ثلاثين . الحديث : الترمذي من حديث معاذ وحسنه دون قوله ببيض جعاد ودون قوله على خلق آدم إلى آخره ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا أهل الجنة جرد مرد مكل وقال غريب وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة على صورة أيهم آدم مثنون ذراعا

( ٤ ) حديث أدنى أهل الجنة منزلة الذي له مئمانون ألف خادم . الحديث : الترمذي من حديث أبي حنيفة منقطعاً من أوله إلى قوله وإن عليهم التيجان ومن هنا بإسناده أيضا وقال لانعرفه إلا من حديث ورشد بن سعد

وَرِثَانٍ وَسَبْعُونَ زَوْجَةً وَيُنْصَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ لَوْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ وَيَأْقُوتٍ  
كَأَنَّ بَيْنَ الْجَابِيَةِ إِلَى صَنْعَاءَ وَإِنْ عَلَيْهِمُ التَّيْجَانُ وَإِنْ أَدْنَى لَوْلُؤَةٍ مِنْهَا لَتُنْفِيءُ  
مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ »

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « نَظَرْتُ إِلَى الْجَنَّةِ فَإِذَا الرِّثَاءَةُ مِنْ رُمَانِهَا  
كَخَلْفِ الْبَعِيرِ الْمُقْتَبِ وَإِذَا طَيْرُهَا كَالْبُخْتِ وَإِذَا فِيهَا جَارِيَةٌ فَقُلْتُ يَا جَارِيَةُ  
لِمَنْ أَنْتِ فَقَالَتْ لِرَزِيدِ بْنِ سَحَارَةَ وَإِذَا فِي الْجَنَّةِ مَالًا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ  
سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ »

وقال كعب : خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده ، وكتب التوراة بيده ، وعمره  
الجنة بيده ، ثم قال لها تكلمي فقالت ( قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ <sup>(١)</sup> )

فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها تفصيلا . وقد ذكر الحسن البصري  
رحمه الله جملتها فقال : إن رمانها مثل الدلاء ، وإن أنهارها لمن ماء غير آسن ،  
وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال ، وأنهار  
من خمر لذة للشاربين ، لا تسفه الأحلام ، ولا تصدع منها الرؤوس ، وإن فيها  
مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ملوك ناعمون ،  
أبناء ثلاث وثلاثين ، في سن واحد ، طولهم ستون ذراعا في السماء ، كحل ،  
جرد ، مرد ، قد أمنوا العذاب ، واطمأننت بهم الدار . وإن أنهارها لتجرى على  
رضراض من ياقوت وزبرجد ، وأن عروقها ، ونخلها ، وكرمها اللؤلؤ ، ونهارها  
لا يفلم علمها إلا الله تعالى ، وإن ريحها لوجود من مسيرة خمسمائة سنة ، وإن لهم  
فيها خيلا وإبلا هفافة ، رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت ، يتزاورون فيها ،  
وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون ، وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها

( ١ ) حديث نظرت الى الجنة فاذا الرمانه من رمانها كجلد البعير المقرب وإذا طيرها كالبخت - الحديث :  
رواه الأئمة في تفسيره من رواية أبي هرون العبدى عن أبي سعيد وأبو هرون اسمه عمارة  
ابن حريث ضعيف جدا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يقول الله أعددت لعبادي  
الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

سبعين حلة ، فقلبها ، فبرى منح ساقها من وراء تلك السبعين حلة ، قد طهر .  
الله الأخلاق من السوء ، والأجساد من الموت ، لا يمتخطون فيها ، ولا يبولون ،  
ولا يتغوطون وإنما هو جشاء ورشح مسك . لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا :  
أما أنه ليس ليس ليل يكر ، الفدو على الرواح ، والرواح على الفدو . وإن آخر من  
يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليد له في بصره وملكه مسيرة مائة عام ، في قصور من  
الذهب والفضة ، وخيام اللؤلؤ ، ويفسح له في بصره حتى ينظر إلى أفصاه كما  
ينظر إلى أدناه ، يندى عليهم بسبعين ألف صحيفة من ذهب ، ويراح عليهم بمثلها  
في كل صحيفة لون ليس في الأخرى مثله ، ويجد طعم آخره ، كما يجد طعم أوله  
وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار ، في كل دار سبعون ألف بيت ،  
ليس فيها صدع ولا ثقب

وقال مجاهد : إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة ، يرى  
أقصاه كما يرى أدناه ، وأرفهم الذي ينظر إلى ربه بالتداع والعشي  
وقال معبد بن المسيب : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة إسورة  
صواري من ذهب ، وسوار من لؤلؤ ، وسوار من فضة  
وقال أبوهريرة رضي الله عنه . إن في الجنة حوراء يقال لها العيناء ،  
إذا مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة ، وهي تقول : أين  
الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ؟

وقال يحيى بن معاذ : ترك الدنيا شديد ، وفوت الجنة أشد . وترك الدنيا مهر الآخرة  
وقال أيضا : في طلب الدنيا ذل النفوس ، وفي طلب الآخرة عز النفوس .  
فيا محبا لمن يختار المذلة في طلب ما يفتنى ، ويترك العز في طلب ما يبقى

## صفة

الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى

قال الله تعالى ( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ <sup>(١)</sup> ) وهذه الزيادة هي النظر

إلى وجه الله تعالى . وهي اللذة الكبرى التي ينسى فيها أهل الجنة ، وقد ذكرنا حقيقتها في كتاب المحبة . وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يتقدمه أهل البدعة . قال <sup>(١)</sup> جرير بن عبد الله البجلي : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى القمر ليلة البدر ، فقال : « إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤُوسِهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا » ثم قرأ ( وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا <sup>(٢)</sup> ) وهو مخرج في الصحيحين

وروى مسلم في الصحيح ، عن <sup>(٣)</sup> صهيب قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ <sup>(٤)</sup> ) قال : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ نَادَى مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يَنْجِزَ كُمُوهُ قَالُوا مَا هَذَا الْمَوْعِدُ أَلَمْ يُشَقِّلْ مَوَازِينَنَا وَبَيَّضْ وَجُوهَنَا وَبُذِّخَلْنَا الْجَنَّةَ وَبُجِرْنَا مِنَ النَّارِ قَالَ فَيَرْفَعُ الْحِجَابَ وَيَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ »

وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة ، وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعمى . وكل ما فصلناه من التمتع عند هذه النعمة ينسى . وليس السرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى ، بل لانسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء . وقد أوجزنا في الكلام هنا لما فصلناه في كتاب المحبة والشوق والرضا ، فلا ينبغي أن تكون همة العبد من الجنة بشيء سوى لقاء المولى . وأما سائر نعيم الجنة فإنه يشارك فيه البهيمة المسرحة في المرعى

( ١ ) حديث جرير كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال إنكم ترون ربكم - الحديث : هو في الصحيحين كما ذكر المصنف

( ٢ ) حديث صهيب في قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة : رواه مسلم كما ذكره المصنف

## نختم الكتاب بباب في

### سعة

رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك

فقد <sup>(١)</sup> كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب القول . وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة ، فنقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم في التفاؤل . ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدنيا والآخرة ، كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى . فقد قال الله تعالى ( إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ) وقال تعالى ( قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ) وقال تعالى ( وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ) ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم ، أو طغى به القلم في كتابنا هذا وفي سائر كتبنا ، ونستغفره من أبنائنا التي لا توافقها أعمالنا ، ونستغفره من أدينا وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ، ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا في الوفاء به ، ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته ، ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ، ونستغفره من كل خطرة دعنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس في كتاب سطرناه ، أو كلام نظمناه ، أو علم أفدناه

(باب في سعة الرحمة)

(١) حديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التفاؤل : متفق عليه من حديث انس في اثناء حديث ويعينى القول الصالح الكلمة الحسنة ولهما من حديث أبي هريرة وخبرهما القول قالوا وما القول قال الكلمة الفالحة يسماها أحكم

(١) النساء : ٤٨ (٢) الزمر : ٥٣ (٣) النساء : ١١٠

أو استفدناه . ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولن طالع كتابنا هذا  
أو كتبه ، أو سمعه ، أن نكرم بالمغفرة ، والرحمة ، والتجاوز عن جميع السيئات  
ظاهرا وباطنا ، فإن الكرم عميم ، والرحمة واسعة ، والجود على أصناف الخلائق  
فائض ، ونحن خلق من خلق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه ،  
فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً  
وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ فَبِمَا يَتَعَفَّوْنَ فِيهَا يَرْتَاحُونَ  
وَأُخْرَى تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ،

ويروى أنه <sup>(٢)</sup> إذا كان يوم القيامة ، أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش  
فيه : إن رحمتي سبقت غضبي ، وأنا أرحم الراحمين . فيخرج من النار مثلاً أهل الجنة  
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « يَتَجَلَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
صَاحِكًا فَيَقُولُ أَبْشَرُوا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ جَعَلْتُ  
مَكَانَهُ فِي النَّارِ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا »  
وقال النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> « يُشْفَعُ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ  
تَجْمِيعِ ذُرِّيَّتِهِ فِي مِائَةِ أَلْفٍ أَلْفٍ وَعَشْرَةِ أَلْفٍ أَلْفٍ »

( ١ ) حديث أن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس - الحديث : مسلم  
من حديث أبي هريرة وسلمان

( ٢ ) حديث إذا كان يوم القيامة أخرج الله كتابا من تحت العرش فيه : إن رحمتي سبقت غضبي - الحديث :  
متفق عليه من حديث أبي هريرة لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت

نغضى لفظ البخاري وقال مسلم كتب في كتابه على نفسه إن رحمتي تغلب غضبي  
( ٣ ) حديث يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول ابشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت  
مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا : مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل  
مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار ولأبي داود أمي أمة مرحومة لأعذاب  
عليها في الآخرة - الحديث : وأما أول الحديث فرواه الطبراني من حديث أبي موسى  
أيضا يتجلى الله ربنا لنا ضاحكا يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجدا فيقال

ارفعوا رؤسكم فليس هذا يوم عبادة وفيه على بن زيد بن جعدان  
( ٤ ) حديث يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف : الطبراني  
من حديث أنبي باسناد ضعيف

وقال صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ هَلْ أَحْبَبْتُمْ لِقَائِي فَيَقُولُونَ نَعَمْ يَا رَبَّنَا فَيَقُولُ لِمَ فَيَقُولُونَ رَجَوْنَا عَفْوَكَ وَمَنْفَرَتَكَ فَيَقُولُ قَدْ أُوجِبْتُ لَكُمْ مَغْفِرَتِي »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> « يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمًا أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٣)</sup> « إِذَا اجْتَمَعَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقَبِيلَةِ قَالَ الْكُفَّارُ لِلْمُسْلِمِينَ أَلَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ قَالُوا بَلَى فَيَقُولُونَ مَا غْنَى عَنْكُمْ إِسْلَامُكُمْ إِذْ أَنْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ فَيَقُولُونَ كَأَنْتُمْ لَنَا ذُنُوبٌ فَأَخَذْنَا بِهَا فَيَسْمَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا قَالُوا فَيَأْمُرُ بِإِخْرَاجِ مَنْ كَانَ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ الْقَبِيلَةِ فَيَخْرُجُونَ فَإِذَا رَأَى ذَلِكَ الْكُفَّارُ قَالُوا يَا لَيْتَنَا كُنَّا مُسْلِمِينَ فَتَخْرُجُ كَمَا أَخْرِجُوا » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ <sup>(٤)</sup>)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « اللَّهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّقِيقَةِ يَوْلِدُهَا »

وقال جابر بن عبد الله : من زادت حبهاته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل

(١) حديث ان الله تعالى يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي فيقولون نعم - الحديث : أحمد

والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف

(٢) حديث يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام : الترمذي

من حديث أنس وقال حسن غريب

(٣) حديث اذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا

مسلمين قالوا بلى فيقولون ما غنى عنكم اسلامكم اذ انتم معنا في النار - الحديث : في اخراج أهل

القبلة من النار ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين

النسائي في الكبرى من حديث جابر نحوه بإسناد صحيح

(٤) حديث لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشقيقة بولدها : متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب

وفي أوله قصة المرأة من السبي اذ وجدت صبيًا في السبي فأخذته فالصفت يطنها فارضته



الجنة بغير حساب . ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة . وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره

ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام : يا موسى ، استغاث بك قارون فلم تنقه . وعزتي وجلالى لو استغاث بى لأغثته وعفوت عنه

وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار ، فيقول الله تبارك وتعالى . ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ، ويأمر بردهما إلى النار ، فيعدو أحدهما فى سلسله حتى يقتحمها ، ويتلأأ الآخر ، فيؤمر بردهما ، ويسألهما عن فعلهما . فيقول الذى عدا إلى النار : قد حذرت من وبال المصيبة ، فلم أكن لأتعرض لسخطك ثانية . ويقول الذى تلأأ : حسن ظنى بك كان يشعرنى أن لا تردنى إليها بعد ما أخرجتنى منها . فيأمر بهما إلى الجنة

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> « يُنَادِى مُنَادٍ مِّنْ تَحْتِ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَمَّا مَا كَانَ لِي قَبْلَكُمْ فَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكُمْ وَبَقِيَتِ التَّبِعَاتُ فَتَوَاهَبُوهَا وَأَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي »

ويروى أن أعرابيا سمع ابن عباس يقرأ ( وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا <sup>(٢)</sup> ) فقال الأعرابي والله ما أنقذكم منها وهو يريد أن يوقمكم فيها : فقال ابن عباس : خذوها من غير فقيه

وقال <sup>(٣)</sup> الصنابحي : دخلت على عبادة بن الصامت وهو فى مرض الموت ، فبكيت ، فقال مهلا لم تبكى ؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم

( ١ ) حديث بنادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لى قبلكم فقد غفرته لكم وبقيت

التبغات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمتى : رويناه فى سبائيات أبى الاسعد القشبرى من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخى قال الخطيب ليس بثقة

( ٢ ) حديث الصنابحي عن عبادة بن الصامت من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرمه الله على النار : من لم من هذا الوجه وانفقا عليه من غير رواية الصنابحي بلفظ آخر

لهم فيه خير إلا حدثكموه ، إلا حديثا واحدا ، وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسى . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ »

وقال (١) عبد الله بن عمرو بن العاص : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنْ اللَّهُ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرْ عَلَيْهِ نِسْمَةً وَتِسْعِينَ سَجَلًا كُلُّ سَجَلٍ مِنْهَا مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَظَلَمْتُ كِتَابِي الْخَافِظُونَ ؟ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ أَفَلَاكَ عُذْرٌ ؟ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ بَلَى إِنْ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَيُخْرِجُ بِلَاطَةً فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَيَقُولُ يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِلَاطَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ فَيَقُولُ إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ قَالَ فَتَرْمِضُ السَّجَلَاتُ فِي كَفِّهِ وَالْبِلَاطَةُ فِي كَفِّهِ قَالَ فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبِلَاطَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط (٢) « إِنْ اللَّهُ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأُخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ يَا رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا يَمُنْ أَمَرْتَنَا بِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَرْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأُخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ يَا رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا يَمُنْ أَمَرْتَنَا بِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَرْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأُخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ يَا رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا يَمُنْ أَمَرْتَنَا بِهِ » فكان أبو سعيد يقول :

(١) حديث عبد الله بن عمرو أن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينتشر له

لعة وتسعون سجلا فذكر حديث البطاقة : ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب

(٢) حديث أن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون

خلقا كثيرا - الحديث : في إخراج اللوحين وقوله تعالى لاهل الجنة فلا أسخط عليكم بعدهم

إبدا فأخرجاه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد

إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً<sup>(١)</sup>) قال « فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا جحماً قبلهم في حرب في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حبل السيل ألا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصغر وأخضر وما يكون منها إلى الظل أبيض » قالوا يا رسول الله كأنك كنت ترى بالبادية قال « فيخرجون كالؤلؤ في رقابهم أنوارهم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بنير عملهم ولا خير قدموه ثم يقول أدخلوا الجنة فما رأيتم فهو لكم فيقولون ربنا أعطينا مالم نعط أحداً من العالمين فيقول الله تعالى إن لكم عندي ما هو أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم أبداً » رواه البخاري ومسلم في صحيحهما

وروى البخاري أيضاً عن<sup>(١)</sup> ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال « عرضت علي الأمم ينزل النبي ومعه الرجل والنبي ومعه الرجلان والنبي ليس معه أحد والنبي معه الرهط فرأيت سواداً كثيراً فرجوت أن تكون أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه ثم قيل لي انظر فرأيت سواداً كثيراً قد سد الأفق فقيل لي انظر هكذا وهكذا فرأيت سواداً كثيراً فقيل لي هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب » فنفرك الناس ولم يبين لهم رسول الله

(١) حديث ابن عباس عرضت على الأمم ينزل النبي والنبي معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد الحديث : إلى قوله سبقت بها عكاشة رواه البخاري

صلى الله عليه وسلم . فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا : أما نحن فولدنا في الشرك ، ولكن قد آمنّا بالله ورسوله ، هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتُمُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » فقام عكاشة فقال : ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله . فقال « أَنْتَ مِنْهُمْ » ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ »

وعن <sup>(١)</sup> عمرو بن حزم الأنصاري قال : تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع . فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا يا رسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث . قال « لَمْ يَحْدُثْ إِلَّا خَيْرٌ إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ سَبْعِينَ أَلْفًا لِحِسَابِ عَلَيْهِمْ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ أَيَّامٍ الْمَزِيدَ فَوَجَدْتُ رَبِّي مَا جَدًّا وَاحِدًا كَرِيمًا فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا سَبْعِينَ أَلْفًا قَالَ قُلْتُ يَا رَبِّ وَتَبْلُغُ أُمَّتِي هَذَا قَالَ أَوْكَلُ لَكَ التَّعَدُّ مِنَ الْأَعْرَابِ »

وقال <sup>(٢)</sup> أبو ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عَرَضَ لِي جِبْرِيلُ فِي جَانِبِ الْحَرَةِ فَقَالَ بَشِّرْ أُمَّتَكَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قَالَ نَعَمْ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى »

(١) حديث عمرو بن حزم الأنصاري تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه أن ربي وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفا لحساب عليهم وفيه أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا البهقي في البعث والنشور والحمد وأبي يعلى من حديث أبي بكر فزادني مع كل واحد سبعين ألفا وفيه رجل لم يسم ولاحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر فها لاستزده فقال قد استزده فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فها لاستزده قال قد استزده فأعطاني هكذا وفرج عبد الله ابن أبي بكر بن زيد قال عبد الله وبسط باعية وحيى عليه وفيه موسى بن عبيدة الرندي ضعيف

(٢) حديث أبي ذر عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال بشر أمتك بأنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة - الحديث : متفق عليه بلفظ أنا في جبريل فبشرني وفي رواية لهما أنا في آت من ربي

قُلْتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قَالَ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى قُلْتُ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى  
قَالَ وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ ۝

وقال <sup>(١)</sup> أبو الدرداء : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ  
رَبِّهِ جَنَّاتٍ <sup>(٢)</sup>) فقلت وإن سرق وإن زنى يارسول الله ؟ فقال (وَلَمَنْ خَافَ  
مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ <sup>(٣)</sup>) فقلت وإن سرق وإن زنى ؟ فقال (وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ  
جَنَّاتٍ <sup>(٤)</sup>) فقلت وإن سرق وإن زنى يارسول الله ؟ قال « وَإِنْ دَعَمَ أَنْفَرُ  
أَبَى الدَّرْدَاءِ ۝

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٥)</sup> « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى  
كُلِّ مُؤْمِنٍ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ اللَّيْلِ فَقِيلَ لَهُ هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ ۝  
يُروى مسلم في الصحيح عن <sup>(٦)</sup> أبي بردة ، أنه حدث عمر بن عبد العزيز ؛  
عن أبيه أبي موسى ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لَا يَمُوتُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ  
إِلَّا أَدْخَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَكَانَهُ النَّارَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ۝ فاستحلفه عمر بن  
عبد العزيز بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات ، أن أباه حدثه عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، خلف له .

ويروى أنه <sup>(٧)</sup> وقف صبي في بعض المغازي ينادي عليه فيمن يزيد في يوم  
صائف شديد الحر ، فبصرت به امرأة في خباء القوم ، فأقبلت تشد ، وأقبل

(١) حديث أبي الدرداء قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وإن زنى

وإن سرق - الحديث : رواه أحمد بإسناد صحيح

(٢) حديث إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الليل قيل له هذا فداؤك من النار .

ورواه مسلم من حديث أبي موسى نحوه وقد تقدم

(٣) حديث أبي بردة أنه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال

لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهودياً أو نصرانياً : عزاه المصنف لرواية مسلم وهو كذلك

(٤) حديث وقف صبي في بعض المغازي ينادي عليه فيمن يزيد في يوم صائف شديد الحر فبصرت به امرأة

الحديث : وفيه الله أرحم بكم جميعاً من هذه بأنها متفق عليه مختصراً مع اختلاف من حديث

عمر بن الخطاب قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي فادأ امرأة من السبي تسبي

أصحابها خلفها ، حتى أخذت الصبي وألصقته إلى صدرها ، ثم ألقت ظهرها على  
البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحر ، وقالت ابني ابني . فبكى الناس وتركوا  
ما هم فيه . فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم ، فأخبروه الخبر  
فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال « أَعْجِبْتُمْ مِنْ رَحْمَةِ هَذِهِ لِابْنِهَا » قالوا نعم . قال  
صلى الله عليه وسلم « فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَرْزَحُكُمْ جَمِيعًا مِنْ هَذِهِ بِابْنِهَا »  
فتفرق المسلمون - على أفضل السرور وأعظم البشارة

فهذه الأحاديث وما أوردناه في كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى ،  
فخرجو من الله تعالى أن لا ياملنا بما نستحقه ، ويتفضل علينا بما هو أهله ،  
بمنه وسعة جوده ورحمته

اذ وجدت صبيا في السبي فألصقته بيطنها وأرضعته فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم  
أنزول هذه المرأة طارحة ولدها في النار قلنا لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه فقال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أرحم بعباده من هذه بولدها لفظ مسلم وقال البخاري  
فاذا امرأة من السبي قد تلحبت ثديها تسعى اذ وجدت صبيا - الحديث - ❦

والحمد لله تعالى عودا على بدء ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد في كل حركة وهذه - ويقول مؤلفه  
عبد الرحيم بن الحسين العراقي اني أكلت مسودة هذا التأليف في سنة ٧٥١ وأكلت تببيض هذا المختصر  
منها في يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الاول سنة ٧٩٠ انتهى

٣٠٢٥

( احياء علوم الدين - الجزء السادس عشر )

# كتاب الايملاء

## كتاب الإملاء

في إشكالات الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما خصص وعمم ، وصلى الله على سيد جميع الأنبياء المبعوث إلى العرب والمعمم ، وعلى آله وعترته وسلم كثيرا وكرم ، سألت يسر الله لمراتب العلم تصعد مراقبها ، وفرتب لك مقامات الولاية تحل معاليها عن بعض ما وقع في الإملاء الملقب بالإحياء مما أشكل على من حجب فهمه وقصر علمه ، ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاش به شركاء الطعام ، وأمثال الأنعام ، وإجماع العوام ، وسفهاء الأحلام ، وذمار أهل الإسلام ، حتى طمنوا عليه ، ونهوا عن قراءته ، ومطالعة ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة بإطراحه ومنابدته ، ونسبوا مُمليه إلى ضلال وإضلال ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيف في الشريعة ، واختلال ، فإلى الله إنصرافهم ومآبهم ، وعليه في العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم ، ( سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ <sup>(١)</sup> ) ( وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ <sup>(٢)</sup> ) ( بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَارٌ قَدِيمٌ <sup>(٣)</sup> ) ( وَكَوْزِدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ أَعْلِمُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ <sup>(٤)</sup> ) ولكن الظالمون في شقاق بعيد ، ولا عجب فقد توى أدلاء الطريق ، وذهب أرباب التحقيق ، ولم يبق في الغالب إلا أهل الزور والفسوق متشبهين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة ، متعاطين لحجج غير صادقة ؛ كل ذلك لطلب الدنيا أو محبة ثناء ، أو مغالبة نظراء ، قد ذهبت المواصلات بينهم بالبر ،

(١) الزخرف ١٩٠ (٢) الشعراء : ٢٢٧ (٣) يونس : ٣٩ (٤) النساء : ٨٣



وتألفوا جميعا على المنكر ، وعدست النصائح بينهم في الأمر ، وتضافوا بأسرهم على الخديعة ، والمكر ، إن نصحتهم العلماء أغروا بهم ، وإن صمت عنهم العقلاء أزرروا عليهم ، أولئك الجهال في علمهم الفقراء في طولهم ، البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم لا يفلحون ، ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لا تظهر عليهم مواريث الصدق ، ولا تسطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تحقق لديهم أعلام المعرفة ، ولا يستر عوراتهم لباس الخشية لأنهم لم ينالوا أحوال النقاء ومراتب النجباء ، وخصوصية البدلاء ، وكرامة الأوتاد ، وفوائد الأقطاب ، وفي هذه أسباب السعادة وتمة الطهارة ، لو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق ، وعلموا علة أهل الباطل وداء أهل الضعف ودواء أهل القوة ، ولكن ليس هذا من بضائعهم ، حججوا عن الحقيقة بأربع ، بالجهل والإصرار ، ومحبة الدنيا وإظهار الدعوى : فالجهل أورثهم السخف ، والإصرار أورثهم التهاون ، ومحبة الدنيا أورثتهم طول الغفلة ، وإظهار الدعوى أورثهم الكبر والإعجاب والرياء (وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ<sup>(١)</sup>) (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ<sup>(٢)</sup>) فلا يفرنك أعاذنا الله وإياك من أحوالهم شأنهم ، ولا يذهلك عن الاشتغال بصلاح نفسك تمردهم وطغيانهم ، ولا يغوينك بما زين لهم من سوء أعمالهم شيطانهم فكان قد جمع الخلائق في صعيد (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ<sup>(٣)</sup>) وتلى (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ<sup>(٤)</sup>) فباله من موقف قد أذهل ذرى العقول عن القال والقال ، ومتابعة الأباطيل ، (فَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ<sup>(٥)</sup>) ولا تطع كل أفاك أثيم (وَإِنْ كَانَ كَبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَنْتَفِيَّ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ<sup>(٦)</sup>) (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ النَّاسَ أَثُمًَّ وَاحِدَةً<sup>(٧)</sup>) (وَاصْبِرْ حَتَّى يَخُضُّمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَالِكِينَ<sup>(٨)</sup>) (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ<sup>(٩)</sup>) ولقد جئت بك بحول الله وقوته ، وبعد استخارته عما سألت عنه وخاصة ما زعمت فيه من

(١) البروج : ٢٠ (٢) سبأ : ٤٧ (٣) ق : ٢١ ، ٢٢ (٤) الأعراف : ١٩٩ (٥) الأنعام : ٣٥

(٦) هود : ١٠٨ (٧) يونس : ١٠٩ (٨) القصص : ٨٨

تخصيص الكلام بالمثل الذي ذكر فيه الأفلام إذ قد اتفق أن يكون أشهر ما في الكتاب وأكثر تصرفاً على السنة الصدور والأصحاب ، حتى لقد صار المثل المذكور في المجالس تحية الداخل وحديث الجالس ، فساعدتنا أمنيته ولولا العجلة والاشتغال لأضفنا إلى إملاننا هذا بياناً غيره مما عدّوه مشكلاً ، وصار لعقولهم الضعيفة غبلاً ومضللاً ، ونحن نستعبد بالله من الشيطان ، ونستعصم به من جراءة فقهاء الزمان وتضرع إليه في المزيد من الإحسان ، إنه الجواد المنان

## ذكر ماسم

الأسئلة في المثل

ذكرت رزقك الله ذكراً وجعلك تعقل نهيه وأمره ، كيف جاز انقسام التوحيد على أربعة مراتب ، ولفظة التوحيد تنافي التقسيم في المشهود كما ينافي التكرير التعديد ، وإن صح انقسامه على وجه لا يندفع ، فهل تصح تلك القسمة فيما يوجد ، أو فيما يقدر ورغبت مزيد البيان في تحقيق كل مرتبة ، وانقسام طبقات أهلها فيها ، إن كان يقع بينهم التفاوت ، وما وجه تمثيلها بالجوز في القشور واللُبوب ، ولم كان الأول لا ينفع ، والآخر الذي هو الرابع لا يحل إفشاؤه ؟ وما معنى قول أهل هذا الشأن : إفشاء سر الربوبية كفر أين أصل ماقلوه في الشرع ؟ إذ الإيمان والكفر ، والهداية والضلال ، والتقريب والتبديد ، والصدقية وسائر مقامات الولاية ، ودركات المخالفة إنما هي مأخذ شرعية ، وأحكام نبوية ، وكيف يتصور مخاطبة العقلاء الجمادات ، ومخاطبة الجمادات للعقلاء ، وبماذا تسمع تلك المخاطبة أبجاسة الآذان ، أم بسمع القلب ؟ وما الفرق بين القلم المحسوس والقلم الإلهي ؟ ، وما حد عالم الملك وعالم الجبروت ، وحد عالم الملكوت ؟ ، وما معنى أن الله تعالى خلق آدم على صورته ؟ ، وما الفرق بين الصورة الظاهرة التي يكون معتقدها منزهاً مجللاً ؟ ، وما معنى الطريق في ، فإنك بالوادي المقدس طوى ، ولعله ينفد أو أصفهان أو نيسابور أو طبرستان في غير الوادي الذي سمع فيه ، وسى عليه السلام كلام الله تعالى ؟ ، وما معنى

فلستمع بسرّ قليل لما يوحى ؟ وهل يكون سماع القلب بغير سره ، وكيف يسمع لما يوحى من ليس بنبي ، أذلك على طريق التعميم أم على سبيل التخصيص ، ومن له بالتسلق إلى مثل ذلك المقام حتى يسمع أسرار الإله ، وإن كان على سبيل التخصيص والنبوة ليست محجورة على أحد إلا على من قصر عن سلوك تلك الطريق ، وما يسمع في النداء إذا سمع . أهله أسمع موسى أو أسمع نفسه ؟ وما معنى الأمر للسالك بالرجوع من عالم القدرة ونهيه عن أن يتخطى رقاب الصديقين ، وما الذي أوصله إلى مقامهم وهو في المرتبة الثالثة وهي توحيد المقربين ، وما معنى انصراف السالك بعد وصوله إلى ذلك الرفيق ، وإلى أين وجهته في الانصراف وكيف صفة انصرافه ، وما الذي يمنعه من البقاء في الموضع الذي وصل إليه وهو أرفع من الذي خلفه ، وأين هذا من قول أبي سليمان الداراني المذكور في غير الإحياء ، لو وصلوا ما رجعوا ما وصل من رجع ، وما معنى بأن ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ، ولا أحسن ترتيباً ، ولا أكل صنفاً ، ولو كان وادخره مع القدرة عليه كان ذلك بخلا يناقض الجود ، وعجزاً يناقض القدرة الإلهية ، وما حكم هذه العلوم المكنونة ، هل طلبها فرض ومندوب إليه ، أو غير ذلك ، ولم كسبت المشكل من الألفاظ ، واللفظ من العبارات ، وإن جاز ذلك للشارع فيما له أن يختبره ويمتحن فإبال من ليس شارعاً ، انتهى جملة مراسم الأسئلة في المثل فأسأل الله تعالى أن يعلى علينا ما هو الحق عنده في ذلك ، وأن يجري على سنتنا ما يستضاء به في ظلمات المسالك ، وأن يم بنفعه أهل المبادئ والمدارك ، ثم لابد أن أمهد مقدمة وأؤكد قاعدة ، وأؤكد وصية

أما المقدمة : فالفرض بها تبين عبارات انفرد بها أرباب الطريق تغمض معانيها على أهل القصور ، فنذكر ما يغمض منها ، ونذكر المقصد بها عندهم ، فرب واقف على ما يكون من كلامنا مختصاً بهذا الفن في هذا ، وغيره ، فيتوقف عليه فهم معناه من جهة اللفظ ،

وأما القاعدة : فنذكر فيها الاسم الذي يكون سلوكنا في هذه العلوم عليه ، والسمت الذي ننوي بمقصدنا إليه ، ليسكون ذلك أقرب على التأمل وأسهل على الناظر المتفهم

وأما الوصية : فنقصد فيها تعريف ما على من نظر في كلام الناس وآخذ نفسه بالإطلاع على أغراضهم فيما ألقوه ، من تصانيفهم وكيف يكون نظره فيها وإطلاعه عليها واقتبائه منها ، فذلك أوكد عليه أن يتلمسه من ظهورها ، فشردوا عنها ، وغلقت في وجوههم الأبواب ، وأسدل دونهم الحجاب ، ولو أتوها من أبوابها بالترحيب ، وولجوا على الرضا بالحبيب ، لكشف لهم كثير من حجب الغيوب ،  
( وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُبْتَقِيمٍ <sup>(١)</sup> )

## المقدمة

اعلم أن الألفاظ المستعملة ، منها ما يستعمله الجماهير والعموم ، ومنها ما يستعمله أرباب الصنائع ، والصنائع على ضربين ، علمية وعملية ، فالعملية كالمهن والحرف ، ولأهل كل صناعة منهم ألفاظ يتفاهمون بها آلاتهم ، ويتماطون أصول صناعتهم ، والعملية هي العلوم المحفوظة بالقوانين المدلة ، بما تحرر من الموازين ، ولأهل كل علم أيضا ألفاظ اختصوا بها لا يشاركون فيها غيرهم ، إلا أن يكون ذلك بالاتفاق من غير قصد ، وتكون المشاركة إذا اتفقت إما في صورة اللفظ دون المعنى أو في المعنى وصورة اللفظ جميعا ، وهذا يعرفه من بحث عن مجارى الألفاظ عند الجمهور ، وأرباب الصنائع ، وإنما سمينا من العلوم صنائع ما قصد فيها التصنع بالترتيب في التقسيم ، واختيار لفظ دون غيره ، وحد بطرفين ، مبدأ وغاية ، وما لم يكن كذلك فلا نسميه صناعة ، كعلوم الأنبياء صلوات الله عليهم والصحابة رضي الله عنهم ، فإنهم لم يكونوا فيما عندهم من العلم على طريق من بعدهم ولا كانت العلوم عندهم بالرسم الذي هو عند من خلفهم ، ومثل ذلك علوم العرب ولسانها ، لانسميها عندهم صناعة ونسميها بذلك عند ضبطها ، بما اشتهر من القوانين وتقرر من الحصر والترتيب ، ولأرباب العلوم الروحانية وأهل الإشارات إلى الحقائق والمسلمين بالسادة ، والملقبين بالصوفية ، والمتشبهين بالفقراء ، والمعروفين

بالرقة ، والمعزي إليهم ، والعلم والعمل ألفاظ جرى رسمهم بالتخاطب بها ، فيما يتذاكرون أو يذكرونه ، ونحن إن شاء الله نذكر ما ينمض منها ، إذ قد يقع منا عند ما نذكر شيئا من علومهم ، ونشير إلى غرض من أغراضهم ، فلم نر أن يكون ذلك بغير ماعرف من ألفاظهم وعباراتهم ، ولا حرج في ذلك عقلا وشرعا ونحن بحكم مصرف التقدير وهو على كل شيء قدير

فن ذلك السفر ، والسالك ، والمسافر ، والحال ، والمقام ، والمكان ، والشطح والطواع ، والذهاب ، والنفس ، والسر والوصل والفصل ، والأدب ، والرياضة ، والتجلى والتخلي ، والتجلى ، والعلّة والانزعاج ، والمشاهدة ، والمكاشفة ، واللوائح ، والتلوين ، والفيرة والحرية واللطفية ، والفتوح ، والوسم ، والرسم ، والبسط ، والقبض ، والفناء ، والبقاء ، والجمع ، والتفرقة ، وعين التحلم ، والزوائد والإرادة ، والمريد ، والمراد ، والهمة والغربة ، والمكر ، والاصطلام ، والرغبة والرغبة ، والوجد ، والوجود ، والتواجد فنذكر شرح هذه على أوجز ما يمكن ، بمشيئة الله تعالى ، وإن كانت ألفاظهم المصرفة بينهم في علومهم أكثر مما ذكرنا ، فإنما قصدنا أن نريك منها أمثولا ودستورا ، تتعلم به إذا طرأ عليك ما لم نذكره لك ههنا ، إذ لها مبحث وإليها سبيل فتطابه بعد ذلك على وجهه

فأما السفر والطريق : فالمراد بهما سفر القلب بآلة الفكر في طريق المعقولات وعلى ذلك ابنتى لفظ السالك والمسافر في لغتهم ، ولم يرد بذلك سلوك الأقدام التي بها يقطع مسافات الأجسام ، فإن ذلك مما شاركه فيه البهائم والأنعام ، وأول مسالك السفر إلى الله تعالى عز وجل معرفة قواعد الشرع ، وخرق حجب الأمر والنهي ، وتعلق الغرض فيها ، والمراد بها ، ومنها فإذا خلفوا نواحيها ، وقطعوا معاطنها ، أشرفوا على مفاوز أوسع ، وبرزت لهم مهامهم ، أعرض وأطول من ذلك معرفة أركان المعارف النبوية ، النفس والعدو والدنيا ، فإذا تخلصوا من أوعارها أشرفوا على غيرها أعظم منها في الانتساب ، وأعرض بغير حساب ، من ذلك سر القدر ، وكيف خفي بحكم في الخلائق ، وقادهم بلطف في عنف ، وشدة في لين ، وبقوة في ضعف ،

وباختيار في جبر ، إلى ماهو في مجاريه لا يخرج الخلقون عنه طرفة عين ، ولا يتقدمون ولا يتأخرون عنه ، والإشراف على الملكوت الأعظم ، ورؤية عجائب ومشاهدة غرائب ، مثل العلم الآلهي واللوح المحفوظ ، واليمين الكاتبة ، وملائكة الله يطوفون حول العرش ، بالبيت المعمور وهم يسبحونه ، ويقدسونه وفهم كلام المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، ثم التخطي منها إلى معرفة الخالق للكل ، والمالك للجميع ، والقادر على كل شيء ، فتنشام الأنوار المحرقة ، ويتجلى لمرآة قلوبهم الحقائق المحتجبة ، فيعلمون الصفات ويشاهدون الموصوف ، ويحضرون حيث غاب أهل الدعوى ، ويبصرون ماعى عنه أولو الأبصار الضعيفة بحجب الهوى

والحال : منزلة العبد في الحين فيصفوله في الوقت حاله ووقته وقيل هو ما يتحول فيه العبد ، ويتغير مما يرد على قلبه ، فإذا صفتارة وتغير أخرى قيل له حال ، وقال بعضهم ، الحال لا يزول فإذا زال لم يكن حالا

والمقام : هو الذي يقوم به العبد في الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف المجاهدات ، فتى أقيم العبد بشيء منها على التمام والكمال فهو مقامه ، حتى ينقل منه إلى غيره

والمكان : هو لأهل الكمال والتمكين والنهاية ، فإذا كمل العبد في معانيه فقد تمكن من المكان وغير المقامات والأحوال ، فيكون صاحب مكان كما قال بعضهم مكانك من قلبى هو القلب كله فليس لشيء فيه غيرك موضع

والشطح : كلام يترجم به اللسان عن وجد يفيض عن معدنه ، مقرون بالدعوى إلا أن يكون صاحبه محفوظا

والطوالع : أنواع التوحيد يطلع على قلوب أهل المعرفة شعاعها ، فيطمس سلطان نورها الألوان ، كما أن نور الشمس يحو أنوار الكواكب

والذهاب : هو أن يغيب القلب عن حس كل محسوس بمشاهدة محبوبها

والنفس : روح سلطه الله على نار القلب ليطفئ شرها

والسر : ما خفي عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق ، وسر السر ملا يحس به السر

والسر: ثلاثة سر العلم، وسر الحال، وسر الحقيقة، فسر العلم حقيقة العالمين بالله عز وجل، وسر الحال معرفة مراد الله في الحال من الله، وسر الحقيقة ما وقعت به الإشارة

والوصل: إدراك الفائق

والفصل: فوت ما ترجوه من محبوبك

والأدب: ثلاثة. أدب الشريعة وهو التعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة؛

والثاني: أدب الخدمة وهو التشمير عن العلامات والتجرد عن الملاحظات

والثالث: أدب الحق وهو موافقة الحق بالمعرفة

والرياضة: اثنان. رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النفس، ورياضة الطلب

وهو صحة المراد

والتحلى: التشبه بأحوال الصادقين بالأحوال وإظهار الأعمال

والتخلي: اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق

والتجلى: هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب

والعلة: تنبه عن الحق

والانزعاج: انتباه القلب من سنة الغفلة والتحرك للأنس والوحدة

والمشاهدة: ثلاثة. مشاهدة بالحق وهي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد، ومشاهدة

للحق وهي رؤية الحق في الأشياء، ومشاهدة الحق وهي حقيقة اليقين بلا ارتياب

والمكاشفة: أتم من المشاهدة وهي ثلاثة، مكاشفة بالعلم، وهي تحقيق الإصابة

بالفهم ومكاشفة بالحال، وهي تحقيق رؤية زيادة الحال، ومكاشفة بالتوحيد، وهي تحقيق

صحة الإشارة

واللوائح: ما يلوح من الأسرار الظاهرة الصافية من التسمو من حالة إلى حالة

أتم منها، والارتقاء من درجة إلى ما هو أعلى منها.

والتلوين: تلوين العبد في أحواله، وقالت طائفة: علامة الحقيقة. رفع التلوين

بظهور الاستقامة، وقال آخرون: علامة الحقيقة. التلوين لأنه يظهر فيه قدرة

القادر ، فيكسب منه العبد النيرة .

والنيرة : غيرة في الحق ، وغيره على الحق ، وغيره من الحق ، فالنيرة في الحق برؤية الفواشش والمناهى ، والنيرة على الحق هي كتمان السرائر ، والنيرة من الحق صنّه على أوليائه

والحرية : إقامة حقوق العبودية فتكون لله عبدا وعند غيره حرا

واللطيفة : إشارة دقيقة المعنى تلوح في الفهم ولا يسمها العبارة

والفتوح : ثلاثة . فتوح العبادة في الظاهر : وذلك سبب إخلاص القصد ، وفتوح الخلاوة في الباطن : وهو سبب . جذب الحق بإعطافه ، وفتوح المكاشفة وهو سبب المعرفة بالحق .

والونسم والرسم : معنيان يجريان في الأبد بما جريا في الأزل

والبسط : عبارة عن حال الرجاء

والقبض : عبارة عن حال الخوف

والفناء : فناء المعاصي ، ويكون فناء رؤية العبد لفعله بقيام الله تعالى على ذلك والبقاء : بقاء الطاعات ، ويكون بقاء رؤية العبد بقيام الله سبحانه على كل شيء والجمع : النسوية في أصل الخلق ، وعن آخرين معناه إشارة من أشار إلى الحق بلا خالق والفرقة : إشارة إلى اللون والخلق ، فن أشار إلى تفرقة بلا جمع فقد جحد البارئ سبحانه ، ومن أشار إلى جمع بلا تفرقة فقد أنكر قدرة القادر ، وإذا جمع بينهما ففسد وجد

عين التحمل : إظهار غاية الخصوصية بلسان الانبساط في الدعاء

والزوائد : زيادات الإيمان بالغيب واليقين

والإزادات : ثلاثة : إرادة الطالب من الله سبحانه وتعالى : وذلك موضع التمني ، وإرادة

الحظ منه : وذلك موضع الطمع ، وإرادة الله سبحانه : وذلك موضع الإخلاص

والمريد : هو الذي صح له الابتلاء ودخل في جملة المنقطعين إلى الله عز وجل بالاسم

والمراد : هو العارف الذي لم يبق له إرادة وقد وصل إلى النهاية وغير الأحوال

والمقامات .



والهمة : ثلاثة . همة مُنية : وهي تحريك القلب للعنى ، وهمة إرادة : وهي أول صدق المرید ، وهمة حقيقة القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل . فإن الأمر إذ والخطب جد ، والآخرة مقبلة ، والدنيا مدبرة ، والأجل قريب ، والسفر بعيد والزاد طفيف ، والخطر عظيم ، والطريق سد ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رد ، وسلوك طريق الآخرة مع كثرة النوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد ، فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وقد شغلهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغوام الطغيان وأصبح كل واحد يعاجل حظه مشغوفاً ، فصار يرى المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، حتى ظل علم الدين مندرساً ، ومنار الهدى في أفطار الأرض منطمساً ، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام ، عند تهاوش الطغام أو جدل يتدفع به طالب المباحة إلى الغلبة والإفحام ، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا ماسوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام ، وشبكة للحطام ، فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح ، وهي جمع الهمم بصفاء الإلهام

والغربة : ثلاثة . غربة عن الأوطان من أجل حقيقة القصد ، وغربة عن الأحوال من حقيقة التفرد بالأحوال ، وغربة عن الحق من حقيقة الدهش عن المعرفة والاصطلام : نعت ، وله برد على القلوب بقوة سلطان فيستكنها

والمنكر : ثلاثة . مكر عموم : وهو الظاهر في بعض الأحوال ، ومكر خصوص وهو في سائر الأحوال ، ومكر خفي في إظهار الآيات والكرامات والرغبة : ثلاثة . رغبة النفس في الثواب ، ورغبة القلب في الحقيقة ، ورغبة السر في الحق

والرهبة : رهبة الغيب لتحقيق أمر السبق

والوجد : مصادفة القلب بصفاء ذكر كان قد فقده

والوجود : تمام وجد الواجدين وهو أتم الوجد عندهم ، ونشئل بعضهم عن

الوجد والوجود فقال ، الوجد مانطلبه فنجده بكسبك واجتهادك ، والوجود مانجده من الله الكريم ، والوجد عن غير تمكين والوجود مع التمكين والتواجد : استدعاء الوجد . والنشبه في تكلفه بالصادقين من أهل الوجد القاعدة : وأما القاعدة التي يبنى عليها هذا الفن بأسره ، فذلك اجتذاب أرواح الماني والإشارة إلى البعد في القرب ، قصد الاستدلال بالأقوال والأعمال والأحوال على الله تعالى ، قصدا ذاتيا لاعلى ماسلسكه أرباب علوم الظاهر ، ثم التصديق بالقوة والنظر إلى الملكوت من كوة ، ومعرفة العلوم في الانصراف ومصاحبة القدر بالمساعدة ، وبالمعروف ومعاونة الوجودات الخمس ، الذاتي ، والحسي ، والخيالي ، والعقلي ، والشهبي حسبما فهم من الشرع ، وثبت معناه في المحفوظ من الوحي ، وكلما أدرك شيء من العجز ، والعلم لا ينال براحة الجسم ( وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ <sup>(١)</sup> ) ( وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا <sup>(٢)</sup> )

## والوصية

أيها الطالب للعلوم ، والناظر في التصانيف ، والمستشرف على كلام الناس ، وكتب الحكمة ، ليكن نظرك فيما تنظر فيه بالله ، ولله ، وفي الله ، لأنه إن لم يكن نظرك به ، وتلك إلى نفسك ، أو إلى من جعلت نظرك به أيا كان غيره ، من فهم ، أو علم ، أو حفظ أو إمام متبع ، أو صحة ميز ، أو ما شاكل ذلك ، وكذلك إن لم يكن نظرك له فقد صار علمك لغيره ، ونكصت على عقبيك ، وخسرت في الدارين صفقتك ، وعاد كل هول عليك ( فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا <sup>(٣)</sup> ) وكذلك إن لم يكن نظرك فيه فقد أثبت معه غيره ، ولا حظت بالحقيقة سواء ، ورؤية غيره دونه تعمي القلب ، وتهتك السر ، وتجبب اللب وإذا نظرت في كلام أحد من الناس ، ممن قد شهر بعلم فلا تنظره بازدراء كمن

يستغنى عنه في الظاهر ، وله إليه كثير حاجة في الباطن ، ولا تقف به حيث وقف به كلامه ، فاللعاني أوسع من العبارات ، والصدور أفسح من الكتب المؤلفات ، وكثير علم مما لم يبر عنه ، واطمح بنظر قلبك في كلامه إلى غاية ما يحتمل ، فذلك يعرفك قدره ويفتح باب قصده ، ولا تقطع له بصحة ، ولا تحكم عليه بفساد ، وليكن تحسين النظر أغلب عليك فيه ، حتى يزول الإشكال عنك ، بما تتيقن من معانيه ، وإذا رأيت له حسنة وسيئة فانشر الحسنة ، واطلب المآذير للسيئة ، ولا تسكن كالذبابة تنزل على أفذر ماتجده ، ولا تعجل على أحد بالتخطئة ، ولا تبادر بالتجھيل فربما عاد عليك ذلك وأنت لا تشعر ، فلكل عالم عورة ، وله في بعض ما يأتى به احتجاج ، وناهيك ماجرى بين وليّ الله تعالى الخضر وكليمه موسى ، على نبينا وعليهما السلام ، وإذا عرض لك من كلام عالم إشكال يؤذن في الظاهر بحال ، أو اختلال ، فخذ مظهر لك علمه ، ودع ما اعتاص عليك فهمه ، وكل العلم فيه إلى الله عز وجل ، فهذه وصيتي لك ، فاحفظها ، وتذكيري إياك فلا تذهل عنه

اسمع وصيتي إن تحفظ حظيت بها وإن تخالف فقد يردى بك الخلف .  
وأزبدك زيادة تقتضى التعريف بأصناف العلماء ، لكي يُعرف أهل الحقيقة من غيرهم ، فلك في ذلك أكبر منفعة ، ولى في وصفهم أبلغ غرض ، قال علماؤنا : العلماء ثلاثة . حجة ، وحجاج ، ومحجوج ، فالحجة : عالم بالله وبأمره وبآياته ، مهتما بالخشية لله سبحانه ، والورع في الدين ، والزهد في الدنيا ، والإيثار لله عز وجل ، والحجاج : مدفوع إلى إقامة الحجة ، وإطفاء نار البدعة ، قد أخرج المتكلمين ، وأخف المنخرصين ، برهانه ساطع ، وبيانه قاطع ، وحفظه ما ينازع ، شواهد بيّنة ، ونجومه نيرة ، قد هي صراط الله المستقيم ، والمحجوج : عالم بالله ، وبأمره ، وبآياته ولكنه فقد الخشية لله برؤيته لنفسه ، وحجبه عن الورع والزهد في الدنيا ، والرغبة والحرص ، وبهده من بركات علمه محبة العلو والشرف ، وخوف السقوط والفقر ، فهو عبد لعبيد الدنيا ، خادم لخدمها ، مفتون بعد علمه ، مغتر بعد معرفته ، مخذول بعد نصرته ، شأنه الاحتقار لنعم الله ، والازدراء لأوليائه ، والاستحلاف

بالجهال من عباده ، ونفخه بقاء أميره ، وصلة سلطانه وطاعة القاضى والوزير  
والحاجب له ، قد أهلك نفسه حين لم ينتفع بعلمه ، والاتباع له ، ومن يكون  
بعده قدوة به ، ومراده من الدنيا مثله فى مثل هذا ضرب الله المثل حين قال  
( وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ تَبَا الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ  
مِنَ الْفَٰرِثِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَخِلُّهُ  
كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ <sup>(١)</sup> ) فويل لمن صلب  
مثل هذا فى دنياه ، وويل لمن تبعه فى دينه ، وهذا هو الذى أكل بدينه ، غير  
منصف لله سبحانه فى نفسه ، ولاناصح له فى عباده ، تراه إن أعطي من الدنيا  
رضي بالمدحة لمن أعطاه ، وإن منع رش بالدم لمن منعه ، وقد نسي من قسم  
الأرزاق ، وقدر الأقدار ، وأجرى الأسباب ، وفرغ من الخلق كلهم ، فنموذ بالله  
من الحور بعد الكور ، ومن الضلالة بعد الهدى ، وإنما زدتك هذه الزيادة  
وإن ظهر لكثير أنها ليست من الغرض الذى نحب فيه ، فقصدى أن يعلم من ذهب  
من الناس ، ومن بقي ، ومن أبصر الحقائق ، ومن عمي ، ومن اهتدى على الصراط  
المستقيم ، ومن غوى ، فليعلم أن الصنفين الأولين من العلماء قد ذهبوا ، وإن كان بقي  
منهم أحد فهو غير محسوس للناس ولا مدرك بالملاحظة

خاب الذين إذا ما حدثوا صدقوا وظنهم كيقين إن هم حد سوا  
وذلك لما سبق فى القضاء من ظهور الفساد ، وعدم أهل الصلاح والرشاد ،  
نعم . وعدم الصنف الثالث على غربته ، وأعز شئ على وجه الأرض وفى الغالب  
ما يقع عليه فى الحقيقة اسم علم عند شخص مشهور به ، وإنما الموجود اليوم أهل  
سخافة ودعوى ، وحقارة ، واجترأ ، وعجب بغير فضيلة ، ورياء ، يحبون أن يحمدا  
بما لم يفعلوا ، وهم أكثر من عمر الأرض وصيروا أنفسهم أوتاد البلاد ، وأرسان  
العوام ، وهم خلفاء إبليس وأعداء الحقائق ، وأخذان لعوائد السوء ، وعنهم يرد  
عتب الحكم الشائنة وانتقاض أهل الإرادة والدين

مثل البهائم جهال بخالقهم لهم تصاوير لم يعرف لمن حجا  
كل يروم على مقدار حيلته زوائر الأسد والنباحه الشا  
( فَأَخَذَهُمْ فَأَتْلَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْ فَكُونُ <sup>(١)</sup> ) (لَا تَخْذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ  
اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ <sup>(٢)</sup> ) أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون  
أولوا النفاق فإن قلت اصدقوا كذبوا من السفاه وإن قلت اكذبوا اصدقوا  
ولناخذ في جواب ماسألت عنه ، على نحو ما رغبت فيه ، وأستوهب الله نفوذ  
البصيرة ، وحسن السريرة ، وغفران الجريرة ، وهو ربى ورب كل شيء وإليه المصير.

## استدأ الأجوبة

عن مراسم الأسئلة

جرى الرسم فى الإحياء بتقسيم التوحيد على أربع مراتب تشبيها لموافقة الغرض  
فى التمثيل به ، وذكر أن المعترض وسوس ، أو بالخواطر هجس ، بأن لفظ  
التوحيد ينافى التقسيم ، إذ لا يخلو بأن يتعلق بوصف الواحد الذى ليس بزائد عليه ،  
فذلك لا ينقسم لا بالجنس ولا بالفصل ولا بغير ذلك ، وإما أن يتعلق بوصف المكلفين  
الذين توجب لهم حكمه إذا وجد فيهم ، فذلك أيضا لا ينقسم من حيث انتسابهم إليه  
بالعقل ؛ وذلك لضيق المجال فيه ، ولهذا لا يتصور فيه مذاهب ، وإنما التوحيد مسلك  
حق بين مسلكين باطلين ، أحدهما : الشرك ، والثانى : الإلbas ، وكلا الطرفين كفر  
والوسط إيمان محض وهو أحد من السيف ، وأضيق من خط الظل ، ولهذا قال  
أكثر المتكلمين : بتماثل إيمان جميع المؤمنين والملائكة والنبيين والمرسلين وسائر  
صوم المرسلين ، وإنما تختلف طرق إيمانهم التى هي علومهم ، ومذهبهم فى ذلك  
معروف ، ونحن لانلم فى هذه الإجابة كلها بشيء من أنحاء الجدال ، ومقابلة الأقوال  
بالأقوال ، بل بقصد إزالة غبر الإشكال ، ورد ما طعن به أهل الضلال والإضلال  
واعلم أن التقسيم على الإطلاق يستعمل على أنحاء يتوجه ههنا بشيء قد سدح به

المعترض ، أو هجس به الخاطر ، وإنما المستعمل ههنا من أنحائه ما تتميز به بعض الأشخاص ، بما اختصت به من الأحوال ، وكل حالة منها تسمى توحيدا ، على جهة تنفرد بها ، لا يشاركها فيها غيرها ، فمن وجد التوحيد بلسانه يسمى لأجله موحدا مادام يظن أن قلبه موافق للسانه ، وإن علم منه خلاف ذلك سلب عنه الاسم وأقيم عليه ماسرع في الحكم ، ومن وجد بقلبه على طريق الركون إليه ، والميل إلى اعتقاده والسكون نحوه بلا علم يصحبه فيه ، ولا برهان يربط به سمى أيضا موحدا ، على معنى أنه يعتقد التوحيد ، كما يسمى من يعتقد مذهب الشافعي شافعيًا ، والحنبلي حنبليًا ، ومن رزق علم التوحيد وما يتحقق به عنده ، وسعى من أجله بشكوكه المعارضة له ، فيسمى موحدا ، لأنه عارف به ، يقال جدلي ونحوي وفقية ، وممنه يعرف الجدل والفقه والنحو .

وأما من استغرق علم التوحيد قلبه ، واستولى على جملة حتى لا يبدي فيه فضلا لغيره ، إلا على طريق التبعية له ، ويكون شهود التوحيد لكل ماعدا ، سابقا له مع الذكر والفكر مصاحبا من غير أن يعتريه ذهول ولا نسيان له ، لأجل اشتغاله بغيره كالعادة في سائر العلوم ، فهذا يسمى موحدا ، ويكون القصد بالمسمى من ذلك المبالغة فيه

فأما الصنف الأول : وهم أرباب النطق المفرد ، فلا يضربون في التوحيد بسهم ، ولا يفوزون منه بنصيب ، ولا يكون لهم شيء من أحكام أهله في الحياة إلا مادام الظن بهم ، أن قلب أحدهم موافق للسانه ، كما يفرد القول عليه بعد هذا إن شاء الله عز وجل وأما الصنف الثاني : وهم أرباب الاعتقاد الذين سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم أو الوارث أو المبلغ ؛ يخبر عن توحيد الله عز وجل ، أو يأمر به ، ويلزم البشر قول لا إله إلا الله المنبئ عنه ، فقبلوا ذلك ، واعتقدوه على الجملة ، من غير تفصيل ولا دليل ، فنسبوا إلى التوحيد ، وكانوا من أهله بمنزلة مولى القوم الذي هو منهم ، وبمنزلة من أكثر سواد قوم فهو منهم

وأما الصنف الثالث والرابع : فهم أرباب البصائر السليمة ، الذين نظروا بها إلى أنفسهم ، ثم إلى سائر أنواع المخلوقات فتأملوها ، فرأوا ، على كل منها خطأ منطبقا

فيها ، ليس بعربي ، ولا سرياني ، ولا عبراني ، ولا غير ذلك من أجناس الخطوط ،  
فبادر إلى قراءته من لم يستعجم عليه ، وتعلمه منهم من استعجم عليه ، فإذا هو الخط  
الإلهي المكتوب على صفحة كل مخلوق ، المنطبع فيه من مركب ومفرد ، وصفة وموصوفة ،  
وخي ، وجاد ، وناطق وصامت ، ومتحرك وساكن ، ومظلم ونير ، وهو الذي يسمى  
تارة بعلامة ، وتارة بسمة ، وتارة بأثر القدرة ، وتارة بآية ، كما قال الشاعر : ولا أدرى  
عن سماع أو رؤية قلب

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فلو قرأوا ذلك الخط وجدوا تفسير ذلك المكتوب عليه ، وشرحه أبدية ماله والنصريف له  
بالقدرة على حكم الإرادة بما سبق في ثابت العلم من غير مزيد ولا تقصير ، فتركوا الكتابة  
والمكتوب ، وترقوا إلى معرفة الكتاب ، الذي أحدث الأشياء وكونها ، ولا يخرج عن  
ملكه شيء منها ، ولا استغنت بأنفسها عن حوله وقوته ، ولا انتقلت إلى الحرية عن  
رق استعباده ، فوجدوه كما رصف نفسه ( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ <sup>(١)</sup> )  
فخلصت لهم التفرقة والجمع ، وعقلت نفس كل واحد منهم توحيد خالقها بإذنه وإيجاده  
عن غيره ، وعقلت أنها عقلت توحيدده ، فسبحان من يسرها لذلك ، وفتح عليها بما  
ليس في وسعها أن تدركه إلا به وهو اللطيف الخبير ، لكن الصنف الثالث : لم يقصر كل  
منهم أن يعرف نفسه موجدا لديه فيما لا يزال ، وهم المقربون ، والصنف الرابع : لم يقصر كل  
واحد منهم أن عرف ربه موجدا لنفسه فيما لم يزل ، وهم الصديقون ، وبينهما تفاوت كثير  
وأما طريق معرفة صحة هذا التقسيم : فلا أن العقلاء بأسرهم لا يخلو كل واحد منهم أن  
يوجد أثر التوحيد بأحد الأنحاء المذكورة عنده ، فأما من عدت عنده فهو كافر إن كان  
في زمن الدعوة ، أو على قرب يمكن وصول علمه إليه ، أو في فترة يتوجه عليه فيها التكليف  
وهذا صنف مبعده عن مقام هذا الكلام ، وأما من يوجد عنده فلا يخلو أن يكون مقلدا  
في عقده ، أو عالما به ، والمقلدون هم العوام ، وهم أهل المرتبة الثانية في الكتاب ،

فأما العلماء بحقيقة عقدهم فلا يخلو كل واحد أن يكون بلغ الغاية التي أعدت لصفه دون النبوة أو لم يبلغ ولكنه قريب من البلوغ . فالذي لم يبلغ وكان على قرب هم المقربون ، وهم أهل المرتبة الثالثة ، والذين بلغوا الغاية التي أعدت لهم ، وهم الصديقون ، وهم أهل المرتبة الرابعة وهذا التقسيم ظاهر الصحة إذ هو دائر بين النفي والإثبات ، ومحصور بين المبادئ والغايات ، ولم يدخل أهل المرتبة الأولى في شيء من تصحيح هذا التقسيم إذ ليس هم من أهله إلا بانتساب كاذب ، ودعوى غير صافية ، ثم لا بد من الوفاء بما وعدناك به من إبداء بحث ، ومزيد شرح ، وبسط بيان ، تعرف منه باذن الله حقيقة كل مرتبة ومقام واتقسام أهله فيه بحسب الطاقة والامكان ، بما يجريه الواحد الحق على القلب واللسان

## بيان

مقام أهل النطق المجرد وتمييز فرقهم

فأقول : أرباب النطق المجرد أربعة أصناف ، أحدهم : نطقوا بكلمة التوحيد مع شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم لم يمتدوا معنى ما نطقوا به ، لما لم يعلموه . لا يتصورن صحته ولا فساد ولا صدقه ولا كذبه ولا خطأ ولا صوابه ، إذ لم يبحثوا عليه ولا أرادوا فهمه . إما لبعدهم همته وقلة اكتراثهم ، وإما لنفورهم من التعب وخوفهم أن يكلفوا للبحث عما نطقوا به ، أو يبدوا لهم ما يلزمهم من الاعتقاد والعمل ، وما بعد ذلك فإن التزموها فلو فاقوا راحت أبدانهم الماجلة ، وفراغ أنفسهم ، وإن لم يلتزموا شيئاً من ذلك ، وقد حصل لهم العلم فتكون عيشتهم منغصة وملاذهم مكدره ، من خوف عقاب ترك ما علموا لزومه ، ومثل هؤلاء مثل من يريد قراءة الطب ، أو يمرض عليه ولكنه يمنعه عنه مخافة أن يتطلع منه ، على ما يغير عنه بعض ملاذه من الأطعمة ، والأشربة والأنكحة ، أو كثير منها فيحتاج إلى أن يتركها ، أو يرتكبها على رقيه ، وخوف أن يصيبه صورة ما يعلم ضرورة منها ، فيدع قراءة الطب رأساً ، مثل هذا الصنف من معنى ما نطقوا به ، وهل اعتقدوه ؟ فيقولون لانعلم فيه ما يستقصد ، وما دعانا النطق إلا مساعدة الجماهير ، وانخراطاً بإظهار القول في الجمل التفسير ، ولا نعرف



هل ماقلناه بالحقيقة من قبل العرف والنكير ، ولا شك أن هذا الصنف الذي أخبر صلى الله عليه وسلم عن حاله بمسألة الملوك ، أحدهم في القبر إذ يقولان من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون قولا فقلته فيقولان له لا دريت ولا تليت ، وسماء النبي صلى الله عليه وسلم الشاك والمرتاب والصنف الثاني : نطق كما نطق الذين من قبلهم ، ولكنهم أضافوا إلى قولهم ما لا يحصل معه الإيمان ولا ينتظم به معنى التوحيد ، وذلك مثل ماقلت السبابة طائفة من الشيعة القدماء إن عليا هو الإله ، وبلغ أمرهم عليا رضي الله عنه ، وكانوا في زمنه فخرق منهم جماعة ، وأمثال من نطق بالشهادتين كثير ، ثم أصحاب نطقه مثل هذا النكير ويسمون الزنادقة ، وقد رأينا حديثا عنه صلى الله عليه وسلم في ذلك « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي الْجَنَّةِ إِلَّا الزَّانِقَةَ » والصنف الثالث : نطقوا كما نطق الصنفان المذكوران قبلهم ، ولكنهم آثروا التكذيب ، واعتقدوا الرد ، واستنبطوا خلاف ماظهر منهم ، من الإقرار وإذارجعوا إلى أهل الإلحاد أعلنوا عندهم بكلمة الكفر ، فهؤلاء المنافقون الذين ذكرهم الله في كتابه بقوله ( وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ <sup>(١)</sup> )

والصنف الرابع : قوم لم يعرفوا التوحيد ، وما نشؤا عليه ، ولا عرفوا أهله ، ولا سكنوا بين أظهرهم ، ولكنهم حين وصلوا إلينا أو وصل إليهم أحد منا خطبوا بالأمر المقتضى للنطق بالشهادتين ، والإقرار بهما ، فقالوا لا نعلم مقتضى هذا اللفظ ، ولا نعلم معنى المأمور به من النطق ، فأمروا أن يظهروا أرضا ويفهموا بلامهلة فسكنوا إلى ما قيل لهم ، ونطقوا بالشهادتين ظاهرا ، وهم على الجهل بما يعتدون فيها ، فاخترم أحدهم من حينه ، من قبل أن يأتي منه استفهام أو تصور يمكن أن يكون له معه معتقد ، فيرجى أن لا تضيق عنه سعة رحمة الله عز وجل ، والحكم

عليه بالنار والخلود فيها مع الكفار . تحكم على غيب الله سبحانه ، وربما كان من هذا الصنف في الحكم عند الله عز وجل ، قوم رزقوا بعد الفهم وغيب الذهن وفرط البلادة أن يدعوا الى النطق ، فيجيبوا مساعدة ومحاذاة ، ثم يدعوا الى تفهم المعنى بكل وجه ، فلا يتأني منهم قبول لما يمرض عليهم تفهمه ، كأننا تخاطب بهيمة ، ومثل هذا أيضا في الوجود كثير ، ولا أحكم على أحد مثله بخلود في النار ، ولا بعد أن هذا الصنف بأسره ، أعنى المخترم قبل تحصيله المقدم مع هذا البليد البعيد بعض ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة : الذين أخرجهم الله عز وجل من النار بشفاعته ، حين يقول تعالى : فرغت شفاعة الملائكة والنبيين ، وبقيت شفاعتي وهو أرحم الراحمين ، فيخرج من النار أقواما لم يعملوا حسنة قط ، ويدخلون الجنة ، ويكون في أعنائهم سمات ويسمون عتقاء الله عز وجل ، والحديث يطول وهو صحيح ، وإنما اختصرت منه قدر الحاجة على المعنى

وحكم الصنف الأول ، والثاني ، والثالث ، أجمعين أن لا يجب لهم حرمة ، ولا يكون لهم عصمة ، ولا ينسبون إلى إيمان ولا إسلام ، بل هم أجمعون من زمرة الكافرين وجملة الهالكين ، فإن عثر عليهم في الدنيا قتلوا فيها بسيوف الموحدين ، وإن لم يثر عليهم فهم صائرون إلى جهنم خالدون : ( تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْحِوَّةِ )<sup>(١)</sup>

## فصل

ولما كان اللفظ المنبئ عن التوحيد إذا انفرد عن المقدم ، وتجرد عنه ، لم يقع به في حكم الشرع منفعة ، ولالصاحبه بسببه نجاة ، لإامدة حياته عن السيف أن يراق دمه ، والبدان تسلط على ماله إذا لم يعلم خفي حاله ، حسن فيه أن يشبه بقشر الجوز الأعلى ، فهو لا ينجس ولا يرفع في البيوت ، ولا يحضر في المجالس ، أي مجالس الطعام ، ولا تشتهي النفوس ، لإامادام منظويا على مطعمه ، صونا على لبه ، فإذا أزيل عنه

بكسر أو علم منه أنه منظوم على فراغ ، أو سوس ، أو طعمه فاسد ، لم يصلح لشيء ، ولم يبق فيه غرض لأحد ، وهذا لاختفاء في صحته ، والغرض بالتمثيل تقريب ما غمض إلى نفس الطالب ، وتسهيل ما اعتاص على المتعلم والسامع فهمه ، وليس من شرط المثال أن يطابق الممثل به من كل وجه ، فكان يكون هو ، ولكن من شرطه أن يكون مطابقاً للواحد المراد منه

## فصل

فإن قلت : فما الذي صدّه هؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل النطق عن النظر ، والبحث ، حتى تعلموا ، أو عن الاعتقاد حتى تخلصوا ، من عذاب الله ، وهم في الظاهر قادرون على ذلك ، وما المانع الخفي الذي منهم وأبعدم عنه ، وهم يعلمون أن ما عليهم كبير مؤنة ، ولا عظيم نفقة ؟

فاعلم أن هذا السؤال يفتح باباً عظيماً ، ويهز قاعدة كبيرة ، يخاف من التوغل فيها أن يخرج من المقصد ، ولكن لابد إذا وقع في الأسماع ، ووعته قلوب الطالبين ، واشتاتت إلى سماع الجواب عنه ، أن نورد في ذلك قدر ما يقع به الكفاية ، وتقع به النفوس بحول الله وقوته ، نعم ماسبق في العلم القديم لا تجرى بخلافه المقادير ، فهم من ذلك بإرادة الله عز وجل ، جاء اختصاص قلوبهم بالأخلاق الكلائية ، والشيم الذنائية ، والطباع السبعية ، وغلبتها عليهم والملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ، وكذلك قال عليه السلام ، والقلوب بيوت تولى الله بناءها بيده ، وأعدّها لأن تكون خزائن علمه ، ومشارك مكنوناته ، ومنهبط ملائكته ، ومناشى أنواره ، ومهابت نفحاته ، ومجال مكاشفاته ، ومجاري رحمته ، وهياًها لتحصيل المعرفة به ، فتي كان فيها شيء من تلك الأخلاق المذمومة لم يدخلها الملائكة ، ولم ينزل عليها شيء من الخير من قبله ، إذ هي الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه ، وهم الوفود منه بالخيرات والموصولون إليه وعنه ، بالباقيات الصالحات ، ولولا تلك الأخلاق المذمومة ، التي حلت فيهم وهي التي ذم الكلب لأجلها لما احترمت الملائكة بإذن الله عن حلولها فيها

وهي لا تخلو من خير تنزل به ، ويكون معها ، حينما حلت حل الخير في ذلك القلب بحلولها ، وإنما هي لها حينما وجدت قلبا خاليا ، ولو حينما من الدهر وزمنا نزلت عليه ، ودخلته ، وثبتت ما عندها من الخير عنده ، فإن لم يظهر على الملائكة ما رجعها عنه من تلك الأخلاق المذمومة ، بواسطة الشياطين الذين هم في مقابلة الملائكة ، ثبتت عنده ، وسكنت فيه ، ولم تبرح عنه ، وعمرته بقدر سعة البيت وانسراحه من الخير ، فإن كان البيت كثير الاتساع أكثرت فيه من متاعها ، واستعانت بغيرها ، حتى يمتلئ البيت من متاعها وجهازها ، وهو الإيمان بالله والصلاح ، وضروب المعارف النافعة عند الله عز وجل ، فإذا طرق ذلك البيت طارق شيطان ، ليسرق من ذلك الخير الذي هو متاع الملك ، ويثبت فيه خلقا مذموما لا يوجد إلا في الكلب ، وهو متاع الشيطان ، قاتله الله وطرده عن ذلك المحل ، فإن جاء للشيطان مدد من الهوى ، من قبل النفس ولم يجد الملك نصره ، وهو عزم اليقين من قبل الروح ، انهزم الملك وأخلى البيت ، ونهب المتاع ، وخرب البيت بعد صمارة ، وأظلم نوره ، وضاق بعد انسراحه ، وهكذا حال من آمن وكفر وأطاع وعصى ، وضل واهتدى

فإن قلت : فيزلي أصناف هذه الأخلاق المذمومة ، التي صدت هؤلاء الأصناف المذكورين عن اعتقاد الإيمان ، ونفرت الملائكة عن النزول إلى قلوبهم ، بكشف معاني التوحيد ، ومنعهم من الحلول فيها ، حتى لم ينالوا شيئا من الخيرات الكائن معها فاعلم أن الأخلاق التي لا يجتمع معها الملائكة في قلب واحد كثيرة ، والتي في قلوب هؤلاء منها معظمها ، وهي الطمع في غير خطير ، والحرص على فان حقيق

أما الصنف الأول : فإنهم رجعوا وخافوا أن تبدو لهم صحة ما يشغلهم عن لذاتهم وينقص عليهم ما رغبوا فيه من راحتهم ، وتكدر لديهم منال شهواتهم ، فأبقوا أمرهم على ما هم عليه

وأما الصنف الثاني والثالث : فصدتهم أيضا خوف وجزع ، وحرص على ما ألفوه من تبجيل أحدهم أن يزول ، ومؤانسة أشياعهم أن تتغير وتذهب ،

ومواساة لإيلافهم أن تنقطع ، واستثقلا له يشاهدونه من أهل الإيمان أن يلزموه وفرارا من شرائطه ، وما يصحبه من الأعمال ، والوظائف ، إذ يمتثلوه ، والكلب ما ذم لصورته ، وإنما ذم بهذه الأخلاق التي هي الطمع في المناسبات ، والجزم من الصبر على ما يعمده من الفضائل ، حتى احترمت الملائكة أن تدخل بيتا فيه كلاب فإن قلت : فكيف آمن من كفر ، وأطاع من عصي ، واعتدى من ذل ، إذا كانت الشياطين لا تفارق قلب الكافر والعاصي والفساد ، بما تثبتون من الأخلاق المذمومة التي هي كلاب نابحة ، وذئاب عادية ، وسباع ذارية ، وأصناف الخير إنما ترد من الله عز وجل بواسطة الملائكة ، وهي لا تدخل موصفا يحمل فيه شيء مما ذكرنا ، وإذا لم تدخل لم يصل إلى الخير الذي يكون معها ولم تصل إليه فعلى هذا يجب أن يبقى كل كافر على حاله ، ومن لم يخلق مؤمنا معصوما فلا سبيل له إلى الإيمان على هذا المفهوم .

فاعلم أن هذا يستدعي أصنافا من علم القلوب ، ولا سبيل إلى ذلك في مثل هذا المقام المعلوم ، والقول والمعنى في جواب ما سألت عنه ، أن للشيطان غفلات وللأخلاق المذمومة عذمت ، كما أن الملائكة لها عن القلوب غيبات ، وتواتر الخير عليها فترات ، فإذا وجد الملك كما أعلمتك قلبا خاليا ، ولوزمنا تما فـر ودخل فيه ، وأراه ما عنده من الخير ، فإن صادف منه قبولا ، ولما عرض عليه من الخير نشوتا وتروفا ، أورد عليه ما يملأ ويستغرق لبه ، وإن صادف منه صحوا ، وسمع منه بجنود الشياطين استغاثة وبالأخلاق الكلائية استعانة ، رحل عنه وتركه ، ولهذا قيل ما خلا لب عن لمة ملك أو ترغمة شيطان فإن قلت : فأني يبت فهم عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخطاب ، وأي كلب أذهل بيت القلب ، كلب الخلق أو بيت اللبن ، وكتب الحيوان

فاعلم أن الحديث خارج على سبب . ومعناه وجملته أن المقصود بالأخبار هو بيت اللبن ، وكتب الحيوان معلوم ، ولا بيتك في ذلك ، ولكن يستقرأ منه ما قلناه ويستنبط من مفهومه ما نبهناك عليه ، ويتخطى منه إلى ما أشرنا لك نحوه ، ولا نكر في ذلك ، إذا دل عليه العلم ، وجلة الاستنباط ، ولم تمنح القلوب المستضاءة

ولم تصادم به شيئا من أركان الشريعة ، فلا تكن جاحدا ، ولا مجزع من تشنيع جاهل ، ولا من نفور . مقاد ، فكثيرا ماورد شرع مقرون بسبب فرأى أهل الاعتبار وجه تعديه عن سببه إلى مافى معناه ، ومشابه له من الجهة التى تصلح أن يعديها إليه ، ولولا ذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم « رَبِّ مُبْلَغٌ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ وَحَامِلٍ فَقِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ »

## سؤال

فإن قلت : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تَدْخُلِ الْمَلَأَيْكَةُ بُيُوتًا فِيهِ صُورَةٌ » وعلم السبب الذى جاء هذا الحديث عليه وفيه ، فهل يعدى عن سببه ويترقى منه إلى مثل ما ترقى من الحديث الآخر ، فهذا كما قيل : الحديث شجون ، وأتبعنا هذا الباب ما يقرب منه ويبعد علينا التخلص عنه ، نعم . يترقى منه إلى قريب من ذلك وشبهه ، ويكون هذا الحديث منبها عليه ، وهو أن الصورة المنحوتة قد اتخذت آلهة ، وعبدت من دون الله عز وجل . وقد نبه الله عز وجل قلوب المؤمنين على عيب فعل من رضى بذلك ، ونقص إدراك من دان به حين قال خبرا عن إبراهيم عليه السلام حيث قال ( أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ <sup>(١)</sup> ) فكان امتناع الملائكة من دخول بيت فيه صورة لأجل أن فيه ماعبد من دون الله سبحانه أو ماحكى به ما هو على مثاله ، ويترقى من ذلك المعنى إلى أن القلب الذى هو بيت بناء الله ليكون مهيأ للملائكة ، ومحلا للذكر ، ومعرفة عبادته وحده دون غيره ، فإذا حل فيه معبود غير الله سبحانه وهو الهوى لم تقربه الملائكة أيضا

فإن قيل : فظاهر الحديث يقتضى منافرة الملائكة لكل صورة صموما ، وما ذكرته تعليلا ينبني أن لا يقتضى إلا منافرة ماعبد ، أو ما نحت على مثاله

قلنا : تشابهت الصور المنحوتة كلها في المعنى الذى قصد بها التصوير لأجله ، وهو مضارمة ذى الأرواح ، ومانحت للعبادة إنما قصد به تشبيه ذى روح ، فلما كان هذا المعنى الجامع لها واجب تحريم كل صورة منافرة للملائكة  
فإن قيل : فما وجه الترخيص فيما رقم في ثوب ، فذلك لأنها ليست مقصودة في نفسها وإنما المقصود الثوب الذى رقت فيه  
فإن قيل : فما بال الثياب رخص في محاکاتها بالتصوير ، وذات أنواط في العرب مشهورة معلومة

فاعلم أن ذات أنواط إنما كانت شجرة في أيام العرب الجاهلية تعلق عليها يوما في السنة فاخر ثيابها ، وحلي نسائها ، لأجل اجتماعها عندها وراحتها في ذلك اليوم ، ولم يكونوا يقصدونها بالعبادة لما كانت بغير صفة التماثيل المنحوتة والأصنام ، ولو كان ذلك ماسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم ذات أنواط ، حتى أنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم ، ولو عبدت فقد عبد كثير من خلق الله تعالى ، كالملائكة وأشمس والقمر وبعض النجوم والمسيح عليه السلام وعلي رضي الله عنه ؛ ولم يعبدوا ما منحت على شكل النبات ، فلم تعبد من هذه إلا ذات روح ، فما أبعد عن دركها من حرمه الله تعالى إياها ، فله الحمد وهو أهله .

## بيان

أصناف أهل الاعتقاد المجرد

وأما أهل الاعتقاد المجرد عن تحصيله بالعلم ، وتوثيقه بالأدلة ، وشده بالبراهين فقد انقسموا في الوجود إلى ثلاثة أصناف

أحدهم : صنف اعتقدوا مضمون ما أقروا به ، وحشوا به قلوبهم من غير تردد ولا تكذيب ، أسروه في أنفسهم ولكنهم غير عارفين بالاستدلال على ما اعتقدوا ، وذلك لفرط بعدهم وغلظ طبائعهم ، واعتياص طرق ذلك عليهم ، ويقع عليهم اسم الموحدين

ونحققنا وجود أمثالهم كثيرا على عهد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، والسلف الصالحين رضي الله عنهم ، ثم لم يبلغنا أنه اعترض أحد إسلامهم ، ولا أوجب عليهم الخروج منه ، والمعروف عنه ، ولا كلفوا مع قصور فهمهم وبعدهم عن فهم ذلك بعلم الدلالة ، وقراءة البراهين وترتيب الحجاج ، بل تركوا على ما هم عليه ، وهؤلاء عندى معذرون يبعدهم ، ومقبولون بما توافوا عليه من إفرارهم وعقدتهم ، والله سبحانه قد عذرهم مع غيرهم بقوله سبحانه ( لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا <sup>(١)</sup> ) ولا يخرجون عن مقتضى هذه الآيات بحال ، وسنبدى لك طريقا من الاعتبار تعرف به صحة إسلامهم ، وسلامة توحيدهم ، إن شاء الله عز وجل

والصنف الثانى : اعتقدوا الحق مع ما ظهر منهم من النطق ، واعتقدت مع ذلك أنواعا من الخبايل ، قام فى مخيلتها أنها أدلة ، وطأتها براهين وليست كذلك ، وقد وقع فى هذا كثير ممن يشار إليه ، فضلا عن دونهم ، فإن وقع إلى هذا الصنف من يزعم عليهم تلك الخبايل بالقدح ، ويطلبها عليهم بالمعارضة أو الاعتراض لم يلتفتوا إليه ، ولا أصغوا لما يأتى به ، ويرفعوا إلى أن يجابوه لما يحملهم عليه من سوء الفهم ، أو رداءة الاعتقاد ، وعندهم أن جميع تلك الخبايل فى باب الاستدلال أرسخ من شوامخ الجبال ، فهم من يمتدق دليله مذهب شيخه الرفيع القدر ، المطلع على العلوم ، ومنهم من يكون دليله خبراله ، ومنهم من يكون دليله بعض محتلمات آية أو حديث صحيح ، ولعمري أنهم ينبغي إذا صادفوا السنة باعتقادهم ، ولم يقعوا فى شيء من الضلال ، أن يتركوا على ما هم عليه ، ولا يحركوا بأمر آخر ، بل يصدقوا بذلك ويسلم لهم ، لئلا يكون إذا تتبع الحال معهم ربما لقنوا شبهة ، أو ترسخ فى نفوسهم بدعة يعسر انحلالها ، أو يقعوا فى تكفير مسلم وتضليله ، بل هناك أسباب كثيرة واعلم أن اعتقاد الخلائق وعلمها من أغذية النفوس ، فمن رغب فى أكلتها لم يقنع بدونها ، وإذا حصل له ذلك قوي به ، ومن قنع بأيسرها ولم تطمع همته إلى ما هو أعلى من ذلك ضعف ، ولكنه يعيش عيش الطفيف ، وإنما يهلك من لا بلغة له ولا يجدها ، أو يجدها ولكنها تكون مشابة ممن جاء بمضرة بدعة ، وسموم



كفر ، فلا تذهل عما يشار لك إليه وإنما المرغوب تنبيهك والله المستعان ، وقاما بين الصنف الثاني والأول من التفاوت من حيث إن أولئك مقلدون فيما يقتدون به دليلا ، غير أنهم أوثق رباطا من الأولين ، لأن أولئك إن وقع إليهم من شككهم ربما شكوا ، وانحل رباط عقدهم ، وهؤلاء في الأغلب لا سبيل إلى انحلال عقودهم ، إذ لا يرون أنفسهم أنهم مقلدون ، وإنما يظنون أنهم مستدلون عارفون ، فلهذا كانوا أحسن حالا

والصنف الثالث : أقروا واعتقدوا كما فعل الدين من قبلهم ، وندموا النظر أيضا ، ولكنهم لعدم سلوكهم سبيله مع القدرة عليه ، ومعهم من الذكاء والفطنة والبيقظ ، مالوا نظروا لعلومهم ، ولو استدلووا بالتحقق ، ولو طلبوا لأدركوا سبيل المعارف ووصلوا ، ولكنهم آثروا الراحة ، ومالوا إلى الدعة ، واستبعدوا طريق العلم ، واستنقلوا الأعمال الموصلة إليه وقنعوا بالقعود في حضيض الجهل ، فهؤلاء فيهم أشكال عند كثير من الناس في البدئية ، ويتردد حالهم في النظر ، وهل يسمون عصاة أو غير ذلك ، يحتاج إلى تمهيد آخر ليس هذا مقامه ، والالتفات إلى هذا الصنف أوجب خلاف المتكلمين في العوام على الإطلاق ، من غير تفريق بين بليد ومتيقظ وفطن ، فمنهم من لم ير أنهم مؤمنون ، ولكن لم يحفظ عنهم أنهم أطلقوا اسم الكفر عليهم

ولعلك تقول : إن مذهبهم المشهور ، أن المحل لا يخلو عن الصفات إلا إلى ضدها ، فمن لم يحكم له بالإيمان ، حكم عليه بالكفر ، كما أن من لم يحكم له بالحركة ، حكم عليه بالسكون ؛ وكذلك الحياة والموت والعلم والجهل وسائر ماله من الصفات ،

فلنا : فلئن صح ذلك في الصفات التي هي أعراض ، فقد لا يصح في الأوصاف التي هي أحكام الإيمان ، والكفر والهداية والضلال والبدعة والسنة ربما كانت ليست من قبيل الأعراض ، وإنما ذكرت لك هذا في معرض الشك ، في شعوب ما نورد على ذلك ، ومنهم من أوجب لهم الإيمان ، ولكن أوجب لهم المعرفة وقدرها لهم ، وعجزهم عن العبادة ، ووجوب العبادة في الشرع جار على هذا النحو ، وهؤلاء لم يخالفوا المذكورين قبلهم ، لأن أولئك سلبوا الإيمان عمن لم يصدر اعتقاده

من دليل ، وهؤلاء أوجبوا الإيمان لمن أضافوا إليه المعرفة المشروطة في صحة الإيمان وإنما فروا عن الشناعة الظاهرة ، فشدوا عن الجمهور بهذا الاحتمال ، وزادوا على أنفسهم أنهم ألتوا بقول من جعل المعارف كلها ضرورية ، ولم يشعروا بذلك حين قالوا إنما عجزت العامة عن سرد الدليل ، وتعظم العبارة عنه ، وأنه لا يجب عليهم لأنهم إذا نبهوا وعرض عليهم ما قرب من الألفاظ ، واعتادوا من المخاطبات دلائل الحدوث ، ووجوه الافتقار إلى المحدث بعد ، لاعتقدوا وعددوا من هذه المعارف كثيرا ، ووجدوا أنفسهم عارفين بذلك

واعلم أن من يقول إن المعارف كلها ضرورية ، هكذا يقول : إنما افتقر الناس إلى النسبية ، ولم يتمرنوا على العبارة على مواضع العلوم ، وإلا فهم إذا نبهوا عليها وتلطف بهم في تفهيمها بالزوال إلى مألوفه من العبارات ، وجدوا أنفسهم غير منكرة لما نبهوا عليه ، وسارعوا إلى الفئحة ، ومثال هذا كمن نسي شيئا كان معه أو إنسانا نصحه أو رآه فنسيه . وغفل عنه لأجل غيبته ثم رآه بعد ذلك فذكر ، فإنه يقال بدا لأنه كان عارفا بما غاب عنه ، لكنه ناس له أو غافل عنه ، ولولا عرفانه به ما وجد عدم الإنكار وسرعة الألفة عنه . وطائفة من المتكلمين أيضا أوجب لهم الإيمان مع عدم المعرفة المشروطة عند أولئك ، وأي الآراء أحق بالحق وأولى بالصواب ، ليس من غرضنا في هذا الموضع ، وإنما غرضنا تبعيد ما أشاعه في الأحياء أهل النول والإغلال ، فلا يفتح مثل هذا الباب وقد أبدينا من وجه ذلك في مراقب الزلف ، ما يغني فيها بإذن الله عز وجل

## فصل

في بيان أصناف أهل الاعتقاد

تفصيل آخر من جهة أخرى ، هو من تمة ماجري ، فلتعلم أن ما منهم صنف إلا وله على التقريب ثلاثة أحوال ، لا يستبد أحدهم من أحدها بحكم الاعتقاد الضروري ،

قاصي الحالات لهم أن يعتقد أحدم جميع أركان الإيمان على ما يكمل عليه في الغالب ، لكنه على طريق التفاوت كما سبق

الحالة الثانية : أن لا يعتقدوا إلا بعض الأركان بما فيه خلاف ، إذا نقر ولم ننصب إليه في اعتقاده سواء هل يكون مؤمنا أو مسلما أن يعتقد وجود الواحد فقط ، أو يعتقد أنه موجود حي لا غير ، وأمثال هذه التقديرات ، ويخلو عن اعتقاد باقي الصفات ، خلوا كاملا لا يخطر بباله ، ولا يعتقد فيها حقا ولا باطلا ولا صوابا ولا خطأ ، ولكن التقدير الذي يعتقد من الأركان الثلاثة موافق للحق غير منسوب لغيره

الحالة الثالثة : أن يعتقد الوجود كما قلنا ، والوحدانية والحياة ، ويكون فيما يعتقد في باقي الصفات ، على ما لا يوافق الحق ما هو عليه مما هو بدعة وضلالة وليس بكفر صريح ، فالذي يدل عليه العلم ، ويستنبط من ظواهر الشرع ، أن أبواب الحالة الأولى والله أعلم على سبيل نجاة ، ومسلكت خلاص ، ووصف إيمان ، أو إسلام ، وسواء في ذلك الصنف الأول والثاني من أهل الاعتقاد ، ويبقى الصنف الثالث على محتملات النظر كما نبهناك عليه

وأما أهل الحالة الثانية : وهي الاختصار على الوجود المفرد ، أو الوجود ووصف آخر معه ، مع الخلو عن اعتقاد سائر الصفات التي للكمال والجلال وأركانها ، فالمتقدمون من السلف لم تشهر عنهم في صورة المسألة ما يخرج صاحب هذا العقد عن حكم الإيمان والإسلام ، والمتأخرون مختلفون ، فكثير خاف أن يخرج من اعتقاد وجود الله عز وجل ، وأظهر الإقرار بنبية صلى الله عليه وسلم من الإسلام ولا يبعد أن يكون كثير ممن أسلم من الأجلاف والرعيان ، وضعفاء النساء والأتباع على هذا بلا مزيد عليه ، لو مثلوا واستكشفوا عن الله عز وجل ، هل له إرادة أو بقاء أو كلام أو ما شاكل ذلك ، وهل له صفات معنوية ليست هي هو ، ولا هي غيره .

ربما وجدوا يجهلون هذا ولا يقولون وجه ما يخاطبون به ، وكيف يخرج من اعتقاد وجود الله ووحدانيته مع الإقرار بالنبوة ، من حكم الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم

قد رفع القتال والقتل ، وأوجب حكم الإيمان أو الإسلام ، لمن قال ، لا إله إلا الله واعتقد عليها ، وهذه الكلمات لا تقتضى أكثر من اعتقاد الوجود مع الوحدة في الظاهر ، وعلى البديهة من غير نظر ، ثم سمعنا ممن قالها في صدر الإسلام أنه لم يعلم بعدها إلا فرائض الوضوء والصلاة وهيات الأعمال البدنية ، والكف عن أذى المسلم ، ولم يبلغنا أنهم درسوا علم الصفات وأحوالها ، ولا هل الله تعالى عالم بعلم ، أو عالم بنفسه ، وهو باق ببقاء ، أو باق بنفسه ، وأشبه هذه المغارف ، ولا يدفع ظهور هذا إلا معاند ، أو جاهل سيرة السلف وما جرى بينهم ، ويدل على قوة هذا الجانب في الشرع ، أن من استكشف منه على هذه الحالة وتحققت منه ، وأبى أن يذعن لتعلم ما زاد على ما عنده ، لم يفت أحد بقتله ولا استرقاقه ، والحكم عليه بالخلود في النار عسر جدا ، أو خطر عظيم ، مع ثبوت الشرع بأن من قال لا إله إلا الله ، دخل الجنة ، ولملك تقول : قد قال في مواطن أخرى إلا بحقها ، ثم تقول اعتقاد باقي الصفات التي بها يكون اعتقاد جلال الله جل وعز وكأله من حقها ، نعم هي من حقها عند من بلغه أمرها ، وسمع بها أن يعتقدوها ، وأما من خلا من اعتقادها ولم يقوله أن يلقاها ولم يسمع بها فقيه مرمى هذا النظر ، وعليه يقع مثل هذا الاحتفاظ ، وفي مثله بخاف أن يطلق عليه اسم الكفر ، هذا وأنت تسمع عن الله عز وجل يقول في الآخرة أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وذكر من المثلث إلى النذرة والخردلة من الإيمان ، إلى أن أخرج منها من لم يعمل حسنة قط ، فإيادريك أن يكونوا هؤلاء وأمثالهم المرادين ، لأن التقدير وقع في الإيمان لا في الأعمال

فإن قلت : فإن من الناس وأئمة العلماء من لم يوجب الإيمان لمن اعتقد جميع الأركان إذا لم يصحبها معرفة ، ولم يقصدها دليل ، فكيف بمن فاته اعتقاد بعضها أو كلها قلنا : قد أريناك وجه الاعتراض على هذا المذهب ، ونبيناك على بعد أهله عن وجه الحق فيه ، وأنهم أرباب تعسف ، ولو استقصى مع كثير منهم القول في ذلك ، لبدا له أنه تسبب إلى ما يظهر له من تصويره عن معرفة ، شرطها في إيمان غيره ، ولآثر من حسه الركون إلى ما رأيناه أولى من رأيه وأحق بالصواب ، ولعدل عن مذهبه ثم بعد ذلك تراهم

حين أخبروا عن سلب الإيمان عنهم، لم يبقوا اسم الكفر عليهم، ثم يعرضوا على الاستجابة إن كانت من مذهبه، ثم يحكم فيه بالقتل والاسترقاق، فإذا تأملت هذا لم يخف عليك عيب ماقلوه، ونقص ماقلوا إليه، فلنرجع إلى ما نحن بسبيله ونستمين بالله عز وجل أما أرباب الحالة الثالثة: وهي اعتقاد البدعة في الصفات أو بعضها، فإن حكمنا بصحة إيمان أهل الحالة المذكورة قبل هذا، وإسلامهم، حققنا أمر هؤلاء فيما اعتقدوه إذ لم يقعوا فيه بوجه قصد يقطعهم عن إيصال العذر، لأن هؤلاء قد حصل لهم في العقد ما هو شرط الخلاص والنجاة من الهلاك الدائم، وأصيبوا فيما وراء ذلك، فإن أمكن ردهم في الدنيا، وزجرهم عنه، إن أظهروا المنع عن الإفلاع، والرجوع بالعقوبة المؤلمة، دون قتل كان ذلك، وإن فاتوا بالموت لم نقصرهم في اعتقادنا عن أرباب الحالة الثانية المذكورة قبلهم، والله أعلم بالناجى والهالك من خلقه، والمطيع والعاصي من عباده هكذا ينبغي أن يكون مذهب من نظر في خالق الله تعالى بعين الرأفة والرحمة، ولم يدخل بين الله عز وجل وبين عباده، فيما غاب عنه علمه وعدم فيه سبيل اليقين، وفهم معنى قوله عز وجل (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا<sup>(١)</sup>) .

فإن قلت: وأين أنت من تكفير كثير من الناس لجميع أهل البدع عامة وخاصة، وقول النبي صلى الله عليه وسلم في القسدية « إِنَّهُمْ مَجْهُوسٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ » وقوله صلى الله عليه وسلم « سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي إِلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » وقال عن قوم يخرجون على حين فرقة من الناس « يَقُولُونَ بِقَوْلِ خَيْرِ النَّبِيِّينَ أَوْ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ النَّبِيِّينَ يَمُرُّونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمُرُّ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ » والأحاديث الواردة فيمن اعتقد شيئاً من الأهواء والبدع كثيرة غير هذه، مما توجب في الظاهر تكفيرهم بالإطلاق

فاعلم أنه وإن كان كفرهم كثير من العلماء، فقد أبقى عليهم دينهم، وتردد فيهم كثير أو أكثر منهم، وكل فريق منهم في مقابلة من خالفه، فليقع التحاكم عند العالم الأكبر

الوحيد بالمعصية ، سيد البشر إمام المتقين صلى الله عليه وسلم . فهو عليه الصلاة والسلام حين قال نبؤس هذه الأمة أضافهم إلى الأمة ، وما حكم بأن لم يقل مجوس على الإطلاق ، وحين أخبر عن الفرق أنهم في النار ، فما أخبر أنهم خالدون فيها ، وحين قال يرقون من الدين كما يرق السهم من الرمية ، فقد قال متصلا بهذا القول ، وتمازى في الفرق ، وما موضع هذا التمازى من المثل الذي ضربه فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإلى أراك تلاحظ جهة وترك أخرى ، وتذكر شيئا وتذلل عن غيره ، عليك بالعدل تكن من أهله ، واستعمل التفتن تشاهد المعجائب المعجبة ، وتفهم قول الله ( وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا <sup>(١)</sup> )

## فصل

ولما كان الاعتقاد المجرد عن العلم بصحته ضعيفا ، وتفرده عن المعرفة قريبا ممن رآه ألقى عليه شبه القشر الثاني من الجوز ، لأن ذلك القشر يؤكل مع ما هو عليه صونا ، وإذا انفرد أمكن أن يكون طعاما للمحتاج وبلاغا للجائع ، وبالجمله فهو لمن لا شيء معه خير من فقده ، وكذلك اعتقاد التوحيد ، وإن كان مجردا عن سبيل المعرفة وغير منوط بشيء من الأدلة ضعيفا فهو في الدنيا والآخرة ، وعند لقاء الله عز وجل خير من التعطيل والكفر . ومتى ركب أحد هذا فقد وقع في أعظم الحرج والمنكر

## بيان

أرباب المرتبة الثالثة وهو توحيد المقربين

والكلام في هذا النوع من التوحيد له ثلاثة حدود أحدها : أن يتكلم في الأسباب التي توصل إليه ، والمسالك التي يعبر عليها نحوه ، والأحوال التي يتخذها بمصوله كما ندره العز بن العلي ، واختار ذلك ورضاه وسماه الصراط المستقيم .

والحد الثاني : أن يكون الكلام في عين ذلك التوحيد ونفسه وحقيقته ، وكيف يسرور  
للسالك إليه والطالب له قبل وصوله إليه ، وانكشافه له بالمشاهدة  
والحد الثالث : في ثمرات ذلك التوحيد وما يلقى أهله به ، ويظلمون عليه بسببه ،  
وبكرمون به من أجله ، ويتحققون من فوائد المزيد من جبهته

أما الحد الأول : فالكلام عليه ، والبيان له ، والكشف لدقائقه ، وتذلل للصغير والكبير  
مأمور به ، مشدد في أمره ، متوعد بالنار على كتمه ، فيه بعث الأنبياء ، ومن أجله أرسل  
الرسول ، وبيانه للناس كافة نزلت من عند الله عز وجل على أمراء وحياه المسحف والكنب  
وليقيم التفقه في القلوب بتحقيقه وتصديقه ، آتت الرسل بالمعجزات ، والأولياء والأنبياء  
بالكرامات ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وعليه أخذ الله الميثاق على  
الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، وفيه أنزل الله ( يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ  
مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ <sup>(١)</sup> ) وإياه عنى رسول  
الله صلى الله عليه وسلم بقوله « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أُجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِإِجَامِ  
مِنْ نَارٍ » وجميع ذلك محصور في اثنتين العلم بالعبرة ، والعمل بالسنة ؛ وهما مبنيان على  
آيتين الحرص الشديد ، والنية الخالصة ، والسر في تحصيلهما اثنان ، نظافة الباطن ،  
وسلامة الجوارح ، ويسمى جميع ذلك بعلم المعاملة

وأما الحد الثاني : فالكلام فيه أكثر ما يكون على طريقة ضرب الأمثال ، تشبيها  
بالرمز تارة ، وبالتصريح أخرى ، ولكن على الجملة بما يناسب علوم الظواهر ، ولكن  
يشرف بذلك اللبيب الخاذق على بعض المراد ويفهم منه كثيرا من المقصود ، وينكشف  
له بجل ما يشار إليه إذا كان سالما من شرك التعصب ، بعيدا من هوة الهوى ،  
نظيفا من دنس التقليد

وأما الحد الثالث : فلا سبيل إلى ذكر شيء منه ، إلا مع أهله بعد علمهم به على  
سبيل التذكار ، لا على التعليم إنما كانت أحكام هذه الحدود الثلاثة على ما وصفناه ،

لأن الحد الأول فيه محض النصح للخلق ، واستنقاذهم من غمرة الجهل ، والتكيب بهم من مهاوى العطب ، وقودهم إلى معرفة هذا المقام ، وما وراءه مما هو أعلى منه مما لهم فيه الملك الأكبر ، وفوز الأبد ، وقد بين لهم غاية البيان ، وأقيم عليه واضح البرهان ، وهو يومئذ الطريق ، وأول سبيل السعادة ، فمن عجز عن ذلك كان عن غيره أعجز ، ومن سلكه على استقامة فالغالب عليه الوصول ، إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ومن وصل شاهد ، ومن شاهد علم ، وذلك غاية المطلوب ، ونهاية المرغوب والمحبوب ، ومن قعد حرم الوصول وما بعده ، ( فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا <sup>(١)</sup> ) ومن غاب لم تنفعه الأخبار : ولم يفده كثير من الأحاديث ، وأيضا فإن الأخبار بما وراء الحد الأول والثاني على وجهه لو كشف للخلق كافة ، وأمكن بما أعد من الكلام وجرى بين الناس من صرف التخاطب ، كان فيه زيادة محنة ، وسبب فيه إهلاك أكثرهم ممن ليس من أهل ذلك المقام ، وذلك لغرابة العلم ، وكثرة غموضه ودقة معناه ، وعلوه في منازل الرفعة وبعده بالجملة والتفصيل ، من جميع ماعهد في عالم الملك والشهادة ، وخروجه عن تلك الحدود المألوفة ومباينته لكل مانثوا عليه ، ولم يشاهدوا غيره من محسوسات ومفقولات وضروريات ونظريات ، فلما كان لا يدرك شيء من ذلك بقياس ، ولا يتصور بواسطة لفظ ولا يحمل عليه مثل ، كما قال عز وجل ( فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ <sup>(٢)</sup> ) وحكي عن ابن عباس رحمه الله أنه قال : ليس عند الناس من علم الآخرة إلا الأسماء ، وأراد من لم ينكشف شيء له من علمها وحقائقها في الدنيا ، وأيضا فلو جاز الإخبار بها لغير أهلها لم يكن لهم سبيل إلى تصورها إلا على خلاف ما هي عليه بمجرد تقليد ، ويتطرق إليه من أهل الغفلة وذوى القصور جهود وتبديد ، فلهذا أمروا بالكم إشفاقا على من حجب من العلم ولهذا قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم « لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ فَيُؤْثِرُوا أَنْ يُكْذِبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم « مَا حَدَّثَ



أَحَدُكُمْ قَوْمًا بِمَحْدِثٍ لَمْ تَصِلْهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ فِتْنَةٌ » وعلى هذا يخرج قول المشايخ: إفشاء سر الربوبية كفر ، رزقنا الله وإياكم قلوبا واعية الخبير ، إنه ولي كل صالح ، وإذا علمت أن الحد الأول قد تقرر علمه في كتب الرواية والدراية ، ومثلت منه الطروس ، وكثرت به في المحافل الدروس ، وهو غير محجوب عن طالب ، ولا ممنوع عن راغب ، قد أمر الجهال به أن يتعلموه ، والعماء أن يبذلوه ويعلموه ، فلا نريد فيه ههنا قولاً ، ولما كان حكم الحد الثالث الكتم تارة ، وتسكيت الكلام عنه مع غير أهله على كل حال ، لم يكن لنا سبيل إلى تعدد إلى محدودات الشرع فلنن العنان إلى الكلام بالذي يليق بهذا الحال والمقام ، فنقول :

أرباب المقام الثالث في التوحيد ، وهم المقربون ، على ثلاثة أصناف ، وعلى الجملة فكلمهم نظروا إلى المخلوقات فأروا علامات الحدوث فيها لأئمة ، وعابنوا حالات الافتقار إلى الله تعالى عليهم واضحة ، وسمعوا جميعها تدل على توحيده وتفريده راشدة ناصحة ، ثم رأوا الله تعالى بإيمان قلوبهم ، وشاهدوه بغيب أرواحهم ، ولاحظوا جلاله وجماله بحفي أسرارهم ، وهم مع ذلك في درجات القرب على قدر حظ كل واحد منهم في اليقين وصفاء القلب ، وهؤلاء الأصناف الثلاثة إنما عرفوا الله سبحانه بمخلوقاته ، وانقسامهم في تلك المعرفة كانقسام حفاظ تلاوة القرآن مثلاً ، فمن حافظ لبعضه ويكون ذلك البعض أكثر ، أو كثيراً منه دون كماله ، ومن حافظ لجميعه لكنه متلثم فيه ، متوقف على الانهماك في قراءته ، ومن حافظ في تلاوته غير متوقف في شيء منه ، وكلهم ينسب إليه ويعبد في الشهد والمغيب من أهله ، وكذلك أهل هذه المرتبة أيضاً منهم متوصل إلى المعرفة من قراءة صفحات أكثر المخلوقات ، أو كثير منها ، وربما كان فيما يقرأ من الصفحات ما ينم عليه ، ومن قارئ لجميعها متفهم لها ، لكن بنوع تعب ، ولزوم فكرة ، ومداومة عبادة ، ومن ماهر في قراءتها مستخرج لرموزها ، ناقد البصيرة في رؤية حقيقتها ، مفتوح السمع ، تناطقه الأشياء في فراغه وشغله ، وبحسب ذلك اختلف أحوالهم ، في الخوف والرجاء والقبض والبسط والفناء والبقاء ولا مزيد على هذا المثال ، فهو أصلح لدوى الأفهام من شمس النهار وقت الزوال ،

وعلمت لم سمي أهل هذه المرتبة مقربين ، فذلك لبعدهم عن ظلمات الجهل وقربهم من أنوار المعرفة والعلم ، ولا أبعد من الجاهل ، ولا أقرب من العارف العالم ، والقرب والبعده ههنا عبارتان عن حالتين على سبيل التجوز في لسان الجمهور ، وعلى الحقيقة عند المستعملين لهما في هذا الفن أحد الحالتين ، عماء البصيرة ، وانطماس القلب ، والخلو عن معرفة الرب سبحانه وتعالى ، ويسمى هذا بعد مأخوذ من البعد عن محل الراحة والمنزل الواجب ، وموضع العمارة والأنس ، والانقطاع في مهامه القفر وأمكنة الخوف ، ومظان الانفراد والوحشة

والحالة الثانية : عبارة عن اتقاد الباطن ، واشتغال القلب ، وانفساح الصدر ، بنور اليقين والمعرفة والعقل ، وعمارة البيت بمشاهدة ماغاب عنه أهل الغفلة واللهو ، ولكنه يدل على أنه لم يصل

لملك تقول أرني بعض آئمة الكلام عن حقوق هذا المقام كأن لم يضربوا فيه بسهم ، ولم يفز قدحهم منه بحظ ولا سهم ، وأراهم عند الجمهور في الظاهر . وعند أنفسهم أنهم أهل الدلالة على الله تعالى ، وقادة الخلق إلى مرشدتهم ، ومجاهدون أرباب النحل المردية . والمثل الضالة المهلكة ، وقد سبق في الإحياء أنهم مع العوام في الاعتقاد سواء ، وإنما فارقوهم بإحسانهم حراسة عقودهم

فاعلم أن ما رأيت في الإحياء صحيح ، ولكن بقي في كشفه أمر لا يخفى على المستبصرين ولا يغيب عن الشاذين ، إذا كانوا منصفين ، وهو أن المتكلمين من حيث صناعة الكلام فقط ، لم يفارقوا عقود العوام ، وإنما فارقوهم بالجدل عن الانحرام ، والجدل علم لفظي ، وأكثره احتيال وهمي ، وهو عمل النفس ، وتخليق الفهم ، وليس بشرة المشاهدة والكشف . ولأجل هذا كان فيه السمين والفت ، وشاع في حال النضال إيراد القطعي وما هو حكمه من غلبة الظن ، وإبداء الصحيح ، وإلزام مذهب الخصم ، والمقام المشار إليه بالله كره وشبهه ، إنما هو علم التوحيد ، وفهم الأحوال ومعرفة باليقين التام ، والعلم المضارع للضرورة ، بأن لا إله إلا الله ، إذ لا فاعل غيره ، ولا حاكم في الدارين سواء ، ومشاهدة القلوب لما يجيب من الغيوب ، ومن أين للنازل طي النازل ، وما لم الكلام مثل هذا المقام

بل هو من خدام الشرع ، وحراس متبعيه من أهل الاختلاس والقطع ، وله مقام على قدره ، ويقطع به ولكن ليس عن مطالع الأنوار ، ومشارك الاستبصار والمدار في أوقات الضرورات والاختيار ، وبين ما يراد لوقت حاجته إن دعت وخصام صاحب بدعة ومناصلة ذي ضلالة بما ينقص على ذوى اليقين العيش ، ويشغل الذهن ، ويكدر النفس ، وما أهله الذين حفظ عنهم ووقع علمه فيما مضى من الزمان إليهم ، لا تقول في أكثرهم إنهم لا يحسنون غيره ، ولا يختصون بالتوحيد بمقام سواه بما هو أعلى منه ، بل الظن بهم أنهم علماء مثل ما ذكرنا ، فهم نصراء لكنهم لم يبدوا من العلم في الظاهر إلا ما كانت الحاجة إليه أمس ، والمصلحة به لتوجه الضرورة أعم وأؤكد ، ولما كان نجم في وقتهم من البدع ، وظهر من الأهواء وشاع من تشببت كلمة أهل الحق ، وتجراً العوام مع كل ناعق ، فرأوا الرد عليهم ، والمنازعة لهم ، والسعي في اجتماع الكلمة على السنة بعد افتراقها وإهلاك ذوى الكيد في احتيالهم ، وإخماد نارهم الذين هم أهل الأهواء والفتن ، وأولى بهم من الكلام بعلوم الإشارات ، وكشف أحوال أرباب المقامات ، ووصف فقه الأرواح والنفوس ، وتفهم كل ناطق وجامد ، فإن هذه كلها وإن كانت أسنى وأعلى فإن ذلك من علم الخواص ، وهم مكفيون المؤنة ، والعامية أحق بالحفظ ، وعقائدهم أولى بالحراسة ، واستنقاذ من يخاف عليه الهلاك أولى من مؤانسة وحيد ، والتصدق على ذى بلغة من العيش ، فكيف إن كان عن غناء ، وأيضاً فإن علم الكلام إنما يراد كما قلنا للجدال ، وهو يقع من العلماء العارفين مع أهل الإلحاد والزبح ، لقصورهم عن ملاحظة الحق موقع السيف للأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، بعد التبليغ مع أهل العناد ، والتمادى على النفي وسبيل الفساد ، فكما لا يقال السيف أبلغ حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، كذلك لا يقال علم الكلام والجدال أبلغ مقام من ظهر منه من العلماء ، وكما لا يقال في الصدر الأول فقهاء الأمصار ، ومن قبلهم حين لم يحفظ عنهم في الغالب إلا علوم آخر ، كالفقه والحديث والتفسير ، لأن الخلق أحوج إلى علم ما حفظ عنهم ، وذلك لغلبة الجهل على أكثرهم ، فلولا أن حفظ الله تعالى تلك العلوم بمن ذكرنا لجهلت العبارات ، وانقطع علم الشرع ، ونحن مع هذه الحالة نعلم أنهم عارفون بالتوحيد على جهة اليقين ، بنير طريق علم الكلام

والجندل ، يتحلون بالمقامات المذكورة ، وإن لم يشتهر عنهم ذلك اشتهار ماأخذه عنهم الخاص والعام ، ومثل ذلك حالة الصحابة رضي الله عنهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، لما خافوا دروس الإسلام ، وأن يضعف ويقل أهله ، ويرجع البلاد والعامه إلى الكفر كما كانوا أول مرة ، فقد مات صاحب المعجزة صلى الله عليه وسلم ، والمبعوث لدعوة الحق عليه السلام ، رأوا أن الجهاد والرباط في ثغر العدو والغزو في سبيل الله ، وضرب وجوه الكفر بالسيف ، وإدخال الناس في دين الله ، أولى بهم من سائر الأعمال ، وأحق من تدريس العلوم كلها ، ظاهرا وباطنا ، وإنما كانت تؤخذ عنهم علوم الشرع على الأقل ، وهم في حال ذلك الشغل والنظر إلى حال العموم أوكد من النظر إلى الخصوص ، لأن الخصوص لهم بأنفسهم عناء ، ولهم بحالهم قيام ، والعموم إن لم يكن مشتغلا بهم ، ذاذا لهم عن هلكاتهم وسائقا بهم إلى مرآشدهم وصلاحهم ، كان الهلاك إليهم أسرع ، ثم لا يكون من بعد ذلك أن فسد حال العموم للخصوص قدر ، ولا يظهر لهم نور ، ولا يقدرّون على شيء كامل من البر ، فلا خاصة إلا بعامة ، ولقد كانت رعاية النبي صلى الله عليه وسلم بحال الجماهير أكثر ، والخوف عليهم من الزيغ والضلال والهلاك أشد ، واللفظ بهم في تخفيف الوظائف والأخذ بالرفق أبلغ ، وكان أهل القوة وذوى البصائر في الحقائق يأخذون أنفسهم بالمشقات ، وكان هو صلى الله عليه وسلم يجب أن يعمل بالعمل من الطاعة فيما يمنعه منه ، أو من المداومة عليه إلا خوف أن يفرض على أمته ، حين علم من أكثرهم الضعف ، ولم يكره لهم وفيه زيادة الأجر ، وكثرة الثواب والقرب من الله تعالى ، ولكن خاف عليهم أن يقوموا في تضييع الفرض ، فيكون عليهم كفل من الوزر ، ألا ترى كيف نهى الخلق عن قيام الليل كله ، وكان عثمان رضي الله عنه يقومه فلم ينهه ، ومنع السيف من كل من أراد أخذه بما شرط عليه فيه ، حتى جاء من علم منه القبرة على الوفاء بما شرط عليه فأعطاه إياه ، وقال لعائشة رضي الله عنها « لَوْ لَا حِدَّتَانُ عَهْدِ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ لَرَدَدْتُ أَلْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ » وقال للنصارى « أَمَا تَرَوْنَ أَنَّ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالْيَعِيرِ فَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى رِحَالِكُمْ » ومع ذلك فالذي حفظ عنه صلى الله عليه وسلم ، وعن الصحابة

من بعده ، وفقهاء الأمصار ، وأعيان المتكلمين من الإشارات لتلك العلوم المذكورة كثير لا يحصى ، وإنما القليل من حملة اليوم عنهم ، وتفقه مثلهم فانصد تجسد ، وتصد لاقتباس الحديث والتواريخ ومصنفات العلوم توقن ( وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ <sup>(١)</sup> )

## بيان

المرتبة الرابعة

وهو توحيد الصديقين : وأما أهل المرتبة الرابعة ، فهم قوم رأوا الله سبحانه وتعالى وحده ، ثم رأوا الأشياء بعد ذلك به فلم يروا في الدارين غيره ، ولا اطلعوا في الوجود على سواء ، فقد كان بيان إشارات الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فيما خصوا من المعرفة في هجيراهم ، فكان هجير أبي بكر الصديق رضي الله عنه لإله إلا الله ؛ وكان هجير عمر رضي الله عنه أكبر ، وكان هجير عثمان رضي الله عنه سبحانه الله ، وكان هجير علي رضي الله عنه الحمد لله ، فاستقرى السابقون من ذلك أن أبا بكر لم يشهد في الدارين غير الله سبحانه وتعالى ، فلذا كان الصديق وسمي به كما علمت ، وكان يقول : لا إله إلا الله ، وكان عمر يرى مادون الله صغيرا مع الله في جنب عظمته ، فيقول : الله أكبر ، وكان عثمان لا يرى التنزيه إلا لله تعالى ، إذ الكل قائم به غير معرى من النقصان والقائم بنيره معلول ، فكان يقول : سبحانه الله ، وعلي لا يرى نعمة في الدفع والرفع والعطاء والمنع ، في المكروه والمحجوب ، إلا من الله سبحانه ، فكان يقول : الحمد لله ، وأهل هذه الرتبة على الجملة في حال خصوصهم فيها صنفان ، يريدون ومرادون ، فالمريدون في الغالب لا بد لهم من أن يحلوا في المرتبة الثالثة ، وهي توحيد المقربين ، ومنها ينتقلون وعليها يعبرون إلى المرتبة الرابعة ، ويتمكنون فيها ، ومن أهل هذا المقام يكون القطب والأوتاد والبلاء ، ومن أهل المرتبة الثالثة ، يكون النقباء والنجباء والشهداء والصالحون والله أعلم

فإن قلت : أليس الوجود مشتركا بين الحادِث والقديم ، والمألوه والإله ،

ثم معلوم أن الإله واحد ، والحوادث كثيرة فكيف يرى صاحب هذه المرتبة الأشياء شيئا واحدا ، أذلك على طريق قلب الأعيان ، فتعود الحوادث قديمة ، ثم تتحد بالواحد فترجع هي هو ، وفي هذا من الاستحالة والمروق عن مصدر العقل ما يغني عن إطالة القول فيه ، وإن كان على طريق التخيل للولي لما لاحقيقة له فكيف يحتاج به ، أو كيف يعدّ حالا لولي أو فضيلة لبشر

الجواب عن ذلك : أن الحوادث لم تنقلب إلى القدم ، ولم تتحد بالفاعل ، ولا اعتري الولي تخيل فتخيل مالا حقيقة له ، وإنما هو ولي مجتبي ، وصديق مرتضى ، خصه الله تعالى بمعرفة على سبيل اليقين ، والكشف التام ، وكشف لقلبه مآلو رآه يبصره عيانا ما ازداد إلا يقينا ، وإن أنكرت أن يكون وهب الله المعرفة به على هذا السبيل أحدا من خلقه ، فما أطمّ مصيبتك وما أعظم العزاء فيك ، حين فقتشت الخلق بمبارك ، وكلّهم بمكيالك وفضلت نفسك على الجميع ، إذ لاسبب لإنكارك إن صح ، إلا أنك تخيلت أنه لم يرزق أحدا ما لم ترزق ، أو يخص من المعرفة ما لم تخص فإذا تقررت هذه القاعدة فصار ما كشف لقلبه لا يخرج منه ، وما اطلع عليه لا يغيب عنه ، وما ذكره من ذلك لا ينساه ولا في حال نومه وشغله ، وهذا موجود فيمن أكثر اهتمامه بشيء ، وثبت في قلبه حاله إنه إذا نام أو اشتغل لم يفقده في شغله ونومه كما لا يفقده في يقظته وفراغه ، ولهذا والله أعلم إذا رأى الولي الممكن في رتبة الصديقين مخلوقا كان حيا أو جمادا صغيرا أو كبيرا ، لم يره من حيث هو هو ، وإنما يراه من حيث أوجده الله تعالى بالقدرة ، وميزه بالإرادة على سابق العلم القديم ، ثم أدام القهر عليه في الوجود ، ثم لما كانت الصفات المشهورة آثارها في المخلوقات ليست لغير الموصوف الذي هو الله عز وجل له ألهمت الولي عن غيره ، وصار لم ير سواه ومعنى ذلك أنه لا يتميز بالذكر في سر القلب وخير المعرفة ولا بالإدراك في ظاهر الحس ، دون ما كان موجودا به وصار عنه فانيا ، فبعد هذا على من أصعبه أن لا يحتاج إليها مع هذا الوضوح ، ولا فهم إلا بالله ، ولا شرح إلا منه ، ولا نور إلا من عنده ، وله الحول والقوة وهو العلي العظيم

## فصل

وأما معنى إنشاء سر الربوبية كفر فيخرج على وجهين أحدهما : أن يكون المراد به كفرا دون كفر ، ويسمى بذلك تعظيما لما أتى به المفشى وتعظيما لما ارتكبه

ويعترض هذا بأن يقال لا يصح أن يسمى هذا كفرا ، لأنه ضد الكفر ، إذ الكفر الذى سمي على معناه سائر ، وهذا المفشى للسر ناشر ، وأين النشر والإظهار من التغطية ، والإعلان من الكتم ، واندفاع هذا حين بأن يقال ، ليس الكفر الشرعي تابع الاشتقاق ، وإنما هو حكم لمخالفة الأمر ، وارتكاب النهي ، فمن رد إحسان محسن ، أو جحد نعمة متفضل ، فيقال عليه كافر لجهتين إحداهما : من جهة الاشتقاق ، ويكون إذ ذاك اسما ينهى عن وصف

والثانية : من جهة الشرع ، ويكون إذ ذاك حكما يوجب عقوبة ، والشرع قد ورد لشكر المنعم ، فافهم ولا تذهب مع الألفاظ ، ولا يفرنك العبارات ، ولا تهجيك التسميات ، وتفتن لخداعتها ، واحترس من استدراجها ، فإذا من أظهر مأمرا بركتمة كان كمن كتم مأمرا بنشره ، وفي مخالفة الأمر فيهما حكم واحد على هذا الاعتبار ، ويدل على ذلك من جهة الشرع ، قوله صلى الله عليه وسلم « لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصَلُّهُ عُقُولُهُمْ » وفي ارتكاب النهي عصيان ، ويسمى فى باب القياس على المذكور كفرا بالبدن ،

وقسمة أخرى : وذلك أن العلم إن حلل إلى ما علم من أجزائه بالاستقراء فرأس الإنسان تشابه سماء العالم ، من حيث إن كل ما علا فهو سماء ، وحواسه تشابه الكواكب والنجوم ، من حيث إن الكواكب أجسام مشقة تستمد من نور الشمس فتضيء بها ، والحواس أجسام لطيفة مشقة تستمد من الروح ، فيضيء مسلك المدركات . وروح الإنسان مشابهة للشمس ، فضياء العالم ، ونور نيانه ، وحركة ضواريه . وحيوانه

وحياته ، فيها تظاهر بتلك الشمس ، وكذلك روح الإنسان به حصل في الظاهر نحو أجزاء بدنه ، ونبات شجره ، وحاول حياته ؛ وجعلت الشمس وسط العالم ، وهي تطلع بالنهار ، وتغرب بالليل ، وجعلت الروح وسط جسم الإنسان ، وهي تغيب بالنوم ، وتطلع باليقظة ونفس الإنسان تشابه القمر ، من حيث إن القمر يستمد من الشمس ، ونفسه تستمد من الروح ، والقمر خالف الشمس ، والروح خالف النفس ، والقمر آية محوطة ، والنفس مثلها ، ويحى القمر في آن لا يكون ضياؤه منه ، ويحى النفس في آن ليس عقلها منها ، ويعتري الشمس والقمر وسائر الكواكب كسوف ، وتعتري النفس والروح وسائر الحواس غيب وذهول ، وفي الصالم نبات ومياه ورياح وجبال ، وحيوان ، وفي الإنسان نبات ، وهو الشجر ، ومياه وهو الصروق ، والدموع والريق والدم ، وفيه جبال ، وهي العظام ، وحيوان وهي هوام الجسم ، ففصلت المشابهة على كل حال ، ولما كانت أجزاء العالم كثيرة ، ومنها ماهي لنا غير معروفة ، ولا معلومة ، كان في استقصاء مقابلة جميعها تطويل ، وفيما ذكرناه ما يحصل به لدوى العقول تشبيه وتمثيل

فإن قلت : أراك فرقت بين النفس والروح ، وجعلت كل واحد منهما غير الآخر ، وهذا قلما تساعد عليه ، إذ قد كثر الخلاف في ذلك فاعلم أنه إنما على الإنسان أن يدنى كلامه على ما يعلم لأعلى ما يجمل ، وأنت لو علمت النفس والروح علمت أنهما اثنان

فإن قلت : فقد سبق في الإحياء أنهما شيء واحد ، وقلت في هذه الإجابة إن النفس من أسماء الروح ، فالذي سبق في الإحياء ورأيت في هذه الإجابة ، وهو شيء واحد لا يتناقض مع ما قلناه الآن ، وذلك أن لها معنى يسمى بالروح تارة ، وبالنفس أخرى ، وبغير ذلك ، ثم لا يبعد أن يكون لها معنى آخر ينفرد باسم النفس فقط ، ولا يسمى بروح ولا غير ذلك ، فهذا آخر الكلام في أحد وجهي الإضافة التي في ضمير صورته ، والوجه الآخر وهو أن من حمل إضافة الصورة إلى الله تعالى على معنى التخصيص به ، فذلك لأن الله سبحانه نبأ بأنه حي قادر ، سميع بصير ، عالم مرید ، متكلم ، فاعل ، وخلق آدم عليه السلام ، حيا ، قادرا ، عالما ، سميعا ، بصيرا ، مریدا ، متكلما ، فاعلا ، وكانت لآدم عليه



السلام صورة محسوسة ، مكنونة مخلوقة ، مقدره بالفعل ، وهي لله تعالى مضافة باللفظ ، وذلك أن هذه الأسماء لم تجتمع مع صفات آدم إلا في الأسماء التي هي عبارة تلفظ فقط ، ولا يفهم من ذلك نفي الصفات فليس هو مرادنا ، وإنما مرادنا تباين ما بين الصورتين بأبعد وجوه الإمكان ، حتى لم تجتمع مع صفات الله تعالى إلا في الأسماء الملفوظ بها لا غير ، وفرارا أن تثبت صورة لله تعالى ، ويطلق عليها حالة الوجود ، فافهم هذا ، فإنه من أدق ما يقرع سمعك ، ويلج قلبك ، ويظهر لعقلك ، ولهذا قيل لك ، فإن كنت تعتقد الصورة الظاهرة ومعناه إن حملت إحدى الصورتين على الأخرى في الوجود ، تكن مشبها مطلقا ومعناه تتيقن أنك من المشبهين لا من المزهين ، على نفسك بالتشبيه معتقدا ، ولا تنكر كما قيل : كن يهوديا صرفا وإلا فلا تلعب بالتوراة ، أي تتلبس بدينهم وتريد أن لا تنسب اليهم ، أي لا تقرأ التوراة ولا تعمل بها ، وإن كنت تعتقد الصورة الباطنة ، منزلها مجللا ومقدسا مخلصا ، أي ليس تعتقد من الإضافة في الضمير إلى الله تعالى إلا الأسماء دون المعاني ، فتلك المعاني المسماة لا يقع عليها اسم صورة على حال ، وقد حفظ عن الشبلي رحمه الله عليه ، في معنى ما ذكرناه من هذا الوجه قول بليغ مختصر ، حين سئل عن معنى الحديث ، فقال : خلقه الله على الأسماء والصفات ، لا على الذات .

فإن قلت ، فكذا قال ابن قتيبة في كتابه المعروف بتناقض الحديث ، حين قال هو صورة لا كالصور ، فلم أخذ عليه في ذلك ، وأقيمت عليه الشناعة به ، وأطرح قوله ، ولم يرضه أكثر العلماء وأهل التحقيق .

فاعلم أن الذي ارتكبه ابن قتيبة عفا الله عنه نحن أشد إعراضا عنه ، وأبلغ في الإنكار عليه . وأبعد الناس عن تسوية قوله ، وليس هو الذي ألمنا نحن به وأفدناك بحول الله وقوته إياه ، بل يدل منك أنك لم تفهم غرضنا ، وذهلت عن تعقل مرادنا ، ولم تفرق بين قولنا وبين ما قاله ابن قتيبة ، ألم أخبرك أننا أثبتنا الصورة في التسميات ، وهو أثبتنا حالة للذات ، فأين من لب الجوز ، قشور تفرقع ، والذي يغلب على الظن في ابن قتيبة أنه لم يقرع سمعه هذه الدقائق التي أشرنا إليها وأخرجناها إلى حيز الوجود ، بتأييد الله تعالى بالعبارة عنها ، وإنما ظهر له شيء لم يكن له به إلف وعلاه الدهش ، فتوقف بين ظاهر الحديث الذي هو

موجب عند ذرى القصور تشبيها ، وبين التأريل الذى ينفيه ، فأثبت المعنى المرغوب عنه ، وأراد نفي ما خاف من الوقوع فيه ، فلم يأت له اجتماع ما رام ، ولا نظام ما اقتراف فيها هو صورة لا كالصورة ، ولكل ساقطة لاقطة ، فتبادر الناس إلى الأخذ عنه

## فصل

ومعنى قاطع الطريق فإنك بالواد المقدس طوى ، أي دم على ما أنت عليه من البحث والطلب ، فإنك على هداية ورشد ، والوادى المقدس عبارة عن مقام الكليم موسى عليه السلام ، مع الله تعالى فى الوادى وإنما تقدر الوادى بما أنزل فيه من الذكر ، وسمع كلام الله تعالى ، وأقيم ذكر الوادى مقام ما حصل فيه فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه وإلا فالمقصود ما حذف لا ما أظهر بالقول ، إذ الموضع لا تأثير لها وإنما هي ظروف

## فصل

ومعنى فاستمع أى سر بقلبك لما يوحى ، فملكك تبحر على النار هدى ، ولملك من سرادقات المزناتى بما نودي به موسى ، إني أنا ربك ، أي فرغ قلبك لما يرد عليك من فوائد المزيد ، وحوادث الصدق ، ونماز المعارف ، وارتياح سلوك الطريق ، وإشارات قرب الوصول ، وسر القلب ، كما يقول أدن الرأس ، ووسع الآذان ، وما يوحى أي ما يرد من الله تعالى بواسطة ملك ، أو إلقاء فى روع ، أو مكاشفة حقيقية ، أو ضرب مثل مع العلم بتأويله ، ومعنى لملك حرف ترويح ، ومعنى ان لم تدركك آفة تقطعك عن سماع الوحي من إعجاب بحال ، أو إضافة دعوى إلى النفس أو تنوع بما وصلت إليه ، واستبداد به عن غيره ، وسرادقات المجد ، هي حجب المسكوت ، وما نودي به موسى ، هو علم التوحيد التى وسعت المباركة اللطيفة عنه بقوله حين قال له يا موسى إني أنا الله لا إله إلا أنا ، والمنادى باسمه أزلا وأبدا ، هو اسم موسى لما سمي السالك الموجود فى كلام الله تعالى فى أزل الأزل ، قبل أن يخلق موسى لا إلى أول ، وكلام الله تعالى صفة له لا يتغير كما لا يتغير هو ، إذ ليست صفاته المنوية لغيره ، وهو الذى لا يحول ولا يزول ، وقد ذل قوم عظم اقتراحهم وهو أنهم ، حملوا صدور هذا القول على اعتقاد اكتساب النبوة

وعيساذ بالله من أين يحتمل هذا القول ما حملوه من المذهب اليسوا وهم يعرفون أن كثيرا ممن يكون بحضرة ملك من ملوك الدنيا وهو يخاطب إنسانا آخر فالولاية كبيرة وفوض إليه عملا عظيما ، وحياه حياه خطيرا ، وهو ينادى باسمه أو يأمره بما يتثل من أمره ، ثم إن السامع للملك الحاضر معه غير المولى ، لم يشارك المولى المخالوع عليه ، والمفوض إليه في شيء مما ولي وأعطى ، ولم تجب له بسماحه ومشاهدته أكثر من حظوة القربة ، وشرف الحضور ، ومنزلة المكاشفة من غير وصول إلى درجة لمخاطب بالولاية ، والمفوض إليه الأمر ، ولذلك هذا السالك المذكور إذا وصل في طريقة ذلك ، بحيث يصل بالمكاشفة والمشاهدة واليقين التام الذى يوجب المعرفة والعلم بتفاصيل المعلوم ، فلا يمتنع أن يسمع ما يوحى لغيره من غير أن يقصد هو بذلك ، إذ هو محل سماع الوحي على الدوام ، وموضع الملائكة ، وكفى بها أنها الحضرة الربوبية ، وموسى عليه السلام ما استحق الرسالة والنبوة ، ولا استوجب التكليم وسماع الوحي مقصودا بذلك ، بحلوه في هذا المقام الذى هو المرتبة الثالثة فقط ، بل قد استحق ذلك بفضل الله تعالى حين خصه بمعنى آخر ترقى إلى ذلك المقام أضعافا ، بخاوز المرتبة الرابعة ، لأن آخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء ، وموسى عليه السلام نبي مرسل ، فقامه أعلى بكثير مما نحن آخذون في أطرافه لأن هذا المقام الذى هو المرتبة الثالثة ، ليست من غايات مقام الولاية بل هو إلى مبادئها أقرب منه إلى غايتها ، فمن لم يفهم درجات المقام ، وخصائص النبوة ، وأحوال الولايات كيف يترضى للكلام فيها ، والطمع على أهلها ، هذا لا يصلح إلا لمن لا يعرف أنه مؤاخذ بكلامه ، شاسب بظنه ويقينه ، مكتوب عليه خطراته ، محفوظ عليه لحظاته ، مخلصا منه يقظاته وغفلاته فا (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ<sup>(١)</sup>)

فإن قلت : أراك قد أوجبت له نداء الله تعالى ، ونداء كلامه ، والله تعالى يقول ( تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ<sup>(٢)</sup> ) فقد نبه أن تكليم الله تعالى لمن كلمه من الرسل إنما هو على سبيل المبالغة في التفضيل ، وهذا لا يصلح أن يكون لغيره ليس بنبي ولا رسول ، وإذا بان السبب وقصد

بإدراك الشك العارض في مسالك الحقائق فنقول : ليس في الآية ما يرد ما قلنا ، ولا يكسره  
لأننا ما أوجبنا أنه بكلمه قصدا ولا توخاه بالخطاب عمدا

وانما قلنا يجوز أن يسمع ما يخاطب الله تعالى به غيره مما هو أعلى منه أليس من يسمع  
كلام إنسان مثلا مما يتكلم به غير السامع فيقال فيه إنه كلمه وقد حكى أن طائفة من بني  
إسرائيل سمعوا كلام الله تعالى الذي خاطب به موسى حين كلمه ثم اذا ثبت ذلك لم يجب  
لهم به درجة موسى عليه السلام ولا المشاركة في نبوته ورسالته على أنا نقول نفس ورود  
الخطاب إلى السامعين من الله تعالى ، يمكن الاختلاف فيه فيكون النبي المرسل يسمع  
كلام الله تعالى عز وجل الذاتي القديم ، بلا حجاب في السمع ، ولا واسطة بينه وبين  
القلب ، ومن دونه يسمعه على غير تلك الصورة ، مما يلقى في روعه ، ومما ينادى به في  
سمعه أو سره ، وأشبه ذلك كما ذكر أن قوم موسى عليه السلام ، حين سمعوا كلام  
الله سبحانه مع موسى أنهم سمعوا صوتا كالشبور وهو القراءان ، فاذا صح ذلك فبتباين  
المقامات أختلف ورود الخطاب ، فموسى سمع كلام الله بالحقيقة الذي هو صفة له بلا كيف ولا  
صورة نظم الحروف ، ولا أصوات ، والذين كانوا معه أيضا ، سمعوا صوتا مخلوقا جعل  
لهم علامة ودلالة على صحة التكليم وخلق الله سبحانه لهم بذلك العلم الضروري ، وسمى  
ذلك الذي سمعوه كلامه ، إذ كان دلالة عليه ، كما تسمى التلاوة وهي الحروف المتلو بها  
القراءان كلام الله تعالى إذ هي دلالة عليه

فإن قلت : فما يبقى على السامع إذا سمع كلام الله تعالى الذي يستفيد معرفة وحدانيته  
وفقه أمره ونهيه ، وفهم مراده وحكمه ، يلحقه العلم الضروري فيما أرى بأنه الشيء  
المرسل ، إلا بأن يشتغل بإصلاح الخلق دورته ، ولو كان عوضا منه آخر عنه ومقابه مقامه  
فاعلم أن الذي أوجب عثورك ودوام زللك ، واعتراضك على العلوم بالجهل ، وعلى  
الحقائق بالخيال ، أنك بعيد عن غور المطالب ، بعيد في شرك المعاطب ، بعيد صوب  
الصوت ، عتيد صخب السحاب ، إن الذي استحق به الناظر السالك الواصل المرتبة الثالثة  
سماع نداء الله تعالى معنى ومقام وحال وخاصة أعلى من تلك الأولى وأجل وأكبر ،  
وبينهما ما بين من استحق المواجهة بالخطاب والقصد به ، وبين من لا يستحق أكثر من

سماعه من يخاطب به غيره ، فهذا من الإشارة باختلاف ورود الخطاب إليهما ، مما يوجب نفورا ، وتباين ما بينهما ، فإن فهمت الآن وإلا فقد عني لاندربمجال .

فإن قيل : ألم يقل الله تعالى ( فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ <sup>(١)</sup> ) وسماع كلام الله تعالى بحجاب أو بغير حجاب ، وعلم ما في الملكوت ومشاهدة الملائكة ، وما غاب عن المشاهدة والحس من أجل الغيوب ، فكيف بطلع عليها من ليس برسول ؟

قلنا : في الكلام حذف يدل على صحة تقديره الشرع الصادق ، والمشاهدة الصورية ، أن يكون معناه إلا من ارتضى من رسول ، ومن اتبع الرسول بالإخلاص والاستقامة أو عمل بما جاء به ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ » وهل يبقى إلا ما غاب عنه أن ينكشف إليه ، وقال « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مُجِدِّثُونَ فَعَمْرُؤُا » أو كما قال « الْمُؤْمِنِينَ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ » وفي القراءة العزيز ( قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ <sup>(٢)</sup> ) فعلم ما غاب عن غيره من إمكان بيان ما وعد به ، وأراد أنه قدر عليه ، ولم يكن نبيا ولا رسولا ، وقد أنبأ الله سبحانه وتعالى عن ذى القرنين من إخباره عن العلوم الغيبية ، وصدقه فيه حين قال ( فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَمَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا <sup>(٣)</sup> ) وإن كان وقع الاختلاف في نبوة ذى القرنين فالإجماع على أنه ليس برسول ، وهو خلاف المسطور في الآية ، وإن رام أحد المدافعة بالاحتياط لما أخبر به ذى القرنين ، وما ظهر على يدي الذي كان عنده علم من الكتاب ، وأراد أن يجوز على عمر التشبه بالحقائق ، فما يصنع فيما جرى للخضر ، وما أنبأ الله سبحانه ، وأظهر عليه من العلوم الغيبية ، وهو بعد أن يكون نبيا فليس برسول على الوفاق من الجميع والله تعالى يقول ( إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ <sup>(٤)</sup> ) فدل على أن في الآية حذف مضاف معناه ما تقدم

وانظر الى ما ظهر من كلام سعد رضي الله عنه ، أنه يرى الملائكة وهو غيب الله وأعلم أبو بكر بما في البطن وهي من غيب الله ، وشواهد الشرع كثيرة جدا ، يعمز

النازل ويلهو المعاند ، هذا والقول بتخصيص العموم أظهر من الجراءة وأشهر مما تقل الكافة وبمحتمل أن يكون المراد في الآية بالرسول المذكور فيها ملك الوحي ، الذي بواسطته تنجلي العلوم وتنكشف الغيوب ، فني لم يرسل الله ملكا بإعلام غيب ، أو يخاطب مشافهة أو إلقاء معنى في روع ، أو ضرب مثل في يقظة أو منام ، لم يكن إلى علم ذلك الغيب سبيل ، ويكون تقدير الآية ، فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول أن يرسله إلى من يشاء من عباده في يقظة أو منام ، فإنه يطلع على ذلك أيضا ، ويكون فائدة الإخبار بهذا في الآية ، الامتنان على من رزقه الله تعالى علم شيء من مكنوناته وإعلامه أنه لا تصل إليها نفسه ، ولا مخلوق سواه إلا بالله تعالى ، حين أرسل إليه الملك بذلك ، وبمشيئة الله حتى يتبرأ المؤمن من حوله ومن حول كل مخلوق وقوته ، ويرجع إلى الله تعالى وحده ، ويتحقق على أنه لا يرد عليه شيء من علم ، أو معرفة ، أو غير ذلك إلا بإرادته ومشيئته ، ويحتمل وجه آخر ، وهو أن يكون معناه والله أعلم ، فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى ، يريد من سائر خلقه ، وأصناف عباده ، ويكون معنى من رسول أي عن يد رسول من الملائكة

## فصل

ومعنى ولا يتخطى رقاب الصديقين إن قلت : ما الذي أوصله إلى مقامهم ، أو جاوز به ذلك ، وهو في المرتبة الثالثة حال المقر بين ما وصل حيث ظننت ، فكيف يجاوزه ؟ وإنما خاصية من هو في رتبة الصديقين عدم السؤال ، لكثرة التحقق بالأحوال ، وخاصية من هو في رتبة القرب كثرة السؤال ، طمعا في بلوغ الآمال ، ومثاله ما فيما أشير إليه مثال إنسانين دخلا في بستان ، أحدهما : يعرف جميع أنواع نبات البستان ، ويتحقق أنواع تلك الثمار ، ويعلم أسماءها ومنافعها ، فهو لا يسأل عن شيء مما رآه ، ولا يحتاج إلى أن يخبر به ، والثاني لا يعرف مما رأى شيئا ، أو يعرف بعضا ويجهل أكثر مما يعرف ، فهو يسأل ليصل إلى علم الباقي ، وذلك من تكلمنا عليه حين أكثر السؤال عما يبعد عنه حاله ويتخلف عن مقامه إلى ما هو أعلى منه ، وكان غير مراد لذلك إما في ذلك الوقت أو الأبد

وتلك العلوم التي كانت لا تنال بالكسب ، وإنما تنال بالمنح ، فقبل له لا تتخط رقاب الصديقين بالسؤال ، فذلك مما لا يخطر به ، وليس هو من الطرق الموصلة إلى مقامهم فارجع إلى الصديق الأكبر ، فاقته به في حاله وسيرته ، فمساك ترزق مقامه ، فإن لم يكن فتبقي على حالة القرب وهي تنال الصديقية ، فهذا معناه

## فصل

ومعنى انصراف السالك الناظر بعد وصوله إلى ذلك الرفيق الأعلى ، إما أنه لما وصل إليه بالسؤال صرف إليه مالاق به من الأحوال ليحسم ما بقي عليه من الأعمال كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم للذي سأله أن يعلمه غرائب العلم ، « إِذْهَبْ فَأَحْكِمْ مَا هُنَاكَ وَتَعَدَّ ذَلِكَ أَعْمَاكَ غَرَائِبَ أَلْعَلِيمِ » وأما صفة انصرافه فإنه نهض بالبحث ورجع بالتذكر وفوائد المزيد ووجهه أن من لم يستطع المقام في ذلك الموضع بعد وصوله إليه فذلك لتعلق خبر المعرفة بالبدن ، ومسكنه عالم الملك ، ولم يفارقه بعد الموت وطول الغيب عنه لا يمكن في العادة ، ولو أمكن لهلك الجسم وتفرقت الأوصال ، والله تعالى أراد عمارة الدنيا : وقد سبق في علمه ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، ومعنى قول أبي سليمان الداراني لو وصلوا ما رجعوا مارجع إلى حالة الانتقاص من وصل إلى حالة الإخلاص والذي طمع الناظر في الحصول فيه سؤاله وتغاديه إلى حال القرب منه إذا لم يصلح لذلك ولم يصف ولم يخلص أعماله

## فصل

ومعنى بأن ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ، ولا أحسن ترتيباً ، ولا أكل صنماً ، ولو كان وادخره مع القدرة كأن ذلك بخلا ، يناقض الكرم الإلهي ، وإن لم يكن قادراً عليه كان ذلك عجراً ، يناقض القدرة الإلهية ، فكيف يقضى عليه بالعجز فيما لم يخلقه اختياراً ، وكان ذلك ولم ينسب إليه ذلك قبل خلق العالم ، ويقال ادخار إخراج العالم من العدم إلى الوجود عجز مثل ما قيل فيما ذكرنا ، وما الفرق بينهما ، وذلك لأن تأخير العالم

قبل خلقه عن أن يخرج من عدم إلى الوجود يقع تحت الاختيار الممكن ، من حيث إن الفاعل المختار له أن يفعل فإذا فعل فليس في الإمكان أن يفعل إلا نهاية ما تقتضيه الحكمة التي عرفنا أنها حكمة ، ولم يعرفنا بذلك إلا لنعلم مجارى أفعاله ، ومصادر أموره ، وأن نتحقق أن كل ما اقتضاه ويقضيه من خلقه ، بعلمه ، وإرادته ، وقدرته أن ذلك على غاية الحكمة ، ونهاية الاتقان ، ومبلغ جودة الصنع ، ليجعل كمال ما خلق دليلاً قاطعاً ، وبرهاناً على كماله في صفات جلاله الموجبة لإجلاله فلو كان ما خلق ناقصاً بالإضافة إلى غيره ما قدر على خلقه ، ولو لم يخلق لكان يظهر النقصان المدعى على هذا الوجود من خلقه ، كما يظهر على ما خلقه على غير ذلك ، ويكون الجميع من باب الاستدلال على ما صنع من النقصان قطعاً ، وما يحمل عليه من القدرة على أكل من خلقه ، إذ خلق للخلق عقولاً وجعل لهم فهو ما ، وعرفهم ما أكن ، وكشف لهم ما حجب وأجن ، فيكون من حيث عرفهم بكمالهم على نقصه ، ومن حيث أعلمهم بقدرته بصبرهم بمعجزه ، فتعالى الله رب العالمين ، الملك الحق المبين .

وأيضاً فلا يعترض هنا ويتزبر به ، إلا من لا يعرف مخلوقاته ، ولم يصرف الكلام الصحيح في مشابهة ذلك أصلاً في العلم ، أو كان نسخاً له ومعنى نقيس عليه غيره ، وأما انكشافه بخبر ممن رزق علم ذلك كان بطلان العلم في حق المخبر ، إذ أفشاه لتغير أهله ، وأهداه لمن لا يستحقه ، كما روي عن عيسى على نبينا وعليه السلام ، لا تعلقوا الدر في عناق الخنازير ، وإنما أراد قطاع العلم غير أهله ، وقد جاء لاتنعموا الحكمة أهلها ، فتظلموهم ، ولا تظلموها عند غير أهلها فتظلموها .

وأما سر العلم الذي يوجب كشفه بطلان الأحكام ، فإن كان كشفه من الله سبحانه لقلوب ضعيفة بطلت الأحكام ، في حقها لمن يطلع عليه في ذلك السر من معرفة مآل الأشياء ، وعواقب الخلق ، وكشف أسرار العباد ، وما يظن من مقدور ، فمن عرف نفسه مثلاً أنه من أهل الجنة لم يصل ، ولم يصم ، ولم يتعب نفسه في خير ، وكذلك لو انكشف له أنه من أهل النار ، كمل انهما كه فلا يحتاج إلى تعب زائد ، ولا تصيبه مكابدة ، فلو عرف كل واحد عاقبته وما له بطلت الأحكام الجارية عليه ، وإن كان كشفها من مخبر



استروح الضعيف إلى ما يسمع من ذلك ، فيتعطل وينخرم حاله ، وينحل قيده ، وبعد هذا فلا يحمل كلام سهل إلا على ما يقدر لآعلى ما يوجد ، ولذلك جعله مقرونا بحرف لو ، الدال على امتناع الشيء ، لامتناع غيره ، كما يقال : لو كان للإنسان جناحان لطار ، ولو كان للسماء درج لصعد عليها ، ولو كان البشر ملكا لتهقد الشهوات ، فعلى هذا يخرج كلام سهل في ظاهر العلم .

## فصل

وأما خطاب العقلاء للجہادات فغير مستنكر فقديمًا ندب الناس الديار ، وسألوا الأطلال واستنبروا الآثار وقد جاء في أشعار العرب وكلامها من ذلك كثير وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم « أُسْكُنْ أَحَدٌ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ » وقال بعضهم : اسأل الأرض تخبرك عن شق أنهارها ، وفجر بحارها ، وفتق أهواءها ، ورتق أحواءها وأرسي جبالها ، إن لم تجنبك أجابتك اعتبارًا ، وإلما الذي يتوقف على الأذهان ويتحير في قوله السامعون ، وتتعجب منه العقول ، هو كيفية كلام الجمادات والحيوانات الصامتات ، ففي هذا وقع الإنكار ، إذ اضطرب النظر ، وكذب في تصحيح وجوده والسمع من الاعتبار ، ولكن لتعلم أن تلقى الكلام للعقلاء ، ممن لم يقل عنه في المشهود يكون على جهات ، من ذلك سماع الكلام الذاتي ، كما تتلقى من أهل النطق إذا قصدوا إلى نظم اللفظ ، وذلك أكثر ما يكون للأنبياء والرسل صلوات الله عليهم في بعض الأوقات ، كحنين الجذع للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكان حجر يسلم عليه في طريقه قبل مبثته

ومنها تلقى الكلام في حسن السامع من غير أن يكون له وجود من خارج الحس ، ويعتري هذا سائر الحواس ، كمثل ما يسمع النائم في منامه ، من مثال شخص من غير مثال والمثال المرئي للنائم ليس له وجود في سمعه ، وأما ما يجده غير النائم في اليقظة فمما خاصة وعامة ، فقد ورد أن الحجر في زمن عيسى ينادي المسلم بأمسلم خلتى يهودي فآتله ، وإن لم يخلق الله تعالى للحجر حياة ونطقا ، ويذهب عنه معنى الحجرية ؛ أو يوكل بالحجر من يتكلم عنه ممن يستر عن الأبصار في العادة من الملائكة والجن ، أو يكون كلام يخلقه الله

عز وجل في أذن السامع ، ليفيده العلم باختفاء اليهودي ، حتى يقتله وكما يقال في العرض الأكبر يوم القيامة ، إذا نودي فيه باسم كل واحد على الخصوص ، وفي الخلائق مثل اسم المنادي به كثير ، وقد قالت العلماء : أنه لا يسمع النداء في ذلك الجمع إلا من نودي ، فيحتمل أن يكون ذلك النداء يخلق للمنادي في حاسة أذنه ليتحرك إلى الحساب وحده دون من يشاركه في اسمه ، ولا يكون نداء من خارج ، والأمثلة كثيرة في الشرع ، وفيما سمعت غنية ومقنع .

ومنها تلقى الكلام في العقل ، وهو المستفاد بالمعرفة ، المسموع بالقلب ، المفهوم بالتقدير على اللفظ المسمى بإسان الحال كما قال قيس :

وأجهشت للتوادم حين رأيته وكبر للرحمن حيث رآني  
فقلت له أين الذين عهدتهم حوالبك في عيش وخفض زمان  
فقال مضوا واستودعوني بلادهم ومن الذي يبقى على الحدائق  
وفي أمثال العوام قال الحائط للوند لم تشقني ؟ فقال الوند للحائط سل من يدقني ، فلو  
كانت العبارة تنأى منها ما عبرت إلا بما قد استعير لها ، وعلى هذا المعنى حمل كثير من  
العلماء قوله تعالى إخبارا عن السماء والأرض حين ( قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ <sup>(١)</sup> ) وفي قوله  
تعالى ( إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ  
مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا <sup>(٢)</sup> ) ومنها تلقى الكلام من الجبال مثل  
قوله صلى الله عليه وسلم « كَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِ عِبَاءُ تَانِ  
قَطُورَانِيتَانِ يُكَلِّبُ وَتُجِيبُهُ الْجِبَالُ وَاللَّهُ يَقُولُ لَبَّيْكَ يَا يُونُسُ » فقوله كأنى يدل على  
أنه تخيل حالة سبقت لم يكن لها في الحال وجود ذاتي ، لأن يونس بن متى عليه السلام  
قد مات ، وتلك الحالة منه سلفت ، وفي هذا الحديث منه إخبار عن الوجود الخيالي في  
البصر ، والوجود الخيالي في السمع .

ومنها تلقى الكلام بالشبه ، وهو أن يسمع السامع كلاما أو صوتا من شخص  
حاضر ، فيلقى عليه شبه غيره مما غاب عنه ، كقوله عليه السلام في صوت أبي موسى

الأشعري ، إذ سمعه يترنم بالقرآن « لَقَدْ أُعْطِيَ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » ومزامير آل داود قد عدمت وزهبت ، وإنما شبه صوته بها ، وكما إذا سمع المرء صوت مزامير ، أو عود فجأة على غير قصد ، يتخيل صرير أبواب الجنة وشبهها ، بما فجأ صوته من ذلك

فهذه مراتب الوجود ، فأنت إذا أحسنت التصرف بين أساليبها ، ولم يعترك غلط في بعضها ببعض ، ولا اشتبهت عليك ، وسمعت عن نظر بمشكاة نور الله تعالى إلى كاغد ، وقد رآه أسود وجهه بالخبر ؛ فقال له ما بال وجهك وقد كان أبيض أشقر موتقا ، والآن قد ظهر فيه السواد ، فلم سوّدت وجهك ؟ فقال : سل الخبر فإنه كان مجموعا في المحبرة التي هي مستقره ووطنه ، فسافر عن الوطن ، ونزل بساحة وجهي ظلماً وعدوانا ، فقال : صدقت ، ثم أنت إذا سمعت أمثال هذه المراجعات اعمل الفكر ، وجدد النظر ، وحل الكلام إلى أجزائه التي ينتظم منها جملة ما بلغك ، فسأل عن معنى الناظر ، ومعنى المشكاة ومعنى نور الله سبحانه ، وما سبب أنه لم يعرف الناظر الكتابة والمكتوب ، وبأي لسان خاطب الكاغد ، وكيف مخاطبة الكاغد ، وهو ليس من أهل النطق ، وفيما صدق الناطق الكاغد ، ولم صدقه بمجرد قوله دون دليل ولا شاهد ، فبيدوا لك ههنا من الناظر هو ناظر القلب ، فيما أورده عليه الحس ، والمشكاة استعارة من مشكاة الزجاج ، التي أعمرت بسراج النار إلى خير المعرفة الملقب بسر القلب ، شبيها بها ، لأنها مسرجة الرب سبحانه وتعالى شعلها بنوره ، ونوره المذكور ههنا عبارة عن صفاء الباطن ، واشتعال السر بطلوع نيران كواكب المعارف الداهية بإذن الله تعالى ، ظلم جهالات القلوب ، ووجه إضافته إلى الله تعالى على سبيل الإشارة بالذكر لأجل التخصيص بالشرف ، والكاغد والخبر كناية عن أنفسهما لا عن غيرهما ، وجعلهما مبدأ طريقه ، وأول سلوكه ، إذ هما في عالم الملك والشهادة الذي محل جولة الناظر في حال نظره ، وأما سبب أنه لم يعرف الكتابة والمكتوب فلاجل أنه كان أميا لا يقرأ الكتاب الصناعي ، وإنما يروم معرفة قراءة الخط الإلهي ، الذي هو أبين وأدل على الفهم منه ، وأما مخاطبة الناظر الكاغد وهو جاد ، فسبق الكلام على مثله ، ومراجعة الكاغد له ، فعلى قدر حال الناظر إن كان مرادا فيلقى الكلام في الحس

بما يذبته عن المطلوب من الحق ، وهو من باب الإلقاء في الروح فيودعه الحس المشترك المحفوظ فيه على الإنسان صور الأشياء المحسوسة ، وإن كان مريدا فيلقاه بلسان الحال المسموع بسمع القلب بواسطة المعرفة ، والعقل ، وتصديق الناظر للكافد في عذره وإحالتة على الخبر ، لم يكن لمجرد قوله بل بشهادة أولى الرضا والعدل ، وهو البحث ، والتجربة لم تكن ، وشهادة النفس وهذا يسلك إلى القدرة وهو آخرها ، سئل عن أجزاء عالم الملك وأما ما سمعته في حد عالم الجبروت ، فذلك من القدرة المحدثة إلى العقل . والعلم ، الموجودين في الإنسان المستقرة في القوة الوهمية المدركة جميع ما لا يستدعي وجوده جسما ولكن قد يعرض له أنه في جسم ، كما تدرك السخلة عداوة الذئب ، وعطف أمها ، فتتبع العطف وتنفر من العداوة .

وأما ما سمعته في حد عالم الملكوت ، وذلك من العلم الإلهي إلى ما وراء ذلك مما هو داخل فيه ، ومعدود منه فسر القلب الذي يأخذه عن الملائكة ، ويسمع به ما بعد مكانه ورق معناه ، وعزب عن القلوب من جهة الفكر بصورة ، فأما أي شيء حقائق هذه المذكرات ، وما كنه كل واحد منها ، على نحو معرفتك لا جزاء عالم الملك والشهادة فذلك علم لا ينتفع بسماعه مع عدم المشاهدة . والله قد عرفك باسمائها ، فإن كنت مؤمنا فصدق بوجودها على الجملة ، لعلمك أنك لا تخبر بتسميات ليس لها مسميات ، إلى أن يلحقك الله بأولى المشاهدة وتحصل خالص الكرامات ، ومن كفر فإن الله غني حميد

## فصل

والفرق بين العلم المحسوس في عالم الملك وبين العلم الإلهي في عالم الملكوت ، أن العلم كما اعتقدته مجسما ، بطيء الحركة بالفعل سريع الانتقال بالهلاك ، مخلفا عن مثله في الظاهر عجمولا تحت قهر سلطان الآدمي الضعيف الجاهل في أكثر أوقاته : متصرف بين أحوال متنافية كالعلم ، والجهل ، والعدل ، والظلم ، والشك ، والصدق ، والإفك ، فالعلم الإلهي عبارة عن خلق الله في عالم الملكوت مختص بخلاف خصائص الجواهر الحسية الكائنة في عالم الملك : يرى من أوصاف ما سمي به القلم المحسوس كليا ، مصرفا يتميز الخالق بحكم

إرادته على ما سبق به علمه في أزل الأزل ، وإنما سمي بهذا الاسم لأجل شبهه بعمل  
بما سمي به ، غير أنه لا يكتب إلا حقائق الحق ، والفرق بين عَيْنِ الآدَمِيِّ وعَيْنِ اللَّهِ عز  
وجل ، أن عَيْنِ الآدَمِيِّ كَمَا عَلِمَتْ مَرَكَبَةٌ مِنْ عَصَبِ اسْتَمَصَى بِقَوِّهَا ، وَعُضْلُ تَمُضِلْ  
أَدْوَاهُهَا ، وَعِظَامُ يَعْظُمُ بِلَاؤِهَا ، وَلَحْمٌ مُمْتَدٌ ، وَجِلْدٌ غَيْرُ جِلْدٍ ، مُوصُولَةٌ كَمَثَلِهَا فِي  
الضَعْفِ وَالانْفِعَالِ ، مُلْقَبَةٌ بِالْيَدِ وَهِيَ عَاجِزَةٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَعَيْنُ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ عِنْدَ  
بَعْضِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ ، عِبَارَةٌ عَنْ قُدْرَتِهِ ، وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ صِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرُ قُدْرَةٍ وَلَيْسَتْ  
بِجَارِحَةٍ وَلَا جِسْمٍ ، وَعِنْدَ آخَرِينَ إِنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ خَلْقِ اللَّهِ وَاسْطِنَاءِ بَيْنِ الْقَلَمِ وَالْإِلَهِيِّ ،  
الْمَذْكُورِ بِالْخَطِّ الْإِلَهِيِّ الْمَثْبُوتِ عَلَى صَفَحَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ الَّذِي لَيْسَ بِعَرَبِيٍّ وَلَا عَجَبِيٍّ ،  
يَقْرَأُهُ الْأَمِيونُ إِذَا شَرَحَتْ صُدُورَهُمْ وَتَسْتَعْجِمُ عَلَى الْقَارِئِينَ إِذَا كَانُوا عِبِيدَ شَهَوَاتِهِمْ  
وَلَمْ يَشَارِكْ عَيْنِ الْآدَمِيِّ إِلَّا فِي بَعْضِ الْأَسْمَاءِ ، لِأَجْلِ الشَّبهِ اللَّطِيفِ الَّذِي بَيْنَهُمَا  
بِالْفِعْلِ ، وَتَقْرِيبًا إِلَى كُلِّ نَاقِصِ الْفَهْمِ عَسَاءَ يَعْثُلُ مَا نُزِّلَ عَلَى رَسْلِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الذِّكْرِ

## فصل

وحد عالم الملك مظهر للحواس : ويكون بقدرته الله تعالى بعضه من بعض ،  
وصحة التعبير : وحد عالم الملكوت مألوجه بيجانه بالأمر الأزلي بلا تدريج ، وبقي  
على حالة واحدة من غير زيادة فيه ولا نقصان منه ، وحد عالم الجبروت :  
هو ما بين العالمين مما يشبه أن يكون في الظاهر من عالم الملك ، خيز بالقدرة الأزلية  
بما هو من عالم الملكوت

## فصل

ومعنى إن الله خلق آدم على صورته ، فذلك على ما جاء في الحديث عن النبي صلى الله  
عليه وسلم ، والعلما فيه وجهان .  
فمنهم من يرى للحديث سببا ، وهو أن رجلا ضرب غلامه فرآه النبي صلى الله عليه وسلم  
فنهأه وقال « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » وتأولوا عود الضمير على المضروب

على هذا لا يكون للحديث مدخل في هذا الموضوع لم يردده مورد آخر في غير هذا الموطن ويكون الإيمان به إلى غير هذا المعنى المذكور في السبب الحادث ، وإثباته في غير موطن ذلك السبب المنقول مما يعز ويعسر ، فليبق السبب على حاله ولينظر في وجه الحديث غير هذا مما يحتمل ويحسن الاحتجاج به في هذا الموطن

والوجه الآخر : أن يكون الضمير الذي في صورته عائداً إلى الله سبحانه ، ويكون معنى الحديث ، أن الله خلق آدم على صورته ، هي إلى الله سبحانه ، وهذا العبد المضروب على صورة آدم ، فإذا هذا العبد المضروب على الصورة المضافة إلى الله تعالى ، ثم ينحصر بيان معنى الحديث ، ويتوقف على بيان معنى هذه الإضافة ، وعلى أي جهة يحمل في الاعتقاد العالمي على الله سبحانه ففيها وجهان أحدهما : أن إضافته إضافة ملك إلى الله تعالى كما يضاف إليه العبد والبيت والناقة ، واليمن على أحد الأوجه .

والوجه الآخر : أن تكون إضافة تخصيص به تعالى ، فمن حملها على إضافة الملك له رأى أن المراد بصورته هو العالم الأكبر بجملته ، وآدم مخلوق على مضاهاة صورة العالم الأكبر لكنه مختصر صغير ، فإن العالم إذا فصلت أجزاؤه بالعلم ، وفصلت أجزاء آدم عليه السلام بمثله وجدت أجزاء آدم عليه السلام مشابهة للعالم الأكبر ، وإذا شابهت أجزاء جملة أجزاء جملة فالجملتان بلاشك متشابهتان ، فالذي نظر في تحليل صورة العالم الأكبر فقسمه على أنحاء من القسمة ، وقسم آدم عليه السلام ، كذلك فوجد كل نحوين منهما شبيهين ، فمن ذلك أن العالم ينقسم إلى قسمين ، أحد القسمين : ظاهر محسوس كعالم الملك ، والثاني : باطن معقول كعالم الملكوت ، والإنسان كذلك ينقسم إلى ظاهر محسوس ، كالعظم واللحم والدم ومئات أنواع الجواهر المحسوسة ، وإلى باطن ، كالروح والعقل والعلم والإرادة والقدرة وأشياء ذلك

وقسم آخر : وذلك أن العالم قد انقسم بالعوالم إلى عالم الملك : وهو الظاهر للحواس ، وإلى عالم الملكوت : وهو الباطن في العقول ، وإلى عالم الجبروت : وهو المتوسط الذي أخذ بطرف من كل عالم منها ، والإنسان كذلك انقسم

إلى ما شابه هذه القسمة ، فالشابه لعالم الملك الأجزاء المحسوسة ، وقد علمنا والمشابهة  
لعالم الملكوت ، فمثل الروح والعقل والقدرة والإرادة وأشياء ذلك ، والمشابهة لعالم  
الجبروت فكلا إدراكات الموجودة بالحواس ، والقوى الموجودة بأجزائه ،  
والوجه الثاني : أن يكون معناه كفرا للسامع لا للمخبر ، بخلاف الوجه الأول ، ويكون هذا  
مطابقا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم « لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَمْ تَصِلْهُ عُقُوقُهُمْ أَثَرِ يَدُونِ  
أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » فن حدث أحدا بما لم يصله عقله ، ربما سارع  
إلى التكذيب ، وهو الأكثر ، ومن كذب بقدرة الله تعالى وبما أوجدتها ، فقد كفر  
ولو لم يقصد الكفر ، فإن أكثر اليهود والنصارى وسائر الكفار ما قصدت الكفر  
ولا تظنه بأنفسها ، وهي كفار بلا ريب ، وهذا وجه واضح قريب ، ولا تلتفت إلى  
مآمال إليه بعض من لا يعرف وجوه التأويل ، ولا بعقل كلام أولى الحكمة والراسخين  
في العلم ، حين ظن أن قائل ذلك أراد الكفر الذي هو تقيض الإيمان والإسلام بتعلق مخبره  
وتلحق قائله وهذا لا يخرج إلا على مذاهب أهل الأهواء ، الذين يكفرون بالمعاصي  
وأهل السنن لا يرضون بذلك ، وكيف يقال لمن آمن بالله واليوم الآخر ، وعبد الله بالقول  
الذي ينزه به ، والعمل الذي يقصد به المتعبد لوجهه ، الذي يستزيد به إيمانا ومعرفة له  
سبحانه ثم يكرمه الله تعالى على ذلك بفؤاد المزيد ، وينيله ما شرف من المنح ، ويريه أعلام  
الرضا ، ثم يكفره أحد بغير شرع ولا قياس عليه ، والإيمان لا يخرج عنه إلا بنبذه وإطراحه  
وتركه ، واعتقاد ما لا يتم الإيمان معه ، ولا يحصل بمقارنته وليس في إفشاء سر الولي  
ما يحصل به تناقض الإيمان ، اللهم إلا أن يربد بإفشائه وقوع الكفر من السامع له ، فهذا  
مات متمرده وليس بولي ، ومن أراد بأحد من خلق الله أن يكفر بالله فهو لا محالة كافر ،  
وعلى هذا يخرج قوله تعالى ( وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا  
بِغَيْرِ عِلْمٍ <sup>(١)</sup> ) ثم إنه من سب أحدا منهم على معنى ما يجد له من العداوة والبغضاء ،  
فقبل له أخطأت وأئمت من غير تكفير ، وإنه أيما فعل ذلك وسب رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فهو كافر بالإجماع

## سؤال

فإن قيل : فما معنى قول سهل رحمه الله تعالى : ونسب إليه للإلهية سر لو انكشف لبطلت النبوات ، والنبوات سر لو انكشف لبطل العلم ، وللعلم سر لو انكشف بطلت الأحكام ، وجاء في الإحياء على أثر هذا القول ، وقائل هذا القول إن لم يردبه إبطال النبوة في حق الضعفاء ، فما قالوا ليس بحق ، فإن الصحيح لا يتناقض ، والكامل من لا يطفى نور معرفته نور ورعه ، وهذا وإن لم يكن من الأسئلة المرسومة فهو متعلق بها بما فرع من الكلام فيها آنفا ، وناظر إليه إذا ما أدى إفشاؤه إلى إبطال النبوة والأحكام والعلم كفر فالجواب إن الذي قاله رحمه الله وإن كان مستمعجا في الظاهر ، فهو قريب المسلك بإدِّ المتأمل الذي يعرف مصادر أغراضهم ، ومسالك أقوالهم الإلهية ، ومن وصل إليه اليقين الذي لولاه لم يكن نبيا ، لا يخلو أن يكون انكشافه من الله بما يطلع على القلوب من أنوار الشمس ، التي هي غائبة عنها ، بأن كانت القلوب ضعيفة طرأ عليها من الدهش والاصطلام والحيرة والتيه ما يبهر العقول ، ويفقد الحس ، ويقطع عن الدنيا وما فيها ، وذلك لضعفه ، ومن انتهى إلى هذه الحالة فتبطل النبوة في حقه أن يعرفها ، أو يعقل ما جاء من قبلها إذ قد شغله عنها ما هو أعظم لديه منها ، وربما كان سبب موته لمجزئه عن حمل ما يطرأ عليه ، كما حكى أن شابا من سالكي طريق الآخرة ، عرض عليه أبو يزيد ، ولم يره من قبل ، فلما رآه انكشف له ذلك ، وكان في مقام الضعفاء من المريدين ، فلم يطق حمله فمات به ، وإما أن يكون انكشافه من عالم به على وجه الخبر عنه فتبطل النبوة في حق المخبر ، حينئذ نهى أن لا يفشى فأفشى ، أو أمر أن لا يتحدث فلم يفعل ، فخرج بهذه المعصية عن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم فيها ، فلهذا قيل في ذلك بطلت النبوة في حقه

فإن قيل : فلم لا تكفروه على هذا الوجه ، إذا بطلت النبوة في حقه بإخباره قلنا : ما بطلت في حقه جميعا ، وإنما بطل في حقه منها ما خالف الأمر الثابت من قبلها ، ويعد هذا من الكلام على تغليب حق الإفشاء ، وقد سبق الكلام عليه في معنى إفشاء سر الربوبية كفر ، وأما سر النبوة الذي أوجب العلم لمن رزقها ، أو رزق معرفتها



على الجملة ، إذ النبوة لا يعرفها بالحقيقة إلا أنبياء ، فإن انكشف ذلك لقلب أحد بطل العلم في حقه بارتقاع المحنة له ، بالأمر المتوجه عليه بطلبه ، والبحث عنه ، والتفكير فيه ، فيكون كالنبي إذا سئل عن شيء لو وقعت له واقعة لم يحتاج إلى النظر فيها ، ولا إلى البحث عنها ، بل ينتظر ما عود من كشف الحقائق بإخبار ملك ، أو ضرب مثل ، يفهم عنه أو اطلاع على اللوح المحفوظ ، أو إلقاء في روع ، فيعود مخترعته ولم يعلم مقدار الدنيا وترتيب الآخرة عليها ، ولا عرف خواصها ، ولا تنزه في عجائبها ، ولا لاحظ الملكوت ببصر قلبه ، ولا جاوز التخوم إلى أسفل من ذلك بسره ولّبه ، ولا فهم أن الجنة أعلى النعيم ، وأن النار أقصى العذاب الأليم ، وأن النظر إليه منتهى الكرامات ، وأن رضاه وسخطه غاية الدرجات والبركات ، وأن منح المعارف والعلوم أسنى الهبات ، ويرى أن العالم بأسره أخرجته من العدم الذي هو نفي محض إلى الوجود الذي هو إثبات صحيح ، وقدره منازل وجعله لميقات ، فن حي وميت ، ومتحرك وساكن ، وعالم وجاهل ، وشقي وسعيد ، وقريب وبعيد ، وصغير وكبير ، وجيل وخقير ، وغني وفقير ، ومأمور وأمير ، ومؤمن وكافر ، وجاهد وشاكر ، وذكر وأنثى ، وأرض وسماء ، ودنيا وأخرى ، وغير ذلك مما لا يحصى ، والكل قائم به موجود بقدرته ، وبقا بعلمه ، ومته إلى أجله ، ومصرف بمشيئته ، وذلك على بالغ حكمته ، فما أكمل جهل من لا يجده إلا قدماه ، ولا من يصرفه إلا استبداده ، ولا ملكه إلا ملكه فيعود المحدث قديما ، والمربوب ربا ، والملك مالكا ، فيعود الخلق من خلق الله كهو ، تعالى الله عن جهل الجاهلين ، وتخيل المعتوهين ، وزيف الزائغين

## فصل

وأما حكم هذه العلوم المكتوبة في الطلب وسلوك هذه المقامات ، ورفق هذه الدرجات ، واستفهام هذه المخاطبات ، أهى من قبيل الواجبات أو المندوبات أو المباحات فاعلم أن المسئول عنه على ضربين ، أحدهما : ماهو في حكم للبإدى ، والثاني : في حكم الغايات ، فأما الذى هو في حكم المبادئ فطلبه فرض على كل أحد ، بقدر بذل الجهود وإفراغ الوسع ، وجميع ما يقدر عليه من العبادة ، وذلك ما نضمنه أصول علم المعاملة ، مثل

إخلاص التوحيد ، والصدق في العمل ، وعدم الإجحاف بالخوف والرجاء ، والتزين بالصبر والشكر ، لأن هذه كلها وما يتعلق بها من علم الأمر والنهي واجبة ، قال الله تعالى ( فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ <sup>(١)</sup> ) وقد سبق التنبيه عليه ، وأما الذي هو في حكم الغايات مثل انقلاب الهيئات ، والنظر بالتوفيق بحكم الموافقة والرضا بالإثبات ، والتوكل بالتجريد ، وحقيقة علم معاني التوحيد وسير معاني التقرير ، وأوصاف أهل آيات اليقين ، فهو درجات ومقامات ، ومنازل ومراتب ، ومنح يخص الله تعالى بها من شاء من عباده ، من غير أن ينال بطلب ولا بحث ولا تعليم ، ولو كان ذلك لما قيل للناظر السالك حين أراد الارتقاء إلى درجة أعلى من درجته بلسان السؤال ، ارجع لا تتخطى رقاب الصديقين ، لكنها مواهب أكرم الله تعالى بها أهل صفوته ، وولايته ، وهي مراتب الصدق في العلم ، وبركات الإخلاص في العمل ، فمن لم يرث من علمه وعمله المفترض عليه ، فطلبه والعمل به شتان من هذه المعاني ، فليس في شيء من الحقيقة ، وإن كان حقا غير أن حاله معلول ، إما مفتون بدنياء ، أو محجوب بهواه ، وربك على كل شيء قدير .

## فصل

وأما لأي شيء ذكرت هذه العلوم بالإشارات دون العبارات ، وبالرموز دون التصريحات ، وبالتشابه من الألفاظ دون المحكمات ، وإن كان قد سبق هذا من الشارع فيما له أن يمتحن به من كلف ، ويتلو من بعيد ، ولكن العلم رجال مخصوصون فما بال من لم يجعل شارحا ، ولم يبعث لغير أن يسلك ذلك

والجواب عنه أن العالم هو وارث النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما ورث العلم ليتجمل بعمله ، ويحل فيه كحلّه ، والنبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ، وحكم الوارث فيما ورث حكم الموروث فيما ورث عنه ، فما عرف فيه الحكم من فصل الموروث عنه أمثله ، ومالم يصل إليه فيه شيء كان له اجتهداه ، فإن أخطأ كان له أجز ، وإن أصاب كان له أجران

ثم إن الوارث رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصرح بعلوم المعاملات وأشار بما وراها  
بما لا يغمه إلا أرباب التخصص ، كما قال الله عز وجل ( وَمَا يَفْقَهُهَا إِلَّا الْمَالُونَ )  
فلم يكن للوارث تمدد عن حكم المورث ، كما حكى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال .  
إني رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاهين

أحدهما : هو الذي بثته فيكم ، وأما الثاني ، فلو بثته لحزتم السكين على هذا البلوم  
وأشار إلى حلقه ، وبعد كل شيء ، ففي القدوة بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه  
النجاة ، وفي اتباعه الفوز بحب الله ، ويد الله مع الجماعة ، وفوق كل ذي علم عليم ، وقد  
أفدناك من طرائف ما عندنا ، وأهدينا إليك من غرائب ما لدينا ، وإلى الله يرد العلم بما دق  
وجل ، وكثر وقل ، وعظم وصغر ، وظهر واستتر ، وإنما ينطق الإنسان بما أنطقه الله  
تعالى ، وهو مستعمل بما استعمله فيه ، إذ كل ميسر لما خلق له ، فاستنزل ما عند ربك  
وخالفك من خير ، واستجلب ما تؤمله منه من هداية وبر ، بقراءة السبع المثاني والقرآن  
العظيم التي أمرت بقراءتها في كل صلاة ، وكذا عليك أن تعيدها في كل ركعة ، وأخبرك  
الصادق المصدق صلى الله عليه وسلم ، أن ليس في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الفرقان  
مثلها ، وفي هذا تنبيه بل تصريح بأن يكثر منها بما ضمنت من الفوائد ، وخصت به من  
الذخائر والعوائد ، بما لو سطر لكان فيه أوقار الجمال ، فافهم وانتبه واعقل ما خلقت له  
واعرف ما أعد لك ، والله تعالى سبحانه حسيب من أراد ، وهادي من جاهد في سبيله  
وكافه من توكل عليه ، وهو الغني الكريم

انتهى الجواب عما سألت عنه ، وفرغنا منه بحسب الوسع من الكلام ، ونسأل الله  
تعالى المباعدين بين حيلات قلوب البشر أن يصرف عنا حجب السكدرات والأهواء ،  
ومراتب الغنى ، فيبده مجارى المقدورات ، وهو إله من ظهر وغبر ، واليه يرجع من آمن  
وكفر ، ومجازى الخلائق بنعيم أو سقر ، والصلاة على سيدنا محمد سيد البشر ، وكفى الضرر  
وعلى آله السادات العرر ، وسلم تسليما والحمد لله رب العالمين



# كتاب تعريف الأحياء بفضائل الأحياء

للأستاذ الفاضل العلامة :

الشيخ عبد القادر بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العبدروس

بأعلى قلبه لله سره

## كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء

بسم الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وفق لنشر المحاسن وطبها في أحسن كتاب ، وجعل ذلك قرّة  
لأعين الأحياء ، وذخيرة ليوم المآب ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي  
أحيا بإحياء شريعته وطريقته قلوب ذوى الألباب ، وعلى آله الطيبين الطاهرين  
وجميع الأصحاب ، ماشرقت شمس الإحياء للقلوب ، وتوجهت همه روحانية  
مصنفة الولي الموهوب ، إلى إسعاف ملازمي مطالعته ومحبيه بالمطلوب .

وبعد : فإن الكتاب العظيم الشأن ، المسمى بإحياء علوم الدين ، المشهور بالجمع  
والبركة والنفع بين العلماء العاملين ، وأهل طريق الله السالكين ، المشايخ العارفين  
المنسوب إلى الإمام الغزالي رضي الله عنه ، عالم العلماء ، وارث الأنبياء ، حجة  
الإسلام ، حسنة الدهور والأعوام ، تلج المجتهدين ، سراج المتجهدين ، مقتدى  
الأئمة ، مبين الحل والحكمة ، زين الملة والدين ، الذي باهى به سيد المرسلين  
صلى الله عليه وسلم ، وعلى جميع الأنبياء ، ورضي عن الغزالي وعن سائر العلماء المجتهدين .  
لما كان عظيم الوقع ، كثير النفع ، جليل المقدار ، ليس له نظير في باب ،  
ولم ينسج على مواله ، ولا سمحت قريحة بمثاله ، مشتملا على الشريعة ، والطريقة  
والحقيقة كاشفا عن الغوامض الخفية ، مبيّنا للأسرار الدقيقة . رأيت أن أضع  
رسالة تكون كالسوان والدلالة ، على صباغة صباغة ، من فضله وشرفه ، ورشحة  
من فضل جامعه ومصنّفه ، ورتبته على مقدمة ، ومقصد ، وخاتمة .

فالمقدمة في عنوان الكتاب ، والمقصد في فضائله وبعض المدائح والتناء من  
الأكابر عليه ، والجواب عما استشكل منه وطمّن بسببه فيه ، والخاتمة في ترجمة  
المصنّف رضي الله عنه ، وسبب رجوعه إلى هذه الطريقة .

## المقدمة

فى عنوان الكتاب

اعلم أن علوم المعاملة التى يتقرب بها إلى الله تعالى . تنقسم إلى ظاهرة وباطنة والظاهرة قسمان : معاملة بين العبد وبين الله تعالى ، ومعاملة بين العبد وبين الخلق . والباطنة أيضا قسمان : مايجب تزكية القلب عنه من الصفات المذمومة ، ومايجب تحلية القلب به من الصفات المحمودة ، وقد بنى الإمام الغزالى رحمه الله كتاب إحياء علوم الدين على هذه الأربعة أقسام ، فقال فى خطبته : ولقد أسسته على أربعة أرباع : ربع العبادات وربع المعاديات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات .

فأما ربع العبادات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب العلم ، كتاب قواعد العقائد ، كتاب أسرار الطهارة ، كتاب أسرار الصلاة ، كتاب أسرار الزكاة ، كتاب أسرار الصيام ، كتاب أسرار الحج ، كتاب تلاوة القرآن ، كتاب الأذكار والدعوات ، كتاب ترتيب الأوراد فى الأوقات .

وأما ربع المعاديات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب آداب الأكل ، كتاب آداب النكاح ، كتاب آداب الكسب ، كتاب الحلال والحرام ، كتاب آداب الصحبة ، كتاب العزلة ، كتاب آداب السفر ، كتاب آداب السماع والوجد ، كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كتاب أخلاق النبوة

وأما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب شرح عجائب القلب ، كتاب رياضة النفس ، كتاب آفة الشهوتين البطن والفرج ، كتاب آفة اللسان ، كتاب آفة الغضب والحقد والحسد ، كتاب ذم الدنيا ، كتاب ذم المال والبخل ، كتاب ذم الجاه والرياء ، كتاب الكبر والعجب ، كتاب الغرور .

وأما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب التوبة . كتاب الصبر والشكر . كتاب الخوف والرجاء ، كتاب الفقر والزهد ، كتاب التوحيد والتوكل ، كتاب المحبة والشوق والرضا ، كتاب النية والصدق والإخلاص ، كتاب المراقبة والمحاسبة ،

كتاب التفكير ، كتاب ذكر الموت .

ثم قال رحمه الله : فأما ربيع العبادات . فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ، ما يضطر العالم العامل إليها ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لم يطلع عليها ، وأكثر ذلك مما أهمل في الفقهيات .

وأما ربيع العادات : فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، ودقائق سننها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وهي مما لا يستغنى المتدين عنها .

وأما ربيع المهلكات : فأذكر فيه كل خاق مذموم ورد القراءان بإماطته وتركية النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر في كل واحد من هذه الأخلاق حده وحقيقته ، ثم سببه الذي منه يتولد ، ثم الآفات التي عليها يترتب ، ثم المعاملات التي بها يتعرف ، ثم طرق المعالجة التي منها يتخلص ، كل ذلك مقرونا بشواهد من الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربيع المنجيات : فأذكر فيه كل خلق محمود ، وخصلة مرغوب فيها ، من خصال المقربين والصديقين التي يتقرب بها العبد من رب العالمين ، وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها ، وسببها الذي به تجتلب ، وثمرتها التي منها تستفاد ، وعلامتها التي بها تعرف وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب ، مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل .

## المقصود

في فضل الكتاب المشار إليه وبعض المدائح والثناء من الأكابر عليه ،

والجواب عما استشكل منه وطعن بسببه فيه

اعلم أن فضائل الإحياء لا تحصى ، بل كل فضيلة له باعتبار حيثياتها لا تستقصى ، جمع الناس مناقبه فقصروا وما قصروا ، وغاب عنهم أكثر مما أبصروا ، وعز من أفردوا فيما علمت بتأليف ، وهي جديرة بالتصنيف ، غاص مؤلفه رضي الله عنه في بحار الحقائق ، واستخرج جواهر المعاني ، ثم لم يرض إلا بكبارها ، وجال في بساطين العلوم ، فاجتنى ثمارها ، بعد أن اقتطف من أزهارها ، وسما إلى سماء المعاني ، فلم يصطف من كواكبها إلا السيارة ، وجلبت عليه عرائس أسرار المعاني ،



فلم ترق في عينه منهن إلا بادية النضارة ، جمع رضي الله عنه فأوعى ، وسعى في إحياء علوم الدين ، فشكر الله له ذلك المسمى ، فله دره ، من طلم محقق مجيد ، وإمام جامع لشتات الفضائل ، محرر فريد ، لقد أبدع فيما أودع كتابه ، من الفوائد الشوارد ، وقد أغرب فيما أعرب فيه من الأمثلة والشواهد ، وقد أجاد فيما أفاد فيه ، وأملى بيد أنه في العلوم صاحب القدح الملقى ، إذ كان رضي الله عنه ، من أسرار العلوم بمحل لا يدرك ، وأين مثله وأصله أصله ، وفضله فضله .

هيهات لا يأتي الزمان بمثله إن الزمان بمثله لشحيح

وما عسيت أن أقول فيمن جمع أطراف المحاسن ، ونظم أشات الفضائل ، وأخذ برقاب المحامد ، واستولى على غايات المناقب ، فشجرت في فواردة العلم ، والعمل والملا ، والفهم ، والذكا أصلها ، وفروعها في السماء ، مع كونه رضي الله عنه ، ذا الصدر الرحيب ، والقريحة الثاقبة ، والدراية الصائبة ، والنفس السامية ، والهمة العالية ذكر الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعي رحمة الله عليه ، أن الفقيه العلامة ، قطب اليمن اسماعيل بن محمد الحضرمي ، ثم اليمنى ، سئل عن تصانيف الغزالي فقال : من جملة جوابه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، سيد الأنبياء ، ومحمد بن إدريس سيد الأئمة ، ومحمد بن محمد بن محمد الغزالي ، سيد المصنفين ، وذكر اليافعي أيضا ، أن الشيخ الإمام الكبير ، أبا الحسن علي بن حرزم ، الفقيه المشهور المغربي ، كان بالغ في الإنكار على كتاب إحياء علوم الدين ، وكان مطاعا ، مسموع الكلمة ، فأمر بجمع ما ظفر به ، من نسخ الإحياء ، وهم بإحراقها في الجامع يوم الجمعة ، فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع ، فإذا هو بالنبي صلى الله عليه وسلم فيه ، ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والإمام الغزالي قائم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أقبل ابن حرزم ، قال الغزالي هذا خصمي يارسول الله ، فإن كان الأمر كما زعم تبنت إلى الله ، وإن كان شيئا حصل لي من بركتك ، واتباع سنتك ، نخذلي حتى من خصمي ، ثم ناول النبي صلى الله عليه وسلم كتاب الإحياء . فتصفحه النبي صلى الله عليه وسلم ، ورقة ورقة ، من أوله إلى آخره ، ثم قال والله إن هذا لشيء حسن ، ثم ناوله الصديق رضي الله عنه ، فنظر فيه فاستجاده ، ثم قال نعم والذي بعثك

بالحق إنه شيء حسن ، ثم ناوله الفاروق عمر رضي الله عنه ، فنظر فيه وأثنى عليه كما قال الصديق ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بتجريد الفقيه علي بن حرزم عن القميص ، وأن يضرب ويمجد ، حد المفتري ، فجرد وضرب ، فلما ضرب خمسة أسواط تشفع فيه الصديق رجلي الله عنه ، وقال يا رسول الله لعله ظن خلاف سنتك فأخطأ في ظنه ، فرضي الإمام الغزالي وقبل شفاعته الصديق ، ثم استيقظ ابن حرزم ، وأثر السياط في ظهره ، وأعلم أصحابه ، وتاب إلى الله ، عن إنكاره على الإمام الغزالي واستغفر ، ولكنه بقي مدة طويلة متألماً من أثر السياط ، وهو يتضرع إلى الله تعالى ، وينشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى أن رأى النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه ومسح بيده الكريمة على ظهره ، فعوفي وشفني بإذن الله تعالى ، ثم لازم مطالعة إحياء علوم الدين ، ففتح الله عليه فيه ، ونال المعرفة بالله ، وصار من أكابر المشايخ ، أهل العلم الباطن والظاهر ، رحمه الله تعالى .

قال الياقبي : روينا ذلك بالأسانيد الصحيحة ، فأخبرني بذلك ولي الله عن ولي الله عن ولي الله عن ولي الله الشيخ الكبير ، القطب شهاب الدين أحمد ابن الملق الشاذلي ، عن شيخه الشيخ الكبير ، العارف بالله ياقوت الشاذلي ، عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله أبي العباس المرسى ، عن شيخه الشيخ الكبير ، شيخ الشيوخ أبي الحسن الشاذلي ، قدس الله أرواحهم ، وكان معاصراً لابن حرزم . قال : وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ، ولقد مات الشيخ أبو الحسن بن حرزم رحمه الله يوم مات ، وأثر السياط على ظهره ، وقال الحافظ بن عساكر رحمه الله : وكان أدرك الإمام الغزالي واجتمع به ، قال : سمعت الإمام الفقيه الصوفي سعد بن علي بن أبي هريرة الاسفرايني ، يقول : سمعت الشيخ الإمام الأوحدي ، زين القراء جمال الحرم ، أبا الفتح الشاوي بمكة المشرفة يقول : دخلت المسجد الحرام يوماً ، فطراً علي حال وأخذني عن نفسي فلم أقدر أن أقف ولا أجلس لشدة ما بي ، فوقعت على جنبي الأيمن ، تجاه السكبة المعظمة وأنا على طهارة ، وكنت أطرده عن نفسي النوم ، فأخذتني سنة بين النوم واليقظة ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في أكمل صورة ، وأحسن زي من القميص والعمامة ، ورأيت الأئمة ، الشافعي ، ومالك ، وأبا حنيفة ، وأحمد ، رحمهم الله ، يمرضون

عليه مذهبهم واحداً بعد واحد وهو ، صلى الله عليه وسلم يقررهم عليها . ثم جاء شخص من رؤساء المبتدعة ليدخل الحلقة ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بطرده ، وإهانتة فتقدمت أنا وقلت يا رسول الله هكذا الكتاب ، أعني إحياء علوم الدين معتقدي ، ومعتقد أهل السنة والجماعة . فلو أذنت لي حتى أقرأ عليك ، فأذن لي ، فقرأت عليه من كتاب قواعد العقائد : بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول : الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة ، حتى انتهيت إلى قول الغزالي ، وأنه تعالى بعث النبي الأبي القرشي محمداً صلى الله عليه وسلم إلي كافة العرب والعجم ، والجن والإنس ، فرأيت البشاشة في وجهه صلى الله عليه وسلم ، ثم التفت وقال : أبني الغزالي وإذا بالغزالي واقف بين يديه فقال : ها أنا ذا يا رسول الله وتقدم وسلم فرد عليه السلام عليه الصلاة والسلام ، وناولته يده الكريمة فأكب عليها الغزالي يقبلها ويتبرك بها ، وما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، أشد سروراً بقراءة أحد عليه ، مثل ما كان بقراءتي عليه الإحياء ، ثم انتهيت والدمع يجري من عيني من أثر تلك الأحوال والكرامات ، وكانت تقريره صلى الله عليه وسلم لمذاهب أئمة السنة واستبشاره بعقيدة الغزالي وتقريرها ، نعمة من الله عظيمة ، ومنة جسيمة ، نسأل الله تعالى أن يحيينا على سنته ويتوفانا على ملته آمين

## فصل

أثنى على الإحياء عالم من علماء الإسلام ، وغير واحد من عارفي الأنام ، بل جمع أقطاب وأفراد . فقال فيه الحافظ : الإمام الفقيه أبو الفضل العراقي في تخريجه ، أنه من أجل كتب الإسلام ، في معرفة الحلال والحرام ؛ جمع فيه بين ظواهر الأحكام ونزع إلى سرائر دقت عن الأفهام ، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الوجوع إلى الساحل ، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن ، ومزج معانيها في أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه ، مقتدياً بقول علي كرم الله وجهه ، خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالي ، ويرجع إليهم الغالي ، إلى آخر ما ذكره ، مما الأولى بنا في هذا المحل طيه ، ثم الانتقال إلى نشر

محاسن الإحياء ، يظهر للمحب والمبغض رشده رعباً

وقال عبد الغافر الفارسي : في مثال الإحياء أنه من تصانيفه المشهورة التي لم يسبق إليها . وقال فيه النووي : كاد الإحياء أن يكون قرأنا ، وقال الشيخ أبو محمد الكازروني : لو بحث جميع العلوم لاستخرجت من الإحياء ، وقال بعض علماء المالكية : الناس في فضل علوم الغزالي ، أي والإحياء جماعها ، كما سيأتي أنه البحر المحيط ، وكان السيد الجليل كبير الشأن ، تاج العارفين ، وقطب الأولياء الشيخ عبد الله العبدروس رضي الله عنه يكاد يحفظه نقلاً . وروي عنه أنه قال : مكثت سنين أطالع كتاب الإحياء ، كل فصل وحرف منه وأعوده وأتدبره ، فيظهر لي منه في كل يوم ، علوم وأسرار عظيمة ، ومفاهيم غزيرة غير التي قبلها ، ولم يسبقه أحد ، ولم يلحقه أحد ، أتني على كتاب الإحياء ، بما أتني عليه ، ودعا الناس بقوله وفعله إليه وحث على التزام مطالعته والعمل بما فيه ، ومن كلامه رضي الله عنه عليكم يا إخواني بتابعة الكتاب والسنة ، أعني الشريعة المشروحة في الكتب الغزالية ، خصوصاً كتاب ذكر الموت ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوبة ، وكتاب رياضة النفس ، ومن كلامه : عليكم بالكتاب ، والسنة أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً وفكراً واعتباراً واعتقاداً ، وشرح الكتاب والسنة مستوفى في كتاب إحياء علوم الدين ، للإمام حجة الإسلام الغزالي رحمه الله ونفعنا به . ومن كلامه وبعد : فليس لنا طريق ومنهاج سوى الكتاب والسنة ، وقد شرح ذلك كله سيد المصنفين ، وبقية المجتهدين ، حجة الإسلام الغزالي ، في كتابه العظيم الشأن ، الملقب أمجوبة الزمان إحياء علوم الدين ، الذي هو عبارة عن شرح الكتاب والسنة والطريقة .

ومن كلامه : عليكم بملزمة كتاب إحياء علوم الدين ، فهو موضع نظر الله ، وموضع رضا الله ، فمن أحبه وطالعه وعمل بما فيه ، فقد استوجب محبة الله ، ومحبة رسول الله ، ومحبة ملائكة الله وأنبيائه وأوليائه ، وجمع بين الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة ، في الدنيا والآخرة وصار عالماً في الملك والملكوت .

ومن كلامه الوجيز العزيز : لو بعث الله الموتى لما أوصوا الأحياء إلا بما في الإحياء ومن كلامه : اعلّموا أن مطالعة الإحياء تحضر القلب الغافل في لحظة ، كحضور سواد

الحبر بوقوع الزاج في المفص والماء، وتأثير كتب الغزالي واضح ظاهر شرب عند كل مؤمن  
ومن كلامه : أجمع العلماء العارفون بالله على أنه لا شيء أنفع للقلب ، وأقرب إلى رضا  
الرب من متابعة حجة الإسلام الغزالي ، ومحبة كتبه ، فإن كتب الإمام الغزالي ، لباب  
الكتاب والسنة ، ولباب المعقول والمنقول ، والله وكيل على ما أقول .

ومن كلامه : أنا أشهد سراً وعلاية ، أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين ، فهو من  
المهتدين . ومن كلامه : من أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق العارفين بالله  
وطريق العلماء بالله ، أهل الظاهر والباطن ، فعليه بمطالعة كتب الغزالي ، خصوصاً إحياء  
علوم الدين ، فهو البحر المحيط . ومن كلامه : اشهدوا على أن من وقع على كتب الغزالي  
فقد وقع على عين الشريعة والطريقة والحقيقة . ومن كلامه : من أراد طريق الله ورسوله  
ورضاها فعليه بمطالعة كتب الغزالي ، وخصوصاً البحر المحيط إحياءه أعجوبة الزمان .  
ومن كلامه : نطق معاني معنوى القراءان ، ولسان حال قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وقلوب الرسل والأنبياء ، وجميع العلماء بالله وجميع العلماء بأمر الله الأتقياء ، بل جميع  
أرواح الملائكة ، بل جميع فرق الصوفية ، مثل العارفين والملازمة ، بل جميع سر حقائق  
الكائنات والمعقولات ، وما يناسب رضا الذات والصفات ، أجمع هؤلاء المذكورون ،  
أن لا شيء أرفع وأنفع وأبهى وأبهج وأتقى وأقرب إلى رضا الرب ، متابعة الغزالي ومحبة  
كتبه ، وكتب الغزالي قلب الكتاب والسنة ، بل قلب المعقول والمنقول ، وأنفع يوم  
ينفخ اسرافيل في الصور ، وفي يوم نقر النافور ، والله وكيل على ما أقول ( وَمَا الْحَيَاةُ  
الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ <sup>(١)</sup> )

ومن كلامه : كتاب إحياء علوم الدين ، فيه جميع الأسرار ، وكتاب بداية الهداية ،  
فيه التقوى ، وكتاب الأربعين ، الأصل فيه شرح الصراط المستقيم ، وكتاب منهاج  
المأبدن ، فيه الطريق إلى الله ، وكتاب الخلاصة في الفقه ، فيه النور . ومن كلامه : السر  
كله في اتباع الكتاب والسنة ، وهو اتباع الشريعة ، والشريعة مشروحة في كتاب  
إحياء علوم الدين ، المسمى أعجوبة الزمان .

ومن كلامه : يخ يخ لمن طالع إحياء علوم الدين ، أو كتبه ، أو سمعه .  
وكلامه رضى الله عنه ، في تصانيفه وغيرها مشحون من الثناء على الإمام الغزالي وكتبه  
والحث على العمل بها ، خصوصا إحياء علوم الدين ، وقد كانت سيدي ووالدي الشيخ  
العارف بالله تعالى ، شيخ ابن عبد الله العيدروس رضى الله عنه يقول : إن أمهل الزمان  
جمعت كلام الشيخ عبد الله ، في الغزالي وسميته الجوهر المتبلى ، خصوصا من كلام  
الشيخ عبد الله في الغزالي ، فلم يتيسر له ، وأرجو أن يوفقني الله لذلك تحقيقا لرجائه ، ورجاء  
أن يتناولني دعاء الشيخ عبد الله رضى الله عنه ، فإنه قال : غفر الله لمن يكتب كلامي في  
الغزالي ، وناهيك بيشارة في هذه العبارة ، التي برزت من ولي عارف ، وقطب مكاشف ،  
لا يحازف في مقال ، ولا ينطق إلا عن حال ، وفي هذا من الشرف للغزالي وكتبه  
مالا يحتاج معه إلى مزيد ( إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو  
شهيد<sup>(١)</sup> ) فإن العظيم لا يعظم في عينه إلا عظيم ، ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل  
وإذا تصدى العيدروس لتعريفه فقد أغنى تعريفه عن كل تعريف ، ووصف الشهادة منه خير  
من شهادة ألف ألف وحصل من الإحياء في زمانه بسببه نسخ عديدة ، حتى أن بعض العوام حصلها  
لمسارأي من ترغيبه فيه ، وألزم أخاه الشيخ عليا قراءته ، فقرأه عليه مدة حياته خمسا  
وعشرين مرة ، وكان يصنع عند كل ختم ضيافة عامة للفقراء وطلبة العلم الشريف ، ثم  
إن الشيخ عليا ألزم ولده عبد الرحمن قراءته عليه مدة حياته ، فحتمه عليه أيضا خمسا  
وعشرين مرة ، وكان ولده سيدي الشيخ أبو بكر العيدروس صاحب عدن ، التزم بطريقة  
النذر على نفسه مطالعة شيء منه كل يوم ، وكان لا يزال يحصل منه نسخة بعد نسخة  
ويقول : لا أترك تحصيل الإحياء أبدا ما عشت ، حتى اجتمع عنده منه نحو عشر نسخ .  
قلت : وكذلك كان سيدي الشيخ الوالد شيخ ابن عبد الله بن شيخ بن الشيخ عبد الله  
العيدروس رضى الله عنه ، مدمنا على مطالعته وحصل منه نسخا عديدة نحو السبع ، وأمر  
بقراءته عليه غير مرة ، وكان يعمل في ختمه ضيافة عامة ، فلازمته ميراث عيدروسى ،  
وتوفيق قدوسى : فن وفقه الله لامتهاله والعمل بما فيه واستعماله بلغ الرتبة العليا ،

وجاز شرف الآخرة والدنيا .

وقال السيد الكبير العارف بالله الشهير على بن أبي بكر بن الشيخ عبد الرحمن السقاف  
لو قلب أوراق الإحياء كافر لأسلم ، فقيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس قلت :  
وهو صحيح فإني مع خسيس قصدي وقساسة قلبي أجد عند مطالعتي له من انبعاث  
الهمة وعزوف النفس عن الدنيا مالا مزيد عليه ، ثم يفتقر برجوعي إلى ما أنا فيه ، ونخلة  
أهل الكفافات ، ولا أجد ذلك عند مطالعة غيره من كتب الوعظ والرقائق وما ذاك  
إلا لشيء أودعه الله فيه وسر نفس مصنفه ، وحسن قصده ، والمراد بالكافر هنا  
فيما يظهر الجاهل لعبوب النفس ، المحجوب عن إدراك الحق أي فبمجرد مطالعته  
للكتاب المذكور يشرح الله صدره ، وينور قلبه ، وذلك لأن الوعظ اذا صدر عن قلب  
متعظ كان حريا أن يتمظ به سامعه ، وكما أن الله تعالى جعل لعباده الذين لا خوف  
عليهم ولا هم يحزنون ، رتبة فوق غيرهم ، كذلك جعل لما يبرز منهم ، ويؤخذ عنهم  
بركة زائدة على غيره لأن ألسنتهم كريمة ، وأنوار قلوبهم عظيمة ، وهمهم عالية ،  
وإشاراتهم سنية ، حتى يكون للقرءان أثر عظيم عند سماعه منهم ، وللأحاديث بهجة  
وجلالة زائدة إذا أخذت عنهم ، وللمواعظ منهم تأثير في القلوب ظاهر ، ولعلومهم  
وفقههم أنوار ونفع متظاهر ، حتى تجد الرجل له العلم القليل ، وبعد ذلك ينتفع  
به كثير ، لحسن نيته ، ووجود بركته ، وغيره له أكثر من ذلك العلم ، ولم ينتفع  
به مثله ، لأنه دونه في منزلته ، ومن تأمل ذلك وجد أنه أمرا ظاهرا معهودا . وشيئا  
مغربا موجودا ، فانظر إلى نفع الناس ، بكتاب الخلاف في مذهب مالك رحمه الله تعالى ؛  
والتنبيه في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ، والجل في المرية والإرشاد في علم  
الكلام ، وانتشارها مع أن ماحوت من العلم في فنونها قليل ، وقد جمع غير هؤلاء  
في هذه الفنون في مثل أجرام هذه الكتب أضاف ما فيها ، مع تحقيق تحرير العبارات  
وتشقيق المعاني ، وتلخيص الحدود بعد هذا ، فالنفع بهذه أكثر ، وهي أظهر وأشهر ،  
لأن العلم بمزيد التقوى ، وقوة سر الإيمان ، لا بكثرة الذكاء وفصاحة اللسان ،  
كما بين ذلك مالك رحمه الله تعالى بقوله : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم نور يضعه

الله في القلب قلت ومما أنشده الشيخ علي بن أبي بكر رضي الله عنه، انفسه فيه قوله :

أخى انتبه والزم سلوك الطرائق  
أيا طالبا شرح الكتاب وسنة  
وايضاح منهج للحقيقة مشرق  
واجلاء أذكار المعاني ضواحا  
عليك بإحياء العلوم ولها  
وكم من لطيفات لذي اللب منهل  
كتاب جليل لم يصنف  
فكم في بديع اللفظ يجلي عرائسا  
معانيه أضحت كالبدور سواطعا  
وكم من عزيزات زهت في قبائها  
وكم من لطيف مع بديع وتحفة  
بساتين عرفان ورض لطائف  
رعى الله صبارا تعافى جناها  
ويقطع من ذا كي جناها فواكها  
خضم طمى حتى علا فوق من علا  
فإن لم بهذا القول تؤمن فجرين  
وارجع طرفا في بديع جمالها  
ترى في بدور الحي أقمار قد بدت  
فكم انهل صبا وكم قشمت عمى  
فيضحي براح الحب سكران مغرما  
ويعسى يناديها طريقا يبابها  
صلاة على سر الوجود شفيقنا  
وأصحابه أهل المسكارم والعلا

رسارع إلى المولى بمجد وسابق  
وقانون قلب القلب بحر الرقائق  
وشرب حيا صفو راح الحقائق  
يباهج حسن جاذب للخلائق  
وأسرارها كم قد حوى من دقائق  
وكم من مليحات سبت لب حاذق  
فبله ولا بعده مثل له في الطرائق  
وكم من شمس في حماء شوارق  
على در لفظ للمعاني مطابق  
محجة من غير كفؤ مسابق  
حلاوتها كالشهد تخلو لذائق  
وجنة أنواع العلوم الفوائق  
بروح ويندو بين تلك الحقائق  
بساحل بحر بالجواهر دافق  
بشامخ مجد مشرق بالحقائق  
وأقبل على تلك المعاني وعائق  
وطف في حماها منشدا كل سابق  
بمالي جمال مدهش لب عاشق  
وكم قد سعت في غربها والمشارق  
أصم عن العذال غير موافق  
منعم عيش في الربوع الفوائد  
محمد المختار خير الخلائق  
وعترته وراث علم الخلائق



## فصل

وأما ما أنكر عليه فيه من مواضع مشكلة الظاهر وفي التحقيق لا إشكال أو أخبار وآثار تكلم في سندها . فأما من جهة تلك المواضع فمن أجاب عنها المصنف نفسه في كتابه المسمى بالأجوبة ، وأسوق لك نبذة من ذلك هنا . قال رحمه الله : سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقبها ، وقرب لك مقامات الأولياء تحل معاليها ، عن بعض ما وقع في الإيماء المقلب بالإحياء ، عما أشكل على من حجب وقصر فهمه ، ولم يفز بشيء من الحظوظ المليّة قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شاهده من شركاء الضمّام ، وأمثال الأنعام ، وأتباع العوام ، وسفهاء الأحلام : وعار أهل الإسلام ، حتى طعنوا عليه ، ونهوا عن قراءته ومطالعة ، وأفتوا بالهوى ، مجردا على غير بصيرة ، بإطراحه ومناذته ، ونسبوا مما به إلى ضلال وإضلال . ورموا قراءه ومتحليه بزيف عن الشريعة واختلال ، إلى أن قال ( سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ <sup>(١)</sup> ) ثم ذكر آيات أخرى في المعنى ، ثم وصف الدهر وأهله ، وذهاب العلم وفضله ، ثم ذكر عذر المعترضين ، بما يرجع حاصلها إلى الحسد وإلى الجهل وقلة الدين ، بل أفصح بذلك في الآخر حيث قال : حجبوا عن الحقيقة بأربعة ، الجهل ، والإصرار ، ونعجة الدنيا وإظهار الدعوى ، ثم بين ما ورثوه عن الأربعة المذكورة ، فالجهل أورثهم السخف ، إلى آخر ما ذكره . وأما ما اعترض به من تضمنه أخباراً وآثاراً موضوعاً أو ضعيفاً ، وإكثاره من الأخبار والآثار ، والإكثار يتحاشى منه المتورع لئلا يقع في الموضوع ، وحاصل ما أجيب به عن الغزالي ومن المجيبين الحافظ العراقي أن أكثر ما ذكره الغزالي ليس بموضوع كما برهن عليه في التخريج ، وغير الأكثر وهو في غاية القلة ، رواه عن غيره أو اتبع فيه غيره متبرئاً منه بنحو صيغة روي . وأما الاعتراض عليه أن فيما ذكره الضعيف بكثرة ، فهو اعتراض ساقط لما تقرر أن يعمل به في الفضائل ، وكتابه في الرقائق فهو من قبيلها ولأن له أسوة بأئمة الأئمة الحفاظ في اشتغال كتبهم على الضعيف بكثرة المنبه على ضعفه

تارة والمسكوت عنه أخرى، وهذه كتب الفقه للمتقدمين، وهي كتب الأحكام لا الفضائل  
توردون فيها الأحاديث الضعيفة ساكتين عليها، حتى جاء النووي رحمه الله في المتأخرين  
ونبه على ضعف الحديث، وخلافه كما أشار إلى ذلك كله العراقي، قال عبد الغافر الفارسي  
مبسط القشيري، ظهرت تصانيف الغزالي وفشت، ولم يبد في أيامه مناقضة لما كان فيه  
ولا لما آثره إلى آخر ما ذكره، ومما يدل على جلالة كتب الغزالي، ما نقل ابن السمعاني  
من رؤيا بعضهم فيما يرى النائم، كأن الشمس طلعت من مغربها، مع تعبير ثقات المعبرين  
يُدّعى تحدث، فحدثت في جميع المغرب بدعة الأمر بإحراق كتبه، ومن أنه لما دخلت  
مصنّفاته إلى المغرب، أمر سلطانه علي بن يوسف بإحراقها، لتوهّم اشتغالها على الفلسفة  
وتوعد بالقتل من وجدت عنده بعد ذلك، فظهر بسبب أمره في مملكته مناكير، ووثب  
عليه الجند، ولم يزل من وقت الأمر والتوعد، في عكس ونكد، بعد أن كان عادلا.

## خاتمة

في الإشارة إلى ترجمة المصنف رضي الله عنه وعنا به ونفعنا بعلومه وأسراره

وسبب رجوعه إلى طريقة الصوفية رضي الله عنهم

أما ترجمته رضي الله عنه : فهو الإمام زين الدين، حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد  
ابن محمد الغزالي الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي الأشعري الذي انتشر فضله  
في الآفاق وفاق، ورزق الحظ الأوفر في حسن التصانيف وجودتها والنصيب الأكبر  
في جزالة العبارة وسهولتها، وحسن الإشارة، وكشف المضلات، والتبحر في أصناف  
المعلوم، فروعها، وأصولها، ورسوم القدم في منقولها ومعقولها، والتحكم والاستيلاء  
على إجمالها وتفصيلها، مع ما خصه الله به من الكرامة، وحسن السيرة والاستقامة، والزهد  
والعزوف عن زهرة الدنيا، والإعراض عن الجهات الفانية، وإطراح الحشمة والتكلف،  
قال الحافظ العلامة ابن عساكر: والشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي، والفقيه  
جمال الدين عبد الرحيم الإسنبوي رحمهم الله تعالى، ولد الإمام الغزالي بطوس سنة خمسين وأربعمائة  
وابتدأ بها في صباه بطرف من الفقه، ثم قدم نيسابور ولازم دروس إمام الحرمين وجد

واجتهد ، حتى تخرج في مدة قريية ، وصار أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه ، وجلس للإقراء وإرشاد الطلبة في أيام إمامه وصنف ، وكان الإمام يتجسس به ويعتد بمكانه منه ، ثم خرج من نيسابور ، وحضر مجلس الوزير نظام الملك ، فأقبل عليه ، وحل منه محلا عظيما ، اعلو درجته ، وحسن مناظرته ، وكانت حضرة نظام الملك محط الرجال العلماء ، ومقصد الأئمة والفضلاء ، ووقع للإمام الغزالي فيها اتفاقات حسنة ، من مناظرة الفحول فظهر اسمه ، وطار صيته ، فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد ، للقيام بتدريس المدرسة النظامية ، فسار إليها ، وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، فصار إمام العراق ، بعد أن حاز إمامة خراسان ، وارتفعت درجته في بغداد ، على الأمراء ، والوزراء ، والأكابر ، وأهل دار الخلافة ، ثم انقلب الأمر من جهة أخرى ، فترك بغداد ، وخرج عما كان فيه من الجاه والحشمة ، مشتغلا بأسباب التقوى ، وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق إليها ، مثل إحياء علوم الدين وغيره ، التي من تأملها عرف محل مصنفها من العلم . قيل أن تصانيفه وزعت على أيام عمره فأصاب كل يوم كراس ، ثم سار إلى القدس ، مقبلا على مجاهدة النفس ، وتبديل الأخلاق ، وتحسين الشرائع ، حتى مرن على ذلك ، ثم عاد إلى وطنه طوس ؛ لازما بيته ، مقبلا على العبادة ، ونصح العباد وإرشادهم ، ودعائهم إلى الله تعالى ، والاستعداد للدار الآخرة ، مرشد الضالين ، ويفيد الطالبين ، دون أن يرجع إلى ما انخلع عنه من الجاه والمباهاة ، وكان معظم تدريسه في التفسير والحديث والتصوف حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى ، يوم الإثنين الرابع عشر من جمادي الأولى سنة خمس وخمسمائة ، خصه الله تعالى بأنواع الكرامة في أخراه ، كما خصه بها في دنياه .

قيل وكانت مدة القطيعة للغزالي ثلاثة أيام على ما حكى في كرامات الشيخ سعيد العمودي تقع الله به ، وذكر الشيخ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي رحمه الله تعالى بإسناده الثابت ، إلى الشيخ الكبير القطب الرباني ، شهاب الدين أحمد الصياد البيني الزبيدي ، وكان معاصرا للغزالي ، نفع الله بهما ،

قال : بينما أنا ذات يوم قاعد ، إذ نظرت إلى أبواب السماء مفتحة ، وإذا عصبة من الملائكة الكرام قد نزلوا معهم خلع خضر ، ومركوب نفيس ، فوقفوا على قعر

من القبور ، وأخرجوا صاحبه وأبسوه الخلع ، وأركبوه وصعدوا به من سماء إلى سماء إلى أن جاوز السموات السبع ، وخرق بعدها ستين حجابا ، ولا أعلم أين بلغ انتهاؤه ، فسألت عنه فقيل لي هذا الإمام الغزالي ، وكان ذلك عقيب موته رحمه الله تعالى .

ورأى في النوم السيد الجليل أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم وقد باهى موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام بالإمام الغزالي وقال : أفي أمتك حبر هكذا ؟ قالا : لا وكان الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه يقول لأصحابه : من كانت له منكم إلى الله حاجة فليتوسل بالغزالي . وقال جماعة من العلماء رضي الله عنهم : منهم الشيخ الإمام الحافظ بن عساكر في الحديث الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في أن الله تعالى يحدث لهذه الأمة من يجدد لها دينها على رأس كل مائة سنة ، أنه كان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الثالثة الإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الرابعة أبو بكر الباقلاني رضي الله عنه ، وعلى رأس المائة الخامسة أبو حامد الغزالي رضي الله عنه .

وروي ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في الإمامين الأولين أعني عمر ابن عبد العزيز والشافعي ، ومنافيه رضي الله عنه أكثر من أن تحصر ، وفيما أوردناه مقنع وبلاغ ومن مشهورات مصنفاته ، البسيط ، والوسيط ، والوجيز والخلاصة في الفقه ، وإحياء علوم الدين ، وهو من أنفس الكتب وأجملها ، وله في أصول الفقه المستصفي ، والمنخول والمنتحل في علم الجدل ، وتهافت الفلاسفة ، ومحك النظر ، ومعيار العلم ، والمقاصد والفضنون به على غير أهله ، ومشكاة الأنوار ، والمنقذ من الضلال ، وحقيقة القولين ، وكتاب ياقوت التأويل في تفسير التنزيل أربعين مجلدا ، وكتاب أسرار علم الدين ، وكتاب منهاج العابدين ، والدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة ، وكتاب الأنيس في الوحدة ، وكتاب القربة إلى الله عز وجل ، وكتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار وكتاب بداية الهداية ، وكتاب جواهر القرآن ، والأربعين في أصول الدين ، وكتاب المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، وكتاب ميزان العمل ، وكتاب القسطاس المستقيم

وكتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة ، وكتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة  
وكتاب مبادئ الغايات ، وكتاب كيمياء السعادة ، وكتاب تليس إبليس ، وكتاب  
نصيحة الملوك ، وكتاب الاقتصاد في الاعتقاد ، وكتاب شفاء العليل في القياس والتعليل  
وكتاب المقاصد ، وكتاب إجماع العوام عن علم الكلام ، وكتاب الانتصار ، وكتاب  
الرسالة الدنية ، وكتاب الرسالة القدسية ، وكتاب إثبات النظر ، وكتاب المأخذ ،  
وكتاب القول الجميل في الرد على من غير الإنجيل ، وكتاب المستظهرني ، وكتاب الأمل  
وكتاب في علم أعداد الوقف وحدوده ، وكتاب مقصد الخلاف ، وجزء في الرد على  
المنكرين في بعض ألفاظ إحياء علوم الدين ، وكتبه كثيرة وكلها نافعة .

وقال يمدحه تلميذه الشيخ الإمام أبو العباس الأفلحشي المحدث الصوفي صاحب  
كتاب النجم والكواكب .

أبا حامد أنت المخلص بالمجد	وأنت الذي علمتنا سنن الرشيد
وضعت لنا الإحياء تحيي نفوسنا	وتنقذنا من طاعة النازع المردى
فرب عبادات وعادته التي	يعاقبها كالدر نظم في العقد
وثالثها في المهلكات وإياه	لمنج من الهلك المبرح والبعد
ورابعها في المنجيات وإياه	ليسرح بالأرواح في جنة الخلد
ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر	ومنها صلاح للقلوب من الحقد

وأما سبب رجوعه إلى هذه الطريقة واستحسانه لها فذكر رحمه الله في كتابه المنقذ  
من الضلال ماصورته ،

أما بعد : فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبث لك غاية العلوم وأسرارها ، وغاية  
المذاهب وأغوارها ، وأحكى لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق  
مع تباين المسالك والطرق ، وما استأجرت عليه من الارتفاع من حضيض التقليد إلى  
يفاع الاستنبصار ، وما استفدته أولاً من علم الكلام ، وما احتويته من طرق أهل  
التعليم ، القاصرين لدرك الحق على تعليم الإمام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق أهل الفلسف

وما ارتضيته آخر من طرق أهل التصوف ، وما تنحل لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل أهل الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعاني إلى معاودته بنيسابور بعد طول المدة . فابتدرت لأجابتك إلى طلبتك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك . فقلت مستمعينا بالله تعالى ومتوكلنا عليه ومستوفقا منه ، وملتبجا إليه

• اعلموا أحسن الله إرشادكم ، ولأن إلى قبول الحق اتقيادكم . أن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحر عميق غرق فيه الأكثرون ، وما بجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي ، ( كلُّ حزبٍ بِمَا لَيْسَ لَهُمْ قُرْحُونَ <sup>(١)</sup> )

ولم أزل في عنفوان شباني مذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين ، إلى أن أناف السن على الحسين ، أقتحم لجة البحر العميق ، وأغمرته خوض الجسور ، لاخوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأتكشف أسرار مذاهب كل طائفة ، لأميز بين كل بحق ومبطل ، ومستن ومبتدع ، لأغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته ، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على فلسفته ولا متكلما إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته ، ولا متعبدا إلا وأريد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جراته في تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمرى وربعان عمرى ، غريزة من الله ، وفطرة وضعاها الله في جبتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عني العقائد المروية على قرب عهد مني بالصبا ، فإذا رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا يكون لهم نشء إلا على اليهود ، وصبيان الإسلام لا يكون لهم نشء إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروى عن النبي

صلى الله عليه وسلم « كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ وَيُنَصْرَانِهِ وَنَجَسَانِهِ » فتحرك باطنى إلى طلب الفطرة الأصلية ، وَحَقِيقَةُ الْعَقَائِدِ الْعَارِضَةِ بِتَقْلِيدِ الْوَالِدِينَ ، وَالْأَسْتَازِينَ ، وَالْمَنِيْزِ بَيْنَ هَذِهِ التَّقْلِيدَاتِ ، وَأَوَائِلِهَا تَلْقِيْنَاتٌ ، وَفِي تَمِيْزِ الْحَقِّ مِنْهَا مِنَ الْبَاطِلِ اخْتِلَافَاتٌ .

فقلت فى نفسى أولا : إِنَّمَا مَطْلُوبِى الْعِلْمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ ، وَلَا بَدَّ مِنْ طَلَبِ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ مَا هِىَ ، فَظَهَرَ لِى أَنَّ الْعِلْمَ الْيَقِيْنَ هُوَ الَّذِى يَنْكَشِفُ فِيهِ الْمَعْلُومُ انْكَشَافًا لَا يَبْقَى مَعَهُ رَيْبٌ ، وَلَا يَقَارَنُهُ إِمْكَانُ الْغَلْطِ كَالْوَهْمِ ، وَلَا يَتَسَعُّ الْعَقْلُ لِتَقْدِيرِ ذَلِكَ ، بَلِ الْأَمَانُ مِنَ الْخَطَا ، يَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ مَقَارِنًا لِلنَّقْصِ ، مَقَارِنَةً لَوْ تَحْدَى بِإِظْهَارِ بَطْلَانِهِ مِثْلًا ، مِنْ يَقْلِبِ الْحَجَرَ ذَهَبًا ، وَالْعَصَا ثَعْبَانًا ، لَمْ يَوْرَثْ ذَلِكَ شَكًا وَإِمْكَانًا ، فَإِنِى إِذَا عَلِمْتُ أَنَّ الْعِشْرَةَ أَكْثَرَ مِنَ الْوَاحِدِ ، لَوْ قَالَ لِي قَائِلٌ ، الْوَاحِدُ أَكْثَرُ مِنَ الْعِشْرَةِ ، بِدَلِيلِ أَنِّى أَقْلِبُ هَذِهِ الْعَصَا ثَعْبَانًا ، وَقَلْبُهَا وَشَهِدْتُ ذَلِكَ مِنْهُ ، لَمْ أَشْكُ فِى مَعْرِفَتِي لِكُذْبِهِ ، وَلَمْ يَحْصُلْ مَعِى مِنْهُ إِلَّا التَّعْجِبُ مِنْ كَيْفِيَّةِ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ ، وَأَمَّا الشَّكُّ فِيمَا عَلِمْتُهُ ، فَلَا تُمَّ عَلِمْتُهُ ، أَنْ كُلَّ مَا لَا أَعْلَمُهُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ، وَلَا أَتَيْقَنُهُ مِنْ هَذَا النُّوعِ مِنَ الْيَقِيْنَ ، فَهُوَ عِلْمٌ لَا ثِقَّةَ بِهِ ، وَكُلُّ عِلْمٍ لَا أَمَانَ مَعَهُ ، لَيْسَ بِعِلْمٍ يَقِيْنِي ، ثُمَّ قَنَسْتُ عَنْ عِلْمِي ، فَوَجَدْتُ نَفْسِي حَاطِلًا ، عَنْ عِلْمٍ مُوصُوفٍ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، إِلَّا فِى الْحَسِيَّاتِ وَالضَّرُورِيَّاتِ ، فَقُلْتُ الْآنَ بَعْدَ حَصُولِ الْيَأْسِ ، لَا مَطْمَعُ فِى اقْتِبَاسِ الْمُسْتَقِيْنَاتِ إِلَّا مِنَ الْجَلِيَّاتِ ، وَهِيَ الْحَسِيَّاتِ وَالضَّرُورِيَّاتِ ، فَلَا بَدَّ مِنْ إِحْكَامِهَا أَوَّلًا : لِأَتَبَيَّنَ أَنَّ يَقِيْنِي بِالْمَحْسُوسَاتِ ، وَأَمَانِي مِنَ الْغَلْطِ فِى الضَّرُورِيَّاتِ مِنْ جَنْسِ أَمَانِي الَّذِى كَانَ مِنْ قَبْلِ فِى التَّقْلِيدَاتِ ، أَوْ مِنْ جَنْسِ أَمَانِ أَكْثَرِ الْخَلْقِ فِى النِّظَرِيَّاتِ ، وَهُوَ أَمَانُ مُحَقِّقٍ ، لَا تَجَوُّزَ فِيهِ وَلَا غَائِلَةً لَهُ ، فَأَقْبَلْتُ بِجِدِّ بَلِيْغٍ أَتَأَمَّلُ فِى الْمَحْسُوسَاتِ وَالضَّرُورِيَّاتِ أَنْظُرَ هَلْ يُمْكِنُنِى أَشْكُكَ نَفْسِي فِيهَا ، فَانْتَهَى بَعْدَ طَوْلِ التَّشَكُّكِ بِنِى إِلَى أَنَّهُ لَمْ تَسْمَحْ نَفْسِي بِتَسْلِيمِ الْأَمَانِ فِى الْمَحْسُوسَاتِ ، وَأَخَذَ يَتَسَعُّ الشَّكُّ فِيهَا ، ثُمَّ إِلَى ابْتِدَآتِ لَعَلِّ الْكَلَامِ ، فَخَصَلَتْهُ وَعَلَقَتْهُ ، وَطَالَمْتُ كُتُبَ الْمُحَقِّقِينَ مِنْهُمْ ، وَصَنَفْتُ مَا أَرَدْتُ أَنْ أَصْنِفَهُ ، فَصَادَفْتُهُ عَالِمًا وَافِيًا بِمَقْصُودِهِ ، غَيْرَ وَافٍ بِمَقْصُودِي ، وَلَمْ أَزَلْ أَتَفَكَّرُ فِيهِ مَدَّةً ، وَأَنَا بَعْدَ عَلَى مَقَامِ الْإِخْتِيَارِ أَصَمُّ عَزِى عَلَى الْخُرُوجِ عَنْ بَعْدَادٍ ، وَمَفَارِقَةِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ يَوْمًا ، وَأَحْلَى الْعَزْمِ

يوما ، وأقدم فيه رجلا ، وأؤخر فيه أخرى ، ولا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة ، إلا حمل عليها جند الشهوة جملة ، فيغيرها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى ، بسبب ميلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ماأنت فيه من العمل رياء وتخييل ، وإن لم تستعد الآن للآخرة فتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن هذه الملائق فتى تقطعها ، فعند ذلك تنبعث الرغبة وينجزم الأمر على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فإنها سريمة الزوال ، وإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه الطويل العريض . والشأن العظيم الخالى عن التكدير والتنقيص ، والأمر السالم الخالى عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت إليه نفسك ، ولا تنسرك المعادة ،

فلم أزل أتردد بين التجاذب بين شهوات الدنيا والدواعي ، قريبا من ستة أشهر ، أولها رجب من سنة ست وثمانين وأربعمائة ، وفي هذا الشهر جاز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ قفل الله على لسانى ، حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا تطيبها لقلوب المختلفة إلى ، فكان لاينطق لسانى بكلمة ، ولا أستطيعها ألبتة ، حتى أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب ، بطلت معه قوة الهضم وصرى الطعام والشراب ، وكان لا تنساع لى شربة ولا تنهضم لى لقمة ، وتعدى ذلك إلى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم فى العلاج ، وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج ، إلا بأن يتروح السر عن الهم المهم ، ثم لما أحسست بهجزي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت إلى الله التجاء المضطر الذى لا حيلة له . فأجانبى الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبى الإعراض عن المال والجاه ، والأهل والأولاد ، وأظهرت غرض الخروج إلى مكة ، وأنا أدبر فى نفسى سفر الشام حذرا من أن يطلع الخليفة ، وجملة الأصحاب على غرضى فى المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد ، على عزم أن لا أعادها أبدا ، واستهزأ بي أئمة المراق كافة إذ لم يكن فيه من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سببا دينيا ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين ، فكان ذلك هو مبلغهم من العلم ، ثم ارتبك الناس



في الاستنباطات ، فظن من بعد عن العراق ، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ، وأما من قرب منهم فكان يشاهد لجأهم في التماق بي والإنكار علي ، واعراضهم عنهم وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون هذا أمر سماوي ، ليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام ، وزمرة العلم ، فقارقت بغداد ، وفارقت ما كان معي من مالى ، ولم أدر من ذلك إلا قدار الكفاف ، وقوت الأطفال ، ترخصا بأن مال العراق مرصد للمصالح ، لكونه وقفا على المسلمين ، ولم أر في العالم ما يأخذ العالم لميال أصلح منه .

ثم دخلت الشام وأقت فيه قريبا من سنتين ، لاشغل إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية ، وكنت أعتكف مدة بمسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسى ، ثم تحركت بي داعية فريضة الحج ، والاستعداد من بركات مكة والمدينة وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه وسلامه ، وثم سرت إلى الحجاز ، ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن وعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن أن أرجع إليه ، وآثرت العزلة ، حرصا على الخلوة : وتصفية القلب للذكر ، وكانت حوادث الزمان ، ومهمات الميال ، وضرورات المعيشة ، تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفونى الحال ، إلا في أوقات متفرقة ، لكن مع ذلك لا أنقطع طمعى عنها ، فيدفعنى عنها الموانق ، وأعود إليها ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها ، واستقصاؤها ، والقدر الذى ينبغى أن نذكره ، ليتفجع به ، أنى علمت يقينا ، أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لوجع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليفيروا شيئا من سيرتهم ، وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرم وبطانهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به

وبالجملة : ماذا يقول القائل في طريقة أول شروطها ، تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحرم في الصلاة ، استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى ، وهو أقواها بالإضافة إلى ما تحت الاختيار . انتهى

قال المراقى : فلما نفذت كلمته ، وبعد صيته ، وعلت منزلته : وشدت إليه الرحال ، وأذعنت له الرجال ، شرفت نفسه عن الدنيا ، واشتأقت إلى الأخرى ، فأطرحها ؛ وسعى في طلب الباقية ، وكذلك النفوس الزكية ، كما قال عمر بن عبد العزيز : إن لى نفساً نوافة لما نالت الدنيا تافت إلى الآخرة ، قال بعض العلماء : رأيت الغزالي رضى الله عنه في البرية وعليه مرقعة ويده عكازه وركوة ، فقلت له يا إمام أليس التدريس ببغداد أفضل من هذا ؟ فنظر إلي شذرا وقال : لما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة وظهرت شمس الوصل

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزل وعدت إلى مصحوب أول منزل  
ونادتنى الأشواق مهلا فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل  
إنهى كتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء بحمد الله وعونه .

## فهرست الجزء السادس عشر

صفحة	صفحة
٢٩٧٤	بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير
٢٩٧٦	كيفية التصديق بشيء غير مشاهد
٢٩٧٨	بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما
	وضغطة القبر وبقيّة القول في
٢٩٧٩	عذاب القبر
٢٩٨٢	عدم تغير العقل بالموت
٢٩٨٤	الباب الثامن فيما عرف من أحوال
٢٩٨٦	الموتى بالكاشفة في المنام
٢٩٨٧	كلمة يسيرة في الرؤيا
٢٩٩١	بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى
٢٩٩٤	والأعمال النافعة في الآخرة
	بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم
٢٩٩٦	أجمعين
٢٩٩٧	الشرط الثاني من كتاب ذكر الموت في
٣٠٠٠	أحوال الميت من وقت نفخة الصور
٣٠٠١	صفة نفخة الصور
	صفة أرض المحتر وأهله
	صفة العرق
	صفة طول يوم القيامة
	تخفيف الانتظار عن المطيع لله
	صفة يوم القيامة ودواهيته واساميه
	اسامى يوم القيامة
	ابتداء الانبياء بالسؤال
	صفة المسائلة
	مشافهة المولى للخلائق يوم القيامة
	مخاطبة الرب للعبد
	معاتبة المولى للعبد
	اختلاء المولى بكل عبد على انفراده
	صفة الميزان
	صفة الخصماء ورد المظالم
	تعلق الظلومين بالظالم ومطالبته منهم
	المفلس من تعطى حسناته لخصومة
	الحث على العفو واصلاح ذات البين
	العاقل يحاسب نفسه قبل أن
	يحاسب
	٢٩٧٣
	٢٩٢٧
	٢٩٣٠
	٢٩٣٣
	٢٩٣٤
	٢٩٣٥
	٢٩٣٧
	٢٩٤٠
	٢٩٤٢
	٢٩٤٨
	٢٩٤٩
	٢٩٥٢
	٢٩٥٤
	٢٩٥٦
	٢٩٥٧
	٢٩٥٨
	٢٩٥٩
	٢٩٦١
	٢٩٦٣
	٢٩٦٤
	٢٩٦٥
	٢٩٦٦
	٢٩٦٨
	٢٩٦٩
	٢٩٧٠
	٢٩٧٢
	٢٩٧٣
	٢٩٧٤
	٢٩٧٦
	٢٩٧٨
	٢٩٧٩
	٢٩٨٢
	٢٩٨٤
	٢٩٨٦
	٢٩٨٧
	٢٩٩١
	٢٩٩٤
	٢٩٩٦
	٢٩٩٧
	٣٠٠٠
	٣٠٠١
	٣٠٠٣
	٣٠٠٥
	٣٠٠٦
	٣٠٠٧
	٣٠٠٨
	٣٠١١
	٣٠١٢
	٣٠١٤
	٣٠١٦
	٣٠١٧

## فهرست كتاب الاملاء

صفحة	صفحة
فصل في بيان اصناف اهل الاعتقاد ٣٠٥٢	كتاب الاملاء ٣٠٢٦
بحوث فقهية ٣٠٥٣	ما يحجب عن الحقيقة ٣٠٢٧
فقهيات عظيمة ٣٠٥٤	ذكر مراسم الأسئلة في المثل ٣٠٢٨
التحدث في التكفير ٣٠٥٥	المقدمة ٣٠٣٠
فصل ٣٠٥٦	السفر والطريق ٣٠٣١
بيان أرباب المرتبة الثالثة وهو توحيد المقربين	الحال ، المقام ، المكان ، الشطح ، الطوالع ، الذهاب ، النفس ، السر الوصل ، الفصل ، الأدب ، الرياضة التحلى ، التخلّى ، التجلى ، العلة الانزعاج ، المشاهدة ، المكاشفة ، اللوائح ، التلوين ٣٠٣٣
وعيد كاتم العلم ٣٠٥٧	الغيرة ، الحرية ، اللطيفة ، الفتوح ٣٠٣٤
مخاطبة الناس على قدر عقولهم ٣٠٥٨	الوسم والرسم ، البسط ، القبض الفناء ، البقاء ، الجمع ، الفرقة عين التحلم ، الزوائد ، الارادات المرید ، المراد ٣٠٣٥
المقربون وصفاتهم ٣٠٥٩	الهمة ، الغربة ، الاصطلام ، المكرم الرغبة ، الرهبة ، الوجد ، الوجود الوجد ، والوجود ، التواجد ، القاعدة الوصية ٣٠٣٦
امتيار اهل الكلام عن العوام ٣٠٦٠	ابتداء الاجوبة عن مراسم الأسئلة ٣٠٣٩
تفضيل المصلحة العامة على الخاصة ٣٠٦٢	بيان مقام اهل النطق المجرد وتميز فرقهم ٣٠٤٢
بيان المرتبة الرابعة ٣٠٦٣	فصل ٣٠٤٤
الصديقون وصفاتهم ٣٠٦٣	فصل ٣٠٤٥
كلمة في اتحاد الصفات ٣٠٦٤	سؤال ٣٠٤٨
فصل ٣٠٦٥	بيان اصناف اهل الاعتقاد المجرد ٣٠٤٩
فصل ٣٠٦٨	اهل الاقرار ٣٠٤٩
فصل ٣٠٧٢	اهل الاعتقاد ٣٠٥٠
فصل ، فصل ٣٠٧٣	اهل النظر مع التبليد ، اشكال الرد عليه ٣٠٥١
فصل ٣٠٧٥	استطراد ٣٠٥٢
عالم الجبروت ، عالم الملكوت ، فصل ٣٠٧٨	
فصل ، فصل ٣٠٧٩	
سؤال ٣٠٨٢	
فصل ٣٠٨٣	
فصل ٣٠٨٤	
كتاب تعريف الاحياء بفضائل الاحياء ٣٠٨٨	
المقدمة ٣٠٨٩	
المقصد في فضل الكتاب ٣٠٩٠	
فصل ٣٠٩٣	
فصل ٣٠٩٩	
خاتمة في الاشارة الى ترجمة المصنف ٣١٠٠	
رضى الله عنه ٣١٠٠	



## الشعب

٩٤ شارع قيسر الميمني بالقاهرة  
تليفون ٣١٨١٠









